الانتصار المقاوم

هوية الانتصار وتداعياته الإستراتيجية
(قراءات في العدوان الإسرائيلي على لبنان تموز ٢٠٠٦)



محمد حسين فضل الله

نعيم قاسم
رفيق نصر الله
هاشم صفي الدين
تيمور غوكسل
عبد الكريم الزبيدي
إدريس هاني
مصطفى الحاج علي
طلال عتريسي
علي يوسف
عبد الحليم فضل الله
علي الشامي
حسن حنفي
أمين حطيط
بلال التل
المصطفى المعتصم
وليد سكرية
محمد مورو
فتحي عبد العليم
خليل أحمد خليل
جورج حجار
غسان طه
عدنان حب الله
محمود حيدر
آمال الخزامي
محمد السعيد إدريس
فرانكلن لامب
نصري الصايغ
عزمي بشارة

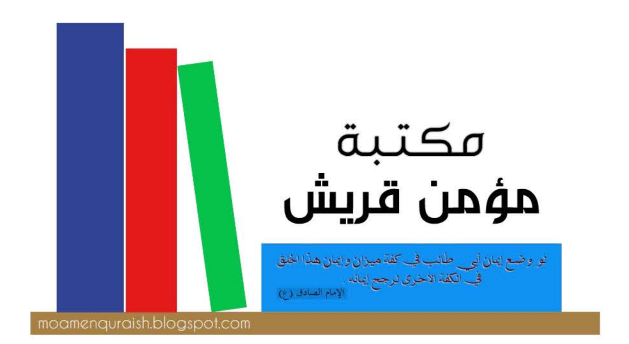


المركز الإسلامي للدراسات الفكرية

الانتصار المقاوم

هوية الانتصار وتداعياته الإستراتيجية

قراءات في العدوان الإسرائيلي على لبنان تموز ٢٠٠٦





الانتصار المقاوم

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

المركز الإسلامي للدراسات الفكرية

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة ١

المحور الأول

المرتكزات والمفاهيم التأسيسية للانتصار

- المقاومون البدريون وثقافة الانتصار الإلهي
محمد حسين فضل الله ____ ٩

- المرتكزات السلوكية للمقاصد التربوية عند حزب الله
نعيم قاسم ____ ١٩

- مرتكزات في ثقافة حزب الله
هاشم صفي الدين ____ ٤١

- المقاومة وإرادة الاستقلال والحرية
عبد الكريم الزبيدي ____ ٦٣

- الانتصار كمنتج للهوية ومحفز للنهوض
(هوية حزب الله الجهادية: قراءة في المكونات الأساسية)
مصطفى الحاج علي ٨٥

المحور الثاني

الانتصار والمشروع النهضوي

الانتصار في إطار المشروع النهضوي الإسلامي
علي يوسف ____ ١١٣

- الإمــام مــوسى الصــدر والمجتمــع المقــاوم
علــي الشـــامــي ١٣٥
- حقيقـــة انتصـــار المقــاومــة وعــوامــله
أمــيــن حطيـــط ١٤٧
- مـقـدمــات الـتحولات الجيـواسـتراتـيـجـيـة بـالمنطـقـة الـعـربـيـة
والإسـلاميـة بعــد الحــرب
مصطفى المعتصـم ١٥٩
- انتصـار حـزب اللـه في إطـار المشـروع النهضـوي الإسـلامي
محمـــد مـــورو ١٧٩
- في المقــاومــة والسيـــادة
خليـل أحمـد خليـل ٢٠٥
- الانتصـــار في إطــار المشـــروع النهضـــوي الإســلامـــي
غســـان طـــه ٢١٣
التبصُّر الخُلُقي كمكوِّن لميتا - ستراتيجيا المقاومة
محمـــود حيـــدر ٢٣٥

المحـور الثـالث

التداعيــات الدوليــة الاستراتيجيــة للانتصــار

- مستقبــل المشــروع الأمــريكي في الشـــرق الأوسـط بعــد الانتصـــار
محمد السعيد إدريس ٢٥١
- الانتصــار في الأدبيــات المحليــة سيـاسيـاً وإعـلاميــاً
نصــري الصــايــغ ٢٨٥

- **عوامل الانتصار في حرب تموز-الاحتضان الشعبي وتضحيات النفس**

رفيق نصر الله ٢٩٩

- **تأثير حرب تموز على الحروب المستقبلية لإسرائيل**

تيمور غوكسل ٣٠٧

- **من تداعيات الانتصار، نهاية عهد استراتيجيا المغامرة بالحرب**

إدريس هاني ٣٢٥

- **الحرب التي زحزحت قارات من أماكنها**

طلال عتريسي ٣٤٩

- **البعد المجتمعي للمقاومة**

عبد الحليم فضل الله ٣٦٧

المحور الرابع

المقاومة وحروب الشرق الأوسط الجديد

انتصار لبنان

حسن حنفي ٣٧٥

الانتصار في مواجهة المشروع الأميركي للشرق الأوسط الجديد، التداعيات وآليات التعامل معها

بلال التل ٣٩٣

الانتصار في مواجهة المشروع الأميركي للشرق الأوسط الجديد

وليد سكرية ٤٢٩

الانتصار المقاوم من المنظور السياسي لنظرية المباريات

فتحي عبد العليم ٤٤١

الانتصار وسقوط النموذج البديل

جورج حجار ٤٥٧

المحور الخامس

تأثير الانتصار على هزيمة الوعي الإسرائيلي

- التداعيات والعواقب النفسية للحرب على لبنان

عدنان حب الله ———— ٤٦٧

- الخطاب الإعلامي للمقاومة اللبنانية قراءة في خطب قائدها

آمال الخزامي ———— ٤٨١

- انعكاسات حرب تموز على الرأي العام الأميركي ودعم الكونغرس لإسرائيل

فرانكلين لامب ———— ٤٩٧

- تداعيات حرب تموز على المجتمع والدولة في الكيان الإسرائيلي

عزمي بشارة ٥١٩

مقـدمـة

«يعرف الشعب سر النصر، وستقرأ الأجيال أن ركنيه الأصليين هما: الدافع الإلهي، والهدف السامي،... واجتماع الشعب في جميع أنحاء البلاد مع وحدة الكلمة من أجل ذلك الدافع وذلك الهدف».

الإمام الخميني (قده)

إذا كانت الشهادة عنوان تضحية المجاهدين والمقاومين في سبيل الله، والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان...

يريدون بها تقديم الروح، عربون حب ووفاء لحياة أبدية، ولحياة عزيزة في الدنيا يهبونها إلى الناس الذين تُنتهك حقوقهم؛ وتمارس في حقهم أبشع صنوف القهر وصوره... فإن النصر هو غاية سبيل الطالبين للحرية والسؤدد والعدالة الشاملة...

فالنصر الإلهي في حقيقة معناه؛ هو قهرٌ لكل صنوف القهر، من أجل بناء قواعد الحق والعدالة والاستقلال...

وحينما يتحرّك النصر في دائرة إحداث التغيُّر النوعي في الوعي المهزوم عند الشعوب والأمم والجماعات.. فلا بُدَّ أن يتحضّر لمواجهة أصعب مراحل الحروب... التي تستجمع فيها قوى الباطل كل عدة المكر، والخديعة، والسياسات الزائفة؛ والتفرقة بين الإخوة، والتهديدات العسكرية والأمنية، بل وتستجمع فيها كل عديد الأساطيل، والجيوش، وجماعات الحمق المذهبي والسياسي، وحكومات النفاق السياسي الكيدي،.. لتدفع بها من أجل الاقتصاص من النصر كمعنىً، ومن المنتصرين كمقاومين شهداء، لا يبغون إلا الاستقلال والعدالة والحياة الكريمة أو الخالدة.. راجية بفعل «الحرام الجشع» الذي تمارسه، أن تجوِّف الذاكرة الدينية من معنى نُصرة الله للأحرار، والذاكرة القومية من معنى إرادة الاقتدار في صنع المستقبل، والذاكرة الوطنية من معنى الاستقلال، والعيش بأمان بين أهل الوطن الواحد.

وهنا تعود المقاومة المنتصرة في حرب تموز ٢٠٠٦م، لتخوض حرب الانتصار المقاوم على طول الطريق الذي انطلقت به من الدافع الإلهي، الذي لا يريد من الناس شيئاً سوى؛ أن يثقوا بربهم وبأنفسهم وبقوة الحق الذي يؤمنون به، ويتيقنوا عندها أنهم قادرون على اجتراح المعجزات.. لأننا بتنا في زمن بات فيه رفض الظلم يحتاج إلى إرادة معجزة؛ والخروج من دائرة الاستحواذ

الأميركي للعالم معجزة... ومواجهة إسرائيل معجزة... وتحقيق استقلالية في القرار الوطني، والدفاع عن الأوطان معجزة كبرى..

إنها معجزة الانتصار الذي يبدأ واعداً حينما تتحول ثقافة الشهادة وطلب الانتصار إلى عقيدة تربط بين الله والسالكين درب الجهاد، فيكون إيمانهم الثقة بالله وبوعده ويكون سلوكهم إرادة التحدي والرفض لما سوى الله، والتوكل عليه وحده سبحانه، ويكون إنجازهم النصر الإلهي الذي يعيد للإنسان التوازن في كرامته وحقوقه وعزته، ويعيد للسياسة قيمها المبنية على الحرية والحقوق والاستقلال، ويُعيد للسلاح والقوة معنى الحفاظ على الحياة وإرث الشهادة،... حينها لا بدّ من البحث عن النموذج الحي الذي تتمثله هذه القيم والمفاهيم، حتى إذا ما جاءت حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦ التي شنتها إسرائيل ومن خلفها الولايات المتحدة الأميركية والتحالفات الدولية ضد المقاومة الإسلامية في لبنان، تلك الحرب العدوانية التي واكبتها قلوب الملايين من المستضعفين والمسلمين والأحرار وكان عنوانها: «*إن تُهزم هذه الكوكبة، فلن يُعبد الله حق العبادة بعد اليوم، ولن يُستضاء بعدها بنور الحق والكرامة*»، وجاء الانتصار الإلهي الذي اعترف به العالم ولم يعترض على عنوانه إلا المهزومين في أنفسهم، الذين يقتاتون ويدمنون العيش على مآدب المظلمات والتبعية.

الانتصار الذي أثار في العقول أسئلة: ما الذي حصل في تموز ٢٠٠٦؟ وما هي عوامل الانتصار؟ من الذي انهزم؟ وما انعكاسات هذا الانتصار في المشروع المقاوم؟ وما تداعياته في هزيمة المشروع الأميركي والإسرائيلي في المنطقة؟ وأي ثقافة وإيمان وسلوك نهضوي وسياسي وفكري كرّسته معادلة الانتصار؟ وهل يمكن أن تستفيد الشعوب المستضعفة من تجربة ما حصل؟ وهل يمكن أن تكرر الشعوب تلك التجربة؟ هذه الأسئلة وغيرها ما سعينا لمعالجته في أبحاث كتاب «الانتصار المقاوم» والذي سنفرد له المحاور التالية:

أولاً: المرتكزات والمفاهيم التأسيسية للانتصار.

يُعنى هذا المحور باستكشاف المفاهيم التي أسّست لمعنوية النصر وثقافة الانتصار في حياة الجماعة المقاومة، مستلهماً مضامينه من الوعي لمضامين النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة، كما ووعي المجاهدين التاريخي فيه والمعاصر، بحيث يتكوّن وعي المفاهيم التأسيسية من العلاقة بين النص والواقع الجهادي للأمة.

ثانياً: الانتصاروالمشروع النهضوي

يُعنى هذا المحور بشكل خاص بدراسة المشروع النهضوي المعاصر، ويعمل على استكشاف مرتكزات هذا المشروع، وما أثمره في الوجدان الجهادي عند الأمة، والآثار التي ترتبت عليه في حركة الصراع ضد الباطل..

ثالثاً: التداعيات الدولية الاستراتيجية للانتصار

وفيه يتم البحث في عمق التحولات النفسية والاستراتيجية والتاريخية التي يمكن أن تتركها هذه الحرب؛ والنصر الذي حققته المقاومة في مجمل حركة الواقع السياسي والثقافي والحضاري الحاكم بعلاقة الأمم والشعوب اليوم.

رابعاً: المقاومة وحروب الشرق الأوسط الجديد

يتناول هذا المحور تداعيات الانتصار على المستويين الداخلي والخارجي وبصماته المباشرة على المشهد السياسي المرتبط بالفلك اللبناني وبالعدو والمنطقة عموماً، والتحولات التي قد نشهد الكثير منها في المستقبل الآتي...

خامساً: تأثير الانتصار على هزيمة الوعي الإسرائيلي

إننا إذ نعتبر هذا العمل البحثي متوجهاً إلى شعوبنا المستضعفة وإلى أصحاب الضمير الإنساني الحر في العالم.. فإننا نفخر أن يكون هذا الكتاب قد تم بمساهمات من أهل الفكر وقادة الرأي الذين نعتز بتواصلنا معهم على قاعدة واحدة من التوق للحرية وطلب العزة والاستقلال...

كما ولا بدّ من الإشارة إلى أن أكثر ما يجعل للفكر أثراً تغييرياً، هو حسّ المسؤولية؛ عند صاحبه وأفق الحرية الصادقة التي يتمتع بها.. وبما أن السادة والسيدات المشاركين في هذه الأبحاث هم أهل النهوض الحر الصادق والمسؤول.. فإن رأي أيٍّ منهم، وموقفه الذي عبَّر عنه في هذا الكتاب، إذ يمثله بشكل أساسي، فنحن نحترمه سواءً تقاطعنا معه في التفاصيل أم لم نتقاطع.. إلا أننا وكل هؤلاء الأحرار على نفس الغايات الجامعة؛ وهي إنجاز العدالة في الأمة، ووعي الواقع المحيط وعياً يؤسّس لبناء «نهج الاقتدار» في حياة الشعوب المستضعفة؛ اقتدارٌ يُحدث فيها تبدّلات نوعية في الموقف والإرادة، والتوجه والنظرة التقييمية للأمور..

وإذا ما قلنا هنا: «بناء نهج اقتدار» فلعلمنا أن عالمنا اليوم ينقسم في سماته وقيمه الثقافية والحضارية إلى أقسام ثلاث هي:

١- ثقافة قوة الاستحواذ المركزي الذي تمارسه الولايات المتحدة الأميركية ومن يدور في فلكها.. والذي تستخدم فيه كل عوامل العنف والإرهاب الدولي لتمارس سلطة استعمار استكبارية على الشعوب، فتستحوذ على حقوقها وأملاكها وخصائصها الروحية والثقافية والحضارية، لتجعل من تلك الشعوب مجرّد أشياء استهلاكية، لا تستطيع العيش خارج الفلك الاستحواذي الأميركي، وهنا تدخل إسرائيل كجزء من حركة هذه الثقافة والحضارة العنفية، الاستحواذية، التي تترأسها الولايات المتحدة الأميركية، والتي ذيّلت تبعاً لها جملة دول أوروبية وإسلامية وعربية، باتت تتعامل معها كتداعيات لتجلّي صورة حضارية أحادية تحكمها قوة البطش، وقيم العنف الأميركية - الغربية..

٢- ثقافة الهزيمة والهوان... وهي ثقافة تراكمت بفعل الهزائم المتتالية التي لحقت بالعالم الإسلامي والعربي، حتى أرادوا لشعوب هذين العالمين أن تعتبر أن قدرها هو التبعية، وأن أي فهم للذات خارج وعي هذه الهزيمة هو تنكر للحقائق، وتزييف للوقائع ومغامرة في الفراغ.. وبالتالي أخذ حكّام وقادة ثقافة الهزيمة على أنفسهم عهداً وقراراً حاسماً بممارسة صنوف الاستبداد والتجهيل في حق شعوبهم، بل وقمع كل حركات التحرر والنهوض في العالمين العربي والإسلامي. وصار عند هؤلاء التآمر ضد الانتصارات المقاومة للاحتلال؛ وطنية وعروبة، وصار نزع القداسة عن كل رموز صناعة المستقبل والتاريخ؛ ثورية؛ بل صار قتل الأمل والإبداع والحرية والاستقلال؛ يأخذ تسميات ثورية نضالية ووطنية،.. وكل هذا لأن جوهر الروح عند أتباع هذه الثقافة ترفض التفاعل مع روح النصر والاقتدار..

٣- ثقافة الاقتدار وصناعة التاريخ والحضارة...وهي ثقافة تحمل روحاً نبوية رسالية؛ تطمح دوماً لتجاوز حدود الأمر الواقع الذي يفرض نفسه على الناس؛ بغية الخروج بالناس من ظلمات الاستبداد والقهر والتبعية، إلى نور الهداية والحرية والاستقلال؛ وثقافة الاقتدار هذه تتفاعل مع أصلين مرجعيين في عملية النهوض وتغيير الواقع الظالم..

الأصل الأول، هو إجراء عملية استعادة الثقة بالذات، عبر ترسيخ مبدإ اليقين بالقدرة على إنجاز التغيير، وتطوير الواقع والوقائع.. وأصل اليقين بالقدرة، يتفرّع منه مستلزمات من معرفة الحقائق كما هي - قدر الإمكان - ؛ فأن يعرف المرء من هو؟ ومن الآخر؟ وما معنى القوة والضعف؟ وما هي الأسباب المولّدة للقوة والضعف؟ وكيف يتجاوز المرء العقبات؟ وما هي الأسس التربوية لبناء شخصية قوية، وقادرة، في الحياة والتاريخ؟ ثم تحويل هذه المعرفة إلى حياة من الإرادة الفاعلة والمؤثرة.. هذه التفرّعات العارفة المريدة هي التي تبني مشيئة الإنسان القادر على اجتراح المعجزات... وفي سبيل الله؛ وسبيل الله هو في الدفاع عن المستضعفين وحقوقهم... وإنما سمّي هذا الأصل بـ «القيام لله»... لأن صاحبه عندما يقتحم المخاطر والمصاعب، فهو ليس بوارد المغامرة.. بل إنه يعتمد في قيامه ونهوضه وحركته على مبدإ وأصل كل قوة واقتدار وعزة...، يعتمد على الله سبحانه، وبالتالي فحينما يعظم الله في قلب هكذا مقاوم، فإنه لا يرى في تعاظم الجبروت إلا فقاقيع مياه تطفو على سطح ماءٍ راكدة.. حتى إذا ما جاءتها ريحٌ عاتية، أو لعبت بها أمواج متلاطمة من القدرة المعتمدة على الله، والمترّسة بحصن الحق والحقيقة، جرفتها وأزالت معالمها، ذلك أن تصاريف الأيام علّمت القائمين بالله، ولله، وفي سبيل الله، أن الزبد يذهب جفاء، وأن الذي ينفع الناس هو ما يمكث في الأرض.. وهذه هي ثقافة المقاومة الإسلامية التي انطلقت منذ عام ١٩٨٢م.. والتي خاضت كل تجارب الابتلاء لتكون بعد عام ٢٠٠٠م.. وحرب تموز ٢٠٠٦م مصداقاً لنهج اقتدار إسلامي صنع المعجزات الإلهية، بصنع أمة مقتدرة مقاومة في ظل عالم محكوم لإرادة الاستحواذ الأميركي - وها هي النجاحات التي تدفع بها لإمامة العالم تتحقق تمثّلاً

بإسلامية أول من سمّى الناس بأهل الإسلام «إبراهيم أبو الأنبياء والأديان التوحيدية» الذي قال فيه الباري: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾... فبإخلاص المقاومة لله وللأمة حققت سر الانتصار الإلهي.. وهي تشق الطريق نحو صناعة حضارة اقتدار المستضعفين في الأرض، حضارة تؤمن بوحدة الحقيقة العملية الجامعة بين الأحرار في رفضهم للظلم، حتى ولو تعددوا في مبانيهم النظرية وانتماءاتهم السياسية، لأن التعددية السياسية والثقافية لا تلغي وحدة القيم في النظرة إلى الواقع بخيره وشره..

من هنا جاء هذا الكتاب رغم ما فيه من تعدد في انتماءات الباحثين فيه، واحداً في الموقف من ثقافة المقاومة وانتصار المقاومة، ورفض منطق الهزيمة وثقافتها.. حتى ولو طاب للبعض أن يطلق على ثقافة بعض المهزومين اسم أصحاب «ثقافة الحياة»؟ لأن الحياة لا تليق أصلاً إلا بالمنتصرين...

شفيق جرادي

المركز الإسلامي للدراسات الفكرية

المحور الأول المرتكزات والمفاهيم التأسيسية

■ المقاومون البدريّون وثقافة الانتصار الإلهي | محمد حسين فضل الله

■ المرتكزات السلوكية للمقاصد التربوية عند حزب الله | نعيم قاسم

■ مرتكزات في ثقافة حزب الله | هاشم صفي الدين

■ المقاومة وإرادة الاستقلال والحرية | عبد الكريم الزبيدي

■ الانتصار كمنتج للهوية ومحفز للنهوض (هوية حزب الله الجهادية: قراءة في المكونات الأساسية) | مصطفى الحاج علي

المقاومون البدريّون
وثقافة الانتصار الإلهي

مقابلة مع سماحة آية الله
السيد محمد حسين فضل الله*

سماحة السيد محمد حسين فضل الله؛ في هذا اللقاء سنتناول موقع الانتصار من خلال مجموعة من العناوين ذات طابع فكريّ وثقافي ودينيّ، سؤالنا الأول سماحة السيد:

❖ أدى تعبير ثقافة النصر الإلهي إلى فتح سجال أراده البعض منفذاً لتشويه عظمة الانتصار، فكيف تقرأون هذا النصر في بعده الديني؟

في أي معركة يخوضها المسلمون ضد أعدائهم، الذين يعيشون فكراً، لا يلتقي بالخط الإيماني، المنفتح على الله. لعلّ أيّ نصر يعيشه، هو نصر بشري بالمعنى المادي. هذه المسألة لأن المجاهدين هم الذين يمارسون المعركة بكل حركيّتها، وبكل قسوتها، وبكل اندفاعها، ولكن المسألة هي أن المقاوم أو المجاهد المسلم، ينطلق، وهو يفكّر بأنه يؤدي في المعركة صلاةً يتقرّب بها إلى الله، لأن الصلاة في معناها العميق، في كيان الإنسان، تمثل معراج روح المؤمن كما ورد في بعض الأحاديث. والإنسان المجاهد يشعر بأنه لا يعيش روحه بالمعنى المادي الذي يجعله يسقط أمام حالات الخطر الذي يتوجّه إليه في خوضه للمعركة، ولكنه يعيش روحه من خلال محبّته لله ورضاه عنه. لأن هذه الحركة الجهاديّة التي يمارسها ويخوضها، تمثّل نوعاً من أنواع الارتفاع إلى مواقع القرب من الله، ولذلك فإن تعبير أو مصطلح النصر الإلهي، ينطلق من خلال طبيعة الخلفيّة التي ينطلق منها المجاهد، على أساس أنه ينصر الله في حربه من حيث ينصر القيم التي أرادها الله، وينصر الأهداف التي أراد الله للمسلم أن يستهدفها، وينصر الساحة التي أراد الله لها أن تكون ساحة العدل والخير والحريّة والبركة؛ ولذلك فإنه يتقدّم في المعركة وهو يشعر أن الله معه وهذا ما نستوحيه من قوله سبحانه وتعالى:﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ**

❖ أجرى المقابلة: الأستاذ حسان بدير.

النّاسُ إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾[1]، أو قول النبي (ص) بمواجهة الخطر الذي كان يعيش حوله، في ليلة الهجرة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾[2]. وهكذا نجد ذلك في ما نستوحيه من قوله سبحانه وتعالى - وهو يتحدّث عن المجاهدين- الذين كانوا يتحركون أمام الأعداء، الذين لا تتوازن عمليّة ميزان القوّة في ما بينهم، وبينهم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاسُ إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾؛ حسبنا الله كأنهم ينطلقون على أساس أن الله معهم، وأنهم- وهم يمارسون كل ما لديهم من طاقة ومن جهد - فإنهم يتوكلون على الله في ذلك كله.

إن مسألة النصر الإلهي، هي المسألة التي يستوحيها المجاهدون من قوله تعالى:﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾[3]، فالمجاهد يتصوّر أن القضيّة ليست قضيّة جهده الشخصي، ولكن هناك ألطافاً إلهيّة ترتفع بجهده الشخصي لتمنحه طاقةً فوق طاقته، وحركة فوق حركته، فلذلك لا بدّ لنا، ونحن نريد إعطاء المعركة الجهاديّة التي عاشها الشباب المؤمن المجاهد، المقاوم، كلمة النصر الإلهي. ولا بدّ لنا أن نجعلها كلمة تنفتح على حركة المجاهد في تحريك طاقته ضد العدو وإعطاء كل نفسه للمعركة، ولكن من خلال أنه يتطلّع إلى لطف الله، وإلى رحمته، وينفتح على الرغبة في رضا الله سبحانه وتعالى. ولعل ذلك ما نستوحيه مما يرويه الإمام علي(ع) في معركة بدر أنه كان بين وقت وآخر يتفقّد النبي (ص) أثناء المعركة، فيجده ساجداً ويسمع منه أنه يقول: «يا عليُّ يا عظيم وكأنه يستجدي الله سبحانه وتعالى في علوّه وعظمته أن يمنح المجاهدين البدريين، كل هذا العلوّ الجهادي، في المعركة وعظمة الموقف.

❖حينما أطلقتم في أثناء الحرب صفة البدريين على الأخوة المقاومين.. ماذا كنتم تقصدون من رمزية هذه الكلمة؟

عندما كنت أخاطبهم، وأقول: أيها البدريّون، لم أنطلق من عاطفة، ولكنّي وازنت بين موقف أصحاب بدر وبين موقف المقاومة الإسلاميّة، فنحن عندما ندرس بدراً، فإننا نجد أن المناخ الذي كان يعيشه أعداء الإسلام من المشركين وفي امتداد واقع شبه الجزيرة العربيّة، الذي كان يرى أن القوّة في ميزان المشركين وأن المسلمين كانوا في موقع الضعف، وأن قريشاً هي الجهة التي تنتصر عندما تدخل أي معركة، ضد أي عدو لها، وهذا ما نستوحيه حتّى من بعض المسلمين من المهاجرين الذين قالوا للنبي (ص) عندما استشار أصحابه: «يا رسول الله إنها قريش، ما ذلّت منذ عزّت» بمعنى أنهم يتحدّثون عن أنّ قريش سوف تنتصر، وأن عليك أن لا تغامر في الموقف بالدخول في المعركة ضد قريش؛ لأن قريشاً سوف تحصل على عزٍّ جديد من خلال نصرٍ جديد في معركتها معك.

وهكذا، جاءت «بَدْر» من أجل أن تركّز ميزان القِوى لمصلحة المسلمين، أو أن تخلق هناك نوعاً من التوازن بين قوّة قريش وبين قوّة المسلمين؛ بحيث إن العرب أصبحوا يشعرون أن هناك

قوّتين، في شبه الجزيرة العربية، هي قوّة قريش وقوّة الإسلام في هذا المجال. وعندما ندرس واقع الشباب في المقاومة الإسلاميّة، فإننا نجد أن المناخ الذي كان يسود العالم العربي والعالم الإسلامي في الصراع العربي-الإسرائيلي أو الصراع الإسلامي- الإسرائيلي، أن المناخ الذي كان يسود المنطقة هي أنه هناك قوّة واحدة وهي قوّة إسرائيل التي تسندها بشكل مطلق قوّة أميركا في التحالف الإستراتيجي بين أميركا وبين إسرائيل. ولذلك، فقد كان العرب بشكل عام، وربما المسلمون بشكل عام أيضاً، يشعرون بأن أية معركة ضد إسرائيل من قبل أية جهة عربية على الأخص، سوف تكون القوّة فيها لإسرائيل باعتبار أن جيشها هو الجيش الذي لا يقهر.

وهكذا، انطلقت التجربة الإسلاميّة للمقاومة في هذه المرحلة، بعد أن كانت المقاومة الإسلاميّة قد حصلت على نصر سابق في سنة ٢٠٠٠، ولكن بشكل تدريجي، عمل على الضغط على إسرائيل بطريقة استنزافية من خلال المعارك الصغيرة، هنا وهناك حتّى شعرت إسرائيل، بأنها لن تستطيع الاستمرار في احتلالها لمنطقة الجنوب اللبناني.

لكن هذه المعركة كانت هي المعركة التي تخوض فيها المقاومة الإسلاميّة الحرب ضد إسرائيل كجيش يواجه جيشاً.

فالحرب التي كان يخوضها المقاومون الإسلاميّون، لم تكن حرب عصابات بالمعنى المتحرّك، بل كانت أشبه بحرب نظاميّة باعتبار أن المعركة كانت هي معركة المقاومين مع الإسرائيليين، وجهاً لوجه حيث تحتاج المعركة إلى قوّة وروحيّة عالية إلى جانب القوّة الماديّة.

ولذلك، فإن انتصار المقاومة الإسلاميّة على إسرائيل وهزيمة إسرائيل أمام المقاومة، أثبتت أن شبابها يملكون شجاعة الروح وصلابة الموقف وصمود الموقع، وفنيّة الحركة العسكريّة، والاطلاع على خلفيّات الأسرار العسكريّة والأسرار السياسية للعدو استطاعت أن تصنع قوّة جديدة عندما انطلقت لتهزم الجيش الذي لا يُقهر. ومما جعل إسرائيل تعترف بالهزيمة، ومما جعل الموقف بمثابة الصدمة للعالم المستكبر وفي مقدّمته أميركا التي كانت تنتظر أن تنتصر إسرائيل على المقاومة في عدّة أيّام، وكل عملاء الاستكبار الأميركي.

حتّى أننا كنا نلاحظ من خلال التأييد الواسع من أوروبا ومن العالم العربي الخاضع لأميركا، أن شباب المقاومة يواجهون حرباً عالميّة، من خلال المسألة السياسية في هذا المجال؛ ولذلك رأينا كيف أن العالم العربي والعالم انطلق بفعل هذه الصدمة الإيجابيّة التي أثبتت لكل شعوبنا العربيّة والإسلاميّة، بأن من الممكن أن تُقهَر إسرائيل وأن ينتصر المسلمون في أيّة مواجهة جديدة.

لذلك، فقد قمت بوازن بين الظروف التي تحرّكت فيها معركة «بدر» والظروف التي تحرّكت فيها معركة المقاومة، فرأيت أن الظروف هي الظروف، وأن الكلمة الرائدة التي قالها رسول الله(ص)، في مناجاته لربّه:«إن تَهْلِكَ هذه العصابة لا تُعبد وإن شئتَ أن لا تُعبد لا تُعبد»، إنها

كانت تمثل واقع نتائج المعركة.

فلو أن الإسرائيليين انتصروا على المسلمين في هذه المعركة، فلن تقوم للمسلمين قائمة؛ لأن الهزيمة المفترضة كان يمكن لها أن تضافر الهزائم العربية والإسلاميّة في المعارك مع إسرائيل في هذا المقام، وعند ذلك، يشعر العالم العربي والعالم الإسلامي بأن إسرائيل هي القوّة الوحيدة التي لا بدّ للجميع أن يخضعوا لها.

❖ إن في غالب التقييمات لهذه التجربة - أو لغيرها- يدور التركيز على البعد المعنوي للمسألة في صناعة القوّة، وسماحتكم طالما تحدّثتم عن منطق القوّة في الإسلام. فهل للثقافة من دور خاص في صناعة قوة الأمة والمجتمع؟

أنا لست ممن يشجّعون المبالغة في تقييم أو تقويم مثل هذه الانتصارات في المعارك؛ لأنها قد تجعلنا ننطلق في عالم التجريد الذي قد يوحي إلى أيّة تجربة جديدة بأن هذه الانطلاقة الروحيّة هي التي تمنح النصر، مما قد يعطل الكثير من عمليّات الاستعداد.

نحن نعرف جيداً أن الله سبحانه وتعالى، عندما عالج مسألة النصر والهزيمة فقد عالجها من خلال طبيعة القوانين الطبيعيّة في مسألة السّلم والحرب.

وهذا ما لحظناه، بالإضافة إلى بعض المعالجات التي ركّزت على مسألة الجانب الروحي في إطار الحركة الماديّة، فنحن مثلاً نقرأ في واقعة «بدر»: **﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾**(٤) مثلاً، ولكننا نقرأ مثلاً في معركة «أُحُد» كيف أن المسلمين انهزموا في الجولة الثانية بعد أن انتصروا في الجولة الأولى؛ لأنهم لم يأخذوا بأسباب النصر، ولم يتعاملوا مع عناصر القوّة في التخطيط العسكري للمعركة. وهكذا لاحظنا كيف يتحدّث الله سبحانه وتعالى عن نقاط الضعف التي عاشها المسلمون في معركة «الأحزاب» ومعركة «حُنين»؛ مما يعني أن الإسلام يؤكّد على المسلمين في كل معاركهم التي يواجهون فيها العدو أن تكون لهم الخطّة العسكريّة التي يلتزمون فيها الحدود التي تحقق النصر، وتمنع الهزيمة.

ولكننا ونحن ندرس مثلاً هذا النقد الإلهي - إذا صحّ التعبير- للمسلمين في معركة «أحد» وفي معركة «الأحزاب» وفي معركة «حُنين» نجد أن الله سبحانه وتعالى لا يُبْعِدُ المسألة الإيمانيّة الرُوحيّة عن حركة المعركة في هذا المقام.

فنحن نقرأ مثلاً في معركة «الأحزاب»: عن المؤمنين **﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إلاَ إيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾**(٥)؛ فهم في الوقت الذي عاشوا فيه الخوف بشكل فوق العادة من خلال سيطرة المشركين وحلفائهم ومحاصرتهم للمدينة، نجد أنهم واجهوا الموقف بكل قوّة الرضا، وقوّة التسليم بالأمر لله سبحانه وتعالى، مما يوحي بأن طبيعة شراسة المعركة أو بعض النتائج السلبية للمعركة لم تهزمهم، لم تهزم روحهم في هذا المقام ولذلك فنحن نؤكّد على نقطة أساسيّة هي أن أية حرب يخوضها المسلمون، لا بدّ أن تتزاوج فيها المسألة

الإيمانيّة التي تعطي المسلمين روحاً قويّة تنفتح على الله وتحوّل الإنسان إلى طاقة روحيّة عظيمة تستطيع أن تضاعف هذه القوّة الماديّة التي تحدّث الله عنها، عندما أراد للمسلمين أن يكون الواحد منهم بمثابة عشرة، ثم أن يكون الواحد منهم بمثابة اثنين، باعتبار أن الطاقة الروحيّة التي يملكها الإنسان المؤمن كأنه في طبيعة إيمانه بالله إخلاصه للهدف الذي تقود إليه المعركة يمكن أن يضاعف الجانب الروحي الإيماني.

إنني أعتقد أن قيمة الإسلام هي أنه يريد للإنسان أن ينظر إلى أنواع الحياة بعين ترتفع إلى الله سبحانه وتعالى لتطلب منه اللطف والرحمة وتزوّده بالنصر وتمنحه القوّة، وأن يأخذ بأسباب النصر الواقعيّة في حركته في المعركة لأن الله سبحانه يريدنا أن نؤمن بقانون السببيّة الذي جعله سبحانه وتعالى هو النظام الذي يشمل كل الظواهر الكونيّة والظواهر الإنسانيّة. وعلى ضوء هذا فنحن نعتقد بأن علينا أن نعطي المصطلح مثل مصطلح «النصر الإلهي» وما إلى ذلك، أن نحيطه بالعناصر التي لا تجعله مجرّد حالة إيمانيّة طائرة في الهواء، بل لا بدّ لنا من أن نجعله حالة تنطلق من جهد الإنسان ومن حركيّته ومن خبرته ومن الروح التي استطاعت أن تضاعف فيه كل عناصر القوّة التي يختزنها في نفسه.

❖ سماحة السيد، بناء عليه، إذا كان لهذه الثقافة الخاصة من مدخلية على المقاومة وإنجازات المقاومة، وهذا النصر الذي يتحقق، أود أن أنتقل منها نحو إشكاليّة وهي إشكاليّة مطروحة في الواقع ومفادها أن العنوان الأساسي لهذه المقاومة هو إسلاميّتها، وأن من خصوصيات هذه الأسلمة هي شيعيّة هذه المقاومة، بالتالي هناك بعض المجتمعات التي تخشى من أسلمة الواقع اللبناني مثلاً وتبحث عن ما يخبؤه هؤلاء الإسلاميون للواقع في لبنان، كما أن المنطقة الآن تخشى من ضمن ما تخشاه في هذا المجال مسألة شيعيّة هذه المقاومة وإمكانيّة تعميمها. كيف يمكن لنا أن نوائم ما بين متطلبات الواقع والبيئة التي تحتضن المقاومة، وبين الأهداف التي تصبو إليها؟

هناك فرق بين الأسلمة في أيّة حركة يتحرّك بها المسلمون، وفي أي بلد تختلط الاتجاهات الدينيّة بالاتجاهات السياسية هناك فرق بين الأسلمة التي تريد أن تسيطر على الواقع كلّه، بحيث تصادر كل الناس الآخرين لتربطهم بالدور الإسلامي بالمعنى الضيّق، الذي قد يحوّله إلى حالة الطائفيّة، وبين الأسلمة التي تحاول أن تنفتح على القيم الإسلاميّة التي تلتقي بالقيم الدينيّة لدى كل الرُّسُل ولدى كل الأديان، فنحن نعرف بأن ما يتحرّك به المقاوم المسلم إنما هو محبّة الله ومواجهة أعداء الله وأعداء الإنسانيّة.

وعندما ندرس المسألة في هذا الخط نشعر كأننا نلتقي مع كل القيم التي جاء بها السيد المسيح (ع) أو القيم التي جاء بها موسى (ع) في الخط الأصيل لليهوديّة الدينيّة أو التي جاء بها إبراهيم (ع) الذي قال له ربّه: «أسلم» قال: «أسلمتُ لرب العالمين».

فإن الأسلمة هنا هي أن ينطلق المجاهد في الروح القدّيسيّة التي يتحدّث فيها المسيحيون عن القدّيسين الذين يهبون كل حياتهم وكل روحهم لله سبحانه وتعالى؛ لأنه ليس هناك فرق بين أن تهب روحك لله وأنت تمارس عمليّة الخير في الحياة، أو بين أن تهب روحك لله وأنت تمارس عمليّة المواجهة للذين يصادرون إنسانيّة الإنسان ويُسقِطون روحه ويعملون على أساس تحريك كل قواعد الظلم فيه.

ولذلك، فإن إسلاميّة المعركة في هذا المجال التي انطلقت في مواجهة اليهود الذين هم في النظرة المسيحيّة، هم أعداء الإنسانيّة وأعداء الأديان بالرغم مما حدث من بعض التسويات التي حاولت أن تبرّئ اليهود مما حدث للمسيحيين في مدى التاريخ.

وهكذا عندما ننطلق نحن في مسألة شيعيّة المقاومة، فإن الشيعة انطلقت من البعد الإسلامي الروحي الذي تحدّث فيه الله سبحانه وتعالى عن الانفتاح على الله في المعركة، وعن حركيّة الإيمان في نفس المؤمن، وعن التجربة العاشورائيّة الحسينيّة التي ليست محصورة في دائرة ضيّقة على المستوى الطائفي. بل إننا عندما ننطلق نحن من موقف الإمام الحسين (ع) وتجربته في كربلاء المتنوّعة المتعدّدة في حركته الشخصيّة أو في المآسي التي أحاطت به فإننا نفتقد مع كل الناس في العالم، سواء كانوا مسيحيين أو كانوا علمانيين في المقام، عندما ينطلق الإنسان في حال الارتفاع في مستوى الموقف الإنساني أم الصّلب الذي يواجه جيشاً بمفرده من أجل القضايا الحيّة التي يُراد لها أن ترتفع بالإنسان في حياته. فلذلك فإن المشكلة في الذين يعبّرون بسلبيّة عن الإسلاميّة وعن الشيعيّة، أنهم يتحرّكون من خلال الزنزانة الطائفية ولا يتحرّكون من خلال العنصر القيمي الإيماني الذي يلتقي فيه الإسلام مع المسيحيّة، وتلتقي فيه الشيعيّة أيضاً مع العيسويّة وما إلى ذلك.

❖ سماحة السيد تفضّلتم في أحد المقالات بأن المقاومة هي جامعة الشعوب العربية وليس الجامعة العربية كيف تشرحون هذا القول؟ وكيف يمكن تعزيز المقاومة عربياً وإسلامياً؟

إن مشكلة الجامعة العربية أنها أُسِّسَت بقرار بريطاني يريد أن يجمع العرب في تلك المرحلة في جامعة واحدة ليصادر القرار العربي بشكل جماعي من دون أن يتحاور مع فريق دون فريق. إن الجامعة العربية لم تنطلق من إرادة عربيّة ومنفتحة على تأصيل مسألة العروبة في الارتفاع بالمستوى العروبي في أن ينطلق العرب ليؤكّدوا أصالتهم وليرتفعوا بأمتهم إلى أن تكون كما قال الله تعالى في القرآن: **﴿خير أمّة أُخرِجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾** لتكون أمّة رساليّة تحمل الرسالة إلى العالم كلّه، كما حملتها في الماضي.

ثم إن التطورات الدوليّة التي جعلت بريطانيا تنسحب من ساحة التأثير الدولي أعطت لأميركا هذا الدور، فأصبحت الجامعة العربيّة بشكل عام وخصوصاً بعد ولادة إسرائيل التي اعتبرتها

أمريكا القوّة الوحيدة في المنطقة، أرادت الجامعة العربيّة أن تتحرك في دائرة التخطيط الأمريكي، الذي يريد لاجتماعات الجامعة العربيّة أن تنفّذ كل الخطط في مشاريعه للمنطقة ولا سيّما في علاقة العرب مع إسرائيل، والتي وجدنا أنها تحركت من أجل الصلح مع إسرائيل بإشراف أمريكي، ولمحاولة اللهات وراء إسرائيل في مواقع الضعف العربي من أجل المفاوضات التي يلهث العرب وراءها، من دون أن يحققوا شيئاً.

إن الجامعة العربية سواء في بعدها التأسيسي، أم في تطوّراتها السياسية المستقبلية لا تمثّل الجامعة التي يمكن أن تحقق للواقع العربي القوّة و الحديّة والعنفوان، بل إنها أصبحت على العكس مجرّد تجمّع دول خاضعة للاستكبار الأمريكي، وأصبحت مشكلة للعرب بدلاً من أن تكون حلاً، وأصبحت تجمّعاً يعمل على أساس إسقاط الواقع العربي لمصلحة الواقع الدولي أو الواقع الإسرائيلي، بدلاً من الارتفاع به إلى الدرجة العليا.

أما تجمّع المقاومة الإسلاميّة سواء كانت في لبنان أو كانت في فلسطين، فإنها تمثّل جامعة الشعوب العربية التي تتطلّع إلى أن تنطلق من أجل تحقيق القوّة والحريّة والانتصار في المعارك المستقبليّة مع كل الأعداء، سواء كانت المعارك سياسية كما في المعركة مع أمريكا ومع حلفائها من أوروبا، أم المعركة العسكريّة كما في المعركة مع إسرائيل. لذلك نقول: إن الجامعة العربية هي جامعة الأنظمة العربية الخاضعة لأمريكا، وليس لها أيّة علاقة بالشعوب العربيّة، بينما المقاومة هي تمثّل جامعة الشعوب العربيّة التي تجمع العرب بأجمعهم كما تجمع المسلمين، وهذا ما لاحظناه عندما انطلقت الشعوب العربية والإسلامية لتقف مع المقاومة ولتصفّق لها ولتعتبر أنها صنعت لها التاريخ من جديد.

❖ سماحة السيد ما هو الدور الذي تضطلع به المرجعيّة الشيعيّة إذا ما تعرّض الشيعة بشكل عام لخطر على وجودهم؟

إنني آسف أن أتكلم أن المرجعيّة لا تزال في إطارها التقليدي الذي عاشته في التاريخ، والذي يعتبر أن علاقة المرجع بأتباعه ومقلّديه، هو أن يُطلق لهم الفتاوى ويعطيهم بعض التعليمات في الحقوق الشرعيّة.

لذلك فالمرجعيّة مرجعيّة فتوائيّة، ونحن نبحث عن مرجعيّة تنفتح على كل الواقع الإسلامي الشيعي لتجيب عن كل علامات الاستفهام التي يعيشها شباب الشيعة الذين أخذوا بأسباب الثقافة والعلم، وواجهوا التحدّيات الكبرى والتي أيضاً يعيشها الشيعة في العالم أمام التحدّيات التي واجهتهم ويُراد لهم أن يواجهوها.

ماهي الكلمة التي توجهونها سماحتكم إلى الأدباء والشعراء والمثقّفين والإعلاميين في ظل هذا المناخ العام، وفي ظل ما حدث في حرب تمّوز، وأين موقع هؤلاء في هذه المعركة؟

إننا نقول لكل الذين يحملون فكراً، ويحملون قلماً، ويحملون فنّاً، أن يدرسوا هذه التجربة

الفريدة في العالم العربي والعالم الإسلامي، ليعملوا على أساس أن يُعطُوا منهم لكل مفردات هذه التجربة، من أجل أن يؤصّلوا الجانب الفنّي في التجربة بعدما انطلق المجاهدون ليؤصلوا الجانب الواقعي للتجربة.

إننا نجد أن الشعراء والأدباء والفنيين يتحدّثون عن معارك التاريخ التي قد لا تحمل الكثير مما تحمله هذه المعركة، لذلك نقول لهم أن عليكم أن تعيشوا عصركم وتجربتكم وانتصاراتكم وهزائمكم في هذا المجال، لأن دور الأديب والشاعر والفنان والمثقّف، أن يعيش عصره وأن يعيش إنسانه وأن يعيش الواقع الذي ينفتح على المستقبل في مطلع الشمس.

ونقول للإعلاميين: إن الإعلام رسالة لأنه هو الذي يُبلِّغ الناس بالحقائق، وهو الذي يعطي الوعي للناس في طبيعة الأحداث التي تعيش في أوضاعهم وفي أمورهم، ولذلك فإنهم يحملون رسالة كبرى في أن يُقَدِّمُوا للناس الأحداث بطريقة أصيلة فنيّة ليستطيع الناس من خلالها أن يعرفوا الحدث من خلال خلفياته، ومن خلال ظروفه ومن خلال أهدافه ومن خلال ما يراد له أن يحقّقه من تجارب جديدة للإنسان وللمستقبل.

❖ كيف يمكننا قراءة نتائج حرب تموز وما عكسه ذلك على البنية الثقافية والفكرية والسياسية والاجتماعية للأمة؟

إن الكثيرين باتوا يدركون الآن أن عدوان تموز لم يكن يستهدف البنية اللبنانية أو بنية المقاومة في لبنان فحسب، بل كان يمثّل هجوماً وحشياً على بنية الأمة الثقافية والفكرية والسياسية فضلاً عن بنيتها الجغرافية، حيث إن الحديث عن تفتيت كان سيتبع هذا العدوان على مستوى المنطقة - في حال انتصرت إسرائيل - لم يكن حديثاً خيالياً، ولذلك فإن المقاومة في لبنان لم توقف جيشاً عند تخوم الجنوب اللبناني، ولكنها أوقفت اجتياحاً للأمة وأسقطت أهداف حرب عالمية تضافرت فيها جهود أميركا وأوروبا وكثير من الجهود العربية إلى جانب إسرائيل لكسر إرادة الممانعة، ولي ذراع العزة في الوطن والأمة.

إننا نلاحظ أن من بين المفاعيل العكسية للانتصار على إسرائيل في حرب تموز أن هذا الانتصار أخاف الكثير من المواقع العربية بكشف حالات الجبن التي اعترت بعض المواقع التي عاشت الذل في كل تاريخها، ولم تعتد على تضوع رائحة النصر، أو بفعل التواطؤ العلني مع أميركا والسري مع إسرائيل. وهنا يستطيع رئيس حكومة العدو أن يفاخر بأن هذه الحرب - الجريمة أسّست لحلف عربي مع إسرائيل ولمحور تلتقي فيه الشخصيات المخابراتية العربية الكبيرة مع قادة الموساد لتستمع منها إلى الخطط التي من شأنها إجهاض الممانعة والمقاومة في فلسطين ولبنان وبقية المواقع العربية والإسلامية.

ولذلك، فإننا نعتقد أن وزيرة الخارجية الأميركية التي أرادت للحرب على لبنان أن تكون المخاض لشرق أوسط جديد، حاولت طوال الفترة التي أعقبت إيقاف العمليات العسكرية، فتل

الانتصار أو محاصرته على المستوى العربي وعلى امتصاص مفاعيله ومنع العدوى اللبنانية من أن تتحول إلى حركة سياسية نشطة في العالم العربي، ومن هنا يمكن أن نفهم استدعاءاتها المتواصلة لوزراء الخارجية العرب، كما يمكن أن نفهم الحركة الأميركية في لبنان لمنع اللبنانيين من الاندماج في بيئة من الوحدة والحرية والاستقلال من شأنها أن تحمي الانتصار وتقدّمه كنموذج حيّ للأمة كلها.

إن من بين الأمور التي ينبغي ملاحظتها في مسألة حرب تموز العدوانية أن انتصار المقاومة جرى في عروق الشعوب العربية والإسلامية على مستوى الانفعال بالحدث، من دون أن يتحول هذا الانفعال الوجداني الطاهر إلى فعل سياسي متكامل أو إلى تفاعل كبير من شأنه أن يصهر الأمة ويخلق فيها حالة اندماج عربي وإسلامي هي في أمسّ الحاجة إليه في ظل الهيمنة الكبرى التي استهدفت ولا تزال تفتيتها مذهبياً وسياسياً وحزبياً، بل - على العكس من ذلك - رأينا أن ثمة عملاً خبيثاً يسعى لوضع الانتصار في الخانة المذهبية، ويعمل من خلال ذلك لتخويف فريق آخر من الأمة، ولمحنا شخصيات وطنية وإسلامية مرموقة ومحترمة ومشهوداً لها بالإخلاص والنزاهة تقع في هذا الفخ من حيث تدري أو لا تدري... ولذلك، فإنني أعتبر أن من أخطر ما تعرض له هذا الانتصار التاريخي من محاولات تشويه وتضليل، هي تلك المساعي التي عملت على مذهبته بعدما كان مصدر إلهام للأمة كلها، وبعدما تفاعل معه السنة أكثر من الشيعة، وبعدما وجد فيه كل أحرار العالم منطلقاً حقيقياً لهزيمة الشر والوحشية في العالم.

إنني أحذّر - في هذه الأيام بالذات - من خطرين دائمين: الأول: ويتمثل في إيحاءات بدأت تنطلق من هنا وهناك باتجاه المقاومة لتشكك في مصداقيتها وفي أصالة موقفها من العدو، ولتنزع عنها ثوب الإسلام والوطنية إذا لم تتعرض لقوات اليونيفيل. والخطر الآخر يكمن في محاولات تصوير سلاح المقاومة كخطر يجتذب العدوان الإسرائيلي من جديد، وبالتالي فلا بدّ من العمل للتخلص منه حتى نأمن شر إسرائيل.. إننا نقول لهؤلاء وأولئك: إن المقاومة في لبنان لا تمثل الصورة الأنصع لبنانيا وعربياً وإسلامياً على مستوى شجاعة شبابها ومجاهديها فحسب، بل تمثّل أيضاً المشهد الحي المتحرّك سياسياً والمسلّح بقدرة كبيرة من الوعي والخبرة والتخطيط، وكذلك في تشخيص العدو جيداً وفي رصد خطط إسرائيل، ولذلك نريد للجميع أن يرفدها ويقدّم لها الدعم السياسي والمعنوي والمادي وعلى الأقل ألا يضع نفسه في الموقع المعادي لها من حيث انتبه أم لم ينتبه... كما نريد للذين يخوّفون الناس من الحرب القادمة ألا يخلطوا بين الإعداد لكسر خطط العدو وبين فوضى الكلمات والمواقف التي قد تهزم بعض المواقع في الأمة على المستوى الشعوري والنفسي، فنحن نعرف أن العدو يرمّم جيشه ويحاول تصحيح وضعه ويخطط لاسترجاع هيبته، ولكننا ندرك - في المقابل - أنه قد يسقط في المتاهة الاستراتيجية الكبرى إذا أقدم على حماقات جديدة، ولذلك، فإن المطلوب هو الحذر والوعي وعدم الانهزام أمام المشاهد الدعائية المعادية التي تنطلق من هنا وهناك.

الهوامش:

[1] سورة آل عمران، آية ١٧٣.

[2] سورة التوبة، آية ٤٠.

[3] سورة محمد، آية ٧.

[4] سورة آل عمران، آية ١٢٢.

[5] سورة الأحزاب، آية ٢٢.

المرتكزات السلوكيـــة للمقــاصد التربويــة
عنــد حــزب اللـــه

نـائب الأمين العام لحزب الله
سماحـة الشيـخ نعيـم قـاسم

أول الطريق حسمُ الاتجاه، فهو الأساس الذي تُبنى عليه القواعد والتفاصيل، وقد انطلق حزب الله باختيار الإسلام عقيدة وشريعة، والالتزام به كمشروع متكامل في الحياة﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾(١)، فهو يُغنينا عمَّا عداه ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ**﴾(٢)، ويؤدي إلى كمال البشري الكمال الموجّه.

هذا الدين عبادة لتوجيه السلوك في الحياة الفردية والعامة، ونظام للأسرة والمجتمع والدولة، وسياسة لشؤون الأمة العادية والمصيرية. لا تصح محاصرته بين الجدران، ولا يمكن تعميمه بالإلزام، ولا نحقق أهدافه إلاَّ إذا اعتمدنا الفهم الشرعي المواكب لحيوية النص ومتطلبات الحياة، وفق أسس الثابت من النص بالمحافظة على ثباته، والمتغير منه بدراية وحكمة مواكبته.

هذا الدين تزكية للنفس في مواجهة أوامر السوء الصادرة عن وسوسات النفس والمخلوق، ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ* الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ* مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾(٣)، وعزة للمؤمنين في مجتمعهم ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾(٤)، ورفض للركون إلى الظلم والعدوان والاحتلال، ﴿**وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ**﴾(٥).

هذا الدين جهاد وتضحية، وأمل بنصر الله وتحقيق وعده في الدنيا والآخرة:﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾(٦).

هذا الدين طاعة وانقياد وتسليم، بعد إيمان واعتقاد، للتمحور حول القيادة الأصيلة المجاهدة القادرة على تطبيق تعاليم الدين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾(٧).

على أساس هذا الفهم والالتزام، بنى حزب الله مرتكزاته السلوكية، فسبق أداؤه تنظيره،

وتحققت الممارسة العملية قبل التقنين والتأطير، وتوضَّح المسار الجهادي والأخلاقي بسرعة فاقت الحديث عنهما، فكان أمام تجربة عملية لم يتسنَّ للقيّمين عليها أن يمهّدوا لها بنقاشات نظرية ومؤلفات، لكنهم استفادوا من الرصيد الإسلامي العظيم لنبينا(ص) وأئمتنا(ع) وعلمائنا المجاهدين، وما بثَّه قائد الأمة الإسلامية الإمام الخميني (قده) ومن بعده الإمام الخامنئي(حفظه الله) في مسيرة الحزب، وما تمت الاستفادة فيه من تجربة الحرس الثوري الإسلامي الإيمانية والجهادية، وما راكمته التجربة الحيَّة من بلورة لرؤى واكتشاف لأساليب عزَّزا ما نراه اليوم من خصوصيات للمقاومة الإسلامية في لبنان.

سأحاول في هذا البحث أن أحدِّد بعض المرتكزات التي تحقق أهدافاً تربوية فعلية، من دون ترتيبها بحسب الأولوية أو الأهمية، فالترابط والموازاة بينها يُفقدان القدرة في كثير من الأحيان على التحديد القطعي للأسبقية، وإن كان بروز أهمية بعضها غير خاف في طيات الكلام عنها.

أولاً-التربية الجهادية.

اقترن تأسيس حزب الله بقتال إسرائيل، إثر اجتياحها للبنان عام ١٩٨٢، ولم يكن شعار الجهاد نظرياً، بل أراده المؤسسون حقيقة واقعية محورية، فانصبَّت كل الجهود للتأكيد عليه، بل اعتبرت جميع الأنشطة الأخرى كالعمل السياسي والاجتماعي وغيرهما عوامل مساعدة لمساندة العمل الجهادي، خاصة أنَّه انطلق من أمرين:

الأول: احتلال الأرض، والقناعة بأن تحريرها لا يتم إلاَّ بالمقاومة.

الثاني: التكليف الشرعي، في إعلان ولي الأمر الإمام الخميني(قده) وجوب قتال إسرائيل وطرد الاحتلال، فتحققت بذلك مشروعية القتل والقتال، وتعلقت المسؤولية في رقاب المؤمنين القادرين على ذلك، ولا ريب في أجر الشهادة للمجاهدين في هذا السبيل.

وقد قرر الحزب خطوات عدة لتحقيق هذا الاتجاه:

١- اشتراط الخضوع لدورة عسكرية كشرط من شروط العضوية في الحزب، سواء أكان متفرغاً ام تعبئة، كي يمتلك الحد الأدنى من القدرة على القتال، ليساهم في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي بحسب قدرته ومهمته.

٢- خضوع جميع المتفرغين وأفراد التعبئة لنظام المرابطة، الذي يحدد الفترة الزمنية للمشاركة العسكرية الميدانية في الخطوط الأمامية أو الخلفية، والتي لا تستلزم ترك عمل الفرد المعيشي، لكنَّه يكون جزءًا من الاحتياط الذي يأخذ موقعه وتحدد مهمته أثناء الحرب. ولا يخفى ما لهذه المشاركة من أثر تربوي ومعنوي في تعزيز الروح الجهادية، وفي الشعور بالمساهمة الميدانية، وقد عبَّر الكثير من الإخوة المرابطين عن أهمية الشحنة الإيمانية التي تزوّدوا بها خلال برامج المرابطة وأجوائها.

٣- تمييز المجاهدين المتفرغين للعمل المقاوم بالعناية والاهتمام والتقدير وبعض الاهتمامات

الأخرى، واعتماد الدورات والنجاح الميداني كسلّم للترقية في مواقع المسؤولية في الجسم الحزبي.

٤- إعطاء الفرصة للمناصرين للخضوع لدورات عسكرية محدودة أو المشاركة في المرابطة، فلا يقتصر الأمر على التدريب العسكري فقط، بل يواكبه برنامج ثقافي وإيماني يؤثر بشكل واضح في تربية الأفراد.

٥- الخطاب العام لقيادة ومسؤولي حزب الله، والذي يحمل نفساً تعبوياً جهادياً مضافاً إلى التحليل السياسي وشرح الموقف، ولا يخلو خطاب أو توجيه من الحديث عن الجهاد والمقاومة، وآثارهما الدنيوية والأخروية، مع تقديم الأمثلة والشروحات والأدلة الواقعية لإثبات المدَّعى وترسيخه في النفوس.

٦- الاهتمام بآيات وروايات الجهاد من القرآن الكريم والسنّة الشريفة للنبي(ص) والأئمة(ع)، وإعطاء الدروس الخاصة والعامة التي تتحدث عن هذا الموضوع من جوانبه المختلفة، في المساجد والحسينيات والمراكز والدورات الثقافية والعسكرية.

وقد بلغ حجم الاهتمام بالتربية الجهادية في سنوات التأسيس الأولى، إلى رفض توصيف حزب الله بأي وصف آخر غير: «الحركة الجهادية»، للتأكيد على أهمية الجهاد، ولتثبيته في خط حزب الله، وللمخاوف على مستوى الاهتمام بالعمل الجهادي من أن يتأثر بسبب حجم التضحيات من جهة، وقلة المناصرين والمؤيدين من الناس من جهة أخرى، إضافة إلى جاذبية العمل السياسي والاجتماعي في الاستقطاب والمقبولية.

كان «التخوف في بداية الأمر، من ضياع المقاومة عند الاهتمام بالعمل السياسي، بأن تستدعي متطلبات العمل السياسي تنازلات ومراعاة في الأداء المقاوم، الأمر الذي يسيّس المقاومة في دائرة الحرص على العلاقات ومطالب الأطراف. وقد زال هذا التخوف بعد أن قوي عود المقاومة وأثبتت نفسها وحضورها، وتركّزت صياغة تعريف حزب الله بما يقطع الجدل ويحسم العلاقة بين الجهادي والسياسي فـ «حركة حزب الله حركة جهادية، هدفها بالدرجة الأولى جهاد العدو الصهيوني»، و«أنَّ الجهد السياسي الذكي والحكيم يستطيع ويجب أن يكون السند والدعم لهذه الحركة الجهادية»[٨].

أثبتت تجربة العمل الجهادي: قدرته التعبوية الكبيرة التي طالت شرائح المجتمع المختلفة، وأسبقيته على الأبحاث النظرية البحتة في تحشيد الطاقات، وجاذبيته في الاستقطاب، وصلابته مع التضحيات وعطاءات الشهداء، وقد لاحظنا النمو السريع في الساحة والميدان أكثر مما كنا نتوقع من خلال القراءة والتحليل. وازداد هذا الأمر مع الانتصارات التي حققتها المقاومة الإسلامية في عدواني تموز ١٩٩٣ ونيسان ١٩٩٦، وبعد ذلك من خلال الانتصار الكبير بتحرير الأرض في أيار ٢٠٠٠.

ساهمت النظرة إلى الشهادة والشهداء، وتكريم الشهداء، والاهتمام بعوائلهم، في إرساء الرغبة بالشهادة عند الشباب، وتقديم الجسد لعلو المقام الأخروي، وتحقيق أهداف الأمة في

الدنيا. وتحولت الشهادة إلى مفردة طبيعية بل مطلوبة، حتى أن الشباب تمنوا تحقيقها في محطات مختلفة من أدائهم، وبكى بعضهم عند قلة فرصها، وأصرَّ البعض الآخر على تقديمه في العمليات الاستشهادية، بل وصل الأمر إلى مطالبة أخواتنا بالسماح لهن للاستشهاد، وتحولت الشهادة إلى عز في العائلة، يحمله الطفل كعنوان دافع للمزيد من الجهد أملاً بالتوفيق إليها عند شبابه، وتتحمل المرأة نتائجها طلباً للأجر والرضا الإلهي. فثمار التربية الجهادية على الشهادة فعالة في رفد المسيرة بالمزيد من العطاء، وفي حمايتها عند كثرة التضحيات.

أحدثت التربية الجهادية تغييراً بنيوياً في الشخصية الحزبية والمناصرة، وأثَّرت على نمط التفكير والفهم السياسي، وقدَّمت نموذجاً في الأداء الإسلامي، وحققت فرادة طبعت حزب الله بطابعها ما ميَّزه عن غيره من الحركات الإسلامية بوضوح خصوصيته الجهادية وانعكاساتها، وأدَّت إلى اندفاعة الشباب نحو العطاء والتضحية، كما أثرت في الواقع العام المحيط بالحزب في تعديل اتجاه الاستكانة والقبول بالأمر الواقع إلى الاستعداد للرفض والمساهمة بدرجة ما في مواجهة أعباء الاحتلال.

ثانياً- ولاية الفقيه.

تحتاج الجماعة والأمة إلى قيادة توجهها وترعى شؤونها، وذلك من موقع المسؤولية وعدم الاكتفاء بالنصيحة والإرشاد عن بُعد. فقد بلَّغ رسول الله شريعة السماء، وأوصل ما أراده الله من أوامر ونواهي الإسلام إلى البشرية، فمن ارتبط بالإسلام أخذ عنه كما أخذ عن القرآن الكريم: **﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنهُ فَانتَهُوا﴾**[9]، وفي آنٍ معاً قاد المسلمين في حروبهم ودولتهم وتنظيم شؤونهم العامة ليحكموا بما أنزل الله: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُون﴾**[10] ثم ناب الإمام المعصوم عن النبي في مهامه، ولا بدَّ أن ينوب الفقيه بعد ذلك لتستمر المسيرة وإلاَّ حصل فراغ وتشتتت الأمة. يقول الإمام الخميني(قده): «فتوهُّم أن صلاحيات النبي (ص) في الحكم كانت أكثر من صلاحيات أمير المؤمنين(ع)، وصلاحيات أمير المؤمنين(ع) أكثر من صلاحيات الفقيه، هو توهُّم خاطئ وباطل. نعم، إنَّ فضائل الرسول(ص) بالطبع هي أكثر من فضائل جميع البشر، لكن كثرة الفضائل المعنوية لا تزيد في صلاحيات الحكم. فالصلاحيات نفسها التي كانت للرسول(ص) والأئمة(عم) في تعبئة الجيوش، وتعيين الولاة والمحافظين، واستلام الضرائب وصرفها في مصالح المسلمين، قد أعطاها الله تعالى للحكومة المفترضة هذه الأيام. غاية الأمر لم يعيِّن شخصاً بالخصوص، وإنما أعطاه لعنوان العالِم العادل»[11].

من الخطأ تصور دور الولي الفقيه في المواقع التنفيذية التفصيلية، لأنَّه يرسم الخط العام ويعطي الشرعية للاتجاه، ثم تتحمل الجهات والقيادات المعنية مسؤوليتها بالكامل بحسب أنظمتها التفصيلية وإدارتها المنسجمة مع ظروفها وواقعها.

إنعكس الالتزام بولاية الفقيه على أداء الحزب بتحقيق نتائج أبرزها:

١- تحديد مسار الأهداف والوظائف المترتبة على الخط العام للحزب، ومسؤولية الأفراد تجاهه عند الانضواء تحت لوائه.

٢- اكتساب شرعية العمل الجهادي والسياسي والتنظيمي، والرؤية المتبناة من قبل قيادة حزب الله، مع كل ما يترتب عليها من آثار، وارتفاع القلق عن المسؤولية ومدى تحملها أمام التطورات والأخطار المحدقة، والاطمئنان إلى المكاسب العملية للالتزام بهذا التكليف الشرعي مهما كانت النتائج.

٣- حسم الجدل والاختلاف في المنعطفات بسرعة وتسليم، وذلك بإبداء وجهات النظر والنقاش بنقاط الخلاف، ثم الحصول على الموقف الشرعي للقضايا الكبرى الأساسية، ما جعل لكل معضلة حلاً، وهذا ما أراح القيادة في اللحظات المصيرية، وأراح القاعدة بالاطمئنان إلى سقف القرارات المتخذة.

٤- الالتزام بأوامر القيادة الفعلية للحزب، والمتمثلة بأمينها العام وقيادة الشورى، واعتبار هذا الالتزام تكليفاً شرعياً يتطلب من كل الأعضاء تنفيذه ضمن القنوات التنظيمية المعتمدة، حيث يتم إبداء الرأي ومناقشة وجهات النظر المختلفة، ويعود الحسم في نهاية المطاف لقيادة الشورى، ليصبح قرارها ملزماً للجميع.

إنَّ التعود على الطاعة والالتزام بالتكليف داخل الحزب، قد حقَّق التماسك الداخلي من ناحية، والقدرة على تنفيذ التوجهات القيادية من ناحية أخرى، على الرغم من احتمال وقوع بعض الأخطاء في ممارسة الآمرية على الأفراد وفي بعض المواقع المسؤولة، حيث يمكن معالجتها عند اكتشافها، لكنَّ الإيجابيات التي تحققت من الالتزام والطاعة، جعل البنية التنظيمية متماسكة، وتمّ تجاوز أخطار التفكك الناشئة عن الجدل والتباين في الآراء. فمحلُّ النقاش داخلي وفي دوائره المناسبة، على أن يخرج الجميع بأداء موحد عند إعلان الموقف وممارسة مستلزماته المنسجمة معه في الواقع العملي.

لا توجد جماعات متعددة أو أجنحة متصارعة أو اتجاهات فكرية وسياسية وجهادية مختلفة داخل الحزب، بل مواقف واحدة يعبِّر عنها الأفراد بحسب إمكاناتهم، ولم تُصبْ التحليلات الصحافية أهدافها عندما حاولت إظهار وجود تباين أو اتجاهات مختلفة. هذا التماسك الصلب والانضباط العام والصورة الواحدة نتاج الإيمان بفكرة ولاية الفقيه ووجوب الالتزام بالتكليف، وهو ما انعكس في تفاصيل الطاعة والانضباط على مستوى عناصر الحزب كافة.

ثالثاً- حب الرسول(ص) وآل البيت(ع).

يشكل الحب الدافع للعمل الذي يرضي الحبيب مهما كان صعباً وشاقاً، وتأكيد الله تعالى على أولوية محبته في مقابل محبة الأمور الدنيوية دفعٌ باتجاه الاستماع لأوامر الحبيب برضى وفعالية، وإلاَّ فالخسارة واقعة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(١٢)، ولا بدَّ أن ينعكس هذا الحب على العلاقة مع الرسول(ص) والأئمة(ع) فهم القدوة والقادة، ومن معينهم نستمد العزيمة والإقدام، قال رسول الله(ص):«أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله عزَّ وجل، وأحبوا أهل بيتي لحبي» (١٣). فالحب ارتباط ومسار وليس مجرد علاقة عاطفية عابرة.

إهتم الحزب بتأجيج العلاقة العاطفية مع الرسول(ص) وآل بيته(ع)، من خلال إحياء ذكريات ولاداتهم ووفياتهم، والمناسبات الرئيسة التي ميَّزت مسيرتهم، كذكرى المبعث النبوي الشريف، وشهر رمضان بمضمونه ومناسباته، وعيد الغدير، وعاشوراء، ويوم ولادة الإمام المهدي(عج) بخصوصيته المستقبلية، وشجَّع على زيارة المراقد الشريفة للأئمة(ع)، وساعد في توفير فرصة الحج لعدد من الشباب، واعتبر إحياء الشعائر في أجواء جماعية عاملاً مساعداً في التعبئة الثقافية والروحية.

ولا يخفى أهمية الأجواء التي توفرها هذه المناسبات، فعاشوراء مثلاً، محلّ اهتمام واسع عند الحزب في القرى والبلدات وفي أحياء المدن الكبرى، وهي تشمل الرجال والنساء والأطفال، وتتم العناية بنوعية القراء ومضمون القراءة لتوفير المخزون المعرفي المناسب واستدرار الدمع المغذي للعاطفة والحب. عاشوراء بما تحمل من وعي إسلامي أصيل وموقف جريء وشهادة في سبيل الله وقدرة مميزة، شكَّلت الحاضنة التربوية الرئيسة لأعداد كبيرة من روَّاد مجالس عاشوراء، وأدَّت إلى تعزيز الحالة الجهادية على المستوى العملي، ورفدت المسيرة بمحبي الجهاد والمجاهدين، فبركات عاشوراء أكثر من أن تحصى، إذ يكفيها ما تعبِّر عنه من استمرارية للرسالة المحمدية الأصيلة، فعن الرسول(ص):«حسين مني وأنا من حسين، أحبَّ الله من أحب حسيناً»(١٤).

وتستحوذ ذكرى ولادة الإمام المهدي(عج) على الاهتمام الاستثنائي؛ لأنه صاحب الراية المنتظر من سلسلة الأئمة الأطهار(ع)، ويتجاوز الاهتمام يوم الخامس عشر من شهر شعبان المبارك إلى إحياء هذه الفكرة وتأكيد هذا الانتظار من خلال عناوين عدة منها: تسمية الدورات الثقافية التي تُعطى للمحازبين والأنصار بمستوياتها الثلاث باسم الإمام المهدي(عج): جنود الإمام المهدي(عج)، وأنصار الإمام المهدي(عج)، والممهدون، ليعيش المشارك في هذه الدورات خطوات سيره في الإعداد الثقافي والروحي نحو انتمائه وارتباطه بحركة الإمام المهدي(عج) عند ظهوره الشريف، وتسمية كشافة الإمام المهدي(عج)، ومدارس الإمام المهدي(عج) التعليمية، وذكر الإمام في استهلال الخطب أو في أثنائها، والتأكيد على أن عمل المقاومة الإسلامية يصبُّ في مشروع الإمام (عج)، وأن الولي الفقيه الإمام الخامنئي(حفظه الله) ومن قبله الإمام الخميني(قده) نائب الإمام المهدي(عج) ليسلمه الراية في حال ظهوره وهو يحملها كقائد للأمة

الإسلامية، وكثرة اللهج بذكره وتأكيد الانتماء إلى مسيرته وقيادته.

هذا التركيز على النبي وأهل البيت(ع) يعزّز الارتباط بالقدوة الحسنة، ويستمد من تجاربهم وعطاءاتهم ما يناسب ويحاكي تطلعات وقدرات وانسجام المؤمنين على اختلاف أمزجتهم حيث يختارون ويأخذون من هذه الثلّة المباركة ما يؤنسهم ويعينهم في حياتهم وأدائهم، فتنوع أدوار النبي والأئمة(ع) يغطي كل الاختيارات ما يساعد على استفادة الجميع من قدوتهم.

وهل يؤدي هذا التركيز العاطفي إلى إهمال الجانب الفكري والثقافي؟ لا، فالعمل الثقافي الدؤوب والمتواصل بإقامة الدورات والندوات والمحاضرات والمؤتمرات، الخاصة والعامة، وبناء المساجد والمجمعات الثقافية مع ما يستلزم ذلك من وجود لعلماء مربين ومتابعين، وإصدار الكتيبات والمؤلفات الميسَّرة لتكون في متناول الجميع من خلال جمعية المعارف الإسلامية ومعهد سيد الشهداء ومركز الإمام الخميني الثقافي، والتي تطرح العناوين المتنوعة ذات الاهتمام التربوي والأخلاقي والروحي والجهادي، كل ذلك وغيره معه يحقق التوازن الموضوعي الذي يريده الإسلام في بناء الشخصية المتكاملة بالعلم والتزكية، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[١٥].

إضافة إلى ذلك، فقد وضع الحزب الضوابط التي تمنع استثمار هذا الاتجاه نحو الغلو، وعبَّر عن ذلك بتوجيهاته وسياساته العامة في التأليف والقاء المحاضرات ومجالس العزاء، واتخذ سلسلة من الإجراءات لمنع المخالفة وحماية الجسم التنظيمي مما يمكن أن يرد إليه من بعض الأجواء المحيطة بعناصره، وهو بذلك يؤكِّد على أن الشريعة واضحة في معالمها وتوجيهاتها، ولا يحتاج المؤمن إلاَّ للالتزام بها بحسب القواعد المعتمدة لتحديد الأوامر والنواهي، ليصل الفرد إلى أعلى المستويات الثقافية والروحية والجهادية من دون الحاجة إلى الزيادات غير المنصوص عليها واعتماد الطقوس والروايات غير المؤكدة.

رابعاً- الأنشطة الاستقطابية.

توجَّه الإسلام إلى المجتمع بأسره، فلحظ التشريع في تفاصيله جميع الأفراد، ولم يترك مرحلة من المراحل العمرية إلاَّ وشملها برعايته واهتمامه، فتفاوتت الصلاحيات والمسؤوليات بحسب الطاقات والأدوار، قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَ وُسْعَهَا﴾[١٦]، وقال رسول الله(ص): «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته». فمن أراد الانسجام مع القاعدة التي رسمها في الالتزام بالإسلام، كان عليه أن يرعى جميع الناس ويحاكي متطلباتهم ويشملهم بخططه وبرامجه.

قرر حزب الله أن يعمل بشمولية مع أفراد المجتمع، فهو ليس حزباً للنخبة ليضم في صفوفه العلماء والكوادر والمثقفين فقط، وليس حزباً عسكرياً يهتم بالقتال والمقاتلين فقط، وليس حزباً للتوعية العامة والتربية الأخلاقية ليبثّ مبلغيه ويكتفي بالوعظ والإرشاد فقط، وليس حزباً للزعيم

يربط الناس بالقيادة فقط،وليس حزباً سياسياً يجمع الناس من دون الاهتمام بالتزامهم الديني فيكتفي بتأييدهم في مواقفه فقط، إنَّه حزب الناس جميعاً،بحيث يشعر الطفل والشاب والشابة والرجل والمرأة والمثقف والعادي...بأنهم جزء من مسيرة هذا الحزب، وهم معنيون بإنجاحه والمشاركة في تحقيق أهدافه، وهو حزب إسلامي يُعبِّر عن اهتمامات الأمة كافة، صغيرها وكبيرها على حد سواء.

إذاً، كيف تتحقق هذه الرؤية في إطار تنظيمي متكامل تتوزع فيه الأدوار والمسؤوليات؟ لا يمكن الاعتماد على صيغة تنظيمية مغلقة لاستيعاب شرائح المجتمع كافة، فكان لا بدَّ من إيجاد صيغ مرنة تحقق استقطاباً أوسع، وتشرك الفئات المختلفة في تحقيق أهداف الحزب. وقد اتخذت هذه الصيغ في مجملها طابع الأنشطة الاستقطابية، بمرونة تنظيمية واضحة، وبشروط مخفَّفة للانتساب إليها، وإن تفاوتت حدود المرونة بين نشاط وآخر بحسب طبيعته وطبيعة الفئات المستهدفة بهذا النشاط.

فصيغة التجمع للمهندسين أو المعلمين أو الأطباء أو الصيادلة أو المحاسبين...تحقق إطاراً تنظيمياً يتعاون أفراده فيما بينهم لتحقيق بعض المطالب الخاصة بالمهنة من خلال التحرك النقابي والمساهمة فيه، وتشكِّل فرصة للتعارف والتعاون بين هذه الكفاءات في الاختصاص الواحد، وتساهم في تعريفهم من خلال بعض المحاضرات واللقاءات على أهداف الحزب، وتشركهم بحسب مستوى استعدادهم في مواقف وأعمال الحزب المختلفة، فهم مؤيدون بالإجمال، ولا يخالفون توجهات الحزب الرئيسة، ويكتفي الحزب منهم بسمعتهم الحسنة في الانطباع العام من دون التدقيق في سلوكهم الشخصي.

أمَّا صيغة المخيّمات الصيفية أو المخيمات الاستقطابية أو الرحلات أو الاحتفالات الخاصة أو الأنشطة الترفيهية... فهي لا تشكل إطاراً تنظيمياً حقيقياً، وإنما هي تنظيم لنشاط الراغبين بها حيث توفِّر فرصة للتعرف عن قرب على شخصيات من الحزب وتوجيهات عملية إسلامية تشكل جرعة محدودة في إطار العلاقة مع الحزب، قد تنمو لاحقاً بجرعات أخرى، أو باتخاذ شكل تنظيمي معين، وقد تقتصر على هذه الحدود من فترة إلى أخرى، فالعبرة بمدى استجابة المتلقي ورغبته في ذلك.

وأمَّا صيغة الكشافة فهي أكثر ضبطاً مما سبقها، ولفئة عمرية بين الطفولة والشباب، لتعويدهم على تحمل المسؤولية والانضباط وتعريفهم على الإسلام وتربيتهم بسلوكياته وملء فراغهم وأوقاتهم بأنشطة وتسلية نافعة، ولها ربط خفيف بأنشطة الحزب، لكنه عمل تربوي بامتياز عند استجابة الأفراد وتشجيع أهلهم لهم.

وتعبِّر صيغة التعبئة التربوية عن التزام أشد بضوابط الحزب في سلوك الأفراد فضلاً عن مواقفهم من القضايا المختلفة، وإن تفاوت الأمر بعض الشيء بين المسؤولين عن إدارة العمل

والمؤيدين والعاملين داخل التعبئة، فشروط المسؤولين هي شروط المحازبين. أما شروط المنضوين العامة فأقل في بعض التفاصيل شرط أن لا تُخل بالسلوك الإجمالي المطلوب للفرد، مع التأكيد على الالتزام بوجهة نظر الحزب السياسية والتربوية بالكامل.

خامساً - أنشطـة قرآنيــة.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[١٧]، فالقرآن الكريم كتاب الله الخالد، والدستور الأبدي للبشرية، والنص الثابت الذي لم تمتد إليه يد التحريف، لذا يجب أن يكون حاضراً في عقولنا وقلوبنا ومجالسنا، وأن نستوعب آياته قراءة وتجويداً وحفظاً وتزكية ونوراً وهدى، وأن يكون أول القراءة وأساس التعاليم والتوجيهات. قال رسول الله (ص): «يا معاذ، إن أردت عيش السعداء، وميتة الشهداء، والنجاة يوم الحشر، والأمن يوم الخوف، والنور يوم الظلمات، والظل يوم الحرور، والريّ يوم العطش، والهدى يوم الضلالة، فادرس القرآن، فإنه ذكر الرحمن، وحرز من الشيطان، ورجحان في الميزان»[١٨].

لكل علاقة بالقرآن فوائد جمة، ويحسن بنا أن نهتم بكل أبعاد القرآن، فلا نقتصر على جانب دون آخر، فهو ليس مخصصاً للقراءة فقط من أجل التبرك، وليس محصوراً بفهم معانيه بطريقة عقلائية فقط، ولا يناسب المسلم أن يبتعد عنه لأيام وليالٍ من دون تصفحه والتزود منه، وتزداد لذة قراءته مع التدريب والتعود عليها وفهم معاني آياته ولو بالإجمال.

إنّ الأنس بالقرآن يتطلب القيام بمجموعة من الأنشطة التي تساعد على الارتباط به ككتاب هداية وخطاب إلهي مباشر للإنسان، منها:

١- الأمسيات القرآنية الرمضانية المتنقلة بين المساجد في الليالي المختلفة والمناطق المتعددة، بحيث يُستقدم القراء المتميزون، فيحضر الناس للاستماع والأنس بتلاوة القرآن الكريم وكسب الأجر في حضور هذه المجالس.

٢- إقامة دورات تجويد القرآن الكريم للعموم لتعليم أحكام التلاوة الصحيحة، وذلك في المساجد والمراكز والمدارس والمعاهد.

٣- إجراء مسابقات قرآنية عن المعاني وأسباب النزول والعبر المستخلصة وغيرها مما يعمق البحث ويكثف التساؤل عن مضامين الإجابات، ما يشيع جواً ويشرك عدداً من الناس للاهتمام بالقرآن.

٤- بثّ الأمسيات القرآنية عبر وسائل الإعلام كالتلفاز والإذاعة لتوفير فرصة الإطلاع عليها والمشاركة فيها لعدد أكبر من الناس الذين لا يتمكنون من حضورها في أماكن إقامتها.

٥- إقامة الدروس والمحاضرات والندوات القرآنية في المساجد والحسينيات والمراكز الثقافية، وعقد المؤتمرات القرآنية، ونشر الكتيبات التي تهتم بعلوم القرآن الكريم.

٦- إفتتاح الجلسات الداخلية والعامة بتلاوة آيات من القرآن الكريم ليبقى حاضراً في مقدمة

كل نشاط، ولتعرض آيات منه على مسمع من الحضور كجزء من التذكير والتربية بهذا السفر العظيم.

هذه النماذج عن الأنشطة القرآنية تستهدف تعميق الارتباط بالقرآن الكريم، بما يمثل من كتاب تربويّ هادف لتوجيه الحياة الإنسانية.

سادساً- التثقيف والتربية.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[١٩]. فإذا أردنا بناءً إسلامياً متيناً واعياً وملتزماً، لا بدَّ من التثقيف والتوعية لتحقيق نمو معرفي يساعد على فهم الإسلام واستيعاب تعاليمه، ما يجعل الفرد مؤمناً عن قناعة وفهم، ومتبصراً بتكليفه الشرعي، ومحصناً بحسن الالتزام.

للتثقيف صيغتان:

إحداهما خاصة بالمحازبين، من خلال الدروس الأسبوعية الإلزامية، والدورات الثقافية التي يجب اجتيازها، والدروس المواكبة للدورات العسكرية وغيرها ...من خلال مناهج دراسية مقرّرة من الشورى، تستفيد من عطاءات وكتابات علمائنا الأعلام، وتُقدَّم بأسلوب ملائم للمستويات المختلفة، وتُعرض بكمٍ يتناسب مع تحقيق التنوع المعرفي في العقيدة والفقه والتفسير والأخلاق والسيرة...وتشكل هذه الدروس البنية المعرفية الموجّهة للعقلية والسلوك المنسجمين مع قناعات وأهداف حزب الله. ويعتبر الحزب مادته الثقافية الإسلامية مشذَّبة مما علق بالإسلام من تفاسير ومفاهيم أخرجته عن مضمونه الحقيقي، ولا يمكن الاعتماد على أي مؤلف أو كتاب مطروح في الأسواق، فقد لا يكون محل حاجة وأولوية، وقد يكون مؤثراً في الاعتقاد والسلوك بما يخالف المنهج المختار على خط الولاية. كما يعتبر الحزب بناءه الثقافي محصناً للفرد ومعيناً له على التمييز بين الأفكار السليمة والخاطئة بحسب وجهة نظره.

ثانيتهما عامة للمناصرين والناس، من خلال الدروس الأسبوعية العامة التي يلقيها المبلغون، والدورات الثقافية الحرة التي يقيمها معهد الإمام المهدي(عج) والوحدات الثقافية في المناطق، والتحرك العلمائي بين الناس في أفراحهم وأتراحهم، وإلقاء الكلمات في المناسبات المختلفة، ومشاركة العلماء وقراء العزاء في المناسبات الإسلامية التعبوية كشهر رمضان وعاشوراء وموسم الحج، حيث يضع الحزب خطة متكاملة لنشر مبلغيه وتأمين الحضور في الأنشطة التعبوية والثقافية كافة ضمن مجال تأثيره ومقبوليته، كما يرسل المبلغين إلى الدول الأخرى خارج لبنان، ليعملوا مع الجاليات في إحياء المواسم والمناسبات، بما يهيئ الفرصة المناسبة لدورة ثقافية وروحية وتربوية لمساعدة المغتربين على التزود بالإسلام، فما ينعكس منه على حياتهم يكون بقدر تفاعلهم واستجابتهم، وبالحد الأدنى يبقى ارتباطهم موجوداً بإسلامنا العظيم ويتحقق الحد الأدنى من المعرفة الإسلامية.

لا يمكن فصل المعرفة عن تزكية النفس، فالإسلام دين علم وعمل، دين معرفة وسلوك، دين عقل واستقامة، وقد حرص الحزب على تلازم تحقيق هذين الهدفين في أنشطته كافة، ويبرز الاهتمام بتزكية النفس من خلال البرامج العبادية والروحية المواكبة للدورات الثقافية والعسكرية وغيرها، فلا تخلو دورة من إقامة الصلاة جماعة في أوقاتها، وقراءة الأدعية المأثورة كاليومية وتعقيبات الصلوات ودعاء كميل والتوسل، ودعاء الحجة... وصلاة الليل بشكل اختياري في الدورات المغلقة، وإعطاء الدروس الأخلاقية والمواعظ، والتذكير برقابة الله تعالى والإخلاص له وباليوم الآخر، كما تجري متابعة دقيقة لتطور الأخ السلوكي والروحي من خلال استمارات خاصة أُعدت لهذه الغاية، ويقوم المدير المسؤول عن هذه الدورة والمثقفون بتوجيهات فردية وجماعية حسب الحاجة. ويلحظ المدرسون المشاركة في المجالات العامة في المساجد وقراءة الأدعية المأثورة واختيار الموضوعات ذات الأثر التربوي على المتلقين. وبطبيعة الحال فإن الالتزام الديني بالأوامر والنواهي الشرعية يعتبر مؤشراً مهماً لقياس مدى فعالية التعبئة المعرفية والروحية على الأفراد، وهو الهدف الرئيس من الأساليب والوسائل المعتمدة لنشر الدين وتبليغه في أوساط المحازبين والأنصار والناس عموماً.

عندما يتحقق الالتزام الديني عند الفرد، تصبح الضوابط الشرعية مرجعيته في حسم مواقفه الفردية والاجتماعية والسياسية والمالية وغيرها. ويعتمد الحزب في حركته التأكيد على هذه المرجعية، بحيث تكون مقياساً يعود إليه الجميع لحسم مواقفهم، فلا يوجد موقف مراعٍ للشرع وآخر خارج عن دائرة الشرع، ولا مبرّر لإقحام أنفسنا في أيّ مجال لا ينسجم مع الحكم الشرعي، وبذلك نكون قد أضفنا سلوكاً عملياً شرعياً في مجالات اهتماماتنا السياسية والجهادية والتربوية... ففي المجلس النيابي لا يناقش نواب الحزب ولا يشاركون في إقرار موازنة كازينو لبنان وما له صلة بالمشروبات المحرمة أو القوانين المخالفة للشريعة المقدسة، وفي تحالفاتنا الانتخابية نلتزم بتعهداتنا ونعمل للوفاء بها، ولا ندلّس على الآخرين ولا نخدعهم ولا نكذب عليهم، فهذا ما لا ينسجم مع الالتزام الديني. وفي حفظ النظام المدني العام لا نقف عائقاً أمام الإجراءات القانونية بحق المرتكبين والمخالفين للنظام العام، بل نسهّل للدولة عملها ونساعدها في ذلك، وقد حرص الحزب أن يعوّض على الناس بسبب الاستخدام الاضطراري لممتلكاتهم أثناء معارك إقليم التفاح بما يضمن ما خسروه، ولم يراعِ أحداً أثناء محاكمة الدولة لعملاء إسرائيل رغم الضغوطات المكثفة من بعض الأهالي المحبين والمضحين، بحيث لم يصدر عنه أيّ كتاب أو توصية لتبرئة عميل مهما كانت الظروف، إلاّ إذا كان يعمل فعلاً مع المقاومة في اختراق العدو.

كما أكد الحزب في خطابه السياسي باستمرار على خلفية عمله الشرعية، وربط بين جهاده ضد العدو الإسرائيلي لتحرير الأرض، ومسؤوليته في محاربة الظلم والظالمين، وبين مشاركته السياسية النافعة لمكانته ودوره، وتكليفه الشرعي في رعاية حقوق الناس وحسن تمثيلهم، وبين

أعماله الاجتماعية الخدماتية الملائمة لأي حركة سياسية أو اجتماعية، وإيمانه في رقابة الله له في إطعام المسكين ورعاية اليتيم وخدمة المستضعفين. إذاً، لا مكان في الحزب لنشاط لا يغلفه الالتزام الديني، ولا مجال لعمل إلاَّ أن يكون مقيداً بهذا الالتزام، ولا توجيه عادي أو خطير إلاَّ ويراعي الضوابط الشرعية، التي تكون حاضرة قبل وأثناء وبعد العمل وخلال مقدماته التعبوية.

سابعاً - مواجهة التحديات.

من انتصر في داخل نفسه انتصر في حياته ومجتمعه، ومن انهزم نفسياً انهزم في الواقع العملي، وهنا تبرز أهمية المعنويات التي يتربى الإنسان عليها للتغلب على الصعوبات، وتقبل التضحيات وانتظار النتائج البعيدة المدى في المستقبل.

إنَّ دراسة الواقع تُبرز في كثير من الحالات حالة الضعف والانكسار، وصعوبة النهوض لقلة مقوماته، وسعة الهوة بين قدرة الأعداء وتفرق الأصدقاء، ما يؤدي إلى الإحباط والتكاسل وفقدان الأمل، ولا يمكن تقديم الدليل الحسي المباشر على إمكانية تغيير المعادلة، فلا بدَّ من استبداله بشواهد من التاريخ، والأهم من ذلك هو القيام بحملة تعبوية متعددة الاتجاهات في الثقافة والخطاب والتربية وتفسير الظواهر والاعتبار بالابتلاء... تؤكد على العزة، واستحضار الوعد الإلهي بحتمية الانتصار ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٠]، وانتصار القلة على الكثرة ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢١]، وحصول التغيير في حياة الأمم فلا استقرار للسلطة والسيطرة بيد جهة مهما علا شأنها ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[٢٢]. لتعزيز الثقة بالنفس في مواجهة التحديات والقدرة على التغيير.

فرق كبير بين الأنين من الضعف والتهيئة لتوفير القوة، بين الإحباط استسلاماً للواقع وشحذ الهمة من أجل التغيير، بين البكاء على الأطلال واستشراف العوامل الإيجابية للنصر المستقبلي، بين الخضوع للظروف المحيطة والتمرد عليها لرفضها مهما بلغت حجم التضحيات.

وقد اختار الحزب أن يزرع الأمل، ويشحذ الهمم، ويهيئ أسباب القوة، ويبحث عن العوامل الإيجابية المساعدة، ويعمل بحكمة ودراية، ويحدد أهدافه ساعياً لتحقيقها، ويلغي من قاموسه الاستسلام والخضوع للذل والاحتلال والظلم. ولهذا المسار خطاب تعبويّ داخليّ وخارجيّ، وتثقيف منهجي لاستكشاف مقوّمات القوة والتغيير، ربما وجده البعض عاماً وغائماً ومفتقراً إلى الأسباب الموضوعية، لكنه ضروري بلحاظ رسم الهدف وإيجاد الثقة بالنفس، والإيمان بالنصر العاجل أو الآجل على يد الإمام المهدي(عج). وهو خطاب لا يتعارض مع حسن الإعداد للحظة وتوفير أسبابها المادية المتقنة والقيام بالإجراءات الموضوعية، من دون نسيان العامل الغيبي وتأثيراته، وتسديد الله للمؤمنين ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنْ اللهَ رَمَى﴾[٢٣]، ليس على قاعدة إغفال المقدمات الضرورية والقيام بالاستعدادات اللازمة، لكن على قاعدة عدم انسداد الأمل والأفق بسببها، بعد الإعداد لما توفر بالاتكال على الله تعالى، فما يخفى علينا من نتائج لما أعددناه

أكبر بكثير مما نعلمه بوسائلنا المحدودة، قال تعالى: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾**[٢٤]، فعلينا العمل بما أمكن، وعلى الله التوفيق والتسديد.

أثبتت هذه النظرة فعاليتها في انتصار المقاومة الإسلامية على إسرائيل بإخراجها في أيار ٢٠٠٠م من لبنان، والانتصار الاستراتيجي على العدوان والحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز ٢٠٠٦، فالإعداد الدؤوب على الرغم من عوامل الضعف الكثيرة في ساحتنا عام ١٩٨٢، والصبر على التضحيات، والثقة بالله وبالنفس، وحجم التوقعات الإيجابية، أملاً بنصر الله تعالى بإحدى الحسنيين، وغيرها من العوامل التي ساعدت على تحقيق هذا الإنجاز الكبير، لم تكن بمعزل عن التعبئة المكثفة في الخطاب والأداء لمواجهة التحديات الكبيرة.

ثامناً- الخطاب السياسي.

يستحوذ تحديد الموقف السياسي في الحزب على كثير من الجهد والوقت والنقاش، وبناء على دراسات وتحليلات وقراءات تقدمها المجالس المختصة، إذا ما كان الموقف جديداً أو يشكل منعطفاً هاماً على الساحة، وتنساب المواقف التفصيلية بسهولة ويسر بعد حسم الخطوط العامة للموقف الرئيسي. وتهتم قيادة الحزب بإصدارقرارات واضحة لتحديد معالم المواقف الرئيسية، وتبيان أسبابها الدافعة ونتائجها المتوخاة، كما تُصدر القرارات المتعلقة بالسياسات العامة الواجب اتباعها للعلاقة مع القوى والأحزاب والفاعليات المختلفة، وكذلك سياسات التصريح السياسي والإعلامي، وكيفية التعاطي مع الجهات المختلفة، ولضمان الأداء الموحد من المسؤولين في الحزب بسبب عدد الذين يتصدون للتصريح أو الخطاب أو اللقاء. يرافق ذلك شرح ونقاش يتسعان ويضيقان بحسب دور ومسؤولية الأفراد، وتختلف الجرعة التفصيلية التي تعطى لهم بحسب الحاجة إليها.

يعبّر الخطاب السياسي للمسؤولين في الحزب عن موقفه من القضايا المطروحة بدقة، نظراً للآلية المعتمدة في بلورة الموقف وإجازات التصريح به، وتعالج أخطاء التصريح بسرعة حسب أهمية الخطأ ومصدر نشأته. وبما أن المطلوب تعبئة المحازبين والأنصار بالموقف السياسي، فإنَّ التصدي للاستفادة من المناسبات الدينية والسياسية والاجتماعية وسيلة مساعدة لترويج الموقف وتعميمه، من خلال وسائل الإعلام الخاصة والعامة، وباستخدام الأساليب المختلفة كالمقابلة أو التصريح أو المؤتمر الصحافي أو الكتابة...

يعتمد الحزب في خطابه السياسي بشكل عام على عدة أمور:

١- تقديم التوضيحات والمبررات الدافعة لاتخاذه أيّ موقف.

٢- مصارحة الناس بالقناعات التي يحملها، ومدى ما تسبّبه من أرباح وخسائر.

٣- تجنب الشخصي والتوجه إلى الأداء في الإشادة أو الاعتراض على السياسيين.

٤- مراعاة المصالح والأولويات وتبيان ذلك للجمهور.

٥- تجنب الاعتماد على المعطيات الخاطئة أو المشكوكة، والحرص على أعلى درجة من الصدق في تبيان الصورة الحقيقية للناس.

٦- عند الاضطرار إلى إخفاء بعض المعلومات لضرورات أمنية أو سياسية، فإن الحزب يسكت عنها، أو يقاربها بشكل عام من دون تفصيل، لكنه لا يستبدلها بأي حال من الأحوال بمعلومات خاطئة.

٧- إيجاد الوعي السياسي عند عامة الناس بتكثيف الحضور الإعلامي والسياسي الذي يساعد على مواكبتهم للأحداث برؤية واضحة وتقييم سليم.

هذا الأداء في الخطاب السياسي يعمّم موقف الحزب، ويثقف جمهوره بمبرراته وأبعاده، ويحقق المصداقية العملية التي تظهر تباعاً من خلال التطورات. فالمناصرون فضلاً عن الأعداء يصدقون ما تقوله قيادة حزب الله لأنَّها عوَّدت الناس على الصدق في الخطاب.

تاسعاً- الانتصار نموذجاً تطبيقياً للمرتكزات السلوكية عند حزب الله.

تبقى المقاصد التربوية مجرد أهداف نظرية إذا لم تترجم بخطط وبرامج عملية تربوية، تتحول إلى مرتكزات سلوكية تطبع أداء المنتمين إلى حزب الله. وقد ركّز حزب الله اهتمامه لتحويل النظرية إلى سلوك، وبذل جهوداً متنوعة في المجالات المختلفة، فغطّى مساحة هامة في الفكر والروح، والتربية، والسلوك، والجهاد، والسياسة، ... ما أوجد حالة تكاملية في بناء الفرد والجماعة، بمراعاة تنوع المنضمّين إلى حزب الله من شرائح المجتمع المختلفة.

ولا يمكن تعريف الفرد في حزب الله على أساس قناعته الفكرية أو التزاماته السياسية، بل لا بدَّ من ملاحظة إيمانه وسلوكه وجهاده، من خلال عباداته ومعاملاته ومقاومته، لتكتمل الصورة عن مميزات الملتزم بهذا المنهج بشكل واقعي.

وقد كشف العدوان الإسرائيلي على لبنان في تموز ٢٠٠٦ قوة وصلابة البناء المقاوم عند عناصر حزب الله، وفي كل البيئة الاجتماعية المحيطة بهم، بحيث واجه الصهاينة رجالاً أشداء واثقي الخطى، ومجتمعاً مقاوماً صابراً وصامداً. فكان الانتصار الاستراتيجي الكبير للمقاومة بعد ثلاثة وثلاثين يوماً من المواجهة الشرسة التي استخدمت فيها كل الإمكانات لإنجاز الهدف، وكان العزُّ عظيماً بتحقيق تلك الثلّة المؤمنة المجاهدة أول إنجاز من نوعه منذ نشأة الكيان الإسرائيلي الغاصب في منطقتنا.

يمكننا أن نتلمَّس بوضوح مجموعة من العناوين التطبيقية الهامة التي أبرزها انتصار الوعد الصادق في مواجهة عدوان تموز ٢٠٠٦، وهي حُصالة المرتكزات السلوكية للمقاصد التربوية عند حزب الله، وتمثّل النموذج التطبيقي، كثمرة واقعية، تتيح لنا المجال لتقييم قدرة المرتكزات في

الواقع العملي، نذكر منها:

١- المقاومة حالة تربوية متجذّرة: وهذا ما ظهر جلياً عند المقاومين ومجتمع المقاومة، من خلال الاعتقاد والسلوك. حيث تحولت المقاومة عندهم إلى قناعة راسخة بوجوبها، وأولويتها على ما عداها، وضرورتها لحماية الأهل والوطن، وقدرتها على أن تشكل بوابة الصمود أمام الرياح الدولية والعدوانية. وتحولت إلى حياة يومية يعيشونها في مواكبتها، وتطوير فعاليتهم من خلالها، ومتابعة أخبارها وإنجازاتها، وتربية الأسرة والمحيط على الارتباط بها، والعمل الدؤوب لحماية وجودها، وبناء منظومة العلاقات الوطنية على أساس تأييدها ونصرتها.

أصبحت المقاومة جزءًا من حياتهم اليومية، هي التي تمثل الشأن الأهم في مقابل كل شيء، فقد رأوا من خلالها إنجازات التحرير والانتصار والعزّ والاحترام ومعنى الحياة الشريفة المستقلة. هُمُ المقاومة والمقاومة هم، حيث يصعب التفكيك بينها وبينهم، فعاشوها كما النسيم، بل هي الحياة بعينها بالنسبة إليهم. فقد لاحظنا كيف عاش العالم بأسره روح المقاومة والمقاومين في مواجهات عدوان تموز، تبرز في المواقع الأمامية، وفي القرى، وأماكن التهجير، وفي كل نتيجة من نتائج الصمود الأسطوري لهؤلاء الشرفاء.

٢- التأسيس والتأصيل: ليست المقاومة ردة فعل سطحي وعفوي، بل هي ردة فعل تأسيسي وتأصيلي. أمَّا الفعل التأسيسي في بنية مشروع المقاومة الفكري والسياسي، فهو الذي ينظر إلى الحالة الصهيونية في منطقتنا كخطر داهم ومستمر باستمرارية هذا الكيان التوسعي، وأنَّ مواجهته تحتاج إلى بنية متينة، تتعرف على واقع وحقيقة هذا العدو، وتؤسس بما يكون مؤهلاً لمواجهته ومواجهة أهدافه ومشاريعه ضد منطقتنا وبلدنا.

أمَّا الفعل التأصيلي فهو الذي يتعاطى مع المقاومة كمشروع متكامل، لا يكفي معه السلاح للمواجهة، بل لا بدَّ من حشد كل المقومات الثقافية والسياسية والإعلامية والتربوية والعسكرية... من منظور سيادتنا واستقلالنا وحريتنا في بلدنا ومنطقتنا، وفي إطار تكاملي للنهوض بهذه المهمة. فالتأصيل خروج عن تسطيح الفعل المقاوم وآنيته، إلى تثبيت قواعده تحقيقاً لاستمراريته، وكذلك هو الاستفادة من المرتكزات الفكرية والمعنوية التي تصوِّب التوجيه في المسار الطويل نحو الهدف.

من هنا فإنَّ الحديث عن المقاومة لم يعد يجدي معه تسليط الضوء على سلاحها، فهي ليست سلاحاً مقابل الأسلحة، ولا سلاحاً في مقابل جيش الدولة، بل هي رؤيا متكاملة في مواجهة أخطر عدو في العصر الحديث، وأعقد قضية يواجهها لبنان والمنطقة. وما الانتصار الإلهي الكبير في معركة الوعد الصادق، إلاَّ انتصار لهذه الرؤية، في مقابل من يريد المقاومة معبراً سياسياً مؤقتاً لتحسين بعض الشروط، في إطار التسليم للشرق الأوسط الجديد والهيمنة الدولية والصهيونية على وطننا وحقوقنا.

٣- القوة المتراكمة: كل شيء قابل للنمو مع التصميم والعزيمة، «وما كان لله ينمو»، فالمهم أن نُعد أنفسنا بهدف التفوق على العدو، مهما كانت إمكانات العدو، ومهما كانت بدايتنا متواضعة.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٢٥]. فالإعداد بقدر الاستطاعة، التي تبدأ متواضعة، ثم تكبر وتزداد مع الزمن، وبما أننا بذلنا أقصى الجهد، بروحية الواثق المتكل على ربه، فإنَّ النصر بالمعايير المادية والمعنوية يتحقق بشكل أكيد في مواجهة المعايير المادية البحتة.

لم يكن الاستعداد المقاوم في أي مرحلة مرتبطاً بحدود مرسومة، بل هو الاستعداد بأقصى الاستطاعة، وبتوفير مقوماتها التراكمية لتراكم القوة معها كمّاً ونوعاً، من خلال الإمكانات والتدريب، والاستفادة من العلم والتقنيات الحديثة، ومراكمة التجارب والخبرات.

ولا عجب أنْ ظنَّ بعض المحللين عند إنجاز التحرير في أيار ٢٠٠٠، بأنَّ مهمة المقاومة قد انتهت، وأن دافعيتها للعمل قد تضاءلت، وأنَّ الظروف المستجدة ستضعها أمام المساءلة والتضييق تمهيداً للإنهاء، وذلك بسبب رؤيتهم القاصرة التي تعاطت مع التحرير بأنه إنجاز مهم وكافٍ، على الرغم من بقاء مزارع شبعا وتلال كفرشوبا مع الصهاينة، وبقاء الأسرى والمعتقلين في السجون الإسرائيلية، واستمرارية التهديد الإسرائيلي للبنان بسبب الأطماع الصهيونية، وتجارب استخدام القوة المفرطة ضد لبنان. وكذلك لأنهم راهنوا على تعب المقاومين والشعب، وفتور همّتهم، بعدما عانوه وتحملوه من تضحيات. ولأنهم رأوا عند الدول الكبرى المهيمنة قراراً حاسماً وقدرةً متوفرة لفرض ما يريدون من إضعاف لبنان في إطار الضمانات الدولية الهشة.

لكنَّ المقاومة استمرت في استعداداتها، معتبرة بأن تحرير العام ٢٠٠٠ إنجازٌ كبير وليس نهاية المطاف، بل كان الاعتقاد السائد عند قيادة المقاومة بأن ما يمكن أن يواجهنا في المستقبل قد يكون أعظم وأشرس؛ لذا لا بدَّ من الاستمرار في الاستعداد على المستويات كافة، تسليحاً، وتدريباً، وتهيئة للمجتمع المقاوم، وتوفيراً لكل مقومات الصمود السياسية والاجتماعية...وقد أعلنت المقاومة في مناسبات عدة وعلى لسان قادتها، بأنَّ استعداداتها مستمرة، وهي أفضل وأقوى بكثير عما كانت عليه قبل التحرير، وأنها تزداد يوماً بعد يوم، لتحذر العدو من مغبة الإقدام على خطوة حمقاء، فالتلويح بالقوة قد يوفر استخدامها، ولكن لا بدَّ من استخدامها عند الضرورة، وهذا ما حصل في صد عدوان تموز ٢٠٠٦، حيث أنعم الله تعالى علينا بالنصر، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وبعد كل ما حصل، فإنَّ توفير القوة المتراكمة مطلوبٌ بحسب الاستطاعة، لأنَّ الخطر الإسرائيلي لم يرتفع، ولا بدَّ من الجهوزية لكل طارئ، بعيداً كان أو قريباً.

٤- **حتمية المواجهة**: لو راجعنا تاريخ العدو قبل نشأة الكيان الصهيوني وبعده، لوجدناه حافلاً بالاعتداءات والجرائم والاحتلالات، وإذا أردنا تأريخ مساره فلن نجد إلاَّ المجازر واحتلال أراضي ٤٨، واحتلال ٦٧ لباقي فلسطين وأراضٍ من سوريا ومصر والأردن، واحتلال ٧٨ لأراضٍ من لبنان، ثم اجتياح لبنان عام ٨٢، وعدوان إسرائيل على لبنان في أعوام ٩٣، ٩٦، ٢٠٠٦، ... ولم يكن شعب فلسطين ومقاومته، أو المقاومة في لبنان إلاَّ في إلى موقع رد الفعل على هذه الأعمال العدوانية التي لم تتوقف.

فإذا رفضنا الاحتلال لأرضنا، علينا أن نستعد للمواجهة، وهي حتمية؛ لأن إسرائيل عدوانية وتوسعية واستيطانية، وهي تريد لبنان متكأً لعبور سياساتها باستخدامه في أوراق ضغطها على دول المنطقة، وجعله مركزاً لتوطين عدد كبير من الفلسطينيين، والنفاذ إليه مباشرة لتلبية احتياجاتها من بعض أرضه (مزارع شبعا وتلال كفرشوبا)، والتحكم بتوجهاته السياسية بما يخدم مصالحها، ما يجعلها تفرض شروطها على الحكم في لبنان.

هذه المواجهة مع إسرائيل ليست خياراً ابتدائياً بالنسبة للمقاومة، بل هي خيار دفاعي حالي ومستقبلي، وحيث لا يمكن تحقيق ذلك في ظروف انعدام توازن القوة مع إسرائيل، والتواطؤ الدولي لمساندتها بالكامل، لا بدَّ من المقاومة كحالة ممانعة شعبية قادرة على التحرك، وتحقيق إنجاز الصمود، ومنع الأهداف الإسرائيلية من أن تتحقق في بلدنا. وهي الخيار لأي شعب يبتغي الحصول على قراره الحر المستقل على أرضه.

أدركت المقاومة أن المواجهة حاصلة، من دون معرفة بالتوقيت أو بالتطورات التي قد تؤدي إليها بهذا الشكل أو ذاك، ولا حاجة لمبررات المواجهة، فإسرائيل قادرة على أن تخترع المبرر أو أن توظف أي مبرر تحقيقاً لأهدافها. وهي تركِّز في لبنان على قوته، بحيث تعمل لإسقاط هذه القوة المقاومة لإضعافه تمهيداً لإملاءاتها ومطالبها منه. لذا فإنَّ عدوان تموز نتيجة الرؤية الإسرائيلية لوجود لبنان الضعيف، وليس بسبب أسر جنديين، وقد حصل في هذا التوقيت بالذات، تلبية للمطلب الأمريكي في إعادة صياغة خارطة المنطقة من جديد، ومحاولة للتأثير على الواقع الفلسطيني في داخل الأراضي المحتلة، وسيبقى عنوان إضعاف لبنان حاضراً في المشروع الإسرائيلي، رغم الخسارة الفادحة التي جنتها إسرائيل من عدوانها الأخير، وعلينا أن نُبقي على قوتنا التي تشكل صمام الأمان، الذي يدفع إسرائيل للتفكير كثيراً قبل الإقدام على أي خطوة، بلحاظ تكلفتها ونتائجها.

٥- نماذج المقاومين: المقاومون شبابٌ من هذا المجتمع الطيّب، لكل منهم خصوصيته الفردية والاجتماعية، فهم بين تلميذ وجامعي ومهندس وموظف وعامل... وهم من أعمار مختلفة من الثامنة عشرة إلى العشرين والثلاثين والأربعين... وهم بين أعزب وخاطب ومتزوج، يملك كل واحد منهم إمكانات وكفاءات تؤهّله لدوره في الموقع الجهادي، لكنهم يشتركون جميعاً بخصائص الإيمان والارتباط بالله عزَّ وجل، والاقتداء بالرسول(ص) والأئمة(عم)، والجهاد، والاستعداد للشهادة، والشجاعة والإقدام، وفهم الأهداف، ومعرفة الضوابط الشرعية، والانضباط في منظومة الهيكلية التنظيمية الحزبية، وقناعتهم بالدفاع عن الوطن، ويتنافسون ليكونوا في المواقع الأمامية ضد العدو. نورهم يسعى بين أيديهم، فهم رهبان الليل وأسود النهار، لا يبحثون عن موقعٍ أو دورٍ أو سمعةٍ أو كسبٍ خاص، ويستعدون لنصرة الأمة وفوز الجماعة.

هؤلاء يفهمون معنى الحياة العزيزة، ولا يقبلونها ذليلة، يقتدون بقول أمير المؤمنين علي(ع): «فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين»[٢٦]، كرامتُهم وكرامة بلدهم

أغلى ما عندهم حيث ترخص دونها الأشياء، تحريرُ أرضهم يستحق كل عطاء ولا معنى لأي عطاء لا يضع أمامه هدف التحرير. أعمالهم أقوى دلالة عليهم من كلماتهم، ونتاجهم يبرز فجأة في الميدان من دون حاجة إلى الحديث عنه أو الترويج له، لا يتباهون بإنجازاتهم، ولا يضيّعون البوصلة مهما بلغت العقبات السياسية الداخلية والحسابات الطائفية والمذهبية والفئوية.

عن أي نموذج نتحدث؟

عن الاستشهاديين المستبشرين بلقاء الله تعالى، وقد أدّوا ما عليهم في هذه الدنيا، واختاروا اللحظة التي تحقق مكسباً نوعياً للمسيرة.

أم عن المرابطين على الثغور، الذين يمكثون الأيام والليالي الطوال، رصداً للعدو ودفاعاً عن الأرض والعرض والحرية والمقدسات.

أم عن أصحاب السمعة العطرة التي ملأت الآفاق، بصمودهم في مارون الراس وبنت جبيل وعيتا الشعب ووادي الحجير وغيرها.

أم عن المجاهدين الذين تعرف أسماءهم وصفاتهم بعد شهادتهم أو جرحهم، حيث بلاغة الدم والجراحات أصدق إنباءً من الكلمات.

لقد تحول المجاهدون من أبناء المقاومة الإسلامية في لبنان إلى أسطورة، وأصبحوا قدوةً وقبلةً للأحرار التّواقين إلى الحرية والتحرير، وأسسوا لمعادلة المقاومة القادرة على حماية الوطن والأهل في مواجهة الاحتلال والعدوان، وأعادوا الثقة للأمة بقدراتها لاسترجاع حقوقها. أعاروا الله جماجمهم فمنحهم السكينة والنصر والمكانة. فعن أمير المؤمنين علي(ع) لابنه محمد ابن الحنفية: «تزول الجبال ولا تزل، عضَّ على ناجذك، أعرِ الله جمجمتك، تِد في الأرض قدمك، ارمِ ببصرك أقصى القوم، وغض بصرك، وأعلم أنَّ النصر من عند الله سبحانه»[٢٧].

٦- **ميزان المعركة:** لو أردنا قياس ميزان المعركة بالقوة المادية والعسكرية المتوفرة للطرفين، لرجحت قوة إسرائيل على قوة المقاومة بما لا يقبل المقارنة، بسبب الهوة الواسعة بين قدرات إسرائيل البرية والجوية والبحرية، ومن كل أنواع الأسلحة المتطورة والحديثة، إضافة إلى الجسر الجوي الأمريكي المفتوح للدعم، وبين قدرات المقاومة التي تعتمد على الكر والفر، والتي لا تقترب بأي حال من قدرة الجيوش، لكنها تتناسب مع القدرات المتاحة وطبيعة حركة المقاومة.

إذاً كيف انتصرت المقاومة الإسلامية على إسرائيل، وأفشلت عدوانها في تموز ٢٠٠٦؟

لقد توفَّرت للمقاومة مقومات ترجيحية ومساعدة لم تكن موجودة لدى إسرائيل، وأهمها القوة المعنوية الحاضرة بزخمها وأعلى وتيرة لها، والمتمثلة بالارتباط بالله عزَّ وجل، الذي أعطى المقاومين ثقة وطمأنينة بالدعم الإلهي والتوفيق،: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾**[٢٨]، ومهما حاولنا إعطاء تفسيرٍ مادي لهذه القوة المعنوية فسنكون عاجزين عن التعبير، لكنَّ الذين يفهمون معنى الإيمان بالله تعالى وآثاره يدركون تماماً مدى القوة الدافعة والمحفزة التي تشحذ همة المؤمن وتملأ قلبه، لتصبح قوته مضاعفة مرات ومرات عن قوته الحقيقية، ولتكون استفادته

من الإمكانات المادية المتوفرة بين يديه بجرأة وشجاعة تفوق ما اعتاده الناس من فاعلية لهذه الإمكانات.

من مفردات هذه القوة المعنوية تتجلّى الشجاعة، وعدم الخوف من الموت، والصبر في الظروف الميدانية الصعبة، وتوقع الشهادة باستعداد ورغبة، وتوقع النصر بدرجة عالية. فإذا ما أضفنا العوامل الموضوعية لمصلحة المقاومة، ومنها: الحق في استعادة الأرض المحتلة، والدفاع المشروع والضروري للسيادة الحقيقية، ورفض التبعية للأجنبي، ورفض الظلم والعدوان والاحتلال كطبيعة بشرية فطرية، فستربح المقاومة بالنقاط على إسرائيل.

نستطيع أن نفهم حقيقة انتصار المقاومة الإسلامية بلحاظ العوامل المادية والمعنوية، في مقابل العوامل المادية التي اعتمدت عليها إسرائيل، كما نستطيع أن نتلمس تراكم النقاط لصالح المقاومة، عندما نضيف العوامل المعنوية والموضوعية إلى أدائها، وبهذا ندرك أهمية أن لا نحصر المنافسة وتهيئة عوامل المعركة على أساس مادي بحت، لأننا سننهزم حُكماً بسبب الخلل الفاضح في موازين القوة المادية، وكل الهزائم التي أصابت الجهات الرافضة للاستعمار أو الاحتلال إنما حصلت بسبب الضعف في الاستفادة من العوامل المادية المتاحة من جهة، والعوامل المعنوية والموضوعية التي ترجح الكفة مع حسن الاستعداد وسلامة الأداء من جهة أخرى.

المقاومة قويةٌ بما توفر لها من عوامل مادية ومعنوية وموضوعية، ولا داعي للخوف أمام ترهيب الدول الكبرى لها وغطرسة إسرائيل الخائبة من عدوانها على المقاومة، وليست المقاومة في الموقع الذي تحتاج فيه للبحث عن مخرجٍ بسبب وجودها، بل وجودها ضرورة، وقوتها المتصاعدة مطلوبة، وعلينا أن نتمسك بحضورها وجهوزيتها، فهي تمثل الرصيد الواقعي للدفاع المشروع في مواجهة الاحتلال، وتمثل قدرة الممانعة في مواجهة المخططات التي تحاك ضد لبنان ليكون ملحقاً بالسياسات الأجنبية والصهيونية، وعلينا أن نبحث عن الإضافات والتعاون الذي يحقّق المزيد من الاستفادة من إمكانات مجتمعنا، لتكون الجهود متظافرة ضمن استراتيجية دفاعية واضحة وواقعية، تحقّق عناوين الاستقلال والكرامة وحق الحياة العزيزة والقدرة التي تحمينا من أعدائنا.

٧- **الوعد الصادق:** هو وعدٌ صادق عظيم في الثقة بالنصر الإلهي مقابل عدوان الشيطان الرجيم ومن طبّل له وزمّر، لكنّه ليس الوعد الوحيد، فكل المسيرة وعودٌ والتزامات ومواثيق ومواقف، وكلها صادقة لا خداع فيها ولا كذب ولا مساومات.

تحوّل الصدق إلى صفةٍ لصيقةٍ بحزب الله، اعترف بها الصديق والعدو، وقد أعلن مسؤولون إسرائيليون وصحافيون صهاينة وتعليقات عفوية شعبية كثيرة عندهم، بأنهم ينتظرون ما يقوله سماحة الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله (حفظه الله) ليتعرفوا على الحقيقة، وهم يصدقونه أكثر مما يصدقون قادتهم، بل يصدقونه ولا يصدقون قادتهم، وهم محقُّون في هذه النظرة.

الصدق ثمرة الإيمان، والسياسة الحكيمة هي السياسة الصادقة، والحديث المؤثر أثناء الخطابة هو الحديث الصادق، ومصارحة الناس بقضاياهم وما يحيط بهم هو النجاح الشعبي، والالتزام بالاتفاقات مع القوى والأحزاب والشخصيات له قيمة معنوية كبرى، فالحزب لم يخالف اتفاقاً، ولم ينكث عهداً أو وعداً، وتوضيح صعوبة ووعورة الطريق مع تبيان حجم الأخطار وعِظَمْ التضحيات يُبقي السائرين معنا إلى آخر الطريق على الحلو والمرّ.

الدعوة إلى الوحدة التزام لا عودة عنه، ورفض التبعية ومحاربتها لا يخضع للتقيّة، واستقلال موقف الحزب وحرية قراره دونهما كل التضحيات. لن نقول ما لا نؤمن به، لتكون كل الحقيقة أمام الناس، ليكونوا شركاء معنا في كل شيء لا أدوات، كما نستطيع أن لا نقول ما لا نريد قوله لكننا لا نكذب. كان الحديث علناً عبر وسائل الإعلام مراراً وتكراراً بأنَّ الحزب جاهز للتصدي للعدوان، وهذا ما حصل، وهو سيبقى صادق الوعد مهما كلّفه ذلك، سيبقى مع وحدة لبنان وتحريره، وسيبقى قوياً صامداً أمام الأعاصير، وسينتصر دائماً للحق إن شاء الله تعالى.

الهوامش:

[1] سورة المائدة من الآية ٣.

[2] سورة آل عمران من الآية ١٩.

[3] سورة الناس.

[4] سورة المنافقون من الآية ٨.

[5] سورة هود، الآية ١١٣.

[6] سورة التوبة، الآية ١١١.

[7] سورة النساء من الآية ٥٩.

[8] حزب الله: المنهج، التجربة، المستقبل، للشيخ نعيم قاسم،ص١١١.

[9] سورة الحشر من الآية ٧.

[10] سورة المائدة من الآية ٤٤.

[11] الحكومة الإسلامية،ص٨٦.

[12] سورة التوبة، الآية ٢٤.

[13] علل الشرائع للشيخ الصدوق،ج١، ص١٣٩.

[14] الإرشاد للشيخ المفيد،ج٢، ص ١٢٧.

[15] سورة الجمعة، الآية ٢.

[16] سورة البقرة من الآية ٢٨٦.

[17] سورة البقرة، الآية ٢.

[18] كنز العمال للمتقي الهندي، ٢٤٣٩.

[19] سورة الأحزاب، الآية ٤٥.

[20] سورة الروم من الآية ٤٧.

[21] سورة البقرة من الآية ٢٤٩.

[22] سورة آل عمران من الآية ١٤٠.

[23] سورة الأنفال من الآية ١٧.

[24] سورة الأنفال من الآية ٦٠.

[25] سورة الأنفال، من الآية: ٦٠.

[26] نهج البلاغة، من الخطبة: ٥١.

[27] المصدر نفسه، الخطبة: ١١.

[28] سورة الأنفال، من الآية: ١٧.

مرتكزات في ثقافة حزب الله

رئيس المجلس التنفيذي في حزب الله
سماحة السيد هاشم صفي الدين

المقدمة:

إن البحث عن المرتكزات التثقيفية لحزب الله، يجرّنا إلى ضرورة التعرّف على الخصوصيات والتوسّع فيها حتى لا تكون المعالجة من وحي العام الذي يشترك فيه حزب الله مع أحزاب وحركات إسلامية أخرى؛ لذا سنعرض عن ذكر الأسس والمفاهيم التي ترتبط بشأن الانتماء إلى الإسلام من جهةٍ عامة، والتي تعني المعتقد والأحكام والمترتبات العادية لهذا الانتماء، حتى ولو كان هناك اختلاف اجتهادي بين أطراف عديدة، فهذا لا يهمنا في مقصود البحث. كما أن هذه الخصوصيات لا يمكن سلخها عن ظروف المرحلة بكل تجلياتها وانعكاساتها الفكرية والسياسية وحتى السلوكية؛ إذ إننا نتحدّث عن ظاهرة حلّت في ساحة العمل، وخاضت تجربة متعددة الجوانب، وما زالت في قلب التحدّي والصراع؛ وبالتالي لا يصح أن نتحدث بلغة (المفروض) الذي كثيراً ما أغرق العاملين في نظريات لا تبدو ضعيفة من حيث الصياغة والاستخراج والاستدلال، لكنها كانت في الغالب وبكل أسف قاصرة عن إدراك الاحتياجات الفعلية، ولعل أحد أسباب الارتداد الذي نجده عند البعض أو التحول الدراماتيكي أحياناً مرجعه هو هذه الهوة بين (ما ينبغي) وبين (الواقع)، وعليه ليس غريباً أن نصف ونتجرد بعض هذه التجارب بالمثالية التي تقنع أصحابها والجمهور في إطار المعالجة الثقافية البحتة، وهذا طبيعي، لكنها ترتد على ذاتها حينما تصطدم بالواقع وصعوباته مما يحوجها ثقافياً لإعادة إنتاج.

بناءً على ما ذكر، سأعرض الموضوع في إطار مدخل وعناوين تشكل في حال اجتماعها محددات واقعية، دون أن يعني ذلك أنها غير قابلة للتطوير أو أنها غير قابلة للنقاش، لكنها على أي حال تعبّر عن ما هو موجود فعلاً.

المدخل:

لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن ظروف نشأة حزب الله الديني والعقائدي والمقاوم كانت متأثرة

بمكوّناتها وامتداداتها العملية والسياسية لمرحلةٍ سابقة تظلّلت بشدة الصراع وحدّته لغرض إثبات الوجود وتحقيقه، في ظل شكوك كثيرة تتدافع بين نهجين عريضين في الأمة؛ أحدهما يمثّل (اللادين) بطروحاته الكثيرة والغالبة على الساحة عموماً، والآخر يمثل (الدين) بأشكاله الخجولة. مما جعل القيمين على الساحة الإسلامية عموماً يميلون إلى الدخول في صراعات فكرية يغلب عليها طابع الدفاع، وتلمس إخراج الفكر الإسلامي بطريقة قادرة على مواكبة العصر، دون أن ننسى أنه وداخل هذا الإطار الديني كان هناك صراع مرير بين ما اصطلح عليه بالفهم التقليدي وبين الفهم المتحرّر، وما بينهما مسافة كان يجول فيها بعض أهل العلم والمفكرون. في مرحلة من هذا النوع خضعت الساحة الإسلامية الشيعية اللبنانية لمؤثرات ورؤى أوجدت نفسها في تشكلات متعددة حزبية وعلمية وسياسية، وكان الغالب عليها الانحياز الكبير لمنتجات الفكر الآتي من النجف ولتجربته في كثير من الأحيان، بينما غاب عنها إلى حدٍّ كبير الخصوصيات القمية إلا في بعض الحالات النادرة، وبشكل مفاجئ، وخلافاً للتوقعات المعاشة في عموم الساحة الإسلامية أطل فجر الانتصار للثورة الإسلامية الإيرانية بقيادة الإمام الخميني (قده)، ليحقق حلماً كبيراً للنهج الإسلامي المتحرّر؛ معلناً نجاحاً باهراً وصاعقاً في ساحة التحدّي، ولتتولد معه حالات جديدة مشحونة بالأمل، ومستنهضة للهمم والشعوب، ولتبدأ مرحلة جديدة تترك بصماتها وآثارها على كل الواقع الإسلامي الذي يجد نفسه هذه المرة خارجاً من دائرة الدفاع وإثبات الهوية والقدرة إلى حيّز الفعل والتأثير والحيوية على وقع البشائر الواعدة بمتغيرات عظيمة تدق أبواب الساحات الإسلامية وبقوة وثقة ناتجتين عن نجاح التجربة وصدقية النتائج.

وكان من الطبيعي جداً للعلماء والمفكرين والعاملين في إطار الخط الإسلامي الحركي أن يعيدوا القراءة من جديد، وأن يؤسّسوا على هذه الانجازات وأن ينطلقوا باندفاعة فائقة ليستفيدوا من هذه الفرصة ومن هذه التجربة، فكان من البديهي أن تطرح في الساحة الثقافية الإسلامية أسئلة كبيرة حول الخصوصية التي اكتنفت تجربة الإسلاميين في إيران وولّدت هذه النتائج الباهرة، وحيث إن الساحة عموماً كانت مشبعة بأهمية العامل الثقافي المستمد عادةً من طبيعة الانتماء الديني، ومقتضيات الصراع الفكري القائم كانت ردة الفعل الأولى هي التفتيش عن البعد الفكري الخاص، الذي غرس في أعماق التجربة للثورة الإسلامية وعن مقومات الشخصية الإسلامية، وأبعاد علاقاتها واتجاهاتها في خضم التوغل في المعرفة التفصيلية لعلماء الثورة وقادتها، وكانت النتيجة اللازمة والطبيعية أن تنبري شخصية الإمام الخميني من موقعها القيادي والمرجعي والفكري، لتكون الحاكي عن أهمّ عنصر فاعل ومحرك لهذه الثورة التي صدمت الواقع بجماهيرها وحضورهم في الساحة، وإذ بنا أمام مشهد لم يعرفه المثقفون في دفاتر يومياتهم وفي ما كتبوا وفي أدبياتهم، وإنما هو مشهد استحضر تجربة الرسول الأكرم (ص) المؤسّس الأول لدولة الإسلام العزيز، والذي أرسى دعائم أمة كاملة هي من أفضل الأمم، للوهلة

الأولى تبدو الصورة غارقة في بحر العاطفة والأحاسيس، لكنها في الواقع تعبير حقيقي عن الإسلام والالتزام به....

في ظل هذا الواقع ومفاعيله المتنامية، ومع حدوث وقائع جديدة في لبنان نتجت عن الاحتلال الإسرائيلي في سنة ١٩٨٢، كانت الانطلاقة الأولى لحزب الله الذي ضمّ عدداً من العلماء والمجاهدين والمثقفين الذين وثقوا جيداً بتجربة الثورة الإسلامية في إيران، وانفتحوا على المباني الفكرية والثقافية للإمام الخميني (قده)، ومن موقع الايمان والمعرفة والتسليم اندمجوا في هذه التجربة معتمدين على أسس وثوابت ومفاهيم حملتهم في إطار هذه التجربة الناصعة، والتي مرّت في ظروف معقّدة وشائكة، لكن أبناء هذه المسيرة كان دأبهم وديدنهم هو الارتكاز على هذا الفكر الأصيل، الذي اعتبروه منشأ الأصالة، ومنبت القوة والاقتدار، وسبيل النجاح، ولذا كان المعتمد كخط عريض وأساس متين هو الانتماء إلى نهج الإسلام المحمّدي الأصيل الذي كشف معالمه في هذا العصر وأظهره الإمام الخميني (قده). ومنذ البداية وإلى الآن اعتبر حزب الله أن عوامل الاستقامة والنجاح تكمن في المحافظة على هذه الأسس بما تحمل من حيوية ومرونة وفاعلية، واستقى من خلال هذا المنهج المعالم الأساسية للثقافة التي يتبناها ويربي أجياله وجمهوره عليها، ويعمل على نشرها بكل وسيلة ممكنة؛ لأن القناعة الراسخة تقول: إن هذا النهج ليس حلاً ومساراً لمن ينتمي إلى حزب الله فحسب، بل هو المنهج الشافي لكل أبناء أمتنا الإسلامية، وأن الصورة المعاصرة لتجربة الرسول وأهل البيت (ع) ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(١).

من خلال هذه الرؤية يتضح جلياً أن حزب الله في مرتكزاته الفكرية الأساسية لم يكن يجد أن الحاجة ملحّة عنده ليغوص في اجتهادات رؤيوية ليكوّن من ذاته مدرسة خاصة به، تقحمه في جدالات واسعة طغت على التجارب الإسلامية الأخرى، وأخذتها ذات اليمين أو ذات الشمال، وأخضعتها لنقاشات كلية واستراتيجية، وأدخلتها في سجالات أو صدامات تركت بصماتها على الخيارات الفكرية والعملية، دون أن يعني ذلك أن المتبنىّ هو الجمود وعدم الدخول في حيوية التجديد اللازم ومراعاة التطور والحراك الطبيعي في مواكبة متطلبات التجربة وملاحظة خصوصياتها، التي قد تتبدل وتخضع للظروف المتحرّكة؛ ذلك أن نفس نهج الإمام الخميني(قده) يحمل في طياته، ويجسّد في بنوده التجدد والمعاصرة في فهم الإسلام، وصياغة التجربة الإسلامية. وهذا لم يقتصر عند الإمام على الجانب الفقهي الاجتهادي، الذي يعتبر فيه أن ملاحظة الزمان والمكان والمتغيّرات من العناصر الضرورية للاجتهاد، بل يتعدّاه إلى رؤية متقدّمة جداً في بناء المجتمع الإسلامي الأصيل والمتحرّر في آن، وإلى التصدّي للشأن العام بكل أبعاده وإلى الحضور في ساحة الصراع السياسي بقوة.

ثم إن هناك أمراً بالغ الأهمية ينبغي الإلفات إليه؛ وهو أننا حينما نتحدّث عن الإطار العام، الذي نتبنّاه لا يعني أن يجد حزب الله نفسه معنياً بكل المفردات والتفاصيل التي يفترض أن يكون

النقاش حولها دائراً في أطر أخرى، نقاربها أحياناً وننأى عنها أحياناً أخرى، فحزب الله؛ مستنداً إلى هذا الفكر، حدّد دوره وهويته بأنه تيار إيماني مقاوم، فهو إذاً ليس حوزة علمية ولا جامعة أكاديمية، وليس معهداً ثقافياً أو ما شاكل، فهو معنيّ بكل هذه العناوين التي لا يغفل عن تأثيراتها في الساحة الإسلامية عموماً، لكنه ليس متصدياً لكل هذه الشؤون، وهذا المعنى يقوده إلى تركيز الاهتمامات والأولويات في ما يتصل بدوره بشكل مباشر أو غير مباشر، وفي نفس الوقت يحترم ويقدر الأطر الأخرى المعنية بسائر الاهتمامات، ويتعاون معها ويحاذر من التوغل فيها إذا كان مضراً بأصل المهمة. وهناك أمثلة كثيرة شهدتها الساحة الثقافية لم يكن حزب الله طرفاً مباشراً فيها، وقد يكون البعض يعيب عليه هذه الصفة، لكن الرضى بهذا الواقع ينشأ من واقعية الإدراك للحدود والأدوار؛ مما يجعلنا نعتبر هذا الأمر عنصراً إيجابياً، ومنقبة فضلاً عن أنه ليس عيباً.

ومن جهة أخرى، فإن إحدى تجليات الالتزام الصارم بهذه الهوية، وإحدى مفردات الانتماء لنهج الإمام الخميني (قده) هي أن حزب الله يعتبر نفسه تياراً جماهيرياً، وليس نخبوياً؛ وبالتالي فإن حركة التثقيف، وتناول الأمور الفكرية عنده تصبّ في خدمة هذا البعد، دون أن نعتقد أن الاتجاه النخبوي يتصادم حتماً مع الاتجاه الجماهيري، بل إن ما نراه منسجماً مع طبيعة الإسلام وأحكامه أن نسعى لصهر النتاج النخبوي في خدمة حركة الأمة والناس عموماً، وقد قبل حزب الله هذا التحدي، وزاوج إلى حد كبير بين هذين الأمرين، وعقد مصالحة هامة جداً بين هذين البعدين، وما زلنا إلى الآن نعيش حالة التحدي هذه، والتي لا يبدو أنها ستنتهي لما علق في الأذهان وللأداء الخاطئ من قبل البعض في مراحل كثيرة ومريرة، وما زال البعض لغاية الآن يفتك بيسر الدين حينما يقصره على الخاصة فهماً وثقافةً وسلوكاً، كما أن البعض ما زال يمعن في ظلم الأمة حينما يجنح إلى إبعاد الدين عن حركة الناس وحضورهم الفاعل في الساحة.

يتضح مما ذكر، أن الشأن التثقيفي أخذ حيّزاً كبيراً في حركة حزب الله، وشغل جوانب كثيرة في أولوياته وبرامجه وقد حدّد حزب الله لهذا العمل أهدافاً وسياسات، واعتمد فيه على مرتكزات.

فقد أولى حزب الله عناية خاصة للموضوع الثقافي، واعتبر أن هذا الشأ ن مسؤولية الجميع داخل الحزب، وليس مقتصراً على جهاز بعينه، وقد قام قياديوه في كل المراتب بهذه المهمة؛ سواء ما كان منها موجهاً لداخل الجسم التنظيمي وفي مختلف التشكيلات أم ما كان منها موجهاً للعموم من خلال الاستفادة من العدد الكبير من العلماء والمثقفين والأساتذة والمسؤولين، حتى اصبح من بديهيات أية جلسة تنظيمية أن تحوي على موضوع فكري أو إيماني، وأكثر من ذلك فإن جميع الاستحقاقات السياسية والعملية تخضع لمبادئ ثقافية مدروسة بعناية ومستقاة من صلب المنهج الإسلامي الذي نتبناه، ومن أهم العناوين التي تمّت ملاحظتها في سياق السعي للوصول إلى الغاية المنشودة وللمحافظة على نهج الاستقامة هي التالي:

شمولية الإسلام:

الإسلام الذي نعتقد به هو الدين الذي يتضمن معتقدات وتشريعات تطال كل جوانب الحياة ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسلام﴾(٢)، ﴿وَمَنْ يَبتَغِ غَيْرَ الإِسلام دِيناً فَلَنْ يُقبَلَ مِنهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾(٣)؛ وعليه فليس المقصود هنا مجرد الالتزام الظاهري أو الاقتصار على الالتزام المرتبط بالشؤون الفردية للمكلف، بل المقصود هو الرؤية الواسعة والشاملة التي تتجاوز الفرد ليكون الإسلام هادياً وموجهاً في كل أمور الحياة في مختلف العصور والأزمان. والدين هنا ليس شعاراً لتمييز فئةٍ عن أخرى، بل يدخل في كل التفاصيل، وأن تشريعاته حوت من القدرة ما يجعلها الشفاء الفعلي لكل أمراض الفرد والأمة، وإذا كان المسلمون يعانون من نقص أو ضعف؛ فالسبب يعود لترك هذا الدين جانباً، إما بشكل كامل أو بشكل جزئي؛ وعليه فلا مجال للقول: إن الأحكام تنفع في المسجد أو في البيت أو في بعض الواجبات والفرائض فقط، ولا تنفع في سائر الموارد في شؤون ثقافية عامة واقتصادية وسياسية وغير ذلك. والنظرة التي نتبناها هي النظر إلى هذا الإسلام العزيز بروحية متكاملة لنتمكن من حسن الاستفادة من الانتماء الحقيقي، فالإيمان ليس إيماناً تجريدياً ولا ساذجاً وسطحياً، بل هو عقيدة راسخة تنبثق منها الحلول لكل مشاكل الإنسان، وأن طريق الخلاص لا يتأتى إلا من خلال الالتزام والتوجه للحقائق وللمناهج وللأساليب التي أرساها رسول الله (ص) في تجربته وأكّدها الأئمة عليهم السلام:﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(٤).

إن تقديم هذه الرؤية تبدو سهلة وبسيطة إذا كان الهدف هو الوصول إلى حالة التسليم الفكري والعملي، لكن ما يتم التركيز عليه في هذا الجانب هو السعي لإثبات هذه القناعة وامتلاكها عن طريق الوعي والإقناع والاستدلال، وهذا ما يحوجنا إلى الدخول في طرح الآراء المقابلة ومناقشتها؛ بدءاً من معالجة الفهم التقليدي الخاطئ للدين، والذي يؤدي إلى الجمود والانعزال، أو المراوحة في مرحلة الدفاع أمام الآخرين والتقوقع في إطار التلقي للأفكار التي تغلغلت في أمتنا وصولاً إلى نقاش مركز للطروحات غير الدينية أو التي تتعارض حتى جزئياً مع روح الأهداف الدينية السامية. وما ينبغي الوصول إليه هو التركيز على الحيوية والفاعلية التي يخلقها الدين في حركة الإنسان والمجتمع والحياة بما يتطلبه ذلك من معرفة ولو إجمالية برأي الدين في الأمور الأساسية التي تهم الفرد، كما أن الحاجة تبقى ملحة لتبيان المسؤولية التي يفرضها هذا الانتماء الرسالي، والذي يجعل في مقدمة أولويات وأهداف الفرد هو المشاركة﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾(٥).

إن الاتجاه العام الذي يراد رسمه في هذا الفهم، هو صهر أبناء الأمة في حركة تكاملية واحدة؛ يكون القائد فيها هو التشريع الإسلامي ومراداته، وإلقاء الخصوصيات جانباً لنصل إلى مستوى يتناسب مع التشريعات، ولتتشكّل الأمة الواحدة ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾(٦).

لطالما اعتبرنا أن هذه الرؤية هي المدخل الصحيح لحضور العلماء والمفكّرين، وكل طاقات المجتمع الإسلامي في الساحة ومشاركتهم من الموقع الرسالي في كل القضايا التي ترسم معالم الشخصية الإسلامية، والتي تحفزّها على العطاء والتضحية في سبيل مشروع إلهي بدأه الأنبياء والرسل (ع) وبقي علينا وظيفة الاستمرار في منهج الانتماء إلى مشروعهم الذي يمثل خلاص البشرية.

البعد العقائدي:

إذا كان حجر الزاوية في الشخصية الإسلامية هو الجانب العقائدي، فإننا في المنهجية التي نعتمدها لا نقتصر على عرض الأدلة العقلية بالشكل التقليدي، والذي لا غنى عنه على أي حال، ولكن ما نرمي إليه في البناء العقائدي؛ هو محاولة إيصال الفرد إلى حالة اليقين وتلمّسها من خلال صبّ الجهود التعليمية والتربوية في صياغة متكاملة، لتحاكي الأسئلة الكامنة في نفس الانسان. وهذا المنهج نفسه الذي اعتمده القرآن الكريم، وزخرت به التجارب العظيمة للأنبياء والأئمة (ع)، فالبعد التوحيدي يطال كل شيء وينفي العلة الذاتية عن كل مخلوق، وبإمكان أيّ مؤمن أن يصل إلى هذا المعنى من خلال برامج مركزة تحتاج إلى صفاء العقل والروح والغوص في الآيات الآفاقية والأنفسية ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾(٧).

إننا نعتقد أن الفرق كبير جداً بين عقيدة تقدم على أساس أنها فكرٌ وفلسفةٌ تقابل الأفكار والفلسفات الأخرى، وبين عقيدةٍ تقدّم على أساس أنها تعني كل الأبعاد التي تحويها الشخصية الإنسانية، والتي يكون الجانب الفكري فيها أحد مفرداتها؛ لذا نجد أن إعطاء فرصة للتأمّل والتفكّر هو من الأمور الضرورية للوصول إلى التوحيد الخالص والجامع، كما أن العمل على تغذية الروح بعبادات وأدعية وتجارب هي أيضاً عناصر ضرورية في هذا المعنى؛ لذا فإننا لا نقتصر على متون محدّدة في هذا المجال فحسب، بل إن حالة التثقيف هنا تقوم على الاستفادة من كل التجارب: فتجربة المقاومة الإسلامية تتجلى فيها هذه الأبعاد، وبرأينا هي نتاج هذا التوحيد الذي يفضي طمأنينة وثباتاً وقوة في ساحة المعركة، ولا يمكن لأي عامل آخر أن يقوم مقامه. والعقيدة هنا ليست كتاباً ولا برهاناً عقلياً محضاً، بل هي حالة مترسّخة في الوجدان وحاضرة في كل الساحات، لذا لا يمكن أن نعتبر أن المادة التثقيفية التي تقدم لهذا الغرض تقتصر على دورات خاصة نقوم بها فإن الدورات والندوات والنقاشات والكتابات بمنظارنا مفاتيح أولية للفكرة التي تحتاج إلى متابعة وملاحقة في كل اللحظات. وقد يرى البعض أن هذه الطريقة فيها من المبالغة ما لا يخفى، وما لا يمكن تعميمه على حالة جماهيرية كحالة حزب الله فنحن، وإن كنا نرى صعوبة هذا الأمر، لكننا نعتبره الأساس الذي لا يجوز أن نحيد عنه؛ لأن المزج بين ما هو في صلب العقيدة وما هو في صلب المهمة هو أمر ضروري، ويوجد انسجاماً وتلاؤماً تشتد الحاجة إليه في حركة إسلامية حملت أهدافاً عظيمة وكبيرة والا كيف يمكن أن نلتقي مع المفهوم القرآني الذي تضمنته

الآية ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٨]؛ فإذا كنا ننشد النصر والغلبة في كل ساحات المواجهة، علينا أن ننطلق من عقيدة معاشة لا تحيد عنا ولا نحيد عنها، وهي (التولّي) الحقيقي على أي حال لله وللرسول وللذين آمنوا، وليس هذا إلا تجسيد للتوحيد في مقام الفعل الذي يبتني على رؤية توحيدية راسخة وشاملة.

ولايـة الفقيـه:

تعتبر نظرية ولاية الفقيه من أهم النظريات التي أخرجها الإمام الخميني (قده) من الأدلة الشرعية والعقلية لتكون مشروعاً كاملاً يعالج أهم المشكلات التي واجهت الحركات الإسلامية، والتي أدّت إلى حالة التشرذم والضياع؛ فالنظرية - كما هو واضح - من عنوانها تتضمّن أمرين أساسيين: أولهما الولاية، وثانيهما الفقيه الجامع للشرائط.

أما الولاية؛ فهي أصل اعتقادي نلتقي معه حين نتحدّث عن السبيل الذي يجب الاعتقاد به والتزامه لحفظ الدين والأمة الإسلامية، وهي الخط العريض الذي يؤمن به كل علماء الشيعة، معتمدين على نص الرسول (ص) في الولاية المجعولة للأئمة (ع) بعد الرسول الأكرم (ص). وهذا المفهوم ذو بعدين: اعتقادي يدخل في صلب الأصول الدينية، وعملي يجمع القيادة وولاية الأمر التي يترتب عليها حق الأمر والنهي؛ فإذا كان البعد الأول منحصراً في الأئمة الإثنى عشر(ع)، فإن البعد الآخر لا يسقط في زمن الغيبة الكبرى للإمام المهدي (عج)، بل إن وجود هذا البعد وامتداده يعتبره الإمام الخميني من البديهيات العقلية التي تنبثق من ضرورة حفظ التشريع والأمة، وإقامة الدين والعدل وإن كان السؤال عمّن له حق الإمرة، فالجواب يوضح لنا المفهوم الآخر وهو الفقيه؛ أي العالم المجتهد الجامع للشرائط؛ إذ القيادة منحصرة فيه في زمن الغيبة الكبرى، وإن له ما للمعصوم على مستوى إقامة الدين وإحياء التشريعات والقيادة الفعلية، وإذا أستثني أمر من هذا الحق فلوجود دليله الخاص.

إن ما يهمنا هنا هو بيان أهمية هذه الفكرة ومحوريتها، ولسنا في صدد بيان الأدلة على ولاية الفقيه وتفاصيلها، فسماحة السيد القائد الإمام الخامنئي (دام ظله) يعتبر أن ولاية الفقيه هي العمود الفقري في النظام الإسلامي، وهذا المعنى بحد ذاته يشكل محوراً أساسياً في الثقافة التي يتبناها حزب الله، وأصبحت من المميزات الواضحة التي يمتاز بها؛ ذلك أن مشكلة القيادة كانت وما زالت من المشاكل الأساسية التي تعانيها الكثير من الحركات الإسلامية، والأخطر في الأمر هو موضوع المشروعية، فهل يكفي أن يتصدّى إنسان أو عالم لشؤون عامة يترتب عليها مواقف سياسية وأنشطة كبيرة وخطيرة لنقرّ له بشرعية القيادة، فما هو الحد الفاصل بين القيادة الشرعية وغيرها؟ إن نظرية ولاية الفقيه تعطي إجابة واضحة عن هذا الموضوع، وتنظم الأمة في إطار موحّد يستقي مشروعيته من نفس الدين والشريعة، فإن اجتماع مواصفات العلم والشجاعة والوعي والتقوى يعطي الحق في التصدي لشؤون الأمة، وهذا الأمر يرتكز على تشخيص أهل

الخبرة والمعرفة، وإن التعمّق في هذه النظرية والالتزام بها يعطي لكل قرار شرعية خاصة، ويبرئ الذّمم في مجال التصدّي، والأهم هو أنه ينقذ الأمة من متاهات الاجتهادات الخاصة والتفرقة، والتي كانت دائماً سبباً رئيسياً من أسباب الضعف أمام العدو، بينما نجد أن الاجتماع ولو الجزئي حول قيادة شرعية موحدة كان دائماً مدعاة للقوة والمنعة.

إن ما يقدّمه حزب الله على مستوى الثقافة، هو التأكيد التام على هذا الأساس ومنه تتولّد الشرعية الدينية لكثير من الأنشطة والأعمال التي يقوم بها وتحتاج إلى غطاء شرعي، والولاية في فهم حزب الله ليست جناحاً للاحتماء أو التستر به، بل هي المنشأ الأساس للخيارات في إطاراتها الكلية.

ومن المهم جداً أن أشير هنا إلى أن ولاية الفقيه التي نؤمن بها، ليست عنواناً لنفترق من خلاله عن الآخرين، أو لنحصر الحق في الجانب الذي نأخذه؛ إذ إن الفهم الصحيح لملاكات الفكرة والالتزام السليم بها يكون سبباً من أسباب جمع الطاقات وصهرها في خدمة مشروع الإسلام؛ فالهدف منها هو الجمع وليس التفرقة في وقت نرى فيه بأعيننا أن إحدى أهم معضلات الأمة هي الاختلافات التي تفضي إلى التناحر والتباعد والاختلاف في مقام العمل، كما أن ولاية الفقيه لا تعني الشخصانية بحال، فالشخص له قدسيته واحترامه والطاعة بمقدار ما يعبّر عن الشرع والإخلاص من الموقع العلمي والتجريبي؛ فالإمام الخميني (قده) يقول في بعض كلامه:«... يتضح مما ذكر أن الولاية ليست لشخص الفقيه، بل هي للفقاهة التي يحملها»، إذ إن قوة الفقيه تنبع من قوة التزامه، ومن المعرفة والإخلاص.

ومن الأمور التي نوليها عناية خاصة في شرح هذه النظرية، هو الاستدلال بنفس التجربة التي خاضها حزب الله، معتمداً على هذا المبدأ الذي كان سبباً حقيقياً لجمع المؤمنين والمجاهدين والعلماء وتوجيههم الوجهة الصحيحة، وتحديد المسار الكلي الذي أنتج كل هذه الإنجازات بفعل الانقياد والطاعة، وعلى حاشية موضع ولاية الفقيه، يبرز أمران أساسيان يحتلان موقعاً جيداً في الثقافة المعتمدة:

العلماء: من حيث المبدأ، وبناءً على نظرية ولاية الفقيه، من الطبيعي جداً أن يحتل العلماء موقعاً مميزاً إذ يُعتبرون الحجج على الناس في زمن الغيبة الكبرى، وإليهم تتوجه آمال الناس وهم الحفظة للشريعة والمروّجون لها، وهم في الموقع المتقدم والقيادي، وعليهم تقع مسؤولية بيان الموقف الإسلامي من القضايا المطروحة، وفي خضم التحديات، فالعالم ليس مفتياً فحسب، ولا يقتصر دوره على الوعظ والإرشاد، بل هو القائد الفعلي الذي يفترض أن يجسّد في سلوكه وآرائه الدين والشريعة، وهو الحصن الذي لا يجوز أن يسقط حتى لو سقطت وتهاوت كل الحصون؛ ففي الرواية «العلماء حصون الإسلام»، «وإذا صلح العالِم صلح العالَم، وإذا فسد العالِم فسد العالَم»؛ وعليه، فالعالم في هذه النظرة، موجود وبقوة في الموقع السياسي والموقع الجهادي، كما هو وجوده الطبيعي في الموقع الفكري والروحي؛ وفي حالات الشدة والخطر على الإسلام والمسلمين على العالم

أن يظهر علمه، ليس من خلال الخطابات والكتب فقط، بل عليه أن يكون حاضراً في الساحة ليدفع هذا الخطر بكل قوته؛ هذا الدور المميز للعالم يربط أفراد الأمة به، ويجعلهم يتحلقون حوله، ويأتمرون بأوامره وهذا الارتباط لكي يؤدي غايته السامية، لا يجوز الاقتصار فيه على الأمور الشكلية كإظهار الاحترام والتقدير وتقديمه في المناسبات وما شاكل، وإنما يحمل مسؤولية كبيرة للعالم على مستوى علومه ومعارفه وسعة اطلاعه، وهو بحسب المفترض قد تصدى لدور ريادي هامّ، وعليه أن يتحلى بالوعي والسياسة والفهم للأمور المعاشة ومواكبتها ويفترض أن يكون شجاعاً، ومبادراً ومضحياً، وأن يتحلّى بمواصفات الزهد الحقيقي، ولا أقله عدم الانكباب على الدنيا، فإن ربط الناس بالعلماء يحتّم عليهم أن يكونوا مهيئين وجاهزين للقيام بالمسؤولية الخطيرة التي تصدّوا لها؛ وبناءً على هذا كله، فإن إحدى الضمانات على المستوى الفكري والعملي والسياسي أيضاً هو توثيق هذه العلاقة والاقتداء بالعلماء الربانيين. وكي نحصل على المراد، وكي لا تتم الاستفادة الخاطئة من هذا المفهوم وهذه الرؤية، ينبغي التمييز جيداً بين العالم الرباني وبين غيره، بين العالم الواعي والعالم المتحجّر، فإن الإسلام كما يحفظ ويحصن وتحيا تشريعاته بالعالم الرباني، فإنه (أي الإسلام) قد أقصي والتحقت به المظالم الكبيرة نتيجة وجود فئة من قطاع الطريق؛ وهم العلماء المتقوقعون والجامدون والمتقدسون والمنحرفون.

ثقافة التكليف:

قد يقال: إن مقتضى الإيمان والالتزام أن يسعى المؤمن لمعرفة تكليفه الشرعي ويلتزمه، وهذا الأمر ليس ميزة بحد ذاته، لكن ما نقصده هنا هو النظرة المستقيمة والصحيحة في تلقي الأحكام والالتزام بها، وأن ما ينبغي أن يشغل بال الإنسان هو أن يؤدّي ما عليه في هذه الحياة الدنيا، وأن يرضي ربّه وان هذا الأمر يبدو ميسّراً وسهلاً في الأحكام العبادية المعروفة، لكن إذا أخذنا الأمر من الناحية العامة، في حال التصدّي للشأن العام، اجتماعياً وسياسياً حيث تكثر الاجتهادات والآراء قد لا يرى المكلف نفسه في بعض الأحيان يفرق كثيراً عن غيره من الناس، وحتى العلماء، وبالتالي، بإمكانه أن يشخّص مصداق الفتوى ويحدّد موقفه التفصيلي، لكن بمنطق الالتزام بالولاية من الناحية الشرعية فإن براءة الذمة تتحقق من خلال تشخيص من بيده الأمر؛ أي الولي أو من ينوب عنه، وعليه فإن دائرة الاختلاف مقفلة من الناحية العملية، والباب المفتوح بعد صدور التشخيص هو الالتزام من الموقع الشرعي، وهذا هو معنى أداء التكليف، هذه الثقافة تستبطن فهماً معمّقاً فكرياً وروحياً يستند إلى رؤية عقائدية ثابتة توصل الإنسان في مرحلة التربية وصقل الذات لكي يكون جاهزاً وعلى أتمّ الاستعداد لالتزام التكليف مهما كانت قناعته الخاصة، وفي مستوىً إيماني معيّن لا معنى لأن يرضى الإنسان أو لا يرضى بعمله، بل المهم أنه أدى ما عليه، وهذا سيكون حتماً ذا نتائج إيجابية؛ لأن الأصل هو طاعة أحكام الله، وإن حكم الله في المجال العملي يتجسد بتشخيص ولي الأمر. ومن الأمور الهامة والحساسة جداً التي تترتب على هذه الثقافة هي الطاعة والاستقامة التي تضبط مسار الأفراد وفي مرحلة ثقافية متقدمة تضبط مسار

الجماعة والأمة والذين يلتزمون تكليفهم، فالأصل أنهم غير معنيين بالنتائج؛ بمعنى أن الهدف الأساسي يتحقق بمجرد الالتزام والطاعة والآثار الأخرى هي مترتبات ... إنّ أصل الالتزام بالتكليف هو من الأصول العملية الهامة جداً في ثقافة حزب الله، وإذا كان البعض يعتبره عيباً فإن حزب الله لطالما اعتبره مفخرة؛ لأنه يعبّر عن مستوى التسليم في الإيمان الذي يدعيه من يلتزم التكاليف الصادرة عن حزب الله، على أساس أنها توجب رضى الله تعالى، وهذا الأمر لا يعني بأي حال الجمود، فإن مناشئ التكاليف تعتمد على قدرات عالية وآراء متخصصين حتى لا يكون الأمر يتحرك في دائرة المزاج أو الاستعجال في التشخيص، بل يبقى محفوظاً في دائرة المصالح التي يعود تحديدها في النهاية إلى القيادة الشرعية.

يبقى أن نشير إلى أمر مهم جداً في موضوع ولاية الفقيه، وهو أن الانتماء إلى هذه النظرية والالتزام بقيادة الولي لا يغيبان بالضرورة تجاوز الخصوصيات التي تفرض أنماطاً محددة بحسب ساحة التصدّي، ولعلّ الكثير من الإشكاليات التي وجهت إلى حزب الله ومقاومته ناشئة من هذا الفهم الخاطئ؛ إذ اعتبر البعض أن هدف المقاومة هو في خدمة النظرية وبرامجها، بينما الصحيح أن المقاومة استندت إلى قوة النظرية في خدمة شعبها والوطن والأمة.

الجهاد في سبيل الله:

يأخذ مفهوم الجهاد حيّزاً خاصاً بين سائر المفاهيم التي يفترض أن يتربى عليها أبناء هذه المسيرة، ويرتكز هذا الاهتمام على عاملين أساسيين:

إن القيام بوظيفة الجهاد من الفرائض التي إذا كانت تكليفاً لفرد أو مجموعة، فإن ذلك يعتبر من النعم الإلهية التي لا ينبغي تفويتها؛ ففي الحديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «إن أفضل ما توسّل به المتوسلون إلى الله بعد الايمان بالله ورسوله الجهاد في سبيل الله». وفي خطبة الجهاد «الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل..»، وبالتالي، فإن كانت القيمة الحقيقية للإنسان المؤمن بمقدار نجاحه في الامتحان والابتلاء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(٩) فإن امتحان الجهاد يرفع الإنسان درجات عالية إذا تمّت تأديته على وجهه الشرعي، وبرضى النفس ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾(١٠). وحيث يُفتح هذا الباب يكون سبباً كبيراً من أسباب القرب من الله تعالى والوصول إلى العزة والتوفيق، وعليه فإن الذي لا يوفق لأداء هذا الأمر يكون قد حرم الخير الكثير الذي يعود عليه وعلى أمته.

إن الوظيفة العملية والدور اللازم لأبناء حزب الله هو مقاومة العدو الإسرائيلي بالجهاد؛ لأن الوقائع التاريخية والسياسية تدل بشكل واضح أنه لا خلاص لأمتنا إلا باتباع هذه السبيل، وأن الوظائف الأخرى مهما كانت مهمة لكنها بلحاظ الظروف المحيطة وكل التجارب لا توصل إلى النتيجة، وما أصبح شائعاً ومعروفاً أن محورية العمل في حزب الله تقوم على أساس هذا المفهوم

الذي تجلى بالمقاومة الإسلامية التي بدأ حزب الله حضوره من خلالها وما زال لغاية اليوم، وأن تبيان هذه الفرضية الفعلية يحتاج إلى بسط كل الواقع السياسي الذي عاشته أمتنا على مدى عقود ماضية، وأنها خسرت الكثير من مواقع القوة واصبحت غثاءً كغثاء السيل لا مهابة لها، ولا تمتلك القدرة على مواجهة المشاريع الاستكبارية والصهيونية؛ كل ذلك بسبب التخلي عن الجهاد، وبالتالي، فإن الوصول إلى العزة والشموخ لا يتحقق إلا بهذا النهج الجهادي، مع الأخذ بكل مقتضياته ودون قصر الأمر على مصداق واحد، إذ إن أبوابه متعدّدة وحالاته كثيرة والإعداد العملي الناتج عن هذه الثقافة يحتّم الدخول الفعلي في هذه الوظيفة.

إن مهمة الجهاد في حزب الله ارتكزت على رؤية شرعية ودراسة وافية وصفاء في الرؤية للطريق الذي يوصل إلى خلاص الشعوب ورفع الظلم اللاحق بأمتنا من الاحتلال ومشاريعه الهدّامة، والتي اعتمدت على القوة والبطش، وعليه فإن مفهوم الجهاد في إطاره الواقعي والعملي، ليس منسلخاً عن الوقائع والأهداف المشروعة لنيل الحرية والاستقلال، وبالتالي ليس مطلوباً بحد ذاته، كما ربما يقدمه البعض ولو من قبيل الخطأ أو التسرع أنه أداة عنفية يلجأ إليها اليائس والمظلوم كيفما كان، ثم إنه استناداً إلى هذا المعنى، لا يكون موجهاً إلا إلى أعداء الوطن والأمة، وهو في نفس الوقت يخضع لضوابط شرعية وأخلاقية لا يجوز بحال أن تقر الظلم والاعتداء على أي إنسان، أو أن تقبل بتجاوز الحدود المرسومة، أو أن تناقض الهدف المحدد، وهذه الميزة طبعت كل التجربة الجهادية للمقاومة الإسلامية التي قفزت على مدى أكثر من عقدين فوق كل المحن الصعبة ومحاولات جرها إلى معارك جانبية من أجل تلويث التجربة ونقائها، ومن المفيد الإشارة إلى أن هذا الفهم وهذه الثقافة الواعية والأصيلة متغلغلة في عقل وسلوك المقاومين، وشكّلت في مخزونهم الثقافي وذاكرتهم عنصر استقامة من موقع الصبر والمسؤولية.

مفهوم الاستشهاد:

كل الثورات وحركات المقاومة المحقة في العالم أعطت لمفهوم التضحية قيمة مميزة، واعتبرت أيّ بذل في طريق تحقيق الأهداف السامية هو عمل شريف يستحق الاحترام والتقدير، وافتخرت الشعوب بأبطالها وشهدائها الذين يحققون بدمائهم الحرية والاستقلال، لكننا نجد في النظرة الإسلامية خصوصية مستوحاة من نفس العقيدة والإيمان بعالم الآخرة والحياة الحقيقية بعد الموت؛ إذ اعتبر الإسلام أن الذين يقتلون في سبيل الله هم أحياء حقيقيون بانتقالهم إلى الحياة الحقيقية عن طريق الشهادة **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**[11]؛ وبالتالي، فإن أحد السبل الأساسية للوصول إلى الكمال الفردي هو أن يلقى المؤمن ربه وهو مضرج بدمائه في سبيل الدين والوطن والإنسان، مضافاً إلى سبيل الخلاص الذي يكتبه لأمته من خلال الأمثولة التي يقدّمها وعظيم التضحيات التي يبذلها عن قناعته.

وإذا كان حزب الله يعرف منذ البداية أن الطريق الذي اختاره هو طريق ذات الشوكة، فإنه

يعلم جيداً أن الذي ينتظره في هذا المجال هو الاستعداد للتضحيات الجسيمة في واقع يعرف عنه سلفاً أنه لا يمكن أن يُغيّر إلا من خلال الثبات والاقدام وبذل الدماء، وكان يعرف جيداً أن كسر المعادلات القائمة بفعل الوقائع السياسية والحسابات المادية لا يمكن أن يحصل إلا باللجوء إلى معادلة انتصار الدم على السيف؛ لهذا كله أخذت ثقافة الاستشهاد وكربلاء والاقتداء بأبي عبد الله الحسين(ع) حيزاً هاماً في الأدبيات والمفاهيم التي ركز عليها حزب الله، ولعل البعض فهم هذا المنحى بشكل خاطىء وتخيّل أن الذين يعبرون عن عشقهم للشهادة والموت هم غير طبيعيين في التكوين النفسي والعملي، بينما نجد في المقابل أن الأمر كان منطلقاً من رؤية متكاملة تستند إلى هذا المخزون الثقافي والتاريخي ليكون في خدمة القضية في أصعب الظروف وأحلكها، وعليه فالثقافة السائدة والتي أثرت بشكل كبير في مجاهدي حزب الله وأهلهم نشأت من وعي كبير لطبيعة المهمة التي اختاروها بملء إرادتهم، وتعلقوا بها لأنها عين التزامهم وصدقهم، ولطالما كان التأكيد على أن المشروع الذي يحوي كل هذه التضحيات ليس مشروع الموت والقتل، بل هو مشروع الانتصار وكسر إرادة العدو وجبروته والشهادة هي إحدى الأدوات الشرعية والمتاحة التي لا يجوز أن يبخل المجاهدون بها إذا كانت خدمة لأمتهم وأوطانهم.

وفي هذا الموضوع بالذات، من المهم الإشارة إلى أن مجالس العزاء وخاصة في محرّم، تعتبر من المؤثرات الهامة التي لا نكتفي فيها بذكر المصاب وتمثل القدوة في شهادة الإمام الحسين (ع) وأصحابه، بل هي فرصة هامة وجليلة للدخول إلى الأحداث السياسية وتحليلها وفهمها انطلاقاً مما حصل في كربلاء، واستفادة من الدروس والعبر لتحديد الموقف الصحيح في ظروف سياسية قاتمة وفي حالة التراخي الإيماني والضياع الفكري.

ومن خصوصيات هذه الثقافة أنها تطال كل الذين يؤمنون بخط ونهج حزب الله، فكما أن غاية الشاب أن يبذل دمه في هذا الطريق، كذلك هي غاية القادة والمسؤولين؛ وبالتالي، فإن ما يرتكز في الثقافة العامة أن دماء الشهداء ليست للاستثمار وخدمة المشروع فحسب، بل هي تعبير عن مدى الانصهار والقناعة بهذا النهج المقاوم. وما يزيد في ترسيخ هذه الرؤية حينما يشارك الجميع بحسب الإمكان في عملية الجهاد، فإن كل واحد يكون عرضة للاستشهاد في أية لحظة، وحينما قدّمت النماذج بأرقى صورها في شهادة الأمين العام السيد عباس الموسوي (قده) مع عائلته وطفله فإن الأثر الذي يتركه توجّه من هذا النوع هو أعظم من أن يوصف يقول أمير المؤمنين(ع): «ما أمرتكم بشيء إلا وقد سبقتكم إليه وما نهيتكم عن شيء إلا وقد انتهيت قبلكم عنه».

تربية النفس (التعبئة الروحية):

يعتبر حزب الله أن بناء الفرد هو محور أساسي في المشروع الذي يتبنّاه، وأن الذي يمكنه أن يؤسّس لمعادلات جديدة تخترق الحواجز والموانع الكبيرة المفروضة على أمتنا هو الإنسان القوي بإيمانه. وإذا كان الفلاسفة والعلماء حدّدوا أبواباً عديدة لبناء الشخصية على المستوى المعرفي

والذاتي، فإن المنحى الذي اعتمده الإسلام هو أن يبدأ الإنسان من ذاته ليغوص في معرفة نفسه، على قاعدة من عرف نفسه فقد عرف ربه، وأن هذا المعنى يقوده حقاً إلى معرفة قوى النفس ومؤثراتها لتحديد الخيار السليم الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن، من خلال السيطرة على هوى النفس والتغلب على الشهوات والغرائز بقوة الإيمان والعقل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٭ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٭ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ٭ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(١٢)؛ إذاً هذه هي البداية للسير الطويل في عملية تهذيب النفس وتزكيتها، وصولاً إلى مرحلة جعلها منساقة للطاعات والكمالات حتى تصل إلى مرحلة الاستئناس بالعبادة والابتعاد عن المعاصي بشكل طبيعي... إن المنهج المعتمد في التربية الأخلاقية هو الذي اتبعه الإمام الخميني (قده) وأرشد اليه طوال عمره الشريف، مع إدراكنا الجيد أن هناك مناهج أخرى وطرقاً كثيرة ذكرها العلماء الأجلاّء إلا أن أسلوب الإمام الخميني (قده) يمتاز بالتركيز والفعالية، والاعتماد على القرآن الكريم، وتجارب الأنبياء والأئمة(ع) وأحاديثهم. هذا المنهج يميل بشكل كبير إلى الاتجاه العملي الموضوعي الذي يلاحظ الخصوصيات والظروف التي يمر بها الإنسان في هذا السفر الطويل إلى الله تعالى. والهدف هو المعرفة واليقين على طريق قول الإمام علي (ع) «كيف أعبد رباً لا أراه ؟!»؛ والرؤية هنا قلبية ووجدانية، وليست بالعين والارتكاز في هذا المنهج على تقوية الإرادة والعزم على القاعدة التي ينقلها الإمام الخميني (قده) عن أحد كبار أساتذته «العزم هو جوهر الإنسانية».

إن الطريقة التي يعتمدها حزب الله في اختيار التوجيه التربوي مبنية على هذه الرؤية، والمحصلة التي يبتغيها هي الوصول إلى بناء أجيال وكوادر سليمي الذات، يمتلكون صفاءً على مستوى النظرة الإيمانية وروحية عالية، تجعلهم قادرين على تجاوز المحن والصعاب، والتي مهما عظمت فهي هيّنة وسهلة بمنطق الابتلاء الإلهي ومن خلال «اللهم إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي..». والبرنامج الموضوع لهذا الغرض يحاذر الاستغراق في النظريات والآراء المتعدّدة، ويهدف إلى تحديد منهج عملي يعتمد على السهولة واليسر، ليكون بمتناول الجميع دون أن يبقى حكراً على مجموعة خاصة . لذا نجد هذا الاتجاه بارزاً في الخطاب الموجّه للعموم، من خلال المساجد والمناسبات العامة، فضلاً عن المناخ الثقافي الذي يغلّف حركة حزب الله بشكل عام، والمنهج العملي هذا يعتمد الابتداء بالأخلاق الفردية التي تعني المؤمن وعلاقته بربه ليكون أساساً من الصدقية مع ذاته، ثم يتجاوز الفرد ليتعاطى الأخلاق الاجتماعية، وصولاً إلى السلوكيات التي تدلّ على الشخصية المنتمية إلى هذا المنهج.

إن التأكيد على هذه الطريقة له تأثير مهم جداً في سلوكيات الأفراد في حزب الله، وفي الطابع العام الذي يطبع حركة علمائه ومثقفيه وحتى مسؤوليه، إن هذا الخط في التربية الروحية العالية يولّد اندماجاً عالياً مع المشروع العام ليكون الإنسان بخدمة الأهداف الإلهية الأساسية، بعيداً عن الطموحات الذاتية بمنظار المكاسب الدنيوية، والتي يراها البعض مشروعة في المنطق السياسي

العادي، لكنها إلى حد ما تبقى عيباً لا يعبّر عن مستوى من الإخلاص والذوبان في المبدأ وفق هذا المنظور دون أن يصل الأمر إلى حد تحريمها فالطموح مباح بذاته.

وبهذه الرؤية أيضاً تتولّد القدرات الهائلة في مواجهة الأعداء اتكالاً على إيمان بمستوى يكون معه سبباً للرحمة الإلهية الخاصة وأحد تجلياته الانتصار.

ومن خلال هذه النظرة يمكننا أن نطل على مفهوم مفاده أن العمل والجهاد والتضحية، وكل هذه الأمور من أجل أداء التكليف، فإن كانت المصلحة بالنصر والتوفيق الدنيوي فهذا عطاء إلهي، وإن لم تكن المصلحة في ذلك، فإننا نسلّم ونصبر.

ومن خلال هذه الثقافة، تكون الدعوة موجّهة بشكل دائم إلى أبناء حزب الله أن يكونوا متواضعين أمام الآخرين، وهم في ذروة الانتصار؛ لأنهم تربوّا أساساً على أن النصر من الله، كما أن القدرة التي جاهد بها من جاهد هي بتوفيق من الله، وأن الوظيفة حين امتلاك القدرة أو العنوان أو أيّ مكتسب هي خدمة الناس بحق؛ لأن السلوك هنا لا يفرّق في دوافعه بين السلوك الفردي الذي يخصّ الفرد أو الذي يطال شأناً عاماً اجتماعياً أو سياسياً.

وفي الخلاصة، فإن ما يحرص عليه حزب الله كثيرا، أن لا تغيب التربية الإيمانية بأي حال، وأن يبقى كوادره وعناصره منخرطين بشكل جاد في عملية تزكية النفس وجهادها الذي لا ينتهي، وتبقى الحاجة إليها ملّحة في طريق الاستقامة مهما كان حجم التكاليف، ومهما كانت الأوضاع المحيطة.

التاريخ الإسلامي (معرفة ودراسة):

لا شك أن للتاريخ أهميته الخاصة في العملية التثقيفية، كما للتاريخ الإسلامي دور كبير في صقل الشخصية وامتداداتها الفكرية وتأمين المخزون الضروري للتجربة التي تغني الفكر الإسلامي في مقام العمل والتطبيق وتناول التاريخ يكون على نحوين:

سرد تفصيلي للوقائع، وفي الغالب تعتمد المطالعة لنصوص وكتب تؤمن المطلوب مع توجيه غير مكثّف، ليتمكّن المتعلّم من إسقاط المفاهيم القرآنية والدينية بمختلف أبعادها على التجربة التي تقدم، ونعني - هنا تحديداً - سيرة الرسول الأكرم (ص) والأئمة الأطهار (ع)، وكبار العلماء الذين يشكلون النماذج العملية، كمايترك للطالب في هذا المرحلة عملية المقارنة البسيطة ليهتدي إلى المفهوم في مرحلته التطبيقية.

النحو الثاني: يعتمد على التحليل ودراسة الخصوصيات والظروف لوقائع التاريخ من أجل إعطاء فرصة كبيرة لأخذ العبر في مختلف المجالات، وخاصة الأحداث السياسية الكبيرة التي مرت والتي تحتوي على استفادات لا غنى عنها لكل من يريد أن يتعلّم من تجارب الآخرين وبالأخص حينما تكون التجربة للمعصوم الذي يهدي إلى الموقف السليم في كل الحالات.

ومن المهم جداً الإشارة إلى هنا إلى أن المنهج المعتمد يحاذر الدخول في المناهج المتعددة

الشديدة في الاختلاف والتباين، حتى لا نغرق المتعلم في نقاشات لا تعنيه، ولا يمكنه مجاراتها وإن كان هذا الموضوع يتم تناوله في المعاهد الخاصة بالأساتذة والمثقفين الذين يحظون بفرصة كبيرة لتداول الآراء ونقاشها.

الوحـدة الإسلاميـة والوحـدة الوطنيـة:

يفرّق حزب الله جيداً بين القناعة التي يحملها في الجانب العقائدي والمذهبي وبين ضرورة المحافظة على وحدة الأمة الإسلامية على اختلاف المذاهب والآراء الموجودة فيها، فإذا كان الفقه الشيعي يمتاز بالاجتهاد، فإنه يتحمّل كثيراً الاختلاف في الجانب الفكري دون أن يكون هذا الأمر عائقاً أمام وحدة الموقف، تجاه قضايا خطيرة وحساسة تمس كل المسلمين، والثقافة السائدة في هذا المجال هي الخوض العملي في مقتضيات هذه الوحدة والدعم الكامل لكل قضية إسلامية محقة. وفي المبدأ فإن المنهجية الرسالية تلزم بمستوى عال من تحييد النزاعات الخاصة لمصلحة الشأن الإسلامي العام، على قاعدة «لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين» وإن الميل الفكري، وحتى العملي أحيانا لأحقية بعض المسائل المطروحة لا يلغي المرونة اللازمة والضرورية للتواصل مع الآخرين والتعاون معهم، في سبيل نصرة العناوين الإسلامية العامة. وإننا نجد هذا المنهج الوحدوي قائماً في حركة أئمتنا (ع)، وهم أئمة المذهب حينما رفضوا أن يقصوا أنفسهم وأتباعهم حين يكون الأمر متعلقاً بصلب الدين والشريعة وقضايا الأمة.

إن الطريقة الصحيحة تقتضي من موقع الصدق والإخلاص لهذا الدين، أن نضحّي ونتحمّل في سبيل هذه القضايا وعليه، فان الميزة التي تظهر في هذا النمط الفكري والتثقيفي، هي حمل مشروع الوحدة الإسلامية بكل صدق وشفافية دون أن يعني ذلك التخلّص عن كل الخصوصيات المذهبية كما يتخيل البعض، ودون أن يعني بالطبع- حمل كل الخصوصيات دفعة واحدة بالشكل الذي يعدم فرص التلاقي حول قضايا كبيرة ومهمة.

إن الحرص الشديد الذي يبديه حزب الله تجاه الوحدة الإسلامية نابع من هذه الرؤية الثاقبة ومن إدراكه المعمّق أن الاستراتيجية المطلقة للأعداء مبنية على بثّ الفرقة، وخاصة بين المسلمين؛ ولذا فإن ثقافة الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى التفرقة المذهبية هي من الأسس المعتمدة والمؤكّد عليها، حتى لو اقتضى الأمر التنازل والتراجع وتحمل المظالم، فإن كل هذه الأمور تبقى هيّنة أمام الخسارة الفادحة التي تلحق بالأمة، فيما لو انجرّ المسلمون إلى أية فتنة أو تفرقة.

وفي نفس السياق، فإن وحدة أبناء الوطن من عوامل القوة التي لا غنى عنها في مواجهة مشاريع التقسيم والتفتيت التي عانى منها لبنان المرارات الكثيرة والكبيرة، والتي أدّت في تجارب سابقة إلى تغليب الخصوصيات الطائفية والمناطقية على حساب الوحدة الوطنية. وفي هذا المضمار يقدّم حزب الله تجربة فريدة من نوعها لحركة إسلامية زاوجت بين الثقافة الإسلامية الأصيلة وبين الرؤية الوطنية، ونفضت غبار الوهم الذي طالما اعتبر أن هناك تناقضاً بين

الأمرين، وأن الإطار الوطني الذي قدّمه حزب الله في مقاومة العدو الإسرائيلي باعتباره عدواً لكل لبنان كان وما زال حلاً ناجحاً وضرورياً لبلورة الاتجاه الصحيح لبناء وطن مستقل، يواجه عدواً شرساً. وفي هذه التجربة دلالة واضحة على سماحة الإسلام وسعة مفاهيمه وقيمه الإنسانية.

العدالـة الاجتماعيـة وخدمـة النـاس:

إذا كان الفكر الإسلامي يدعو إلى تحقيق العدالة الإنسانية من خلال إقامة حكم الله على الأرض، فإنه لا يعني بالضرورة انتفاء كامل العدالة والسعي لتحقيقها في ظل أوضاع وثقافات تعددية كما هو الحال في لبنان.

إن النظرة الحادة التي قد يتبناها البعض ليست سليمة من وجهة نظر حزب الله، والتي تعني إما أن يكون هناك حكم إسلامي، وإما معاداة ومناوأة فعلية لكل ما هو قائم، بل نعتقد أن طبيعة التشريعات الإسلامية المحكومة حتماً لروحية واحدة ومتكاملة لا تعني جواز القبول بالظلم، حينما نكون قادرين على رفعه كله أو بعضه. من خلال هذ النظرة فإن إقامة العدل مفهوم قابل للتطبيق، ولو جزئياً على أي حال، قياساً إلى المصاديق. ومن هنا كان السعي الدائم لتحقيق العدالة الاجتماعية، وحمل ذلك هماً وهدفاً للإسلاميين عموماً ولأبناء حزب الله على وجه التحديد، ومجتمعاتنا تعاني الكثير من الحيف والظلم بفعل أسباب تاريخية وتراكمات سياسية لا ينبغي أن ننتظر إنهاءها بالكامل حتى نكون قادرين على انصاف بعض المظلومين هذا من جهة عامة. وأما ما ينبغي أن يكون مرتكزاً في أذهان أبناء حزب الله هو أن يكونوا إلى جانب المظلوم على قاعدة كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً، وأن يكونوا إلى جانب الفقراء والمحرومين ليكونوا في خدمتهم من الموقع الإنساني والديني الذي يجعلهم في خدمة الناس؛ لأنهم أصحاب حق، ولأنهم مظلومون ومستضعفون، وليس لأنهم مؤيدون للنهج المقاوم الذي يتبنى. وهناك فرق كبير على مستوى الروحية وعلى مستوى البرنامج والمشروع؛ حينما تجد جهة سياسية نفسها مضطرة لتلبية بعض احتياجات الناس، وتسعى لمد يد العون لهم بخلفية سياسية أو جهوية، وبخلفية كسب التأييد والمودة، وبين الروحية التي تعتبر خدمة الناس عملاً يقرّب إلى الله وأن عدمه يوجب السخط الالهي، ويكون سبباً من أسباب عدم التوفيق في سائر الأمور، فكيف إذا انضمت إلى هذه القناعة فكرة أن النهج المقاوم في الأساس قام على أكتاف هؤلاء المستضعفين، وأن معظم الشهداء هم أبناء الحفاة والمحرومين، فإن المسؤولية أمامهم تصبح مضاعفة وأكثر إلزاماً.

هذا الموضوع يعيدنا إلى نقطة انطلقنا منها في بداية الموضوع؛ وهي البعد الشعبي في الرؤية الإسلامية التي يتبناها حزب الله، والتي تلزمه بمفردات قد لا تلتقي دائما مع الاتجاه النخبوي الخاص، لكنها على أي حال مستقاة من رؤية شرعية هي حاكمة على أي شيء آخر في ثقافة حزب الله.

الثقافة الغربية:

حينما نعالج موضوعاً من هذا النوع، لا يتم التعاطي مع الثقافة الغربية على أساس أنها ثقافة واحدة مجسّدة في أفكار وقيم محددة، لكننا ننظر إلى الموضوع من ناحية الاتجاه العام الذي تعبّر عنه، والذي يولد شخصيته على نمط محدّد وفق منظور قيمي خاص يكون إجمالا مغايراً للثقافة الإسلامية أو مناقضاً لها في بعض الأحيان.

بهذا المعنى، نتطلع إلى الثقافة الغربية من موقع الريبة والشك؛ لأننا نؤمن بالأصالة الفكرية في السعي لتكوين الهوية الثقافية للإنسان المسلم الذي تعرضت هويته وشخصيته وانتماؤه لأبشع وأشرس استهداف طوال القرون الماضية، وأن إحدى أهم وظائفنا اليوم هي إعادة الثقة بالنفس والانتماء، والتي إن لم نؤسّس عليها، فليس بالإمكان الحديث عن مواجهة فاعلة للمشروع الاستكباري والصهيوني في منطقتنا، إلا أننا في نفس الوقت نعطي اهتماماً خاصاً للاسلوب والطريقة فإننا لا نعتقد أن أسلوب الإخافة والترويع من ثقافة الغرب ومعاداة كل مفرداتها هو السبيل الذي ينفع في الوصول إلى الغاية المطلوبة، بل المعتمد هو أسلوب ضخ الوعي، وتفكيك المسائل عن بعضها البعض، في مقام التفريق بين الثقافة في بعدها الحضاري والتاريخي لشعوب وأمم، وبين نتاجاتها الخاطئة فكرياً وحضارياً، ومن جهة ثالثة بين مشاريع الاستغلال التي يتبناها ساسة الغرب وحكامه لتحقيق مآرب استكبارية على حساب شعوبنا ومقدّرات أمتنا؛ وعليه، فإننا نفرّق بين المنظومة الكاملة في ثقافة الغرب، وبين بعض مفرداتها التي لا نجد ضيراً في التعاطي معها بإيجابية أو حتى الاستفادة منها أحيانا في ما إذا كانت لا تتعارض مع هويتنا الثقافية التي ينبغي أن تحفظ وأن لا تمس.

هذا المنحى الثقافي يجعلنا بين موقفين متناقضين من حيث الشكل لكنهما من حيث المضمون يصبّان في خدمة فكرة واحدة، فإن كل ما يتعلق بالأسس والقيم الفكرية وما يمسّ صلب الهوية في بعدها الديني نرفضه بشدة، والأمور الأخرى التي تعبر عن تجربة شعوب ومفكرين وفي مؤداها لا تتنافى مع جوهر الانتماء، ونتعاطى معها بمرونة. ومن الطبيعي جداً أن الثقة بالنفس وبالانتماء هي التي تفتح لنا هذا الباب، وأن أكثر ما يجعلنا نخاف على أمتنا وعلى شبابنا وأجيالنا هو التعاطي مع مفردات الثقافة الغربية من موقع الضعف والانهزام الذي سيفضي حتماً إلى تقليد أعمى وإلى غربة فعلية عن طبيعة الانتماء والدور. وهذا ما نشهده وبكل أسف عند عدد لا يستهان به من الذين يتعاطون الشأن الفكري العام الذين ينساقون لايجابية تطرح من المنظور الغربي، دون أن يلتفتوا إلى الخصوصيات التي تحيط بهم، وأحياناً بإغفال كبير للأهداف الخبيثة المخبّأة وراء أية فكرة أو طرح.

الثقافة العامة:

من خلال ما ذكر سابقاً، قد يتخيل البعض أننا نلتزم الثقافة الدينية الخاصة في إطار توجيهي

تلقيني لا يفتح الآفاق أمام المعرفة الثقافية العامة، والاطلاع على الإشكاليات والنقاشات التي تضج بها الساحة الثقافية عموماً والإسلامية بشكل خاص. وللتوضيح فإن ما ذُكر يسلط الضوء على الاتجاه العام على ضوء دراسة متأنّية، وتحديد أهداف مركّزة ضمن محورية البناء الثقافي الذي نجده ضرورة ومسؤولية مباشرة، لها أولوية في التصدي العام للساحة الجهادية والسياسية إلا أن هذا لا ينفي على الإطلاق القناعة بضرورة مواكبة كل مستجد على الصعيد الثقافي العام الذي نعتقد أن مجاراته ومعالجة قضاياه له أهميته الخاصة، وهذا ما يقوم به حزب الله ضمن سياسة المشاركة مع المتصدّين لهذا الشأن، وضمن إطلاق برامج حوارات وندوات ولقاءات هادفة، وأحياناً من خلال تأسيس معاهد ومراكز دراسات متخصصة، لكن هذه المعالجات تشق طريقها عبر عينات يتم اختيارها بدقة وتشغل في الغالب اهتمام العلماء والأساتذة والمثقفين من أجل بلورة مواقف ورؤى تتناسب مع ما هو مطروح ، فعلى سبيل المثال لا تُغفل أبحاث هامة تعالج موضوعات العولمة والعلمانية وقضايا الحريات وسائر الإشكاليات الحديثة ضمن الأطر المناسبة؛ كأن تعقد جلسات خاصة لمناقشة هذه الموضوعات في معاهد خاصة أو من خلال مشاركات عامة تأخذ حيّزاً بارزاً في بعض المجالات، فحين نتحدث عن مفهوم الشباب والحرية أو المرأة والاسئلة المطروحة حول دورها والرؤية حولها، فإنه من الطبيعي أن يحظى طلاب جامعاتنا باهتمام خاص ومركّز حول هذه العناوين...مضافاً إلى التوجيه المباشر لمطالعة بعض الكتب أو مناقشتها مساهمةً في إيجاد نوع من الحراك الثقافي الذي يلبي احتياجات هامة، ويضفي حيوية فكرية ويبعد صفة الجمود والتقوقع، ويطلق آفاق الحوار والنقاش في أوسع مدى.

كما أننا في هذا الجانب نستفيد ما أمكن من الوسائل الإعلامية المتاحة، ومن خلال بعض الكتابات في النشريات التي تصدر عن أجهزة تابعة لحزب الله أو على ضفافها. والمهم في هذا الموضوع أن لا يغيب من يتعاطى الشأن الثقافي عندنا عن المشهد الثقافي العام، وأن يشارك ما أمكن في كشف اللثام عن بعض الطروحات والنظريات التي تقدم بأساليب مختلفة.

قد لا يعرف البعض أن الدورات المفتوحة والحرة التي تشرف عليها الوحدة الثقافية في حزب الله، يشارك فيها سنوياً الآلاف من الإخوة والأخوات، وغالبيتهم من طلاب الجامعات، ومن شرائح ثقافية متعددة. ونفس الأمر فيما يتعلق بقسم خاص أطلقنا عليه اسم الدراسة بالمراسلة ليفسح المجال أمام أعداد كبيرة سنوياً للمشاركة من خلال المراسلة ضمن منهجية محدّدة لهذا الغرض.

وفي هذا المجال أيضاً تم إعداد دورات خاصة لعموم الناس على امتداد المناطق اللبنانية، يتم العرض فيها لشؤون ثقافية عامة تلامس الجوانب الاجتماعية والتربوية، وقد أفضت هذه التجربة إلى نتائج طيبة جداً، كما هو الحال في تجربة دورات تربية الأبناء التي يشارك فيها متخصّصون، وتقدم من خلال رزم مدروسة بعناية، اعتماداً على أحدث أساليب الإيضاح.

الخاتمة:

في الختام أكتفي بهذا المقدار من ذكر بعض المرتكزات التثقيفية لحزب الله، مع الإشارة إلى أن هناك عناوين أخرى لم يسعفني الوقت في تبيانها لأخلص إلى النتيجة التالية:

إن المرتكزات التي يعتمدها حزب الله في الشأن الثقافي مستمدة من الانتماء الأصيل للإسلام؛ في محاولةٍ وسعي لإظهار الفكر الإسلامي بشكل معاصر، يحافظ على الأصول دون شطط، ويحوي مرونة فائقة تستجيب للمتغيرات وفق المنهج الذي بيّنه وأظهره الإمام الخميني (قده)؛ فكراً وتجربةً مع الالتفات إلى طبيعة الدور والظروف التي تخضعنا لأولويات والتي تجعلنا في موقع المنفتح على أيّ جديد، ومن موقع المسؤولية التي لا تسعى للتصادم مع أي فكر نقدره ونحترمه.

كما يهمني الإشارة في معرض الحديث عن هذا الموضوع، أن حزب الله اعتمد على مراكز دراسات وأبحاث لمواكبة أي نقاش وتطور خاص في هذا المجال، وأن التجربة وبشكل دائم هي قيد النمو كما تمت الاستفادة من الحوزات والعلماء والمفكّرين والباحثين؛ لأننا نعتقد إن أهمية وخطورة الشأن الثقافي تأبيان الجمود والاحتكار والتقوقع، كما كان يقول أحد العلماء: «إن العالم الذي يدّعي أنه ختم العلم فقد قضى على نفسه بالجهل».

ونخلص من كل ما ذكرنا إلى ان المرتكز الأساسي في العملية التثقيفية في حزب الله هو الفهم الشامل والمتحرر والمسؤول للإسلام، من أجل القيام بالدور المقاوم اعتماداً على معنويات عالية، تستمد مددها من ينبوع اليقين والتوحيد، وهذا الفهم ليس سوى ترجمة شاملة لرؤية الإمام الخميني (قده)، واجتهاده وصولاً إلى تجربته الغنية والرائدة. والهمّ الأساسي الذي يغلب عملية التوجيه الثقافي العام في الأمة لدى حزب الله هو التثقيف الدائم والمركّز للدور المقاوم، والذي يشكّل بخلفياته الثقافية والدينية المخزون الأقوى في عملية الدفع إلى الأمام، وليس جديداً أن يقال: إن الفئة الأكثر تأثراً بالنمط الثقافي الخاص لحزب الله هي فئة الشباب والأجيال الصاعدة من الذكور والإناث؛ ذلك أن الذي يلبّي طموحات هذه الفئة ويلتقي مع تطلعاتها هو هذه الروحية والصدق، حيث يسبق الفعل الفكرة، والقول، وشبابنا اليوم يعيش صراعات متأججة على مستوى انتخاب الخيار في ظل عولمة تفتح قلب وعقل الشاب على كل شيء، والوقائع الموجودة في ساحة العمل تفرض ميلاً طبيعياً لهذا النمط الذي لا يفتش عن الحلول في بطون الكتب وخلف المصطلحات، بل يريد وبشكل مباشر إجابات عملية ذات جدوى، تكون قادرة على بعث الأمل والصمود في لحظة التحدي، وحينما تتولد القدرة على جذب الطاقات وصهرها في مشروع استنهاض الأمة فتصبح أكثر امتلاكاً لفرصة الدعوة إلى الثقافة التي لا تستغني بحال عن العلم والمعرفة والوعي، وفي هذا الصدد، فإننا نجد أنفسنا دائماً في معرض تحمل المسؤولية لجسر العلاقة بين بعض فئات المثقفين وحتى بعض العلماء وبين هذه الأجيال التواقة إلى التغيير بأدوات

المنطق الحديث، والذي يلبي طموحاتها وتطلعاتها، فحيث امتلك حزب الله بعض القدرة على مخاطبة هذه الأجيال ليتهم من البعض أنه يخاطبها بلغة الثورة والجهاد والتعبئة وكأنه هو الذي يقفل الباب أمام البعض الذي ما زال لغاية الآن يكثر من استخدام لغة (المفروض)، ويصر على النظريات الحالمة دون أن يفتشوا عن ما يساعدهم على اختراق القلوب وتجاوز الحجب المانعة.

والحمد الله رب العالمين

الهوامش:

(١) سورة يوسف، آية ١٠٨.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٩.

(٣) سورة آل عمران، آية ٨٥.

(٤) سورة الأحزاب، آية ٢١.

(٥) سورة سبأ، آية ٤٦.

(٦) سورة المؤمنون، آية ٥٢.

(٧) سورة فصلت، آية ٥٣.

(٨) سورة المائدة، آية ٥٦.

(٩) سورة هود، آية ٧.

(١٠) سورة النساء، آية ٩٥.

(١١) سورة آل عمران، آية ١٦٩.

(١٢) سورة الشمس، آية ٧، ٨، ٩، ١٠.

المقاومـة وإرادة الاستقـلال والحريـة

البروفسور عبد الكريم الزبيدي (العراق)

الغايـة من خلـق الإنسـان

يُبين قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١] الغاية من خلق الإنسان، فالغاية هي جعل هذا المخلوق خليفة الله في الأرض، وليست مجرَّد خلق إنسان، وبذلك ندرك سر التعبير بـ (جاعل) بدلاً من (خالق). وتشير الآية الكريمة إلى أن الله تعالى قد حمَّل هذا المخلوق وظيفة الاستخلاف في الأرض. ولوظيفة الاستخلاف بُعدان لا تتحقق إلا بكليهما، البعد الأول يتصل بالله، والبعد الثاني يتصل بالكون والإنسان.

ويتحقق البعد الأول بمعرفة الله وتوحيده، فإذا عرف الإنسان خالقه ونزَّهه عن الشّريك فقد حقّق البعد الأول من وظيفة الاستخلاف. أما البعد الثاني فيتحقق بمعرفة الإنسان لطبيعة صلته بالكون وبالإنسان الآخر، فصلته بالكون الذي يشتمل على الأرض والشمس والقمر والنجوم... يجب أنْ تكون مبنيّةً على معرفة أنّ هذا الكون مخلوق لأجله ومسخَّر له برحمة الله تعالى، وأنه مكلَّف باستغلاله والاستفادة منه لصالح المجتمع الإنساني. وصلته بالإنسان يجب أن تكون مبنيّةً على معرفة أنّ علاقاته به يحدّدها الدين الذي يشرّعه له خالقه، وأنّه لا يجوز له أن يخرج عن هذا الدين في جميع علاقاته بالإنسان الآخر، فإذا عرف الإنسان طبيعة صلته بالكون وبالإنسان الآخر فقد حقق البعد الثاني من وظيفة الاستخلاف.

وإذا حقق الإنسان البعدين المذكورين فقد عبد الله واستحق أن يكون خليفته. فعبادة الله التي وردت في القرآن الكريم تعني أن يحقق الإنسان البعدين لكي يكون خليفة الله في الأرض. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٥] ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ﴾[٦]

قيـام المجتمـع الإنسانـي

لمّا أراد الله تعالى أن يجعل في الأرض خليفة فقد شاء أن يُولَدَ على الأرض مجتمعاً إنسانياً. وحين وُلِدَ على الأرض أول مجتمع إنساني اقتضت رحمة الله الخالق أن يكون لهذا المجتمع نظام سُمِّيَ بالدّين، ينظّم كل جوانب الحياة في المجتمع الإنساني، فيما يخصّ صلة الإنسان بخالقه، وبالكون، وبالإنسان، لكي تتحقق الغاية من خلق الإنسان، وهي الاستخلاف في الأرض، وإقامة العدل فيها.

ولمّا كان النظام أو ما سُمِّي بالدين صادراً من خالق الإنسان، وليس من الإنسان نفسه، فلابدّ من وجود صلة بين المجتمع الإنساني وبين الله تعالى، وظيفتها تبليغ الدين أو النظام عن الله تعالى، ودعوة المجتمع إلى تطبيقه، وإنذار الخارجين عنه بالعقاب الإلهي، وتبشير المُطبّقين له برضا الله، والسعادة في الدنيا والآخرة. فكان الأنبياء الذين يختارهم الله من بين أفراد المجتمع هم الصلة بين الله والإنسان على الأرض، على مرّ العصور.

إن الوظيفة التي حملها الأنبياء عن الله تعالى هي جمع الناس في كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية على توحيد الله، وتحكيم دينه ونظامه في جميع جوانب الحياة، لكي يتحقق مجتمع العدل الإلهي أينما وُجِدَ مجتمع إنساني على الأرض. إنّ توحيد الله تعالى، وتحكيم دينه في الحياة، وإقامة مجتمع العدل الإلهي هو جوهر بعثة الأنبياء جميعاً.

وكان خاتم الأنبياء وأشرفهم هو رسول الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم)، الذي اختاره ليكون الصّلة الأخيرة بينه وبين الإنسان في كل مكان وزمان، وليبلّغ عنه ديناً كاملاً يحتوي كل ما جاء به الأنبياء من قبله، من أسس وقواعد في تنظيم المجتمع الإنساني، ويُثبّت قواعد تُستنبط بها تشريعات تنظم كافّة الشؤون الحياتية التي تستجدُّ في المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان، لتحقيق مجتمع العدل الإلهي على الأرض.

مواصفات المجتمع الإنساني الصالح، كما يريده الخالق سبحانه وتعالى

بيّن الله عزَّ وجلَّ ورسوله الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) المواصفات التي يجب أنْ يتّصف بها المجتمع الإنساني الصالح الذي يقوم بوظيفة الاستخلاف في الأرض، وهذه المواصفات يمكن استخلاصها من النصوص المقدّسة، وهي:

١- ***التوحيد الخالص لله:*** وهو يعني إخلاص العبودية لله تعالى، والتحرّر من كل عبوديات الدنيا، كعبودية المال والسلطان والجاه والهوى وغيرها. قال تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾**(٧)، وقال تعالى: **﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾**(٨). إن المجتمع الذي يجعل إلهه هواه ويكون أفراده عبيداً للمال أو السلطان أو الشهوات لا يصلح أن يتحمل وظيفة الاستخلاف في الأرض.

٢- *ولاية القيادة الإلهية المختارة من الله تعالى:* وتعني معرفة القائد أو الإمام المختار من الله تعالى وتولّيه وطاعته ونصرته. قال تعالى: **﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾**(٩)، وعن زرارة عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر(ع) قال:«بُني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية. قال زرارة: فقلت: أيّ شيء من ذلك أفضل؟ قال: الولاية أفضل، أنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن» ثم قال: يا زرارة، ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن الطاعة للإمام بعد معرفته، إن الله عزّ وجلّ يقول:«ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً، أمَا لو أنَّ رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحج دهره ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه، ويكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على الله جلّ وعزّ حق في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان»(١٠)

إن المجتمع الذي يستحقّ القيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض هو المجتمع الذي يعرف القائد الإلهي ويواليه ويطيعه وينصره.

وثمة سؤال يفرض نفسه على البحث هنا: ماذا يحدث لو أن المجتمع أعرض عن القائد الإلهي ولم يُطعه ولم ينصره؟ والجواب: إنّ مثل هذا المجتمع إما أن تبقى فيه جماعة - وإن كانت صغيرة- تعرف القائد الإلهي وتواليه وتطيعه، وهي مستعدة لنصرته، أما الأكثرية فهي واقعة تحت قهر الحاكم المستبد وخداعه وتزييفه للحقائق، وإما أن يكون المجتمع كله منصرفاً عن القائد الإلهي وموالياً للطاغوت وطائعاً له. ومثل المجتمع الأول لا يكون فاقداً الأهليّة للقيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض وأداء العبودية لله تعالى بصفة دائمة، ولكنه ليس قادراً على ذلك مؤقتاً بسبب الظروف التي أوجدها الحاكم المستبد الظالم. وتبقى الكتلة الصغيرة الباقية فيه التي تعرف قائدها الإلهي وتواليه بمنزلة القلب في هذا المجتمع، فما دام القلب حياً فإن الكيان قادر على أن يستعيد قوته وقدرته حين تزول الظروف التي أفقدته ذلك. والقائد الإلهي في هذا المجتمع لا يكون قادرا على القيادة السياسية للمجتمع بصورة مؤقتة أيضاً، فيعلّق قيادته السياسية مؤقتاً ويمارس إمامته الفكرية المتمثلة في الحفاظ على الكتلة الصالحة، وعلى الإسلام الأصيل، بتأصيل قواعده وتوضيح أحكامه ورد الشبهات عنه. وقد تقتضي المصلحة أن يغيب القائد الإلهي عن مجتمعه مؤقتاً، بسبب إصرار الحاكم المستبد على قتل القيادة الإلهية، وحينئذ تُعطى القيادة الفكرية للكتلة الصغيرة مؤقتاً وفق أسس تبينها القيادة الإلهية. إن كلا الأمرين قد مارسته القيادة الإلهية بعد الإمام الحسين (ع). إن مثل هذا المجتمع يُعَدُّ مؤهلاً بالقوة لتحمل وظيفة الاستخلاف في الأرض وأداء العبودية الحقة لله تعالى. أما مثل المجتمع الثاني (المنصرف عن القيادة الإلهية) فيُعَدُّ فاقداً الأهلية لتحمل وظيفة الاستخلاف في الأرض، وأداء العبودية الحقة لله بصفة دائمة، وبذلك يكون فاقداً لمبرّرات وجوده التي خلق الله الإنسان من

أجلها كما حصل لكثير من المجتمعات التي كانت قبل الإسلام.

٣ - *البراءة من أعداء الله:* وهي تعني حماية المجتمع الإلهي الصالح من أعداء الله ومحاولاتهم في حرفه عن الخط الإلهي، والتأثير عليه في قدرته على أداء العبودية الحقة لله والقيام بوظيفته في خلافة الأرض، ويتم ذلك بإعلان أفراد المجتمع الابتعاد والانفصال عن أعداء الله ومناهجهم وثقافاتهم، وعدم موالاتهم والرضا بهم قولاً وعملاً. ويشمل مصطلح أعداء الله الشيطان والطاغوت وأتباعهما. قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾(١١). إن المجتمع الذي لا يحمي نفسه بالبراءة من أعداء الله هو مجتمع غير مؤهل للقيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض وأداء العبودية الحقة لله.

٤ - *العزة والكرامة:* وتعني الامتناع من الذل والهوان والخنوع وعدم الخضوع لغير الله، من جهة السلب، والامتلاء بالشعور بالأصالة والريادة والقيادة والمسؤولية، والانتماء إلى القوة المطلقة من جهة الإيجاب. إن المجتمع الذي يتصف أفراده بالعزة والكرامة قادر على القيام بالوظائف التالية:

أ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١٢).

ب - الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام والمسلمين، وذلك حين يتعرض الإسلام أو المسلمون أو أرضهم أو مصالحهم للخطر من قبل أعداء الله. ويعني ذلك استعداد أفراد المجتمع لبذل أرواحهم ودمائهم وأموالهم في سبيل الله.

ج - الوقوف بوجه الحاكم المستبد إذا حاول أن يذل المجتمع، أو يبيع كرامتهم للأجنبي. وقد يتحقق الوقوف بوجه الحاكم المستبد بالثورة المسلحة أو بالعصيان أو بإظهار حقيقته بوسائل الإعلام المتاحة.

د - نصرة المظلومين وإغاثة الملهوفين والوقوف إلى جانب المستضعفين.

٥ - *الحرية:* وتعني القدرة على اتخاذ القرار، والقدرة على الاختيار، والقدرة على التعبير دون خوف أو ضغط أو تأثير من أحد. إن المجتمع الذي يتمتع أفراده بالحرية يكون قادراً على اختيار قيادته الصالحة، وقادراً على موالاة هذه القيادة وطاعتها، وقادراً على التعبير عن نفسه وطرح الآراء ومناقشتها والاجتهاد فيها. إن المجتمع الذي يفقد حريته لا يكون مؤهلاً لأداء العبودية الحقة لله تعالى، وللقيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض.

٦ - *الوحدة السياسية والاجتماعية:* الوحدة السياسية تعني أن يكون المجتمع موحّداً في قبول القائد وإسناده وطاعته، ويكون موحداً في المواقف المصيرية. والوحدة الاجتماعية تعني التعايش الكريم بين جميع أفراد المجتمع وإن اختلفوا في القومية أو الدين أو اللغة أو اللون، ما داموا يعيشون في مجتمع واحد، وقبلوا أن يحكمهم نظام واحد، ورضوا أن يتولى أمورهم قائد

صالح. إن المجتمع الذي تمزقه المواقف المختلفة، وتشرذمه الآراء المتعددة، وتشتت كيانه الطائفية والعنصرية هو مجتمع غير قادر على القيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض.

الكتلة الشيطانية في المجتمع الإنساني

وقف الشيطان أمام الله عزَّ وجلَّ، وأقسم بعزته لَيُغْوِيَنَّ بني الإنسان، ولَيُضِلَّنَّهم عن صراطه المستقيم وشرعه القويم، إلاَّ عباده المخلصين، فقد أعلن عجزه عن قدرته على إغوائهم وإضلالهم. وأقسم أمام الله عزَّ وجلَّ لَيَتَّخِذَنَّ الذين يُضِلُّهم ويُغويهم أولياء، ولَيَأْمُرَنَّ أولياءه بالفساد في الأرض، وتدمير المجتمع الإنساني الصالح، وتجريده من صفاته التي سبق ذكرها، وصدّ الناس عن دين الله، والتسلّط عليهم ،واستعبادهم وكسر إرادتهم،وهتك كرامتهم وعزّتهم، ومصادرة حقوقهم ظلماً بقوّة التسلّط ، ومصادرة حرياتهم وقدراتهم على اتّخاذ القرار في مواجهة الشيطان وأتباعه، يأمرهم بذلك كله، لأجل تحقيق الهدف الشيطاني وهو إقامة المجتمع الشيطاني في الأرض بدلاً من المجتمع الإلهي الذي يقوم بوظيفة الاستخلاف في الأرض، وهي الغاية التي خُلِق الإنسان من أجلها.

إن الكتلة الشيطانية التي تُسمّى أحياناً بـ (الطاغوت) كانت وما زالت تمتلك القوة والسطوة والسيطرة، فهي تستعمل قوّتها وسطوتها للسيطرة على المجتمع الإنساني الصالح. وحين تسيطر تلك الكتلة على المجتمع تعمل على تدميره وقلبه، وبنائه وفق رؤيتها ومفاهيمها الشيطانية، فهي تستعمل الظلم والطغيان لإشباع رغباتها التي لا تنتهي عند حدّ معيّن، وتمارس القتل وسفك الدماء لفرض سلطانها وإرادتها، وتصادر حريات أبناء المجتمع الصالح، وتمارس بحقهم أنواعاً من الإرهاب والتخويف، لكسر إرادتهم، ثمّ إذلالهم وهتك عزّتهم وكرامتهم، لكي لا يستطيع أحدٌ منهم أنْ يأمر بمعروف وينهى عن منكر، ولكي لا يقوم أحد منهم بواجب الجهاد في سبيل الله وتحرير الناس من الطاغوت، فيفرض الطاغوت سلطانه على المجتمع الإنساني، ويحكمه نيابةً عن الشيطان.

مشروعية المقاومة

شرع الله تعالى المقاومة لأجل حماية المجتمع الإنساني الصالح الذي يقوم بوظيفة الاستخلاف في الأرض من تسلّط الطاغوت (الكتلة الشيطانية). ولا بدّ في هذه النقطة من التعريف بمعنى المقاومة، لأجل الوصول إلى حقيقة المقاومة وأنواعها المشروعة.

معنى المقاومة

(المقاومة) مشتقة من الجذر (ق و م)، وهو أصل لمعانٍ عديدة، مثل: معنى (القيام) الذي هو ضدُّ الجلوس، قال في لسان العرب:«القيام نقيض الجلوس، قام يقوم قوماً وقياماً وقومةً وقامةً، والقومة: المرة الواحدة» [١٣]، ومعنى (القيام) الذي هو ما يقوم به بِنيَةُ الإنسان، وما

يقوم به الشيء، كالسِّناد والعِماد اسم لما يُسْتَند به ويُعمد به [١٤]، ومعنى (القيام) الذي هو العزم على فعل الشيء، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ...﴾[١٥]؛ أي: لمّا عزم، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[١٦]؛ أي: إذْ عزموا فقالوا [١٧]، ومعنى (القيام) الذي هو ملازمة الشيء والدوام عليه، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾[١٨]؛ أي: ملازماً محافظاً [١٩]، ومعنى (القيام) الذي هو الوقوف والثبات، يُقال للماشي: قِفْ لي؛ أي: تثبت مكانك حتى آتيك، وكذلك (قُمْ) لي؛ أي: اثبت، وعليه فسّروا قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾[٢٠]، قال أهل اللغة والتفسير: (قاموا) هنا بمعنى وقفوا وثبتوا في مكانهم غير متقدّمين ولا متأخرين [٢١]، ومعنى (القيام) الذي هو التكلُّف بالقيام بالشيء، كقوله تعالى:﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[٢٢]، إنما هو من قولهم قمتُ بأمرك، فكأنه -والله أعلم - الرجال مُتكلِّفون بأمور النساء معنيون بشؤونهنَّ [٢٣]، ومعنى (القيام) الذي اشتُقَّ منه (القوم) و(المَقامة) - بفتح الميم- و(القامة) وهي تعني: الجماعة من الناس، ومعنى (القيام) الذي هو المنازلة، وهو أن يقوم بعض الناس لبعض للقتال، يقال: تقاوموا في الحرب أي قام بعضهم لبعض للقتال، ويقال: ما زلتُ أقاوم فلاناً في هذا الأمر؛ أي: أنازله، وفي الحديث «مَنْ جَالسَه أو قاوَمه في حاجة: صابره»[٢٤]. و(المقاومة) مصدر (قاوم، يقاوم)، وهي تعني: منازلة العدو، ومدافعته، ومنعه من تحقيق مآربه وأهدافه

ويتبيّن لنا من هذا العرض أنّ لفظ (المقاومة) يجمع المعاني التالية: قيام المظلومين والمستضعفين لأولياء الشيطان من المستكبرين والطواغيت، لقتالهم ومنازلتهم ومدافعتهم، لمنعهم من استعبادهم ومصادرة حقوقهم، وقيام أبناء المجتمع الصالح لأولياء الشيطان لقتالهم ومنازلتهم ومدافعتهم، لمنعهم من تدمير مجتمعهم، ومنعهم من الصدّ عن دين الله أو تعطيله أو تشويهه، ومنعهم من سفك دماء الأبرياء وقتلهم، ومنعهم من هتك أعراض الناس في ذلك المجتمع، ومنعهم من هتك عزّتهم وكرامتهم وإذلالهم، ومنعهم من نهب ثرواتهم وأموالهم، وتعني (المقاومة) أيضاً قيام أبناء المجتمع الصالح لأولياء الشيطان لقتالهم ومنازلتهم ومدافعتهم عند ثغور الوطن، لمنعهم من اجتياز حدود بلدهم واحتلاله.

ويتبيّن لنا من هذا العرض أيضاً أنّ المقاومة التي تجمع المعاني السابقة هي عماد الأمة التي يستضعفها الطاغوت ويفرض عليها سلطانه، أو يريد الطاغوت أن يأتي إليها ليحتلّها ويفرض عليها سلطانه، وأنّ هذه المقاومة هي سناد الأمة لدفع أولياء الشيطان بعيداً عنها. ويتبيّن لنا أيضاً أنّ هذه المقاومة يجب أن يقوم بها جماعة أو قوم من المجتمع مكلّفون أو معنيّون بأمور المجتمع للحفاظ على المجتمع وحمايته من أولياء الشيطان. وقد أُطْلِقَ على هذه الجماعة التي تقوم بالمقاومة اسم (المقاومة) مجازاً. ويتبيّن لنا أيضاً أنّ هذه المقاومة لا تحقق أهدافها وتُؤتي أُكُلها إلا إذا توافرت في مَنْ يقوم بها الإرادة والعزم، والصبر، وملازمة الجهاد والمداومة

عليه، والثبات في القتال والمواقف المصيرية وعدم التراجع قيد أنملة.

بين المقاومة والجهاد

قد تقدّم معنى (المقاومة)، وهذا المعنى يلتقي مع معنى الجهاد في مواضع، فالجهاد مشتقّ من الجذر (ج هـ د)، وهو جامع لمعاني الطاقة، والمشقّة، وبلوغ الغاية في الأمر، والجدّ في الشيء، يقال: جَهَدَ الرجل في كذا، أي: جدّ فيه وبالغ. ومنه: جاهد العدو مجاهدة وجهاداً: قاتله، والجهاد في سبيل الله: محاربة الأعداء [٢٥]، وهو استفراغ الوسع والطاقة في مدافعة العدو [٢٦]، ومعناه الشرعي: قتال أعداء الله ورسوله وأعداء المسلمين، ومنازلتهم ومدافعتهم، لمنعهم من احتلال بلاد المسلمين، ومنعهم من استضعاف الناس وظلمهم، ومنعهم من الصدّ عن دين الله أو مصادرته أو تشويهه، ومنعهم من إذلال المسلمين، وكسر إرادتهم، وهتك كرامتهم وعزتهم، ومنعهم من نهب ثروات المسلمين، وتدمير ممتلكاتهم، ومنعهم من نشر الفساد في المجتمع الإسلامي الصالح. ويلزم معنى بذل الطاقة والمشقة والجدّ في بلوغ الغاية في الجهاد أنْ تتوافر في المجاهد الإرادة والعزم، والصبر، وملازمة الجهاد والمداومة عليه، والثبات في القتال وعدم التراجع أو الفرار من الزحف.

وبهذا يتبيّن لنا أنّ المقاومة والجهاد يلتقيان في معانٍ كثيرة، إلاّ أنّ الجهاد أخصُّ من المقاومة؛ لأنه مصطلح إسلامي، وهو فعل يقوم به المسلم، أمّا المقاومة فهي أوسع من الجهاد، لأنها فعل لا يقتصر القيام به على المسلم فقط، بل يقوم به المسلم وغير المسلم، فالمقاومة بناءً على ذلك قد أقرّتها الشريعة الإسلامية، وأوجبتها بالنظر إلى كونها جهاداً ضدّ أعداء الله ورسوله وأعداء المسلمين من الطاغوت وأولياء الشيطان. قال الله عزَّ وجلَّ: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** [٢٧]، وقال تعالى: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾** [٢٨]، وقال تعالى: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾** [٢٩]، وقال تعالى: **﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾** [٣٠]، وقال تعالى: **﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾** [٣١]، وقال تعالى: **﴿قُلْ للَذينَ كفروا إنْ يَنْتهوا يُغْفَرْ لهم ما قَدْ سَلَفَ وإنْ يَعُودوا فقد مَضَتْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ ❁ وقاتِلوهم حتى لا تكونَ فِتْنةٌ ويكونَ الدينُ كُلُّهُ لله فإنْ انْتَهَوا فإنّ اللهَ بما يَعْمَلونَ بَصيرٌ﴾** [٣٢]، وقال تعالى: **﴿ألا تُقاتِلونَ قوماً نَكَثوا أيْمانَهم وَهَمُّوا بإخراجِ الرسولِ وهُمْ بَدءُوكم أوَّلَ مرَّةٍ أتَخْشَوْنَهُمْ فاللهُ أحقُّ أنْ تَخشَوْهُ إنْ كُنتُمْ مُؤْمنينَ ❁ قاتِلُوهم يُعَذِّبْهمُ اللهُ بأيدِيكم ويُخزِهِمْ ويَنصُرْكُمْ عليهم ويَشفِ صُدورَ قوم مؤمنينَ ❁ ويُذْهِبَ غَيْظَ قلوبِهم ويتوبُ اللهُ على مَنْ يشاءُ واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾** [٣٣]. وأقرّتها أيضاً الشرائع الأخرى باعتبارها قتالاً مشروعاً يقوم به الإنسان

ضدّ كلّ مَنْ يريد أنْ يحتل بيته أو أرضه أو وطنه، أو يريد أن يقتله ويسفك دمه، أو مَنْ يريد أنْ يسلب ثروته وأمواله، أو يريد أنْ يدمّر ممتلكاته، أو يريد أن يعتدي على مقدّساته أو عرضه، أو يريد أن يستعبده ويصادر حريته، أو يريد أن يذله وينتهك كرامته. وأقرّتها القوانين والأنظمة الوضعية، ومنها قوانين منظمة الأمم المتحدة.

المقاومـة وإرادة الاستقـلال:

(الاستقلال) استفعال من الجذر (ق ل ل) وهو أصل جامع لمعانٍ عديدة، منها: معنى (الإقلال) وهو حَمْلُ الشيء ورفعه، يُقال: أقلّ الشيء يُقِلُّهُ واستقلَّهُ يستقلّه إذا رفعه، ومعنى (الإقلال) وهو النهوض والارتفاع، يُقال: استقلّ الطائر في طيرانه؛ أي: نهض للطيران وارتفع في الهواء. وفي الحديث: حتى تقالّت الشمس «أي استقلّت في السماء وارتفعت. ومعنى (الإقلال) وهو الذهاب والارتحال مع الاحتمال، يُقال: استقلّ القوم؛ أي: ذهبوا واحتملوا سارِين وارتحلوا، ومعنى (القَلَّة) بفتح القاف، وهو النهضة من عِلَّة أو فقر، ومعنى (القِلَّة) وهو خلاف الكثرة، ومعنى (القُل) وهو النقص، وفي الحديث: «قال له: إذا ارتفعت الشمس فالصلاة محظورة حتى يستقلّ الرمح بالظلّ»؛ أي: حتى يبلغ ظِلُّ الرمح المغروس في الأرض أدنى غاية القِلَّة والنقص[٣٤].

ويتبيّن لنا من هذا العرض أنّ (الاستقلال) هو طلب حمل الشيء ورفعه من غير تدخل من الغير، وهو طلب النهوض بالشيء والارتفاع به من غير تدخّل من الغير، وهو احتمال القيام بالشيء من غير تدخل من الغير، وهو طلب النهوض من عِلّة أو مرض أو فقر أو غير ذلك من غير معين أو تدخل من الغير، وهو طلب أقلّ الشيء وأدناه.

و(الاستقلال) في المعجم السياسي يُستعمل بمعنى أنْ يكون الوطن والشعب منقطعين عن أيّ تدخّل خارجي في شؤونهما. وهذا المعنى ليس بعيداً عن المعنى اللغوي، لأنّ كلّ شعب يعيش في وطن يطلب أن يحمل شؤونه وشؤون الوطن، ويديرها ويرفعها بنفسه من غير تدخل خارجي، ويطلب أنْ ينهض بشؤونه وشؤون وطنه، ويرتفع بها بنفسه من غير تدخّل خارجي، ويطلب أنْ يقوم بكافّة الأفعال في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والدينية بنفسه من غير تدخل خارجي، وإذا احتلّ عدوٌّ الوطن يطلب الشعب أنْ يقوم بتحرير الوطن من المحتل بنفسه، وإنقاص نفوذه وهيمنته على الوطن إلى غاية القلّة والنقص من غير تدخل خارجي. وهذا الذي يقوم به الشعب هو أقلّ الواجبات، وما يطلبه هو أقلّ الحقوق.

وحين يتعرّض الوطن والشعب إلى تدخل خارجي في شؤونهما من قِبَلِ عدوّ خارجي، سواء أكان هذا التدخل حاصلاً بسبب الاحتلال المباشر، أم كان بسبب التهديد والضغط الذي يمارسه ذلك العدو من وراء الحدود، فإنّه في هذه الحالة تكون المقاومة واجبة لتحقيق إرادة الاستقلال، ويجب

على الجماعة التي تحمل على عاتقها مسؤولية المقاومة أن تقوم بواجبها لحماية الشعب والوطن من أيّ تدخل خارجي في شؤونهما.

كيف تحقق المقاومة إرادة الاستقلال؟

١- *المرابطة عند ثغور الوطن:*

إذا كان الوطن مهدّداً من قِبَلِ عدو خارجي متواجد على حدوده، أو قريب منها، وجب على الجماعة التي تحمّلت مسؤولية المقاومة أن تحمي حدود الوطن، وتمنع ذلك العدو من الدخول إلى أرض الوطن، لاحتلال جزء منه، أو للإغارة على بعض المناطق فيه بقصد نهب أموال الناس أو سرقة ممتلكاتهم أو تدميرها، أو أسر أو قتل أبناء الشعب الذين يعيشون في تلك المناطق. وتتحقق حماية الوطن والشعب في هذه الحالة بالمرابطة عند ثغور الوطن على طول الحدود التي يحتمل أنْ يأتي منها العدو.

إنّ الجماعة التي تقوم بالمرابطة عند ثغور الوطن لحراسته هي الجماعة التي يُطلَقُ عليها اسم (المقاومة)، وهم جُنْدٌ متطوّعون غير نظاميين، ولا يتبعون المؤسّسة الحكومية الرسمية، ولا يتقاضون رواتب من الحكومة، وفي ذلك يقول المجاهد التونسي الكبير السيد محي الدين القليبي، في بحث له عن المرابطة: «وإذا كان الثغر هو الموقع (الاستراتيجي) الذي له شأنه في حدود الوطن الإسلامي المجاور للعدو المحارب والحدود الساحلية منها على الخصوص فإن المرابطين به هم الجنود الفدائيون الذين أخذوا على أنفسهم دفع العدوان المهاجم للثغور الإسلامية، ورد غزوه المفاجئ. تجمّعوا في تلك المواقع، ورابطوا بها يفتدون أرض الإسلام وإخوانهم الآمنين فيها بأنفسهم، ويتعرّضون للصدمة الأولى، ويشغلون العدو بمحاربتهم له مهما كان عدده وعدته، حتى يأتي أصحاب النوبة، وهو الاسم الذي أطلق يومئذٍ على الجند النظامي الذي يستقر مع عائلته وراء خطوط المرابطين الأولى، ويعمل في الزراعة والصناعة والتعمير وتكوين القرية، إلى جانب قيامه بالحراسة متناوباً، وهذا الجند النظامي يأخذ الجرايات والأرزاق من الحكومة، أما المرابطون فمتطوعون بأموالهم وأنفسهم، لا يأخذون شيئاً من الحكومة ولا من الناس، ولكنهم يعتمدون في حياتهم البسيطة على كدّهم وعملهم الخاص»[٣٥].

وتصبح المرابطة لحراسة حدود الوطن واجبة على أبناء الوطن الذي يهدّده وجود العدو الغادر على حدوده، على نحو الوجوب الكفائي. فإذا وُجِدتْ جماعة من أبناء الوطن تملك القوة والسلاح وجب على تلك الجماعة أنْ تتحمّل مسؤولية المرابطة لحراسة حدود الوطن، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣٦].

إنّ هذه الآية الكريمة هي خاتمة (سورة آل عمران)، وقد عرضت السورة قبل هذه الآية لمعركة أُحُد، وما أصاب المسلمين من هزيمة فيها. وشغل الحديث عن هذه المعركة مساحة واسعة من السورة، وهي الآيات من ١٢١ - ١٨٦. فالمعنى الخاص للآية ينصرف في سياق ما

أصاب المسلمين يوم أُحُد، لذلك أمرهم الله تعالى بالصبر، وهو طاقة روحيّة إذا زوّد الإنسان بها نفسه صار ذا قدرة على تحمّل الشدائد، وذا قوة في الثبات والتماسك أمام الهزّات النفسية التي يتعرّض لها الفرد والمجتمع بسبب الهزيمة أو الإرهاب والخوف أو المغريات الدنيوية. ثمّ أمرهم بالمصابرة، وهي (مفاعلة) من الصبر، وتقتضي أنْ يقوم بالفعل جهتان أو طرفان، فالطرف الأول هم المسلمون المأمورون بالصبر، والطرف الثاني هم العدو الصابرون أيضاً في حربهم على المسلمين، وعلى هذا فالمصابرة التي أمر الله بها المسلمين هي «الصبر في وجه الصابر، وهذا أشدّ الصبر ثباتاً في النفس، ذلك أنّ الصبر في وجه صابر آخر شديدٌ على نفس الصابر، لما يلاقيه من مقاومة قِرن له في الصبر، قد يساويه أو يفوقه»[٣٧]. وتكون نتيجة الصبر بين الطرفين لصالح أشدّهم وأطولهم صبراً. ويدلّ على هذا أنّ الأمر بالمصابرة جاء في سياق قوله تعالى: ﴿إنْ يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قَرْحٌ مثلُهُ﴾؛ أي «فلا يغلبوكم بالصبر على قرحهم أكثر من صبركم على قرحكم»[٣٨]. ثمّ أمرهم بالمرابطة، وهي (مفاعلة) من الربط، وهو اللزوم والثبات، يُقال: ربطَ جأشَه: اشتدّ قلبُه فلم يفرّ عند الفزع، وربطَ الشيء ربطاً: شدّه، وربطَ الدابّة: شدّها إلى شيء لتلزمه وتثبت فيه فلا تبرحه، ومنه (الرباط) وهو: ما يُرْبَطُ به. ورباط الخيل: مَرَابِطُها لخمس منها فما فوقها، ورباط الخيل: الخيل نفسها تُربَطُ انتظاراً للغزو أو الجهاد. والرّباط والمُرابِطة: ملازمة ثغر العدو، وأصله أنْ يَرْبِطَ كلٌّ واحد من الفريقين خيله، ثمّ صار لزوم الثغر رباطاً [٣٩]. وأُطلِق (الرباط) على المكان الذي تقف فيه الخيل لحراسة الثغور المخوفة، «لأنهم كانوا يحرسون الثغور المخوفة راكبين على أفراسهم... ثمّ أُطْلِقَ (الرباط) على مَحْرَس الثغر البحري، وبه سمَّوا (رِباط دمياط) بمصر و (رباط المُنستير) بتونس، و (رباط سَلا) بالمغرب الأقصى»[٤٠].

ويتبيّن من قرائن عطف المرابطة على المصابرة، ومجيء الجميع في سياق قتال العدو أنّ الأمر بالمرابطة ينصرف إلى المرابطة على الثغور التي يُخاف أنْ يهجم منها العدو على بلاد المسلمين. وما رُوي عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر (ع)، أنه قال في معنى الآية: «معناه: اصبروا على المصائب، وصابروا على عدوّكم، ورابطوا عدوّكم»[٤١] يُؤيّدُ ما ذهبتُ إليه. وقد رُوي فيها معانٍ أخرى منها ما رُوي عن الإمام الصادق (ع) أنّ المعنى: ورابطوا إمامكم[٤٢]، وما رُوي عن الإمام عليّ (ع) أنّ المعنى: رابطوا الصلوات، أي: انتظروها واحدة بعد أخرى[٤٣]. وكلّ هذا واردٌ باعتبار المعنى العام للمرابطة، وهو اللزوم والثبات. ولكنّ حملها على المعنى الخاص بلحاظ القرائن أولى.

وإذا كان حاكم المسلمين ظالماً جائراً وكان على حدود الوطن الإسلامي عدوّ شرس يُخشى من غدره وجب على المسلمين المرابطة على نحو الوجوب الكفائي، فيجب على الجماعة التي تملك القوة والسلاح أن تقوم بها. ونستدل على ذلك بسؤال وجّهه رجلٌ إلى الإمام أبي الحسن علي

بن موسى الرضا (عليه السلام)، عن رجل يرابط على ثغور المسلمين، وحاكم المسلمين جائر ظالم، فأجاب الإمام قائلاً: «فليُرابط ولا يُقاتل». قال يونس - وهو أحد أصحاب الإمام الرضا، وكان جالساً في المجلس -: مِثل قزوين وعسقلان والديلم وما أشبه هذه الثغور؟ قال الإمام: «نعم». قال الرجل السائل: فإنْ جاء العدو إلى الموضع الذي هو فيه مرابطٌ، كيف يصنع؟ قال الإمام:«يقاتل عن بيضة الإسلام». قال الرجل: يُجاهد؟ قال الإمام: «لا، إلاّ أنْ يخاف على ذراري المسلمين». قال يونس: «أرأيتك لو أنّ الروم دخلوا على المسلمين لم ينبغِ لهم أن يمنعوهم؟ قال الإمام: «يرابط ولا يقاتل، فإن خاف على بيضة الإسلام والمسلمين قاتل فيكون قتاله لنفسه لا للسلطان؛ لأنّ في دروس الإسلام دروس ذكر محمد (ص)»[٤٤]. ويُستَدلّ بالأمر الصادر من الإمام» فليرابط «أن المرابطة، أو حراسة ثغور الوطن الإسلامي واجبة حتى في ظلّ الحاكم الجائر الظالم. ويُستَدَلُّ بقوله:«إلاّ أنّ يخاف على ذراري المسلمين» وبقوله: «يقاتل عن بيضة الإسلام»[٤٥] أنّ الجهاد الدفاعي عن الشعب والوطن (ذراري المسلمين، والأرض التي يعيشون عليها)، وعن بيضة الإسلام، واجبٌ على أبناء الوطن. ويُفهم من وجوب المرابطة ووجوب الجهاد الدفاعي أنهما على نحو الوجوب الكفائي.

ويُستَدَلُّ بقوله «ولا يقاتل» أنّ القتال دفاعاً عن الحاكم الظالم، أو لأجل إطالة بقائه في الحكم، أو إطالة حكمه غير جائز. وأما سؤال السائل» يجاهد؟ «فيقصد الجهاد الابتدائي بغزو العدو الكافر خارج حدود الوطن الإسلامي، ولذلك أجابه الإمام: «لا» ثمّ استثنى الإمام مَنْ يجاهد دفاعاً عن المسلمين بقوله:«إلاّ أن يخاف على ذراري المسلمين».

وورد في فضل المرابطة عند الثغور أحاديث منها: روى البخاري عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «رباط يوم في سبيل الله خير عند الله من الدنيا وما فيها»[٤٦]. وروى مسلم عن سلمان (رض) قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجري عليه رزقه، وأمِنَ الفتّان»[٤٧]. وروى أبو داود في سننه عن فضالة بن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتان القبر»[٤٨].

وفي الحال الذي عليه الوطن اللبناني حيث يجاوره عدوٌّ شرس مشهور بالغدر والمكر والخداع، وهو العدو الصهيوني، يقع واجب المرابطة على عاتق المقاومة، وهي الجماعة التي تملك القوة والسلاح من غير الجيش النظامي. وقد أثبتت الوقائع عبر التاريخ أنّ العدوّ الصهيوني غادر يأخذ المسلمين على حين غِرّة، وعلى هذا فلا يجوز أن يؤمن جانبه، بل يجب أن يكون أبناء الوطن الذين يجاورونه يقظين على الحدود معه في جميع الأوقات وفي كل الأحوال قال تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ

كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾[٤٩]. ولا يجوز أنْ تتولّى هذا الواجب قوة من غير أبناء الوطن، متواطئة مع العدو الصهيوني، مثل قوات اليونيفيل في الوقت الحاضر، ولا يحقّ لأيّ جهة منع المقاومة عن الوصول إلى ثغورهم مهما كانت الأسباب والمبرّرات، ومن يفعل ذلك فيخشى أن يكون في خندق الأعداء ومواجهاً للمجاهدين، مما يترتّب عليه مفاسد عظيمة في المجتمع الواحد.

٢ - *الإعداد والاستعداد*

يعني (الإعداد) توفير مستلزمات القوة للمقاومة، ويشمل التزوّد بالأسلحة الخفيفة والثقيلة، وبجميع أصنافها المعروفة أو التي لم يُكْشَف عنها، ومن مصادرها المختلفة التي يمكن الوصول إليها، ويشمل أيضاً الإعداد البدني، كالتدريب والتمرين المتواصل، والإعداد النفسي، مثل دوام الصلة بالله تعالى والقرب منه، وذلك عن طريق المحاضرات التي يقوم بها علماء ربّانيون، وإقامة الصلوات وسائر العبادات، وقراءة القرآن الكريم، والأدعية المأثورة، ويشمل سائر الرياضات الروحية التي تبني الإنسان المجاهد، المستعدّ للتضحية والجهاد في سبيل الله تعالى. أمّا (الاستعداد) فيعني أنْ يكون المقاومون جاهزين، متأهبين، يقظين لساعة المواجهة مع العدو إذا قام بالاعتداء على الوطن أو الشعب. ويؤدّي الإعداد والاستعداد - إضافة إلى ما سبق - وظيفة تخويف العدو وإرهابه وتحذيره من القيام بأيّ عمل عدواني. والإعداد والاستعداد واجب على المقاومة التي تشارك الجيش النظامي في الدفاع عن استقلال الوطن والشعب، إذا كانت المقاومة مستطيعة على ذلك، وذلك عملاً بقوله عزّ وجلّ: ﴿وأعِدُّوا لهم ما استطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رِباطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُم وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِم لا تَعْلَمُونَهُمْ اللهُ يَعْلَمُهُم﴾[٥٠]

ويدخلُ في قوله تعالى «ما استطعتم» كلُّ ما يدخل تحت قدرة الناس من العُدّة. وتُطْلَق (القوّة) مجازاً على قوّة الجيش الناتجة عن الإعداد البدني والنفسي، وعلى قوة السلاح والعتاد الذي يستعمله الجيش. وتنكير (القوّة) في الآية الكريمة دليل على استغراق القوة لجميع أنواع الأسلحة والعتاد في كلّ زمن وعصر، ولعلّ في الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود، عن عقبة بن عامر إشارة إلى فعالية نوع من أنواع الأسلحة في القتال مع العدو، فقد قرأ رسول الله (ص) هذه الآية على المنبر، ثم قال: «ألا إنَّ القوّةَ الرَّمْيُ» قالها ثلاثاً [٥١]. وفي ذلك إشارة إلى فعالية المدفعية والصواريخ في عصرنا الحاضر.

ولعلّ سؤالاً يُطْرَحُ هنا، وهو: لماذا تقوم المقاومة بالإعداد والاستعداد والجيش النظامي موجود؟ والجواب عن ذلك هو: إذا كان العدوّ الذي يهدّد الوطن والشعب قوياً شرساً غادراً، لا يحترم المواثيق والمعاهدات، وكان الجيش النظامي الذي يواجه هذا العدوّ أقلَّ قوّة وتسليحاً، أو أقلَّ عدداً منه، ووُجِدَتْ جماعةٌ تملك القوة والاستطاعة على الإعداد والاستعداد، لمعاونة الجيش

النظامي، وملأ الفراغ في الأماكن التي لا يستطيع الجيش النظامي الوصول إليها، أو في الأماكن التي يتحرّك منها الجيش النظامي بحكم المواجهة مع العدو، فيجب والحال هذه على تلك الجماعة القيام بالإعداد والاستعداد لدعم الجيش النظامي في مواجهة ذلك العدو، لأنّ عدم قيام تلك الجماعة بهذا الواجب ينتج عنه ضرر كبير على الشعب والوطن. ولا يجوز في هذه الحال نزع السلاح الذي تستخدمه تلك الجماعة لمعاونة الجيش النظامي في صدّ عدوان العدو المستكبر المتغطرس، لأن نزع سلاح المقاومة في هذه الحال يتسبّب في حصول ضعف كبير في قدرة الشعب على مواجهة العدو.

٣ - ***القيام بالجهاد الدفاعي في حال احتلال العدوّ الوطن أو أجزاء منه***

إذا احتلّ العدو الوطن أو أجزاء منه وجب على الشعب أنْ يقوم بتحرير الوطن من الاحتلال، على نحو الوجوب الكفائي، فإذا وُجِدتْ الجماعة التي تملك القوة والسلاح وقع الوجوب عليها في القيام بذلك وطرد العدو من كلّ شبر من أرض الوطن، وتحقيق إرادة الاستقلال. وقد تقدّم أنّ هذه الجماعة عُرِفت بـ (المقاومة). ويدخل العمل الذي تقوم به المقاومة لتحرير الوطن والشعب من الاحتلال تحت مصطلح (الجهاد الدفاعي)، وهو أن يقوم العدو باحتلال بلد من بلدان المسلمين، بهدف قتل أهل ذلك البلد وتدمير ممتلكاتهم، أو الاستيلاء على ثرواتهم وأموالهم، أو إخضاعهم لسلطانه بقصد تحقيق أهداف سياسية، أو محاربةً لدينهم بقصد تعطيل أحكامه أو تشويهه أو مصادرته، ويكون هذا الاحتلال واقعاً حاصلاً في ذلك البلد، إمّا بسبب انهزام أهل البلد أمام العدو، وعدم قدرتهم على صدّه، أو بسبب تهاونهم في الدفاع عن بلدهم ودينهم، أو بسبب غفلتهم عن العدو حتى تمكن من احتلال بلدهم، فيقوم جماعة من أهل ذلك البلد بجهاد العدو لإخراجه من بلدهم قبل أن يتمكن من تنفيذ أهدافه، وهذا النوع من الجهاد هو الذي يُسمّى في الوقت الحاضر بالمقاومة.

وقد بحث علماء الإسلام الجهاد الدفاعي في عصرنا الحاضر، وبيّنوا أحكامه، وأصدروا فيه فتاواهم المستنبطة من القرآن الكريم والسنّة الشريفة. قال السيد الخميني: «لو غشي بلاد المسلمين أو ثغورها عدوٌّ يخشى منه على بيضة الإسلام والمسلمين ومجتمعهم يجب الدفاع عنها بأية وسيلة ممكنة، مع بذل الأموال والنفوس». وقال أيضاً: «لو خيف على زيادة الاستيلاء على بلاد المسلمين وتوسعة ذلك، وأخذ بلادهم أو أسرهم، وجب الدفاع بأية وسيلة ممكنة». وفي قضية وجوب أخذ الإذن في الجهاد الدفاعي من الفقيه أو المرجع العادل الذي يرجعُ إليه المسلم في أخذ الأحكام الإسلامية، يرى السيد الخميني عدم اشتراط ذلك، قال: «لا يشترط ذلك (أي الجهاد الدفاعي) بحضور الإمام (عليه السلام) وإذنه، ولا إذن نائبه الخاص أو العام، فيجب الدفاع على كلّ مكلّف بأية وسيلة ممكنة»[٥٢]. وقال السيد الخامنئي: «إذا شعر المكلّف حسب تشخيصه بأنّ بيضة الإسلام في خطر، فيجب عليه النهوض للدفاع عن الإسلام، وإنْ كان في

ذلك خوف تعرّضه للقتل»[٥٢]. وقال السيد محمد حسين فضل الله: «في ظلّ الأعراف الدولية السائدة تعتبر كلّ دولة مسلمة وطناً لأبنائها، وكذا كلّ دولة يسكنها المسلمون بشكل كثيف، بحيث يكون الاعتداء عليها بالاحتلال ونحوه اعتداءً عليهم، فإذا تعرّضت للغزو من العدو الخارجي الكافر وجب على أبنائها ـ بالدرجة الأولى ـ بالوجوب الكفائي التصدّي لتحرير الأرض ودفع العدوّ، فإن عجزوا وجب على الأقرب إليهم فالأقرب على نحو الكفاية أيضاً مع القدرة والإمكان». ثم بيّن سماحته أصناف الذين يجب عليهم القيام بالجهاد الدفاعي أو المقاومة لطرد العدو من بلدهم فقال المسألة التالية:

«لا يختص وجوب الدفاع ـ في الأصل ـ بالرجال والشباب، بل يشمل كلّ قادرٍ على الدفع بأية مرتبة منه، فيعمّ الرجال والنساء، والشباب والشيوخ، والمرضى والأصحّاء. نعم إذا تصدّى منهم من يتأدّى به الواجب ويتحقّق به الدفع سقط التكليف عن الباقين». وأوجب سماحته القيام بالجهاد الدفاعي على الذين يملكون خبرة في المقاومة وطرقها، فقال المسألة التالية:

«قد يكون الوجوب عينياً على بعض من يملكون خبرات معينة ممن لا بديل لهم ولا غنى عنهم، فيجب عليهم المبادرة للقيام بدورهم ولا يجوز لهم التهاون أو الفرار، بل يجب على من كان منهم خارج وطنه أن يبادر إلى الحضور والنهوض بواجبه». ويرى عدم اشتراط وجوب أخذ الإذن في الجهاد الدفاعي أيضاً، بل يكفي الوثوق بخبرة مَن يقود الجهاد الدفاعي أو المقاومة وإخلاصه، قال سماحته:

«في حال عدم إمكان الانقياد للولي الفقيه العادل، وضرورة المباشرة الفورية بالدفاع، لا تشترط العدالة فيمن يقود عملية الدفاع من المسلمين بعد الوثوق بخبرته وإخلاصه، بل قد يجب الانقياد لغير المسلم الموثوق بخبرته وإخلاصه إذا انحصرت القيادة به»، بل لا يشترط سماحته أن يستأذن الولد أباه في القيام بالجهاد الدفاعي، قال في المسألة التالية:

«لا يشترط في قيام الولد بمهمة الدفاع الواجب على نحو الكفاية استئذان الأبوين، بل يجوز له ذلك حتى مع منعهما له ونهيهما عنه».

وأوجب سماحته على عامّة المسلمين أن يقدّموا كلّ أنواع العون لمن يقومون بواجب الجهاد الدفاعي أو المقاومة، فقال في المسألة التالية:

«يجب على عامّة المسلمين من أبناء الوطن المحتلة أرضه تقديم العون والحماية للمقاتلين الذين يقومون بواجب الدفاع، وذلك بجميع أشكالها ومراتبها اللازمة في عملية الدفاع، سواء المالية أو الأمنية أو إظهار مناصرتهم أو تأييدهم وتكفّل أيتام وأسر شهدائهم، ونحو ذلك»[٥٤].

وأفتى سماحة الشيخ فيصل مولوي في الجهاد الدفاعي، فقال: القتال الدفاعي ضد الأعداء الذين يغزون بلادنا واجب شرعي، والمقتول فيه شهيد عند الله تعالى. والإعداد له مطلوب لكن بقدر المستطاع، وليس مطلوباً من المسلم أن يمتنع عن الجهاد حتى يُعِدّ جيشاً مكافئاً للعدوّ. فالله

تعالى يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾. ويبيّن لنا أن هذه القوة التي نستطيعها إذا أعددناها فهي ترهب العدوّ ولو كان يملك من القوة أضعافها [٥٥]. وجواباً عن سؤال وجهه إليه جماعة من الشباب السوريين حول واجبهم فيما إذا قامت أمريكا باحتلال سوريا بعد العراق، قال سماحته: «إذا دخلت قوات أجنبية إلى أرض سوريا يصبح الجهاد فرض عين على جميع المسلمين المقيمين فيها، ولا يكون فرض عين على من هو خارجها سواء كان سوريًّا أم غير سوري إلا إذا كان قادراً على المشاركة في الجهاد، وإذا كانت مشاركته مفيدة في النكاية بالعدوّ؛ ذلك لأن القتال اليوم لا يعتمد على قوة الساعد ولا على السلاح اليدوي، إنما يعتمد على أسلحة متطورة تحتاج إلى تدريب عليها، وهو أمر لا يتيسّر لكثير من الناس». وقال أيضاً: «أما الإعداد فهو واجب على كل مسلم قبل القتال وأثناء القتال وبعد القتال. ولا يمكن أن يكون سبباً في التهرّب من القتال. وإذا كان الأمر يتعلق بالدولة فيجب عليها أن تستعد بما تستطيع. وإذا كان الأمر يتعلق بالأفراد فإن قتالهم للعدو الغازي هو مقاومة شعبية، وهو يحتاج إلى إعداد بشكل مختلف تماماً عن إعداد الجيوش المنظمة التي تقوم بها الدول. أما القول بأن القتال ضد العدو الغازي انتحار جماعي فهو كلام لا يجوز صدوره عن مسلم؛ لأنه يعني بالنتيجة الاستسلام أمام العدو إذا كان أكثر منا قوة»[٥٦] .

٤ - القيام بنشر الوعي بين أبناء الشعب

إنّ القيام بهذا العمل لا يقلّ أهميّة في تحقيق إرادة الاستقلال عن الأعمال التي سبق ذكرها. ونشر الوعي بين أبناء الشعب هو عنوان لعمل عام تندرج تحته الأعمال الفرعية التالية:

أ - الكشف عن النوايا والتحرّكات التي يقوم بها العدو، والكشف عن الأهداف التي يسعى العدو إلى تحقيقها من وراء كلّ فعل يقوم به، وإنْ كان صغيراً أو تافهاً في نظر الآخرين.

ب - نشر الوعي السياسي بين أبناء الشعب.

ج - كشف العملاء والمتعاونين مع العدو، وفضح دورهم أمام الشعب.

د- توضيح الحق للشعب، وعدم خلط الأوراق عليه.

هـ - تعبئة أبناء الشعب، وبثّ روح الصمود والثبات في نفوسهم، وإشعارهم بالقوة والعظمة، والعزة والكرامة، ونفي الشعور بالانكسار والهزيمة عنهم، والتوكيد على حصول النصر على عدوهم.

ويلزم المقاومة التي تقوم بهذا العمل أنْ تمتلك مستلزمات تحقيقه من وسائل إعلام مرئية ناطقة، كمحطّات التلفاز، والمحطات الفضائية، ووسائل إعلام مسموعة ناطقة، كمحطّات الإذاعة، أو الراديو، ووسائل إعلام مقروءة، كالصحف والمجلات، وغير ذلك من مستلزمات الإعلام مثل المواقع الإلكترونية في شبكة الإنترنت.

الحُرّيّة في اللغة تعني الخلوص من الشوائب أو الرّق أو اللؤم (٥٧). وهذا يعني أنّ الإنسان الحُرّ هو الإنسان الذي يتخلّص من كلّ شيء يؤثّر على قدرته وإرادته على اتخاذ القرار، لأنّ الله تعالى خلق الإنسان ليقوم بوظيفة الاستخلاف في الأرض، وهذه الوظيفة العظيمة تقتضي أن يكون الإنسان خالصاً لله عزّ وجلّ، ومتخلّصاً من كل ما سواه، ليكون ممتثلاً لله تعالى امتثالاً كاملاً فيما يشرّعه له، للقيام بتلك الوظيفة، ويكون ذا إرادة كاملة فيما يفعل ويقرّر، ومتحرّراً من كلّ شيء يمكن أنْ يؤثر على إرادته، كالعبودية لغير الله من الطواغيت أو الملوك والسلاطين أو العبودية لشهوات النفس، أو العبودية للمال أو الجاه أو المنصب، أو كأنْ يكون عبداً مملوكاً بالرقّ. وحرية الشعب في المصطلح السياسي تعني قدرته على اتخاذ القرار، وقدرته على الاختيار، وقدرته على التعبير دون خوف أو ضغط أو تأثير من أحد.

وقد تُصادر حُرية الشعب في حالات، منها:

أ - أنْ يأتي عدوٌ غازٍ، فيحتلّ الوطن الذي يعيش فيه ذلك الشعب، ويسوم أبناء الشعب المحتلّة أرضه ووطنه ظلماً وخسفاً، ويستولي على ثرواتهم وممتلكاتهم، ويحرمهم من الخدمات الإنسانية، ويجوّعهم حتى يجعلهم محتاجين إليه دائماً، ويستعمل معهم صنوف التخويف والتعذيب، يفعل كلّ ذلك ليصادر حريتهم ، ويكسر إرادتهم في طلب الاستقلال والحرية.

ب - أنْ تُهيمِنَ قوّةٌ طاغوتية متجبّرة معادية على مراكز السياسة واتّخاذ القرار في الوطن من خارج حدود الوطن. وتحصل هذه الهيمنة بطرق مختلفة، منها: أن يقوم العدوّ الذي يحتلّ الوطن بالجلاء عن أرض الوطن، بعد أنْ يضع حكومة من المنهزمين نفسياً، المنكسرين إرادياً التابعين له فكرياً، ويسلّطها على الشعب، فتقوم بتحقيق أهداف المحتل في مصادرة حريات الشعب، وكسر إرادته نيابة عن ذلك المحتل، وهذه الصورة متحققة في أكثر البلدان المحتلة التي رحل عنها المحتل بعد أنْ أقام فيها حكومات مرتبطة به، منقادة إليه، لا تملك إرادة اتّخاذ القرار إلا بعد الرجوع إلى سيّدها الذي نصّبها، وتحصيل موافقته. أو أنْ تُسلّم حكومة أمرها للقوة الطاغوتية المتجبّرة، وإنْ لم تأتِ إليها أو تحتل وطنها، ولكن خوفاً من بطشها، أو اتّقاءً لشرّها أو خشيةً من التحريض على إزالتها عن الحكم، وطمعاً في إطالة بقائها على كراسي الحكم. وهذه الصورة متحققة في عصرنا الحاضر في الحكومات التي سلّمت أمورها للولايات المتحدة الأمريكية، أو لغيرها من القوى المتجبّرة. وكانت في الزمان الماضي متحققة في الحكومات التي سلّمت أمورها لإحدى القوى الطاغوتية المتجبّرة، كالإمبراطورية الفارسية، أو الإمبراطورية الرومانية. وتكون مثل هذه الحكومات مغلوبةً على أمرها، مصادرةً حرياتها، مسلوبة الإرادة في اتخاذ القرارات المصيرية التي تهمّ الشعب، ولكنها في الوقت نفسه تصادر حريات الشعب، وتكسر إرادته استجابة للأوامر التي تُملَى عليها من خارج الوطن.

ومن أبرز صور مصادرة حرية الشعب:

١- منع الشعب من ممارسة حقوقه في التعبير عمّا يهمّ الفرد نفسه باعتباره فرداً، وعمّا يهمّ الشعب باعتباره مجتمعاً، ومن حق التعبير عن تقويم الحكومة وعملها بالنقد البناء.

٢- منع الشعب من ممارسة حقه في تحقيق الاستقلال الكامل عن إرادة القوى الكبرى.

٣- منع الشعب من امتلاك أسباب القوة في جميع النواحي الاقتصادية والعسكرية والسياسية والصناعات الثقيلة، والتكنولوجيا المتطورة.

٤- كسر إرادة الشعب وتحطيم نفسيته بالإذلال عن طريق سجن كلّ حرّ معارض، أو مطالب بحقّ، أو مدافع عن المظلومين والمستضعفين، أو مقاوم للاحتلال، أو داعم للمقاومة، ثمّ ممارسة صنوف التعذيب المختلفة التي لا تُبقي للإنسان عِزّةً ولا كرامة بحقّ أولئك السجناء الأحرار، وصولاً إلى تحقيق كسر إرادة الشعب.

٥- إشاعة الإرهاب والخوف بين الشعب عن طريق تسليط الإرهابيين القتلة على أبناء الشعب، لينشروا القتل وسفك الدماء، ويعيثوا فساداً في أعراض الناس وأموالهم وممتلكاتهم، وصولاً إلى كسر إرادة الشعب، ليرتضي الشعب أنْ يعيش عيشة العبيد المسلوبة إرادتهم، المصادرة حريتهم الذين يعيشون بحماية السيد القوي، مع توفير مستلزمات العيش الذليل. ومثل هذه الصورة متحققة الآن في العراق، حيث سلّط المحتلّ الإرهابيين والقتلة على الشعب العراقي، ليحقق بذلك كسر إرادته، وتحطيم نفسيته، وإيصاله إلى الرضا بالأمر الواقع، والتسليم له.

إنَّ الحرية والعزة والكرامة أمران مترابطان، إذا فُقِدَ أحدُهما فُقِدَ الآخر، فإذا فَقَد الإنسان حريته فقد عزّته وكرامته، وحينئذٍ يصير إنساناً تابعاً لغيره، فاقداً الاستقلال بنفسه، وكذلك الشعب. وهناك أمرٌ آخر مرتبط بالحرية والعزة والكرامة والاستقلال لابدَّ من الإشارة إليه، وهو قدرة المجتمع على أداء الوظائف التي يفرضها عليه التكليف بوظيفة الاستخلاف في الأرض، فالمجتمع الذي يتصف بالحرية والعزة والكرامة والاستقلال هو المجتمع القادر على القيام بالوظائف التالية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والدفاع عن الإسلام والمسلمين، والوقوف بوجه الحاكم المستبد إذا حاول أن يذل المجتمع، أو يبيع كرامتهم للأجنبي، ونصرة المظلومين وإغاثة الملهوفين، والوقوف إلى جانب المستضعفين.

والنتيجة التي نصل إليها هي: إذا فقد المجتمع حريته وعزّته وكرامته واستقلاله فقد القدرة على القيام بتلك الوظائف، وإذا فقد القدرة على القيام بتلك الوظائف فقد الأهلية للقيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض.

وجوب تحقيـق إرادة الحريـة

وبناء على النتيجة التي وصلنا إليها يجب على الجماعة التي تملك القدرة والسلاح أنْ تحقق

إرادة الحرية للشعب، حين يعجز الشعب عن تحقيقها. وهذا الوجوب مستند إلى العلّة من خلق الإنسان، التي هي القيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض، وإلى النتيجة التي وصلتُ إليها وهي أنّ فقدان الإنسان حريته وإرادته واستقلاله يعطّل أهليته للقيام بتلك الوظيفة.

إنّ المقاومة التي هي الجماعة التي تملك القدرة والسلاح يجب عليها أن تقوم بتحقيق إرادة الحرية والاستقلال للشعب، إذا عجز الشعب عن تحقيقها، وإنّ كلّفها أداء هذا الواجب أنّ تبذل الأموال وتضحي بالدماء والنفوس.

المثل الأعلى للمقاومة في تحقيق إرادة الحرية والاستقلال

إنّ المثل الأعلى للمقاومة هو سبط رسول الله (ص) الإمام الحسين بن عليّ (ع)، ففي عصره تسلّطت على الأمة الإسلامية حكومة متجبّرة برئاسة يزيد بن معاوية، وكان الإنسان المسلم في عصر يزيد فاقداً حريته، فاقداً إرادته في الاختيار واتخاذ القرار والتعبير عن رأيه، فلا يستطيع أن يقول رأيه في الحكم، أو أي نظرية سياسية مخالفة لنظرية يزيد، ولا يستطيع أن يختار القيادة التي تخدم مصالحه، لأنّ ما فعله يزيد، ومن قبله أبوه معاوية، بعامة الأمة من تخويف عن طريق القتل أو التهجير أو التشريد أو مصادرة أملاك الفرد وهدم داره، وما فعلاه من شراء للذمم والضمائر بالمال والوعود الكاذبة، ونشر الفسق والمجون بين الناس عامة، والشباب خاصة، كل ذلك أدّى إلى فقدان الحرية، وفقدان الشعور بالعزة والكرامة، والشعور بالمسؤولية والأصالة. وأنتج شرائح من الأمة من أمثال زياد بن أبيه، وعبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد، وشمر بن ذي الجوشن، وغيرهم كثير.

وحين تفقد الأمة حريتها وشعورها بالعزة والكرامة يُعَطَّل ضميرها أو يموت، وإذا تعطّل ضمير الأمة أو مات تصير أمةً لا تستطيع أن تأمر بالمعروف، ولا تنهى عن المنكر، ولا تستطيع أن تقف بوجه الظالم المستبد، ولا تستطيع نصرة المظلومين وإغاثة الملهوفين والوقوف إلى جانب المستضعفين. والأمة التي يُعَطَّلُ ضميرها أو يموت تصبح أمة لا يهزّ مشاعرها تضوّر جائع، ولا ألم محروم أو مسكين، ولا دمعةُ أم على وليدها المقتول بسيف الظالم، ولا آهة زوجة تندب حاميها ورفيق دربها، ولا أنّةُ جريح يتشحط بدمائه التي سفكها الظالم.

وكان الإمام الحسين يرى ذلك ويُحسّه، فهل رضي بالأمر الواقع، واستسلم له ؟ وهل بايع الإمام الحسين يزيد، أو سكت عنه؟

إنّ شيئاً من ذلك لم يحدث من الإمام الحسين، لأنه لو رضي الحسين بالأمر الواقع، واستسلم له، فبايع يزيد أو سكت عنه لكان ذلك قبولاً منه بحالة العبودية التي يعيشها المسلمون، ولترجم المجتمع ذلك الموقف - لو حصل من الحسين - إلى أن الحسين الذي هو أفضل إنسان في الكون قد رضي بهذه الحالة، فما بالنا لا نرضى بها؟ ولكن الحسين سلك طريق المقاومة التي رفع فيها شعار الحرية لكل إنسان: «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد»

ومضى على هذا الشعار أنصاره وأهل بيته، وكلهم بلسان واحد:

أقسمتُ أن لا أُقتَلَ إلاّ حُرّا وإن رأيتُ الموت شيئاً نُكرا

فكانت عاشوراء، وقدّم الحسين وأهل بيته وأنصاره فيها دماءهم وأرواحهم فداءً للحرية وصارت عاشوراء الحسين شعاراً للمقاومين الأحرار الذين يعملون على تحقيق إرادة الحرية لهم ولشعوبهم على مر العصور.

إن الدماء التي سُفكت في عاشوراء على ثرى كربلاء أعادت للأمة عزتها وكرامتها وأوقدت جذوة ضميرها من جديد. فإذا بضمير الأمة يحيا ويتقد، وإذا بالأمة تُبعث من جديد وتنفض عنها تراب الذل والهوان، وإذا بالجماعة المقاومة التي والت القيادة الإلهية تمسك بالسيف وتثور انتصاراً لصرخات المظلومين، ولآلام الجائعين والمحرومين، وإذا بالثورات تتابع من هذه الجماعة، وتتابع قوافل الشهداء في هذا الطريق جيلاً بعد جيل، حتى وصلت راية المقاومة إلى يد المقاومة اللبنانية، حيث تحول كل مقاوم إلى ثورة من أجل تحرير الوطن، ومن أجل العزة والكرامة التي دنّسها العدو الإسرائيلي، فقدّمت الدماء سخية على طريق عاشوراء من أجل الحرية والاستقلال، ومن أجل نصرة المظلومين، وإغاثة المحرومين. وأنتجت هذه الدماء نصراً يعزّ مثله في هذا العصر الذي عزّ فيه النصر.

ونرى الدماء التي سُفِكَتْ في عاشوراء تغلي في قلب كل فلسطيني يقدم دمه على طريق الشهادة من أجل الحرية والاستقلال، ومن أجل العزة والكرامة، ونراها في عين كل أم أو زوجة أو أب فلسطيني يقول: اللهم تقبل منا هذا القربان.

الهوامش:

[1] سورة البقرة، آية ٣٠.

[2] سورة الذاريات، آية ٥٦.

[3] سورة البقرة، آية ٢١.

[4] سورة يوسف، آية ٤٠.

[5] سورة هود، آية ١.

[6] سورة هود، آية ٢ .

[7] سورة الأنبياء، آية ١٠٨.

[8] سورة الحج، آية ٣٤.

[9] سورة النور، آية ٥١.

[10] الكليني، **أصول الكافي**، ١٨٢، باب دعائم الإسلام، طبعة دار الكتب الإسلامية.

[11] سورة التوبة، آية ٣.

[12] سورة آل عمران، آية ١١٠.

[13] ابن منظور، **لسان العرب**، (قوم: ١٢/٤٩٦)، دار صادر، بيروت، لا. ت.

[14] ابن السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، **عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، الورقة (٤٠٣ ظهر)، مخطوط رقم ٥٢ خاص، محفوظ في المكتبة العثمانية، حلب.

[15] سورة الجنّ، آية ١٩.

[16] سورة الكهف، آية ١٤.

[17] ابن منظور، **لسان العرب**، (قوم: ١٢ / ٤٩٧).

[18] سورة آل عمران، آية ٧٥.

[19] ابن منظور، **لسان العرب**، (قوم: ١٢ / ٥٠١).

[20] سورة البقرة، آية ٢٠.

[21] ابن منظور، **لسان العرب**، (قوم: ١٢ / ٤٩٧).

[22] سورة النساء، آية ٢٤.

[23] ابن منظور، **لسان العرب**، (قوم: ١٢ / ٥٠٣).

[24] المصدر نفسه، (قوم: ١٢ / ٥٠٤) .

[25] المصدر نفسه، (جهد: ٣ / ١٣٣).

[26] ابن السمين الحلبي، **عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، الورقة (٦٥ ظهر).

[27] سورة البقرة، آية ١٩٠.

[28] سورة البقرة، آية ١٩٣.

[29] سورة النساء، آية ٧٦.

[30] سورة التوبة، آية ١٢.

[31] سورة التوبة، آية ٣٦.

[32] سورة الأنفال، آية ٣٨ ، ٣٩ .

[33] سورة التوبة، آية ١٣، ١٥.

[34] ابن منظور، **لسان العرب**، (قتل: ١١ / ٥٦٦).

[35] القليبي، محيي الدين، **الرباط في سبيل الله**، بحث منشور في مجلة (رسالة الإسلام)، العدد ١٥، السنة الرابعة

(المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب - طهران).

[٣٦] سورة آل عمران، آية ٢٠٠.

[٣٧] ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تفسير الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران، ارجع إلى (تفسير ابن عاشور) المنشور على موقع (التفسير www.altafsir.com) على الإنترنيت

[٣٨] فضل الله، محمد حسين، من وحي القرآن، الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران، ارجع إلى (من وحي القرآن) المنشور على موقع(بيّنات).

[٣٩] ابن منظور، لسان العرب، (ربط: ٧ / ٣٠٢ - ٣٠٣).

[٤٠] ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير (مصدر سابق).

[٤١] الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، مجلّد ١، ج٢ ص ٩١٨، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م. وانظر: المجلسي، بحار الأنوار: مجلّد ٩ ، ج ٢٤ ، ص ١٤٠، باب ٥٧، رواية ٦.

[٤٢] الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ٤ / ١٣٧، (نقلاً عن تفسير العيّاشي)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م. وانظر: المجلسي، بحار الأنوار: مجلّد ٩، ج ٢٤، ص ١٤٢، باب ٥٧، رواية ١٤.

[٤٣] الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ٤ / ١٣٧ (مقلاً عن المجمع)، وانظر: المجلسي، بحار الأنوار: مجلّد ٩، ج ٢٤، ص ١٤٠، باب ٥٧ .

[٤٤] الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي، تهذيب الأحكام: ٦ / ١٢٧ - ١٢٨، مكتبة الصدوق، ط ١، طهران ١٤١٧ هـ.

[٤٥] بيضة الإسلام: يعني سيادة الإسلام، وأصل الإسلام وأحكامه. وبيضة المسلمين: يعني سيادتهم وأرضهم وأموالهم وممتلكاتهم. يقال: بيضة الشيء، أي: أصله، وبيضة القوم أي: حوزتهم وحِماهم، ويقال: فلان بيضة البلد، أي: سيادته على البلد.

[٤٦] البخاري، الصحيح: (كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم وليلة)، الحديث رقم: ٢٦٧٨.

[٤٧] مسلم، الصحيح: (كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله)، الحديث رقم: ٣٥٧٣، وورد الحديث بالإسناد نفسه في بحار الأنوار: مجلّد ٣٧،ج ١٠١ ، ص ٢٨٣، باب ٩١، رواية ١٨ ، وفي الميزان في تفسير القرآن .

[٤٨] أبو داود، السنن: (كتاب الجهاد، باب في فضل الرباط)، الحديث رقم ٢١٢٩، وورد الحديث بالإسناد نفسه في بحار الأنوار: مجلّد ٣٧،ج ١٠١، ص ٢٨٣، باب ٩١، رواية ١٨ .

[٤٩] سورة النساء، آية ١٠٢.

[٥٠] سورة الأنفال، آية ٦٠.

[٥١] الترمذي، السنن، باب تفسير القرآن الكريم عن رسول الله (ص)، فصل: في سورة الأنفال، الحديث ٣٠٠٨. وانظر سنن أبي داود، باب الجهاد، فصل: في الرمي، الحديث ٢١٥٣.

[٥٢] الخميني، الإمام روح الله، تحرير الوسيلة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصل في الدفاع، (موقع مكتب آية الله العظمى السيد علي الخامنئي على الإنترنيت).

[٥٣] الخامنئي، السيد علي الحسيني، أجوبة الاستفتاءات، كتاب الجهاد (موقع مكتب آية الله العظمى السيد علي الخامنئي على الإنترنيت).

[٥٤] فضل الله، محمد حسين، فقه الشريعة، القسم الأول في العبادات، الباب السابع، دار الملاك للطباعة والنشر، ط ٤، بيروت ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

[٥٥] مولوي - المستشار فيصل، فتوى نُشِرت على موقع (إسلام أون لاين) بتاريخ ١٥-١-٢٠٠٥.

[٥٦] مولوي - المستشار فيصل، فتوى نُشِرت على موقع (إسلام أون لاين) بتاريخ ٢٢-٤-٢٠٠٣ .

[٥٧] المعجم الوسيط، (حرر: ١ / ١٧٢)، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط ٣، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م .

الانتصار كمنتج للهوية ومحفّز للنهوض

هوية حزب الله الجهادية: قراءة في المكوّنات الأساسية

الباحث في الفكر الفلسفي والإسلامي
أ. مصطفى الحاج علي (لبنان)

مقدمة:

يتوزع هذا البحث على قسمين رئيسيين: يتناول الأول الإطار المنهجي والمفاهيمي للموضوع في سياق تناوله لمعنى الهويّة، والثاني تطبيقه على ما نراه مكوّنات تاريخيّة وأفهوميّة أساسيّة لهويّة حزب الله الجهادية، تحدد في مخططها النهائي، وعيه لانتمائه وموقعه ودوره. والقراءة هنا تتكئ على النظر الفلسفي أكثر من اتكائها على البديهي والمباشر، وبالتالي، هي لن تقف عند حدود المنطوق، وإنما ستسعى لملاقاتها - أي الهويّة - في حدود المفهوم، والمختلف، والمسكوت عنه، وفي حدود الفعل والفاعلية، وسياقاتهما التاريخية، مركزين - في هذا كله - على مفاهيم هي بمثابة شفرات مركزيّة في الخطاب السياسي والثقافي والعملي لحزب الله كحركة جهادية، وذلك وفق التفصيل التالي:

أولاً، في معنى الهوية:

نقارب الهوية هنا لا من حيث هي ذاتها، بل من حيث هي غيرها، أي نبحث عن الهوية في الاختلاف لا في مكنونات التماثل والتطابق. فـ أ = أ إذا قبلناها كقاعدة مطلقة من قواعد الفكر، فإننا لا نستطيع أن نسلم بها كقاعدة من قواعد الوجود، فما يصح أبستمولوجياً ومنطقياً قد لا يصح بالضرورة وجودياً، وللإيضاح نقول «إن الهوية لا تنفك عن المغايرة، ولا يتعين المثل من دون المختلف. بل كل مثل هو ذاته وغيره في آن...»

فالشيء من حيث هو ذاته هو غيره في الآن نفسه، وهو بقدر ما يؤكد ذاته وتماثله مع نفسه يؤكد حدود وجوده الخاص، ويرسم تمايزه وانفصاله؛ ويعلن، بالتالي، تباينه واختلافه، ما يعني أن المغايرة تصبح مقوماً «من مقومات الهوية».

وبكلمة أخرى: «إذا تفرقت الأشياء تمايزت، ولا تتمايز إلا بخواصها، وخاصة كل شيء أحديته. فبالواحد تجتمع الأشياء وبه تتفرق».

فالهوية لا تكتسب معناها من نفسها، ولا تعي ذاتها من خلال ذاتها، ولا تنظر إلى نفسها في مرآة نفسها فقط ... بكلمة واحدة هي ليست معطاة لنا على نحو العلم الحضوري، لأن ذلك من سمة الهويات الممتلئة أو الهويات المطلقة التي هي في حالة غنى مطلق عن الآخر، بينما سمة الهويات المتناهية تكمن في الافتقار إلى الآخر. من هنا، كان الآخر قدرنا، «لأن الأنا تتبنى أصلاً بالعلاقة مع العالم، والوعي بالذات يمر بالآخر، والشعور بالهوية يبرز في مواجهة الغير».

إذا كان الفصل الماهوي هو الذي يكسب الموجود تعينه النوعي الخاص، ويجعل له اسماً في الأسماء، وهو المدخل إلى زرع التفرقة والكثرة النوعية في الوجود، والمدخل إلى إدراك الموجودات، حيث لا إدراك بدون واقع التميز والاختلاف، أي أن التميز هو ما يجعل التعرف على الموجودات ممكناً، فإن هذا الاختلاف الأصلي لا يعد أكثر من نقطة انطلاق أنطولوجية أولى يجب أن لا تحجب عنا الاختلاف ضمن المختلف النوعي نفسه، وهو اختلاف يقع في حدود التميز الشخصي والثقافي والتاريخي.

وهذا النوع من الاختلاف هو ما يميز النوع الإنساني تحديداً، ذلك أن الثقافة هي التي تكسب جماعة إنسانية هويتها الثقافية بما هي صيرورة وفاعلية تاريخية. ومعنى أنها تكسب الجماعة الإنسانية هويتها، أنها هي التي تسهر على وحدة الجماعة وتماسكها وائتلافها وعلى تميزها واختلافها. ولعل قدرة كل ثقافة تقاس بفاعليتها وقدرتها الائتلافية تلك، لأن الإشكال الرئيسي الذي يواجه أي حضور إنساني هو واقع اختلافه وتباينه الطبيعي، انطلاقاً من كون سمة الطبيعي الاختلاف والتفارق؛ ومهمة الثقافة أن ترتقي بالطبيعي إلى ما فوق الطبيعي، وأن تعقلن الطبيعي وتفتحه على مستويات وجودية أخلاقية وجمالية وفنية وميتافيزيقية، وبالتالي تسهر على ضبط وتقنين وتوجيه الطبيعي نحو غايات وأهداف تتجاوزه؛ وهي بذلك تمسك بتلابيب ائتلافه وتماسكه. من هنا، كانت الثقافة تعمل بالضد مع الطبيعي، من حيث هو يميل إلى الاختلاف والانفلات من أيّة إجراءات ضبط وتقنين وتوجيه، والتحرر من أية غاية مفارقة. ولذا، كان التوتر هو الذي يحكم باستمرار علاقة الثقافي بالطبيعي في سياق جدلي لا يعرف الهدوء أو الثبات المقيم. إلا أن الثقافة بقدر ما تنتج الائتلاف، وتصنع هوية جماعة ما، فإنها تنتج الاختلاف وتولده في آن معاً. وهي بهذا المعنى معيار وطراز وجود، «وصناعة حياة» بكل ما في الكلمة من معنى. ولذا، لا معنى لثقافة ممتلئة، تكتفي بذاتها، وتعيش لذاتها، إلا إذا شاءت لنفسها العيش خارج التاريخ والحياة معاً، أو أن تتحول من مركزية المعنى والدور إلى هامشيته، ومن السيادة أو الندية إلى التبعية والتذيل، ومن الفعل والمشاركة، إلى رد الفعل والتلقي.

إنّ مهمة الثقافة ليست أن تصنع هوية الجماعة انطلاقاً من سياق تاريخها الخاص على فرض وجود تاريخ خاص[1]، وإنما بالتفاعل الحر مع التاريخ الإنساني العام، ومع الهويات الثقافية الأخرى تعارفاً أو سجالاً أو صراعاً، وبالاجتهاد النوعي في مقاربة التحديات والأسئلة الكبرى، التي

يطرحها وضعنا التاريخي والحضاري والثقافي، حيث الأجوبة هي التي تشكل ما نريد أن نكون عليه، ونعيد، بالتالي، تشكيل نمط وجودنا المطلوب، ونوع فاعليتنا ومستواها التاريخي.

إذا كانت الثقافة هي التي تصنع هوية الجماعة الإنسانية، فإن كل فعل يؤكد الهوية هو في النهاية فعل ثقافي، أي ينبئ عن ثقافة معينة، ويتوخى ثقافة ما، لأن الفعل لا يغدو فعلاً ما لم يتجاوز ذاته باستمرار، أي ما لم يتحرك بين واقع ما هو كائن وواقع ما ينبغي أن يكون. إن الفعل الحقيقي هو ذاك الذي يقع في مساحة الاختلاف بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، أي أن الفعل الذي يصنع الصيرورة في الواقع والكائن معاً. وهذا النوع من الأفعال لا يمكن أن يكون إلا من طبيعة تجاوزية[٢].

أما الفعل المكرر الذي يعيد نفسه، فهو فعل رتيب، آلي، يدور في فراغ دائري مميت؛ بينما فعل الكائن الحي هو الذي يتوخى القيمة من وراء فعله، لأن القيمة أمر متعال، فهي التي تسبغ على الفعل تجاوزه لنفسه ولأوضاعه في سعي دؤوب لا ينتهي. في نطاق هذا السعي تتجدد الثقافة، مجددة معها تميز الجماعة واختلافها الهوّي.

وبهذا المعنى لا يعود الوجود في الحقيقة حالة واقعة، بل فعلاً وعملاً. إنه الانتقال نفسه من الإمكان إلى الفعل، أي الانتقال من حالة سابقة إلى حالة جديدة كانت في عالم الإمكان قبل تحققها في وجود فعلي. وهذا سمة الوجود الإنساني نفسه»[٢]، أي كونه في حالة انتقال دائم من الإمكان إلى الفعل، لأنه مصدر هذا الانتقال، بمعنى أنه انتقال ترافقه حرية الاختيار.

إن الكائن الموجود الذي يختار مصيره طواعية دون إكراه أو ضغط، هو الكائن الذي تتمثل فيه صفة الوجود الحقيقية، وذلك على العكس تماماً من الانتقال القهري، فقد تنتقل قطعة الحديد من لونها الأسود إلى اللون الأحمر بفضل النار، إلا أنه ليس في هذا غير علاقة سببية آلية بين النار والحديد.

وفي جانب آخر، لا يكفي أبداً أن نختار حالة وجودية خاصة ثم نثبت عليها، فإذا فعلنا ذلك فقد «أصبحت لنا خصوصية المستنقع الهادئ الميت، وفقدنا، بالتالي وجودنا، لتكون لنا صفة الكون السلبي». إن الوجود هو عملية اختيار حر دائم لتحول فاعل دائم أيضاً.

وباختيارنا الحر لمجموعة خصائصنا وأعمالنا تتكون لنا ماهيتنا. «فالماهية إذن لاحقة بالوجود لا سابقة له». ولا نعني هنا، الماهية الأصلية التي تتميز بها الأنواع والأفراد، وإنما نعني بها الماهية التي بها نعيد تشكيل وصياغة هذه الماهية الابتدائية انطلاقاً من تفاعلاتها المفتوحة على كل إمكاناتها الممكنة.

بكلمة أخرى، لا نسترجع هنا الخلط الذي وقعت فيه الوجودية (سارتر تحديداً)، حين لم يميز بين الماهية العامة التي تجعل من «الإنسان أي إنسان»، وبين الماهية الفردية أو الجمعية الخاصة بنا كأفراد أو كجماعات والتي لا نجدها عند أي فرد أو جماعة أخرى. نعم، الماهية الفردية هي

لاحقة للوجود، وهي وحدها موضوع اختيار الشخص الحر؛ كما أن ماهية الجماعة هي موضع اختيار الجماعة، وإن كانت ابتداء هي معطى تاريخي، وبالتالي، فإن الجماعة مشروطة بتاريخها الخاص، لكن يبقى لها أن تقرر معنى هذه المشروطية ومداها، فهي، كما الفرد، التي تعطي، وباختيارها الحر، طراز وجودها، ونمط هويتها الخاصة، حياة مفتوحة على مستقبل فاعل، أو مستقبل لا رجاء فيه.

من هنا، فالماهية ليست معطى ثابتاً ونهائياً، وإنما، من حيث هي موقعية ونظام علاقات، وأدوار، وفاعلية تاريخية، وصيرورة مركبة، بقدر ما تحايث الزمان والمكان، تنفلت منه نحو مفارقة تتأسس في مساحة الاختلاف بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن تكون عليه. ولذا، كانت الهوية موقفاً ومسؤولية: موقفاً مشروطاً بوضعها التاريخي، وبالتالي، بمضمون اختلافها عن الآخر الذي تختاره لنفسها، وتتحمل مسؤولية هذا الاختيار بالنيابة عن نفسها وعن البشرية معاً، فالهوية إذ تأخذ مسؤولية مضمون وجودها على عاتقها الخاص، لا تختار لنفسها فقط، وإنما تختار وجود الآخرين معها انطلاقاً من أن الآخر المختلف إنما يتحدد وجوده أيضاً من خلال الاختلاف معها.

إذا كان الآخر يحدد هويتي من موقع اختلافه معي، والعكس صحيح أيضاً، فإن درجة الاختلاف هي التي تحدد نمط ونوع ومضمون علاقتي به وعلاقته بي.

فإذا كان التباين مطلقاً، وجدنا أنفسنا في حالة تناقض وجودي مع الآخر المختلف، ما يجعل إمكان التسوية معه مستحيلاً، لأن حدود الاختلاف تجاوزت ما به يكون الاختلاف إلى ما يمكن أن يكون به الاتفاق أيضاً. صحيح أن الهويات تختلف وتتباين، إلا أنها تبقى تقف على أرض مشتركة هي التي تنظم اختلافها، وتسن له قواعد علاقاتها، لكن في حالة التباين المطلق تختفي هذه الأرض المشتركة لمصلحة الاختلاف عينه. في حالة التناقض الوجودي يتضخم الشعور بالاختلاف لدرجة لا يعود يرى إلى غيره وإلى نفسه حتى الاختناق، معبراً عنها بأنوية مطلقة تستحضر نفسها إما بصورة عنصرية، أو عرقية، أو مركزية حضارية أو ثقافية، أو أيديولوجية صماء بكماء عمياء، ولسان حالها ديكتاتورية، وقهر، وتسلط، وعدوان لا يعرف الحدود.

هنا الهوية لا تعي إلا نفسها بنفسها ولنفسها، غير مشروطة بأي وضع سابق، أو قائم، أو لاحق. إنها الهوية في حدها المطلق الذي لا يتسع للآخر المختلف، إلا بوصفه موضوعاً للالتهام والاستهلاك، أي مادة للاستعمال، لا ككائن له كينونيته الخاصة. الهوية في حدها المطلق تسعى إلى تشيئة الهويات الأخرى، لتحويلها إلى مواد خام، تسهل عليها عملية إعادة تصنيعها، واستعمالها لأغراضها الخاصة. إنها قوة نابذة مطردة، وفي نفس الوقت، آلة التهام كبرى ليس لجشعها حدود، لأن كل حد لها هو بمثابة مس بإطلاقيتها، ولذا هي تميل إلى تجاوز كل حد، وإذا كان لا بد من التعاطي مع الحدود، فلأسباب تكتيكية تمهد لتجاوزها لاحقاً.

لا محل في قاموس هذا النوع من الهويات للاعتراف بالآخر المختلف، أو الإقرار بحقه في

الاختلاف؛ لأن أي نوع من الإقرار أو الاعتراف يصدر عنها، سيضعها حتماً في حالة تناقض مع وجودها الخاص بصفته وجوداً مطلقاً، وهو إقرار عندها بنسبيتها. وهذا ما تأباه لنفسها.

وإذا كان الفعل من سنخ ماهية الفاعل، أو كما قلنا سابقاً، إن للفعل - أي فعل - دائماً هويته الثقافية، فإن الهوية المطلقة في تشييئها لما عداها من الهويات، إنما تمارس تشيؤها الخاص، ضمن لعبة موازين قوى لا مكان فيها إلا للأقوى، أي وحدها إرادة القوة بكل مستلزماتها تصبح سمة هذه الهوية وميزتها المطلقة. ومن طبائع القوة المتشيئة طلب الغلبة والاستحواذ والسيطرة والتملك والقهر والتمركز حول الذات. ومن طبيعة هذه القوة أنها لا تعترف إلا بنفسها، ولذا لا تحتمل حداً لها إلا إذا كان هذا الحد من جنسها أو سنخها.

قد تقبل القوة بتعدد آلهة القوة لفترة محدودة من الزمن، إلا أن نزوعها دائماً هو نحو القوة الآحادية. وهي إذ ترى نفسها هكذا، أي قوة محضة، صرفة، آحادية الحضور، لا شريك لها، ولا منازع، إنما ترى إلى نفسها في مرآة «الألوهية»(٤)، وقد استحوذت صورتها عليها كلها. إنها المعادل لتجسيد الإلهي في البشري، أو لنقل تأليه البشري، أي جعله إلهاً. وفي هذا، تحديداً، يكمن التناقض المهول في هذا النوع من الهويات؛ هذا التناقض الذي يحيل وجودها ووعيها إلى وجود ووعي زائف وموهوم، وذلك لاستحالة الجمع بين اللامتناهي والمتناهي، ولاستحالة صيرورة المتناهي لا متناهياً. ومن ثنايا هذا التناقض، ومن ثم من رحم هذا الوعي والوجود الزائفين يولد الشر الخالص، الشر المطلق، بما هو الشر إعدام للوجود من حيث هو موجود. ولذا، كان ما يميز فاعلية هذا النوع من الثقافات هو عولمتها للشر في صورة نزوع هائل نحو تفكيك بقية الثقافات الأخرى كمدخل ضروري لإفقادها هويتها، وتحويلها من موجود إلى «كائن»(٥).

ولم يكن بدعاً أن يميل هذا النوع من الثقافة إلى أن يجعل من نفسه نقطة النهاية بالنسبة للتاريخ، لما يختزنه من مفهوم النهاية من معنى الكمال، وتوقف الصراع، بالمفهوم الهيغلي أو الماركسي، كأحد أبرز القوى المحركة لحركة التاريخ وصيرورته.

وبناءً عليه، كان طبيعياً أن تلفظ هذه المقولة خارجها كل المفاهيم المركزية التي تتصل أو تتناسل من مفهوم الصراع، وعلى وجه الخصوص مفهوم المقاومة.

إن سعي هذا الاتجاه لشطب مفهوم المقاومة من القاموس السياسي للشعوب والحركات، إنما يجد مبرره ومسوغه التاريخي والعقلي والمنطقي في مقولة نهاية التاريخ نفسها، التي تقود إلى تقسيم جديد للعالم بين عالمين: عالم الذروة أو الكمال بالمعنى التاريخي والحضاري للكلمة، وعالم الدونيات. ومفهوم الكمال - بحد ذاته - يضع على عاتق صاحبه مهمات وأعباء رسولية وقيادية، في محاولة لإعادة صياغة الآخر على صورته وفعاله، ما يعني ضرورة تفكيك عناصر صورة هذا الآخر، لإعادة تركيبها مجدداً. والتفكيك، هنا، يشمل الجسدي والنفسي معاً، أي يشمل الهوية الجسدية والهوية النفسية متمثلة على نحو رئيسي بالوعي، وذلك من خلال التلاعب أو إحداث

تحوير أو تبديل في مخزون الرأسمال الرمزي لهاتين الهويتين.

بكلمة أخرى، إن إعادة الصياغة هنا ليست إلا نوعاً من الاستنساخ البشري من خلال التلاعب بالجينات والشفرات الثقافية والهوية للآخر، الذي قد يأتي شبيهاً للأصل شكلاً، إلا أنه لن يقاربه من حيث المضمون مطلقاً، ذلك أن ثمة هوة لا يمكن تجسيرها بين صورة الشخص وصورة الشخصية.

الخطورة الأدهى لخطاب الهوية الممتلئة والمطلقة تتمثل في كونها تريد أن تكون سيدة الكلام، وليس للآخرين إلا موقع صمت العبيد، بما هو الصمت علامة حاسمة على موت الهوية. ذلك أن الصامت لا هوية له إلا عندما يشرع بإصدار أصوات تنسج عبارات قابلة للفهم من قبل الآخر. ففعل الكلام هو الجسر لحضور الهوية بما هي أنا (ضمير متكلم) في مقابل الأنت (المخاطب) أي الآخر المختلف المقصود بالكلام. ولا معنى للكلام إذا كان وقفاً على الخاص، ولم يقم عبارة إلى ما هو عام ومشترك؛ فالانحباس في إطار الخاص هو صمت من نوع آخر، لأنه سيكون من قبيل حديث الذات مع نفسها، حيث المتكلم والمخاطب واحد. من هنا، كان للكلام بعده السياسي بامتياز، بما هو السياسي فعل التعاطي مع الشأن العام. ذلك أن العام إنما يسكن في اللغوي. فالاشتغال على الشأن العام إنما هو التعاطي اللغوي الذي يسمى الحوار، بمعناه الشامل. والإنسان الأول لم يكتشف اللغة إلا لحاجته إلى العام، وذلك من أجل تدبر شؤون حياته المباشرة. والعام لا يقع في الفراغ، بل يتجسد في هذا الكل الذي لا ينتهي المتكلم عن إثارة وظيفة المخاطب فيه. فالبحث عن (الأنت) متضامن أنطولوجياً مع البحث عن الأنا، ولا يمر طريق التعارف والتضامن بينهما باكتشاف أسباب كل منهما بالنسبة إلى الآخر، بقدر ما يبنى على التقاء هوية كل منهما، في أفق الهوي العام، الذي يجمعهما قبلياً، هما وكل الجماعة اللغوية التي تحيط بهما، ولا يحيطان بها أبداً.

من هنا، كان السياسي مقوماً من مقومات الهوية الذي به تتخطى وضعها الخاص نحو أفق المجموع، والمسافة الفاصلة بين أن تكون وبين أن توجد. بين أن تكون مجرد شيء من الأشياء، وبين أن تكون موجوداً يغامر في فضاء الإمكانات، ممارساً وجوده ككائن إنساني حر ومسؤول.

إن موت السياسي هو الطريق إلى تحويل الهوية إلى مجرد موجود يختنق بذاته الصلبة إلى أن يتلاشى شيئاً فشيئاً، ويصبح مجرد ترس في آلة تتحكم به الهويات النـزّاعة نحو الإطلاق. وأكثر من ذلك، إن موت السياسي هو موت للأخلاقي فينا، من حيث إن جوهرهما واحد هو التدبير: الأول يدبّر من خلال الأنظمة والقوانين وموازين المصالح، بينما يدبّر الثاني من خلال القيم. ولا يستغني السياسي عن الأخلاقي، لأنه باستغنائه يفقد حضوره الهوّي، أي بما هو فاعلية نقدية تجاوزية بطبعها، وبما هو احتضان للعام في إطار الخاص، بل بما هو تمديد للخاص لملاقاة العام، فالسياسي إذ لا يصدر عن الأخلاقي، إنما يحيل السياسة من ممارسة للقيم وفاعلية لها، إلى

مجرد لعبة مصالح وموازين قوى، ويخضعها لميكانيزم الصراع، بدلاً من ميكانيزم الحوار؛ ويمحورها حول الخاص، بدلاً من أن يطلقها نحو العام، ويئد الهوّي فيها لمصلحة الرطانة البلاغية التي تغدو أكثر من تكرار مسرحي لدور بليد.

ثانيا، في مكونات الهويّة:

١- *مرجعيات التسميّة:*

. تحيل التسمية مباشرة إلى الاختلاف، لأن «الآية»(٦) التي اقتبست منها هي من الآيات المركزية التي اختلف المسلمون على تأويلها، والتي تتصل بمسألة الإمامة. ومن نافل القول، أنه منذ وفاة الرسول الأكرم «ذر الخلاف قرنه» بين أتباعه وأصحابه، لدرجة يمكن القول معها «إن أعظم خلاف وقع في أمة العرب، ومن ثم في الملة الإسلامية» هو الخلاف في الإمامة، أي في الخلافة، «إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كل زمان»، كما لاحظ ذلك مؤلف «الملل والنحل». من هنا، فإن التسمية سواء بمرجعيتها النصيّة، أم التاريخية تحمل إرثاً ثقيلاً من الاختلاف ليس من السهل التخفيف منه؛ وبالتالي، فإن الاختيار، هنا، لا بد من أن يكون اختلافياً، ما دام محكوماً بتبني قراءة معينة للنص، وما يلزم عنها من تبنٍ مقابل للتسييل التاريخي لهذه القراءة. والاختيار، هنا، صريح في أخذه القراءة الشيعية، يقول نائب الأمين العام سماحة الشيخ نعيم قاسم: «إن سلوك منهج الإسلام يتطلب فهماً تفصيلياً وتبنياً لرؤية في التفسير والتأويل؛ ومع وجود المذاهب الإسلامية المتعددة، كطرف اختارها أصحابها للتعبير عن قناعاتهم بالسبيل الموصل إلى الالتزام بالشريعة المقدسة، كان لا بد من اختيار إحدى هذه الطرق، فكان اختيار مذهب أهل البيت (ع) أو المذهب الشيعي، كالتزام وتبنٍ يترتب عليه مجموعة قواعد في الأصول والفروع، تشكل بمجموعها الخلفية الفكرية والفقهية التي استند إليها حزب الله في فهمه للإسلام».

إذاً، منذ البداية تتأسس التسمية في المختلف، وتحيل إلى الاختلاف، ما يجعلها . شاءت أم أبت . مسكونة به، تضمره في طياتها، حيث تعي نفسها، بوصفها هذه الجماعة التاريخية لا تلك، وإذ تعي دورها التاريخي أيضاً، تعيه من حيث هو اجتهاد خاص، أو قل قراءة خاصة للإسلام تتناسب وهذه المرحلة أو تلك.

هذا الوعي يدرك مدى حدية خصوصيته، وهو إذ يؤكد اختلافه، يؤكد اختلاف الآخر، وإن الاختلاف هو الحقيقة الجامعة، أكثر من أي أمر آخر، ما يجعل إمكان رفعه متعذراً، حيث «لم يتمكن الفقهاء من حله خلال مئات السنين (...) فضلاً عن أننا نجد في داخل المذهب الواحد اختلافات في التفسير والتأويل بين الفقهاء» وهذا ما يفرض البحث عن تعزيز المشترك خارج الاختلاف المذهبي أو داخل المذهب الواحد» في «المستوى العملي»، أي التوحد «في مواجهة

التحديات..الخ».

يؤكد هذا الاختلاف أن الشخصية المفهومية للأمة ليست واحدة، إلا أن القضايا والتحديات والأخطار التي تواجهها لا تميز بين هذه الفرقة أو تلك، أي تأخذها كلاً، ما يفرض التصدي لها كلاً. هنا تبرز الوحدة العملية كضرورة إجرائية في مواجهة الاختلاف الذي هو واقعة تأويليّة وتاريخية أخذت أشكالها المتباينة عقائدياً وفقهياً. لكن هناك أسئلة تفرض نفسها: هل وحدة التحديات والأخطار تفرض تلقائياً الوحدة العملية؟ هل يمكن هنا، تحييد الخلافات العقيدية والمفاهيميّة والفقهية، في عملية مقاربة هذه التحديات والأخطار، أم من شأن هذه أن تنقل الاختلاف إلى الواقع العملي أيضاً؟ حتى لو اتفقت هذه الفرق على تشخيص الأخطار بعنوانها العام، هل يعني أن الاتفاق سينسحب على فهمها والموقف منها، وعلى كيفية ترتيب أولوياتها؟

ما يهمنا هنا، أن الدعوة إلى التوحيد انطلاقاً من الضرورات العملية، أو لنقل من ضرورات الواقع، ليست إلا إقراراً ضمنياً بواقع الاختلاف وأصالته التاريخية والتأويلية، وعدم القدرة على تجاوزه بما هو كذلك، وهذا الإقرار هو في حقيقته وعي مزدوج: وعي الهوية الشخصية بما هي اختلاف، ووعي الآخر بما هو اختلاف أيضاً. والهوية الشخصية المذهبية، كما هو واضح، لا تستمد كينونتها الخاصة إلا من سياقها التاريخي وتأويلها الخاص للنص، أي بما هي اختلاف مع الآخر وتباين معه. فالاختلاف هنا هو حد الهويّة ومعناها التاريخي والتأويلي معاً، أما الدعوة إلى التوحد العملي، فإنها تكشف في واقع الأمر عن نزوع براغماتي يحاول تسكين الاختلاف الداخلي في مواجهة اختلاف آخر أكثر عمقاً وحدية. وإدراك الهوية لنفسها كاختلاف، يحمل في ثناياه اعترافاً ضمنياً بالآخر وقبولاً به، بما أنه في محصلة الأمر هو «أمر علمي له علاقة بالتحصيل والاجتهاد».

٢- ***الإمامة والولاية:***

أي هو أمر نظري مشروع يبقى كذلك ما لم يسيّس، وهو بدوره أمرٌ متعذر، إذ كيف يمكن التفكيك في مسألة الإمامة بين ما هو علمي وما هو سياسي، باعتبارها جوهر المسألة السياسية في الإسلام، والتي تتداخل عناصرها الدينية والعقائدية والسياسية إلى أبعد ما يكون التداخل؟ ثم، إن الاختلاف في مسألة الإمامة له ترجمته المعاصرة المتمثلة بالعلاقة مع الولي الفقيه، من حيث هو قائم مقام الإمام المعصوم في حال غيبته وفق المنظور الشيعي. فالارتباط بالولي الفقيه - وفق القائلين بهذه النظرية - هو من سنخ الارتباط بالإمام المعصوم، من دون أن يعني ذلك أن المقومات الشخصية للإمام المعصوم يجب أن تكون متحصلة في الولي الفقيه.

وولاية الفقيه هي نقطة ارتكاز «حزب الله» الجوهرية، لأن الولي الفقيه هو مصدر مشروعيته الدينية والسياسية معاً، ذلك أن «الحدود التي يضعها الولي الفقيه تأخذ بعين الاعتبار مسألتين: **الأولى:** تطبيق الأحكام الشرعية وعدم القيام بما يخالفها.

الثانية: الظروف الموضوعيّة والخصوصيات لكل جماعة أو بلد، والتي تؤثر على دائرة التكليف ومساحة الاهتمام» [٧].

من هنا، فإن «التزام حزب الله بولاية الفقيه حلقة من هذه السلسلة. إنه عمل في دائرة الإسلام وتطبيق أحكامه، وهو سلوك في إطار التوجهات والقواعد التي رسمها الولي الفقيه»[٨].

أما «الإدارة والمتابعة ومواكبة التفاصيل والجزئيات، والقيام بالإجراءات المناسبة، والعمل السياسي اليومي... من مسؤولية القيادة المنتخبة من كوادر الحزب بحسب النظام الداخلي المنتخب..». أي أن عمل حزب الله هو من قبيل تطبيق الكلي على الجزئي، والمفهوم على المصداق، وبهذا المعنى، فإن ولاية الفقيه تشكل الأصل الذي يقوم عليه المعنى الديني والسياسي للحزب.

هذا الارتباط، يعيد إنتاج الاختلاف حول الإمامة، بصيغة مغايرة، أي يصبح اختلافاً حول ولاية الفقيه نفسها والعلاقة معها؛ وهذا الاختلاف بقدر ما له تمظهراته داخل المذهب الواحد، له تمظهراته أيضاً مع الحركات الإسلامية الأخرى ذات الأصول السنية. وبناءً عليه، فإن ولاية الفقيه تشكل إحدى مقومات الهوية الخاصة لـ «حزب الله» التي تميزه عن باقي الحركات والأحزاب الإسلامية سواء أداخل النطاق الشيعي نفسه، أم داخل النطاق الإسلامي العام، أي مع الأحزاب والحركات الإسلامية السنية أيضاً.

وما يجدر الالتفات إليه هنا، أن الارتباط بولاية الفقيه ليس ارتباطاً إجرائياً أو تنظيمياً، إنما ارتباط ماهوي بكل ما في الكلمة من معنى، لأن هذا الارتباط هو الجسر إلى الارتباط بالإمامة، ومن خلالها الارتباط بالنبوة، فالارتباط بالله سبحانه وتعالى، قال تعالى: **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾**. فالآية ظاهرة في كون الولاية في الجميع بمعنى واحد... فولاية الرسول والذين آمنوا إنما هي من سنخ ولاية الله..»

بل أكثر من ذلك فإن قوله تعالى: **﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾** واقع موقع الجزاء، وليس به، بل هو من قبيل وضع الكبرى موضع النتيجة للدلالة على علة الحكم، والتقدير: ومن يتولّ فهو غالب لأنه من حزب الله وحزب الله هم الغالبون، فهو من قبيل الكناية على أنهم حزب الله».

بكلام آخر، إذا شئنا أن نصوغ ما تقدم في صورة قياس منطقي لقلنا:

- كل من يتولى هو من حزب الله.
- كل من هو من حزب الله هو غالب.

إذاً، كل من يتولى هو غالب.

من هنا، كان التولي هو واسطة الحصول على الهوية «الحزب اللهية»، لأنه هو الذي يشكل ماهيته الفعلية. فلا معنى لمصطلح «حزب الله» خارج إطار معنى الولاية في مدارجها التالية:

- ولاية الله سبحانه وتعالى.

. ولاية الرسول (ص).

. ولاية الذين آمنوا (الأئمة المعصومين) (ع).

. ولاية الفقيه الجامع للشرائط.

والأخيرة في هذا الزمن هي الشرط الموضوعي والتاريخي لتحقيق الولايات الثلاث السابقة، ما دامت تقع في طول هذه الولايات، وتحكي عنها، وتنطق بلسانها.

وإذا كانت الولاية ـ كيفما أخذت ـ هي التي تجسر الهوة بين الزمني واللا زمني، بين التاريخي واللا تاريخي، بين المتناهي واللامتناهي ... فإنها لا بد من أن تجمع في داخلها هذا التوتر المطلق الناشئ من التضاد المطلق في كينونتها بين هذه الحدود؛ ما يجعلها مفتوحة على صيرورة لا تعرف الاستكانة، ما دام من المستحيل تجسيد المطلق في التاريخ، وحيث كل لحظة تحقيق للمطلق في التاريخ محكومة بتجاوز ذاتها في حركة تكاملية لا تبلغ نهايتها المرجوة.

إن توهم تحقيق المطلق في التاريخ، يوقعنا في وهم أكبر هو تحول التاريخ نفسه إلى مطلق، أي أن يصبح لا تاريخ في لحظة تجسيد مطلقة تقضي على كل اختلاف ممكن.

فحركة التاريخ تبقى متاحة ما دام الاختلاف قائماً بين الممكن والمثال؛ وهنا، بين الممكن (الإنسان - الأمة..الخ) و الله بما هو المثال الأعلى في المنظور الإسلامي. ولعل منبع فكرة الاجتهاد أو قل فلسفته ـ تكمن هنا بالتحديد، أي في محاولته تجسير الهوة بين الممكن والمثال في لحظته التاريخية. إلا أن هذا التجسير لا يتأتى من دون دخول النقد كعنصر أصيل في ماهية الولاية نفسها، حيث لا يمكن للولاية إلا أن تكون من طبيعة تجاوزية، فما هو واقع لا يعدو بالنسبة لها أكثر من تكئة، أو نقطة انطلاق، باتجاه ما ينبغي أن يكون، ما يفرض عليها باستمرار إعادة تعريف نفسها، من خلال إعادة تعريف دورها المناط بها تاريخياً.

ما أريد قوله هنا، إن الولاية بما هي الهوية الماهوية لحزب الله يجب أن لا ننظر إليها كمعطى نهائي، وإنما كحالة اختلاف، تنبثق منها صيرورتها، وينبجس من خلالها معناها التاريخي. فإذا كان الفعل يحكي عن ماهية فاعله، بل هو تجسيد لهذه الماهية، فإن الفعل التاريخي هو الذي يكسب هذه الماهية معناها الذي لها، من دون أن يعني ذلك أيضاً أنه بات حدها النهائي.

ولذا، لم يكن غريباً على التعبير القرآني أن يقرر بأن «حزب الله هم الغالبون». صحيح، أن الآية تقطع بتحقق الغلبة لهذا الحزب؛ وهو ما له أهميته المعنوية، إلا أن استخدامها لمفهوم أو مصطلح الغلبة لا يخلو من مغزى. فالغلبة لا تتحقق إلا حيث يكون هناك صراع، والصراع لا يكون إلا حيث هناك اختلاف. وبهذا الاعتبار، كأن الآية تريد أن تقول أمراً آخر، هو أن هذا الحزب لا يتكون إلا في قلب الصراع، أي في قلب الاختلاف، ولذا كانت ماهيته محكومة بالاختلاف الدائم سواء أكان الاختلاف كينونياً أم بينياً.

٣- *العصبيّة المتألهنة:*

ثم إذا أخذنا معنى «الحزب» في مصطلح «حزب الله» والذي يفيد - حسب ما ذكره الراغب - «جماعة فيها غلظ»، أي شدة، فإن مصطلح «حزب الله». يفيد «جماعة الله»، أي الجماعة التي يتمحور وجودها حول الله سبحانه وتعالى، وعصبيتها لا تكون إلا لله تعالى. وبهذا المعنى ذكر الله سبحانه وتعالى حزبه في موضع آخر من كلامه، وسمهم فيه أيضاً بالفلاح، فقال: **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد لله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾**.

إن «نفي وجدان قوم على هذه الصفة، كناية، عن أن الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر لا يجامع موادّة أهل المحادّة والمعاندة من الكفار، ولو قارن أي سبب من أسباب المودة كالأبوة والبنوة والأخوة وسائر أقسام القرابة، فبين الإيمان وموادة أهل المحادة تضاد لا يجتمعان..».

وتخصيص ذكر «مودة النسب بالذكر لكونه أقوى أسباب المودة من حيث ثباته وعدم تغيره».

فهذه «الجماعة» تتمحور حياتها وتماسكها الداخلي حول عصبية متعالية، فوق بشرية، وفوق اجتماعية. وهي، بهذا المعنى، متحررة من أي ولاء آخر، أو أي انتماء لا يستمد معناه ومشروعيته من هذه العصبية المركزية، ويخضع لمعاييرها الحاسمة. ولذا، فهذه الجماعة مسكونة بالإلهي، بكل ما يعنيه الإلهي من طهرانيّة وتعالٍ، وقداسة، ما يجعلها جماعة مختارة ومصطفاة بامتياز، ما يؤهلها لأن تتصدى لقيادة الأمة.. وبوصفها «جماعة الله» تعي نفسها كحالة متناقضة تماماً، ومختلفة مطلقاً مع «حزب الشيطان» أي جماعته، وهذا الاختلاف المطلق هو الذي يحدد هويتها المطلقة، أي بوصفها «جماعة الله».

٤- *المكون المهدوي لماهيّة حزب الله:*

ووفق المنظور الديني، فإن التصادم أو الاختلاف الأصلي بين هاتين الجماعتين هو ما يقف وراء حركة التاريخ، من هنا، فإن لهذه الجماعة دورها التاريخي في سياق هذه المواجهة الشاملة، بكل مصاديقها المتنوعة، إلى أن يتحقق النصر النهائي في «نهاية الزمان»(٩) مع ظهور رمز هذه الجماعة وقائدها الفعلي الإمام المهدي(عج). ففكرة المهدوية من المفاهيم المركزية والمحورية في نطاق العقل السياسي والإيديولوجي الشيعي العام، وفي نطاق وعي حزب الله لنفسه ولماهيته ودوره، أي أنها تدخل في صلب مكوناته العقيدية والسياسية معاً.

فالمهدويّة لا تشكل قاطرة لحركة التاريخ فحسب، التاريخ المنشود والمأمول، التاريخ المثالي للبشرية، فقد جاء في الحديث أن الإمام المهدي (عج) «سيظهر ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً..، وإنما تحمل في طياتها معيارية مطلقة يجري تكييفها مع كل حقبة من حقبات

التاريخ كأداة نقدية تجاوزية لما هو قائم ومرفوض. وهي إذ تعرّف نفسها كحركة من أجل العدل المطلق والعام في مواجهة الظلم المطلق والعام، إنما تعي نفسها كحركة تنمو في خضم الاختلاف، بأكثر تعبيراته حدية وهو: الصراع. من هنا، كانت هذه الحركة تكتسب ماهيتها، ومن ثم هويتها، في سياق دورها التاريخي المطلوب، وهو دور تعيه كالتزام قبليّ حتميّ، التزام يستمد مخزونه الرمزي والغيبي من شعور حاد بالمظلومية والقهرية التاريخية، إلى جانب «قوة العقادة الإسلامية»، والوعد الإلهي بحتمية الانتصار: «لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون». «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين». وهنا، ثمة مسألة جديرة بالتوقف عندها وهي: «أن المهدوية هي حركة «الذين استضعفوا في الأرض»، وليست حركة «الضعفاء في الأرض».

وشتان بين التعبيرين: فالأول كناية عن أن حقيقتهم وواقع أمرهم ليس الضعف، أي أن ضعفهم ليس ذاتياً، ليس من ذواتهم، وإنما هو أمر طرأ أو يطرأ عليهم من الخارج، على العكس الثاني الذي يوحي بأن الضعف أمر ذاتي لا عرضي. الاستضعاف، إنما يكون بفعل فاعل، والفاعل يتنوع ويختلف باختلاف الظروف التاريخية والاقتصادية والاجتماعية. فعوامل الاستضعاف متنوعة، وأسماء فاعليه متنوعة أيضاً، فقد يتجسد في الظاهرة الفرعونية في التاريخ، أو في ظاهرة أكابر القوم أو المستكبرين، أو في ظاهرة الاستعمار، أو الاحتلال.. الخ.

وإذا كان الاستضعاف هو نتيجة للاستيلاء على أسباب قوة المستضعف، ومن جملة أسباب القوة وعيه وإرادته، كانت معركة المستضعفين/ مركبة، تمزج بين دحر المستضعِف / المستكبر / المستقوي/ وبين السعي لامتلاك كل أسباب القوة والمنعة. وبهذا المعنى، فالمهدويّة هي فعل إعادة تأكيد لجوهرها بما هي إرادة قوة، أي بما هي تجلّ لإرادة القوة الإلهية القاهرة في مقابل إرادة القوة العاصية، المعاندة، المتمردة، المستكبرة.. الخ.

وفي جانب آخر، إذا كانت جغرافيّة حركة المهدوية عالمية، أرضية بامتياز، فإنها وإن ارتكزت على عصبها الخاص. مفتوحة على الفضاء الإنساني بتمام نوعه.

بناءً عليه، لم يكن غريباً أن يستهل حزب الله خطابه السياسي التأسيسي الأول بالتوجه إلى المستضعفين، وأن يركز على هذه المفردة في أكثر من فقرة فيه قائلاً: «أيها المستضعفون الأحرار».. وصولاً إلى قوله: «إننا أبناء أمة حزب الله، نعتبر أنفسنا جزءاً من أمة الإسلام في العالم، التي تواجه أعتى هجمة استكبارية، في الغرب والشرق على السواء، بهدف تفريغها من مضمونها الرسالي الذي أنعم الله به عليها، لتكون خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وبهدف استلاب خيراتها، واستثمار طاقاتها وكفاءات أبنائها، والسيطرة على شؤونها كافة..».

وتحت عنوان: «جبهة عالمية للمستضعفين»، جاء الإلحاح «على جميع المستضعفين في العالم،

بضرورة تشكيل جبهة عالمية لهم تضم جميع حركاتهم التحررية، بهدف التنسيق في ما بينها تنسيقاً كاملاً شاملاً.. »[١٠].

بهذا الوعي يتمثل حزب الله هويته، حيث لا تعدو خصوصيتها أكثر من مستند لدور معولم، انطلاقاً من كون المهدوية هي عولمة التحرر والعدل والاستقواء المؤنسن، في مقابل عولمة الاستعباد، والظلم، وهيمنة القوة الغاشمة.

٥- الطهرانيّة السياسيّة:

ولأن المهدوية حدها العدل، وطاقتها المتفجرة هي المظلومية والقهريّة في حدها التاريخي، وأفقها البعيد تجسيد الشرعية والمشروعية الإلهية، والآمرية المطلقة لله في الأرض، فهي تختزن في داخلها، في بنية لا وعيها الإيديولوجي والسياسي، نفوراً طبيعياً من أي اختلاط أو ملامسة، لكل ما هو ضدها.

فهي تنفر طبيعياً من الظلم والظلمة، من كل ما لا يتصف بشرعية إلهية إسلامية تحديداً، وبالمعنى الحصري ما لا يمت بصلة للفهم والتأويل الشيعي للنص الإسلامي، ما أملى، ويملي، على أتباعها حذراً مستمراً، واحتياطاً غير عادي، في التعامل مع أي قضايا يمكن أن تقود إلى شبهة علاقة، أو تفسر على أنها إقرار أو إمضاء واعتراف، بكل ما هو ظالم وغير شرعي، وفق المعايير الإسلامية. إنّ المهدوية كحالة امتلاء بالعدالة، وكواقعة تاريخية تنتج عولمة العدالة على نحو الشمول والاكتناز، تبدو محكومة من داخلها بنزوع طهراني لا حد له إلا الطهر نفسه. ولعل، هذا ما يفسر - عندما يكون نطاق عمل أبنائها، خارج مظلة النظام الإسلامي - نزوعها الجذري للانخراط أكثر في القضايا ذات الطابع المبدئي العام، ذلك لأن العدو واضح لاتخالطه شبهة، والمواجهة معه هي بمثابة رافعة جذرية للطهرانية لما تقتضيه من إيثار وتضحيّة بالنفس والدم؛ ذلك أن تجاوز الحياة نفسها يقضي على أي احتمال منطقي بوجود دوافع دنيوية / دنيّة. فالشهادة بقدر ما هي فعل تطهير للواقع من مكامن الدنس الذي فيه وفينا، هي فعل مترفع، مفارق، يخترق الواقع ليتجاوزه في نقلة هي أشبه بالوثبة الصوفية. في المقابل، تبدو ممارسة السياسي اليومي، الجزئي، الملحاح، والمتداخل إلى أقصى الحدود مع الآخر المختلف، المدنس بألوان الظلم والقهر، محكومة بالانخراط معه، وبملامسته وبمصافحته، بفعل نظام شبكة علاقات مصالح الواقع السياسي اليومي وعضويتها، ذلك أن كل موقع على هذه الشبكة هو في علاقة حتمية مع المواقع الأخرى. من هنا، كان التعامل مع هذه الشبكة من خارجها هو الأضمن للطهرانية السياسية. وإذا كان لا بد من دخول لعبتها، فلتكن اللعبة خاضعة لأولويات الخارجي، المختلف، المضاد مع كل قوانين الشبكة ولعبها الفاسدة. هنا، تكمن تحديداً إشكالية التعاطي السياسي الداخلي، حيث السؤال الثاوي في اللاوعي، والباحث عن إجابة مستمرة هو: كيف أدخل هذا الواقع، في الوقت الذي يجب أن أبقى خارجه؟ كيف يمكن الاحتفاظ بطهرانية عملي السياسي وسط بنية مغمورة

تفيض بكل ما هو دنس سياسي؟ الإجابة السحرية تتمثل بكلمة واحدة: المعارضة، «خيار حزب الله هو معارضة أسلوب السلطة وأدائها.. إن دخول وزير أو وزيرين لن يغير شيئاً. لذلك خيارنا أن نكون معارضة وحركة مقاومة ضد الاحتلال والظلم».

ما يبحث عنه السياسي الطهراني ليس مصالح خاصة، هو لا يعي السياسة كشبكة علاقات معقدة من موازين القوى والمصالح بمعزل عن شبكة مقابلة، موازيّة، ورديفة لها، منسوجة من القيم والمبادئ المتعالية. فالسياسة ليست عنده فعلاً دنيوياً حصرياً، وإنما هي فعل بقدر ما تضرب شروشه في التراب، فهو يتطلع إلى الأعلى؛ فلا معنى للسياسي خارج الميتافيزيقي، فإن كان التراب مادة حركته، فإن الروحي والسماوي هو جوهرها وأفقها.

٦- ***الماهيّة المقاومتيّة (الجهاديّة) لحزب الله:***

وإذا كانت «المعارضة» هي الجواب الممكن على إشكالية تعاطي الشأن العام الداخلي، فإن الجواب يصبح مختلفاً تماماً بالنسبة للقضايا ذات الطابع الفائض على الوطني، بل وحتى على القومي، الجواب هنا، أيضاً، محدد، قطعي، لا يتحمل أي تأويل، وشرعيته لا لبس فيها ولا شبهة: هو المقاومة.

وهذه المفردة تحتاج إلى وقفة خاصةً، لأنها ليست معنى زائد عن ماهية حزب الله، بل هي عين ماهيته التاريخية.

بادئ ذي بدء، لا بد من القول إن الإسلام يشكل المقوّم الأساسي لماهيّة المقاومة، وبالتالي فإن الإسلام يحدد الإطار التاريخي والثقافي والحضاري الديني المرجعي لهذه المقاومة من جهة، كما يحدد المقصد الرئيسي لها من جهة أخرى. وهذا ما سيوظّف راهناً، في النظر إلى ما يشكله زرع الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة من خطر داهم على الهويّة العامة للمنطقة بكل تشعباتها السياسيّة والثقافيّة والحضاريّة، وباعتباره واحداً من الأسباب التي مهدت الطريق ليشكل الكيان ـ الدولة ـ نقطة تلاقي مصالح استراتيجيّة بين المشروعين «الإسرائيلي» والاستكباري ـ الغربي.

فالصهيونيّة السياسيّة «حركة استعماريّة في أحضان الاستعمار الأوروبي واعتمدت في بقائها على مساندته، بحيث أصبحت تشكل تنظيماً سياسياً يهدف إلى تجسيد الإيديولوجيّة الصهيونيّة الداعيّة إلى إقامة وطن قومي ليهود العالم في فلسطين».

فالتماهي بين المصالح الاقتصاديّة الغربيّة عموماً، سواء في اتجاهها الباحث عن المواد والموارد الأوليّة، أم في اتجاهها الباحث عن أسواق جديدة لتصريف منتوجاتها، وبين الإيديولوجية الصهيونيّة الباحثة عن وطن للشتات اليهودي في العالم، شكّل الدافع الرئيسي لزرع الكيان الصهيوني في فلسطين. واختيار فلسطين لم يأت صدفة أو بالقرعة، إنما عن وعي ودراسة، ففلسطين تشكل في الوعي التاريخي اليهودي أرض المعاد، وبالتالي من شأنها أن تشكل حافزاً ودافعاً لليهود يحضّهم على التوجه إليها، كما أن من شأنها أن توفر التعاطف المسيحي في عمقه

الديني المستمد من «العهدين» القديم والجديد.

إن الخطر المباشر، انطلاقاً مما تقدم، للكيان «الإسرائيلي» ـ الصهيوني، ركيزة الاستعمار الغربي، يكمن في ضرب الهويّة السياسيّة الموحّدة للأمة لمصلحة نشوء الهويات الكيانيّة والقطريّة، وحتى الطائفيّة والمذهبيّة والطبقيّة، في حين يكمن الخطر الداهم الآخر في ضرب الهويّة الثقافيّة ـ الحضاريّة للأمة من خلال عمليّة التغريب الشاملة والمتوسلة بالتطور النوعي الفائق لتقنيات الاتصال التي حوّلت العالم بأسره إلى ما يشبه «القريّة الصغيرة».

ووفق هذا المعطى التاريخي والموضوعي، فإنّ الكيان الصهيوني لا يصبح خطراً على الأرض والثروات فحسب، وإنما خطر، أيضاً، على الهويّة الجامعة، أي الهويّة الإسلامية.

وعليه، فإن المقاومة الإسلامية في سعيها إلى تحديد هويتها الخاصة، تتطلع إلى هدف أصيل ينبغي الدفاع عنه والمحافظة عليه وصونه من كل خطر أو تهديد. وفي جانب آخر، هي تعي نفسها منذ اللحظة الأولى كحالة اختلاف مطلق مع عدو مطلق لا يمكن التجسير بينهما إلا بالصراع.

فالهويّة هنا، وبفعل واقع الحال السياسي والثقافي والحضاري والتاريخي للأمة، ليست صفة مقومة لماهية المقاومة، أو إطاراً مرجعياً لها فحسب، وإنما هي نواة مشروع اشتباكها مع المشروع الصهيوني ـ الاستعماري الاستكباري الغربي، كما أنها، في الآن نفسه، رد فعل طبيعي إزاء الخطر المصيري الذي يتهدد الأمة، وهكذا فإن الفعل المقاوم في أدبياته السياسيّة والإيديولوجية والشعاراتية، فضلاً عن مرتكزه الجهادي نفسه، أي مشروعيته الدينيّة والقيمية والفقهيّة، إذ يسمي عملياته الجهاديّة بأسماء رموز كبرى من تاريخه، (أسماء أعلام، ومعارك ومناسبات)، إنما يستحضر مثله العليا الممتدة عبر التاريخ، ويعيد توظيف المخزون الروحي للمواقع والمناسبات والأمجاد في الحاضر. وهكذا يعاد تأويل مواد التراث بما يتناسب وحاجات الحاضر وتطلعات المستقبل.

وبهذا الاعتبار، فالمقاومة لا ترسم معالم الحاضر فقط، وإنما تضع مداميك المستقبل أيضاً، من خلال عمليات الاستنهاض المعنوي الشامل الذي تبثه في شرايين الأمة وتخصب به روحها، وتعيد إنتاج صيرورة ائتلاف ووحدة هويتها كأمة بالمعنى الإيديولوجي والتاريخي والحضاري والثقافي للكلمة.

وفي ثنايا هذا الاختلاف المطلق بحده الصراعي، ينبجس المدى الحيوي لفعل المقاومة، وهو مدى يجد معالمه الرئيسيّة في كونه حقاً إنسانياً طبيعياً معترفاً به حتى من قبل القوانين الوضعيّة. وهو حق يختصر بداخله جملة حقوق إنسانيّة ـ نوعيّة، ليس أقلها حق الإنسان بالعيش الحرّ والكريم والعزيز، وحقه في توكيد ذاته في إطار ينمو ويتطور من خلاله، من خلال تفاعل وثيق مع مثله العليا الخاصة، ومعالم حريته، بحيث يحدد سمات حاضره ومستقبله وينشئ مؤسساته الذاتيّة، وينتج ويبدع ويشارك في صنع الحضارة بنكهته الخاصة.

وبقدر ما يؤكد فعل المقاومة ـ بما هو دليل حياة الأمة، وسعي لتخصيب هذه الحياة وتنميتها وتطويرها أفقياً وعامودياً [١١] ـ كل هذه القيم، بقدر ما يسلب ويعري العدو منها، إذ يضعه في موقع النقيض تماماً لأي وضع إنساني حقيقي، ولا يترك الأعداء في موقع العدو العادي، وإنما سينظر إليهم كمجرمين قتلة وكلصوص عصاة بحسب تعبير المادة ٣٧ من شرعة حقوق الإنسان للثورة الفرنسيّة .

هذا الحقل الواسع من الدلالات الذي تحفر فيه المقاومة، هو الذي «يرهب العدو» ويقضّ مضجعه، أكثر مما ترهبه الخسائر الماديّة أو البشريّة. فالمقاومة بما هي فعل تشبث مشروع بمفهوم الحياة بمعناها الأغنى والأخصب، وجهاد في سبيلها، فإن العدو يدرك أنها بقدر ما تنجح في الاستمرار، وفي القدرة على العطاء، بقدر ما تنمو الحياة وتزدهر وتتفتح في الأمة .

ولذا، فإنه ليس مستغرباً، أو ضرباً من الخيال، أن نجد في خطاب المقاومة ما يفيد أنها تقاتل من أجل الأمة كافة، لأن المقاومة، بحسب منطقها، بمثابة القلب النابض الذي يضخ دم الحياة في شرايين الأمة المجدبة، والحرارة في أعصاب إرادتها المتراخية، إن المقاومة هي فعل حياة، ومن طبيعة أفعال الحياة القدرة على التوسع والانتشار والازدهار.

هذا الحقل الواسع من الدلالات هو الأفق الاستراتيجي لفعل المقاومة، بالرغم من الإطار الجغرافي الطبيعي لحركتها، لأن المعاني الروحيّة الجهاديّة لا تحول بينها الموانع الماديّة مهما بلغ ارتفاعها أو كانت سماكتها، فلديها من القدرات المتعالية ما يسمح لها بالاتصال والتواصل والفعل والتفاعل مع كامل محيطها، لا سيما إذا كان هذا المحيط من سنخها الثقافي والحضاري والقيمي والديني .

واستناداً إلى ذلك، لا يمكن النظر إلى المقاومة وقدرتها ونجاحاتها بمعايير الإنجازات الميدانيّة المحدّدة بالأطر الماديّة كتحرير الأرض فحسب مثلاً، بل لا بد من تجاوز هذه المعايير إلى غيرها من المعايير الكيفيّة والمعنويّة الشاملة، وبالتالي لا بد من النظر إلى المقاومة من خلال المدى الحيوي لنتائج أفعالها، وهو ما يتجاوز فعل المقاومة في الزمان والمكان، وهذا ما سعى حزب الله ومقاومته الإسلامية إلى ترويجه باعتبار أن المقاومة هي مصدر إشعاع واستنهاض شامل لكامل القطاعات الشعبيّة المتحسّسة في الوطن العربي لمدى حجم التدمير الذي تقوم به الطغمة الصهيونيّة في أرضها، وحضاراتها وقيمها، إضافةً إلى مقدساتها، وهنا يكمن المدى الحيوي النوعي لفعل المقاومة الميداني والآني .

٧ - الشهادة أو الحد العملي لماهية حزب الله:

كما أن للمقاومة مرتكزات عامة، إسلامية وغير إسلامية، تنهض عليها، فإن للمقاومة الإسلامية في لبنان مرتكزات إيديولوجية خاصة لا نستطيع تجاهلها ونحن نتناول هذه المقاومة بالبحث، فنحن لا نستطيع، أن نفصل بين هذه المقاومة وبين الإطار الشيعي الذي اكتسبته بفعل

جملة عوامل، سنتناول منها ما يعنينا، أي السمة الخاصة التي وسم التشيع المقاومة بها، وهي سمة نوعية ذات جذور شيعية تاريخية وفكرية وسياسية وفقهية وفلسفية.

وما يهمنا هو تسليط الضوء على عامل جوهري، يحتل مكاناً حساساً من الوعي والشعور الشيعي، يتمثل في منظومة الأفكار التي تحكم نظرة الشيعة إلى الحياة والتاريخ معاً، وهي نظرة تجد مداها ومضمونها في النظرة الخاصة للشهادة والتاريخ، حيث يبدو كل منهما بمثابة ديناميية خاصة لنوع من الحضور في الحياة، نوع يكشف ويفسّر الدور الذي تضطلع به المقاومة والموقع الذي تحمله.

فالشهادة في الفكر الشيعي ليست موقفاً من الحياة فحسب، وإنما هي موقف للحياة أيضاً. لذا فقد ارتبطت عبر التاريخ بفكرة العدالة والحق، وكانت بالتالي، شهادة على الظلم من أجل العدالة»[١٢]، وشهادة على الباطل من أجل الحق.

ولا يمكن، عبر التاريخ الشيعي، الفصل بين الشهادة والمثل العليا البشرية المتجسدة بالأئمة الإثني عشر، بدءاً بالإمام علي بن أبي طالب (ع) وانتهاءً بالإمام المهدي (عج)، حيث تشكل الشهادة والابتلاء القاسم المشترك الأكبر بين حياة الجميع»[١٣].

جميع أئمة الشيعة باستثناء الإمام المهدي (الإمام الثاني عشر عند الشيعة الإمامية) لم ينتهوا على فراش، اذ بغالبهم قد قتلوا قتلاً وعلى أيدي الحكام، وهم بذلك، رسموا النموذج الأسمى - لدى شيعتهم - ليس للحياة فقط، وإنما للموت أيضاً. فطريقة الموت تحمل في طياتها نمط الحياة المطلوب والمرغوب فيه»[١٤]. وإذا كانت الشهادة طفرة «تحدث تحولاً ربانياً في الجانب الحقير والمنحط من الإنسان إثر عملية توهج واحتراق في نار العشق والإيمان، ليصبح ذلك الإنسان طاقة نورانية إلهية محضة»، فإنها بذلك تجسد فعل ارتقاء إلى قيم العدالة والحق.

وبهذا المعنى، فالشهادة رسالة، وهي كأية رسالة لها شروط أساسية تقومها: أبرزها:

أ ـ وجود الذات الواعية.

ب ـ وجود الجهة المخاطبة، أو الغاية واجبة التحقق.

د ـ أخيراً تحرك صاحب الرسالة من أجل تحقيقها.

وهكذا، فإن جوهر «الرسالة» هو ميل غائي قاهر موحى به نحو فعل (أو قول) شيء ما.

إن الرسالة لا تقال عن حق إلا لبعض الأفراد الذين يحددون لأنفسهم بأنفسهم أهدافاً عالية تخرج عن المألوف، ويكرّسون لتحقيقها كل حياتهم أو جلّها، ويكونون على استعداد واعٍ للتضحية بكل شيء، حتى بالحياة نفسها في سبيل تلك الأهداف.

وهنا تلتقي الشهادة بالرسالة، ذلك أن الشهيد صاحب رسالة بكل معنى الكلمة، حيث يصل بالتضحية إلى حدّها الأقصى.

ومن الواضح أن الشهادة كأعلى ما يكون عليه الموقف الرسالي، هي موقف غيري يتجلى فيه

الخروج عن الذات بأسمى معانيه، إلى حد تحطيم الذات في سبيل إنجاز الهدف، الذي غالباً ما يكون هدفاً نوعياً. وبكلام آخر، فإن تحطيم صيغة الذات الفردية، إنما يشكل نوعاً من الخروج عن الذات في سبيل الحياة النوعية للجماعة، أي في سبيل الـ «نحن» الكلي والعام. ولذا كانت الشهادة بما هي رسالة، ليست قضاء على الحياة، وإنما توسعة لها وتخصيب، إنها نوع من تكبير لـ «أنا» لتلامس الـ «نحن»، ونوع من رؤية الـ «أنا» في مرآة الـ «نحن» لا الـ «أنا». أو قل هي عبور الاختلاف بين (الأنا) و (النحن) والقضاء عليه بفعل التضحية نفسه. الموت - التضحية بالذات، هي لحظة الانعطاف الكلي في الاختلاف بين (الأنا) و (النحن)، بما يعيد إنتاجهما سوياً في مركب توحيدي أعلى، من حيث هي. أي التضحيّة. تجاوز ومفارقة نحو الأعلى الإلهي.

وبهذا الاعتبار، أو بهذا التحول، تكبر الـ «أنا» لتصبح في حدود الـ «نحن» ويشتد وجود الـ «نحن» باندكاك «أنا» كل الشهداء فيه تماماً، وعلى حد تعبير «طاغور» «يذوب البخور، يذوب ليتحلل في العطر، والعطر يذوب لكي يلتحم بالبخور، والنغم يسعى لمعانقة الإيقاع، بينما يعود الإيقاع متدفقاً في النغم.

ولما كانت الشهادة رسالة من أجل الآخرين وفي سبيلهم، فإنها لا يمكن أن تكتفي بنفسها، بل لا بد من اكتمال معناها من خروجها من مستوى التصور إلى مجال التنفيذ، والسعي للتحقيق، أي لا بد من اكتسابها لحماً ودماً وعظماً وعصباً، وجعلها واقعاً حياً معاشاً، وهذا ما يجعل من الرسالة دعوة»[١٥].

ولا ريب أن الشهادة هي أبلغ وأفصح بيان لنشر الرسالة - الدعوة، حيث تؤثر في هذا الاتجاه على مسألتين أساسيتين، هما:

أ. حجم التحديات والموانع التي تواجه الرسالة.

ب. حجم وكثافة التغيير المطلوب، سواء في دائرة حركة الرسالة - الدعوة أو في وجهتها. وكلا الأمرين يستلزم من صاحب الرسالة إلغاء كامل وجوده في سبيل تجسيدها واقعاً حياً ومعاشاً.

وبهذا الاعتبار، ليست الشهادة مجرد موقف، وإنما هي حجة ودليل في الواقع والتاريخ معاً، حجة ودليل يستعان بهما لتحديد ماهية الأمور، وأداة من أدوات الفصل بين الحقيقة والخيال على المستوى المعرفي، وبين الحق والباطل على مستوى القيمة.

وأهمية الشهادة هنا، أنها لا تطل على موضوعها من بعيد، أو من وراء حجب، فهي ليست نقلاً عن، وإنما هي حضور يتجسد في مجاورة الشاهد - الشهيد لموضوعه - لعصره. هو جزء منه يتفاعل مع قضاياه وهمومه وتطلعاته وآماله. ولذا كانت الشهادة وكان الشهداء . عبر التاريخ . أصدق كاشف، لا عن واقع العصر فحسب، وإنما عن مسار التاريخ ووجهته أيضاً، إنهم يشكلون المسار النقيض لمساري التعسف والجور، اللذين ينسج جدلهما حركة التاريخ»[١٦].

إن الشهادة «تعطي مثل هذا المجتمع دماً وولادة حركة متجددة، وأكبر معاجز الشهادة هي

إيصال الحياة والدماء إلى الأجزاء الميتة من ذلك المجتمع، من أجل ولادة جيل جديد وإيمان جديد».

٨ - *الماهية الحسينية لحزب الله:*

من هنا نخلص إلى القول إن الشهادة تعني الحضور، والإبصار، والإخبار، والشهود، والصدق، والأمانة، والوعي للشخص الذي تتطلع إليه الآمال.. وهي تعني أيضاً القدوة والنموذج. إنها «اختيار واعٍ يقدم عليه المجاهد بكل طواعية ووعي وإدراك، ويختاره بدافع ذاتي بعيد». هذا النمط من الشهادة هو الذي ما فتئ الفكر الشيعي وفقهه وحضوره التاريخي يؤكده. فالفكر الشيعي حول الشهادة إلى منهج حياة، والشهداء بنظره يقيمون ضرباً من الاتصال بخط الأنبياء عبر التاريخ، هذا الخط المنسوج من التوحد والحق العدل والعزة والكرامة والحرية، في مواجهة خطوط الشرك والظلم والعبودية.. والذي منح الشهادة هويتها الشيعية الخاصة هي واقعة كربلاء، والدور التاريخي الذي لعبه بطلها الإمام الحسين.

فالإمام الحسين بصفته أحد أئمة الشيعة الكبار، استطاع بشهادته المتميزة، أن يكسب الشهادة عمقاً إضافياً. فمعه لم تعد الشهادة تصوراً مجرداً، أو إطاراً مثالياً لفكرة ودور، وإنما تحولت إلى واقع حي، واقع مقدّس ومتعال.

ولأن الإمام في التصور الشيعي يشكل المثال البشري الأعلى الذي يجب التماهي معه، فإن الإمام الحسين تحول إلى نموذج للتماهي في طريقة الحياة والموت معاً. كما أن التركيز التاريخي المتواصل عبر سلسلة الأئمة، على عمق الحضور العاشورائي في الحياة زماناً ومكاناً، حيث إنه - حسب تعبير الإمام الصادق (الإمام السادس من أئمة أهل البيت الإثني عشر) - أعطى التماهي اليومي مع الحسين، حياة وموتاً، إمكاناً ممتداً على طول الزمان واتساع المكان.

وبما أن الحسين اختصر أهداف عاشوراء الخالدة بعنوانين مركزيين هما العمل بسيرة جده وأبيه و «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وكان سلاحه المركزي لتحقيق تلك الأهداف هو الموت: «خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة»، فإنه، وإن كان المصداق العاشورائي يتنوع بحسب طبيعة الزمان والمكان، إلا أن الموت كسبيل إلى إنجاز الأهداف سيبقى الفعل النوعي لهذا الحضور.

وأهم ما في واقعة عاشوراء، وحضور الإمام الحسين فيها، أنه أبان بدوره المميز عن فلسفة خاصة للتاريخ، هي فلسفة الأديان، والرسالات السماوية، والأنبياء والرسل. هذه الفلسفة التي تبدو أنها تقيم تاريخ الأمة الإسلامية على أساس من التضادّ والاختلاف بين عدة أقطاب مختلفة، المعروف والمنكر»، «الاستكبار والاستضعاف»، «الله والطاغوت»، «الشرك والتوحيد»، «الجور والقسط». والزمان، وفق فلسفة التاريخ هذه، يبدأ بالحرب وينتهي بالحرب، من قابيل وحتى الإمام الثاني عشر (الإمام المهدي). حرب منذ بدء الزمان يستشهد فيها الإنسان المحق جراء

اعتداء الإنسان الجائر عليه بدافع الطمع، وفي آخر الزمان يؤخذ بثأر الإنسان المظلوم المخدوع المغصوب الحق لتنتصر في النتيجة الأخوة والمساواة، حيث ينتهي الأمر إلى الحال التي وصفها القرآن الكريم بقوله: **﴿لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾** وأيضاً في قوله: **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾**.

من هنا، فإن التاريخ وفق هذه الأيديولوجيا، تاريخ الثأر لهابيل. وكل عهد من عهود التاريخ، إنما هو مسرح هذه المعركة الدائمة: «كل يوم عاشوراء، وكل أرض كربلاء»، وعليه ففي أي عصر وأي جيل، وفي أية نقطة على سطح الأرض يتواجد فيها الإنسان، فإن «سبيل الله» و «سبيل الطاغوت»، لا ينفكان يختلفان يتقابلان ويصطرعان، داعيين الناس لنصرتهما، متمثلين بوجه حسيني ووجه يزيدي. فماذا تعني هذه الفلسفة في التمثل الجهادي؟

إنها تعني - وفق هذه الفلسفة - الإيديولوجية - أمراً واحداً، أنه لا بد لأي فرد أو جماعة، في أي عصر ومصر كان، من أن تجد نفسها مترددة ما بين تيارين أو قضيتين، أو أن تختار بينهما: فهناك تيار الحسين، وما يجسده من «قيم ومبادئ»، وهناك تيار يزيد وما يجسده من «انحرافات وضلالات. بكلمة أخرى، إن أي فرد أو جماعة سيمسكان بهويتهما الخاصة في قلب هذا الاختلاف التاريخي بطابعه الصراعي، ولا معنى لأي منهما خارجه.

وهكذا تدخل موازين الاختيار في صلب اللاشعور والوعي الشيعي، أي أن حدية المواجهة، ومستلزماتها العقيدية والدينية، المرفودة بالمواقف الفقهية، تجعل الإحساس بالظلم والمظلومين مرهفاً، وتجعل الامتثال لجانب الحق وقيم الحرية والكرامة والعزة امتثالاً يرتقي إلى درجة العبادة. ومع الحضور الدرامي للبطولة والشهادة الحسينية، في صور النموذج الأعلى للشهادة، بل لأسمى دروب الحياة والموت معاً، يأخذ الاتجاه الاستشهادي بالارتفاع «كمد البحر» في حياة الأمة والجماعة والأفراد.

كل هذه الأمور من شأنها أن تخلق المناخ الملائم والضروري لتفتح خيار الجهاد والشهادة. ففي ظل هذه المنظومة الثقافية التربوية الجذرية، لا يستطيع الفرد المسلم أن يدرك «أناه» إلا بوصفها أناً مجاهدة، ولا يمكن أن يدرك وجودها إلا بوصفها وجوداً نحو الموت، لا بالمعنى السلبي وإنما بالمعنى الإيجابي، أي من حيث يشكل الموت مدخلاً ميتافيزيقياً لصناعة الحياة، وذلك من خلال صناعة الماهية. فإذا كان الفرد يتلقى الوجود بـ «الولادة»، فإنه يتلقى «الماهية» بـ «الاختيار»، كما يقول هيدغر: «الإنسان وجودٌ يخلق ماهيته بنفسه»، والماهية تتحقق في ما يسمى «الوضع الإنساني». فالشهادة بوصفها أدق وأسمى أنواع درجات الاختيار، تشكل المرحلة الأخيرة لاستكمال الماهية الخاصة، وتضرب بذلك النموذج الأرضي للوضع الإنساني المطلوب، فهي بالتالي تحقق الأنا وتعينها، من حيث تستقر في كمالها الممكن[١٧]، والمتفتح من أكمام الشهداء، وتنصب نفسها

رجاءً إنسانياً مطلوباً.

هذا النمط من الوجود للشيعة في التاريخ، شكل باستمرار المخزون الروحي العميق لقوافل «المجاهدين» والشهداء. ومن هذا المخزون نفسه تستقي المقاومة في لبنان قدرتها على الجهاد والتضحية، وقدرتها على تقديم الشهداء.

وفي هذا السياق، نستطيع قراءة العمليات الاستشهادية النوعية، وإلا استحال فهمها وإدراك مراميها وأبعادها ودلالاتها.

ومن المعين الحسيني نفسه تتزود المقاومة في لبنان، وتزخم عزيمتها على الشهادة، وتحاول من خلال ذلك تجسيد الجواب المطلوب على السؤال التاريخي المطروح. وهي في إصاباتها الدموية، إنما تسعى إلى صنع ماهيتها وماهية الأمة من ورائها، وذلك بناءً على المقياس الذي تؤكد من خلاله فهمها لما تسميه «الإسلام المحمدي الأصيل» ومقاييس قيمه ومبادئه وأحكامه. وهكذا يتبدى لنا العمق التاريخي والثقافي، والمدى الحيوي الذي تسعى المقاومة إلى صنعه، بوصفها الحاملة لفلسفة وإيديولوجيا الشهادة، والمبشرة بها والداعية إليها.

ما تقدم من مقولات يشكل عناوين هامة، تميّز الوعي والوجدان الشيعي، ولكن الفاعلية الكاملة لأي مبدأ، تبقى في مدى قدرته على إنجاز المزاوجة بين الرؤية الأيديولوجية والواقع المعاش. فالمبادئ التي تحمل شحنات ثورية كبيرة، تشكل دور الوسيط الفاعل في نقل أو تحويل الإحساس بالظلم والقهر، من المدى الذاتي والوجداني إلى المدى السياسي والاجتماعي، هذا التحويل الذي بدونه لا يمكن إحداث نقلة نوعية في مسار الأوضاع والوقائع. كما أن المهمة الأخرى لهذه المبادئ تكمن في القدرة على تأمين وتوفير المستلزمات الضرورية لحصول هذا التحول، مثل الاستمرار في تأجيج المشاعر المتوثبة، والتوترات النفسية والانفعالية والوجدانية، بحيث تبقى شعلتها متوقدة ومتوهجة، وبالتالي فاعلة في إتمام الأبعاد الاجتماعية والسياسية في صيرورة جدلية متبادلة.

انطلاقاً من هذا المنطق، سعت المقاومة، وهي المحاولة الأكثر شمولية وجذرية، في شحذ القوة الشيعية الكامنة بعناوين الثورة والمقاومة ضد «إسرائيل»، لأنه، بغير هذه الروح، لم يكن ممكناً لها تحقيق القفزة النوعية التي تتطلبها المرحلة الجديدة في سياق مراحل تسييس الكتلة الشيعية اللبنانية، وهي بمفاعيلها الجديدة تعد آخر المراحل الممكنة لتحقيق الإشباع الكامل من التسييس اللازم والضروري لتوكيد حضور هذه الطائفة كقوة ورقم أساسي في معادلة الداخل اللبناني ومعادلة الصراع مع الكيان الصهيوني، وبدون هذا المستوى من التسييس يصبح من المستحيل على طائفة مهمشة، في تاريخها اللبناني والعربي، أن تستعيد حضورها الفاعل والمعترف به بشكل نهائي ودائم، وأن تتمكن لاحقاً من إحداث تلك القطيعة التاريخية في مسار الهزائم المتتالية للواقع العربي في مواجهة الكيان الصهيوني، قطيعة عنوانها الانتصار. هذا الانتصار الذي يبدو متولداً

من حقيقة اختلافها الهوّي حتى مع هذا الواقع، ما يجعلها شاهد إدانة بقدر ما هي عامل تحفيز له لإعادة إنتاج اختلافه الخاص، أي إعادة تعريف هويته وفق مسار جديد، ووضع جديد ومكونات بنيوية وعلائقيّة جديدة.

فالانتصار هو أكثر من مفهوم للفرح، إنه إعادة تعريف للهوية من موقع القطيعة والاختلاف بما هو سائد، ما يضع الهوية هنا في موقع النموذج المقلق لكل الواقع الساكن من حولها، وللمختلف المطلق معها: العدو.

فما بالك، إذا كان الانتصار انتصاراً وجودياً كانتصار تموز ٢٠٠٦، لأنه انتصار على تهديد وجودي بكل ما في الكلمة من معنى.

فعدوان تموز لم يكن مجرد محاولة للثأر أو الانتقام او استرداد الهيبة كما يقولون، ولم يكن محاولة لإلحاق هزيمة موضعية بخصم، كان، وبكل ما في الكلمة من معنى، محاولة لشطب جماعة بكاملها من الوجود، محاولة لإزهاق منطقٍ متكامل، محاولة لزعزعة هوية جماعة بعينها عبر تقويضها بالأرض، وتفسيخها الى أشلاء، لا حول لها ولا قوة، أشلاء بلا روحٍ توحدها، وتكسبها معنى الحياة. إن عدوان تموز هو عدوان الحد الأقصى ما يجعل الانتصار عليه الانتصار الأقصى، الانتصار الذي يؤكد معنى مقاومة حزب الله، وهويتها في جدل التناقض الماهوي مع الكيان الإسرائيلي، وفي صدقية خيارها وصوابيته كردٍ تاريخي كفيل بأن يحرر الأمة من سطوة النزعة العدمية للكيان الاسرائيلي، فالأمة إنما تؤكد وجودها كطاقة حياة عندما تدك نقيضها الوجودي الذي لا يمكن أن يستمر إلا على أنقاض وجودها. وبهذا المعنى فالمقاومة هي مشروع إنهاض للأمة، وما انتصاراتها إلا قوة الزخم الضرورية لعملية الإنهاض هذه باتجاه استعادة زمام المبادرة التاريخية والحضارية.

وفي مطلق الأحوال، فإن ما تقدم، لا يعدو أن يكون المكونات الأساسية في نظرنا لهوية حزب الله الجهادية، وهي مكونات، تدعي أن لها طاقة تشغيلية وإنتاجيّة على المستوى التاريخي بكل أبعاده وتجلّياته، انطلاقاً من ماهيتها الصيرورية المتكئة على جدل كبير بقدر ما يتغذى على الاختلاف بكل مستوياته، يعتاش أيضاً على نوع من الائتلاف الخاص هو معيار إدراكه الخاص لهويته كتماثل من جهة، وكاختلاف من جهة أخرى.

والحمد لله رب العالمين

الهوامش:

(1) في تقديرنا بقدر ما يميل تاريخ الأمم والشعوب والجماعات إلى اتخاذ أوصاف قومية أو أيديولوجية، إلا أن هذا يجب أن لا يحجب حقيقة أساسية، هي أن أي تاريخ أيضاً هو حصيلة تفاعل عام بين الأمم والشعوب والجماعات فضلاً عن الثقافات والحضارات.

(2) بهذا المعنى تكتسب الهوية ميزتها النقدية، لأنه لا يمكن لها الوقوف عند تعريف محدد ونهائي، وإنما تكون في حالة إعادة مستمرة لتعريف نفسها. فكلما اتحد حد من حدودها مع بعد من أبعادها دخل هذا البعد في حدها، ليصبح الحد بدوره حداً آخراً وهكذا دواليك.

(3) تميز الفلسفة الوجودية بين أن يكون الشيء، وبين أن يوجد، فالحجر قد يكون، ولكنه لا يوجد. ذلك لأن الحجر لا يوجد خارج العمل الذهني الذي يجعله وجوداً ويمنحه صفة الوجود. كما أن الحجر وغيره من الموجودات تخضع تحولاتها لمنطق السببية الآلية لا لمبدأ الاختيار والحرية التي يمتاز بها الوجود الإنساني، ونحن هنا، نتبنى هذا القدر من التمييز بين وجود الأشياء والوجود الإنساني.

(4) يرى المولى محسن الكاشاني أن الإنسان «من حيث إنه نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى: **﴿قل الروح من أمر ربي﴾**» فإنه يدّعي لنفسه الرّبوبية ويحب الاستيلاء والاستعلاء والتخصيص والاستبداد بالأمور كلها والتفرد بالرئاسة، والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلايق من أوصاف الربوبية، وفي الإنسان حرص على ذلك، ومن حيث يختص عن البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانيّة فصار شريراً يستعمل التمييز في استنباط وجود الحيل والشر، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع، ويظهر الشرّ في معرض الخير، وهذه أخلاق الشيطان .

ونحن نرى، أن هذا الوصف أشد ما ينطبق على الهويات المطلقة، وهو يعكس في الأصل مرضاً أخلاقياً وميتافيزيقياً تبتلي به قلوب هذه الهويات فينعكس في سلوكها السياسي في صورة شر مطلق، من حيث إن الشر لا يولد إلا من أنقاض الأخلاقي والميتافيزيقي.

(5) هنا نستعير تمييز «الوجوديّة» للموجود عن الكائن، حيث ترى أن نكون ليس معناه أن نوجد، فالحجر مثلاً هو في وضعية الكائن لا في وضعية الموجود.

(6) جاء في القرآن الكريم: **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾** (٥٥) **﴿ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾** (٥٦) (المائدة). وللاطلاع على تفاصيل الخلاف حول تفسير أو تأويل هاتين الآيتين يمكن الرجوع إلى تفسير الميزان للعلامة السيد محمد حسين طباطبائي، المجلد السادس، ص ٥-٢٥.

(7) كما جاء في أول إطلالة سياسية علنية شاملة لحزب الله عبر ما سمي بالرسالة المفتوحة المعنى نفسه. تقول الرسالة بالحرف: «إننا أبناء أمة حزب الله التي نصر الله طليعتها في إيران، وأسست من جديد نواة دولة الإسلام المركزية في العالم... نلتزم بأوامر قيادة واحدة حكيمة وعادلة، تتمثل بالولي الفقيه الجامع للشرائط...الخ.

(8) من المعروف أنه داخل الفكر الشيعي نفسه اختلف الفقهاء حول حدود مساحة ولاية الفقيه، فمنهم من حبسها في إطار الأمور الحسبية، ومنهم من وسعها قليلاً. وحده، في العصر الحديث الإمام الخميني أعاد تأهيل هذه النظرية وفق مبنى فقهي وكلامي متكامل شكل الأساس النظري الفقهي والكلامي لقيام الجمهورية الإسلامية في إيران وما زال.

(9) لا نميل إلى استخدام هذا المصطلح، لما سبق الإشارة إليه من أن لا معنى لنهاية التاريخ، ولما في هذا المصطلح من تناقض داخلي وأنطولوجي، فإذا كانت الحيثية الماهوية لـ «الحياة الدنيا» هي الزمنية، وبالتالي التغير والصيرورة، يصبح أي حدّ نهائي لها، هو بمثابة انقلاب في ماهية الحياة نفسها، ولا نتصور إمكاناً لهذا الانقلاب في هذه الحياة، إذ لا معنى أن تبقى عندها «الحياة الدنيا». نعم، نوافق على أن تكون النهاية، هنا، تعبيراً عن نهاية مرحلة من التاريخ وتدشين مرحلة جديدة في حياة البشرية، تكون مفتوحة على زمن جديد، وصيرورة جديدة.

(10) كما سيتكرر استخدام هذا المصطلح القرآني في معظم أدبيات حزب الله السياسية، وتحديداً برامجه السياسية

التي سوف يطلّ من خلالها على الساحة الداخلية منذ انخراطه في الانتخابات النيابية والبلدية في عام ١٩٩٢. راجع مثلاً برنامج الحزب عام ١٩٩٢ الموجه إلى «اللبنانيين بالانتماء» و«المستضعفين الأعزاء».

(١١) يقول أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله: «..إن القضاء على الظالم أمر مرهون بإقامة العدل . . هدف الأنبياء والرسل هو إقامة العدل في الأرض وقد سعوا إليه وضحّوا من أجله، وهو الهدف الذي سيتحقق إن شاء الله، بوعد منه عز وجل على يدي حفيد الحسين الحجة المنتظر (عج)، إذاً الدين لم يربينا فقط لنجتاح المواقع ونزيل الاحتلال ونقاتل الظالمين. هذا مطلب، ولكن هناك ما هو أخطر، وهو أن نقيم دولة العدالة في المرحلة اللاحقة، العدل في مجتمعنا وبيئتنا ومحيطنا . . وصلنا إلى مرحلة أنه من أجل الآخرة نحتاج إلى مواصفات معينة وشخصيّة محددة من أجل الدنيا أيضاً. . (نصر الله، حسن، خطاب عاشوراء، دار الصفوة بيروت، ط١، ٢٠٠٠م. دار الصفوة، ص:٧٢-٧٣).

(١٢) يقول أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله: «أسعى، ضمن الإمكانات، لأحقق العدالة في علاقات الناس مع بعضهم البعض»، يزيد كان يريد أن يؤسس لمجتمع جاهلي.. لا يبقي فيه أي زاوية يمكن أن يقام فيها عدل أو حق، فالحسين خرج لينقذ الإسلام والأمة.. كان يدرك أن بقاء الإسلام والقيم والدين على قيد الحياة مرهون بحركته وعطشه ومظلوميته وغربته ودمه ودم طفله الرضيع وسبي نسائه في الصحراء.. اليوم إسرائيل تمثل هذه النوعية العنصرية المتوحشة، وهي هذا الوحش الذي يريد أن يستعبد ويذل ويقهر الجميع.. ورجالكم رجال المقاومة.. يريدون لأمتهم أن يحل العدل في أرضها.. حتى نتمكن إن شاء الله، من أن نحقق هدف الحسين (ع) في تمهيد الأرض ونصرة صاحب الراية (الإمام المهدي «عج») الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً. (حسن نصر الله خطاب عاشوراء،م.س)، ص: ٧٩-٨٠-٨١).

(١٣) «ما منا إلا مقتول أو شهيد»، حديث للإمام الصادق، انظر: حسين الشاكري، النجفي، علي في الكتاب والسنة، دار المؤرخ العربي، بيروت - لبنان، ج:، ط٢، ١٩٩٢ - ١٤١٢هـ. أيضاً: البحار، ج: ٤٩، رواية: ٢، باب: ١٩، (م.س)، ص: ٢٨٣.

(١٤) يقول الإمام الحسين حين خروجه إلى كربلاء لملاقاته جيش يزيد: «إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما»، البحار، ج:٤٤، رواية: ٤، باب:٢٦، (م.س)، ص:١٩٢.

(١٥) يقول السيد نصر الله: «رسالة اليوم العاشر من المحرم هي الرسالة الأبدية الخالدة إلى قيام الساعة، وباسم الحسين يقوم الثوار، وباسم الحسين يقتحم المقاومون القلاع، وباسم الحسين يقبلون على الموت كعشاق للشهادة، وباسم الحسين سيخرج المهدي (عج) لملء الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً وفساداً، باسم الحسين (ع) سوف يبقى الخيار الطبيعي لعشاقه وأتباعه هو رفض الذل مهما كانت التحديات، وستبقى صرخته يوم العاشر وهو يصر على مقاتلة البغاة والطغاة رغم القتلى في أهل بيته وأصحابه، رغم الموت الذي ينتظره.. ليبقى النداء الخالد: «ألا أن الدعي ابن الدعي قدر ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة» (حسن نصر الله: خطاب عاشوراء، (م.س)، ص: ٢٧٢ - ٢٧٣).

(١٦) «منذ حادثة كربلاء كانت هناك جهود جبارة وكبيرة، سياسية وإعلامية وثقافية وأمنية لمنع إحياء هذه المناسبة، أو الإتيان على ذكرها والحديث عنها.. هناك من حاول بسيف السلطة أن يمنع إحياء هذه المناسبات، وهناك من حاول بلغة المنطق والفكر والاستدلال والحضارة والثقافة والتطور أن يواجه هذه المناسبات للقضاء عليها، ولكن لا السيف ولا المشانق ولا الأعواد ولا السجون ولا السلطات الغاشمة طوال التاريخ، استطاعت أن تحول دون أن تأخذ هذه المناسبة قوتها وحيزها الكبير في وجدان الأمة وثقافة الأمة وتاريخ الأمة.. حادثة كربلاء، هي حادثة تاريخية استثنائية خالدة.. وهي حادثة فيها رجال، وفيها نساء وأزواج وزوجات، وآباء، وأمهات وأطفال.. الخ وأنا لا أستطيع أن أعدد كل العناوين فيها، وهذا الحشد من المعاني. وفي المقابل أيضاً حشد من المعاني ولكن بشكل سلبي. إذا تكلمنا عن الوفاء نتكلم عن الخيانة، وإذا تكلمنا عن الحماسة نتكلم عن النذالة، وإذا تكلمنا عن العطش والجوع والحصار نتكلم عن الوحشية في الطرف الآخر وهكذا. كل هذا احتشد في حادثة واحدة، وهذه الحادثة لأنها تاريخية واستثنائية وخالدة، وفيها هذه العناصر المميزة والخاصة بما تملك من قدرة على الإلهام والاستنهاض للعقول والقلوب، وتملك القدرة على التأثير بمعزل عن الزمان والمكان والظروف على نحو لا تملكها أي حادثة أخرى في التاريخ، فهذا المستوى من الإلهام والتأثير والاستنهاض

والتحريك اختصت به كربلاء (حسن نصر الله: خطاب عاشوراء، (م.س) ص: ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧).

(١٧) هناك عدد كبير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تمتدح التضحية بالنفس وبالاستشهاد منها قوله تعالى: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ (آل عمران، ١٦٩)، وجاء في الحديث النبوي التحريض على الجهاد بصيغ مختلفة منها: «الخير كله في السيف، وتحت ظل السيف، ولا يقيم الناس إلا السيف، والسيوف مقاليد الجنة والنار» وأيضاً: «ما من قطرة أحب إلى الله عز وجل من قطرة دم في سبيل الله».

المحور الثاني الانتصار والمشروع النهضوي

■ الانتصار في إطار المشروع النهضوي الإسلامي — علي يوسف

■ الإمام موسى الصدر والمجتمع المقاوم — علي الشامي

■ حقيقة انتصار المقاومة وعوامله — أمين حطيط

■ مقدمات التحولات الجيواستراتيجية بالمنطقة العربية والإسلامية بعد الحرب — مصطفى المعتصم

■ انتصار حزب الله في إطار المشروع النهضوي الإسلامي — محمد مورو

■ في المقاومة والسيادة — خليل أحمد خليل

■ الانتصار في إطار المشروع النهضوي الإسلامي — غسان طه

■ [illegible] — [illegible]

الانتصار في إطار المشروع النهضوي الإسلامي

الباحث الأستاذ علي يوسف (لبنان)

إن الكلام على انتصار تموز في إطار المشروع النهضوي الإسلامي يضمر الحكم على المشروع الحضاري الإسلامي بأنه في حالة كبوة اقتضت مشروعاً نهضوياً إسلامياً، أو على الأصح مشاريع نهضوية إسلامية، لإخراج هذا المشروع من كبوته، فهل صحيح أن المشروع الحضاري الإسلامي في كبوة؟

لا بدَّ من التمييز في المشروع الحضاري الإسلامي بين البعد الإلهي فيه المتمثّل بالقرآن الكريم والسنّة الشريفة، أو ما ثبت منها.. والبعد الإنساني المتمثل باستجابة المسلمين لما أمر بهما هذان المصدران الإلهيان. المشروع في بعده الأول محفوظ على الأقل بالنص القرآني، وما وافقه من السنة. أما البعد المرتبط بالإنسان وحريته في أن يستجيب أو لا يستجيب، فهو الذي يعاني الكبوة لا في مجال العقائد والعبادات والأخلاق وأحكام المعاملات، وإنما في مجال السياسيات ومدى استجابتها لمقاصد الإسلام في إشاعة العدل والوفاق والسلم والإنماء.. في بلاد المسلمين بما يحفظ بلادهم ومصالحهم في سياق عمليات التعارف والتدافع بين الشعوب. عبر الاستجابة لما أمر به الله سبحانه، ونهى عنه.

وإذا كان المسلمون قد نجحوا في إقامة حضارة إسلامية راقية، ظلت طوال قرون هي الحضارة العالمية السائدة، إما استجابة لدواعي فهم العقيدة والعبادات والمعاملات التي أنتجت كماً هائلاً من كتب علم الكلام وفقه العبادات والمعاملات والتفسير، والحديث... وإما استجابة لحاجة هذه الاستجابة الأولى إلى علوم اللغة من نحو وصرف ومعاجم وبلاغة وبيان، أو التاريخ لضبط أسباب النزول ولضبط الحديث، وإما استجابة لدواعي العمران الحضري في التأنق واستجادة المأكل والمسكن والمشرب والمركب وما اقتضته من استجادة الصنائع والعلوم على اختلافها..

وفي كل هذه المجالات برع العلماء المسلمون وأبدعوا.. وكان الخلفاء والوزراء والأمراء والولاة وأهل البر يتنافسون في بناء المساجد والمدارس والمكتبات والقصور والمستشفيات والمراصد وفي

الإغداق على العلماء والشعراء والمترجمين، إما تقرّباً إلى الله، وإما طلباً لحسن الأحدوثة والصيت. نقول، إذا كان المسلمون قد برعوا ونجحوا في كل ذلك، فإنهم لم ينجحوا بالمستوى نفسه في مجال السياسة.

حدث ذلك، على الرغم من أن معاوية بن أبي سفيان، في ما هو مشهور ومتعارف عليه قد حوّل الاجتماع السياسي الإسلامي من خلافة إلى ملك عضوض، استمر بعده ولم يتم تجاوزه فعلياً، ما يعني أن كبوة المشروع الحضاري الإسلامي، وبلوغه ما بلغه اليوم، قد بدأت منذ ذلك التاريخ. وعلى الرغم من المحاولات المتكررة حديثاً لإخراج هذا المشروع من كبوته، واستعادة دوره في العالم. فإن هذه المحاولات لم تنجح في مواجهة التحديات المطروحة بفاعلية ونجاح، ما خلا المحاولة التي تحملها الثورة الإسلامية في إيران، والمقاومة الإسلامية في لبنان، وحماس والجهاد في فلسطين على الرغم من كل محاولات الاستكبار وتابعيه للقضاء على هذه المحاولات، لا سيما بعد ما حققته من صمود وممانعة ونجاحات؟

في هذه العجالة حول الانتصار في إطار المشروع النهضوي الإسلامي سنقوم بتناول:

- قراءة سريعة للانتصار في إطار في سياق محاولات النهوض الإسلامية وغير الإسلامية، وما يمكن أن يشكله بالنسبة لهذا السياق.

- قراءة في كبوة المشروع الحضاري الإسلامي وعوامل استمرار هذه الكبوة حتى ظهرت المحاولات التي أشرنا إليها.

١- الانتصار في سياق محاولات النهوض

هنالك فرق كبير بين أن يعيش الإنسان الفرد، أو أن يعيش المجتمع حالة من الحالات ويدركها بوعي، وبين أن يعيشها ولا يدركها أو يفكر فيها أو يعيها. وهذا ما كان عليه حال المسلمين في علاقتهم بالمشروع الحضاري الذي حمله الإسلام، بعدما غيّب الزمن «الأقلية المبدعة» [1] التي حملته ونشرته، واستجاب الناس لها، لجدارتها، طوعاً، عندما أقامت دولتها، وورثتها أقلية لا تملك الجدارة التي تستجلب محاكاة الناس، واستجابتهم لها طوعاً، وتلجأ إلى القوة لإرغام الناس على طاعتها والاستجابة لأوامرها تحت طائلة القتل أو الصلب أو السجن...

صحيح أن بقية «الأقلية المبدعة»، في الاجتماع السياسي الإسلامي، قد أدركت مخاطر ما قام به معاوية على مجمل المشروع الحضاري الإسلامي، وتصدّت له بعد انتقال الخلافة إلى ابنه يزيد وأصبح الخطر واقعاً ولم يعد مجرّد احتمال قوي، وذلك في ثورة الإمام الحسين بن علي (ع) المعروفة الأهداف والنتائج المباشرة وغير المباشرة في سياق التاريخ الإسلامي. وصحيح أن عمليات الخروج توالت، بعد ثورة الإمام الحسين (ع) في أيام الأمويين والعباسيين، وإن بدوافع وأهداف، لا تبلغ مستوى دوافع الإمام (ع) وأهدافه لكنها انتهت بأصحابها إلى القتل في المعارك

أو القتل صبراً... وهكذا استمر الاجتماع السياسي الإسلامي، في ممارسة السلطة، وفي تعاقب القائمين بها اعتماداً على مبدأ القوة ومبدأ «الرشوة» بإسكات من قد يؤانسون من أنفسهم القوة ويطمحون بالتالي للخروج على السلطات... ومع الزمن تشيأ وعي المسلمين، إلا من أتى الله بقلب سليم، بحيث باتوا يشعرون وكأنهم غير معنيين بما يجري على مستوى الاجتماع السياسي الإسلامي، أو كأن هذا الذي يجري، قدر مقدَّر لا إرادة للإنسان فيه، ومن المعروف كم حرص الأمويون، وغيرهم ممن تعاقب على الحكم، على تشجيع مثل هذه الاعتبارات، مع استثناء نادر مثّله الخليفة العباسي المأمون عندما تبنّى اتجاه المعتزلة، أو أهل العدل والتوحيد. وقد ساعد على ذلك، بالإضافة لما تقدّم عوامل نشير إلى أبرزها:

١- ما أشرنا إليه، من تشجيع أولي الأمر وأهل البر وإنفاقهم على العلماء والمستشفيات والمدارس والمكتبات والمراصد... وكل ما كان يسهم في بناء الحضارة في مختلف مفرداتها.

٢- ندرة تدخّل السلطة في ما يجري من نقاشات فكرية وفقهية وخلافات في التفسير والحديث. إلا عندما يبدو للسلطة أن ما يجري بات يشكّل نوعاً من الخطر المنهمل عليها، وأشهر ما يذكر في هذا المجال تبيان الاعتقاد القادري نسبة للخليفة العباسي القادر بأمر الله، صلب الحلاّج، نكبة ابن رشد، مقتل الشهيدين الأول والثاني من علماء الشيعة الإمامية زمن المماليك...).

٣- تسويغ وعاظ السلاطين وفقائهم لمجريات الأمور السياسية والاجتماعية بأدوات ومفاهيم إسلامية لتكون أو لتصبح مقبولة ومستساغة لدى عامة الناس.

٤- تجدد الدول وتعاقبها بتجديد عامل القوة الضرورية إما بتعاقب البيوتات (عصبية ما زالت قريبة إلى البداوة وفضيلة القوة، تحل محل أخرى أضعفها التحضّر والترف) وإما باستتباع أقوام ما زالوا قريبين إلى البداوة ومتمّقين بفضيلة القوة (الفرس، الأتراك... المماليك..) وهذا ما كان يمكّن الاجتماع السياسي الإسلامي من الاستمرار لأنه كان يمنحه عامل القوة التي يواجه بها المخاطر الداخلية والخارجية.

٥- غياب التحدّيات القوية التي تهدد وجود هذا الاجتماع وتشكّل خطراً مستمراً على وجوده، ومعروف كيف انتهى أمر أخطر هذه التهديدات في ما سمّي الحروب الصليبية وغزوة المغول.

هذه العوامل وغيرها أسهمت في استمرار شعور المسلمين بالرضا عن أنفسهم وعن واقعهم، على الرغم من كل ما في هذا الواقع، مما لا يرضى عنه مسلم، أسلم ودخل في السياسة والاجتماع، وليس فقط في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق.

ظل هذا الأمر قائماً إلى أن كانت غزوة نابليون لمصر عام ١٧٩٨ وما تلاها من تعارف وتدافع بين المسلمين والغرب. ما زالت آثاره ونتائجه تتداعى وتتفاقم في وقائع وتطورات ما زلنا نعيشها

بكل ما فيها من مرارات. وفي سياق هذه التداعيات بدأت نخب إسلامية بوعي الحالة التي يعيشها المجتمع الإسلامي ومشروعه الحضاري عبر إدراك تخلّف المسلمين وتقدّم غيرهم ومحاولة التفكّر في ذلك. وعندما طرح الأمير شكيب أرسلان سؤاله الشهير: «لماذا تخلّف المسلمون وتقدّم غيرهم؟» كان يعبّر بصورة واضحة وجلية عن الاهتمامات الفكرية لمجمل مفكّري ما بات يعرف باسم «النهضة العربية، من المسلمين أمثال الأفغاني ومحمد عبده، والطهطاوي، والكواكبي، والتونسي، ورشيد رضا، والسيد عبد الحسين شرف الدين.. وغيرهم.. ومن غير المسلمين من أمثال اليازجيين، وبطرس البستاني، وأحمد فارس الشدياق...

لم يكن هذا السؤال من نوع الترف الفكري، بل كان تعبيراً عن هموم واقعية ولّدتها وأذكتها تطورات عمليتي التعارف والتدافع بين المسلمين ومواطنيهم من المسيحيين من جهة والغرب من جهة ثانية. ومهما يكن من أمر فإنه، وهذا هو المهم بالنسبة لما نحن بصدده، قد طرح التفكير بالمشروع الحضاري الإسلامي مدفوعاً بالتفكير بالمصير الذي ينتظر المسلمين إذ لم يغيّروا ما هم فيه.

حدث ذلك عندما كانت المسافة الفاصلة بين تقدّم الغرب وتخلّف المسلمين ضئيلة جداً إذا ما قيست بما باتت عليه اليوم، وبما تخلفه من آثار سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية مدمّرة، لا نحتاج إلى الكلام عليها تفصيلاً، لأن الشعوب الإسلامية، وفي مقدّمتها الشعب العربي يعيشها يومياً، ويكتوي بمرارات ما تولّده من إحباط ويأس، فلا حاجة لاستعادة تفاصيل مجريات الكلام على تفتيت البلاد الإسلامية وإلحاقها استعماراً أو انتداباً أو استيطاناً، أو هيمنة مقنعة بحكوم محلية ودستور وقانون وبرلمان وجيش وطني.. ولا حاجة لاستعادة الكلام على دور معظم هذه الحكومات في إخضاع شعوبها ومقدّراتها وسياساتها لخدمة المحور العالمي الذي ارتبطت به... ولا حاجة لاستعادة الكلام على محاولات تحرّر ومشاريع تحرير وتوحيد وتنمية واستعادة أرض مغتصبة في فلسطين، أجهضت تباعاً بعوامل ذاتية بالدرجة الأولى وبضغوط خارجية فعّلت وسرّعت دور العوامل الذاتية... «إن مواقف معظم الأنظمة العربية والإسلامية من احتلال العراق، والمقاومة في فلسطين، وأكثر بما لا يقاس، من المقاومة الإسلامية في لبنان إبان عدوان تموز وبعده، أكثر من كافية للتدليل على الواقع المر الذي بلغه معظم الوضع العربي والإسلامي من النكوص باتجاه هاوية التخلي عن المصالح الوطنية والقومية والدينية لصالح الإدارة الأميركية والعدو الصهيوني ومن ينسج على منوالهما...

في هذا الوضع يأتي انتصار المقاومة الإسلامية في عدوان تموز كما لو كان من خارج التاريخ؛ لأنه يناقض سياقه بصورة صارخة، ولأنه غير قابل للفهم والتفسير بأي من أدوات التحليل العسكرية أو السياسية أو الإعلامية، لكن أصحاب الانتصار والقريبين منه عرفوا الأدوات

الخاصة بالانتصار، والمفاهيم التي أدارته وبنته والصالحة وحدها لتحليله لمن يريد فهمه... لم يعرفوها فحسب، بل مارسوها بإخلاص. ما جعلهم يرون نتائج حرب تموز بثقة ويقين، ويعبّرون عنها قبيل اندلاع الحرب، وخلالها بصورة أدهشت الجميع بمن فيهم العدو نفسه.

لقد كانت هذه الأدوات والمفاهيم هي نفسها أدوات ومفاهيم المشروع الحضاري الإسلامي في أصالته وتكامل مكوّناته وتفاعلها في كلٍّ لا يتجزأ مجسّدة في ممارسة صادقة مخلصة موقنة مؤمنة تقية... لا تخشى في الله، وما أمر به وما نهى عنه، لومة لائم، صديقاً كان أم عدواً.

كل ما يتعلق بموجبات الانتصار ومقتضياته من ضرورات معرفة العدو في إمكاناته وطريقة تفكيره وما سيلقاه من دعم ومساندة، دولية وإقليمية أي في مواطن قوته ومواطن ضعفه، وضرورة معرفة الذات وتقديرها موضوعياً، بعيداً عن أي تضخيم أو تصغير، وضرورة الإعداد والتدريب والتسلّح والاستخبار. وإثارة المخيال الاجتماعي المرتبط بالتاريخ الجهادي للأمة، والمحفّز للجهاد والاستشهاد. كل ذلك كان يجري وفق مقتضيات وتعاليم ومحفّزات المشروع الحضاري الإسلامي مأخوذاً في ما أشرنا إليه من شروط.

هل غريب والحال هذا أن يعتبر نصراً إلهياً، لا لكونه انتصاراً خارقاً للعادة بكل المقاييس فحسب، وإنما أيضاً بالدرجة الأولى لكونه انتصاراً تحقق بفعل استلهام المشروع الإلهي الذي يمثّله الإسلام المحمّدي الأصيل وتجسيد هذا المشروع، بكل مفرداته، في الفكر والممارسة على السواء.

لم يكن مشروع المقاومة الإسلامية في لبنان أول مشروع نهوض يتم بمنطلقات إسلامية أو غير إسلامية، ولن يكون الأخير، وليس مطلوباً أن يكون كذلك. فلقد سبقته مشاريع نهوض بمنطلقات أو دوافع إسلامية حقق بعضها إنجازات تربوية وثقافية وتعبوية... لكنها لم تصل إلى تحقيق طموحها في الحكم لتحقيق إنجازات سياسية (الإخوان المسلمين وامتداداتهم التي اتخذت أسماء مختلفة)، وبعضها توصّل إلى الحكم عبر تحالف مع أسر نافذة (الحركة الوهابية في السعودية وامتداداتها في أفغانستان تحت اسم حركة طالبان على سبيل المثال لا الحصر...) أو عبر ثورة تحرير وطني (الثورة الجزائرية التي كانت دوافعها إسلامية دون مسارها وإعلامها وتداعياتها التي لم تتخذ طابعاً إسلامياً واضحاً) كما سبقته مشاريع نهوض بمنطلقات غير إسلامية وطنية، أو قومية أو ليبرالية أو اشتراكية من مثل مشروع النهوض الذي حاول خير الدين التونسي وبعد ذلك في الأستانة من موقعه كصدر أعظم، مشروع محمد علي باشا في مصر الذي حقق الكثير من الانجازات النهضوية على الصعد الإدارية والتعليمية والصناعية والعسكرية حتى أصبح قادراً على تهديد الدولة العثمانية نفسها قبل تحالف دول غربية ضده وإجباره على التراجع وإجبار حلفائه على الانصياع لمتطلباتهم الكثيرة والطاعة بما أعاد مصر إلى بيت الطاعة الغربي من البوابة الإنجليزية. مشروع النهوض الذي قاده جمال عبد الناصر في مصر في أواسط القرن الماضي، مدفوعاً بصورة أساسية بنتائج حرب فلسطين التي شارك فيها، واكتشف من خلالها

مدى فساد الطبقة الحاكمة ومظالمها. وكان له إنجازات أيضاً على شتى الصعد ومن أبرزها تأميم القناة، ومقاومة الأحلاف الاستعمارية (حلف بغداد، مشروع أيزنهاور) وكسر احتكار السلاح، وإقامة علاقة وثيقة مع الاتحاد السوفياتي والمعسّكر الاشتراكي وبناء السد العالي، وتوزيع أراضي الإقطاعيين على الفلاحين. مشروع حزب البعث العربي الاشتراكي الذي حقق أيضاً إنجازات في الحكم في كل من سوريا والعراق وإنجازات ثقافية وتعبوية في أقطار عربية أخرى. مشروع أو مشاريع القوى والأحزاب القومية منها والاشتراكية التي حقّقت إنجازات تعبوية وممانعات ومقاومات لمشاريع استعمارية ولمظالم اجتماعية... حركة المقاومة الفلسطينية المستمرة بأشكال وقوى مختلفة...

معظم هذه المشاريع، سواء بلغت الحكم، أم ظلّت في مرحلة ما يسمى النضال السلبي، انتهت إلى النكوس والارتداد وعجزت عن تحقيق أهداف مشروعها النهضوي، أو تأمين عوامل استمراره حتى بلوغ أهدافه، وإذا كان ذلك يصدق بصورة واضحة على المشاريع التي مارست السلطة، فإنه يصدق وإن بصورة قابلة للنقاش على المشاريع التي لم تصل إلى الحكم، وإن كان الكثير من المؤشّرات يشير إلى مظاهر العجز والتراجع في حركتها.

قيل الكثير في أسباب هذا النكوص والتراجع والعجز. وإذا كنا لا نريد أن ندخل في دراسة مثل هذه الأسباب، فإننا نعتقد أن ما سنورده لاحقاً حول ما سمّاه محمد عابد الجابري «العقل السياسي العربي» ومحدداته ممثلة في «الغنيمة، والقبيلة، والعقيدة» يشكّل مفتاحاً هاماً لدراسة تلك الأسباب فيما يعود لمصير الحكومات والأحزاب والقوى المشار إليها، كما يشكّل أحد مداخل تحصين القوى الصاعدة من مثل حزب الله وحماس والجهاد لكي لا يقعوا في ما وقع فيه السابقون.

هذا بالنسبة للحركات ذات المنطلقات الوطنية أو القومية، أو الاشتراكية...

أما بالنسبة للقوى والأحزاب والحركات ذات المنطلقات الإسلامية، فإن بعض الأسباب التي يمكن إضافتها قد يستنتج من القراءات التي سنوردها لكبوة المشروع الحضاري الإسلامي، الذي أطلنا فيه بعض الشيء، على التعرّف إلى أسباب هذه الكبوة واستمرارها يساعد المعنيين بمسألة النهوض بمنطلقات إسلامية على تلافيها.

لكن قد يؤخذ من هذا التطويل أننا نعتبر أن الإسلام وحده، من دون سائر الإيديولوجيات الدينية والعلمانية، قابل لأن يشكّل منطلق نهوض للبلاد العربية والإسلامية، وقد يدعم هذا الاعتبار اعتباراً آخر مفاده أن من أراد أو يريد النهوض بالمسلمين فعليه أن يتبنّى منطلقاتهم الفكرية، وإلا فإنهم يشعرون بغربته عنهم، وغربتهم عنه فلا يستجيبون له إلا بصعوبة بالغة.

وإذا كنا نميل إلى الأخذ بهذا الاعتبار الأخير، لا للسبب المشار إليه فحسب، وإنما بسبب القيمة الذاتية للإسلام نفسه... فإننا لا نأخذ بالاعتبار الأول من حيث المبدأ، لأننا رأينا أن

الإيديولوجية، وإن كانت شرطاً ضرورياً في أي عمل سياسي، إلا أنها ليست شرطاً كافياً، بدليل أن الكثير من الحركات الإسلامية لم تنجح، وأن الكثير من الحركات غير الإسلامية قد حققت نجاحات هامة. المسألة تكمن في كيفية الاسترشاد بالإيديولوجيا لمعالجة التحدّيات القائمة في وضع معين، عبر قراءة لعالمها ومحيطها وساحة عملها وتصنيف الأولويات في المواجهة بما يخدم مصلحة مجموع المجتمع لا مصلحة فئة، أو مجموعة فئات منه، وتحديد كيفية المواجهة وحدودها واعتماداً على من؟ ما يعني أننا نعطي أهمية للبرنامج السياسي ومدى استجابته للتحديات ولمصلحة مجموع المجتمع ولمدى الاعتماد على الجماهير صاحبة المصلحة في مواجهة التحدّيات ومدى مساعدته على رفع سوية وعيها، واستثارة مبادرتها إلى الفعل بشيء من الحرية، لتكون قادرة على توليد كوادر وقيادات جديدة ودماً جديداً.

ولا يتأتى ذلك إلا بالانطلاق من الجماهير والعودة إليها واستخراج رأيها في ما يهمها أو في ما تدعى إليه في أي مجال أو نشاط، وتعويدها على نقد تجاربها مهما كانت بسيطة، وتشجيعها على التعبير عن أحاسيسها وآرائها في سلوك الكوادر والقيادات التي تعايشها، وطلب الإيضاحات حولها. وهذا ما يقتضي عدم حصر العمل في هذا الجانب أو ذاك، أو في هذه الساحة أو تلك من ساحات العمل السياسي والثقافي والاجتماعي...

ربما كان تأكيدنا على هذه النقاط عائداً إلى أننا نرى في ما يخالفها ومن خلال تجربة طويلة ومعايشة متنوّعة، أحد العوامل الأساسية التي تؤدي إلى النكوص والارتداد، أو الضعف والعجز.

ونحن نستوحي فعلاً في ما نقول تجربة حزب الله التي أفضت إلى الانتصار، على الأقل في ما يعود للإيديولوجيا والبرنامج السياسي وتحقيقه الشروط التي أسلفنا الكلام عليها... وهذا إضافة إلى التجارب الإنسانية ما يؤكد، أن السياسة هي عامل التوحيد لا في المجتمعات المتعددة الإيديولوجيات ومذاهبها فحسب، وإنما في المجتمعات الإيديولوجية الواحدة، أو الإيديولوجية السائدة.

وبفعل هذه السياسة المستوحاة من الإسلام، كما أشرنا، وبفعل قراءة الواقع قراءة حصيفة ومستوعبة لم ينتصر حزب الله ومقاومته في تموز وحسب، وإنما انتصر في ما واجهه بعد حرب تموز، وخلالها من محاولات عزله وجرّه إلى الفتنة عبر إفقاده صبره، وإلحاق الكثير من المظالم به. عبر تهم وافتراءات في مقدّمتها كونه شيعياً... ولولا الفعل السياسي الجامع لأمكن محاصرته في «شيعيته» وعزله، تمهيداً للانقضاض عليه استجابة لأوامر ومخططات معروفة...

بقدر ما كان هذا الانتصار محبطاً لأقوام ومشاريع وبقدر ما كان باعثاً للأمل ولاستعادة الثقة بالمشروع الإسلامي، ولحفز الهمم للعمل من خلاله باتجاه تحقيق مقاصده في مواجهة ظلم الاستكبار وأعوانه وتابعيه وبالتعاون مع كل المستضعفين المتضررين من هيمنته وفتنه وحروبه الظالمة... نقول: بقدر ذلك أصبح موضوع أبحاث ودراسات بعضها للانقضاض عليه وبعضها

للتأسّي به... وإذا لم يتح لنا أن نعرّف إلى ثمرات الانتصار لدى المتأسّين به، فإننا بتنا نرى بوضوح آثار عمل الساعين للانقضاض عليه وما يجري في الكواليس السياسية والمخابراتية هو حتماً أدهى وأمر.

وإذا كان ذلك كذلك، فإنه يضاعف من المخاوف، ولذا فإنه ينبغي أيضاً، بعد التوكل على الله، أن يضاعف من جهود معرفة ما يجري والتصدي له، من قبل المتأسّين لا من قبل المنتصرين وجماهيرهم فحسب.

لقد حاولنا قراءة الانتصار في سياق محاولات النهوض العامة.. وما شكّله من المؤمنين به من استعادة الثقة بالمشروع الحضاري الإسلامي وإمكان استجابته للتحدّيات المختلفة وحفّزه للعمل من خلاله باتجاه تحقيق مقاصده... وبقي أن نشير إلى أنه جرى من بوابة مواجهة أعظم التحدّيات التي واجهت وما زالت تواجه مشروع النهوض العام، ألا وهو بوابة مواجهة الكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين والمشرّد لأهلها والغدة السرطانية المهدّدة لمجمل الجسم العربي والإسلامي. وفي زمن شهد ما يشبه اليأس، إن لم يكن لدى الجماهير، فلدى مجمل الأنظمة العربية من إمكانية مواجهته، بعد الحروب المتكررة والمعروفة النتائج، بحيث بات الاتجاه إلى الاستسلام المتدرّج لمطامعه هو السياسة الطاغية لمعظم قادة الحكم، معللين ذلك بسقوط الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي وهيمنة القطب الواحد ممثلاً بالإدارة الأميركية... وربما كان هذا ما يفسر مواقف معظم تلك الأنظمة إبان العدوان وبعده، لأن الانتصار يشكّل فضيحة لها، وفضحاً لمزاعمها، واستطراداً تهديداً لها، لما قد يثيره من تداعيات لدى شعوبها.

وإذا كانت الثورة الإسلامية في إيران قد واجهت التحدي من بوابة طرد الاستكبار من خلال طرد عملائه وأدواته، واستمرت في مواجهة ضغوطه ومؤامراته بنجاح ما أكّد إمكان انتصار المشروع الحضاري الإسلامي في تحقيق مقاصده من هذه البوابة، فإن انتصار المقاومة الإسلامية قد أكّد الإمكانية نفسها، ولكن من بوابة المواجهة العنيفة والمكشوفة، وفي ظروف شديدة القسوة لما فيها من تفاوت في العدد والعتاد وجهات الدعم يقاس، ربما، بسرعة الضوء. ولا نجد أنفسنا بحاجة إلى تكرار النتائج والتداعيات التفصيلية الأخرى على العدو الصهيوني ومشاريع الإدارة الأميركية ومن يسير في ركابها من الأنظمة والقوى والأحزاب، العربية وغير العربية، لأن وسائل الإعلام لم تغادر جديداً في هذا المجال.

٢- قراءات في كبوة المشروع الحضاري الإسلامي

أشرنا في ما تقدّم إلى أهمية قراءة كبوة المشروع الحضاري الإسلامي، لا لفهم علله وأسبابه فحسب، وإنما لتعليل الأسباب الأساسية للانتصار، ولتعليل عدم نجاح مشاريع إسلامية في النهوض والاستمرار (ما خلا ما أشرنا إليه سابقاً أي الثورة الإسلامية في إيران وحماس والجهاد

في فلسطين) ولتعليل استمرار الكبوة معيشة دون أن تدرك أو يفكّر فيها حتى غزوة نابليون لمصر وما تلاها من تداعيات التعارف والتدافع بين المسلمين والغرب، التي كان عدوان تموز، وما صاحبه وما تلاه تتويجاً راهناً لهذه التداعيات. إلى ذلك، قد تكون لبعض هذه القراءات فائدة في تلافي بعض ما يمكن أن يؤدي إلى النكوص والتراجع.

لقد اخترت ثلاث قراءات يمكن أن تستنتج منها عوامل كبوة المشروع الحضاري الإسلامي واستمرار هذه الكبوة، وهي قراءات لا تتم بأدوات ومفاهيم إسلامية. هذه القراءات هي قراءة ابن خلدون واستعادة الكاتب المغربي محمد عابد الجابري لها حديثاً، وقراءة الباحث الإنجليزي في الحضارات أرنولد توينبي. كما اخترت قراءة رابعة يمكن أن يستنتج منها تعليل أعمق ولكن بمفاهيم المشروع الحضاري الإسلامي نفسه. هذه القراءة مجمعة من «نهج البلاغة» للإمام علي(ع)، وانطلاقاً من الآية القرآنية: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾(٢).

التجربة السياسية الإسلامية قراءة ابن خلدون

إن قراءة ابن خلدون في مقدّمته الشهيرة للتجربة الإسلامية في صيغتها العربية، والتي حاول تعميمها لتكون نوعاً من رؤية عامة، ذات فائدة كبيرة في قراءة كبوة المشروع الحضاري الإسلامي نظراً لملامسة مؤلف المقدّمة لتلك التجربة الحضارية، لا سيما ما يعود إلى الاجتماع السياسي أو الدولة وكيفية قيامها، وكيفية انهيارها، وحلول أخرى محلها، بصرف النظر عن استمرار أو تجديد المفردات الحضارية مع كل دولة تلك المفردات التي يختصرها بالبحث عن الكمالي والتأنق فيه، مما يستدعي استجادة الصنائع والعلوم وكل ما يساعد على التبحر في الترف، وأهمية هذه القراءة تعود إلى المعايشة المباشرة لما كان يجري في عصره ومصره (أو أمصاره لتقلبه بين العديد منها) والمشاركة النشطة في تلك المجريات، كما يعود إلى معرفته الدقيقة بما كان قبل ذلك العصر وفي غير ذلك المصر مما يعود لتلك الحضارة في مجمل مفرداتها ولا سيما مفردة الاجتماع السياسي.

يتخذ ابن خلدون من العصبية مفتاحاً لتعليل الانتقال من طور البداوة إلى طور الحضارة، ومن طور الرئاسة إلى طور الملك والدولة العامة. والعصبية هي في نظره، نعرة المرء على من ينتسب إليهم بوجه من وجوه النسب أو يصيبهم ضيم أو أن تصيبهم هلكة. ومن أقوى وجوه النسب في توليد هذه النعرة هي صلة الرحم، وهي تتناسب مع قرب هذه الصلة، فكلما كانت أقرب كانت أقوى والعكس بالعكس (٣). ولاختلاف هذه الصلة في قوتها وضعفها بين بطون القبيلة الواحدة، فإن الرئاسة على القبيلة تكون لصاحب العصبية الأقوى، لحاجة الرئاسة كما الملك إلى القوة القاهرة، وإن كانت هذه الحاجة في الرئاسة أقل نظراً لما يتمتع به شيخ القبيلة من جدارة إلى جانب العصبية.

ينشأ الملك والدولة عندما تتمكن عصبية من العصبيات، بفعل اتساعها ومكانتها وقوتها من استتباع سائر العصبيات في محيطها، أو من السيطرة على دولة أخرى في مرحلة الانحلال والزوال. فإذا حصل الملك تبعه الرفاه واتساع الأحوال والتأنق في كل مناحي الحياة، ونشأت بالتالي الحضارة ابتداءً أو عبر الأخذ بما عرف منها في الدول المستتبعة عبر آلية تقليد الغالب القادم من البداوة للمغلوب الذي سبق له أن أخذ بأسباب الحضارة.

إن كلام ابن خلدون عل الأطوار التي تمر بها الدولة يوضح لنا آلية نشأتها وتطورها باتجاه الانحلال والزوال والأسباب المؤدّية إلى ذلك.

ففي الطور الأول الظرف بالبغية والاستيلاء على الملك وإقامة الدولة لا ينفرد صاحب بشيء من مغانمه دون أبناء عصبيته التي وقع بها التغلب على سائر العصبيات أو على الدولة في مرحلة الانحلال. أما في الطور الثاني، طور الانفراد بالمجد والاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك. فيتميّز باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك لجدع أنوف أهل عصبيته، وكبحهم عن التطاول لمشاركته. وذلك لكي يفرد أهل بيته بالاستمتاع بما يبني من مجده. وأما في الطور الثالث، طور الفراغ والدعة، فيتميّز بتحصيل ثمرات الملك مما تنزع إليه طباع البشر من الرفاه وتخليد الآثار وبعد الصيت، ما يقتضي التوسّع في الجباية وضبط الدخل والخرج وإحصاء المكلّفين والمستفيدين، والتوسعة على الصنائع والحاشية والجنود... وأما في الطور الرابع، طور القنوع والمسالمة، فيكون صاحب الدولة قانعاً بما بنى أولوه، سلماً لأنظاره من الملوك. وأما في الطور الخامس، فيكون صاحب الدولة متلفاً لما جمعه أولوه في الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه، واصطناع أخدان السوء وخضراء الدمن، وتقليدهم عظيمات الأمور، التي لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما يأتون منها أو يذرون. فيضطغن عليه كبار قومه وصنائع سلفه ويتخاذلون عن نصرته. وكذلك يفعل جنوده لحجبه الكثير من أعطياتهم لإنفاقها في شهواته. وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا يكون لها برء منه قبل أن تنقرض(٤).

ويختصر ابن خلدون طروق الخلل للدولة بالخلل الذي يصيب الجند والمال وهما الأساسان اللذان تقوم عليهما الشوكة (=القوة) بعد جدع أنوف أهل العصبية واصطناع الأعوان والجند من خارجها.

ويعيد ابن خلدون السبب في ذلك إلى الترف وكثرة الإنفاق بسببه؛ إذ تعظم نفقات السلطات وأهل الدولة بما فيهم الجند ما يؤدي إلى زيادة الترف ما يتطلب بدوره زيادة في الإسراف والنفقات... ويحتاج السلطان إلى ضرب المكوس... ثم تزيد عوائد الترف فلا تفي بها المكوس وسائر الضرائب المعتادة، فتمتد يده إلى جمع المال من الرعايا عبر المصادرة بشبهة وبغير شبهة... ويكون الجند في ذلك الطور قد تجاسر على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم، ويداوي

السلطان تجاسرهم بمزيد من العطايا وكثرة الإنفاق فيهم... وبعد ذلك يتجاوز السلطان إلى أهل الثروة من الرعايا ومن جباة الأموال والصنائع السابقين فيصادر أموالهم لحاجته إلى مداراة الطامعين بالمال من الجند وسائر الأعوان لعجزه عن مواجهتهم بالقوة... وهكذا تستمر الأمور حتى تضمحل الدولة. ويكون الظلم المصاحب لهذه التصرفات مؤذناً بخراب العمران(٥). ويفرد ابن خلدون فصلاً خاصاً هو الفصل الثالث والأربعون لعرض الآلية التي يتم بها خراب العمران بفصل الظلم.

ينبغي أن نشير إلى أن مفهوم ابن خلدون لتعاقب الدول يعني لديه تعاقب العصبيات على الحكم في الاجتماع السياسي نفسه. وإذا كان يعتبر أن عمر الدولة لا يزيد في المتوسط عن ثلاثة أجيال، أي ما يعادل ١٢٠ عاماً، وإذا كان يبرّر طول عمر الدولة العباسية باتساعها، فإنه يرى أن العمران (الحضري بالذات) يتجدّد أو يستأنف مع كل دولة جديدة.

وينبغي أن نلاحظ أيضاً أن هذه القراءة للتجربة السياسية الإسلامية لم تكن بأدوات أو بمفاهيم إسلامية في ما خلا الإشارة إلى أن الظلم مؤذن بخراب العمران، وإلى أن العصبية تقوى بالدين. ولذا جاءت قراءته أشبه بوصف أمين نسبياً لما عرفه عبر المعايشة أو المطالعة من ملابسات هذه التجربة السياسية.

وإذا بدا لقارئ ابن خلدون أنه يستخدم أدوات خاصة من مثل العصبية، وأطوار الدولة، وعمر الدولة، وخصائص الدولة في كل طور من أطوارها وجيل من أجيالها، فإن هذه الأدوات لم تكن إلا تعميماً لملاحظات استخلصها من التجربة نفسها. حتى الظلم الذي اعتبره مؤذناً بخراب العمران، ووصف الآليات، أو الكيفيات التي يؤشر بها على خراب العمران في الفصل الذي أشرنا إليه... نقول حتى هذا الظلم يراه من مستلزمات الدولة في آخر أطوارها، وبالتالي فإنه طبيعي وحتمي، كما هي أطوار الدولة وعمرها. ويصدق ذلك على قوله: إن العصبية تقوى بالدين فيما يعود إلى أنه استخلاص من التجربة نفسها.

لذا يمكن القول: إن ابن خلدون ينتسب إلى تلك الفئة من علماء الاجتماع والسياسة الذين يقولون بنوع من الحتمية التي تحكم الظواهر الاجتماعية والسياسية، ما يلغي دور الإرادة السياسية في التغيير أو التعديل أو الإصلاح. وهذا ما يناقض إلى حد كبير المنطوق الإسلامي في هذا المجال الذي يحمّل الإنسان مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا على المستوى الفردي الخاص وإنما على المستوى السياسي العام أيضاً. ولذا، ايضاً يمكن القول: إن قراءة ابن خلدون للتجربة الإسلامية تبدو كما لو كانت قراءة مراقب أو مستشرق لا علاقة له بالإسلام. وربما كان ذلك بمثابة الضريبة المدفوعة للحفاظ على الموضوعية ووصولاً إلى إمكانية تعميم قراءته على أي اجتماع سياسي آخر.

مهما يكن، فإن قراءة ابن خلدون ما زالت تحتفظ بشيء من القيمة الراهنة في قراءة التجربة

السياسية الإسلامية عموماً، والتجربة العربية خاصة حتى في عصرنا الحديث.

استعادة الجابري لقراءة ابن خلدون

هذه الراهنية يستفيدها ويطورها المفكّر المغربي محمد عابد الجابري في كتابه «العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته»(٦)، حيث يقترح ثلاثة مفاتيح أو محدّدات ينبغي قراءة التاريخ السياسي العربي بواسطتها: هي القبيلة، الغنيمة، العقيدة.

أ- القبيلة

القبيلة، كما يرى الجابري، هي ما يعبّر عنه الأنثروبولوجيون بالقرابة، وما يعبّر عنه ابن خلدون بالعصبية، وما يعبَّر عنه اليوم بالعشائرية. حيث نتحدّث عن طريقة في الحكم أو عن سلوك سياسي أو اجتماعي يعتمد على «ذوي القربى» الأقارب منهم والأباعد، بدل الاعتماد على ذوي الخبرة والمقدرة ممن يتمتعون بثقة الناس واحترامهم، أو يكون لهم نوع ما من التمثيل الديموقراطي الحر. ولا نقصد قرابة الدم وحدها، حقيقية كانت أو وهمية. بل نقصد ما في معناها من القرابات ذات الشحنة العصبية (العاطفية) مثل الانتماء إلى مدينة أو جهة أو طائفة أو حزب، حين يكون هذا الانتماء وحده هو الذي يتعيّن به «الأنا» و «الآخر» في ميدان الحكم والسياسة(٧).

ب- الغنيمة

يقصد بالغنيمة «الدور الذي يقوم به العامل الاقتصادي في المجتمعات التي يكون فيها الاقتصاد قائماً أساساً، وليس بصورة مطلقة على الخراج والريع وليس على العلاقات الإنتاجية من مثل علاقات السيد بالعبد، والإقطاعي بالقن، والرأسمالي بالعامل.

وبالخراج نقصد (...) ما كان يعرف اصطلاحاً بالغنيمة والفيء والجزية والخراج، وما أضيف إلى ذلك من ضرائب ومكوس (...) وبعبارة أعم نقصد بالخراج ما يفرضه الغالب على المغلوب.

(...) والفرق بين مفهوم «الضريبة» بالمعنى الحديث هو أن هذه تؤخذ باسم المصلحة العامة وتتحدد بقانون ويدفعها الحاكم والمحكوم. في حين أن «الخراج» هو أساساً مقدار تفرضه علاقات القوي، فيدفعه المغلوب للغالب إذعاناً أو صلحاً (...) أما الريع فهو الدخل الذي يحصل عليه الشخص من ممتلكاته أو من «الأمير» (٨)، ويعيش من دون الحاجة إلى عمل إنتاجي (...) (٩).

ج- العقيدة

نقصد مفعول الدين أو أية أيديولوجيا على صعيد الاعتقاد والتمذهب اللذين يتميّزان عن العقيدة والمذهب في ذاتهما بالمخيال الاجتماعي الناجم عنهما أي قوة أي منهما وقدرته على تحريك الأفراد والجماعات وتأطيرهم داخل ما يشبه «القبيلة الروحية».

وتختلف أهمية هذا المحدّد أو ذاك، في نظر الجابري حسب ما إذا كان الأمر يتعلق بمرحلة «الدعوة» أو مرحلة «الدولة». ففي مرحلة الدعوة يكون الدور الأساسي للعقيدة، أما في مرحلة الدولة، فالدور الأساسي تقوم به «القبيلة» في طور النشأة... أما في الأطوار الأخرى... فالمحرّك الأساسي فيها هو الغنيمة(١٠).

هذه الاستعادة المحدَّثة لابن خلدون من قبل الجابري لمحدّدات التجربة السياسية الإسلامية، أو ما يسميه العقل السياسي العربي، تأخذ أهميتها من كونها قابلة للانطباق لا على الدول الإسلامية العربية المعاصرة في معظمها فحسب، وإنما قابلة للانطباق على معظم الحركات والقوى والأحزاب، سواء تلك التي وصلت إلى الحكم، أو تلك التي ما تزال تصارع لنيل شيء من مغانم الحكم، إذا لم تستطع أن تستأثر به... وما من ريب في أنه سيكون لهذه الأطروحات دور كبير في فهم الفشل الذي منيت به وما تزال الحكومات والقوى السياسية العربية في الاستجابة للتحدّيات الراهنة. وفي فهم النجاح الذي حققته المقاومة الإسلامية وجماهيرها في لبنان في الاستجابة الفعّالة والمثمرة للعدوان الصهيوني الأخير الذي بدأ في تموز عام ٢٠٠٦.

- قراءة توينبي لكبوة المشروع الحضاري الإسلامي

ما سميناه كبوة المشروع الحضاري الإسلامي، وصفه توينبي بأنه «احتضار حضارة المجتمع الإسلامي» وذلك في مؤلّفه «مختصر دراسة للتاريخ الذي أنجزه في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي والذي رأى فيه أنه من بين الحضارات الثماني والعشرين التي يعدها هنالك «ثماني عشرة حضارة ماتت فعلاً ووريت التراب. أما العشر الباقية فهي: حضارة المجتمع الغربي، الكيان الرئيسي لحضارة المسيحية الأورثوذكسية، غصينها في روسيا، حضارة المجتمع الإسلامي، حضارة المجتمع الهندي، الكيان الرئيسي من مجتمع الشرق الأدنى في الصين، غصينه في اليابان، ثم الحضارات الثلاث المتعطلة للبولينيزيين، والأسكيمو والبدو».

ويبدي استقصاؤنا عن كثب أن مجتمع البولينيزيين، والبدو هما الآن في سكرة الموت، وأن سبعاً من الثمان الباقية هي جميعها بدرجات مختلفة تحت تهديد: إما الإبادة أو الاندماج في المجتمع الثامن أي الحضارة الغربية ما يعني أنها لم تمت ولكنها في حالة احتضار، وإن لم تترك لمصيرها، وإنما هي مخيّرة بين الإبادة أو الاندماج في المجتمع الكامن»(١١).

وما دمنا بصدد الكلام على كبوة المشروع الحضاري الإسلامي أو احتضاره بتعبير توينبي، فلنتناول رؤيته أو قرءاته لعوامل نشوء الحضارات وانهيارها والتي استخلصها من دراسته لمجمل الحضارات الإنسانية ومنها الحضارة الإسلامية نفسها.

يرى توينبي أن الحضارة تنشأ بفعل استجابة أقلية مبدعة لتحدّيات يواجهها مجتمع من المجتمعات ما يجعلها أهلاً لاستثارة محاكاة هذا المجتمع بفعل الإعجاب بها والتقدير لها. ويتّوحد

المجتمع طوعياً. حول هذه الاستجابة ما يجعله يقوى ويندفع باتجاه إقامة دولة عالمية. أما تحلل الحضارة فيبدأ عندما تتحلل الأقلية المبدعة، فتغدو أقلية مسيطرة بالقوة، ما يحدث انشقاقاً بين تلك الأقلية وسائر المجتمع الداخلي والخارجي الذي يطلق عيه توينبي اسم «البروليتاريا» ويعني به كل فئات المجتمع الذي تسيطر عليه تلك الأقلية بالقوة سواء كانت داخلية (بروليتاريا المجتمع الذي تشكّل قاعدة انطلاق لإنشاء الدولة العالمية) أم خارجية (بروليتاريا البلدان أو المجتمعات التي ألحقت بالمجتمع الأول طوعاً أو كرهاً).

يقول توينبي، بهذا الصدد: «وحق ينبئنا تاريخ أي مجتمع من المجتمعات أنه عندما تتحلل أقلية مبدعة، فتغدو أقلية مسيطرة تسعى إلى الاحتفاظ بمركز لم تعد جديرة به باستخدام القوة، يحدث ذلك التغير في طبيعة العنصر الحاكم، انشقاقاً في بروليتاريا داخلية أصبحت لا تعجب بحكّامها فلا تحاكيهم بالتالي، ومن ثم تثور ضد استبعادهم إياها.

هذه البروليتاريا تنقسم منذ البداية إلى قسمين مميّزين:

الأول: بروليتاريا داخلية عنيدة ذليلة.

الثاني: بروليتاريا خارجية وراء الحدود تقاوم الاندماج في عنف، وصفوة القول، يتأتّى إيجاز طبيعة انهيار الحضارات في ثلاث نقط:

الأولى: قصور الطاقة الإبداعية في الأقلية.

الثانية: عزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية بعد قصور طاقتها.

الثالثة: فقدان الوحدة الاجتماعية في المجتمع بصفة عامة، نتيجة لما تقدم»[١٢].

وبعد مناقشة مزاعم الحتمية، والتدخل الإلهي، والشيخوخة الكونية أو الاجتماعية كأسباب طرحها بعض المفكّرين لانهيار الحضارات، وبعد رفضه لهذه المزاعم، يحدد توينبي ما يقصده بصور الطاقة الإبداعية بقوله: «والحال فإن الداء الذي يحتجز أبناء الإضمحلال، ليس شللاً ناجماً من ملكاتهم الطبيعية، ولكنه انهيار يصيب تراثهم الاجتماعي، يصدهم عن الاهتداء إلى مجال لمسلكاتهم الطليقة في فعل اجتماعي إبداعي مثمر»[١٣].

بصرف النظر عن الموقف من حكم توينبي على الحضارة الإسلامية بأنها في مرحلة احتضار وبأنها بالتالي مخيّرة بين الإبادة أو الاندماج في مشروع الحضارة الغربية، الأمر الذي سنناقشه لاحقاً... نقول بصرف النظر عن هذا الحكم، فإننا، مما ذهب إليه، نأخذ بالتالي:

١- أن السبب الأساس لانهيار أي حضارة يكمن بالدرجة الأولى في تحلّل الأقلية المبدعة، وتحولها إلى أقلية مسيطرة بالقوة، أي أقلية مستبدة. ما يعني أن الانهيار يعود، في نهاية التحليل على سلوك السلطة السياسية التي لا بدَّ منها لأي مجتمع في علاقتها مع هذا المجتمع وتحولها من علاقة قائمة على الجدارة الناجمة عن الإبداع إلى علاقة قائمة على القوة كوسيلة لفرض الطاعة والإلزام بدل وسيلة المحاكاة.. الناجمة عن الإعجاب. بكلام آخر التحول من قدوة وأسوة إلى قوة قاهرة.

٢- أن فقدان الوحدة الاجتماعية، أي وحدة السلطة والمجتمع المدني، الناجم عن هذا التحوّل يزداد طرداً مع ازدياد الابتعاد عن جدارة الإبداع، ما يقتضي، تبعاً لذلك ازدياد استخدام وسائل الإكراه والقهر لإجبار أغلبية المجتمع على الخضوع والانقياد.

٣- أن المقصود في الإبداع لا يعني نقصاً في الملكات الإبداعية لدى أبناء المجتمع المعني، وإنما يعني عدم الاهتداء إلى مجال لمسلكاتهم الطليقة في فعل اجتماعي إبداعي مثمر بفعل الانهيار الذي يكون قد أصاب التراث الإجتماعي العام(١٤)، أي تراث الوحدة أو التوحّد.

إن ما أوردنا من رؤية توينبي لا يعني تبنينا له، لأننا نرى أن حضارة المجتمع الإسلامي ليست في وضع احتضار، كما أنها ليست بالضرورة أمام خيار إما الإبادة أو الاندماج بالحضارة الغربية، بل هي في وضع مخاض، قد يكون عسيراً بهذه الدرجة وتلك، لكنه يبشّر بولادة جديدة على يد المؤمنين به. وما ذلك إلا لأن البعد الإلهي في هذه الحضارة، ما زال عاملاً مؤثّراً بصورة حاسمة في رؤى أولئك المؤمنين وفي رسم سلوكاتهم ومعاملاتهم وحكمهم على الكثير من مجريات الأحداث.

والحدث الذي نحن بصدد الكلام عليه واحد من مصاديق كثيرة تؤكّد ما نذهب إليه، وإن خالفته مصاديق أخرى في سلوك أنظمة وقوى أسلمت ولكن لم يدخل الإيمان في قلبها...

إن قراءة ابن خلدون تصف آليات تكرار التجربة السياسية الإسلامية بصيغتها العربية، واستعادة الجابري لها تصنّف المحدّدات المتكررة إلى درجة مكنته من الكلام على عقل سياسي عربي، ولكنها لا تقول لماذا كان هذا التكرار؟ لماذا لم يتدخل المسلمون الذين أسلموا ودخل الإيمان في قلوبهم في مواجهته الذين أسلموا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم ومن تابعهم في ذلك من الأجيال اللاحقة؟ ألم يلحظوا أن المشروع الحضاري الإسلامي الذي حملوه قد بات يعيش كبوة، منذ حوّل معاوية ابن أبي سفيان الخلافة إلى ملك عضوض؟ وأن هذه الكبوة راحت تترسّخ منذ ذلك الحين وحتى اليوم؟ وبتعابير توينبي نفسه لماذا لم يتكرر وجود الأقلية المبدعة بينما تكرر وجود الأقلية المستبدة التي تحكم بالقوة بدل الجدارة؟ أليس الفعل السياسي فعلاً إرادياً ممكناً حتى في أصعب الظروف؟

يقول ابن خلدون، في ما يشبه أن يكون جواباً، وإن جزئياً على الأسئلة الآنفة الذكر: «إذا استقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر، في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة (...) استحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم. وقاتل الناس معهم قتالهم على العقائد الإيمانية، فلم يحتاجوا حينئذٍ في أمرهم إلى كبير عصابة، بل كأن طاعتها كتاب من الله لا يبدّل ولا يعلم خلافه» (١٥).

لكن هذا الجواب من ابن خلدون يصف مجريات وقائع ويستنتج منها دون أن يعلّل تعليلاً حقيقياً. إنه يقول كيف يترسّخ اعتقاد الانقياد دون أن يقول لماذا؟!

هنالك نوع من التعليل الحديث لباحث فرنسي هو براتراند بادي B. Badie ينقله الجابري عنه.

هذا التعليل يرد في معرض الإجابة على سؤال: لماذا تطورت الدولة في أوروبا من دولة «الأمير»، (الملك، الإمبراطور...) إلى الدولة الحديثة، دولة القانون والمؤسّسات التي تستمد شرعيتها من كونها تمثّل إرادة الشعب، المعبّر عنها بانتخابات حرة، وتعمل لخدمة المصلحة العامة؟... وبالمقابل لماذا لم تتطور لدولة في بلاد الإسلام إلى دولة حديثة من هذا الطراز؟ ثم لماذا فشلت المحاولات التي قامت بها النخب العصرية من أجل نقل الحداثة السياسية الغربية إلى بلدانها؟

يعلّل الكاتب هاتين الظاهرتين بوجود كنيسة و «أمير» في الغرب أدى الصراع بينهما، أو بين السلطتين اللتين يمثلانها السلطة الإلهية والسلطة الزمنية، إلى إدخال طرف ثالث هو الشعب والاعتراف به، ما ولّد مجالاً سياسياً أدى إلى ولادة دولة المؤسسات والقانون بوصفها نفياً لدولة الأمير». أما البلاد الإسلامية فلم تعرف هذه العملية لعدم وجود كنيسة تصارع دولة «الأمير» ما أغلق الباب أمام أي مجال سياسي. وفشل النخب في نقل الحداثة السياسية الغربية بسبب استمرار انغلاق هذا المجال. وهذا ما يفسّر في نظر ذلك الكاتب كون الحركات الاعتراضية التي يشهدها العالم الإسلامي موجهة ضد «الأمير» وضد النخب العصرية، بحيث لم يبق أمام الجماهير غير الإسلام، ولم يبق من وسيلة لتعبئة الجماهير غيره ومن هنا كانت «الصحوة الإسلامية» المعاصرة (١٦).

صحيح أن رجال الدين الإسلامي لم يشكّلوا مؤسّسة دينية تصارع «الأمير» ولكنهم أيضاً لم يتدخلوا ولم يستخدموا موقعهم المؤثّر لعلاقة الناس بهم بوصفهم علماء العقيدة والشريعة والأخلاق... لتصويب مسيرة «الأمير» سيما وأنه يعتبر «أمير المسلمين» و «حارس للشريعة الإسلامية»، وكان بإمكانهم استثمار هذا الموقع وتلك العلاقة بالناس في تصويب مسيرة «الأمير» والحد من طغيانه واستبداده... لكن معظمهم كان يكتفي بالنصح الخجول، أو يسعى للانضمام إلى قبيلة الغنيمة. ومن هنا كان الكلام على علماء السوء ووعّاظ السلاطين...

ومن جديد يطرح سؤال لماذا؟

لقد استعرضنا حتى الآن قراءات لمصير المشروع الحضاري الإسلامي في جانبه السياسي، نظراً لما لهذا الجانب في مصير أي مشروع حضاري، ورأينا أن هذه القراءات قد تمّت بأدوات وصفية مستخرجة من التجربة السياسية الإسلامية بصيغتها العربية، وتعلّل تكرار هذه التجربة بصورة إجمالية بمفاهيم مستخرجة من التجربة نفسها. لكنها كما رأينا، لم تقرأ التجربة بأدوات ومفاهيم المشروع نفسه. وهذا ما سنحاول القيام به الآن.

المشروع الحضاري الإسلامي هو الإسلام نفسه. والإسلام بحد ذاته، وكما يصف نفسه. وينظر إليه المؤمنون به مشروع صالح لكل زمان ومكان، وقابل للتجدّد والاستمرار والاستجابة لكل التحديات والأوضاع الطارئة على شتى المستويات، شرط أن يؤخذ في وحدة مكوّناته العقائدية والعبادية والأخلاقية والتشريعية وتفاعل هذه المكوّنات وتكاملها في هداية المؤمنين به إلى ما يصلح

شؤون حياتهم في الدنيا وما يمهد لسعادتهم في الآخرة. أما إذا أخذ بصورة انتقائية وتجزيئية، فإنه يشكّل عند الحاجة غطاء أو تبريراً أو تسويغاً للكثير من التصرفات المفضية للابتعاد عن تلك المقاصد باتجاه يؤدي إلى نقيضها.

يقول الله سبحانه في كتابه العزيز: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٧).

هذا التنبيه الإلهي يعود، في ما نقدر والله أعلم إلى أن الكتاب (القرآن) وهو مرتكز المشروع الحضاري الإسلامي:

- ترك مساحة واسعة للعقل البشري. إذ لم يأت، على كل الأحكام والتدابير، وفي كل الأوضاع والمواقف، واكتفى بوضع مبادئ عامة تحدّد التخوم التي يمكن للعقل البشري أن يتحرك في إطارها لكي لا يخرج عما يمكن أن يكون حكم الله في هذا الشأن أو ذاك. في هذا الوضع أو ذاك. فإذا أخذ الكتاب بوصفه كلاً متكاملاً كان ذلك عاصماً نسبياً للعالم الباحث عن حكم أو موقف في هذه النازلة أو تلك، من الوقوع في خطأ فادح.. «القرآن يفسّر بعضه بعضاً» قيل بهذا المعنى.

- جاء فيه المحكم والمتشابه، والخاص والعام، والمقيّد والمطلق، والناسخ والمنسوخ، والتعبير الحقيقي، والتعبير المجازي.

هاتان الخاصتان من خصائص القرآن تمكّنان أصحاب الأهواء والأغراض ممن أسلموا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، وفي كل زمان ومكان، إيجاد ما يبرّر أو يسوّغ أهواءهم وأغراضهم، يأخذ ما يتلاءم معها، وتأويل ما يناقضها تضليلاً للمؤمنين بالكتاب، الساعين بإخلاص إلى نظم أفكارهم وسلوكاتهم بما يطابق تعاليمه وصولاً إلى رضا الله، ودفعاً لهم للقبول بتحريفاتهم بوصفها أموراً إلهية.

إن ما يصدق على القرآن لهذه الجهة، يصدق من باب أولى على السنّة الشريفة، التي تفسّر وتكمّل وتطبّق القرآن في مواقف لم يرد فيها قرآن. فإذا كان النص القرآني قد دوّن وحفظ بالصورة التي تنزّل بها، فإن السنّة لم تدوّن إلا في وقت متأخر عبر أخذها من ذاكرة الرواة، ما جعلها عرضة للتشويه عبر الحذف والإضافة والتحريف المقصود وغير المقصود الناجم عن التوهم والنقل والجهل بخاصها وعامها ومقيّدها ومطلقها وناسخها ومنسوخها... إلخ (١٨).

ما تقدّم يشكّل في ما نظن مدخلاً لتعليل قرآني لكبوة المشروع الحضاري الإسلامي الإلهي، وتحقيق مقاصده الخاصة بالاجتماع السياسي الإسلامي. وتحوله إلى مشروع سلطاني بشري. يغطي متطلبات دولة سلطانية، تتجاهل أهم مقاصد الإسلام في هذا المجال لجهة إعلاء كلمة الله في العدل عبر الحكم بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، وتوسّل فقهاء يسوغون ويبرّرون ويغطون سلوكات السلطان عبر حديث مختلق أو محرّف، أو عبر تأويل آية...

وما أشار إليه ابن خلدون عن رسوخ دين الانقياد للسلطان والتسليم له لا يعود على استحاكم صبغة الرئاسة فحسب، وإنما يعود إلى فعل أولئك الفقهاء الذين يبيعون دينهم بدنياهم ويحرّفون الكلم عن مواضعه، ويقولون هذا من عند الله وما هو من عند الله. تضليلاً للناس واستجلاباً لطاعتهم. ولولا ذلك لما كان المسلمون ليسكتوا ويطول سكوتهم إذا رأوا السلطان يستتبع القرآن. ويعمل فيهم بغير ما أمر الله به، لأنهم، من حيث المبدأ، يسعون إلى أن تكون أفكارهم وسلوكاتهم مطابقة بأكبر نسبة ممكنة، لأحكام الله، وصولاً إلى رضاه.

وإذا كان معظم الفقهاء والمفسّرين وعلماء الحديث، قد اجتهدوا مخلصين لاستكشاف أمر الله في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات... ووضعوا ما لا يحصى من المؤلّفات في هذا المجال.. فإن جهودهم في ما يعود إلى ما يمكن أن نسميه الفقه السياسي لم تزد عن رسائل النصح والإرشاد، وتسويغ التراجعات في وضع خلفاء المسلمين حتى بات يتحكّم فيهم قادة الجند والخدم والحشم... ولا يملكون من أمرهم شيئاً... ومعروف كيف برّر الماوردي (ت ٤٥٠ هـ ١٠٥٨م) في كتاب «الأحكام السلطانية» إمارة الاستيلاء، ووجوب الطاعة لأميرها حتى لو لم يفوّضه الخليفة في ما يسميه إمارة التفويض. وكيف أجاز الغزالي (ت ٥٥٠ هـ ١١١١م) التسليم بإمامة (خلافة) غير مستوفية الشروط الواجبة فيها حسب التقليد الذي أرساه الماوردي في الكتاب السابق الذكر كما أكّد على ضرورة اعتراف الفقهاء بالإمارات والسلطنات القائمة، وأجاز قيام أصحاب الشوكة (القوة) باختيار الإمام ومبايعته... ويكفي في كل ذلك اعتراف هؤلاء بأن أحكام الشريعة هي القاعدة التي ينبغي أن تتبع، وكيف أن ابن جماعة (ت٧٣٣هـ. ١٣٣٣م) أكّد على ن صاحب الشوكة له الحق في الحكم إلى أن يقوم آخر أقوى منه فيقهره وينتزع منه السلطة ويحكم بدلاً عنه لأن وجود أي حكومة، مهما كان الاعتراض عليها خير من عدم وجودها [١٩]. وكل ذلك إتقاء للفتنة «فحاكم غشوم خير من فتنة تدوم» في ما قيل تعبيراً عن تسويغ هذه التراجعات في الفقه السياسي الإسلامي.

هذا بالنسبة لأهل السنة والجماعة في ما يفضلون أن يسموا، أما بالنسبة للشيعة الإمامية خاصة، فإنهم لم يبتلوا بالحكم كما هو معروف، لكنهم أخذوا مبكراً بما يسمى لاحقاً بولاية الفقيه، إذ كانوا يرجعون، بعد الإمام الثاني عشر (عج) إلى علماء عدول مجتهدين، يقلدونهم ويأخذون بآرائهم وأحكامهم في عباداتهم ومعاملاتهم. ولذا فإن ما سيصبح نظرية ولاية الفقيه لم تتعد تدبير شؤون الجماعة من النواحي الدينية والاجتماعية والتعليمية، في إطار اجتماع سياسي لا تلك إلا أن تخضع له مرغمة. ولعل كثرة عمليات الخروج المحيطة على السلطتين الأموية والعباسية من قبل هاشميين، بعد ثورة الحسين (ع) ومن دون موافقة الأئمة عليها هي ما أدى إلى القول، من قبل البعض أن كل راية قبل راية الإمام المهدي (عج) هي راية ضلال.

وهذا ما تصدى له بعض فقهاء الشيعة الذين توجت جهودهم بتصدي الإمام الخميني (قده)

الذي نجح في إقامة الجمهورية الإسلامية التي شكّل دستورها أول بلورة عملية دقيقة ومتكاملة لنظرية ولاية الفقيه التي يأخذ بها عموم فقهاء الشيعة الإمامية، وإن اختلفوا وما زالوا على كونها عامة أو غير عامة... وإن كان الاتجاه إلى اعتبارها عامة يقوى أكثر فأكثر مع تطور الصراع ضد قوى الهيمنة والتسلط والبغي. ولا يتسع المجال للكلام على التنظيرات السياسية التي جاءت من موقع محاولات التوفيق بين النظرتين اليونانية والإسلامية للاجتماع السياسي كما عند الفارابي وابن سينا...

إذا شئنا البحث عن تنظير سياسي إسلامي قرآني فإننا نعثر عليه في تضاعيف خطب الإمام علي (ع) ورسائله وسلوكاته. وإذا كنا سنتوفر على إيراد بعض هذا التنظير، فلأنه يجيب عن تساؤلات سبقت ويفسّر باستفاضة اسباب ما وقع فيه الاجتماع السياسي الإسلامي من كبوة وبأدوات إسلامية توضح ما أوردناه سابقاً حول القرآن والسنة وكيفية التعاطي معهما إذا ما شئنا إخلاص الوجه لله، أو شئنا إخلاص الوجه للأهواء والأغراض. وكيفية بلوغ الحق، لا سيما في الشأن السياسي، مظنة الأهواء والأغراض، ومظنة الخلاف والاختلاف، كان كذلك وما زال، لأن الله، كما يقال: «يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». فالسلطان يمارس الأمر والنهي وهو يملك سلطة الإلزام بما يأمر به والقوة لإنفاذه. أما القرآن، فإنه لا يملك غير الترغيب والترهيب تاركاً للإنسان حرية الالتزام أو عدمه.

والسلطان الذي لا بدّ منه في أي اجتماع إنساني قد يكون براً وقد يكون فاجراً. فالبر بالمفهوم الإسلامي هو من يعمل على أن يحكم بما أمر به الله، أما الفاجر فهو من يحكم بما تقتضيه مصلحة سلطانه ومتطلبات دولته وإن خالفت أو ناقضت حكم الله.

يقول الإمام (ع) مبيّناً أهمية الشأن السياسي من خلال الكلام على حق الراعي والرعية: فالحق لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له. ولو كان لأحدٍ أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله دون خلقه... ولكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل حقهم عليه مضاعفة الثواب، تفضيلاً منه وتوسّعاً بما هو من المزيد أهله.

ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها، ويوجب بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض.

وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية، وحق الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه وتعالى لكل على كل، فجعلها نظاماً لإلفتهم، وعزاً لدينهم، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية.

فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه وأدى الوالي إليها حقها، عزَّ الحق بينهم، وقامت مناهج الدين. واعتدلت معالم العدل... فصلح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء...»[٢١]، ولكي لا نطول يحدث العكس إذا أجحف الوالي برعيته، أو غلبت الرعية واليها...

ولكن هل هذا الحق موصوف بحيث لا يخطئه البصر أو لا تزل في معرفته البصيرة؟

لقد اجتهد الإمام عليه السلام في تحديد حقوق الرعية على الوالي في عهده لمالك الأشتر عندما ولاه على مصر وفي الكثير من رسائله لولاته... وما ذلك إلا لإدراكه أن الإجحاف إنما يأتي غالباً من الراعي، أو الوالي لامتلاكه وسيلة الإكراه والإلزام، وبالتالي الإجحاف بالرعية، وذلك على الرغم من تجربته المرة مع رعيته أيام خلافته، حيث أبى أن يستخدم وسائل الإلزام ووسائل الترغيب والترهيب إلا بالحق..

ومع ذلك فإنه يقول في بداية الخطبة الموصوفة نفسها: «فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف»، إذ يتسع القول في الحق، لأنه مدّعى كل مدّع مهما كان ادعاؤه، ولأنه من المفاهيم حمّالة الأوجه في التطبيق على مفردات الدعوات والادعاءات، ما يجعله قابلاً لاستغلال في التضليل من قبل المنافقين وأصحاب البدع وإذكاء الفتن.

يقول الإمام (ع) في هذا المجال: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع يخالف بها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالاً على غير دين الله» ويتابع، وهذا هو محل الشاهد: «فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق، لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل، لانقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث فيمزجان.. فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى»[٢١].

ولكن إذا كان ذلك كذلك فكيف يخلص الناس إلى الحق لاتباعه وإلى الباطل لاجتنابه؟ يكون ذلك، برد ما اختلف فيه إلى الله وإلى رسوله، أي إلى الكتاب والسنة. ولكن الكتاب والسنة هما، كما أوردنا، مظنة خلاف واختلاف. فما العمل؟

لا يبقى إلا العودة إلى العلماء بالقرآن والسنة القادرين على استنباط الأحكام في النوازل والمستجدات التي لم يرد فيها حكم مباشر، والقادرين على استكشاف أقرب ما يمكن إلى ما أراده الله من الآراء والمواقف في مواضع الخلاف والاختلاف. والذين أخلصوا الوجه لله. فلا تأخذهم في البحث عما أراده لومة لائم ولا هوى نفس.. أولئك الذين يصفهم الإمام (ع) في الخطبة ٨٦ من النهج، ومما يصفهم به: «قد خلع سرابيل الشهوات، وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به[٢٢] فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى، ومغاليق أبواب الردى... قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله، نفي الهوى عن نفسه، يصف الحق ويعمل به، لا يدع للخير غاية إلا أمّها، ولا فطنة إلا قصدها، قد أمكن الكتاب (القرآن) من زمامه، فهو قائده وإمامه، يحل حيث حل ثقله، وينزل حيث كان منزله» [٢٣].

وفي مقابل هذا العالم التقي الورع، هناك مدعو علم وعلماء لا يتصفون بهذه الصفات ويعملون على تضليل الناس، يبيعون دينهم بدنياهم تقرّباً لأهل السلطان وابتغاء منافع يطمحون إليها. يقول الإمام (ع) في وصف هؤلاء:

«وآخر قد تسمى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس أشراكاً من حبائل غرور وقول زور. قد حمل الكتاب (القرآن) على آرائه، وعطف الحق على أهوائه... يقول وقف عند الشبهات وفيها وقع، واعتزل البدع وبينها اضطجع...»[٢٤].

هذا هو السبيل الأول لخلوص الناس إلى الحق واجتناب الباطل. أما السبيل الثاني فهو التناصح والتعاون. يقول الإمام في هذا المجال ناصحاً للراعي والرعية في نفس الخطبة التي تناول فيها حقوق الراعي والرعية: «فعليكم بالتناصح في ذلك والتعاون عليه، فليس أحد، وإن اشتد على رضاء الله حرصه، وطال في العمل اجتهاده، ببالغ حقيقة ما الله أهله من الطاعة له، ولكن من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحق بينهم، وليس أمرؤ وإن عظمت في الحق منزلته، وتقدّمت في الدين فضيلته، بفوق أو يعاون على ما حمله الله من حقه، ولا امرؤ وإن صغّرته النفوس واقتحمته العيون [٢٥]، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه»[٢٦].

لا أدري كم ينبغي أن نضع من خطوط التشديد على ما ورد في هذه الفقرة وكم ينبغي أن نؤكد على تعميم مضمونها، ليصبح جزءاً من الثقافة، لأن هذا التناصح في الحق والتعاون عليه لا يعني الحق في الاعتقاد أو العبادة أو الأخلاق أو أي أمر محسوم من وجهة نظر الإسلام، وإنما الحق العائد للتدبير واتخاذ المواقف في الشؤون التي تخص العباد والتي تشكّل الشؤون السياسية (مسائل الإمرة وليس الحكم، كما يقول الإمام علي عليه السلام) وما يتفرّع عنها أهمها. وإن امتد الحق، بهذا المعنى إلى كل شأن من شؤون الحياة التي تحتمل الآراء المتعددة والمواقف المتنوعة ولا تقع في دائرة الأحكام ذات الطابع الفقهي.

لقد أشرت إلى أسباب الاهتمام بهذه القراءات لكبوة المشروع الحضاري الإسلامي فلا حاجة لتكرارها هنا، وإن كنت أسأل الله أن ينفع بها من يعنيهم الأمر.

والحمد لله في كل حال

في ٢٠٠٧/٧/٢٠

علي يوسف

الهوامش:

[1] هذه التسمية مستعارة من المفكّر والباحث الإنجليزي في الحضارات أرنولد توينبي وسيرد لاحقاً تفصيل حول هذه التسمية.

[2] سورة البقرة، آية ٨٥.

[3] ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، دار العلم، بيروت لبنان، ط٤، ١٩٨٤، ص ١٢٠ - ١٢١.

[4] المقدمة، ص ١٧٥- ١٧٦.

[5] المقدمة، ص ٢٩٤ وما يليها.

[6] الجابري، محمد عابد، **العقل السياسي العربي**. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

[7] المصدر المذكور، ص ١٠.

[8] يقصد السلطة السياسية.

[9] العقل السياسي العربي، م.س. ص ٤٩ - ٥٠ (بتصرف).

[10] م.ن، ص ٥٠، ٥١، ٥٢.

[11] توينبي، أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**، ترجمة فؤاد محمد شبل، ط١، ١٩٦٠، المجلد الأول، ص ٤٠٩.

[12] توينبي، أرنولد، **مختصر دراسة للتاريخ**، م.س، جزء١، ص ٤١٣.

[13] م.ن، ص ٤١٣- ٤١٧.

[14] م. ن. ص. ٤٤٧.

[15] المقدمة، م.س ص ١٥٤ - ١٥٥.

[16] **العقل السياسي العربي**، م.س، ص ١٧- ١٨.

[17] سورة البقرة، آية ٨٥.

[18] را: **نهج البلاغة**، شرح الإمام محمد عبده، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط أولى، ١٩٩٣، الخطبة ٢٠٨، ص ٤٤٠، في تصنيف الأحاديث ورواتها.

[19] را: شاخت، جوزيف وآخرون، **تراث الإسلام**، عالم المعرفة، الكويت، ط٢، من ص ١١٢- ١٣٣.

ويمكن مراجعة مقدّمة لفكر العربي في عصر النهضة من تأليف ألبير حوراني، دار النهار للنشر، وكتاب الأحكام السلطانية للماوردي.

[20] نهج البلاغة، الخطبة، ٢١٤، ص ٤٤٩ وما يليها.

[21] نهج البلاغة، الخطبة ٥٠، ص ١٢٣ وما يليها.

[22] هم الوقوف عند حدود الشريعة.

[23] النهج، خطبة ٨٦، ص ١٧٩ وما يليها.

[24] النهج، خطبة ٢١٤ ، ص ٤٥١ .

[25] احتقرته.

[26] النهج، خطبة ٢١٤، ص ٤٥١.

الإمــام موســى الصــدر والمجتــمع المقــاوم

البــاحث والأستــاذ الجــامعي
د. علــي الشــامـي (لبنـــان)

يشكّل المجتمع المقاوم المجال الحيوي لفعالية كل حركة تحرير وطني، تتوسّل المقاومة المسلّحة في مواجهة مختلف أشكال السيطرة والاحتلال المباشر. ولا يمكن فهم قدرة هذه المقاومة، في مراحل تأسيسها وتواصلها وصولاً إلى انتصارها، بمعزل عن البيئة الاجتماعية - الأهلية التي تغذّيها بشروط وجودها بالذات. ففي هذه البيئة تتشكّل عوامل ولادة المقاومة، ومثلها العوامل التي تساعدها في تحقيق أهدافها. وبهذا المعنى، تتوارى خلف بطولات المجاهدين تضحيات مجتمع بكامله، وهي تضحيات شاملة للأرواح والأرزاق، مثلما هي تضحيات تتناسل من تضحيات لا تلين ولا تستكين، وتنهل من تاريخ وذاكرة وهوية وتندرج، مجتمعة، في سياق توليفي وتبادلي بين المقاومة والمجتمع الأهلي.

وكما تحتاج المقاومة إلى شروط قيامها، في قدراتها التنظيمية والبشرية والعسكرية والفكرية، فإنها تحتاج أيضاً إلى مجتمع يحضنها ويحتل تبعاتها ويرفدها بالمدد اللازم من بشر وإرادة معنويات وصمود وقبول بالأثمان الفادحة... ولكي يتمكّن المجتمع، أي مجتمع، من تقديم هذا المدد الشامل، ينبغي أن يكون، هو نفسه، مجتمعاً مقاوماً. وهذا يعني، أولاً، رفضاً للاحتلال وقبولاً بمبدأ المقاومة المسلّحة كوسيلة للتحرير؛ ويعني، ثانياً، استعداداً مسبقاً لرفد هذه المقاومة بالمجاهدين من فلذات الأكباد؛ ويعني، ثالثاً، قبولاً بالأثمان المتوقّعة من تضحيات بشرية ومادية ونفسية؛ ويعني، رابعاً، إرادة مجتمعية تعصم المقاومة من الضعف والاستكانة وتغذّيها بشروط استمرارها بصرف النظر عن وقع المعارك والاختلال في موازين القوى؛ ويعني، خامساً، تماهياً في الينابيع الثقافية - الأيديولوجية حيث تلتئم المقاومة وأهلها في هوية تفسّر وتغذّي كل المعاني الأخرى، ما يبقي أمل الانتصار حاضراً في بطولات المجاهدين وتضحيات المجتمع على أنواعها.

بيدَ أن مجتمعاً كهذا، يحتاج إلى عملية بناء، لا سيما وأنه يشكّل جزءاً من مجتمع أكبر، من دولة ووطن، لا ينظر إلى الاحتلال برؤية جامعة، وقد لا يراه خطراً شمولياً ويمعن في إدارة الظهر

لتداعياته ما يوهن إرادة النازحين تحت نيره، ويقذف بهم في متاهة التساؤل والسكون والتهجير وتسليم ذواتهم والأرض للقدر. وهنا، بالتحديد، تظهر أهمية التجربة التي قادها الإمام موسى الصدر وهو في سياق بناء مجتمع مقاوم كشرط من شروط قيام مقاومة وطنية ضد المشروع الإسرائيلي في لبنان. وقد اختمرت هذه التجربة في ذهن الإمام الصدر بعد معاينة مكثّفة لواقع الحال والأحوال في لبنان الدولة والطوائف، وهو واقع كان يؤشّر إلى انشغال اللبنانيين بحساباتهم الخاصة مصالح طوائفهم، أكثر من انشغالهم بضرورة إنقاذ الوطن كله من براثن المشروع الإسرائيلي الذي يهدّدهم جميعهم بقدر ما يهدّد وطنهم كأنموذج للعيش المشترك ويتركهم، هكذا، في مهب الرياح، بدون هوية جامعة أو مصير مشترك، يبحثون عن حلول في علاقاتهم الدولية أو في قوة ضعفهم وتفاصيل طوائفهم، وكلها حلول أثبتت الأيام والأحداث عقمها وفداحة أثمانها.

وفي حين كانت الحاجة إلى تأسيس مقاومة شعبية ضد المشروع الإسرائيلي التوسّعي قد اختمرت في فكر الإمام الصدر بعد معاناة من الوقائع اللبنانية السلبية ومثيلاتها الدولية والعربية، فإن التمهيد لقيام مجتمع مقاوم يستجيب لشروط ولادة المقاومة نفسها، كان وراء الجهد الدؤوب الذي بذله الإمام الصدر منذ بداية السبعينات من القرن الماضي، والذي أرخى بكل أثقاله على تجربته السياسية إلى يوم اختطافه في ليبيا في ١٩٧٨/٨/٣١.

وفي مراجعة متأنّية لمواقفه وتحركاته، يمكن ملاحظة الحضور الدائم للهمّ الجنوبي خاصة والوطني عامة. فالإمام الصدر كان قائداً ثاقب البصيرة، مثلما كان مدركاً حجم العراقيل المنصوبة بوجه كل محاولة لتأسيس حالة ممانعة ضد الأطماع الإسرائيلية في لبنان. ذلك أن بناء مجتمع مقاوم في ظل لامبالاة لبنانية عامة تجاه مخاطر المشروع الإسرائيلي، بل وفي ظل سياسة رسمية وأهلية وحزبية كانت كفيلة بإجهاض مسعى من هذا النوع وهو في المهد. وبالتالي فإن بناء مجتمع مقاوم ومن ثم تأسيس مقاومة وطنية كان يشترط إجماعاً لبنانياً وتحركاً متواصلاً بهدف تشكيل قناعة وطنية عامة بصوابية هذه الفكرة وضرورتها للجميع. ولكي لا تبقى هذه الرؤية محصورة في إطار جنوبي أو شيعي، جاهد الإمام الصدر في إظهار شمولية الخطر الإسرائيلي الذي يهدّد لبنان كله من الناقورة إلى النهر الكبير.

وفي هذا السياق، تندرج مواقف الإمام الصدر من حاجة اللبنانيين إلى وعي مضاعف، وعي باستحالة الفصل بين لبنان وجنوبه، ووعي بخصائص الخطر الإسرائيلي بالمقارنة مع غيرها من الأخطار التي يتعرّض لها لبنان. وبهذا المعنى، تأتي رسالة الإمام التي وجّهها إلى أعضاء المجلس النيابي، ونشرتها الصحف بتاريخ ١٩٦٩/١/٢٤، حيث يقول في خاتمتها «... إن لبنان دون منطقة الجنوب أسطورة، وإن لبنان مع جنوب ضعيف جسم مشلول، وإن لبنان دون قوة الجنوب مغامرة تاريخية». وكان أكثر وضوحاً في رسالته بمناسبة عيد الفطر بتاريخ

١٩٦٩/١/٢٩، حيث كرَّر رؤيته استحالة الفصل بين أحداث الجنوب ومصير لبنان، لذلك يقول: «لا أجد صعوبة في توضيح الوضع المهدّد في لبنان، ولا أتصور أيّ غموض لأجل إدراك أبعاد الكارثة التي تتربص بوحدة هذا البلد ومصيره وتهدد حياة أبنائه وكرامتهم. إن الخطر الذي يستهدف لبنان الجنوبي هو الخطر الحقيقي على الأراضي اللبنانية بأجمعها، وانهيار الجنوب لا ينفصل حتماً عن سقوط المناطق الأخرى. إذا كنا نجد في التاريخ أو في بعض الأفكار المتخفّية، نجد لبنان الجبل أو لبنان المتصرّفيات والأقاليم، وإذا رأينا في بعض الحوادث القديمة سقطت منطقة لبنانية وبقيت مناطق أخرى قائمة مدافعة أو مهاجمة، إذا رأينا ذلك، فإن القرون الوسطى قد انطوت ودفنت معها هذه النوادر والأحداث. ثم إن طبيعة العدو الصهيوني تختلف عن طبيعة أي عدو أو مستعمر. وبعض التأمّل الواقعي يرسم لنا زيف هذه الافتراضات وعدم إمكانية تجدّد تلك الأحداث في عصرنا الحاضر...»

وقبل ذلك بأسبوعين، في مؤتمر صحفي بتاريخ ١٩٦٩/١١/٢٠، كان الإمام الصدر واضحاً في إبرازه لشمولية الخطر الإسرائيلي. حيث قال «إن إسرائيل بوجودها وبما لها من أهداف تشكّل خطراً علنياً محدقاً على جنوبنا وشمالنا، على أرضنا وشعبنا، على قيَمنا وحضارتنا، على اقتصادنا وسياستنا. إنها تشكّل الخطر الآن وفي المستقبل، في المنطقة وفي أبعاد لبنان التاريخية والجغرافية والبشرية، هذه المبادئ لا تحتاج إلى إثبات إلا لمن يجهل حقيقة إسرائيل أو يتجاهلها»...

وبناءً عليه، حاول الإمام الصدر إقناع اللبنانيين، دولة وأحزاباً وطوائف، بضرورة المسارعة إلى بناء استراتيجية وطنية تقوم على الأسس التالية:

١- تعيين الأخطار الإسرائيلية ووحدة الرأي والموقف منها، وتحديداً الأخطار الأكثر بروزاً منها، التي تمثّلت بتقسيم لبنان واحتلال الجنوب وتصفية القضية الفلسطينية.

٢- تحديد دور الدولة بصفتها المسؤول الأول في الدفاع عن وحدة الوطن وسيادته وكرامة شعبه.

٣- توحيد رؤية المجتمعَيْن السياسي والأهلي للخطر الإسرائيلي الشامل.

٤- بناء مجتمع مقاوم كشرط من شروط التصدي لهذا الخطر والصمود في مواجهته.

٥- تأسيس مقاومة لبنانية ضد إسرائيل.

اعتمد الإمام الصدر في مقاربته لهذه الاستراتيجية خطاباً متعدّد الأبعاد والاتجاهات. فخاطب الدولة والطوائف محذّراً من مغبّة الاستمرار في النظر إلى التهديد الإسرائيلي من منظار الامتيازات السلطوية والمصالح الطائفية، في وقت تؤشّر فيه الوقائع الجنوبية إلى تمدّد المشروع الإسرائيلي وتحوّله إلى شر متطاير لا يستثني أحداً، لا طائفة ولا منطقة ولا دولة ولا سلطة... وقد حذّر الدولة، مراراً وتكراراً من سلبيات السياسة القائمة على شعار «قوة لبنان في

ضعفه، وعلى سياسة الابتعاد عن المشاركة في المصير العربي الواحد. وبالتالي، فإن اقتصار الدولة على إدارة الامتيازات الطائفية سوف يؤدي إلى استباحة لبنان، وتركه مكشوفاً وضعيفاً أمام المشروع الإسرائيلي. وهذا ما يفرض على الدولة مسؤولية العمل على تحصين الجنوب وانتهاج سياسة دفاعية وتوسيع رقعة المشاركة في القرار السياسي، وتأمين ظروف العيش بما يسمح لأهل الجنوب بالصمود؛ أي العمل الذي ينبغي أن تقوم به كل دولة، وهي المسؤولة عن حمايته وتحصينه وإعداده لمواجهة الخطر الإسرائيلي وأطماعه في الأرض والمياه وحاجته إلى التخلّص من الأنموذج اللبناني التعددي.

أما الطوائف فقد خاطبها بلغة مصالحها، وهذه لا قيمة لها ولا جدوى في ظل الخطر الإسرائيلي. وبرأي الإمام الصدر، فإن التركيز على المصالح الطائفية سوف يؤدي إلى وضع حقوق الطوائف فوق مصير الوطن، بينما ينبغي أن يكون الوطن فوق حسابات الطوائف ومن أجلها كلها بدون استثناء. وقد أثبتت تجربة الإمام الصدر فرادة رؤيته التي وضعت مصير الوطن فوق حقوق الطائفة التي يقود والتي تختصر مقولة طائفة بدون حقوق أفضل من طائفة بدون وطن؟

وفي ثنايا هذا الخطاب المتعدّد الاتجاهات كانت تكمن رؤية الإمام الصدر حول حاجة اللبنانيين إلى تحويل اجتماعهم إلى مجتمع مقاوم. وكلما كان الخطر الإسرائيلي يقترب كلما كان الإمام الصدر معانداً في سعيه لبناء مجتمع كهذا. وهو الذي عاين عن كثب هيمنة المصالح الفئوية على المصالح الوطنية المشتركة، مثلما لاحظ الشّلل المشبوه لطاقات الدولة والمؤسّسات الإعلامية والتربوية والروحية والاغترابية والثقافية. وقد سلكت هذه الرؤية طريقين متكاملين، طريق بناء مجتمع مقاوم في كل لبنان، وطريق بناء مجتمع مقاوم في الجنوب، على الأقل. وعلى هذا الأساس، كان تحرّك الإمام الصدر، في ليله ونهاره، داخل لبنان وخارجه، في خطابه والمواقف والتحالفات، كان الوطن ينبض في مسار شخصه ومسيرته، وهو الوطن الذي لم ينتبه لخسارة كبيرة من قياداته إلا بعد فوات الأوان، وهو الوطن الذي استفاقت دولته وطوائفه والأحزاب بعد «خراب البصرة» وهو، هكذا، مستباحاً ودبابات إسرائيل تجول في عاصمته، واللبنانيون انقسموا بين مشارك وشامت ومن يعدّ العدّة للمقاومة.

وكم كان الإمام الصدر بليغاً وصريحاً في نداء إيقاظ الضمير اللبناني قبل أكثر من عشر سنوات على الاحتلال، حيث خاطب اللبنانيين في ١٩٧٠/١/٢٩ قائلاً: «... إن وطنكم في خطر عظيم وداهم. هذا محض الحقيقة وصريح الواقع. أما الغريب الغامض، أما السر الخطير فهو: أن يكون الخطر قريباً منكم وكأنه لا يعنيكم، أن نتفرّج باطمئنان وبلا مبالاة وبشيء من الحزن المترف على واقع لبنان الجنوبي ومصيره. هذه هي المأساة أيها الإخوة، استعراض للأحداث الأخيرة وللاعتداءات المتكرّرة على لبنان، على منطقة عزيزة من لبنان تشكّل ركناً أساسياً في تاريخه وفي كيانه وفي استقلاله، واكتفائه الذاتي. استعراض سريع يؤكّد أن هذا البلد يواجه

خطراً مصيرياً. وأمام هذه الحوادث ترتفع أصوات وتعلو صرخات وتظهر نشاطات، ولكن ويا للأسف المرير، جميعها من منطقة معيّنة ومن طائفة معيّنة. اللهم إلا بعض المواساة واللياقات من الآخرين... تتخذ تدابير وتقرّر أمور بتثاقل وبطء تقليديين، ومع التحفّظ والشروط الصعبة لأجل تنفيذها. أليس في هذه الظاهرة نعي للوطنية ونذير في الإحساس المواطني، وتشاؤم على مستقبل لبنان وكرامته. هذه اللامبالاة العامة تملأ القلب ألماً وتميت الأمل، وهي التي فرضت عليّ مناشدتكم هذه الليلة أيها الإخوة...».

وبعد أن مهّدت الحرب الأهلية للتدخل الإسرائيلي في مصير لبنان انطلاقاً من جنوبه، أعاد الإمام الصدر توجيه الأنظار إلى أولوية الخطر الإسرائيلي، وإلى حاجة اللبنانيين إلى بناء «مجتمع جدّ، لا مجتمع رخاء وترف»، وإلى حاجة الدولة لكي تبني «جيشاً موّحداً لا طائفياً مزوداً بكفايات وأسلحة متطورة في مستوى الأخطار التي تهدّد الوطن»، وفق ما جاء في بيانه الصادر بتاريخ ١٧/٤/١٩٧٦». والذي سبقه بيان آخر بتاريخ ١٤/٤/١٩٧٦ يكرّر الإمام الصدر فيه نفس المضامين. إذ طالما «أن لبنان، دولة مواجهة، فلا يمكن إلا أن يكون منيعاً يدافع عن شعبه وأرضه، بعد ان عرف الجميع مطامع العدو في الجنوب. ولا يمكن لمجتمعه إلا أن يكون مجتمع جدّ وحرب لا مجتمع رخاء واستهلاك...».

وإذا كانت الحرب الأهلية قد آلت إلى ما آلت إليه من انقسام للمجتمع وانهيار للدولة وتشتّت للإمكانات والقوى والمصالح، ما أدّى إلى إجهاض محاولات بناء مجتمع لبناني مقاوم للمشروع الإسرائيلي، فإن الإمام الصدر ظلّ ثابتاً في محاولته وسعى إلى تحقيقها في الجنوب حيث تكمن قدرته على مواجهة الخطر الإسرائيلي الداهم في تحويله إلى مجتمع مقاوم قادر على تثمير الممانعة الأهلية - المجتمعية وتطويرها إلى مقاومة، بدت، منذ تلك اللحظة، خياراً وحيداً.

وهكذا، لم يبق أمامه سوى توجيه كل طاقاته نحو الجنوب، هناك حيث الحاجة غدت مصيرية لبناء مجتمع مقاوم يحول دون تمدّد المشروع الإسرائيلي نحو العمق اللبناني؛ أي أن بناء مجتمع مقاوم في الجنوب كان ضرورة لحماية لبنان قبل أن يكون حاجة جنوبية لتفادي تكرار مأساة فلسطين أخرى في الجنوب اللبناني. كما لم يكن الاجتماع الأهلي والسياسي في الجنوب بعيداً عن تلمّس هذه الحاجة. فالمجتمع العاملي يفيض مقاومة ويختزن في تاريخه إرادة جامعة ضد الظلم والاستبداد. وقد اعتاد أو تآلف مع المقاومة ويكاد تاريخه يكون اختزالاً لها: في مواجهة السلطات الإسلامية الجائرة، وفي مواجهة استبداد السلاطين العثمانيين وولاتهم، وفي مواجهة أمراء جبل لبنان في محاولات إخضاعهم لجبل عامل، وفي مواجهة الاستعمار الفرنسي، وفي مواجهة سياسة الحرمان والطائفية... وكلها مواجهات تنهل من إرادة العيش بكرامة بدون البحث عن بدائل ملغومة في خروج عن إجماع إسلامي أو وحدة عربية، وبدون الانخراط في مغريات التقسيم والتجزئة. وهي مواجهات صنعت اجتماعاً أهلياً مقاوماً في سياق توحيدي عام أكثر منه اجتماعاً

فئوياً يبحث عن بدائل في إمارة أو كانتون.

بيدَ أن مجتمعاً كهذا كان، في لحظة اقتراب الخطر الإسرائيلي، بحاجة إلى إعادة وصل ما انقطع من اتصال وتواصل مع التاريخ والذاكرة والإرادة. ففي نصف القرن الفاصل بين قيام دولة لبنان الكبير وبداية تموضع المشروع الإسرائيلي على تخوم الجنوب، كان أهله قد وصلوا إلى حافة الاختناق. فالإقطاع السياسي نشر في نفوسهم اليأس من كل تغيير للحال والأحوال، وكانت الدولة الطائفية قد عمّقت الشرخ بين مركزها والأطراف، وتمادت الامتيازات الطائفية في تهميشها وحرمانها لأطراف دولتها في الجنوب والبقاع والشمال لمصلحة مركزها في جبل لبنان والعاصمة، حيث تنشط الدورة الاقتصادية وتتأمّن الخدمات على أنواعها في الوظيفة والعلم والطبابة والبنى التحتية... وبالتالي، فإن بناء مجتمع مقاوم في طرف محروم ومهمّش طيلة نصف قرن لن يكون بمقدور رجل واحد تأمين شروطه وفي زمن قياسي، لا سيما وأن الاعتداءات الإسرائيلية المتكرّرة عمّقت النزف البشري والنزيف الاقتصادي. فكانت كل موجة تهجير ونزوح تحاكي سابقاتها من تلك الباحثة عن لقمة عيش أو مدرسة أو مستشفى، إلى درجة بات الجنوبي يتماثل فيها بحقيبة ثياب تائهة على طرقات الوطن ومحطات النزوح. وبعبارة أخرى، كان الجنوب، ومنذ نهاية الستينات من القرن الماضي، يعاني فراغاً في كل شيء، بينما يحتاج تحويله إلى مجتمع مقاوم اهتماماً يشمل كل شيء: ملاجئ وتحصينات، تصريف الإنتاج الزراعي، التقديمات الاجتماعية من بنية تحتية إلى مدارس ومستشفيات وطرقات، خلق فرص عمل، المشاركة في الحياة السياسية بما هي سياسة رسمية تضع حداً للهامشية والحرمان وترى إلى مصير الجنوب رؤيتها إلى مصير الوطن برمته.

وفوق كل ذلك، اكتشف الإمام موسى الصدر الحاجة إلى إعادة تشكيل الوعي والإرادة، فالخطر الإسرائيلي لم يكن واضحاً للجميع، لا في داخل الجنوب ولا في خارجه. صحيح أن أهل الجنوب كانوا أكثر وعياً بقرب هذا الخطر، وقد عايشوه منذ العام ١٩٤٨، وحاولوا التصدي له بالانخراط في التيارات اليسارية والقومية على أنواعها، والمشاركة في الثورة الفلسطينية وفصائلها، إلا أنهم كانوا وسط متاهة من السياسات والحسابات والمصالح أفقدتهم البوصلة المؤدّية إلى تلمّس الخطر المباشر على حاضرهم ومستقبلهم. وبالتالي، تفاقمت الحاجة إلى البحث عن بديل يصون أرضهم وأرزاقهم ووطنهم. بيدَ أن مسافة ظلّت تفصلهم عن هذا البديل، وكانوا بحاجة إلى من يرشدهم إليه ومن ثم يتدبّرون أمورهم بما تيسّر. وكان على الإمام موسى الصدر مهمة ردم هذه المسافة وقيادة المجتمع الجنوبي إلى حيث تنمو الممانعة وتولد المقاومة...

وهكذا، باشر الإمام الصدر، منفرداً، البحث عن الوسائل الضرورية لبناء مجتمع مقاوم في الجنوب. وكما ورد في نداء الإمام إلى العقل اللبناني بتاريخ ٢٧-١-١٩٧٦، فإن طبيعة المعركة

الراهنة والقادمة مع إسرائيل تتطلب بناء مجتمع قادر على خوضها والانتصار فيها؛ وذلك لأنها، كما يقول: معركة ذات وجوه كثيرة، «فهي معركة حضارية طويلة الأمد متعدّدة الجهات، وطنية، قومية، دينية، إنها معركة الماضي والمستقبل، معركة المصير. وهذا يعني أن المطلوب منا الاستعداد ليس لأجل الأيام والأسابيع القادمة فقط، ولكنه للسنوات ولعشرات السنين، وعلى جميع الجبهات وبكل المستويات ومع جميع الطاقات...».

وقد سلك الإمام الصدر طريقاً مجبولاً بألغام من كل نوع، بيدَ أنه لم يتوقّف أو ييأس، والخطوات المطلوبة كانت مسيراً بعكس المرغوب لبنانياً وعربياً ودولياً. ومع ذلك ظل ينحت في صخر السياسة والاجتماع معتمداً على اتجاهات مختلفة ولكنها متكاملة:

- اتجاه يدعو إلى تحصين الجنوب وتمكينه من الصمود اقتصادياً واجتماعياً ونفسياً وإعلامياً.
- اتجاه يدعو إلى اعتماد سياسة دفاعية تستند إلى دولة عادلة وقادرة وجيش قوي.
- اتجاه يدعو إلى تمتين عرى الوحدة الوطنية بين أبناء الجنوب على اختلاف طوائفهم والمذاهب.
- اتجاه يدعو إلى تدريب القادرين على حمل السلاح بغية تمكينهم من الدفاع عن أنفسهم وأرضهم.
- اتجاه يدعو إلى بناء مقاومة لبنانية شعبية تعمل بموازاة الجيش اللبناني في مواجهة الاختراقات الإسرائيلية المتواصلة..

تختزل تجربة الإمام الصدر محاولة قائد لم تمنعه العمامة السوداء من تكاملية المسؤولية الدينية والسياسية التي ألقتها الظروف على كاهله، فاعتمد خطاباً لم يفارقه حتى في سنوات تغييبه ظلماً وخيانة في سجن ليبي، وهو الخطاب الباحث عن مجتمع صمود ومقاومة، والخطاب الذي استشرف مبكراً طبيعة المشروع الإسرائيلي ونوع المواجهة المطلوبة بوجوهها وأبعادها ومراحلها. وبما أن «منطقة الجنوب بوضعها الحالي تشكّل نقطة ضعف كبيرة في الجبهة، حيث إنها بطبيعتها الاستراتيجية النادرة وغناها الطبيعي تؤثر في وضع المعركة عند تعرّض العدو لها وتغيّر معالم الحرب والتوازن بين القوى»، وبما أن «منطقة الجنوب هذه لا يمكنها وحدها القيام بأعباء الدفاع ولا تحضير معركة من معاركه، ولكنها كانت، ولا تزال، جزءاً مخلصاً ومؤثّراً في مصير هذا البلد وهذه الأمة»، وبما أنها تنذر بوقوع خطر شامل على مناطق لبنان كافة فإنها تتطلب «مشاركة جميع اللبنانيين، بل العرب أجمع، في تحسين أوضاع الجنوب دفاعياً واقتصادياً ونفسياً وجعله مستعداً للصمود ولخلق السدّ الأول في وجه العدو...». وفي نفس السياق، جدَّد الإمام الصدر صرخته ودعوته لبناء مجتمع جنوبي مقاوم: «... عليكم أن توفّروا للجنوبيين وسائل الصمود وإمكانية الصمود وإعطاء فعالية لصمودهم... أنجزوا المشاريع المدروسة والمقرّرة

والموعود بها عشرات المرات... ساهموا في رفع معنويات أبناء الجنوب، زوروهم، اكتبوا عنهم، وعن بلادهم مقالات وريبورتاجات، أقيموا مواسم وأعياد وطنية ومهرجانات مهذّبة بينهم، وأكثروا من التنقّل في قراهم النائية وبصورة خاصة القرى المجاورة للحدود. درّبوهم على السلاح، سلّحوهم، وحافظوا على ولائهم الوطني، وعلى ولائهم لكم. وبهذه الوسيلة تكونون قد ساعدتم جيش الوطن، وحافظتم على المقاومة الفلسطينية، وكوّنتم نواة للمقاومة الوطنية لليوم العصيب...».

وكما كان متوقعاً من دولة وطوائف وأحزاب غاصت عميقاً في تفاصيل الحرب الأهلية، فإن خطاب الإمام لم يجد آذاناً صاغية، بقدر ما تواصل في لغة مباشرة مع أهل الجنوب، بفئاته كافة، لغة تبحث عن مقاومة كانت مفردات الإمام ومواقفه تبشّر باقتراب موعد ولادتها. وقد وضع رهانه كله على أهل الجنوب، على ضرورة وعيهم بمقاومة ذاتية، وإن كانت قليلة الحيلة، عدّة وعدداً، فإن مجرّد قيامها سوف يغذّيها من كل حدبٍ وصوب. ووفق ما يقول الإمام الصدر: «ولأننا لم نفقد أرضنا بعد، لذلك أدعو المواطنين، شباباً وشيوخاً، تجاراً وفلاحين إلى التدرّب على السلاح والمرابطة في الجنوب، فإذا التقيتم العدو اقتلوه حتى لو قُتلتم بدوركم، فإن قدرنا هو شرفنا واستشهادنا، وليس قدرنا تحمّل الذل والاعتداءات». كما نقلت عنه جريدة النهار بتاريخ ٢٥-٢-١٩٧٥.

ولم يغب عن فكر الإمام الصدر إمكانية ولوج المشروع الإسرائيلي من نوافذ الطائفية والمذهبية، مثلما لم يخصّص الشيعة بالاستهداف الإسرائيلي، لذلك أفرد خطابات ومواقف وعلاقات بغية تحويل الجنوب كله إلى مجتمع مقاوم، انطلاقاً من شمولية الخطر الإسرائيلي. وقد حذّر، وفي وقت مبكر، من حبائل إسرائيل الممدودة نحو بعض الداخل اللبناني والجنوبي، وشدّد على الوحدة الوطنية الكفيلة بمنع هذه الحبائل من إيجاد موطئ قدم لها، في أي مكان. وبهذا المعنى، خاطب أهل الجنوب عامّة في نداء نشرته الصحف بتاريخ ١٩٧٦/٦/١٤، قائلاً: "يا أبناء الجنوب، يا أيها الذين تحمّلتم الآلام قبل الآخرين، إن الخطر الأكبر الذي لا علاج له، إذا وقع، عليكم وعلى منطقتكم بالذات، وحّدوا الصفوف، ابتعدوا عن الحساسيات الحزبية والسياسية. إنكم جميعاً في أي حزب أو اتجاه، إخوان وشركاء المصير، وسوف لا يفرّق بينكم العدو. اجتمعوا في خندق واحد، بعضكم مع بعض، وقد كنتم وستبقون إخواناً، ومع المقاومة في وجه إسرائيل عدوّكم الوحيد...».

لم يكن تركيز الإمام الصدر على إسرائيل باعتبارها العدو المشترك لجميع اللبنانيين مجرّد تعبئة إعلامية بقدر ما كان تعبيراً عن توجس الإمام من قنوات الاتصال التي بدأ البعض في الداخل نسجها مع هذا العدو. ففي أي نوع من الاختراق الإسرائيلي يصبح مجتمع الصمود والممانعة مهدّداً ليس فقط في جدوى وجوده وإنما أيضاً بتبعات الانقسام في الموقف والسلوك،

وبخاصة إذا اندرج هذا الانقسام في سياق الاصطفاف الطائفي الذي أفرزته الحرب الأهلية.

ولكي يجهض محاولات الانقسام في جسم المجتمع المقاوم الأهلي في الجنوب، حذّر الإمام الصدر، مبكراً، من مخاطر اليد الإسرائيلية الممدودة نحو الشريط الحدودي تحت ستار المساعدات الإنسانية أو «الجدار الطيّب. وقبل أن يصبح هذا «الجدار الطيّب» حضوراً إسرائيلياً مباشراً في الجنوب، أطلق الإمام نداءً من القلب بتاريخ ٢٢-١٠-١٩٧٦، جاء فيه:«... علينا أن نعلم أن كل قطرة من أدوية إسرائيل هي سمٌّ زعاف يسمّم أجسامنا وأجسام أولادنا، وأن كل من يذهب إلى مستوصفاتها إنما يذهب إلى وكر الأفاعي والحيّات. علينا أن ندرك أن كل خدمة تقدّمها لنا إسرائيل وكل بضاعة نشتريها، وكل رحلة توفرها لنا هي ضربة قاضية على وطننا وتاريخنا وكرامتنا. وعلينا أن نعرف أن كل سلاح تستعمله إسرائيل باسم حماية أحدنا إنما هو طعنة تركّزها في قلب وطننا وأجيالنا الصاعدة... أناشدكم باسم الله والإنسانية، باسم لبنان، باسم المسيح والإسلام أن تتجنّبوا هذا المنزلق الكبير، وأن لا تتورطوا نتيجة للتشتّج في الهاوية. إن التعامل مع إسرائيل والاستعانة بها بأي صورة وبأي حجم حرام وغدر وخيانة. وأن الصبر على الأذى والمرض والحرمان على رغم إغراءات إسرائيل، جهاد في سبيل الله وإنقاذ للوطن...».

وفي حين كان الإمام الصدر يصول ويجول في لبنان والخارج ويطلق أكبر عملية تعبئة إعلامية بهدف تشكيل مناعة وطنية ضد المشروع الإسرائيلي في لبنان، وفي حين استنفد كل الوسائل المتاحة بهدف بناء مجتمع مقاوم يمتلك الحد الأدنى من مقوّمات التصدّي لهذا المشروع، فإنه، وفي نفس الوقت، كان يؤسّس لمقاومة وطنية ضد هذا المشروع وقبل تموضعه في الشريط الحدودي أولاً والاحتلال المباشر ثانياً. وهذا يعني، أن ضرورة قيام مقاومة كهذه لم تغب يوماً عن المسار الذي قرّر الإمام الخوض فيه بما يمليه عليه واجبه الشرعي والوطني. وبسبب من طبيعة العدو الإسرائيلي، وبسبب العراقيل الداخلية المعترضة لتوجّهات الإمام، فإن السرية طبعت جهوده الرامية إلى تأسيس المقاومة، وهو المدرِك أن السياسات التي عرقلت قيام مجتمع مقاوم سوف تكون أكثر شراسة في معارضتها لمبدأ المقاومة المسلّحة. وبالتالي لم يبق سوى الدعوى العلنية لاستخدام السلاح ضد الاعتداءات الإسرائيلية، والعمل السري لتنظيم مقاومة مسلّحة مدعومة بمقاومة مدنية شاملة وفق معادلة: مجتمع مقاوم ينتج مقاومة ويغذّيها بعوامل الانطلاق والصمود والاستمرار والانتصار. وإذا كان انفجار معسكر التدريب في «عين البنية» في ١٩٧٥/٧/٤ قد كشف الغطاء عن سرّية الجهود في بناء المقاومة، فإن خطاب الإمام حولها كان يؤشر إلى جدّية العمل لتأسيسها.

ففي هذا الخطاب يظهر الإمام الصدر أهمية السلاح للدفاع عن الجنوب، مثلما يظهر الحاجة إلى الذاكرة التاريخية والهوية المعتقدية، وهما ركنا المقاومة مثلما يكون المجتمع المقاوم حصنها المنيع. وبالتالي، فإن استحضار هاتين الذاكرة والهوية لم يكن سوى تعبير عن

فرادة الأذن الشيعية التي أصغت أكثر من غيرها لنداءات الإمام المتكررة، وقرّرت الانضمام إلى المسار الذي اختّطه منذ دقّ ناقوس الخطر الإسرائيلي على لبنان عامة والجنوب بشكل خاص. فكانت ذكرى عاشوراء مناسبة لإطلاق خطابه حول المقاومة. ففيها تلتئم المقاومة مع ذاكرة أهلها التاريخية وهوّيتها المعتقدية، وفيها تجد المقاومة أصولها، بل واجباتها، الشرعية والسياسية والتاريخية والأخلاقية.

ففي عاشوراء، في بلدة ياطر في ١٩٧٤/٢/٢، أعلن الإمام الصدر استعداده وهو «الشيخ المريض، مستعد أن أحمل البندقية وأقف معكم على الحدود»؛ وذلك لأننا نحن «حفظة لبنان» وليس فقط جنوبه، أما في عاشوراء ١٩٧٥ فقد كان صريحاً في دعوته لبناء مقاومة لبنانية ضد إسرائيل، ما يؤشّر إلى جدّية هذه الدعوة وعملية تحضيرها السري منذ ذلك الوقت. وفي هذا الصدد يقول الإمام:«... هل الخوف من اعتداءات إسرائيل لا يتطلب منا الاستعداد للمعركة وحمل السلاح؟ هل يحتاج الدفاع عن النفس إلى الاستشارات والتفلسفات والتجريدات؟ إذا لم تدافع السلطة عن الناس، فلتتركهم يدافعون عن أنفسهم بسلاحهم، كما فعل عدد من الأبطال في الطيّبة فأعطوا بريق أمل ورؤيا جديدة... إسرائيل تدبّر لنا المؤامرات ونحن نحزن الحزن المترف. واجب الإنسان، كل إنسان، أرادت السلطة أم لم ترد، أن يتدرّب ويتسلّح كعلي بن أبي طالب والحسين بن علي (ع)، وإذا لم يُجد استعمال السلاح، فذلك انحراف عن خط علي والحسين. واجب كل مواطن - وأقولها بلسان الحسين - أن يقاتل، واجبنا أن نكون مقاومة لبنانية قبل أن نشرّد في أراضينا... على كل شاب أن يتدرّب ويحمل السلاح لتأسيس مقاومة لبنانية تلقّن العدو درساً، وإذا مات منا عشرة ومنهم واحد فهذا عظيم... الدفاع عن الوطن ليس واجب السلطة وحدها، وإذا تخاذلت السلطة فهذا لا يلغي واجب الشعب في الدفاع... حركة الحسين لا تربّي أذلاّء، بل تربّي أبطالاً يرفضون السكوت عن الظلم. نحن لا نقبل أن تبقى أرضنا بلا دفاع، وعلى الحكومة أن تعلن موقفها، إما أن تدافع أو لا تدافع. والمسؤول الذي لا يعمل على حفظ لبنان ليجلس في بيته. هذه مطالبنا، ولسنا مستعدين لدفع ثمن المعادلات السياسية. ولن ننتظر أميركا أو الاتحاد السوفياتي أو الدول العربية لتدافع عنّا. إنهم سيدافعون عنّا فقط عندما نبدأ القتال. أول رصاصة تنطلق من بنادقنا ستغيّر المعادلات الداخلية والخارجية. فلنقف على أرجلنا ونتسلّح ونشكّل مقاومة لبنانية....».

يختزل هذا الخطاب، بصراحته وشموليته واستشرافه للمستقبل، ثوابت المقاومة التي باشر الإمام الصدر تأسيسها كتفعيل للمجتمع المقاوم الذي أرسى قواعده خلال سنوات نضاله في لبنان. فهي مقاومة لبنانية وطنية فوق الطوائف ومن أجلها والوطن، وهي شرعية وواجبة في الدين ومفاعيل الإيمان في السلوك والتضحية من أجل الخير العام المتمثّل في إنقاذ وطن وليس فقط في عبادة وشعائر. وبهذه الثوابت تستطيع المقاومة الانتصار، وقد انتصرت تاريخياً في أيار

عام ٢٠٠٠، وعمّقت بانتصارها وجدوى وجودها في حرب تموز عام ٢٠٠٦. ومن يغوص في مفردات خطاب المقاومة عند الإمام الصدر يكتشف جذور الانتصار الحتمي في ثنايا المجتمع المقاوم كما في الثوابت التي وضعها كمرتكزات وجودية للمقاومة نفسها، ليس فقط عشية تموضع المشروع الإسرائيلي على تخوم الجنوب، وإنما أيضاً بعد الاحتلال المباشر وما بعد التحرير.

وبلغة الإمام الصدر، فإن المقاومة مشروعة وواجبة الوجود، طالما المشروع الإسرائيلي لا يزال قائماً، وطالما لا يزال لبنان تحت التهديد الإسرائيلي.

وفي هذا السياق، يندرج انتصار المقاومة في مواجهتها للحرب الإسرائيلية في تموز عام ٢٠٠٦، ومثلها يندرج صمود أهلها ومجتمعها والأثمان الفادحة. ولم يكن انتصار المقاومة وصمود مجتمعها المقاوم أيضاً سوى دلالة على صوابية المسار الذي قاده الإمام الصدر باتجاه بناء مجتمع مقاوم، وتأسيس مقاومة وطنية على ثوابت تضعهما خارج الانقسام السياسي والاصطفاف الطائفي، مثلما تضعهما في سياق تاريخي كان يستوجب وجودهما على قدر ما يستوجب استمرارهما.

فإذا كان انتصار المقاومة وأهلها واضحاً تماماً مثلما هي واضحة ضرورات استمرارها، فإن مؤسّسها ينتظر تحريراً طال انتظاره، وهو الشيخ المريض الذي أعلن يوماً استعداده للمرابطة على ثغور الجنوب، لا يزال شيخاً مريضاً بعيداً عن أهله ومقاومته في سجن عربي؛ قد يكون عالماً بما صنعت يداه على أرض الوطن، بل قد يكون بحاجة إلى من يفك الأغلال عنهما ويعيده إلى هذا الوطن الذي من أجله ذهب في رحلة رسمية ولمّا يرجع بعد؟!

حــرب تمــوز ٢٠٠٦ :
حقيقــة انتصــار المقاومــة و عواملــه

العميد الركن: د.أمين حطيط (لبنــان)

١- مفاهيــم عامــة :

في العلم العسكري يقاس النصر أو الهزيمة بالنظر إلى صفة الجهة المحاربة وأهدافها. فاذا كان المحارب في موقع الهجوم فانه يعد منتصرا إذا حقق في هجومه أهدافا كان قد وضعها لنفسه وحددها قبل الانطلاق بهذا الهجوم. و تكون هذه الاهداف مادية أي أن تبلغ نقاطاً مجسدة على الارض بما يكرس حصولها و التحقق من ذلك بالمراقبة والحس، و تكون معنوية إذا تمكن المهاجم من كسر إرادة المدافع إلى الحد الذي يملي فيه عليه شروطه فينصاع له أو يذعن لإرادته .. و يكرس الربح المادي في الحروب عادة باحتلال الارض و السيطرة على الثروات، أما الربح المعنوي فيتمثل بالسيطرة على القرار وإملاء السلوك و التصرف. وإذا اقتصر النصر على الوجه المادي فانه يعتبر ناقصا غير مستقر لان من لم تكسر إرادته و يخضع قراره يستطيع ان ينغص على المحتل نصره، و يهدد استقراره في احتلاله ... واغتصابه، لذا يجهد المحتل او المهاجم المنتصر الى تجسيد نصره المادي بوثائق و معاهدات يسلم له المهزوم بنتائج الحرب و يقر على نفسه بالهزيمة .

أما نصر المُدافع فانه يكون و بكل بساطة في منع تحقيق المهاجم لأهدافه التي انطلق الهجوم اصلا من أجلها، أو التي استجدت أثناء الحرب تطويراً لها وتفعيلا للمطامع والأهداف. ويكون النصر تاما إذا منع المهاجم من تحقيق أي كسب مادي أو معنوي له علاقة بالأهداف التي وضعها لنفسه أساسا او استلحاقا ضمن المهل التي حددها لنفسه، و يكون نصر المدافع جزئيا اذا منع المهاجم من تحقيق بعض أهدافه، أو أخر في الوصول إليها ضمن المهلة التي حددها ... و تكون هزيمة المدافع كلية ان استسلم للمهاجم و انصاع لارادته كليا و تركه يتنعم بنتائج حربه ، و تكون الهزيمة غير نهائية، ان لم تكسر الارادة ولم يحصل التسليم بعد خسارة الارض و الثروات والفشل في منع المهاجم من تحقيق اهداف هجومه.

وتخضع الحروب لقواعد عامة أرسيت بشكل تقليدي في تقدير نسب القوى المهاجمة الى

القوى المدافعة من حيث العدد، كما و تقدير القدرة العسكرية العامة الشاملة لهذا الفريق او ذاك ثم مقارنتهما (قوة المهاجم و المدافع) ليكون هناك تحسب وترقب وتقدير لامكانية خوض الحرب و ربحها. فالمهاجم مثلا لا يقدم على هجومه ان لم يكن قد حضر من القوات وفي الحد الادنى عددا يفوق القوات المتوقع استعمالها في الدفاع بثلاثة اضعاف (مدافع واحد يقابله ٣ اشخاص مهاجمين) وكذلك لا يقدم مدافع على الثبات في الارض إذا تخطى حجم القوة المهاجمة ٥ اضعاف حجم القوة المدافعة مع غلبة نارية للمهاجمين، هنا يلجأ الى نمط آخر من القتال يطلق عليه مناورة التأخير و يكون قصد المدافع فقط كسب الوقت و منع المهاجم من تحقيق اهدافه في المهل التي خطط هجومه على أساسها.

ويبقى الدفاع و وفقا لمبادئ الحرب التقليدية، أو الحرب غير التقليدية محكوما بالارض وما تقدمه من مزايا للمقاتل تسهل مهمته أو تعقدها وفقا للطبيعة و الحالة.

وفي دمج المفاهيم كلها ، توصف النتائج في الحروب بأنها عادية ومعقولة و منطقية إذا توافقت مع القواعد المعتمدة و التطبيقات الممارسة، و توصف بأنها غير مقبولة أو غير منطقية اذا توفرت شروط النصر و لم يتحقق ، هنا يبحث عن المُنفذ أو العنصر الانساني الذي يكون قد أهدر الفرص التي توفرت، لكن الاخطر من ذلك و الذي يستحق التوقف عنده، هو حالة تكون فيها شروط الهزيمة قد توفرت، ثم و من غير تفسير مادي أو حسي أو عقلي مقبول، تنقلب النتائج السلبية التي ينتظر أن تشكل الهزيمة القطعية، تنقلب إلى إيجابية ويظهر النصر من غير التباس ... في هذه الحالة يتعطل العقل عن تقديم تبرير للنتائج تلك، لانها تكون أصلاً قد خرجت عن قواعد قياسه و موازينه .. هنا يتنوع الباحثون في تسمية أو توصيف النصر الخارق للعادة أو الخارق للقواعد المألوفة، فتوصف الحالة من قبل البعض بأنها صدفة خارقة للطبيعة لا تتكرر حتى لو تكررت ظروفها، و يصفها من يؤمن بالله بانها عمل إلهي إعجازي، يتدخل الله لاحداثه خارج الأسباب، لأن الله هو الذي خلق أسباب الاشياء، ويبقي فوق ما خلق وهو الذي يمكنه أن يخلق بهذه الأسباب فيكون خلقه معقولا يدرك، و له أن يخلق او يحدث أمراً خارج هذه الأسباب فيكون الحدث في تفسيره إلهياً لا يقوى العقل على إدراكه أو تبريره، و لايملك المرء إلا التسليم به كونه خارقاً أو إعجازاً لا يقدر عليه إلا الله.

و بالاختصار نقول ان للحروب ولتقدير نتائجها قواعد وأسس فاذا كانت النتائج مستجيبة لتلك القواعد والأسس قيل إنها منطقية معقولة، وإن خرجت عنها وصفت بأنها خارقة غير معقولة، وهنا تدور تسميتها بين الصدفة لدى الماديين و الالهية لدى الذين يؤمن بالله و بقوته المطلقة.

٢- حيثيات حرب تموز ٢٠٠٦ و نتائجها.

أ. الأهداف المعلنة والمضمرة: بعد أن يئس حزب الله - الحزب اللبناني الذي نظم

المقاومة الاسلامية في لبنان – بعد أن يئس من أي فعل دولي أو رسمي لبناني من شأنه أن يؤدي إلى تحرير الاسرى اللبنانيين في سجون إسرائيل، لجأ الى الاسلوب الذي لا تفهم إسرائيل سواه: القوة، فكمنت مفرزة من مقاتلي المقاومة عاملة قرب الحدود مع فلسطين المحتلة وأسرت جنديين اسرائيليين في ١٢ تموز ٢٠٠٦، وأعلن أمين عام الحرب السيد حسن نصرالله مباشرة بعد انتهاء العملية و التحقق من وصول الأسيرين إلى مكان آمن يصعب الوصول إليه، أعلن انه على استعداد لمبادلة الاسرى و تحرير من تعتتقلهم إسرائيل في سجونها . اعرضت اسرائيل عن العرض، وقررت ان تستعيد أسراها بالقوة العسكرية، وانطلقت بعد ساعات على العملية، وشنت حرباً شاملة ضد المقاومة والبنية التحتية و الشعب اللبناني، لاجبار حزب الله على الاذعان لها، وبعد ساعات من انطلاق الهجوم الاسرائيلي، أعلنت أميركا ومن بعدها إسرائيل أن حرباً بدأت في لبنان ضد حزب الله، و أن أهداف الحرب تتخطى الجنديين الأسيرين (الذين بدا بعد ايام على بدء العمليات العسكرية ان شأنهما مسألة هامشية لا دور لها إلا في تقديم السبب المباشر للحرب) أن الأهداف الحقيقة للحرب تتمثل فيما يلي :

- تطبيق القرار ١٥٥٩- ٢٠٠٤، اي نزع سلاح حزب الله الذي هو بنظر أميركا منظمة ارهابية، و بتوصيف اتباعها من محليين و اقليميين مليشيا مسلحة فرض اتفاق الطائف للعام ١٩٨٩ نزع سلاحها .

- حل حزب الله بعد إخراجه من الحكم، و جعله عبرة لكل فئة تتجرأ على قتال إسرائيل أو تفكر بممانعة المشروع الاميركي في المنطقة.

- إقامة الحكم الأميركي التام في لبنان. ومنع أي مشاركة لأي فريق وطني يمانع استئثار الفريق التابع للاميركي بالسلطة. أي استعادة صورة العام ١٩٨٢.

- فتح الطريق امام أميركا لصياغة الشرق الأوسط الجديد، ليكون المستعمرة الأميركية الخالية من الأنظمة الممانعة، والفئات المقاومة التي قد تنظمها الشعوب. وهنا تبدى المظهر الأكثر بشاعة من الأهداف حيث ظهرت نية لدى المعتدي لاحداث تغيير ديمغرافي في لبنان يرمي إلى معاقبة الفئات التي نظمت المقاومة ضد اسرائيل، وطردها من أرضها في الجنوب(قاعدة المقاومة القائمة على تماس مع حدود فلسطين المحتلة)، والبقاع (الذي شكل الخزان والظهير والعمق الاستراتيجي للمقاومة)، طرد السكان المانعين وإحلال عرب آخرين مكانهم أو إبقاء الجنوب أرضا من غير شعب يسهل على إسرائيل بعدها التمدد فيه للوصول إلى الليطاني.

ما يعني أن الهدف الحقيقي للحرب هو إحكام القبضة على لبنان وقرار لبنان عبر نزع سلاح المقاومة بعد هزيمتها في الحرب ثم حلها والاطاحة برئيس الجمهورية، وفرض رئيس تابع لأميركا. وهو أمر أن تحقق سيقود بنظرهم وبشكل حتمي إلى تغيير في سوريا يعقبه تغيير في إيران، ليقوم الوضع الملائم لأميركا في مشروعها العام للشرق الأوسط.

ب النتائج المحققة: بعد ٣٣ يوما من القتال، أوقفت العمليات الحربية بقرار من مجلس الامن (القرار ١٧٠١) نص على تعزيز قوات اليونيفل في جنوب لبنان ، وخلق منطقة خالية من السلاح غير الرسمي بين نهر الليطاني والحدود الدولية بين لبنان وفلسطين المحتلة - الخط الازرق الذي رسم في العام ٢٠٠٠ - و حصر دخول الاسلحة إلى لبنان بالسلطة الرسمية اللبنانية وتكليف الأمم المتحدة بمؤازرة الجيش اللبناني في عملياته في الجنوب لبسط سلطة الدولة. وفي دراسة معمقة للوقائع المثبتة، والنتائج المحققة نصل إلى ما يلي :

- الأسرى الاسرائيليون: توقفت العمليات العسكرية، واستمروا أسرى بيد حزب الله، وجل ما قدمه القرار ١٧٠١ هو التأكيد على وجوب اطلاقهم، وهذا امر نظري، أما الشيء العملي فهو التفاوض على ذلك مع حزب الله من قبل الامين العام للامم المتحدة، ما يعني أن ما كان قائما قبل الحرب بشأن الاسرى استمر هو ذاته بعد الحرب، اي ان الهدف المباشر الذي وضع للحرب لم يتحقق، و هذا يعني فشل - أي هزيمة المهاجم - إسرائيل في حربها لهذه الناحية.

- سلاح المقاومة، قبل الحرب كان القرار ١٥٥٩ ، ووفقا للتفسير و الضغط الأميركي، يفرض نزع سلاح حزب الله باعتباره ميليشيا ، بعد الحرب اقتصر النص في روح القرار ١٧٠١ على عدم ظهور السلاح في منطقة جنوبي الليطاني، فضلا عن واقع مأسوي بالنسبة لإسرائيل يتمثل بتحققها وبالملموس من الأمر أن مهمة نزع السلاح هذا هي مهمة مستحيلة من قبل أي قوة عسكرية، هي أو غيرها في هذا العالم. ويكون الفشل هنا هو العنوان الثاني للهزيمة الإسرائيلية.

- القبض على مقاليد الحكم في لبنان باليد الأميركية: قبل الحرب كانت الطائفة الشيعية تشارك في الحكومة اللبنانية عبر ممثليها الذين انتخبوا من الشعب وتمنحها بمشاركتها تلك المشروعية الدستورية و الميثاقية، أما وزن المشاركة في القرار الرسمي فقد كانت تقرب من العدم أو قل مشاركة هامشية، إذ أن أميركا استطاعت أن تقبض على قرار رئيس الحكومة والفئة التي ينتمي لها، و هي تملك تلثي الأصوات في مجلس الوزراء و الأكثرية المطلقة من مجلس النواب، ما يعني أن القرار الرسمي اللبناني كان بصورة شبه كاملة بيد أميركا، ولم يكن دور لرئيس الجمهورية أكثر من تأخير نفاذ القرار لمدة ١٥ يوما في المراسيم وشهرا في القوانين، ووصل أمر الحكم في لبنان إلى حد اعتبر فيه رئيس الحكومة هو الذي يقود شعبه، وتخطى الوصف ذاك كل النصوص والمبادئ الدستورية المعمول بها عندنا ... وبعد الحرب اسقطت شرعية الحكومة، وأقفل مجلس النواب في وجهها، وبات القرار الرسمي اللبناني فئويا مطعون بشرعيته، إلى الحد الذي أعلن فيه أن كل قرار يتخذ سيعاد النظر فيه من نفطة البدء. أي أن الهدف الرئيسي من الحرب لم يتحقق أصلا ، وأكثر من ذلك لم يستطع المهاجم ومن وراءه حماية الوضع الذي كان قائما قبل الحرب، وهنا تكون الهزيمة مضاعفة، هزيمة كمهاجم عجز عن بلوغ أهدافه، وهزيمة كمدافع عجز عن حماية ما كان بيديه.

- إضافة الى هذه الامور، فقد نجحت المقاومة في تحريك مسائل منسية لدى الأمم المتحدة، اهمها موضوع مزارع شبعا، التي كلف الأمين العام بالبحث عن حل يعالج أمرها، ومسألة الاسرى اللبنانيين الذين أدرجت قضيتهم في القرار ١٧٠١، و تمسك حزب الله بما لديه من اسرائيليين اسرهم للمبادلة، و كذلك قضية خرائط الالغام و ما اليها من مسائل عالقة.

أما النقاط التي تستطيع إسرائيل الادعاء بانها لمصلحتها أو أن فيها إيجابيات لها، فيمكن حصرها بما يلي:

- استقدام بحرية أوروبية لفرض مراقبة على الشواطئ اللبنانية، ومنع تزويد حزب الله بالسلاح، و في هذا الامر ربح شكلي و خواء جوهري، إذ إن حزب الله لم يعتمد على ما يظن، على البحر للتموين، و كذلك لا ينكر أحد مقدرة البحرية الإسرائيلية على اعتراض السفن الناقلة للسلاح.

- اعتبار تزويد حزب الله بالسلاح عملاً يخالف قرارات الشرعية الدولية، و في ذلك إسقاط لمشروعية المقاومة بشكل غير مباشر. وهنا نذكر بأن أميركا زعيمة الغرب والمتسلطة على ما يسمى المجتمع الدولي لم تعترف يوما بالمقاومة في أي نقطة من العالم، ولا يكون التنكر لشرعية المقاومة هنا بشيء جديد على ذوي الشأن.

- اعتبار المنطقة جنوب الليطاني منطقة محظورة على السلاح غير الرسمي، وهنا نميز بين النص، وبين التطبيق، وإذا تذكرنا واقع سلاح المقاومة والتدابير المتخذة لإخفائه أصلاً علمنا أن هذا الأمر ليس ذي قيمة عملية.

وبالمحصلة نقول، أن كل الاهداف التي وضعتها إسرائيل، وتاليا أميركا للحرب على المقاومة في لبنان، لم تتحقق وبقي حزب الله ولم يحل، و بقيت المقاومة ولم ينزع سلاحها، وأعطيت إسرائيل من التعويض اللفظي في القرار الدولي ما لا يسمن و لا يغني من جوع، والأهم من ذلك أن الطريق إلى الشرق الاوسط الجديد الذي تريده أميركا لم تفتح بل بات سلوكها بعد الحرب أصعب بكثير مما كان قبله، وهنا نتوقف كيف علت نبرة سوريا و إيران في وجه أميركا، إذ بعد أن كانت أميركا خططت لاستبعاد هاتين الدولتين عن مسرح الشرق الاوسط، وكان النموذج في مؤتمر روما خلال الحرب، باتت أميركا بعد الحرب تلهث وراءهما لحوارهما بحثا عن مخرج لمأزقها في العراق على الأقل. أي باختصار نقول هزمت أميركا صاحبة القرار بالحرب، وهزمت إسرائيل التي هاجمت ونفذت العمليات في الميدان، وانتصرت المقاومة، وهنا نسأل ما هي العوامل التي أدت الى هذا الانتصار؟

٣- عوامل الانتصار المتعلقة بالمقاومة ذاتها:

في تحليل للمواجهات التي جرت بين المقاومة و اسرائيل في الفترة ما بين ١٢تموز و ١٤ آب ٢٠٠٦، يستطيع الباحث أن يصنف هذه المواجهات تحت عناوين عدة يستخلص من كل عنوان

عاملاً أو اكثر أدى إلى النتائج التي تمخضت عنها و المتمثلة بنصر للمقاومة.

- **عوامل أفشلت اهداف القصف الجوي الإسرائيلي التدميري:** استندت إسرائيل على طيرانها الحربي لتنفيذ المرحلة الاولى من الحرب، و قد شنت غارتها الجوية على بنك من الاهداف كان قد حضر مسبقا من ٤٠٠ هدفا. وقد رمت العمليات الجوية الى تدمير مراكز القيادة و الاتصال و الإعلام، و شبكات الطرق والجسور، أي أن الهدف المركزي هنا كان ضرب المقاومة في منظومة القيادة والسيطرة والاتصال والانتقال، ثم تابع الطيران على أنواعه ملاحقة كل شبح أو صورة أو حتى وهم يعتقد إنه هدفا عسكريا، أو قد يخدم المقاومة- مركزقتال، او قاعدة اطلاق صواريخ ، أو شاحنة تموين، أو تجمع سكاني يظن بوجود مقاومين فيه - والغاية كانت تقطيع أوصال المقاومة وشل حركتها و منعها عن القتال ولكن فشلت إسرائيل في تحقيق اي من هذه الأهداف الميدانية والتكتية ومرد ذلك إلى العوامل التالية:

- التنظيم المرن المتماسك للمقاومة، وهنا نتوقف عند مرونة التنظيم التي نعني بها اعطاء قدر من صلاحية التصرف الذاتي للخلية المقاومة في حال قطع اتصالها بالقيادة، وهذه الامر لا يتم في التنظيمات عادة إلا إذا كان التنظيم قد بلغ درجة متقدمة من التأهيل العقائدي والمهني والميداني للفرد، بحيث يطمئن الرئيس إلى سلوك مرؤوسه في حال الانقطاع عنه، فيمنحه صلاحية التصرف، وهنا يكمن الخلاف الشاسع بين تنظيم تحكم الثقة علاقة أعضائه، واخر تفتقد الثقة فيما بينهم، حيث يحصل في الحالة الثانية الشلل التام للمجموعة التي تنقطع عن قادتها، اذ لا تكون منحت في الأصل صلاحية التصرف، و لا تجرأ على تصرف مستقل خوفا من الخطأ والعقاب. وهنا نقول نجحت المقاومة في التنشئة التنظيمية لعناصرها وأحدثت التماسك بينهم حتى و في غياب الاتصال المباشر، وفي هذا النجاح كان فشل للعدو في إحداث الفوضى والاضطراب نتيجة قطع التواصل بين الرأس والقاعدة

- شجاعة القيادة وبعد نظرها و ميدانيتها: تبدو هذه الخصائص في مواطن عدة ، يذكر منها:

- ***اولاً سرعة تخفي القيادة والانتقال من أماكن الحياة العادية في المكاتب والمنازل*** المعتلمة والتي حددت في بنك الاهداف، إلى أماكن حماية وقيادة ميدانية عجز العدو عن تحديدها رغم كل ما استعمله من وسائل المراقبة والجاسوسية والمساعدة المحلية أيضا في بعض الحالات. وقد عطل هذا الأمر على العدو فرصة النيل من القيادة، واستمر القادة الأساسيون من سياسيين أو عسكريين أو مندمجي الصفة، في مهامهم يضطلعون بمسؤولياتهم من غير أي تبديل او تعديل ما يعني القول بأن الطيران فشل في قطع رأس المقاومة وعزله عن الجسم.

ثانيا اعتماد طرق الانتقال والاتصال الميدانية البديلة لبقاء القائد على مقربة من المقاوميين، وقد تردد الكثير الكثير عن الاداء الميداني للقادة من غير اعتبار للهرمية والرتبة. و

يكون العدو رغم تعطيله للطرق و مراقبته الجوية الدائمة قد فشل في عزل القيادة عن قاعدتها، حيث تمكنت القيادة من الانتقال إلى الميدان وحافظت على سيطرتها عليه. وهنا لفت المراقبين استقرار النمط في القصف الصاروخي، ثم اعتماده بوتيرة تصاعدية، ونحن نعلم أن هذا الشأن لايكون إلا إذا كانت السيطرة تامة من قبل القيادة على الميدان، إذا يسجل في التاريخ العسكري وجوه الفوضى والتداخل والارتباك عندما تبعد أو تنقطع الاتصالات بين القيادة والقاعدة.

ثالثا: الجهوزية الميدانية والتحضير اللوجستي المسبق: رغم كل أعمال القصف والتدمير التي نفذها العدو فإنه لم يستطع وقف إطلاق الصواريخ، أي أنه لم يستطع وقف الحركة اللوجستية والتموينية للمقاتلين، ولهذا دلالة واضحة تتمثل في توزع مخازن ومستودعات الذخيرة وبشكل ذكي ارتقب أصحابه هذا الوضع وأفشلوا مفاجأة العدو لهم في قطع طرق التموين. ويضاف هنا قدرة فائقة في تمويه وإخفاء تلك الأماكن والطرق المؤدية إليها وهذا يندر حصوله في الحروب وهو يؤشر إلى براعة غير عادية في هذا الشأن.

- عوامل أفشلت تحقيق أهداف المواجهة البرية: هنا يمكن أن نسجل من العوامل التي أدت إلى النصر في الميدان ما يلي:

١- **المقاتل:** نتوقف هنا عند عوامل عدة تتعلق بالمقاتل:

- ***الوضع المعنوي:*** هو المفتاح المدخل الذي يمكن الدخول عبره إلى رجال المقاومة الإسلامية (رجال الله كما أطلقت التسمية عليهم). فقد تميز المقاوم بشحن معنوي غير مألوف، شحن مرتكز الى عقيدة دينية تملي على من يواجه العدو أن لا يوليه دبره وينسحب من المعركة إلا للانتقال الى موقع قتال آخر، وأن يستمر في القتال حتى إدراك إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، و بالتالي ووفقا للدراسات العسكرية يقدر المقاتل الذي يملك مثل هذا الشحن المعنوي، ب ٥ مقاتلين ذوي معنويات عادية .. وفي الوصول إلى مثل هذا المستوى من المعنويات يبدو العامل الديني الايماني العقائدي حاسما من غير شك.

- ***الوضع البدني:*** تميز المقاومون بإعداد بدني متقدم جعلهم أصحاب طاقات هائلة على التحمل والصبر. فقد ذكر الكثير عن تحملهم للجوع أو العطش أو السهر وفقا لما تقتضيه ظروف المعركة والمواجهة، ولم يكن ذلك لانعدام المؤنة والمياه، حيث ذكر الكثير عن التحضيرات المسبقة والوجبات الكاملة أو الساخنة، بل للضيق في الوقت ورغبة في النيل من العدو بأفضل السبل وأعلى درجات الاصابة وتحقيق الأهداف. فقد يتأخر العدو عن الدخول في منطقة الكمين مثلاً لأكثر من الوقت المتوقع، وتنفد المؤنة المحمولة، فيفضل المقاتل الاستمرار في الانتظار بدل ان يترك الموقع ليذهب للأكل أو الارتواء بالماء.

- ***الكفاءة القتالية:*** إن أهم ما يعول عليه في إعداد المقاتل غير التقليدي أو ما يعرف بحرب العصابات أمرين: إعداد المقاتل المتعدد الاختصاصات، وإعداد الرامي القادر على الإصابة من

الطلقة الأولى، وقد برعت المقاومة الاسلامية في هذا المجال وجاء أداء مقاتيلها متقدما جدا في تطبيق هذه القواعد، و لهذا دلالة هامة تشير إلى المستوي المهني أو الاحتراف العالي المستوى الذي بلغه رجال المقاومة ميدانيا.

٢- السلاح: لقد أظهرت حرب تموز ان المقاومة درست جيدا أسلحة العدو، و حللت أماكن ضعفها وقوتها، ثم أعدت السلاح المناسب لتدميرها او تعطيلها و هي بهذا الامر تخطت ما يعرف، في سلوك العصابات، لتقوم بما ينسب إلى الجيوش النظامية التي تدير وكالات الاستطلاع وأجهزة التحليل ومقرات التصنيع والمعالجة .. فقد درست مثلا دبابة الميركافا التي تعد مفخرة الصناعة العسكرية الاسرائيلية واحدى أهم أربع دبابات في العالم، وأعدت لهذه الدبابة الصاروخ الذي نال منها و دمرها ودمر غرور إسرائيل و فخرها بها. و الأمر ذاته تكرر مع البارجة ساعره والطيران المروحي. أما الشئ الأهم الذي خرجت فيه المقاومة عن النمط غير التقليدي أو عن قتال حرب العصابات فقد تجلى باستعمالها للصواريخ بر - بر التي طالت العمق الاستراتيجي الإسرائيلي وجعلت مليون إسرائيلي خارج مقرات منامتهم، وعملهم وألقت بعبئهم على حكومة العدو وضيقت عليها هامش المناورة أثناء البحث عن مخرج من الحرب بعد تحقق الهزيمة في الأيام العشرة الأولى... ويكون السلاح المعتمد من قبل المقاومة والملائم للنيل من أسلحة العدو أحد العوامل الرئسية التي خطت النصر، وأفشلت العدو.

٣- المنـاورة: نجحت المقاومة في اعتماد أنواع مختلفة من المناورات الميدانية، وجمعت بين بعض خصائص القتال غير التقليدي من تنظيم خلايا المقاومة ذات الكفاءة العالية والسريعة الحركة و القادرة على نصب الكمائن و الاغارة، و تجهيز الأفخاخ وعمليات التضليل وتشتيت الجهد والارهاق ونشر الرعب والقلق في نفوس جنود العدو، وبعض خصائص القتال التقليدي خاصة لجهة الثبات في الارض والقتال في مراكز محضرة مسبقا والأهم من ذلك إبداء مهارة عالية جداً في استعمال القوة النارية الصاروخية التي كسرت أهم قاعدة في العقيدة العسكرية الاسرائيلية، والتي تتمثل بمبدأ نقل المعركة إلى أرض العدو، وجعل «أرض إسرائيل» بمنأى عن نيران المعارك. لقد استطاعت المقاومة بنيران صواريخها أن تقلب معادلة طالما تغنت إسرائيل بإرسائها، تقول بأن جيش إسرائيل يحارب في الميدان و عمالها يعملون في الحقول والمصانع، وإذ بصواريخ المقاومة تعطل عمل هؤلاء وتحدث الاضطراب في عجلة الانتاج، لتفاقم الخسائر الاسرائيلية في الحرب إلى ٣،٥ مليار دولار أميركي، مقابل ٣،٢ مليار دولار خسائر لبنان. لقد نجحت المقاومة في ابتداع نمط ثالث من القتال ليس بتقليدي محض ولا بغير تقليدي خالص، بل إنه نمط قتال المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان.

٤- الأرض: لقد اعتنت المقاومة بتجهيز الأرض وتحضيرها لتلائم مناورتها القتالية، وبرعت في حفر الخنادق المموهة والأنفاق والملاجئ والمخابئ وغرف الاستراحة ومخازن

الذخيرة وشبكات الاتصال الميدانية. وقد أدى ذلك إلى إدامة التموين وتوفير فرص القتال الناجح والاقل خطرا، إضافة إلى مردود معنوي فظيع إذ أن العدو كان يصاب بالصدمة والذهول عندما كان يفاجأ بنار تطلق من بين الصخور أو من بين أغصان الأشجار، أو رصاص ينهمر من حيث لا يتوقع أحد إلى الحد الذي ظن جنود العدو بأن أشباحاً تقاتلهم ولا يستطيعون الإمساك بها، وظن بعض «المتدينين» الذين يؤمنون بعالم الغيب منهم بأن الله أرسل جنوداً من الملائكة لتساعد هؤلاء المقاوميين، عندها تيقنوا بأن حربهم خاسرة فثبطت عزيمتهم عن القتال، بعد أن انهارت معنوياتهم وخارت قواهم لرعب وخوف لا علاج لمصدره، إلا إلقاء السلاح والتخفي والابتعاد عن المواجهة أو يكون الاستسلام للموت الذي لا مفر منه.

٥- **القيادة:** يجب أن يسجل لقيادة المقاومة عامة، ولقائدها الأمين العام لحزب الله خاصة دوراً تاريخياً في الانتصار، ويمكن أن نقول وبكل ثقة إن النصر ثمرة عزيمة المقاتل واحترافه وحكمة القيادة وبعد نظرها وثباتها ورباطة جأشها. وقديما قيل إن جيشا من الأرانب يقوده أسد يغلب جيشا من الأسود يقوده أرنب، و في المقاومة الاسلامية ظهر الجيش من الأسود الذي يقوده أسد، فكان حقيقة الجيش الذي لا يقهر، والذي قهر الجيش الذي كان يسمى أو يوصف بأنه لا يقهر. و قد تجلت العناصر البارزة في أداء القيادة بمسائل لا يمكن إغفالها ونذكر منها :

- ***الجهوزية الدائمة،*** الملفت أن قيادة المقاومة بدت ومنذ اللحظة الأولى جاهزة في موقع القرار وقادرة على اتخاذ القرار، وجاهزة لمواكبة كل حدث وفقاً للمستجد، فعندما أسرت الجنديين، قالت إنها جاهزة لمفاوضات التبادل، وعندما قدرت بأن العدو أراد الحرب، أجابت وبقرار جديد فلتكن حربا مفتوحة.

- ***الكفاءة الميدانية:*** لم تكن قيادة المقاومة بعيدة عن الميدان ولم يبتعد السياسي عن شؤون العسكر، إذ كان حضور القادة في الميدان ملفتا ورافعا للمعنويات وضابطاً لايقاع العمليات من غير عرقلة لا تبرير لها، ولا تسريع وفوضى يندم عليها. وكان لأمر العمليات الذي أصدره أمين عام الحزب من على شاشات التلفزة وأمر به بقصف البارجة ساعر٥ التي كانت تحاصر الشاطئ مقابل بيروت دلالة بالغة لدى المراقبين أدناها القول بأن القائد يمسك إلى الحد الاقصى بزمام الميدان، وأنه يثق بقدرات مقاوميه ثقة لا تحد، وأن المقاوميين يثقون به من غير حدود تقف عندها تلك الثقة وما ذلك إلا لانهم يعرفون مؤهلاته و مزاياه.

- ***الحكمة،*** والثبات على الموقف، والقدرة على التحكم بالموقف والسيطرة الدائمة على الوضع. لقد لفت المراقبين، كيف أن معدل القصف الصاروخي كان مستقراً يوميا على ١٠٠ تقريبا، وعندما اوقفت المقاومة القصف ليومين بعد أن أعلن العدو من جانب واحد نيته وقف القصف الجوي لمدة ٤٨ ساعة، عادت المقاومة وعوضت ما فاتها وأطلقت في اليوم الثالث ٢٠٠ صاروخاً على أهداف منتقاة بعناية حتى تقول للعدو وبصورة غير مباشرة إن كل شيء تحت

السيطرة.

- *المصداقية:* استطاعت قيادة المقاومة أن تكسب ثقة الجميع بمصداقيتها إلى الدرجة التي بات فيها مجتمع العدو ينتظر بيانات المقاومة وخطب أمينها العام ليعرف الحقيقة بعد أن فقد المجتمع الإسرائيلي ثقته بقيادتها.

لقد تميزت قيادة المقاومة بخصائص قل أن اجتمعت في قيادة واحدة كلها، و يجب أن لا ننسى التنويه بالخصائص الإيمانية والعقائدية والفقهية التي حكمت سلوك القيادة في كل قراراتها ما جعل الثقة بها حبلاً لا ينقطع وجعل الطمأنينة إليها وإلى وعودها لا تتزعزع. وكان التصديق بكلامها أمرا مفروغاً منه عند المقاومين والناس العاديين ..

ج- عوامل عامة مشتركة:

- اعتماد أسلوب المفاجأة في القرار والمناورة واستعمال السلاح. لقد برعت المقاومة في هذا الشأن الى الحد الذي يصدق فيه القول بأن الحرب كانت حرب المفاجآت المتواترة المضطردة التي قدمتها المقاومة وعلى كل الصعد.

- *الحرب النفسية.* لقد نجحت المقاومة في خوض الحرب النفسية وببراعة متقدمة، ونفذتها على وجهيها السلبي والايجابي، فقد نجحت في تعطيل أهداف الحرب النفسية التي نظمها العدو، وحصنت مقاوميها و مجتمعها من اثارها، كما أنها شنت حربا مضادة نجحت في تحقيق أهدافها وألقت بآثارها في نفوس العسكريين والمدنيين الاسرائيليين على السواء.

- *الاعلام المقاوم.* تميز أعلام المقاومة بخاصتين غير مسبوقتين في الحروب عادة. لقد حافظ على موضوعيته واستمراريته، وبقي حاضرا في المعركة ينقل الخبر ويحلل ويفسر ويقدم الصورة الصحيحة للمواطن والمتابع للشأن. وقد كان لاستمرارية البث من قبل محطات إعلام المقاومة رغم التدمير الكلي الذي أوقعه العدو بها، بالغ الأثر و في اتجاهين: لجهة العدو إحباط وخيبة، ولجهة جمهور المقاومة والمراقبين تقدير واعتزاز بمستوى الجهوزية والتحمل.

د. تقييم عام: رغم كل ما ذكرناه من عوامل متعددة استجمعت في أداء المقاومة و حققت لها انتصارها، إلا أن هناك أمورا بقيت من غير تفسير موضوعي أو منطقي وفقاً لقواعد المتبعة في تقويم نتائج المعارك العسكرية، منها على سبيل المثال صمود عدد من المقاوميين في تلة مارون الراس لمدة ثلاثة أيام أمام هجوم بري مدرع نفذه العدو لأكثر من مرة و من أكثر من اتجاه ورغم ذلك استطاع هؤلاء الرجال الذين قيل أن عددهم لا يتعدى العشرين أن يصدوا هجوم كتيبة دبابات تعدى أفرادها ال ٣٠٠، وأسندت بالطيران والمدفعية، كذلك الحال في معركة بنت جبيل ومعركة عيثا الشعب. والأكثر صعوبة في التفسير هو ما جرى في وادي الحجير حيث إن العدو كان بإمكانه أن يقلب نتائج الحرب رأسا على عقب لو استطاع أن يربح تلك المعركة ويصل إلى مياه الليطاني على بعد أقل من ٥،٢ كلم من الوادي، لكن هناك شيء ما حصل ولا يفسر، قاد العدو إلى

خطيئة مميتة في اختيار ارض المعركة و محور التقدم، و مكن المقاوميين الذين قاتلوا لمدة ٣١ يوما من غير انقطاع، مكنهم من هزيمته وتدمير مدرعاته و ثبيت نتائج الحرب نصرا للمقاومة. هنا يكون التفسير عبر اللجوء إلى الشيء الخارق للعادة، والذي يسمى لدى المؤمنيين بالتدبير الالهي أو المدد أو التسديد الإلهي.

٤- دور الجيش اللبناني.

يعتبر اداء الجيش اللبناني، رغم القدرات التسليحية والتجهيزية المحدودة يعتبر من العوامل المؤثرة في صنع الانتصار وحماية المنجزات الميدانية وقد لعب الجيش أثناء الحرب دورين هامين داخلي تمثل في حفظ ظهر المقاومة ومنع تشكل حالات الإرباك لها، وميداني تجلى بصورة خاصة في حماية الشواطئ وثبات المواقع العسكرية في الجنوب التي شكل وجودها لاحقاً قاعدة يستند إليه في الانتشار جنوبي الليطاني، أما الدور الذي ينبغي أن لا يغفل فقد تمثل بتصدي الجيش لمحاولات تجاوزه وصولا إلى الاستغناء عن دوره وتكليف قوات متعددة الجنسيات بمهمة الانتشار في الجنوب بمفردها، هنا يسجل لقيادة الجيش سرعة المبادرة والإعداد لاستدعاء الاحتياط وتوفير العدد المطلوب من الجنوب لإنجاح الانتشار في الجنوب.

٥. دور الشعب ومجتمع المقاومة كعامل من عوامل الانتصار المتكامل.

لقد افشل شعب المقاومة أهداف العدوان في مجال التغيير الديمغرافي، وتحدى إسرائيل ورغبات آخرين في إبقاء النازحيين خارج ديارهم. و تجلت سلوكات الشعب في أمرين أساسيين، القدرة على التحمل، والشجاعة في المواجهة، إذ لم تمنع قنابل إسرائيل العنقودية المليون وربع المليون قوافل النازحيين من العودة إلى ديارهم رغم عرقلة السلطة اللبنانية لهذه العودة بشكل مباشر مقصود أو غير مباشر غير مقصود. ومن جهة أخرى كان للعاطفة الوطنية التي أبداها الكثير من فئات الشعب اللبناني حيال النازحيين واحتضانهم دور مهم في إبلاغ إسرائيل رسالة هامة تقول لها فيها «أن همجيتها وتدميرها للبنية التحتية لن تزرع الشقاق بين اللبنانيين» وإذا كانت قد خرجت عن الإجماع فئة منهم شذت عن الحس الوطني السليم، فإن ذلك يعتبر الاستثناء السلبي الذي لا يعول عليه ولا يؤذي المسار الأساسي للسلوك الوطني العام. لقد أبدى الشعب احتضانا للمقاومة فمنحها قوة إضافية على الصمود والمتابعة.

لقد كان انتصار المقاومة في لبنان في صيف العام ٢٠٠٦ نتيجة تظافر العوامل الذاتية والموضوعية التي ذكرت، و لن نتوقف كثيراً عند وضعية العدو وعنجهيته وغروره وهي من العوامل التي ساعدت على تبلور الانتصار ولكن لن أقول ضعف العدو، بل أقول سوء تقدير من قبله جعله يتجرع الخيبة لدى كل فعل يفاجئه المقاوم به، إضافة إلى عدم ملاءمة مناورته مع أسلوب قتال

المقاومة. لقد كانت المقاومة المسلحة، وشعب المقاومة، والجيش اللبناني، هم الذين صنعوا النصر في صيف ٢٠٠٦، وقد كان ممكنا أن يكون هذا النصر أسرع وأبهج لولا عرقلة من الداخل اللبناني تجلت في الدور السلبي الذي لعبته الحكومة اللبنانية التي تنكرت للمقاومة منذ الرصاصة الأولى، فكشفتها سياسياً، وأنكرت النصر فعرقلت استثماره. لكن النصر المتحقق أصبح ثابتا وملك التاريخ، وأن العوامل التي أدت إليه لا يمكن أن تغمط حقها في الفعالية والدور.

بيروت في ٢٠٠٧/٧/١٨

العميد الركن الدكتور أمين محمد حطيط

قائد كلية القيادة و الأركان في الجيش اللبناني سابقاً

مقدمات التحولات الجيواستراتيجية بالمنطقة العربية والإسلامية بعد الحرب على لبنان

الكاتب والباحث أ. المصطفى المعتصم (المغرب)

مدخل

بدأت الحرب على لبنان يوم ١٢ يوليو ٢٠٠٦، واستمرت إلى غاية ١٤ آب ٢٠٠٦. اعتبرها العرب الحرب السادسة مع الكيان الصهيوني، واعتبرها الصهاينة الحرب الأولى ضد العرب، ونستطيع أن نقول: إنها كانت أولى حروب إمبراطورية الشر الولايات المتحدة الأميركية - خاضتها إسرائيل بالنيابة - في المنطقة العربية الإسلامية من أجل شرق أوسط كبير، كما صرَّحت بذلك كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأميركية خلال مؤتمرها الصحافي في الحادي والعشرين من يوليو ٢٠٠٦، عندما سُئِلَت عن المبادرات التي تعتزم أخذها معها لإحلال السلام في لبنان فأجابت: «ليس لديَّ اهتمام الدبلوماسية من أجل إعادة لبنان وإسرائيل إلى الوضع السابق... أعتقد أن مثل هذا سيكون خطأً... ما نراه هنا، بمعنى من المعاني، هو تطوّر الولادة العسيرة لشرق أوسط جديد، وأيّاً كان ما نقوم به، يجب أن نكون على يقين من أننا ندفع نحو شرق أوسط جديد لن يؤدي إلى القديم».

إن اختيار العراق كأول بلد عربي يتم الهجوم عليه لم يكن أمراً اعتباطياً. فقد ظلّ هذا البلد يشكّل على مر عقود عمقاً جغرافياً وبشرياً استراتيجياً لدول الطوق، وبالخصوص سوريا، في صراعها الطويل مع الكيان الصهيوني، وظهر هذا جلياً في حرب أكتوبر ١٩٧٣. ثم إن احتلاله يشكّل من الناحية الجيواستراتيجية مدخلاً لتنفيذ مخطط شامل يهدف إلى إخراج إيران من معادلة الصراع على فلسطين وتطويقها وحصر نفوذها، والأهم من كل هذا التحضير لتدمير برنامجها النووي. التطويق الذي بدأ باحتلال القوات الأميركية لأفغانستان على الحدود الشرقية لإيران وبناء قواعد عسكرية في أواسط آسيا وتركيا شمال إيران، واحتلال العراق غرب إيران والنزول بكل ثقل في قواعد بدول الخليج. نحن إذاً أمام ترتيب جديد للمنطقة العربية والإسلامية بما يخدم المصالح الصهيونية ومصالح المحافظين الجدد والمتطرفين الأنجليكانيين.

١- الحـرب على لبنـان:

حرب عن سبق إصرار وترصّد من أجل ولادة شرق أوسط كبير

لا شكّ أنّ العالم يعرف صلافة وعنجهية الإدارة الأميركية الحالية، ويعرف الطبيعة العدوانية للكيان الصهيوني. إذاً لم يكن خافياً على أحد أن قرار ضرب لبنان وضرب مقاومته كان قد اتخذ حقيقةً يوم صوّتت الأمم المتحدة لصالح القرار١٥٥٩، الذي يقضي في أحد بنوده بضرورة نزع سلاح الميلشيات وكان المقصود بالدرجة الأولى سلاح حزب الله. لكن لا أحد في العالم كان يراهن على قوى لبنانية داخلية حكومية أو غيرها للقيام بهذا الأمر. من هذا المنطلق نقول: إن فرنسا صاحبت القرار الأممي، بل كل المنتظم الدولي بتصويتهم على القرار١٥٥٩ قد أعطوا الضوء الأخضر لأميركا وإسرائيل للهجوم على حزب الله. ولا نجازف إذا قلنا: إن الجميع كانوا يتوقعون اندلاع الحرب في أية لحظة بين حزب الله وإسرائيل القوة الإقليمية الوحيدة التي تملك القدرة على شن حرب شاملة ضد حزب الله. بل قد نتجرأ بالقول: إن الكثير من الدول - خصوصاً فرنسا وبريطانيا ودولاً عربية- كانوا على علم بالترتيبات التي كانت تتم من طرف الولايات المتحدة وإسرائيل في أفق الإعداد لهذه الحرب المرتقبة التي ستشن تحت ذريعة تفعيل وتنفيذ القرار الأممي. كانوا جميعهم شركاء في الجريمة. نفهم إذاً اليوم، لماذا لم يحبس أحد من هؤلاء أنفاسه، ولا فكّر في الخسائر التي ستلحق بالمدنيين الأبرياء وبالبنى التحتية اللبنانية من جرّاء ردة الفعل الإسرائيلية على عملية حزب الله يوم ٢٠٠٦/٠٧/١٢، ونفهم لماذا تحرّكت العواصم الغربية بسرعة فائقة مندِّدة بالعملية، بل ونفهم أيضاً لماذا سارعت بعض الأنظمة العربية باتخاذ مواقف قيل عنها في حينها أنها كانت قرارات متسرّعة ليتضح من بعد ذلك أنها كانت عن عمد وتراوحت بين مطالبة إسرائيل بعدم الإفراط في استعمال القوة وبين إدانة حزب الله والهجوم عليه، واعتبار عمليته مغامرة كبرى. وليس يخفى على أحد اليوم أن بعض العرب قد أسرع صوب تل أبيب يطالبها بإنزال الهزيمة بالمشروع «الشيعي» في المنطقة. أما الحكومة اللبنانية فقد تحدّثت منذ اللحظة الأولى لغة الضحية التي لا حول لها ولا قوة أمام حزب الله، وبحثت عن تبرئة نفسها بأن أشارت بكل أصابع يدها من خلال أول بيان لها إلى الجهة المسؤولة عن ما حدث. هذا التخاذل العالمي في مساندة لبنان شجّع أكثر أميركا والكيان الصهيوني للمضي قدماً في تنفيذ جرائمهم في حق الإنسانية بتلك الصورة البشعة التي رآها العالم.

سيمور هيرش Seymour Hersch الصحافي الذي سبق وأحرز على جائزة بوليتزير لكشفه فضيحة أبي غريب كتب في طبعة لمجلة النيويوركير The New Yorker بتاريخ ١٤ آب٢٠٠٦ أن الإدارة الأميركية كانت: «متورّطة جداً في المخطط الإسرائيلي ضد حزب الله، حتى قبل اعتقال الجنديين الإسرائيليين يوم ١٢ يوليو، ٢٠٠٦».. ويضيف: «... أن الرئيس الأميركي بوش ونائبه ديك تشيني كانا مقتنعَيْن بأن حملة من القصف الإسرائيلي المكلّل بالنجاح ضد حزب

الله، بإمكانها التقليل من مخاوف إسرائيل على أمنها.... ».

وفي تصريح له على القناة التلفزيونية CNN يقول سيمور هيرش: «حينما أسر حزب الله الجنديين بداية يوليو. كان هذا الأسر بمثابة ذريعة لهجوم عسكري إسرائيلي ضد المنظّمة الشيعية اللبنانية...» ثم يضيف قائلاً: «...نحن - أي الولايات المتحدة الأميركية - اشتغلنا قبل شهور مع الإسرائيليين للإعداد لهذا الهجوم من دون أن نحدّد تاريخاً لبدئه، لكن كان سيحدث بالتأكيد بفعل حادث ما وفي التوقيت المناسب».

كما نقل سيمور هيرش عن خبير في شؤون الشرق الأوسط، مطّلع على الأفكار الحالية للحكومة الإسرائيلية والأميركية فضّل عدم ذكر اسمه قوله: «لقد كان للبيت الأبيض أسباب عديدة لمساندة إسرائيل في حملة القصف التي تعرَّض لها لبنان... لأن في حال تبني الخيار العسكري ضد إيران، فإنه من الضروري تدمير سلاح حزب الله مسبقاً حتى لا يستعمل لضرب إسرائيل...»، ويضيف: «في بداية الصيف وقبل أسر الجنديين الإسرائيليين، زار العديد من المسؤولين الإسرائيليين واشنطن من أجل الحصول على الضوء الأخضر لعملية قصف لبنان بعد استفزاز حزب الله، ومن أجل الوقوف على مستوى الدعم الذي ستقدّمه أميركا لإسرائيل».

٢- ما هو هذا الشرق الأوسط الكبير/ الجديد؟؟

الشرق الأوسط الكبير/ الجديد هي رقعة جغرافية ممتدة من المغرب إلى باكستان وتشمل ٢٢ دولة عربية وخمس دول غير عربية هي: تركيا، إيران، أفغانستان، باكستان والكيان الصهيوني. بها ١٠ من ساكنة العالم (٦٠٠ مليون نسمة) وتملك ثروة نفطية وغازية مهمة بالإضافة إلى ثروات طبيعية أخرى. هذه الدول تعرف اليوم مداً إسلامياً تعتبره أميركا تهديداً إرهابياً قائماً أو محتملاً وتقود منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حرباً ضروساً ضده.

١.٢- الشرق الأوسط الكبير: فكرة جديدة قديمة

لا بد أن نعترف أن فكرة إعادة ترتيب الشرق الأوسط بإعادة تقسيمه وتجزيئه (سايكس بيكو الثانية) من خلال استعمال المدخل الطائفي- المذهبي- العرقي، فكرة صهيونية قديمة دافع عنها هنري كيسنجر وزير الخارجية الأميركي السابق خلال السبعينات. لكن مشروعه الذي لقي دعم اللوبي الصهيوني المتنفذ في أميركا والذي ظهر بقوة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل حين استعمل النفط لأول مرة كسلاح، وجد معارضة في الأوساط السياسية الأميركية التي رأت أن لها من النفوذ والأصدقاء في الخليج وإيران الشاه ما لا يبرّر تعريض هذه المنطقة الحيوية للفتن خصوصاً وأن الاتحاد السوفياتي كان يتربّص الدوائر للاقتراب من منابع النفط وشواطئ الخليج الدافئة. ولقد عززت التطورات التي عرفتها المنطقة بعد ١٩٧٣ بدءاً من زيارة السادات للقدس ونهاية بتوقيع مصر على اتفاقية «السلام» مع الكيان الصهيوني موقف المعارضين لمشروع كيسنجر/إسرائيل. وحتى انتصار الثورة الإسلامية في إيران لم تقيمه

الإدارة الأميركية في حينه التقييم المناسب إلى أن فاجأتها التطورات، فأوعزت لحلفائها في الخليج بدفع صدام حسين للهجوم على إيران لضرب قدراتها العسكرية واستنزاف خيراتها وطاقاتها في حرب ظالمة. لكن يجب التنويه إلى أن أميركا التي امتنعت عن تمزيق وتقسيم العالم العربي والإسلامي جغرافياً كما كانت تأمل إسرائيل وهنري كيسنجر، ستعمل على ضرب وحدة الموقف السياسي العربي والإسلامي في القضايا الحيوية. فتمّ تحييد مصر وإخراجها من معادلة الصراع العربي الإسرائيلي ودخل العراق في حرب ضد إيران وتم غزو لبنان (١٩٨٢)، وطرد منظّمة التحرير الفلسطينية منه. ثم كانت اتفاقية أوسلو ومدريد ووادي العربة. وكل هذه الأحداث اعتبرها البعض ترتيبات أو مقدّمات لشرق أوسط كما أراده هنري كيسنجر في السبعينات وكما أراده شمعون بيريز في كتابه: الشرق الأوسط الجديد في التسعينات وتريده الإدارة الأميركية وإسرائيل في مطلع هذا القرن. ولعل الفرق الوحيد بين هذه المشاريع الثلاث هو أن الأميركان قد بسطوا الشرق الأوسط جغرافياً ليشمل دولاً مثل إيران وباكستان وأفغانستان شجّعهم على ذلك التغيرات الجيواستراتيجية التي عرفها العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي والظرفية التي تلت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. فمضوا لبناء شرق أوسط جديد على مقاسهم بما يضمن مصالحهم ومصالح حلفائهم وخصوصاً الكيان الصهيوني الغاصب.

تجدر الإشارة إلى أن فكرة الشرق الأوسط الكبير تشكّل أيضاً تبريراً للإدارة الأميركية لاحتلال العراق وتوسيع رقعة الحرب لتشمل إيران وسوريا ولبنان؛ وتتغذّى - أي فكرة الشرق الأوسط الكبير-، من نظرية لصنع الأعداء (المسلمين اليوم) هي نظرية صراع الحضارات لصمويل هنتينغتون ومن نظرية الدومينو التي توضح كيفية تحقيق هذا الشرق الأوسط الكبير.

٢.٢- أهـداف أميـركا في بنـاء شـرق أوسط جديـد

أ. الأهداف المعلنة: قال الرئيس جورج بوش في خطاب له حول حالة الأمة (يناير ٢٠٠٤):

ما دام الشرق الأوسط مكاناً للاستبداد واليأس والغضب سيظل ينتج أفراداً وحركات تهدد أمن الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها. أميركا تنهج استراتيجية الحرية في الشرق الأوسط. وسوف نتحدّى أعداء الحرية. وفي خطاب له أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة (٢١ سبتمبر ٢٠٠٤ قال:«علينا أن نغيّر المقاربة. يجب علينا أن نساعد الإصلاحيين في الشرق الأوسط الذين يعملون من أجل الحرية ويريدون تشييد جماعة الأمم الديمقراطية والسلمية». الهدف المعلن أميركياً هو إذاً بناء شرق أوسط كبير تسوده الديمقراطية والأمن والحرية والنماء.

ب- الأهداف الحقيقية: الواضح اليوم أن الولايات المتحدة الأميركية تريد:

- السيطرة على منطقة بها ٦٥ من احتياطي العالم من النفط و٣٠ من احتياطي الغاز.
- تحويل الأنظار عن مأزق العراق.
- ضرب الصحوة الإسلامية من خلال شعار «الحرب على محور الشر» المتمثل حسب جورج

بوش بـ «الإرهاب الإسلامي» أو «الفاشية الإسلامية».

- التغطية عن الوضعية المأساوية للفلسطينيين بسبب إمعان أميركا «راعية السلام» في الكيل بمكيالين ودعمها اللامشروط للكيان الصهيوني الغاصب.

وسيلة أميركا لتحقيق أهدافها هي دفع الدول العربية والإسلامية نحو الفوضى «البنّاءة»: أي نحو الاقتتال والعنف الطائفي والمذهبي. ويشكّل العراق اليوم مختبراً حقيقياً لنوايا الولايات المتحدة الأميركية سيعمّم على هذه المنطقة التي تتشابه مع العراق من حيث تنوعها العرقي والمذهبي...

وإذا كانت الدول العربية والإسلامية تعرف اليوم ما ينتظرها من مخطّطات التقسيم والتجزئة والاحتراب الطائفي والمذهبي والعرقي، فإن أميركا تسعى من خلال التمويه بحديثها عن الديمقراطية إلى فرض هيمنتها على المنطقة.. لكنها تريدها ديمقراطية الدماء والدموع والحروب الأهلية. يخطّط لها مهندسون سيئو السمعة ويشكّلون مصدر خطر على مستقبل العالم الإسلامي والعربي مثل ريتشارد بيرل Richard Perle، دوغلاس Douglas Feit, داوود وورسمير David Wursmer وغيرهم من الصهاينة الأميركان ممن يعدّون من أكبر أنصار إسرائيل وحزب الليكود تحديداً.

٣.٢- الديمقراطية الحقيقية في مواجهة «ديمقراطية الدماء والدموع والحروب الأهلية»

تبرّر الإدارة الأميركية تنامي العداء لها في العالم العربي والإسلامي بغياب الأعراف والتقاليد الديمقراطية وشيوع ثقافة متخلفة عند العرب والمسلمين، وتشبّعهم بقيم حضارية معادية للتقدّم والمدنية والحضارة الغربية. أي إنها تلخص المشكلة في الآخر - العربي والإسلامي- وليس في سياساتها الظالمة العدوانية اتجاه القضايا العادلة للعرب والمسلمين وعلى رأسها قضية فلسطين.

إن الأمة العربية، ومن خلال الحرب على العراق وحصار الفلسطينيين لم تجد في الديمقراطية الأميركية إلا مشروعاً مشبوهاً، مشروع فتنة وفوضى فقط. لقد اعترف الأميركان وحلفاؤهم والأمم المتحدة أن الانتخابات الفلسطينية الأخيرة ٢٠٠٦ كانت ديمقراطية، لكنهم لجأوا إلى ممارسة العقاب الجماعي للشعب الفلسطيني لأنه صوّت لصالح حماس؟. بمعنى أن أميركا ومن يدور في فلكها لا يهمهم أن تمارس الشعوب دورها السيادي في انتخاب من يمثلها من خلال اختيار حر ونزيه؛ لأنهم لا يتحدّثون عن الديمقراطية إلا إذا أرادوا استعمالها ضد الأنظمة التي تعارض سياساتهم، ولا يعترفون بنتائجها إلا حينما تأتي بحلفائهم إلى الحكم. أي أولئك الذين لهم القابلية للسكوت عن جرائم أميركا وإسرائيل وتجاهل سياسة الكيل بمكيالين التي تنتهجها أميركا في علاقتها الدولية، أولئك المستعدّين لإلغاء الذاكرة الجماعية للأمة،

المنبطحين أمام عتبات البيت الأبيض يتسوّلون منحه وعطاياه.

إن الخيار الديمقراطي خيار استراتيجي بالنسبة للشعوب في الوطن العربي والإسلامي، وكان دائماً مسعى وهدفاً لكل الحركات الإصلاحية في هذا الوطن الكبير الذي عانى كثيراً من ويلات الأنظمة الاستبدادية، التي كانت بالمناسبة تحظى بالدعم اللامشروط من طرف الإدارات الأميركية المتعاقبة منذ الحرب العالمية الثانية. لكن لا أحد من العرب والمسلمين يريدها اليوم ديمقراطية على المقاس الأميركي الصهيوني. إن من لا يحترم الخيارات الديمقراطية للشعوب العربية والإسلامية، ومن ينتهك حقوق الإنسان العربي والمسلم، بل وكل إنسان آخر في العالم، ومن يقتل الأبرياء، ومن يمنح دولة إسرائيل الإرهابية أسلحة محرَّمة دولياً ويسكت عن استعمالها لها، ومن ينتهك بقوانينه الجائرة حقوق مواطنيه المسلمين أو من ذوي الأصول العربية، ومن يسمح بوجود غوانتنامو وأبي غريب، ومن يسنّ قوانين تبيح التعذيب أثناء الاعتقال، لا يمكن أن ينال ثقة المستضعفين من شعوب العالم ويطمع في ودّهم. إن الأمّة العربية والإسلامية لا ترضى الهوان حتى وهي تعيش مرحلة الاستضعاف: إنها أمّة تعشق الحرية والشهادة في سبيل الله. لها مصالح وانتماء وهوية حضارية وهي أمور لا تقيم لها العولمة بما هي أمركة أي وزن، وتعمل على ضربها وإلغائها. سيكون الغرب وأميركا واهميْن إذا فكّروا في إقامة شرق أوسط كبير وإنهاء حالة العداء المتنامي ضدهم في الوطن العربي والإسلامي بمجرد حديثهم عن نيتهم في دمقرطة المنطقة. إن المسألة ليست تغيير مسؤولين سياسيين وفرض آخرين بالقوة، بل هي اقتناع واستيعاب، هي ثقافة وممارسة. وما لم تقم الإدارة الأميركية بمراجعة سياساتها اتجاه العالم العربي والإسلامي فلن تنتظر منه إلا المزيد من العداء والكراهية.

إن التطرف والإرهاب هما نتاج لسياسات استكبارية ظالمة ولا علاقة لهما بالثقافة. هما رد فعل على تطرف وإرهاب أكبر صادر عن دول وحكومات. نعم هناك اليوم لدى كل شعوب العالم إرادة لإقرار الديمقراطية. لكن ليست الديمقراطية المهرّبة إلى الداخل محمولة في بعض الأحيان على ظهر دبابة.

٤.٢- **مقدّمات العدوان:** في البدء كان توريط أوروبا ثم تواطؤ دولي على العدوان

يجد الأوروبيون، من دون شك، في مبادرة الشرق الأوسط الكبير محاولة أميركية للتضييق على مبادرة الشراكة والتعاون الأورو متوسطي، ويعبّرون عن امتعاضهم منها. لكن الولايات المتحدة الأميركية نجحت في نهاية المطاف في توريط أوروبا التي أبانت عن بعض علامات التمرّد والرفض للحرب الأميركية على العراق في حروبها الاستباقية والإمبراطورية، مستغلين حرص أوروبا خصوصاً فرنسا في أن يكون لها موطئ قدم في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. فدفعتها إلى التورط في المشاكل الداخلية اللبنانية، والجهر بالعداء للوجود السوري في لبنان، مستغلّين تصاعد أصوات لبنانية معارضة لهذا التواجد. وحينما جاء اغتيال الرئيس رفيق

الحريري في خضم الجدل حول الوجود السوري بلبنان ووضعت سوريا في قفص الاتهام بقتله، اندفعت فرنسا مدعومة بأميركا لاستصدار القرار الأممي ١٥٥٩ القاضي بجلاء القوات السورية عن لبنان ونزع سلاح المليشيات، وكان سلاح حزب الله هو المقصود. هكذا بدأت فرنسا تتورط رويداً رويداً في الحالة اللبنانية منحازة إلى فريق لبناني ضد آخر. ولن نبالغ إذا قلنا: إن فرنسا ومن ورائها كل الغرب كانوا مقتنعين منذ البداية أن نزع سلاح حزب الله ليس في مقدور حلفاء أميركا وفرنسا في لبنان، الذين تقلّص دورهم لينحصر في إثارة الضجيج الإعلامي المحلي والإقليمي والدولي وتشويه صورة حزب الله وسمعة سلاحه. وأعود لأكرّر أنه منذ البداية كان القرار أن تقوم قوة إقليمية هي إسرائيل بهذه المهمّة. ولهذا رفضت فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأميركية وكلهم من دول الفيتو في الأمم المتحدة منذ بدء العدوان الضغط على إسرائيل لوقف عدوانها، بل وامتنعوا عن التوجه صوب الأمم المتحدة لاستصدار قرار أممي لوقف العمليات العسكرية. لم يعبأوا بحق الشعوب في المقاومة في زمن الاحتلال، ولا همّهم أن تحترم أو تنتهك حقوق الإنسان في لبنان حينما تكون إسرائيل هي من ينتهكها ولا همّهم أن تنتهك إسرائيل أو تحترم المواثيق الدولية. كانوا جميعهم يعتقدون أن الهجمة البربرية الصهيونية على الضاحية الجنوبية لبيروت وعلى الجنوب اللبناني والبقاع ستكسر التفاف الشعب اللبناني حول المقاومة التي ستنهار بمجرّد بدء إسرائيل بهجومها البري. كان هدفهم إخضاع شعوب العالم العربي والإسلامي لإرادتهم الاستعمارية وإسكات كل صوت مقاوم بكل الوسائل. كانوا يبحثون عن هزيمة حزب الله مهما كان الثمن. لكن أحلام يقظتهم بدأت تتبخر مع الأخبار الواردة من جبهة القتال. انقشع السراب عن وهم جيش إسرائيل الذي لا يقهر، اندحرت فرق النخبة لديه وأصبحت «الميركافا» رمز قوة هذا الجيش صيداً سهلاً لمقاتلي حزب الله، بل حتى الطائرات المروحية بدأت تتهاوى بنيران المضادات الجوية. أما العمق الإسرائيلي فيما بعد يوم أصبح هدفاً لصواريخ حزب الله. بدا وكأن الجيش الإسرائيلي عاجز عن تحقيق النصر ومصاب بالشلل، بل بدأت تظهر عليه علامات الانهيار. حينها فقط جاء قرار إيقاف الحرب بين لبنان وإسرائيل لكي يتم إنقاذ إسرائيل وحفظ ماء وجهها. جاء القرار الأممي ١٧٠١ علّه يحقق لإسرائيل وأميركا بالسياسة ما لم يحققوه بالحرب.

٣. أثر الانتصار في السياسة الدولية

١.٣- هبت ريح النصر من جديد: «بعد اليوم نغزوهم ولا يغزونا» (حديث شريف)

عمل الاستعمار الإمبراطوري الأميركي والصهاينة وحلفاؤهما طيلة ٥٨ سنة، من عمر الكيان العنصري الاستيطاني، على تكسير شوكة الصمود وروح التحدي لدى الأمة. وحاولوا إقناعها بلا جدوائية التصدي للمشروع الصهيوني والاستعماري، وحرصوا على صنع وتكريس صورة جيش إسرائيل الكبرى الذي لا يقهر، وتكريس تفوق وعبقرية الإنسان اليهودي.

واليوم وبعد انتصار حزب الله على العدو الصهيوني ستتأثر سياسات الدول الكبرى في المنطقة بالنتائج المباشرة لهذا الانتصار. فلن يهدأ لهم بال ولن يغمض لهم جفن حتى يثأروا لهزيمة إسرائيل ويعودوا بنا إلى ما قبل ١٢-٠٧-٢٠٠٦. وإذا كانت المواجهة العسكرية مستبعدة في اللحظة الراهنة بين إسرائيل وحزب الله، فقد تسعى إسرائيل وأميركا وحلفاؤهما إلى أن يحققوا بالسياسة ما لم يحققوه بالحرب؛ أي إجهاض مكاسب قوى المقاومة بما يسمح لهم باستعادة المبادرة الإستراتيجية في المنطقة. وإعادة الحياة لثقافة الهزيمة التي زلزل قواعدها صمود وانتصار المقاومة في لبنان والعراق وأفغانستان. إن الغرب الاستعماري كان يتمنى انسحاق حزب الله وانكسار الشعب اللبناني، وابتعاده عن احتضان المقاومة، لأنه يفهم جيداً أن أي انتصار سيحققه حزب الله سيعكس رياح الخنوع والاستسلام والهزيمة التي هبت على الوطن العربي الإسلامي منذ هزيمة، ١٩٦٧. وقد لا نجازف إذا قلنا: إن الاستعمار قد فهم أكثر من غيره مغزى كلام سماحة السيد حسن نصر الله الذي أشار في أحد خطبه إلى أنه بعد هذه الحرب وهذا النصر لن يكون هناك إلا النصر إن شاء الله، ولعلّ السيد كان يستحضر ما قاله الحبيب صلى الله عليه وعلى آله بعد اندحار الأحزاب في غزوة الخندق: بعد اليوم نغزوهم ولا يغزوناً.

أولى ردود فعل القوى الاستعمارية الغربية ستكون محاولة الالتفاف على النتائج المباشرة للانتصار، وقطع الطريق على التحولات الإيجابية التي قد تشهدها المنطقة في أفق المزيد من المقاومة، ولضمان استمرار تطويق إيران وسوريا، ومنع انهيار سريع للمخططات والمشاريع الصهيوأميركية في المنطقة.

نعلم جيداً أن الولايات المتحدة الأميركية التي خسرت حديقتها الخلفية وعمقها الاستراتيجي في أميركا الجنوبية لا يمكن أن تستسلم بسهولة لمصير الهزيمة في المنطقة العربية الإسلامية العزيزة بنفطها وغازها وأسواقها وموقعها الاستراتيجي. لكنها بداية الهزيمة لسياسة المحافظين الجدد ومشروعهم، وبداية النهاية لإسرائيل التي يعتقد رئيس الحزب الجمهوري الأميركي أنها تنفذ أوامر الرب.

٢.٣- الشعب الأميركي يوجّه إنذاراً للمحافظين الجدد

اعتقد جورج بوش وإدارته أن تصويت الشعب الأميركي عليه للمرة الثانية علامة رضا واستحسان من هذا الشعب لسياسة بوش في الشرق الأوسط. لكن الشعب الأميركي بتصويته في الانتخابات نوفمبر٢٠٠٦ النصفية لفائدة الديمقراطيين - لأول مرة منذ ١٢ سنة- قد يكون وجَّه صفعة للحزب الجمهوري بعد حملة انتخابية حضرت فيها إخفاقات السياسة الأميركية في الشرق الأوسط بقوة. وإذا كنا لا نتوقع تغييراً جذرياً في سياسات أميركا اتجاه منطقة الشرق الأوسط خصوصاً في القضية الفلسطينية، حيث كان الديمقراطيون دائما أكثر اندفاعاً نحو إقامة علاقات متميّزة مع إسرائيل من الجمهوريين، فإن ردة فعل الشعب الأميركي تبيّن على الأقل

تململاً في الموقف الداخلي الأميركي، بما يؤشّر لتحوّل قادم في السياسات الخارجية الأميركية في مجموع منطقة الشرق الأوسط إذا توالت الإخفاقات، وتعاظمت الخسائر سواء في لبنان أم في العراق أم في فلسطين أم أفغانستان.

٣.٣- أميركا من فارس وحيد إلى البحث عن شركاء

تقف القوى الاستعمارية اليوم في مفترق الطرق، فأميركا بعد أن لعبت دور الفارس الوحيد تجد نفسها عاجزة عن تحقيق شرق أوسطها الجديد بدون دعم أوروبا واليابان، ليس فقط في لبنان، بل في أفغانستان والعراق والصومال والسودان. لهذا عادت بعد استنقاعها في العراق إلى محاولة توريط القوى الاستعمارية الغربية معها في بؤر التوتر التي أشعلتها أو التي تريد إشعالها. وفي تقديري هذه واحدة من أهم التحوّلات في سياستها الخارجية التي رافقت هزيمتها في الحرب التي خاضتها بالوكالة عنها إسرائيل وفي ورطتها في العراق. أميركا ترى اليوم أن الفرصة مواتية لتفعيل مقترحها الرامي إلى تحويل الناتو إلى منظمة سياسية عسكرية تكون بمثابة ذراع أميركا التي تبطش بها. وهي رغبة سبق وأن عبَّر عنها نيكولاس بورنز Nicolas Burns مساعد كاتب الدولة في الدفاع في اجتماع الناتو ببراغ سنة ٢٠٠٢ حين قال: 'إن مهمة الناتو هي حماية أوروبا وأميركا الشمالية، لكن هذا لن يكون ممكناً بحصر الناتو في أوروبا الغربية والوسطى وأميركا الشمالية. إن مهمّة هذا الحلف في الشرق والجنوب، إنها في الشرق الأوسط الكبير'.. هذه هي المهمة الجديدة التي رسمتها الإدارة الأميركية النيو ليبرالية للناتو بعد انهيار حلف وارسو.. ولكي تنوب هذه المنظمة عن أميركا في حروبها الاستباقية بشكل فعال لا بدَّ من توسيعها لتشمل اليابان وإسرائيل وأيضاً دول أوروبا الشرقية التي سيكون جنودها وقود نيران الحروب المستقبلية الأوروأميركية والصهيوأميركية. لهذا لا نستغرب إذا كانت الولايات المتحدة الأميركية قد تخلّت جزئياً عن دورها في أفغانستان وورّطت فيها حلف الناتو أكثر، كما ورطتها بشكل ما في لبنان. وأياً ما كان المسمى الذي سميت به قوات الفصل في لبنان، فإننا نتجرأ على القول: إن «الفينول» ما هي إلا الاسم الحركي لقوات الناتو، وربما قد يتم إقحام هذا الحلف في نزاعات السودان والصومال والتشاد. مما يتيح لأميركا إعادة انتشار قواتها في منطقة الخليج والمشرق العربي بشكل مريح وأفضل. إن أميركا تضغط اليوم على اليابان، مستغلة وجود أول وزير ياباني يحن إلى الماضي العسكري لليابان، ليضطلع بدور عسكري أكبر في آسيا والمحيط الهادي وشبه الجزيرة الكورية. هذه معالم الاستراتيجية التي تسعى من خلالها أميركا مواجهة بعض النزاعات الإقليمية من دون أن تشتت قواتها في كل مكان حيث يحظى الشرق العربي/ الإسلامي اليوم بالأسبقية لديها.

٤.٣- فقدان الثقة في الحليف الاستراتيجي والسعي لبناء تحالفات إقليمية جديدة

من نتائج الحرب على لبنان أن أميركا لم تعد واثقة في الدور الذي يمكن أن تلعبه إسرائيل

كحليف استراتيجي في بناء الشرق الأوسط الجديد (ضرب حزب الله وسوريا كمقدّمة لضرب إيران). وهذا الشك دفعها إلى إعادة تقويم موقفها من بعض الدول العربية كمصر والسعودية والأردن؛ أي أصدقائها القدامى، الذين انقلبت عليهم بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، واعتبرتهم سبب البلاوي التي أصابت أميركا باعتبارهم نظماً شمولية تنتج التطرّف والإرهاب. عادت أميركا إليهم لتبني معهم حلف نكد عربي إسرائيلي لمواجهة الخطر النووي الإيراني، والتصدّي لتأسيس الهلال الشيعي الممتد من لبنان إلى إيران عبر سوريا والعراق. هكذا أصبحت أنظمة عربية كانت قبل حرب لبنان هدفاً للمحافظين الجدد أنظمة مقرّبة من البيت الأبيض بعد صمود المقاومة. ويمكن اعتبار هذه الأنظمة من أكبر المستفيدين من انتصار حزب الله.

٥.٣- بعد كابوس لبنان تستفيق إسرائيل على واقع اهتزاز الثقة في الحليف الاستراتيجي.

استفاقت إسرائيل من حلم مزعج في حربها ضد لبنان، ليكتشف شعبها بمرارة أنه يخوض حرباً أميركية نيابة عن المحافظين الجدد واليمين المسيحي المتطرف المؤمن بنهاية الوجود اليهودي بهرمجدون.

يعكس الصحفي دانيال ليفي على صفحات «أهاريتز» في عددها ليوم ٥ غشت ٢٠٠٦ انزعاج جزء كبير من الإسرائيليين في مقال بعنوان: «لنجعل حداً لكابوس المحافظين الجدد» مما جاء فيه:«.. يمكن أن نتوقع أن إسرائيل خاضت حرباً بالوكالة... بعد هذه الحرب/ المأزق استفاقت إسرائيل متأخّرة أمام تعقيدات التغيير الزلزالي الذي عرفته السياسة الأميركية في الشرق الأوسط.. في سنة ١٩٩٦ قدّم ريتشارد بيرل Richard Perle ودوغلاس فايت Douglas Feith وآخرون لنتنياهو خطة بعنوان «استراتيجية جديدة لجعل المملكة آمنة»، اقتضت هذه الخطة أن تلعب إسرائيل دوراً في زعزعة استقرار المنطقة. فمن التراجع عن التزاماتها مع الفلسطينيين، إلى محاربة المد الإسلامي، إلى الهجوم على سوريا وقلب نظام صدام حسين... لكن الحصان الإسرائيلي الذي شجّعوه لم يكن في مستوى المهمة...العديد من الإسرائيليين لا يعرفون أن بعض منظّري جماعات التفكير القريبة من المحافظين الجدد، كبيل كريستول Bill Kri وميكاييل ليدن Michael Ledeen وايليوت أبرامز Elliott Abrams وريتشارد بيرل Richard Perle ودوغلاس فايت Douglas Feith وآخرين يسعون إلى إعادة ترتيب المنطقة التي نعيش فيها. هؤلاء اقتربوا من صقور المحافظين الجدد أمثال ديك تشيني ودونالد رامسفيلد..وتحوّلوا إلى قاطرة لبرنامجهم لتحقيق التفوق الأميركي على العالم، وبناء عالم وحيد القطب تهيمن عليه الولايات المتحدة عبر العدوان والهيمنة. إن استنقاع المحافظين الجدد في العراق قد دفعهم إلى إشعال الحرب على لبنان وارتكاب جرائم من دون خوف من العقاب، بل التفكير في نقل الصراع إلى سوريا وإيران. لقد ذهب بعضهم إلى الدعوة إلى حرب عالمية ثالثة

من أجل حماية الحضارة... فصل مصالح إسرائيل عن سياسة الفوضى البنّاءة التي ينتهجها المحافظون الجدد على أنقاض الشرق الأوسط أصبح تحدياً مستعجلاً بالنسبة لأصحاب القرار في إسرائيل. أميركا التي لا تفهم الأجواء المحلية، وطبيعة بناء التحالفات وتعتمد على القنابل والديمقراطيات على مقاسها لبناء شرق أوسط ستخرج ومعها إسرائيل من المنطقة. وما صورة كاتبة الدولة في الخارجية كونداليزا رايس التي زارت المنطقة أثناء عودتها من آسيا من دون أن تستطيع وضع رجلها في أية دولة بها عنا ببعيدة. لا بدّ لواشنطن وتل أبيب أن يفكّروا في الأمر.. أفغانستان لم تستقر بعد، والعراق أصبح يصدر عدم الاستقرار والرعب، أما الإيرانيون فقد ازدادوا إصراراً وتشجيعاً. لقد أصبح الناس في مصر والسعودية والأردن، أي في الدول الذي يريد المحافظون الجدد تغييرها ديمقراطياً أكثر عداءً لأميركا وإسرائيل من الحكّام الذين يريد المحافظون الجدد تغييرهم. هكذا حينما رفضت أميركا الاستماع والتحاور مع أقرب الناس إليها في المنطقة فقد ضيّقت هوامش اتخاذها للقرار...إسرائيل لها أعداء ولها مصالح ولها أولويات في مجال الأمن، ولكن ليس هناك منطق يتحوّل بموجبه بلد ما إلى خط تماس في حرب حضارات وإيديولوجيات غير محسوبة العواقب ويمكن تجنّبها...علينا أن نتفاهم على أمر: بما أنه من الصعب أن تكون لإسرائيل استراتيجية إقليمية مخالفة لاستراتيجية أميركا اليوم، وبما أن سياسة المحافظين الجدد غير متقنة، فعلى إسرائيل أن لا تعين الولايات المتحدة على هذه السياسات وتساعد على التصعيد. فعودة أميركا إلى الدبلوماسية النشيطة الواقعية والمتعددة المقاربات مع الالتزام القوي والمدعوم الذي يؤدي بالنهوض بالمنطقة سيخدم حتماً مصالح أميركا وإسرائيل والمنطقة. هذا ما يجب على إسرائيل أن تسعى إليه... على إسرائيل أن تعيد النظر في علاقتها بحماس وسوريا، عليها أن تعمل أكثر مع الرئيس الفلسطيني والسلطة الفلسطينية، وأن تعين محمود عباس في مجهوداته من أجل الوصول إلى تفاهم وطني يكون قاعدة لحكومة مستقرة وللسلم والأمن والمباحثات من أجل السلام...إن إسرائيل وأصدقاءها في أميركا مطالبون اليوم بإعادة النظر في علاقاتهم مع المحافظين الجدد واليمين المسيحي. لقد كان أكبر يوم نظمه لوبي قريب من إسرائيل خلال الحرب على لبنان هو اليوم الذي نظّمه القسيس جون هيغ Pasteur John Hagee ومسيحيوه الذين يؤمنون بهرمجدون، وبكل تعقيداتها باعتبارها النهاية الخاصة للتاريخ اليهودي...على الوطنيين الجمهوريين والديمقراطيين واليهود أن يعملوا على إعطاء بديل آخر لحماقات المحافظين الجدد. عليهم تحديد المصالح المشتركة في سياسة تعيد الريادة والاحترام إلى الولايات المتحدة الأميركية في المنطقة بتشجيع الأمن والاستقرار، وإيجاد حل للنزاع وتشجيع ظروف بناء مجتمعات متفتحة. ما زال أمام الرئيس بوش سنتين يشكلان فرصته للتقدّم من أجل التقليل من الخسائر. جرس الإنذار يدق وعلى إسرائيل أن تفكّر وتعين على إعادة توجيه انتظارات الأميركان...».

٦.٣- البحث عن حل سريع للقضية الفلسطينية

إن هزيمة إسرائيل ومن ورائها أميركا في لبنان، قد أعطى انطباعاً أنهم سيكونون أعجز عن شنّ حرب ضد إيران. بمعنى أن معادلة شرق أوسطية جديدة هي بصدد إعادة التركيب باتجاه بناء توازنات جديدة في المنطقة، خصوصاً بعد دخول إيران نادي البلدان النووية. يفهم الغرب وتفهم إسرائيل أن أسطورة التفوق الاستراتيجي الصهيوني في المنطقة قد انتهت أو ستنتهي قريباً لفائدة توازن الرعب النووي مما يفرض عليهم إعادة تقييم الأوضاع بناءً على مستجدات ما بعد النصر، وما بعد تحكّم إيران في دورة الوقود النووي. لهذا ترتفع اليوم في الغرب وإسرائيل أصوات تطالب بالعودة إلى مسلسل أوسلو ولواحقه. من هنا نفهم المبادرة الأوروبية التي أعلنت عنها فرنسا وإسبانيا وإيطاليا الداعية إلى مؤتمر دولي لحل قضية فلسطين، بل ونفهم قبول إسرائيل الهدنة مع الفلسطينيين والتعبير عن رغبتها في أن تنطلق من جديد مباحثات السلام المتوقفة معهم، كما نفهم مضمون إشارة تقرير بيكر- هاملتون الذي ربط الصراع في الشرق الأوسط باستمرار الصراع العربي الإسرائيلي وضرورة الحل الشامل لهذه القضية بما في ذلك حق عودة اللاجئين الفلسطينيين. لا مفر أمام إسرائيل إذاً إلا القبول بالعيش بجانب دول معادية قد تعرف حمى السباق النووي مما يفرض عليها الإسراع في إيجاد حل نهائي مع الفلسطينيين في الشروط الحالية، أي قبل أن يزداد الموقف الإسرائيلي ضعفاً في حالة اندحار أميركا من العراق وانكفائها عن المنطقة.

٧.٣- الغرب البرجماتي لن ينتحر لصالح أميركا

إن الغرب برجماتي بطبعه، ولن يستمر في الانسياق وراء الوهم والسراب الذي يسعى له المحافظون الجدد من خلال بناء شرق أوسط كبير يخدم مصالحهم. إن في الغرب رأياً عاماً داخلياً فعالاً قادراً على قلب الموازين ورفض السير وراء حكام مهووسين بجنون عظمة يقود إلى الدمار. نحن إذاً بحاجة إلى بذل الجهد كي نصبح على الخط مع هذا الرأي العام الغربي. ولا نظن فقط أن مشروعية قضايانا أو مظلوميتنا سيحدثان تحولاً جذرياً في الرأي العام الغربي. إن ما جرى في أميركا خلال الانتخابات النصفية وأدّى إلى اندحار الحزب الجمهوري والمحافظين الجدد يؤكّد أهمية معطى الرأي العام في الغرب، وضرورة التفكير في الوصول إليه وتوضيح قضايانا له والتقليل من تأثير الإعلام الصهيوني عليه خصوصاً وأنه بات أكثر استعدادا للإنصات لأطروحاتنا لسببين على الأقل: صمود القوى المقاومة بكل أبعادها في وجه الاستكبار والغطرسة، ثم التكلفة العالية والخسائر الباهظة التي على الغرب أن يقدّمها إن هو انصاع كلية وراء حكّام البيت الأبيض. نعم، علينا أن نطرح السؤال: إلى أي مدى سيستمر الأوروبيون والأميركيون في الإقبال على الموت لفائدة حماقات المحافظين الجدد واليمين المسيحي المتطرف الذين يخوضون الحروب من أجل تنفيذ أوامر الرب كما يدعون؟ وإلى أي مدى سيقبل الإسرائيليون أن

ينوبوا عن الأميركان في تنفيذ هذه الأوامر القذرة ؟ لا بدّ أن نتكلّم لغة المصالح مع الغرب ونُفهمه أن الفوضى الهدّامة ستضر بهذه المصالح وتهدّدها. وكلما انساق وراء السياسات الهوجاء للبيت الأبيض كلما تعمّقت الهوة بينه وبين العالم العربي والإسلامي، وازدادت مصالحه تضرراً.

٨.٣- روسيا والصين أكبر المستفيدين

قبل الحرب كتب ناعوم تشومسكي مقالاً نشره بتاريخ ٢٧ مارس ٢٠٠٦ تحت عنوان: «اضطراب الإمبراطورية» Les convulsions de l_empire قال فيه:«أميركا باتت قلقة من أن يهرب التحكّم في العالم من بين أيديها وتشعر بقلق شديد من محاولات أوروبا وآسيا الانعتاق من هيمنتها، وتخشى من تشكّل محتمل لعالم ثلاثي القطبية: أميركا - أوروبا- آسيا. وما يؤرقها أكثر هو أن تخسر هيمنتها على مصادر الطاقة النفطية والغازية في المنطقة الوحيدة التي لا تزال تهيّمن عليها؛ أي الشرق الأوسط ولكن ليس من دون عناء كبير جداً وبثمن الدم الأميركي... إذا كانت أوروبا تقبل بنوع من التماهي مع السياسات الأميركية وتبقى تابعة لها ولو بقدر يسير- يضيف تشومسكي- فإن دولة مثل الصين تمثل مصدر قلق حقيقي؛ لأنها تحس بنوع من الاستقلال إزاء أميركا. خصوصاً وأن الصين بصدد التحول إلى قاعدة للتصدير وتشكّل أيضاً سوقاً متنامية...».

اليوم نؤكّد أن تطور الأحداث في منطقة الشرق الأوسط يصب في مصلحة الصين وروسيا أكبر المستفيدين من هذه المرحلة، التي تميزت بالكثير من الغباء في الممارسات السياسية للأميركان. لقد تمكّن هذان البلدان من كسب الكثير من المصالح سواء في المجال التجاري أم في مجال الطاقة بما فيها النووية أم في المجال العسكري. ولن يضير الصين وروسيا ظهور قوى إقليمية عربية أو إسلامية معارضة للسياسات الأميركية التي تسعى إلى وضع اليد على نفط الشرق الأوسط العزيز أيضاً على الصين والهند وروسيا. لن يساعدوا الأميركان كي يستتب لهم الأمن في هذه المنطقة الحساسة والاستراتيجية. ومن الصعب في المرحلة الراهنة وبالنظر إلى الوعي الاستراتيجي للروس والصينيين أن تنجح الولايات المتحدة في إقناعهما بالوقوف في صفها بشأن الملف النووي الإيراني مهما كانت الحوافز التي ستقدّمها الإدارة الأميركية لهم اليوم باليد اليمنى لتأخذها منهم غداً باليد اليسرى عندما يستتب لها أمن المنطقة.

إن حماقات السياسات الخارجية الأميركية قد أثارت حفيظة روسيا التي باتت تتوجس خيفة من التطويق الذي يمارس حول حدودها وفي مجالها الحيوي الذي كان بالأمس القريب تحت قبضتها. كما تثير هذه الحماقات ضغينة الصين التي لا تنظر بعين الرضا إلى التعاون النووي الأميركي الهندي، ولا إلى الدور الذي تدفع أميركا اليابان - العدو التاريخي للصين - إلى لعبه في بحر الصين وشبه القارة الكورية، وهو الدور الذي لن تنجح فيه اليابان من دون إعادة هيكلة

قواتها العسكرية وإعادة النظر في طبيعة تسليحها بما في ذلك امتلاكها السلاح النووي.

٩.٣- حلف عالمي للمستضعفين أصبح ممكناً

إن الغرب الذي فاجأه انتصار حزب الله، أقلقه أيضاً ذلك التلاحم الكبير الذي صار بين المستضعفين في الأرض وجسَّدته تلك الصورة الرائعة التي وضعت جنباً إلى جنب السيد حسن نصر الله والرئيس الفنزويلي هوغو تشافيز يوم الاحتفال بالنصر في لبنان. إنها صورة لها أكثر من دلالة لعل أهمها التحام أكبر تجمّع مسيحي كاثوليكي في العالم (أميركا اللاتينية) بهموم وقضايا العالم العربي والإسلامي.

ليس غريباً أن يكرِّم اللبنانيون الرئيس الفنزويلي في يوم الاحتفال بالنصر وهو الذي سجَّل مواقف عجز عنها الكثير من قادة العرب والمسلمين. سواء في مساهمة فنزويلا في إعادة إعمار لبنان حيث طالب في خطابه يوم ٢٢ آب ٢٠٠٦ شعب فنزويلا بالتبرّع بما في وسعهم «من أجل إعادة إعمار ما دمّرته يد الإبادة الفاشية الإسرائيلية وسادتها في الإمبراطورية الأميركية»، أو حينما أعلن في ٣ آب ٢٠٠٦ سحب التمثيلية الفنزويلية من الكيان الصهيوني للتعبير عن شجبه للعدوان الإسرائيلي على اللبنانيين والفلسطينيين. كما سارع إلى تقوية علاقة بلاده بسوريا وإيران. ولم يتردّد خلال مداخلته أمام الجمعية العامة (سبتمبر ٢٠٠٦) في وصف الرئيس الأميركي بالشيطان والكاذب والجلاّد.

هناك تحوّل يعرفه العالم خصوصاً الفقير منه، وأبرز مظاهره تعرفها دول أميركا اللاتينية التي لم تبق «تلك الديمقراطيات الخاضعة التي تقبل الفقر وتتنازل عن سيادتها». كما قال رئيس مجلس الشيوخ البوليفي سانتوس راميريز Santos Ramire». هذا التحول والتحرر من هيمنة الولايات المتحدة الأميركية والذي كان آخر تجلّيات عودة الساندينيين لحكم نيكاراغوا ونجاح المرشّح اليساري المعادي لأميركا في الإكوادور وإعادة انتخاب تشافيز بفنزويلا سيدفع أميركا اللاتينية إلى المزيد من السيطرة على ثرواتها خصوصاً النفطية والغازية والفلاحية، والتخلّص من الارتباط بأميركا (تأميم مصادر النفط والغاز والبحث عن زبائن جدد غير الأميركان - الصين مثلاً-)، وتحقيق الاستقلال التجاري عبر تأسيس تجمّع تجاري:«الميركاسور»..

وإذا كان الاستعمار (الأميركي والغربي) يتوجّس خيفة لما يحدث اليوم في أميركا اللاتينية، باعتبارها منطقة بالغة الأهمية والخطورة بالنسبة له. ويتوجه نحو التشدد مع دولها إما باتهام بعضها بالانتماء لمحور الشر (كوبا نموذجاً)، أو باتهام أخرى بالعلاقة مع الإرهاب أو مع شبكات التهريب والمخدرات العالمية، فإنه قد أصبح مسكوناً بهاجس حصول نوع من التثاقف والتواصل والتنسيق بين حركات التحرّر العربية والإسلامية من جهة، وحركات التحرر العالمية والدول الساعية للخروج من الهيمنة الأميركية خصوصاً في أميركا الجنوبية ومنظمات العولمة البديلة المناهضة للأمركة المنتشرة عبر العالم والمتمركزة بشكل كبير وفعّال في الغرب من جهة أخرى.

١٠.٣- خرجة البابا لنسف التقارب المسيحي الإسلامي

إذا كان الغرب والاستعمار قلقاً من التقارب بين حركة التحرر العربية والإسلامية وبين حركات التحرر العالمية خصوصاً في أميركا الجنوبية ذات الطابع المسيحي الكاثوليكي، فإن البابا ذا الميول اليمينية قد استهدف بخرجته التي أساء فيها للإسلام إثارة غضب المسلمين ليقطع ما اتصل بين مستضعفي العالم المسيحي والإسلامي. إن تصريحات البابا لم تكن فلتة لسان فهو يعلم جيداً حجم الاحتقان الذي عرفه العالم العربي والإسلامي بعد نشر الصور الكاريكاتورية المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم، ويعلم جيداً أن مجتمعات أميركا اللاتينية المتمسّكة بالكاثوليكية ستستاء من أي هجوم عليه من طرف المسلمين. لقد أراد الوقيعة بين المسلمين والكاثوليك وأراد أن يطمئن الغرب العلماني والبروتستانتي أن الكنيسة الكاثوليكية والكاثوليك هم بجانب الغرب الاستعماري وليس ضده. من هنا وجب الانتباه إلى كل أبعاد مثل هذه المؤامرات وتأثيراتها على مستقبل تحالفاتنا وتواصلنا مع الأحرار في هذا العالم.

١١.٣- قلق وسط لوبيات النفط والسلاح والأعمال

تخضع مواقف الدول الغربية بقدر متفاوت لتأثير اللوبيات (لوبيات السياسة والمال والأعمال والنفط =والسلاح) ، وهؤلاء كان لهم دور في الحرب على العراق ولبنان. وبديهي أن نتساءل عن تأثير الانتصار على مصالح لوبيات المال والأعمال في الولايات المتحدة الأميركية والغرب إذ أصبحوا يشعرون بقلق من استمرار هذا النهج في السياسة الخارجية الأميركية. هذا ما يفسّر إلى حد ما الصعوبات البالغة التعقيد التي تجدها أميركا في جر العالم الصناعي إلى فرض عقوبات اقتصادية قاسية على إيران لاستمرارها في برنامجها النووي السلمي. أما لوبيات النفط فهي في وضع أصعب خصوصاً في العراق وإيران وأميركا الجنوبية ليس فقط بسبب ارتفاع أثمان النفط ومشتقاته، بل لأن النفط أصبح يؤدّى بدم الجنود الأميركيين. لكن بالنسبة للوبيات السلاح فالوضع أسوأ. إذ إن إحدى أهداف الحروب المفتعلة هو الترويج وبيع السلاح. فالحروب تكون إما مختبرات تجريبية لتطوير الأسلحة أو تكون معارض ميدانية حقيقية لإظهار تفوق الأسلحة المستعملة ونجاعتها. الحرب على لبنان أضرّت بمصالح لوبيات السلاح في أميركا وإسرائيل: فدبابة الميركافا (وهي في الأصل دبابة أميركية طورتها إسرائيل وسوّقت لها باعتبارها الأحسن في العالم) كانت طلبات شرائها قد بلغت أرقاماً قياسية قبل الحرب على لبنان، لكن اليوم أصبح من الصعب جداً بيعها لدرجة أن الكيان الصهيوني قد أوقف حالياً تصنيعها. وما يقال عن الميركافا وفاعليتها يقال أيضاً عن الطائرات الحربية وطائرات الهليوكوبتر وعن القنابل الذكية، وأم القنابل، والقنابل العنقودية والقنابل المخصّبة بالأورانيوم، والصواريخ، الموجهة بالليزر، والصواريخ الموجهة بالأقمار الاصطناعية وأجهزة الاستخبارات والرادارات إلخ...هذه الأسلحة أثبتت فعاليتها فقط في قتل الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة وفي تدمير البنى التحتية. الهزيمة

لحقت نوع التسلح والخطط العسكرية والعقيدة العسكرية (حروب بصفر خسائر بشرية) للمعسكر الصهيوأميركي، وبالمقابل أثبتت جدوائية وفعالية نوعية التسلح والخطط العسكرية والعقيدة العسكرية لحزب الله.

إن نوعية التسلح والخطة العسكرية المناسبة التي اتبعها حزب الله في حربه، ضد الكيان الصهيوني المتفوق عدداً وعدة، أوحت بإمكانية تصدي الدول الضعيفة للمعتدي على حدودها حتى ولو لم تتوفر على التسلّح المتكافئ والجيش الكبير. ومعنى هذا أن دول العالم قد تستعيض عن التسلح الباهظ التكلفة والمعقد في الاستعمال بتسلح أرخص وأسهل في الاستعمال لكنه أكثر فاعلية. أي قد تتراجع مبيعات السلاح الأميركي والغربي، ويتم الإقبال على السلاح الروسي والصيني والإيراني خصوصاً الأسلحة الصاروخية. وهذا ما سيضر بمصالح لوبيات السلاح في الغرب وبالتصنيع الحربي فيه.

١٢.٣- زعيم جديد يعيد توجيه بوصلة الصراع

بعد الحرب على لبنان أصبح الشارع العربي والإسلامي يقدّر السيد حسن نصر الله بشكل كبير، وينظر إليه باعتباره نموذجاً جديداً من الزعماء، أبعد ما يكون من نماذج التي ألفها: القيادات الفاشلة المنهزمة المستسلمة باسم الواقعية، والقيادات على شاكلة ابن لادن. بروز الزعيم /النموذج السيد حسن نصر الله أزعج الغرب وإسرائيل، وأزعج العديد من الحكّام العرب والمسلمين: بصدقه، بذكائه، بسرعة بديهته، بتواضعه، بوعيه، باستيعابه للمحيط المحلي والإقليمي والدولي، وبسماحته ورحابة صدره. إن النصر قد حبّب المنتصر إلى الجماهير العربية والإسلامية. ولن تنجح كل المساعي المبذولة في تشويه المقاومة ورموزها وأبطالها وجماهيرها وأنصارها من خلال حصرهم في زاوية الطائفية وإثارة النعرات المذهبية. إن السيد حسن نصر الله وحزب الله قد أعادوا توجيه بوصلة الصراع في اتجاه العدو الحقيقي للأمة (إسرائيل والإدارة الأميركية)، بعدما كادت تتيه في أتون حرب طائفية ومذهبية بدأت في العراق لتمتد إلى كل دول العالم العربي والإسلامي. كما أعاد الانتصار بناء التلاحم بين السنة والشيعة والمسلمين والمسيحيين والعرب والعجم، وحتماً ستبوء كل محاولات دعاة الفتن الطائفية والمذهبية بالفشل.

٤- العالم بين إرادتين:

إرادة الاستعمار والهيمنة أو إرادة المقاومة والاستقلال والحرية

حينما حشر حزب الله في الزاوية، وانهالت عليه آلة القتل لمدة ٣٣ يوماً لم يكن أمامه إلا الصمود لسبب بسيط؛ هو أنه كان يقود في تلك اللحظة معركة التحرير والاستقلال، ليس في لبنان وحده، بل نيابة عن الأمة وكل مستضعفي الأرض، من أجل الحق في المرجعية والهوية الحضارية. وحينما أمعنت الآلة العسكرية الصهيونية في الفتك بالأبرياء العزل من المدنيين اللبنانيين أمام أنظار العالم الذي وقف متفرجاً، بل مستعجلاً النصر الصهيوني الذي تأخر، لم

يكن أمام الشعب اللبناني إلا الصمود والتمسّك بالمقاومة. كان الصراع صراع إرادات انتصرت فيه في النهاية فئة قليلة لكنها متشبثة بإرادة الحياة والكرامة والعزة على جبروت الاستعمار وطغيان الجيش الذي لا يقهر، وعلى الهزيمة النفسية التي أسّست لها هزائم النظام العربي منذ ٦٧ إلى يومنا هذا.

ما كان أحد ينتظر هذا الصمود الطويل لمقاتلي حزب الله. الجميع كان يتوقع انهياراً سريعاً لحزب الله تماماً كما كان يحدث مع الجيوش العربية التي كانت تندحر مجتمعة في ساعات قليلة من اندلاع القتال مع الصهاينة، وخصوصاً بعد استعمال إسرائيل أسلحة غير تقليدية في هذه الحرب. وما كان أحد ينتظر صمود الشعب اللبناني الذي أبان عن تلاحم وتآزر مع المقاومة بشكل لم يسبق له مثيل بالرغم من إمعان الدولة العبرية في التنكيل بالمدنيين. وفي الوقت الذي كان كل العالم ينتظر سحق المقاومة وانكسار إرادة المدنيين اللبنانيين، حدث العكس وبدأ العالم يفتح عيونه على حقيقة مذهلة: حزب الله ينتصر، والشعب اللبناني لم ينكسر، وأسطورة الجيش الذي لا يقهر تتحطّم على قلاع المقاومة وإرادة الصمود في الجنوب والبقاع والضاحية. لقد استعمل الكيان الصهيوني كل إمكانيات أميركا الحربية لكسر شوكة المقاومة والتلاحم الشعبي حولها، خصوصاً في المناطق الشيعية التي تأثرت أكثر من غيرها بالدمار والوحشية الصهيوأميركية ضد المدنيين العزل، لكنه أخفق ومنيت خطته بالفشل الذريع. إذ كلما كانت إسرائيل توغل في وحشيتها ضد المدنيين اللبنانيين كلما كان يزيد التفاف الشعب اللبناني حول المقاومة. إن القادة الصهاينة، مدعومين بالدول الغربية وخصوصاً الولايات المتحدة الأميركية، قد داسوا باحتقار كل الحدود وانتهكوا كل الأعراف والقوانين الدولية، وارتكبوا جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، واستعملوا أسلحة محرمة دولياً كانت تأتي مباشرة من واشنطن عبر لندن لتلقى على رؤوس الأبرياء العزّل، الذين لم يجدِ بعضهم نفعاً من لجوئهم إلى القوات الدولية، واحتمائهم برايات الصليب الأحمر....

ولقد جسَّد الفنان الفرنسي ديودوني Dieudonné Mbala Mbala يوم ٣٠ آب ٢٠٠٦ حينما زار لبنان بعد الحرب إحساس وانطباع العالم بأسره بالانتصار الذي تحقق قائلاً: «أنا منبهر بالشجاعة والعزم والإصرار الذي أراه على أوجه اللبنانيين الذين شرعوا من جديد في إعادة تعمير بلادهم. يبدو أن هذه الحرب قد أعادت توحيدهم وتعبئتهم... أعتقد أن منعطفاً في المقاومة العالمية ضد إمبريالية الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل قد تم في يوليو ٢٠٠٦ بلبنان. إنها المرة الأولى التي انهزم فيها الجيش الإسرائيلي. هذه بداية تراجع الإمبراطورية».

نعم، تلقّى العالم بما في ذلك خصوم وأعداء المقاومة بانبهار وإعجاب الإصرار على الصمود حتى تحقيق النصر أو الشهادة لدى المقاومة وشعب المقاومة وأنصار المقاومة.

٥- مفاهيم المظلومية والغلبة.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً**﴾(١). ويقول القائد الكبير خالد بن الوليد(رض): «إنما تتم الكثرة بالغلبة وتتم القلة بالهزيمة».

ماذا فعل المنتظم الدولي عند بداية العدوان الإسرائيلي الأميركي على لبنان؟ لا شيء إن لم يكن قد دعم العدوان وأطلق له العنان. فالجميع بما في ذلك الأنظمة العربية والإسلامية - باستثناء تلك التي تدعم المقاومة - كانوا يأملون في أن يُمحى حزب الله من الوجود على الأقل على المستوى العسكري.

لكن العدوان الوحشي الذي تعرّض له لبنان وقوبل في البداية بالصمت والتواطؤ الدولي إزاء استعمال العدو الصهيوني أسلحة محرّمة دولياً ضد المدنيين العزّل، سيوجد حالة من التضامن العالمي خصوصاً على المستوى الشعبي ويظهر إسرائيل والقادة الأميركيين كهمجيين فقدوا كل حسّ إنساني وبعد أخلاقي، وخارجين عن المجتمع الدولي. بل سيولد حالة من التعاطف ويغيّر كثيراً من القناعات لدرجة أن بعض الغربيين قد بدأوا يتجرأون على القول: إن إسرائيل جسم غريب وشاذ، يشكّل وجوده في الشرق الأوسط والعالم تهديداً للإنسانية جمعاء؛ أي إن الحرب على لبنان قد أعادت ولو بشكل خجول اليوم السؤال العالمي حول شرعية وجود هذا الكيان اللقيط واستمراره.

٦- العولمة وثقافة المقاومة

كلما فكّرت بإعطاء تعريف للفعل المقاوم إلا وأستحضر الآيتين الكريمتين ١٢٠ و١٢١ من سورة التوبة: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلاَ يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(٢)، فبسمة السيد حسن نصر الله فعل مقاوم؛ لأنها بالتأكيد تغيظ الصهاينة. الطفل الفلسطيني الذي يقف منتصباً أمام الميركافا يرميها بحجر فعل مقاوم بامتياز يغيظ الصهاينة؛ لأنه منظر عزّة وعنفوان هذه الأمة كما يقول الشهيد السيد عباس الموسوي في معرض جوابه عن السؤال: ماذا يفعل الحجر بدبابة؟ التفاني في تحرير اقتصاد البلاد من التبعية يغيظ الأعداء إذاً هو مقاومة. تحصيل العلم والتكنولوجيا المتطورة يغيظ الأعداء فهو إذاً مقاومة، التضامن مع الشعوب المستضعفة والتعاون معها لنيل حقوقها والانعتاق من براثين التخلف والتبعية يغيظ الأعداء فهو مقاومة، المطالبة بمقاطعة سلع أميركا وإسرائيل

---

(١) سورة النصر، الآيات ١، ٢، ٣.

(٢) سورة التوبة، الآيتان ١٢٠، ١٢١.

يغيظ الأعداء وينال منهم نيلاً فهو مقاومة. وباختصار؛ حينما تصبح المقاومة تعبيراً عن حالة نفسية ترفض الاستسلام لليأس والهزيمة، وسلوكاً يومياً يغيظ الأعداء وينال منهم، مهما كانت رمزية هذا الفعل والسلوك نكون قد قطعنا شوطاً مهمّاً في هزم المشروع الصهيوأميركي. نعم، على مثل هذا الشعور يجب أن تتأسّس ثقافة المقاومة وتعمّم، بل ونؤسّس عولمة إنسانية بديلة ترفض الهيمنة والاستكبار العالمي.

إن خصوصية الإسلام في عالميته؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث للناس كافة، وأرسله الله رحمة للعالمين. لكن الإسلام يسعى لعولمة العدل والمساواة بين البشر، وثقافته غنية بالقيم الإنسانية النبيلة التي تأمر أتباعها بالوقوف في وجه من يقتل الذي يأمر بالعدل بين الناس وتحثّهم على تلبية نداء كل حلف فضول إنساني لمساندة المظلوم ومناهضة العدوان والظلم والاستبداد والضرب على يد الظالم. دين بهذه المضامين لا يمكن إلا أن يصطف أتباعه إلى جانب شعوب الأرض المظلومة من أجل مجتمعات متساوية في الحقوق وأمام القرارات والقوانين الدولية.

الخلاصة

الطريق نحو هزيمة المشروع الإمبريالي وإسقاط المخططات الصهيوأميركية ليست معبّدة وسهلة فالأعداء لا زالوا أقوياء. هم اليوم كالوحوش الضارية التي تزداد خطورتها حينما تكون مجروحة وهم اليوم كذلك بسبب هزيمتهم في لبنان. وما زال بمقدورهم أن يلحقوا الكثير من الأذى بالمشروع التحرري العربي والإسلامي خصوصاً وأن الطابور الخامس التابع لهم متنفذ وقوي في البلاد العربية والإسلامية.

- لا بدّ في هذه المرحلة من طرح الأسئلة الصحيحة حول المداخل الممكنة للاستعمار، كي يضرب وحدتنا ويقطع أوصال أوطاننا. المدخل الطائفي، المدخل المذهبي، المدخل اللغوي والثقافي، المدخل الثقافي والسياسي والاقتصادي إلخ.. وكيف نتعاطى مع هذه المداخل؟

- لا بدّ أن نقف على أسباب تدنّي مستوى التعبئة الشعبية في جل الأقطار العربية والإسلامية حول القضايا المركزية خصوصاً في ما يتعلق بمقاومة ومواجهة مخططات الاستعمار وعملائه؟

- لا بد أن نقف عند السؤال: كيف السبيل إلى الرفع من مستوى التعبئة الجماهيرية حول المقاومة بأبعادها الشاملة والحفاظ على هذه التعبئة؟؟

- وما هي الأسباب التي تدفع ببعض الجهات -المحسوبة على الصف الإسلامي - إلى أن تصبح أدوات منفذة لسياسات مشبوهة في منطقتنا ؟ إلخ...

إن المقاومة قد حققت شيئاً غاية في الأهمية هو النصر، ولكن التحدّي اليوم بالنسبة للمقاومة وشعب المقاومة وأنصار المقاومة، هو كيفية المحافظة على هذا النصر واستثمار نتائجه السياسية كي لا يضيع؟

انتصـــار حـــزب اللـــه
فـــي إطـــار المشـــروع النهضـــوي الإســـلامي

رئيس تحرير مجلة المختار الإسلامي المصرية
د. محمد مورو

مشروع المقاومة .. الجهاد الحضاري

مع كثرة الحديث عن مشروعات الإصلاح، وكثرة الأطروحات التي تناقش حالة التخلف والانحطاط العربي والإسلامي، فإن من الضروري علمياً وموضوعياً وشرعياً تحديد نقطة الانطلاق الصحيحة ومن ثم البرنامج الملائم للإقلاع من تلك الحالة التي تعاني منها أمتنا.

إذا كان من الضروري بداية لوضع تصور صحيح للإقلاع والإصلاح أن نحدد طبيعة الجماعة البشرية التي نحن بصدد تحديد أمراضها ومن ثم وضع الوصفة الصحيحة لعلاجها، وكذا طبيعة التحدي والأمراض التي تواجهها تلك الجماعة البشرية، أي الانطلاق من نقطة مبدئية وهي أننا لا نتعامل مع جماعة بشرية مصمتة ليس لها سمات ولا خصائص، وكذلك أننا لا نتعامل مع مجموعة أحجار أو أشياء مادية تخضع فقط لقوانين وسنن الفيزياء والكيمياء... إلخ، لكان علينا في البداية تحديد من هي هذه الجماعة البشرية التي نحن بصددها؟ وبدون الدخول في تفصيلات كثيرة فنحن أمام جماعة بشرية - العالم العربي والإسلامي - لها تاريخ وحضارة وثقافة عميقة جداً، وبصرف النظر عن إيجابية أو سلبية تلك السمات الثقافية والحضارية لتلك الجماعة، فإن هذه الجماعة تتأثر بالضرورة بتلك السمات الثقافية والحضارية، ومن ثم فإن تجاهلها يؤدي مباشرة إلى الفشل، بل وتكريس الحالة التي نريد علاجها، هذه الأمة إذاً، أمة إسلامية شئنا أم أبينا، وبالتالي، فإن المكون الرئيسي والأساسي لوجدان وثقافة هذه الأمة هو الإسلام كدين وحضارة وثقافة بالنسبة للمسلمين (الأغلبية الساحقة) وكثقافة وحضارة بالنسبة لغير المسلمين داخل تلك الأمة. وهكذا فإن شرط النجاح الأول لأي مشروع هو إسلاميته، ونحن في الحقيقة أمام أمة هي الأعمق ثقافياً وحضارياً بلا استثناء بالنسبة لكل الجماعات البشرية (١٤ قرناً على الأقل واتساع جغرافي وامتداد زماني وثقافي وتأثير واضح للإسلام لا تخطئه عين أي مراقب)، وهكذا فإن وهم تغييب الإسلام والحضارة والثقافة الإسلامية - بوعي أو بدون

وعي- كرهاً أو رغباً هو قفزة فاشلة في المجهول والفراغ، ولن تحدث مطلقاً مهما فعلنا أو فعل غيرنا، إنها محاولة محكوم عليها بالفشل ونتيجتها الحتمية ضياع الوقت والجهد ومسخ ذلك الكيان جزئياً ومن ثم تعطيله عن التصدي الصحيح والكفء للتحديات والأمراض، وهذا بالتحديد هو السبب الأساسي لفشل كل مشروعات النهضة على الأساس غير الإسلامي (العلماني الليبرالي، العلماني القومي، العلماني الاشتراكي بكل درجاته).

والنتيجة هي ما نشاهده الآن من نتائج تلك المحاولات التي استقطعت من عمرنا وجهدنا الكثير بلا طائل، بل بنتيجة عكس المطلوب تماماً. الإسلامية إذاً هي الشرط الأول لأي مشروع للإصلاح، ولكن العنوان لا يكفي فلا بد من تحديد ما تحت العنوان وما بعد العنوان. وإذا قلنا إن هذه الأمة غير قابلة للذوبان الحضاري؛ لأنها الأعمق حضارياً وثقافياً، فإن هذا يقود إلى الإيمان باستحالة هزيمتها هزيمة عسكرية وسياسية نهائية. وإذا بدأنا من تحديد أسباب التراجع وقلنا إن المنحنى الإسلامي صمد منذ البعثة المحمدية ثم ساد العالم، ثم ثبت هذا المنحنى، ثم نزل، وأننا الآن في حالة نزول حضاري - هزيمة تكنولوجية واضحة - يجب الاعتراف بها أولاً، ثم العمل على تجاوزها ثانياً، وإذا بحثنا عن سبب نزول هذا المنحنى وقبل ذلك سبب صعوده، لكان من الممكن تلخيص المسألة في كلمة واحدة، هي كلمة الجهاد، فطالما قامت هذه الأمة بالجهاد، كواجب شرعي وفعل حضاري لإنقاذ المستضعفين في العالم كلما صعد المنحنى الحضاري لأمتنا وكلما تخلينا عن هذا الواجب وأبطلنا هذه الفريضة أو اكتفينا بالدفاع توقف صعود المنحنى ثم ثبت ثم نزل، ومن ثم فإن الصعود مرتبط باستعادة هذا الفعل. وفي الحقيقة فإن كثيراً من الأطروحات - بعضها إسلامي طبعاً - حين تتجاهل هذا البعد، وتتحدث مثلاً عن التنمية الاقتصادية، الإصلاح السياسي - التربية... إلخ، فإنها تكرس التخلف، لن تحقق الوحدة مثلاً، ولا الإصلاح الاقتصادي، ولا الإصلاح السياسي إلا إذا جاهدنا. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1]، «ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا» وهكذا، فإن الجهاد هو كلمة السر الصحيحة والوحيدة، الجهاد هو شرط التقدم الاقتصادي والاجتماعي، وشرط التنمية الحقيقية، وشرط كل شيء صحيح وجميل؛ فإذا أردنا أن نحقق زراعة أو صناعة أو تعليم أو تربية أو حتى تفوق فني وأدبي، فإن الجهاد هو الشرط الأول، وهذا المعنى الصحيح للآية المذكورة سابقاً، وللحديث الشريف كذلك. يجب بالطبع إدراك بعد الهزيمة التكنولوجية، والاعتراف بها ويجب أن ندرك أن علينا في البداية أن نقلل سرعة نزول المنحنى الحضاري لأمتنا، وأن نوقف هذا النزول تماماً، ثم نحدث انقلاباً في المنحنى ثم نصعد من جديد إن شاء الله، وبدون هذه المراحل فإننا نقفز في الهواء، وهذا لعمري كان خطأ الحركات السياسية الإصلاحية عموماً والإسلامية منها خصوصاً حتى الآن. يجب تقديم اجتهاد فكري وحركي وفقهي يلائم هذا الظرف، ويحقق أقصى قدر من فريضة الجهاد.

الأطروحات الحضارية المراوغة والأطروحة الحضارية الحقيقية

سندخل مباشرة في بعض الأطروحات المراوغة، التي تقول إحداها مثلاً إننا أمة متخلفة ومهزومة (وهذا صحيح) وإن المواجهة ليست حلاً (وهذا غير صحيح)، ومن ثم فعلينا اتباع الأسلوب الألماني أو الياباني في الإصلاح؛ أي ترك موضوع المواجهة والجهاد نهائياً والتفرّغ للبناء والإنتاج، في محاولة لسد الفجوة التكنولوجية ومن ثم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وهذا طرح خاطئ لعدة أسباب؛ فالمعركة ضد الألمان واليابانيين لم تكن معركة حضارية ولا ثقافية، بل عسكرية وسياسية، أما نحن فالمعركة ضدنا بالإضافة إلى كونها عسكرية وسياسية واقتصادية، فإنها أيضاً حضارية وثقافية، نحن لسنا فقط إزاء مشروع استعماري اقتصادي وسياسي، بل إزاء مشروع حضاري يستهدف القضاء على أمتنا، وهناك وجدان صليبي يحرك الأعداء ضدنا، والمواجهة مع الغرب الصليبي لم تنقطع قط في الزمان ولا المكان بدءاً من حياة الرسول وحتى اليوم، مروراً بالمواجهة في الأندلس والمغرب العربي (حرب الألف عام كما يطلق عليها المؤرخون المغاربة) ومروراً بحروب الفرنجة على المشرق العربي الإسلامي ١٠٩٥ م - ١٢٩٥ م وكذا مروراً بالمواجهات التي خاضتها الدولة العثمانية، ثم الاستعمار والصهيونية وحتى احتلال أفغانستان والعراق، فالمسألة هنا أننا أمام عدو لن يقبل بغير الاجتثاث لأمتنا، ولن يتركنا نبني ونعمر، فهو لن يقبل لنا النهضة على الأساس الإسلامي أو حتى العلماني أو على أي أساس، ونحن أمة وسط ثقافياً وجغرافياً ولسنا جزراً منعزلة، وبالتالي فالقياس الألماني والياباني قياس مخادع وخاطئ، بالإضافة إلى أن أمريكا والغرب كان لهم مصلحة في تقدم ألمانيا الغربية في إطار الصراع مع المنظومة الاشتراكية، وكذا في تقدم اليابان حتى لا ينفرد الاتحاد السوفيتي أو الصين بالتمدد في آسيا. وموضوع القياس الياباني والألماني خطأ مبدئي بالنظر لظروف وطبيعة الصراع مع الغرب، وهو أكبر خطأ بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق والمنظومة الاشتراكية لأنه ليس هناك استقطاب يسمح بهامش من المناورة يمكن أن نفلت بها من موانع الغرب وعراقيله على نهضتنا، وهكذا فإن القياس الألماني والياباني يحتم المواجهة والجهاد والمقاومة.

من الأطروحات الأخرى المراوغة، أننا أمة لا قيمة لها وأن الدخل القومي الأمريكي مثلاً ١٢ تريليون دولار، أما الدخل العربي والإسلامي السنوي فهو قليل جداً - العربي ٧١٧ مليون دولار، أي أصغر من رأسمال شركة مايكروسوفت مثلاً أو نوكيا للهواتف المحمولة أو دولة واحدة مثل إسبانيا، وهذا صحيح، ومن ثم فإن الغرب لا يضعنا في اعتباره وليس طامعاً فينا أو لا نشكل له أي نوع من التهديد. ولعل حجة هؤلاء هي نفسها تنسف منطقهم، فمادمنا بلا قيمة ولا نشكل خطراً فلماذا تم زرع إسرائيل؟ ولماذا تمّ احتلال أفغانستان ثم العراق ؟.. هل لتدفق البترول مثلاً ؟.. وهذا البترول مهم طبعاً، ولكن تدفقه كان مضموناً بدون مخاطر هذا الاحتلال على الأمريكان وحلفائهم، بل إن أحد الزعماء العرب قال ذات يوم مستغرباً، إنهم يأخذون البترول

وحتى صدام حسين شخصياً كان مستعداً لأن يضخ لهم البترول؛ إذاً فالمسألة لها بعدها الحضاري والثقافي والتاريخي بالإضافة إلى بعدها الاقتصادي والسياسي. أما مسألة أننا لا نشكل خطراً عليهم، فهذا كلام جزئي، نعم، ربما لا نشكّل خطراً حقيقياً أو كبيراً الآن ولكن هناك ما يسمى بالقوة الكامنة، والمنظومة الإسلامية الثقافية تمثل خطراً شديداً على المنظومة الغربية الرأسمالية؛ لأنها تشكل البديل الأيديولوجي لكل مستضعفي العالم للثورة على الرأسمالية بعد فشل الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي، وبديهي أن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي كانا لا بد أن يفشلا أمام الرأسمالية لأنه من الناحية العلمية والموضوعية فإن الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي قد خرجا من نفس الأرضية الحضارية التي أفرزت الرأسمالية، ومن الطبيعي أن هذا سبب جوهري وبنيوي للفشل. أما الإسلام فهو منظومة ثقافية مختلفة أولاً، ليست نابعة من المنظومة الحضارية الغربية، وهي ذات تراث ونصوص منحازة للفقراء ثانياً، وبالتالي قادرة على تقديم التبرير النظري للثورة على الرأسمالية، وهي ذات خطاب عالمي ثالثاً، وبالتالي فهي يمكن أن تصلح كأيديولوجية أو جذر ثقافي للبشر المستضعفين والمتضررين من الرأسمالية (وهم أكثرية العالم) سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، ثم إن الخطاب الإسلامي خطاب غير عنصري، أضف إلى ذلك، أن الرقعة الجغرافية المتوسطة وذات الاتساع الكبير التي يشغلها العالم الإسلامي وكثافته السكانية الكبيرة والواعدة، ثم ثقافة القتال والجهاد، والاعتماد على مدد الله يمكن أن تشكل مصدراً لا ينضب للمجاهدين والمناضلين، وهكذا، فإن خوف الغرب وأمريكا من الإسلام والمسلمين له أسبابه القوية والخطيرة أيضاً، وحديث المفكرين والسياسيين الغربيين عن الخطر العربي والإسلامي ليس وهماً ولا خداعاً، بل إدراك مبكر أو تقليدي لما يمكن أن يمثله الإسلام والمسلمون إذا ما سادت ثقافة المواجهة والمقاومة وثم استعادة فعل الجهاد الجميل.

لماذا نقول مشروع المقاومة، ولا نقول مثلاً مشروع الإصلاح السياسي أو الاقتصادي أو التربية أو غيرها ؟!.. ذلك كما قلنا لأننا أمة لن تنهض ولن تتقدم إلا بالجهاد؛ وذلك لأننا أمة مستهدفة، والسيف فوق رؤوسنا، فهل نخدع أنفسنا مثلاً ؟.. وقد بان الأمر الآن، فأمريكا وبريطانيا والحلفاء جاؤوا بجيوشهم والانطباق الكامل بين إسرائيل وأمريكا أصبح واضحاً للعيان لا تخطئه عين وخاصة بعد ما يسمى (بوعد بوش) الصادر مع شارون في مؤتمر صحافي ١٤ /٢٠٠٣/٤، وهو مفهوم من قبل ولكن ذلك لمن يريد حجة دامغة بدون جهد!..

وكذلك، لأن الله تعالى وضع لنا الحل الصحيح في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ● فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا

عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (٢).

وهذه الآيات تنطبق على حالتنا الراهنة تماماً، حيث إنه لم يحدث تحالف - فضلاً عن موالاة- بين اليهود والنصارى إلا في السنوات الأخيرة، بل كان العداء بين الطرفين هو سيد الموقف دائماً لدرجة ظهور ما يسمى بالمسألة اليهودية أو العداء للسامية في الفكر الغربي واليهودي على حد سواء، المهم أن هناك الآن موالاة والموالاة أعلى من التحالف بين الغرب وإسرائيل، وهناك احتلال أمريكي لمناطق وبلاد عربية وإسلامية ومنطق الذين لا يريدون المقاومة ولا القتال ولا الجهاد ولا الاستشهاد يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة أي نخاف منهم لأنهم أقوى منا بمراحل، نعم، هذا صحيح ولكن لنا أدواتنا ووسائلنا لخوض المواجهة، بالمقاومة الشعبية التي أثبتت نجاحها في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان، وبسلاح الاستشهاد الذي لم يجدوا له علاجاً، ولن يجدوا إن شاء الله - حتى الآن - وحتى بصرف النظر عن النتائج، فإن الله تعالى طلب منا ذلك وفضح منطق المسارعين فيهم، وبشرنا بأن الفتح أو أمر من عنده سوف يأتينا، ونحن بالتالي نطرح المقاومة ومشروع المقاومة والمواجهة كحل صحيح وكفريضة شرعية، وكتوجيه قرآني، وكذلك من الناحية العلمية والموضوعية فهو سلاح وطريقة وأسلوب أثبت نجاحه؛ فالمقاومة العراقية أثبتت حتى الآن أنه رغم كل الظروف الصعبة وغير المؤاتية نجحت في تعطيل المشروع الأميركي، وفي سبيلها لإنهائه إن شاء الله. نفس الأمر بالنسبة لمشروع المقاومة في فلسطين، الذي جاء أيضاً في ظروف غير مؤاتية، ومع ذلك هز الوجود الإسرائيلي هزاً، وألقى بظلال من الشك حول المشروع الصهيوني ذاته كما اعترف بذلك قادة العدو وكبار مفكريه والأمر ذاته بالنسبة للمقاومة في لبنان.

مشروع المقاومة إذاً، أثبت أنه يمتلك مقومات النجاح، وإذا أدركنا أننا في حالة هزيمة تكنولوجية وأنه من المستحيل عملياً مواجهة آلة الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية الأمريكية والصهيونية بالجيوش أو الدول أو المؤسسات الرسمية وكل التجارب دلت على ذلك، فإن التجارب ذاتها دلت على أن المقاومة الشعبية استطاعت أن تبرز وتأخذ مكانها، وهي سوف تحقق أولاً نوعاً من التصدي والصمود يمنع وصول المنحنى الحضاري الإسلامي إلى نقطة السقوط النهائية، والمقاومة سوف تزيد وعي الشعوب بالتحديات التي تحيط بها، وتوقظ هذه الشعوب وتعالج الأجزاء المريضة في الجسد العربي والإسلامي؛ وبالتالي يزداد هذا الجسد حيوية. ولا شك أن ذلك سوف يزيد قدرة هذه الشعوب على انتزاع حقوقها السياسية. ومن هنا، فإن مشروع المقاومة هو المقدمة الأولى والصحيحة والجوهرية للإصلاح السياسي، وعلى نفس النمط هو المقدمة الأولى والصحيحة للتقدم الاقتصادي وإشاعة روح الوحدة والتكافل والحيوية والإيجابية، بل سوف تفجر طاقة الابتكار العلمي والتكنولوجي أيضاً، وهكذا، فإن مشروع المقاومة وإشاعة ثقافة المقاومة هو الأسلوب الصحيح شرعياً وواقعياً، وفي أسوأ الحالات فإن التخلي عن

الجهاد والمقاومة يعني الإبادة والقتل والتدمير والنهاية الحضارية وتحولنا إلى عبيد أو قتل الجزء الأكبر منا، وتحويل الباقي إلى عبيد. أما المقاومة فهي إما نصر وإما شهادة، وحتى لو كانت النتيجة هي الهزيمة، فإن خسائر الهزيمة لن تكون أسوأ من حالة الانبطاح، وعلى الأقل هناك الكرامة، وهناك التجربة التي يمكن تكرارها مع الأجيال القادمة، أي المحافظة على الجذوة مشتعلة تحت الرماد.

ولن نكون مغرقين في الوهم أو التفاؤل حين نقول إن مشروع المقاومة لن يحقق فقط العزة والكرامة لنا، بل سيكون بداية لتحرير العالم كله من الهيمنة والظلم الأمريكي الصهيوني، وهذا سوف يرفع قيمة أطروحتنا الثقافية عالمياً، بل يمكن أن يتحول الإسلام إلى أيديولوجية لكل المستضعفين والمناهضين للرأسمالية والعولمة، وحتى بمنطق الدعوة المباشر، فإن المواجهة والمقاومة ستكون طريقاً صحيحاً لدخول الناس في دين الله أفواجاً.

جدليـة الجهـاد

الوعي - التقوى - النهضة

إذا تأملنا قول الله تعالى:

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت الآية ٦٩).

الغزو والهجوم لإعلاء كلمة الله، وبين وعد الله تعالى لهؤلاء المجاهدين بأن يهديهم سبله، أن يهديهم إلى الوعي والتقوى والنهضة والفوز في الدنيا والآخرة.

ويمكننا أن نقول: إن هناك علاقة جدلية بين الجهاد والوعي، فالجهاد في سبيل الله يفجر الوعي، والوعي يؤدي إلى اختيار طريق الجهاد، فمن أراد امتلاك الوعي فليجاهد ومن أراد أن يجاهد فليمتلك الوعي، فالجهاد نوع من الاحتكاك بقوة مع الآخرين. ويمكن للإنسان أن يكشف الكثير من الحقائق والسنن من خلال الاحتكاك والغزو والهجوم؛ لأنه أولاً سفر في الأرض. وهو ثانياً احتكاك بأناس آخرين، وهذا طريق لا شك فيه للوعي، ثم هو طاعة لله وهذا طريق لأن به يفتح الله على المجاهد أسباب الفهم والوعي، ودقة التحليل، وشمولية المعرفة ثم إن حاجات المجاهد تستدعي الحاجة إلى الاختراع والابتكار، ومن المعروف أن الحروب كانت سبباً في كثير من المخترعات العلمية. وهناك أيضاً علاقة جدلية بين الجهاد والتقوى، لأن الجهاد تحقيق لأمر الله وهذا أول نوع من التقوى، ثم إنه يضع النفس والمال في محك خطير؛ فالإنسان الذي هو مستعد للتضحية بالنفس والمال ومعرض للموت في أية لحظة يشتد خوفه من الله وحبه لدينه، وهذا يزيد حرصه على طاعة الله تعالى والإقلاع عن المعصية.

ثم إن الإقلاع عن المعصية والإكثار من الطاعات، تعين الإنسان على قهر نفسه وعدم التردد في الخروج للجهاد، ودفع المال في سبيل الله، وكذا الشجاعة في المواجهة، وحب الموت، وعدم الجبن؛ وبالتالي فالتقوى طريق إلى الجهاد.

ثم إن التقوى ذاتها تؤدي إلى الوعي والعلم والمعرفة، وليس أدل على ذلك من شكوى الإمام الشافعي لمعلمه سوء الحفظ، ونصحه المعلم بترك المعاصي إذا أراد أن يتخلص من سوء الحفظ، وهي حكاية مشهورة عن الإمام الشافعي. والجهاد طريق إلى النهضة والحضارة والتقدم العلمي والعملي، لأن الجهاد أولاً يحقق للإنسان التوازن النفسي، لأنه يكون في حالة انسجام مع الله تعالى ومطيعاً لفروضه وهذا التوازن النفسي شرط ضروري من شروط النهضة. والجهاد ثانياً طريق لزيادة رقعة الإسلام الجغرافية والسكانية أي زيادة المعطيات الحضارية كمّاً وكيفاً وهذا طريق للنهضة والحضارة أيضاً، والجهاد كما قلنا طريق للوعي والعلم والخبرة والمعرفة وهذا أيضاً شرط من شروط النهضة، والجهاد هو أحد أشكال الطاعة والتقوى وهو يزيد من قوة وكثافة التقوى التي تدفع الإنسان للعمل الجاد على كل مستوى، وهو أيضاً شرط من شروط النهضة.

إذاً، فالجهاد طريق إلى النهضة والحضارة، وإذا تتبعنا المنحنى الحضاري الإسلامي في كل مستوياته العلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وجدنا أن الأمة كانت دائماً في حالة صعود حضاري طالما كانت في حالة غزو وهجوم وأنها بدأت في طريق الانحطاط الحضاري عندما تخلّت عن واجب الغزو والهجوم واكتفت بالدفاع، ثم انهارت حضارياً على كل مستوى عندما تخلّت عن الدفاع أيضاً؛ وبالتالي فإنه لتحقيق النهضة فإن الجهاد شرط أساسي من شروطها ومن الأمثلة الفريدة في هذا المضمار مثلاً أن المقاومة الشعبية الإسلامية في مصر عندما دخلت في جهاد مع الفرنسيين إبان الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١ م استطاعت أن تصنع المدافع والبارود خلال ثورة القاهرة الثانية؛ أي أن الثورة فجرت ثورة صناعية وتقدماً تكنولوجياً، وهذا دليل على أن الجهاد طريق إلى الثورة الصناعية وطريق إلى النهضة عموماً.

والتخلي عن الجهاد هو طريق إلى الانحطاط والذل والتراجع الحضاري وهذا حالنا يثبت ذلك، فكلما تخلينا عن الجهاد وقعدنا عنه نتخلف حضارياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً وعسكرياً، بل ونصبح أذلاء مستضعفين تجاه الهيمنة الأوروبية والأمريكية وخاضعين لنفوذهم السياسي والعسكري والاقتصادي فضلاً عن الثقافي.

وعلينا الآن أن نتأمل حديث رسول الله ﷺ الذي يقول : *(إذا تبايعتم بالنسيئة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم)* رواه أحمد وأبو داود وصححه الحاكم.

وهذا الحديث واضح الدلالة في أن ترك الجهاد يورث الذل أي يورث الخضوع للآخرين، ويورث الانهيار الحضاري في كل مستوياته؛ لأن كلمة الذل شاملة تعني الانحطاط السياسي والاقتصادي والعسكري والحضاري، وأن الطريق إلى نزع هذا الذل أي لتحقيق النهضة والاستقلال والإبداع الحضاري هو القيام بواجب الجهاد.

إذاً، فالجهاد هو أحد أهم شروط النهضة، لأن الجهاد يرفع مستوى التقوى والوعي والمعرفة وبديهي أن المجاهد شخص إيجابي، والتقي شخص حريص على أداء عمله بإتقان وأمانة وكلها شروط لازمة للنهضة.

إذاً فهناك علاقة جدلية بين الجهاد، والوعي، والتقوى، والنهضة، وكلها أمور شديدة الارتباط ببعضها البعض، وخلاصة القول إن المسلم لا يكون في حالة إبداع حضاري إلا إذا كان قائماً بواجب الجهاد، بل إن الأمة الإسلامية لم تتقدم حضارياً ولم تحقق حضارتها ونهضتها الشامخة إلا في عصور ازدهار الجهاد والغزو والقتال في سبيل الله والعكس صحيح تماماً.

وعلينا أن نتأمل الآية القرآنية التي تقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢)

وهذه الآية تقول إن الجهاد خير، ولا شك في ذلك فهو خير على المستوى الشخصي، لأن المجاهد يحقق رضا الله تعالى ثم يحقق دخول الجنة. ثم يحقق لنفسه التوازن النفسي والإيجابية والتقوى والوعي والغنائم، وعلى المستوى الجماعي، فإن الجهاد يحقق العزة والنصر والتقدم الحضاري والسيادة والنهضة.

علاقة المقاومة بالبنية الاجتماعية

إذا تتبعنا حركات المقاومة العربية والإسلامية في التاريخ المعاصر نكتشف حقيقة واضحة للعيان، وهي أن الحكومات والدول والجيوش النظامية فشلت دائماً في مواجهة الغزو الخارجي، في حين نجحت المقاومة الشعبية في ظروف معينة، وهذه الظروف تحديداً هي ما ينبغي معرفته ودراسته حتى ننجح في مواجهة هذا التحدي، وهو التحدي الذي نعاني منه منذ قرنين على الأقل وبصوره مستمرة، السبب في فشل الجيوش النظامية والحكومات والدول ونجاح المقاومة الشعبية في ظروف معينة، هو أننا أولاً أمة ذات طبيعة خاصة، وأننا أمة ذات ثقافة معينة وهي الثقافة الإسلامية، ومن ثم فإن هذه الأمة والجماهير لن تتحرك إلا من خلال الوجدان الإسلامي، وبما أن الحكومات والدول والجيوش لم تكن تنطلق في عملية المواجهة من خلال المنظومة الإسلامية بسبب قيام أنظمة حكم ودول تتبنّى مرجعيات أخرى مخالفة أو ليست نقية تماماً بالنسبة لهذا الوجدان الإسلامي، فإن الفشل هنا بديهي، فكيف نواجه منظومة حضارية تغزونا بجيوشها وبثقافتها وحضارتها بقيم وثقافات ومرجعيات مستمدة من نفس الأرضية الحضارية المعادية؟ أولاً تخالفها تماماً، لأن أي قدر من الميوعة وعدم الحسم في رفض المنظومة المعادية يعني مباشرة أننا تمت هزيمتنا قبل أن تبدأ المعركة.

ولكن هذا بالطبع لا يكفي لتفسير الظاهرة، ولا بد من البحث عن أسباب أخرى لظاهرة نجاح عمليات المقاومة في ظروف معينة وفشل الحكومات والجيوش في مواجهة الغزو الأجنبي.

لدينا العديد من التجارب الناجحة في حركات المقاومة، المقاومة الشعبية المصرية ضد

الحملتين الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١ مـ والإنجليزية «حملة فريزر» ١٨٠٧ مـ، مع ملاحظة أنه على حين قاومت كل قرية ومدينه في مصر بما فيها القاهرة ضد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١ مـ وكذا قاومت القوى الشعبية حملة فريزر بعد فشل المماليك في مواجهة الفرنسيين عام ١٧٩٨ مـ وهزيمتهم في معركة إمبابة، وكذا غياب الحكومة «حكومة محمد علي عن عملية المواجهة ضد حملة فريزر ١٨٠٧ مـ لأنه كان بالصعيد مع جيشه يطارد فلول المماليك المعارضين لحكمه... فإنه في عام ١٨٨٢ مـ عندما دخل الجيش الإنجليزي القاهرة لم تنطلق عليه رصاصة واحدة بعد هزيمة جيش العرابيين في التل الكبير !!.

وهناك أيضاً تجربة المقاومة الشعبية في الجزائر وتونس والمغرب وفلسطين وسوريا والشيشان وإندونيسيا وغيرها، وهناك المقاومة الشعبية المصرية في السويس بقيادة الشيخ حافظ سلامة سنه ١٩٧٣ مـ وكذا المقاومة الشعبية في لبنان «حزب الله» وتحقيقها انتصارين كبيرين على إسرائيل عام ٢٠٠٠ مـ، وعام ٢٠٠٦ مـ وهناك حركات المقاومة الفلسطينية حماس، الجهاد وغيرها».

وإذا درسنا البنية الاجتماعية التي أدت إلى ظهور ونجاح تلك الحركات نجدها تتلخص في عامل رئيسي هو ضعف الحكومات ووجود بنية اجتماعية أصلية أقوى من الدول، مع وجود عوامل أخرى طبعاً، ولعل هذا العامل الرئيسي هنا هو موضوع بحثنا.

عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر كان هناك بنية سياسية واجتماعية واقتصادية معينة، كان هناك السلطان الذي يعين الوالي والوالي يحكم عن طريق الديوان والمماليك، ولكن هؤلاء جميعاً كانوا في القلعة، يديرون الأمور السياسية والعسكرية وجمع الضرائب دون تغول ولا نفوذ حقيقي أكثر من ذلك على الجماهير، وفي المقابل كان هناك الأزهر، وعلماء الأزهر الكبار والمتوسطين والصغار، وهؤلاء كانوا يديرون الحياة الاجتماعية في المدن والقرى وكل مكان، وكان هناك ارتباط عضوي بينهم وبين الجماهير، فهم يفتون لهم في الأمور الدينية والدنيوية، ويحكمون بينهم ويديرون مجتمعاً أهلياً كامل شبه مستقلٍ سياسياً واقتصادياً عن الحكومة، وحتى الحكومة ذاتها كانت تلجأ لعلماء الأزهر في معظم المشاكل الحادثة، وإذا حدث احتكاك بين الجيش «المماليك» وبين الأهالي فإن علماء الأزهر هم من كان يقود الأهالي لاستعادة الحقوق وتحقيق نوع من التوازن، أو حتى تهدئة الأهالي والوساطة لدى الوالي.

وكان الأزهر مستقلاً في أموره الاقتصادية عن الدولة ومن ثم كان حراً في قراره ولم يكن مسلوب الإرادة تجاه السلطة، كان هناك نظام الأوقاف التي يديرها العلماء والأهالي أو يمكن أن نقول الميزانية المستقلة، من ناحية ثانية كان هناك الطوائف والحرف، ولكل حرفة شيخ أي نقابة ورئيس نقابة، نقابة العطارين والنحاسين والحدادين والنجارين... بل وهناك طائفة الأشراف ونقيب الأشراف وكل هؤلاء يديرون أعمال الأهالي بصورة مستقلة أو فيها قدر كبير من الاستقلال

عن الحكومة، وكان هناك نمط من الاقتصاد شديد الاستقلال، فهناك الزراعة وهناك الحرف المرتبطة بالخامات المحلية والخبرات المحلية والاستهلاك المحلي، كصناعة الفخار والحصر، والجريد والأخشاب... الخ.

ومن ثم فإن سقوط حكومة المماليك بعد معركة إمبابة سنه ١٧٩٨ مـ لم يؤد إلى انهيار المجتمع، لأن المجتمع كان أقوى من الحكومة ويستطيع أن يعيش معها أو بدونها، ومن ثم استمرت المقاومة الشعبية في كل مكان في مصر ضد الوجود الفرنسي، وشارك فيها كل الناس بقيادة علماء الأزهر، شارك فيها الفلاحون والحرفيون والأشراف وعلماء الأزهر، والتجار وسجلت تلك المقاومة أروع سطور البطولة والفداء والسخاء ونجحت في هزيمة الحملة الفرنسية واندحارها وخروجها عام١٨٠١ مـ، وأفرزت الحركة الشعبية قيادتها الطبيعية من علماء الدين والتجار والأشراف من عمر مكرم، الشيخ السادات، السيد أحمد المحروقي كبير التجار، والشيخ القويسني، والجوسقي... الخ.

نفس الأمر حدث عام ١٨٠٧ مـ حين كان محمد علي غائب في الصعيد يطارد المماليك وقامت القوى الشعبية بتجهيز المقاومة والمتطوعين من الأهالي بقيادة السيد عمر مكرم حيث ذهبت إلى رشيد والحماد وبمساعدة أهالي رشيد والحماد تم دحر حملة فريزر ١٨٠٧ مـ.

وهكذا فقد نجحت المقاومة الشعبية في تحقيق انتصارين في أقل من عشر سنوات، على أقوى قوتين في العالم في ذلك الوقت إنجلترا وفرنسا بل وعلى أبرع القواد العسكريين في ذلك الزمان، بل وربما في تاريخ فرنسا وإنجلترا، وهما نابليون بونابرت، والجنرال فريزر، وبديهي أن الإمكانات العسكرية بين الطرفين لم تكن متكافئة بالمرة، فالقوات الفرنسية والإنجليزية كانتا تملكان أحدث وسائل القتال من مدافع وبوارج وأفضل الجنود المدربين فضلاً عن أحدث التكتيكات العسكرية.

في عام ١٨٨١ مـ اندلعت الثورة العرابية وهذا بفضل جهود كثيرة قام بها علماء الدين وخاصة عبد الله النديم، ورغم أنها كانت ثورة شعبية إلا أنها تحولت إلى حكومية برئاسة محمود سامي البارودي، وكان عرابي وزيراً للحربية وقائداً للجيش، وبديهي أنه طالما كانت المعركة بين قوتين عسكريتين منظمتين، فإن الفوز يكون لصاحب الإمكانيات العسكرية الأكبر ولأننا منذ عدة قرون أضعف من عدونا عسكرياً وتكنولوجياً فإن استخدام الجيش والدولة في المواجهة يؤدي إلى نتيجة حتمية وهي الهزيمة، وقد حدث هذا دائماً وآخر ما حدث كان مع جيش صدام حسين رغم كونه جيشاً قوياً يتمتع بقيادة حازمة، في حين نجحت المقاومة العراقية في تعطيل المشروع الأمريكي وتكاد تنزل الهزيمة بالجيش الأمريكي.

والذي حدث أنه بعد هزيمة الجيش المصري بقيادة عرابي في معركة التل الكبير عام ١٨٨٢ مـ تحركت القوات الإنجليزية إلى القاهرة ولم تحدث مقاومة شعبية كما حدث في مواجهة

الحملتين الإنجليزية والفرنسية سابقاً.

وهذا يرجع إلى أن محمد علي كان قد نجح في ضرب البنية الاجتماعية المتميزة والتي تفرز المقاومة، كان محمد علي قد نجح في إقامة دولة عظيمة جداً وقوية جداً، جيش كبير وأسطول ضخم وصناعات حربية واستراتيجية، ولا بأس في كل ذلك ولكنه كان على حساب البنية الاجتماعية الأهلية المستقلة، لقد ربط كل شيء بنفسه ومشروعه وجيشه، أصبح العامل والخبير والمهندس في علاقة مباشرة مع الدولة والإدارة، فهي التي تدير المصانع وتنشئ الجديد منها، وهي التي تدفع المرتبات وهي التي تأخذ الإنتاج، ومن ثم فإن البنية الاجتماعية المهنية أصبحت جزءاً من الدولة ولا تستطيع أن تعيش بدونها، نفس الأمر بالنسبة للزراعة، فبدلاً من زراعة الحبوب والخامات التي يتم تصنيعها محلياً ومن ثم تحقيق نوع من الاستقلال الاقتصادي عن الدولة والعالم بالنسبة للفلاحين، فقد قام محمد علي بتأميم الزراعة، وتحديد ما يتم زراعته وخاصة المحاصيل النقدية كالقطن والكتان... إلخ، المهم في النهاية أن الفلاح أصبح يعتمد في حياته على ما تعطيه له الدولة، ومن ثم، فإن المجتمع الأهلي في القرية قد ضعف إلى حد كبير، نفس الشيء يقال عن التجارة الداخلية والخارجية التي احتكرتها دولة محمد علي، ومن ثم لم يعد التجار يمثلون الممول الطبيعي للمقاومة كما حدث في إبان الحملة الفرنسية «السيد أحمد المحروقي مثلاً »، أكثر من هذا، فإن محمد علي ضرب مؤسسة الأزهر، ونقابة الأشراف وصادر الأوقاف، وأصبحت ميزانية الأزهر ومعاش علماء الأزهر من الدولة، وطارد الزعماء الوطنيين مثل عمر مكرم، وأنهى من ثم أي زعامة اجتماعية أو سياسية أو دينية خار ج مؤسسة الدولة. وصحيح أن محمد علي قد بنى دولة قوية جداً ولكنه أضعف المجتمع جداً، ولما انهزم مشروع محمد علي في عام ١٨٤٠ مـ وما كان له إلا أن ينهزم لأن الدولة الغربية ستظل الأقوى عسكرياً مهما فعل محمد علي ومن ثم سقط المشروع وضعف المجتمع، فلما جاءت القوات البريطانية عام ١٨٨٢ مـ لم يكن هناك مجتمعاً قادراً على إفراز مقاومة قادرة على هزيمة الغزو، وبدأت الحركة الوطنية المصرية تعيد بناء نفسها بقيادة مصطفى كامل وتحاول ترميم المجتمع بإنشاء النقابات والتعاونيات «عمر لطفي رائد النقابات والتعاونيات» في بداية القرن العشرين، إلا أن ما تم ترميمه من المجتمع لم يسمح إلا بقدر من النضال السياسي ثم اندلاع ثورة ١٩١٩ مـ التي فجرها الحزب الوطني وسرقها سعد زغلول والوفد.

في عام ١٩٧٣ مـ نجحت القوات المصرية في عبور قناة السويس وتحرير جزء من سيناء، وكان هذا لا يرجع إلى القوة العسكرية المصرية، بل إلى نوع من الروح الإسلامية التي سمحت بها حكومة السادات في ذلك الوقت في إطار صراعها مع الناصريين والشيوعيين، وكذلك إلى استخدام أسلوب الإنسان في مواجهة التكنولوجيا، فرد المشاة الذي يحمل سلاحاً مضاداً للدبابات «نموذج عبد العاطي»... أي أن هذا النجاح الجزئي في حرب رمضان لم يكن يرجع إلى

قوة الدولة أو الجيش، المهم أنه بعد عدة أيام من هذا النجاح قامت القوات الصهيونية بإحداث ثغرة في النقطة المفصلية بين الجيشين الثاني والثالث، هي ثغرة الدنر سوار، وتسللت منها إلى غرب قناة السويس واتجهت جنوباً إلى مدينة السويس، وكانت تلك القوات تستهدف احتلال مدينة السويس، ولو حدث هذا لا قدر الله لكان معناه إكمال حصار الجيش الثالث أي حبلاً يلتف على عنق ذلك الجيش، والوصول أيضاً إلى طريق السويس القاهرة، أي مسدس مصوب للقاهرة، وقد صدرت الأوامر بالفعل لمحافظ المدينة بتسليمها لأن الأوضاع العسكرية والتموينية حسب تقدير القيادة لم تكن تسمح بالصمود، ولكن المقاومة الشعبية اندلعت فوراً بقيادة الشيخ حافظ سلامة، وتم اعتبار مسجد الشهداء مركزاً للقيادة، وتم توزيع كمائن وتوجيه متطوعين إلى مداخل السويس وحدثت عملية مقاومة رائعة انتهت بمنع الإسرائيليين من دخول المدينة... وقد اعترف العدو والصديق بأهمية ذلك الدور الذي لعبته المقاومة الشعبية في السويس، وأنه لولا تلك المقاومة لتغيرت نتيجة حرب رمضان ١٩٧٣ م.

ما الذي جعل هذه المقاومة تأخذ القرار ؟، ما الذي أعطى الشجاعة للشيخ حافظ سلامة بالتصدي لهذه المسؤولية الضخمة على عكس إرادة القيادة السياسية ؟... ذلك يرجع في رأيي إلى أن الفترة من ١٩٧١ - ١٩٧٣ م تم فيها نوع من تقوية المجتمع، والسماح بالتعبير عن الوجدان الإسلامي، وإعادة الاعتبار لعلماء الإسلام، وإحساس الناس بأن الدولة لم تعد مرعبة وأنه من الممكن عمل مقاومة رغم أنفها. وقبل ذلك كان قد سمح للجمعيات الأهلية بالعمل ومنها جمعية الهداية الإسلامية التي كانت يقودها الشيخ حافظ سلامة، وكانت تقوم بعمل اجتماعي كبير في مدينة السويس مما أدى إلى تقوية ارتباطها بالجماهير، وكذلك كانت تقوم بتنظيم قوافل من علماء الأزهر قبل الحرب إلى كل الوحدات العسكرية المصرية لرفع الروح المعنوية للجنود، وتأكيد القيم الإسلامية والوجدان الإسلامي، وكذا لأن الدولة كانت ضعيفة أو غير متغولة فلم تجد صعوبة في العمل.

إذا جئنا إلى حزب الله أو المقاومة اللبنانية مع الأخذ في الاعتبار عوامل أخرى مثل وقوف دولة إيران وراء الحزب. ولكن هذا لا يكفي بالطبع لتحقيق انتصارين كبيرين على أقوى جيش في المنطقة ومن أقوى جيوش العالم وهو الجيش الإسرائيلي، إذا جئنا إلى هذا النموذج، نجد أن الحزب نشأ في ظروف غير مؤاتية إقليمياً ودولياً، ولكن كان هناك ضعف شديد في الدولة اللبنانية في بداية الثمانينات بعد الخروج من الحرب الأهلية، مما سمح للحزب بالعمل وكذا الضعف التقليدي لأي حكومة لبنانية فيما بعد بسبب التوازن الطائفي، ومن ناحية أخرى، فإن البنية الثقافية والدينية والاجتماعية في جنوب لبنان وبعلبك والضاحية الجنوبية لبيروت والبقاع الغربي تسمح بأن يظل الحزب أقوى من الدولة، أي أن المجتمع الحاضن للمقاومة هنا أقوى من جهاز الدولة، ومن ثم، فإن تحقق هذا الشرط، شرط البنية الاجتماعية المواتية كان هو العامل

الأساسي في تحقيق انتصارين كبيرين عام ٢٠٠٠ وعام ٢٠٠٦ مـ مع عدم تجاهل عوامل أخرى بالطبع بالنسبة لتجربة حزب الله تحديداً.

مـدد الله

في كثير من المعارك - التي خاضها المسلمون في عصر النبوة أو حتى بعد عصر النبوة وحتى اليوم - تكون القوى غير متكافئة... بمعنى أن الأعداء يكونون أقوياء عدداً وعدة بالقياس إلى عدد وعدة المؤمنين، ومع ذلك ينتصر المسلمون، وهذا بالطبع، بفضل مدد الله تعالى الذي يرسله الله مباشرة أو بشكل غير مباشر إلى المؤمنين، فيكون النصر حليفهم، وهذه الحقيقة - أي وجود مدد الله المباشر أو غير المباشر - لها أهميتها القصوَى في رفع معنويات جند المسلمين، وفي دفعهم أصلاً لخوض المعارك مع القوى الكبرى مهما كانت الحسابات المادية لغير صالحهم، وهكذا فإحساس المسلم بمدد الله أمر إيجابي على كل مستوى، فهو يدفعه إلى خوض المعارك مطمئناً وهو يدفعه إلى تحدي القوى الجبارة مهما كانت درجة قوتها، وهذا في حد ذاته كفيل بجعل المسلمين قوة ثورية كبرى قادرة على إحداث التغيير دائماً مهما كانت موازين القوى...

وبالطبع، يدرك المسلمون أن مدد الله تعالى لا يأتي إلى الخاملين أو القاعدين أو الكسالى أو المتراخين، وكذلك لا يأتي للذين لا يأخذون بالأسباب، ويدرك المسلمون أن لمدد الله شروطاً... أولها الثقة بنصر الله والإيمان به، وثانيها بذل كل الجهد من استعداد وتدريب وتسليح وتخطيط وغيره من الأسباب المادية...

ولأن القوى العلمانية تدرك أهمية الإيمان بمدد الله في دفع المسلم للشجاعة والثورة والمواجهة لأنه يستند إلى أقوى الأقوياء... الجبار فوق كل جبار... وبالتالي، فلا خوف من مواجهة أية قوة طاغية أو جبارة، ومهما كان ميزان القوى لغير صالح المسلمين. وبالتالي، فإن مدد الله تعالى عامل مهم من عوامل قلق القوى الباغية وعدم استقرارهم، فإن الجهاز الإعلامي والفكري للقوى العلمانية يحاول دائماً أن يثير الغبار ويشكك في هذه الحقيقة - حقيقة وجود مدد الله - فراح البعض يتهكم على هذه الحقيقة بدعوى أنها دعوة للتراخي وراح البعض الآخر يقول إنها مسألة رمزية ! !... وراح البعض الثالث يصف الحديث عن مدد الله تعالى بمجافاة روح العلم...

ولا شك أن هذه المحاولة العلمانية محاولة مردودة، فمدد الله تعالى دعوة للثقة بالنفس... أليس المسلم يستند إلى أقوى الأقوياء، وهو دعوة للأخذ بالأسباب والحسابات من كل نوع، وهو دعوة للمواجهة والثورة مهما كان ميزان القوى ومهما كان نوع القوة التي سنواجهها، وهو دعوة للحركة وليس القعود، بذل الجهد وليس الكسل، وهو أولاً وأخيراً أمر معلوم من الإسلام بالضرورة استناداً إلى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة...

يقول الله تعالى في سورة الأنفال :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ۞ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (٤).

ويقول: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥).

وفي سورة آل عمران:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ ۞ بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (٦).

وإذا تأملنا سورة الأحزاب نجد أن الآيات التي سجلت واقعة الأحزاب قد حددت معالم المدد من جميع نواحيه فهو مدد من الريح أو جنود لا نراها، ولكن هذا بعد أن يخِفَّ المسلمون إلى القتال، وبعد أن يأخذوا بالأسباب مثل حفر الخندق، ومثل استمرار ثقتهم وإيمانهم بالله رغم جحافل المشركين التي لم يكن للمسلمين قبل بها بحساب العوامل المادية وحدها، وترصد الآيات هؤلاء الذين ظنوا بالله الظنون أو هؤلاء الذين خذلوا المؤمنين عن القتال بدعوى عدم تكافؤ القوى...

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۞ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ۞ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ۞ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ۞ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ۞ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً ۞ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي

يُغشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ۞ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً ۞ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ۞ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۞ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ۞ لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (٧).

وإذا تأملنا هذه الآيات الكريمة نجد:

أن مدد الله تعالى حقيقة إسلامية لا ينكرها إلا جاحد.

أن هذا المدد يأتي مباشرة من الله، أو عن طريق جنوده التي نعلمها أو التي لا نعلمها مثل الملائكة - الريح، الرعب في قلوب الأعداء وغيرها.

أنه لولا الإيمان المطلق بمدد الله تعالى لما خرج المسلمون للقتال، وخاصة في غزوة خَيْبَر حيث إن القوى كانت غير متكافئة بالمرة، ولعل هؤلاء الذين رأوا عدم تكافؤ القوى وغابت عنهم الثقة المطلقة في مدد الله قد عبروا عن ذلك بالقعود أو الاعتذار أو غير ذلك، وهكذا فإن الإيمان بمدد الله حافظ قوي للأخذ بالأسباب، والاستعداد للقتال، وحمل السلاح رغم عدم تكافؤ القوى، وبالتالي فهو عامل مهم من عوامل النهوض وليس العكس.

أنه من نافلة القول أن الإيمان بمدد الله تعالى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب، بل الأخذ بالأسباب شرط لوصول المدد - حفر الخندق مثلاً في غزوة الأحزاب -.

وإذا كانت الآيات القرآنية قد تحدثت عن حالات وقعت في عصر النبوة، فإنها جاءت بصيغة المطلق لتؤكد أنها حالات مستمرة يمكن أن تتكرر إذا تحققت شروطها، بمعنى أنه إذا كان هناك قوم يؤمنون بمدد الله ويثقون في ذلك ثقة مطلقة، وقد أخذوا بكل ما أمكن من الأسباب المادية، فإن الله سوف يمدهم بمدد من عنده كفيل بتحقيق النصر مهما كانت قوة الأعداء.

ولنتأمل آيات أخرى تخصُّ حالتنا المعاصرة يقول الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (٨).

وهذه الآيات تتحدث عن موالاة بين اليهود والنصارى، وهو الأمر الذي لم يحدث في التاريخ

كله الممتلئ بالعداء بين اليهود والنصارى إلا في النصف الثاني من القرن العشرين حيث تم تفسير الإنجيل تفسيراً معيناً لصالح دعم إسرائيل «البروتستانت»، وتم تبرئة اليهود من دم المسيح وزيارة باباوات الكاثوليك لإسرائيل... «الكاثوليك»؛ وهكذا فهذه الآيات تتحدث عن واقعنا المعاصر، ولعل ما يؤكد ذلك أن بعض المسلمين اتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بدعوى أن اختلال ميزان القوى بيننا وبينهم لا يسمح إلا بهذا، أي أنهم يقولون لا نقدر عليهم، نخشى أن يدمرونا بأسلحتهم ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾...

وبالطبع، فإن المؤمنين بالله الواثقين من مدده لا يستطيعون الآن أن يزعموا أنهم قادرون على هزيمة الغرب وإسرائيل عسكرياً، نظراً لاختلال مروع في ميزان القوى، والله تعالى يطمئن هؤلاء بقوله : ﴿فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾؛ أي عسى الله تعالى أن يتدخل بإرادته المباشرة أو غير المباشرة فيقضي على قوة الأعداء أو بنصر المؤمنين رغم اختلال ميزان القوى، وقتها يصبح دعاة التغريب نادمين على ما أسروا في أنفسهم من عمالة للغرب، أو التبشير بالخضوع له بدعوى عدم تكافؤ القوى.

والحديث عن مدد الله تعالى كما جاء في السنة النبوية المطهرة حديث طويل، وسوف نختار بعض الأمثلة الواضحة على ذلك، ففي معركة بدر مثلاً... وفي رواية ابن اسحاق قال الرسولﷺ: «أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله... هذا جبريل أخذ بزمام فرسه يقود على ثناياه الفتح...»(٩).

وفي رواية ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدري من ضربها، وقال ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يشتد في طلب رجل من المشركين أمامه إذ يسمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول اللهﷺ فقال: «صدقت... ذلك مدد من السماء الثالثة». قال أبو داود المازني إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري، وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً... فقال العباس:

إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أصبح من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق وما أراه في القوم، فقال الأنصاري أنا أسرته يا رسول الله... فقال : «اسكت فقد أيدك الله بملك كريم»(١٠).

«فبينما هو جالس - أي أبو لهب - قال الناس هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب: هلم إليَّ فعندك لعمري الخير، قال فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟.. قال: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا.. وأيم الله مع ذلك ما لمت القوم، لقيَنا رجالٌ بيضٌ على خيل بلق من السماء والأرض، والله ما تليق شيئاً ولا يقول لها شيء»(١١).

«وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن فأعطاه النبي جذلاً (عودًا) من حطب، فقال: دونك

هذا.. فلما أخذه عكاشة وهزه عاد في يده سيفًا طويلاً فلم يزل عنده يقاتل به حتى قُتل أيام أبي بكر..»(١٢).

أما في معركة أُحُد.. قال أبو طلحة «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه»(١٣).

وكان هذا النعاس أمنة من الله. يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾(١٤).

وروى الترمذي والنسائي والحاكم من حديث حماد بن مسلم عن ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال: «رفعت رأسي وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميل جحفة من النعاس..»

«وأصيبت عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته.. فجاء رسول الله فأخذها وردها فعادت كما كانت ولم تضرب عليه بعدها، وكان يقول بعد ما أسنّ هي أقوى عيني وكانت أحسنهما»(١٥).

وفي الصحيحين عن سعد قال: «رأيت رسول الله يوم أحد ومعه رجلان يُقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد، وفي رواية يعني جبريل وميكائيل»(١٦).

«وقال نافع بن جُبير: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول شهدت أُحدًا فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية ورسول الله وسطها.. كل ذلك يُصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على مُحمد فلا نجوت إن نجا ورسول الله إلى جنبه ما معه أحد، ثم جاوزه فعاتبه في ذلك صفوان فقال: والله ما رأيته أحلف بالله أنه منا ممنوع فخرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك..(١٧).

وفي غـزوة الخنـدق:

«إنا يوم خندق نحفر ففرضت علينا كدية شديدة.. فجاؤوا إلى النبي فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر - ولبثنا ثلاثة لا نذوق ذواقًا - فأخذ النبي المعول فضرب فعاد كثيبًا أهيل أو أهيم (أي صار رملاً لا يتماسك)»(١٨)..

وقال البرَّاء: «لمَّا كنا يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول فاشتكينا ذلك لرسول الله ، فجاء وأخذ المعول، فقال: بسم الله ثم ضربه ضربة وقال.. الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأنظر إلى قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية، فقطع آخر فقال الله أكبر أعطيت فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ثم ضرب الثالث فقال.. بسم الله فقطع بقية الحجر فقال.. الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء مكاني» سنن النسائي وأحمد في مسنده رأى جابر بن عبد الله رسول الله يحفر ورآه خميصًا فأتى امرأته فأخبرها ما رأى من خمص رسول الله فقالت.. والله ما عندنا شيء إلا هذه الشاة ومد من شعير، قال فاطحني وأصلحي.. فطبخوا بعضها وشووا بعضها وخبزوا الشعير ثم

أتى رسول الله فقال: يا رسول الله قد صنعت لك طعامًا فأت أنت ومن أحببت من أصحابك.. فشبَّك صلى الله عليه وسلم أصابعه بين أصابع جابر ثم قال أجيبوا جابر يدعوكم فأقبلوا معه، فقال جابر في نفسه: والله إنها الفضيحة!!.. وأتى المرأة فأخبرها فقالت: أنت دعوتهم أم هو؟.. فقال: بل هو دعاهم!!.. قالت: دعه فهو أعلم، وأقبل رسول الله وأمر أصحابه وكانوا فرقًا عشرة عشرة، ثم قال لجابر: اغرفوا وغطوا البرمة وأخرجوا من التنور الخبز ثم غطوه ففعلوا وجعلوا يغرفون ويغطون البرمة، ثم يفتحونها فما يرونها نقصت شيئاً ويخرجون الخبز من التنور ويغطونه فما يرونه ينقص شيئاً، فأكلوا حتى شبعوا وأكل جابر وأهله»[١٩].

«وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر إلى الخندق ليتغدَّى أبوه وخاله، فمرت برسول الله فطلب منها التمر وبدره فوق ثوب، ثم دعا أهل الخندق فجعلوا يأكلون منه، وجعل التمر يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وأنه يسقط من أطراف الثوب»[٢٠].

قال ابن اسحق: فحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظِي قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان.. يا أبا عبد الله، أرأيتهم رسول الله وصحبتموه؟.. قال: نعم.. قال فكيف كنتم تصنعون؟.. قال: والله لقد كنا نجاهد، قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا، قال فقال حُذيفة: يا ابن أخي.. والله لقد رأيتنا مع رسول الله بالخندق وصلى رسول الله هويًا من الليل، ثم التفت إلينا فقال: من رجل يقوم فينظرنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشرط له رسول الله الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟.. فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلمَّا لمْ يقم أحد، دعاني رسول الله فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: يا حُذيفة اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تُحدثنَّ شيئاً حتى تأتينا، قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناءً.. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه؟.. قال حُذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جانبي فقلت: من أنت قال فلان بن فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام.. لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قِدْر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فو الله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ولولا عهد رسول الله إليَّ أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني «ثم شئت لقتلته بسهم، قال حُذيفة: فرجعت إلى رسول الله وهو قائم يصلي في مرطٍ لبعض نسائه، مراجل. فلما رآني أدخلني إلى رجليه وخرج على طرف المرط ثم رجع وسجد وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم، ولما أصبح رسول الله انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة والمسلمين ووضعنا السلاح [٢١].

لماذا فشل مشروع النهضة التغريبي؟

بعد عشرات السنين من اندلاع حركة التحرير الوطني في العالمين العربي والإسلامي ودول العالم الثالث عموماً، وبعد سلسلة من التجارب والمحاولات لتحقيق وبناء النهضة، اكتشف الجميع قادة ومفكرين أن مشروع النهضة التغريبي، أي الذي استند على وسائل وأساليب وأفكار مستمدة من الغرب قد وصل إلى طريق مسدود، وأنه لم يحقق أياً من أهدافه المرجوة.

وكان من الطبيعي أن يطرح السؤال نفسه، وهو لماذا فشل مشروع النهضة التغريبي ووصل إلى هذا المستوى من الانهيار واللاجدوى؟! وفي رأينا أن هذا المشروع النهضوي الذي استند إلى أفكار الحضارة الغربية وأساليبها والذي تجاهل خاصية الذات الحضارية لبلادنا كان من الطبيعي والمؤكد أن يصل إلى طريق مسدود؛ لأنه افتقد إلى المقومات البديهية لأية نهضة، ولأنه تجاهل العديد من الحقائق العلمية حول عملية النهضة.

السياق الحضاري

إذا افترضنا حسن النية في هؤلاء الذين قادوا محاولات النهضة في بلادنا في تاريخنا المعاصر فإننا نجدهم قد وقعوا في خطأ علمي فادح حينما تعاملوا مع منهجية التغيير بمعزل عن السياق الحضاري لها؛ لأنه في الواقع لا منهج هناك مجرداً من مقولاته ونماذجه؛ لأنه تشكل في أحشاء النماذج التي عالجها واكتسى باللحم من خلال الموضوعات التي ولّدها، والمنهج يقوم ويتشكل عبر عملية معقدة من خلال نمط مجتمعي محدّد مما يحدّد له مبادئه ومقولاته ونماذجه فالمنهج الأوروبي في النهضة تكوّن عبر تاريخ النمط الحضاري الأوروبي، وبالتالي فإن هؤلاء الذين أخذوا منهج التغيير الأوروبي، حتى لو رفضوا نظرياً المقولات الفلسفية الحضارية الأوروبية، إنما هم في الحقيقة يخدعون أنفسهم؛ لأن هذا المنهج خرج من خلال منظومة حضارية شاملة منهجاً ونماذج ومقولات وبالتالي فإن هذا النهج اكتسى وأخذ هذا الطابع الحضاري المميز له، ولكل حضارة شخصيتها المتميزة، ويكاد يكون هؤلاء الداعون إلى ما يسمى بالتطعيم الحضاري يتناسون حقيقة علمية معروفة وهي أن التطعيم في علم النبات مثلاً لا ينجح إلا بين النباتات المتقاربة عائلياً، وبديهي أن التطعيم والتلقيح بين الحضارة الإسلامية القائمة على التوحيد والعدل والحرية ورجاء الآخرة والحضارة الغربية القائمة على الوثنية، والمنفعة اللا أخلاقية والقهر والنهب أمر غير ممكن عملياً وموضوعياً.

إن الذين حاولوا بناء نهضة على أسس منهجية غربية لم يدركوا حقيقة موضوعية هامة، وهي أنهم لا يطبقون هذا المنهج في الفراغ، بل إن شعوباً عاشت تجربة حيّة من الإسلام لفترة طويلة جداً، إننا أمام حضارة إسلامية عريقة متميزة وثرية، حضارة تمتلك أصلاً نظرياً إلهياً، وتمتلك ثروة من التطبيقات الاجتماعية الهائلة من خلال ما حدث طوال التاريخ الإسلامي من علاقات وحالات سياسية واقتصادية واجتماعية ارتبطت بالنص الإسلامي أو حادت عنه وواجهت هذه

الحضارة مشكلات في كافة الميادين، وترتّب على تلك المشكلات فقه وثقافة وإجابات نظرية وتطبيقية في مختلف الفروع والمجالات الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية، فضلاً عن ميادين العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية. وهكذا، فإن القفز على هذا الواقع بكل أوجه الصحة والخطأ والإنجاز، والقصور فيه سبب فجوة هائلة في الوعي والسلوك على حد سواء، وإهدار كل الأساسات فوق التربة أو تحتها، بحيث كان علينا أن نسير منذ البداية وفقاً للمنهج الأوروبي، ناهيك عن أننا نسير في الطريق الخطأ، الأمر الذي يستلزم مئات السنين زمنياً، هذا إذا أمكن إخلاء الواقع من الوجدان والتراث الإسلامي وهو مستحيل قطعاً. إن علم الاجتماع قد أكد على حقيقة بديهية لم يراعِها دعاة النهضة التغريبية، وهي أن المنهج العلمي في أساسه أنماط اجتماعية معينة ينبغي أن يتم بمنهج هذه الأنماط ذاتها وليس بمنهج مغاير، وإلا فإن الأخطاء ستكون بالجملة، أي أنه لا يمكن استقرار عملية النهضة والتنمية في مجتمعاتنا بمنهج مستمد من نمط الحضارة الأوروبية مثلاً، وبالتالي، فإن شرط النهضة هنا هو أن تقرأ الواقع قراءة صحيحة، وشرط الصحة هنا أن تكون القراءة من خلال منهج نابع من هذا النمط الحضاري الذي نحن بصدده، وليس من خارجه.

غياب البعد الثقافي

محاولات النهضة الحديثة في بلادنا تواكبت مع عملية التحرر الوطني منذ الاستعمار، ولا شك أن الصراع مع الاستعمار صراع سياسي واقتصادي وعسكري فلا شك أن الغرب الاستعماري قد استعمل ضدنا أقسى الوسائل العسكرية وأبشعها لتحقيق عملية القهر والنهب، وكذلك لم يتورّع عن استعمال كل الوسائل السياسية والاقتصادية في تحقيق أهدافه، وبالتالي، كان من الطبيعي أن تشن حركات التحرر الوطني الحرب ضد الاستعمار عسكرياً وسياسياً واقتصادياً. ولكن البعد الثقافي لتلك المواجهة كان غائباً، وكأن هذا هو السبب بالتحديد في فشل مشروع النهضة بعد رحيل الاستعمار، بل الوصول إلى طريق مسدود أهدر كل المكاسب التي تحققت في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية للمواجهة، بل أقسى من ذلك، وأمر أصبحنا مهددين بعودة الاستعمار بجيوشه وأساطيله كالسابق وبآليات أكثر تعقيداً وأكثر كفاءة. إن البعد الثقافي للمواجهة كان يعني ضرورة تصفية الرواسب الثقافية الاستعمارية حكومياً وشعبياً، لأن هذا البعد الثقافي مرتبط بتحطيم أو بناء المكونات العقدية والفكرية والحضارية والأنماط المعيشية والإنتاجية، وأشكال العلاقات الجماعية والفردية وتحطيمها يعني هدم القلعة من الداخل، ومسخ الشخصية وجعلها في حالة عدم قدرة على الصمود والمواجهة، فضلاً عن تحقيق مشروع النهضة. أما بناؤها بصورة صحيحة فيعني التماسك الفردي والجماعي، والقدرة على المواجهة والقدرة على تحقيق الذات الحضارية وتحقيق مشروع النهضة بالتالي.

التغريب أدّى إلى الاستبداد

ما حدث بسبب التغريب يمكن أن نشبّهه بنوع من الانفصال الشبكي بين الشعوب والنخبة الحاكمة، فأصبحت الشعوب بمعزل حقيقي عن عملية النهضة، ولم تستطع النخبة السياسية أو الفكرية بحكم محدوديّتها أن تنجز عملية النهضة. إن الشعوب كانت وما زالت تحمل الوجدان الإسلامي، كانت وما زالت معبأة بالتراث ومفعمة بالعقيدة، ولا يمكن القضاء على هذا الوجدان أو طريقة التفكير بسهولة، وبالتالي، فإن فرض مشروع نهضوي غير قائم على وجدان الجماهير وعقيدتها وحسّها الثقافي وتراثها التاريخي يجعل تلك الجماهير لا تفهم هذا المشروع، ولا تتحمس له أو ترفضه وتعاديه أو يحدث لها نوع من ازدواج الشخصية أو انفصامها، وبالتالي، يعود إلى سلسلة من الأخطاء، والخطايا تجعل مشروع النهضة في مهب الريح. وإذا كانت النخبة المفتربة جادة في محاولة تحقيق نهضة على أساس تغريبي، فإن رفض الجماهير لهذا المشروع النهضوي التغريبي أو عدم حماسها له يجعل تلك النخبة تحاول أن تجبر الجماهير على الانخراط والحماس في هذا المشروع، وبما أن التركيبة الثقافية والوجدانية للجماهير لا تستجيب للتحريض الإعلامي النخبوي بهذا الصدد، فإن النخبة الحاكمة تجد نفسها لاجئة في النهاية إلى قمع الجماهير، والاستبداد بها، وإجبارها بالقهر على الانخراط في هذا المشروع. وبالطبع تبدأ المسألة من هذه الزاوية وتنتهي إلى أن يصبح الاستبداد والقهر سمة أساسية للحكم التغريبي، بمعنى أن يصبح للاستبداد لبنته الخاصة والذاتية حتى بصرف النظر عن مشروع النهضة التغريبي أي أن التغريب يوجد الاستبداد خلقاً.

كلمـة في مسألـة العلوم الطبيعيـة

من الأشياء التي يتشدق بها دعاة مشروع النهضة التغريبي، أنهم يستهدفون الحصول على العلوم الطبيعية أو التقنية من خلال مشروعهم التغريبي المرتبط بالمنهج التغريبي في النهضة، والمنفتح على الحضارة الأوروبية التي أنجزت تقدماً علمياً باهراً.

وينبغي هنا أن نضع الكثير من النقاط فوق الكثير من الحروف في هذه القضية الخطيرة.

ينبغي أن نعرف أن العلوم الطبيعية تنقسم إلى قسمين، قسم خاص بالحقائق العلمية، والمكتشفات العلمية، وقسم خاص بتوجيه هذه العلوم في اتجاه معين؛ أي لإنتاج سلعة ضرورية أو كمالية مثلاً، للقضاء على مرض أو لنشر مرض، أي لإنتاج أدوات تسعد الإنسان وتساهم في راحته أو لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، لإصلاح البيئة والمحافظة عليها أو لتخريبها وتلويثها. أي أن هناك شقاً علمياً وشقاً قيمياً، والشق العلمي تراث إنساني يجب الاستفادة به وليس تراثاً أوروبياً، ولكن الشق القيمي للمسألة أي توجيه العلوم في اتجاه معين تراث حضاري؛ أي خاص بتوجه وقيم كل حضارة، والحضارة الإسلامية مثلاً عندما كانت متقدمة علمياً كانت توجه هذه العلوم لإسعاد الإنسان وتلبية حاجات كل البشر، بل وكانت تسعى سعياً لنشر العلوم ولا تحجبها عن الآخرين، لأن

حبس العلم جريمة في الشريعة الإسلامية الغراء، أما الحضارة الأخرى ولظلمها، حجبت هذا العلم عن الشعوب الأخرى، بل وأصدرت القوانين التي تجرّم حصول الآخرين على تلك العلوم مثل قضية الدكتور مهندس عبد القادر حلمي مثلاً، بل وتغتال العلماء في البلاد الأخرى، حتى لا تحدث نهضة علمية فيها كاغتيال الدكتور المشد مثلاً. إذاً فالعلم كحقائق ومعرفة تراث إنساني ساهمت فيه كل الحضارات والمجتمعات، بل إن النهضة العلمية الأوروبية الحديثة استفادت من العلوم والمعارف الإسلامية في تحقيق تقدمها المعاصر، وبالتالي، فإن الحصول على العلوم واكتسابها ليس قاصراً على المشروع النهضوي التغريبي، بل العكس هو الصحيح؛ فالحصول على العلم هدف أي مشروع نهضوي إسلامي. أما الشق القيمي في العلوم فهذا أمر مرفوض، أي الشق المرتبط بكيفية استخدام هذه العلوم. والعجب هنا، أن مشروع النهضة التغريبي فشل حتى في الحصول على هذه العلوم لسبب بسيط هو أن الحضارة الغربية ترفض إعطاء العلوم للآخرين عن طيب خاطر، وما دام المشروع النهضوي التغريبي مشروعاً غير تصادمي مع الحضارة الغربية أي متعاون ومهادن لها، فهو لن يحصل على هذه العلوم، بل الصحيح أن المشروع الإسلامي للنهضة هو القادر على الحصول عليها؛ لأنه سينتزعها انتزاعاً ثم يستطيع أن يهضمها حضارياً؛ بمعنى أن يوجّهها التوجيه المتفق مع قيمه الحضارية.

حزب الله والنصر الحضاري ضد الهيمنة

لا شك أن الإنجاز الذي حققته المقاومة الإسلامية في لبنان في صمودها المذهل أمام آلة الحرب الصهيونية الجبارة - ولا نقصد هنا بكلمة جبارة نوعاً من التهويل أو المبالغة - ولكننا نقصد أنها رغم كونها جبارة، فإن هزيمتها ممكنة - هذا الإنجاز هو نوع من المتغير النوعي تاريخياً وإقليمياً ودولياً، أي تاريخياً وجغرافياً هو أمر له علاقة بكثير من الأمور والمعادلات الآنية والمستقبلية، ولكن له علاقة أيضاً بمشروع النهضة العربي الإسلامي، أو بكلمة أخرى بإمكانية حدوث نوع من الإقلاع الحضاري الجديد للأمة الإسلامية. وإذا قلنا: إن منحنى النهضة الإسلامي صعد ثم ثبت ثم نزل، وأنه الآن في حالة كسر حالة النزول الحضاري وإحداث انقلاب في المنحنى ثم الصعود من جديد باتجاه العالمية الإسلامية الثانية، وهي عالمية تحتاجها بشدة أمم العالم أجمع وليس المسلمين فقط، على أساس أن تلك العالمية هي تجسيد لهزيمة الاستكبار الأمريكي الصهيوني ومن ثم حالة النهب والقهر التي تمارسها الولايات المتحدة الأمريكية تجاه العالم، وتمارسها الرأسمالية البشعة المسماة بالعولمة والتي يمكن أن تؤدي إذا لم يتم التصدي لها إلى مزيد من المعاناة والويلات لكل شعوب الأرض بما فيها شعوب أوروبا وأمريكا ذاتها.

وهكذا فإن الانتصار على إسرائيل في حرب صيف ٢٠٠٦ يمكن أن يكون إحدى علامات استعادة الأمة لطريق النهضة وإحدى آليات هذه الاستعادة، ومن الضروري هنا أن نعيد التأكيد على مجموعة من الحقائق التي حاول أعداء الأمة وعملائهم في الداخل التغطية عليها أو الالتفاف

حولها أو تفريغها من مضمونها؛ وهي من وجهة نظرنا أن مشروع النهضة لا بد أن يكون إسلامياً وجهادياً في نفس الوقت، وفي هذا الصدد، لا بد من الإشارة إلى أسباب فشل مشروع النهضة التغريبي ومحاولات النهضة العربية والإسلامية التي تمت على أساس علماني قومي أو وطني، ليبرالي أو يساري، وأن المقاومة هي الطريق الوحيد للنهضة، وأن هناك جدلية خاصة بين الجهاد والوعي والتقوى والنهضة، وأن علينا أن لا نغفل في معادلاتنا الاستراتيجية والتكتيكية موضوع مدد الله تعالى، ومن ثم عدم الخوف من القدرة الفائقة للأعداء، لأن الله أقوى الأقوياء.

في الثاني عشر من يوليو تموز هاجمت عناصر من حزب الله مركبة عسكرية إسرائيلية شمال مستعمرة شتولا، بالقرب من الناقورة لقي فيها ثلاثة جنود إسرائيليين مصرعهم وتم أسر جنديين آخرين، هما الدر ريجف، وايهود جولدويس، وقبل ذلك كان قد تم أسر الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليت في غزة في عملية نوعية نفذتها المقاومة الفلسطينية. وإذا لم تتحرك إسرائيل لرد اعتبار جيشها، فإن مجتمعها برمته كان مقدماً على حالة من التفسخ، ذلك أن الجيش الصهيوني هو الرمز الأخير لوجود إسرائيل، وإذا تمت إلحاق مهانة به فإن إسرائيل بكاملها تكون في مهب الريح؛ ذلك أن الخوف والهلع وعدم الأمان أصبح السمة الرئيسية للمجتمع الصهيوني مع تكرار العمليات الاستشهادية. ومعنى أن تصل الأمور إلى حد أن المقاومة أصبحت قادرة على إذلال الجيش الصهيوني، فإن الأمور ستصل بإسرائيل إلى بداية النهاية أو حافة الهاوية، كان متوقعاً إذاً أن ترد إسرائيل بقسوة على جرأة حزب الله، وكان هناك واقع إقليمي مواتاً لإسرائيل، فهناك حكومات ودول وأحزاب تريد القضاء على حزب الله داخل لبنان وفي المحيط العربي، ودولياً فإن الولايات المتحدة كانت تحرض أصلاً إسرائيل على تصفية حزب الله كجزء من الأهداف الأمريكية لإعادة صياغة المنطقة، وهناك الغطاء السياسي في الأمم المتحدة الذي توفره الولايات المتحدة الأمريكية وهناك فارق نوعي كبير بين تسليح كل من حزب الله والكيان الصهيوني؛ فحسب مجلة جينز العسكرية البريطانية، فإن إسرائيل كانت وقتها تمتلك ٢٠٤ ألف مقاتل نظامي، و٥٦٢ ألف مقاتل احتياطي في مقابل ٥ آلاف جندي فقط لحزب الله، وتمتلك إسرائيل ٥٣٠٠ مدرعة ومصفحة و٤ آلاف دبابة و٧٤٢ طائرة مقاتلة وقاذفة، و٢٥٣ طائرة هليوكوبتر و١٣٦ طائرة تدريب أو بدون طيار، و٨ غواصات حربية و٣ بوارج و٢٨ زورقاً بحرياً وفي كل تلك الأصناف لا يملك حزب الله شيئاً على الإطلاق، فلا دبابات ولا طائرات ولا بوارج ولا زوارق ولا مواقع.

وكل ما كان يملكه حزب الله هو ١٠ - ١٥ ألفاً من الصواريخ الصغيرة والكاتيوشا المصنعة محلياً والمقلدة للصواريخ الروسية والإيرانية مع ملاحظة أن إسرائيل تملك أيضاً ١٩٨ ألف صاروخ بين أرض أرض، وأرض جو، وجو جو ومضاد للصواريخ ويصل مدى بعضها إلى ١٤٨٠ كيلو متر. وهكذا فنحن أمام اختلال هائل في ميزان القوى يزيد منه أن الترسانة العسكرية الأمريكية

والمعلومات الاستخباراتية وصور الأقمار الصناعية الأمريكية كانت متاحة بالكامل لإسرائيل، وهناك أيضاً جندي إسرائيلي يعرف أنه يقاتل عن وجوده بصرف النظر عن مشروعية ذلك الوجود من عدمه؛ أي أن الجيش الصهيوني هنا أقوى من الجيش الأمريكي؛ لأن الجندي الأمريكي لا يقاتل في مثل هذه الأحوال عن وجوده بل عن خطة تنفذها إدارة أمريكية ما لأسباب، ومن ثم فإن من المفروض أن يكون أداء الجندي الصهيوني أفضل، والمحصلة أن من المستحيل عملياً حشد قوة أكبر من تلك في ظروف أفضل من تلك لصالح العدو، ومع ذلك صمد حزب الله، بل وانتصر، وأحدث هزة ضخمة في المجتمع الصهيوني لم تحدث من قبل، وأصبح صمود حزب الله، وشجاعة رجاله نموذجاً دولياً وإقليمياً يحتذى، وكانت ثلاثة وثلاثون يوماً من العزة والكرامة العربية والإسلامية وأصبحت «وادي الحجير» هي مقبرة الميركافا، و«بنت جبيل» في تسمية العدو الصهيوني هي المدينة الملعونة، و «مارون الرأس» هي «شيابة الرأس»... إلخ، واعترفت لجنة التحقيق الصهيونية بالهزيمة وبفضل الجيش الصهيوني، بل وأخطاء كبار القادة الصهيونيين، وهو أمر جديد على المنطقة، بل إنه حتى على مستوى الأرقام الرسمية فإن الخسائر العسكرية في صفوف الجيش الصهيوني كانت ١١٦ جندياً صهيونياً في مقابل ٨٠ جندياً من حزب الله و٧ من حركة أمل، وأن الخسائر في القطاع المدني والاجتماعي الإسرائيلي كانت ٤٠ فرداً والجرحى ٥٠٠، وهناك نزوح إسرائيلي من المناطق التي تصلها صواريخ حزب الله، وهو أمر لم تتعود عليه إسرائيل، فالنزوح كان دائماً من نصيب العربي، ويكفي أن نعرف أن حزب الله صمد ٣٣ يوماً في مواجهة ١٢ ألف طلعة جوية، و١٥٠ ألف قذيفة مدفعية صهيونية وهو عدد يزيد عما تم إطلاقه في كل حروب إسرائيل السابقة ومع كل يوم في تلك الحرب كانت الجماهير العربية تزداد ثقة في نفسها وتزداد ثقة في إمكانية الانتصار، وهو أمر له مردوده المعنوي الكبير على مستوى تخليص الإنسان العربي والإسلامي من السلبية باتجاه التفاعل والمواجهة والإيجابية، ومن ثم الإمساك بعنصر النهضة واستعادة زمام المبادرة الحضارية، بل التقدم على طريق الحرية والعدل والإصلاح، كانت الأمة تدرك أو تؤكد على حقائق ستكون ذات أثر كبير في مشروع النهضة عموماً وفي حسم الصراع ضد التحدي الأمريكي الصهيوني في المنطقة خصوصاً، عرفنا من خلال وهج الحرب أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا، وأنه مهما كانت التكنولوجيا وقوة الأعداء متفوقة، فإن الإنسان قادر على الصمود، بل قادر على التفوق على تلك التكنولوجيا، وأن الإيمان والإرادة أقوى من الطائرة والدبابة، فالدبابة الميركافا وهي أقوى دبابة عرفتها الجيوش تم تدميرها بواسطة الإنسان المقاوم وقدرته على تطوير أسلحة مضادة بوسائل بسيطة، وكذا تم الصمود أمام جحافل الضرب من الجو والبحر، أمام الطائرات والبوارج والدبابات، بل ووجود قدر من التواطؤ من بعض القوى داخل لبنان ذاتها، وكذا النجاح في الوصول بالصواريخ الصغيرة والكاتيوشا إلى داخل المدن الصهيونية، وتدمير بارجة صهيونية وهي أعمال تدل على أن الإنسان

إذا آمن وأراد استطاع أن يحقق المستحيل.

عرفنا من خلال وهج الحرب، أن بالإمكان هزيمة قوة جبارة بمجموعة صغيرة من المقاتلين الشجعان المؤمنين وعرفنا أيضاً أن مدد الله مع المجاهدين إذا ما بذلوا كل الجهد وأخذوا بالمتاح والممكن من الأسباب حتى آخر مدى. وعرفنا أيضاً أن القوة مهما كانت لن تكون قادرة على إجبار الإنسان على الاستسلام وأن الذين يدعون إلى التعقل والاستسلام لأن ميزان القوى مختل إنما هم المختلون عقلياً ونفسياً، فالمقاومة هي الطريق إلى العزة وربما النصر أيضاً، أما الاستسلام فهو الطريق إلى الذل والهزيمة معاً، وعرفنا أن تكاليف المقاومة مهما كانت قوة وقسوة العدو أقل من تكاليف الاستسلام.

كانت تلك المعاني تنتشر مثل النور المبارك في وجدان الناس، فتحقق نوعاً من الوجدان الإيجابي، والثقة بالنفس والرغبة في نفض غبار التخلف والتخاذل، وكان معنى ذلك أن المقاومة ستصبح هي العنوان الأقرب إلى سلوك الجماهير وهذا يعني أن المشروع الأمريكي الصهيوني في خطر، وأن الأنظمة المستبدة والعميلة لأمريكا وإسرائيل في خطر أيضاً، وأن الأمة تضع أقدامها على بداية طريق التحرر والنهضة، وأن هذا يبشر بفجر العالمية الإسلامية الثانية بإذن الله تعالى ولذا كان لا بد من حصار الانتصار إعلامياً وسياسياً وإجهاض تلك المعاني العظيمة عن طريق التشكيك فيها، أو إثارة الشبهات حول عدد من الحقائق، أو حتى الزعم بأن حزب الله حالة عبقرية استثنائية لا يمكن أن تتكرر، وما بين المبالغة في الذات أو التشكيك في الموضوع كانت هناك حرب ثقافية حضارية لإلغاء آثار الانتصار؛ ويجب أن نؤكد من جديد أن الأمة تنهض، وأنها قادرة على مواجهة التحدي، وأن حزب الله حالة طبيعية جداً أفرزتها الأمة وهي قادرة على إفراز المزيد، وأن ذلك لا ينقص من فضل رجال الحزب وقادته، فالعبقرية الحقيقية هي عبقرية الأمة والمنهج قبل عبقرية الحرب والقائد والفرد.

الهوامش:

[1] سورة العنكبوت، آية ٦٩.

[2] سورة المائدة، آية ٥١، ٥٢.

[3] سورة البقرة، آية ٢١٦.

[4] سورة الأنفال ، الآيات ٩ - ١٢.

[5] سورة الأنفال، آية ١٧.

[6] سورة آل عمران، الآيات ١٢٣ - ١٢٦.

[7] سورة الأحزاب، الآيات: ٩ - ٢٥.

[8] سورة المائدة، الآيات ٥١ - ٥٢.

[9] الرحيق المختوم للمباركفوري، ص ٢٤١.

[10] المباركفوري، ص ٢٤٣.

[11] المباركفوري في الرحيق المختوم، ص ٢٥١.

[12] مختصر السيرة لابن محمد بن عبد الوهاب، ص ١٨٧.

[13] الرحيق المختوم ص،٣٠٧.

[14] سورة آل عمران، آية ١٥٤.

[15] إمتاع الأسماع: ١/٣٣.

[16] صحيح البخاري ٥٨٠/٢.

[17] زاد المعاد ٩٧/٢.

[18] زاد المعاد والبخاري ٥٨٨/٢.

[19] صحيح البخاري ٥٨٨/٢، ٥٨٩.

[20] السيرة لابن هشام ٢/ ٢٢٨-٢٢٩.

[21] السيرة لابن هشام.

في المقاومة والسيادة

الباحث والأستاذ الجامعي
د. خليل أحمد خليل (لبنان)

في الكلام على المقاومة الوطنية اللبنانية، هناك مقاومات ومراحل. فهل الحال كذلك بالنسبة إلى الكلام على السيادة؟ متى فقد لبنان سيادته، سنة ١٩٧٦؟ ومتى استعادها، سنة ٢٠٠٠ أو سنة ٢٠٠٦؟ هذه المقاومة تنطوي على أجوبة أولية لموضوعات شائكة، منفتحة، مفتوحة كأزمة المسألة اللبنانية ذاتها.

I- في المقاومة كضرورة وطنية

أ) لا سيادة بلا استقلال

ولا استقلال بلا دفاع وطني

لا خلاف بين اللبنانيين حول مبدأ الدولة السيادية المستقلة والحرّة؛ فهذا المبدأ السياسي، مبدأ السلطة، هو الإنجاز التاريخي الأهم بالنسبة إلى الأقوام (peuplapes) التي تشكل منها لبنان الحالي منذ عشرينات القرن الماضي .(1920) إنما وقع الخلاف عليهم (الانتداب) وبينهم (الاستقلال عمَّن: عن العروبة أم عن الغرب، ممثلاً آنذاك بالانتداب الفرنسي؟). فكانت «دولة لبنان الكبير» ثم «الجمهورية اللبنانية» (ذات الدستور، ١٩٢٦) بمثابة دولة/ حاجز، لا دولة سيادية، طالما أنها كانت «دويلة» ضمن الدولة الوطنية [١]. وهكذا على مدى ربع قرن (١٩١٨-١٩٤٣) تكوّنت دولة (الحاجز اللبناني) على أساس أنها «دولة شراكة»؛ بحيث تعبّر في نظامها السياسي عن تركيبة المجتمع التعدّدي، وتحديداً عن القوى المتنوعة (Polyarchie)، حيث لا تكون السلطة فيه لأحدٍ دون أحد. لكنَّ هذه التركيبة التعددية كانت في آنٍ، عاملَ دمج وتوحيد في الوطن، كما كانت عامل تفكيك وتفريط بسيادة الدولة. فكان المجتمع اللبناني المكوَّن على هذا النحو، يُدار من خارجه بقوة الوصاية أي الانتداب الدولي، الذي رسم للدولة الوليدة حدودها، ووضع لها

دستورها وحدَّد آليات تشغيل نظامها السياسي على قاعدة النظام الملّي العثماني، الموروث بدوره من النظام المملوكي... وكان يُدار من داخله، على قاعدة تقاسم السلطة بين أعيان جبل لبنان وبيروت، المدججين بألقاب أو امتيازات المرحلة العثمانية السابقة، الذين أُضيف إليهم وجهاء المقاطعات (جبل عامل، البقاع، الشمال)، أي ممثلي الأطراف المستضافة إلى المراكز، مرموزاً إليه بالسّراي الكبير وسط بيروت، العاصمة الجديدة لكل الدولة اللبنانية.

المفيد هو أنّ هذه المرحلة «الفرنساوية» شهدت بناء مؤسسات لدولة، يفتقر مجتمعها إلى الدمج الوطني، وإلى التكافؤ والمساواة بين العاصمة وأطرافها. كما شهدت انقسامات نفسية - اجتماعية حول مصدر الهوية: الطوائف (أو الدين) أم الدولة؟ من هنا جاء «تسييس الطوائف»، وتحوَّل عبر الصراع المجتمعي على السلطة إلى «تطييف» السياسية. وفي المقابل، حدث شرخ بين «المواطنين» الجدد، خصوصاً بعد انكسار أول محاولة قومية عربية - على النطاق اللبناني - السوري - في معركة ميسلون/ دمشق (١٩٢٥)؛ وتجلّي ذلك الشرخ المستمر حتى يومنا، في التماهي بالمنتدِب «الوصي» الأجنبي من جهة، وفي التآخي مع المحيط العربي للبلد، وقيام جماعات تكاؤل وتعاضد، تحت عنوان مقاومة الانتداب، بوصفه استعماراً.

المفيد أكثر هو أن دولة لبنان الكبير والجمهوري، قامت في المجتمع الأهلي على مبدأ «تلازم المواطنية وسيادة الوطن»؛ وقامت في مؤسسات الدولة على سياسة استعمارية، موضوعها تقسيم المواطنين إلى جماعات موالية للانتداب وأخرى معارضة له، بمعنى انتمائها إلى بيئة عربية أوسع، ممانعة ومقاومة للمشروع الغربي، الفرنسي- البريطاني برمته، ولا سيما مشروع التوطين الصهيوني في فلسطين ذات الأكثرية العربية. الجماعات المعارضة في لبنان وسورية وفلسطين قاومت الوصايات الخارجية والعمالات المحلية، على مدى المجال الوطني أو القومي للأمة العربية أو الإسلامية، المترسّخة في المتخيَّل الشعبي، والمفتقدة في الواقع السياسي. في ظل هذا التعارض بين دولة الأمر الواقع ودولة الأمة المنشودة، عرف لبنان الحديث حركات مقاومة في معظم أرجائه، المتصلة بالداخل العربي السوري، لا سيما في جبل عامل (حركات صادق حمزة، أدهم خنجر، مؤتمر وادي الحُجير، حيث سيُمنى العدوان الإسرائيلي بهزيمة دباباته في حرب تموز- يوليو ٢٠٠٦) وفي البقاع وجبل لبنان (خصوصاً الشوف، شكيب وهاب واغتيال فؤاد جنبلاط، مدير الشوف الأعلى). هذه الحركات الاستقلالية التي قاتلت الجيش الفرنسي في الشرق المكوّن بأكثريته من مرتزقة محليين ومن الفرق الأجنبية (السنغال، الجزائر، المغرب، تونس، بلجيكا، إلخ) وُصفت بأنها «عصابات»، وهي في حقيقة ممارستها لهويتها القومية حركات تحرر وطني، أهملها مؤرِّخو المرحلة، أو تناولوها من زاوية التاريخ الاستعماري للمستعمرين.

صفوة القول: إن هذه المقاومة في لبنان وسوريا هي التي أسّست لاستقلال الدولتين في بلدين توأمين عربياً وإقليمياً ومصيرياً. ففي هذه المرحلة (1943 -1918) جرى تأسيس السيادة على

مبدأ الاستقلال، وجرى تكوين الإرادة الوطنية اللبنانية، على الرغم من تطييف السياسة، وقيام الجيش الوطني اللبناني كرمز للدفاع عن جغراسية الدولة ومجتمعها. وعليه، ليس صحيحاً أن استقلال لبنان في ١٩٤٣/١١/٢٢، كان حصيلة التناقض البريطاني - الفرنسي فحسب، بل كان أيضاً وفي المقام الأول حصيلة نضال الوطنيين اللبنانيين والسوريين. فمن مجتمع المقاومة اللبنانية ذاك، خرج شعار «المحتل ما بيحتل»، بعد سقوط باريس تحت الاحتلال النازي؛ وتحتّم واقع استقلال لبنان الجديد، بمقاومته، عن محتليه، لا عن محيطه الحيوي العربي الإسلامي - لكن بدون قطع مع العالم الغربي.

ب) الوطـن لنـا كلنـا!

مع إنجاز الاستقلال وسط حراكٍ شعبي ممانع لاحتلال «المحتل» الفرنسي، ظهر علم لبنان بأرزة، ونشيد الوطن بـ «كلنا للوطن». وفي ذلك السياق، تساءل مواطنو الأطراف: إذا كنا كلنا للوطن، فلماذا لا يكون الوطن لنا كلنا؟ كان الرّد من المركز: هذا تحوير لنشيد الوطن، فصودرت المساءلة وبقيت المسألة قائمة على حدود الدولة، خصوصاً بعد قيام «دولة إسرائيل» كعدو دائم لمحيطها العربي، ومنه المحيط الوطني اللبناني: جنوباً، لكي يكون الوطن لنا كلنا، لا بدّ من دفاع وطني شامل، وحتى عربي (بعد قيام جامعة الدول العربية) وربما دولي حسب ميثاق الأمم المتحدة (١٩٤٥، توقيع الرئيس الدكتور عبد الله اليافي باسم لبنان)؛ وشرقاً، لا بدّ من سياسة لبنانية عربية - إن لم نقل عروبية - تجاه دمشق التي استعادت استقلاليتها وأقامت دولتها السيادية. وبين الجنوب المهدّد، والشرق الضامن لعروبة لبنان وسيادته واستقلاله (عن الوصاية الأجنبية)، وُلدت مجدداً المشكلة أو القضية اللبنانية؛ وظهرت «سياسة بين بين» أو «هيك وهيك» التي انتهجتها حكومات ما بعد الاستقلال المعلن، بمثابة السياسة المؤسِّسة لمرحلة جديدة من الانشراخ السياسي المجتمعي. فبين العدو الصهيوني والشريك القومي لا مجال للخيار أو التواطؤ. ومع ذلك، لم تختر معظم العهود المتتالية سياسة المقاومة كضرورة وطنية، مع أن فريقاً من اللبنانيين شارك في «حروب فلسطين»، وقاومت قرى وبلدات حدودية، كما انتزعت «إسرائيل» من دولة لبنان المستقلة، أرضاً وقرى، سبعاً وعشرين، لا يهم، فضلاً عن مزاع شبعا (١٩٦٧). هذا الانتزاع وذلك العدوان «الصهيوني» المتمادي على حدود لبنان الجنوبية، كانا يؤشران إذاً على انتقاص دولي من سيادة الدولة اللبنانية على كامل أراضيها، وعلى نقص في الاستقلالية وفي المدافعة الوطنية عن كل المواطنين، لا سيما الحدوديين منهم. وهناك، كما في المركز، اكتشف المواطنون أن الدولة الوطنية المشتركة، غير قائمة على شراكة حقيقية. واعتورهم الشعور بأن الدولة التي لا تكون لكل المواطنين، هي التي تجعل الوطن حِكراً للبعض، على حساب البعض الآخر، الأكثر. وفوق ذلك، أعتبر سكان الحدود الجنوبية والشرقية من «المهمل» و«المنسي» دفاعياً واقتصادياً. هؤلاء السكان احتفظوا بهويتهم الوطنية اللبنانية، وقاوموا على مدى أجيالهم

المتعاقبة، سواء بالتماهي مع المقاومات العربية (سورية، مصر، الجزائر، فلسطين، إلخ...) أم بالمقاومة الوطنية، المباشرة والمتواصلة. هذا الجانب من نضال «الحدوديين» ظل بلا صدى في سياسة الدولة أو السلطة المركزية، كأنما العاصمة اللبنانية لا تستطيع أن ترى إلا ذاتها ومصالح المتسلطين فيها - عليها. ومما يُذكر في هذا المساق أن طائفية النظام السياسي شوَّهت وطنية المقاومة وزوَّرت هويتها اللبنانية والعروبية، باعتبارها مقاومة «طائفة» لا مقاومة وطن بأسره؛ فجرى الكلام على «طائفة حدودية» صادف أن معظمها من الشيعة. وهكذا، نشأ شرخ جديد بين جماعةٍ تقاوم دفاعاً عن وطن، وبين سلطات تفرِّط بسيادة الدولة واستقلالها لأجل مصالح خاصة أو حتى أجنبية.

إن تاريخ لبنان المستقل (١٩٤٣ - ٢٠٠٦) يتحدد بمقاوماته السياسية (مناهضة الأحلاف الأجنبية، التضامن مع حركات التحرر العربية) والمسلَّحة (١٩٥٧، ١٩٦٨، ١٩٧٨، ١٩٨٢، ١٩٩٦، ٢٠٠٠، ٢٠٠٦).

من هنا كان لا بدّ من إعادة التعريف بدولة لبنان نفسها: هل هي دولة وطنية، تجسّد سيادتها بالدفاع عن حدودها ومجتمعها؟ أم هي دولة/ حاجزة، تستبطن الوصايات والتدخلات الإقليمية الدولية، التي تشرذم الشعب اللبناني فتحول دون اندماجه في مُتحدٍ أومصهرٍ مشترك، والتي تسهِّل بذلك خطر العدوان الإسرائيلي عليه، كما حدث مراراً وتكراراً؟.

لا جرمَ أن اعتبار «إسرائيل» لحدودها كـ «دولة» مشروط بقدرة «جيشها»، هو من الاعتبارات العدوانية، التي تسفِّه اعتراف بعض العرب بها (مصر، الأردن، منظمة التحرير الفلسطينية) وتؤشّر لبنانياً على معادلة: عدوان دائم = مقاومة دائمة. فعلى مدى أربعين عاماً (١٩٦٧- ٢٠٠٧)، عاشت دولة لبنان في معمعات التفجير الأميركي- الغربي- والإسرائيلي لهذه المنطقة، وفقدت سيادتها، الداخلية والحدودية، غير مرة. وعلى هذا الصعيد، جرى تشريخ اللبنانيين غير مرة، على قاعدة الانقسام حول مبدأ السيادة ذاته. فمتى فقد لبنان سيادته ومتى استعادها؟ وما الضامن لها، مجلس الأمن أو مجلس النواب، أو المقاومة والجيش معاً؟.

II- تلازم سيادة الدولة والمقاومة:

أ) فقدان السيادة:

ما بين ١٩٤٣ و١٩٦٧، جرى انتهاك سيادة الدولة اللبنانية مراراً، علناً وسراً، سواء بالتدخل العسكري المباشر (أحداث ١٩٥٧ وتدخل الأسطول الأميركي السادس، ١٩٥٨) أم بالتدخل السياسي (مشروع إيزنهاور، حلف بغداد، تعيين الرؤساء بوصايات عربية وغربية، إلخ...). وفي كل حال كان الجامع المشترك بين التدخلين العسكري والسياسي في شؤون لبنان، هو التهديد «الإسرائيلي» المستديم، والمتقاطع مع تبدل الوصايات على المنطقة، من الوصاية الأوروبية، إلى

الوصاية الأورو- أميركية، وحتى السوفياتية- الشيوعية. لكن منذ ١٩٦٧، حتى ٢٠٠٧، صار لبنان، الدولة والمجتمع في مهبة «حروب إسرائيلية» وبات عليه أن يضحّي بنفسه لحفظ ذاته وضمان سيادته. بحروب على الأهل (١٩٦٨- ١٩٧٦). مهّد العدو «الإسرائيلي» لحربه المستديمة في لبنان، منذ ١٩٧٨. على أن ما تجدر ملاحظته هو أنّ الإعلامي السياسي الغربي (را: جان فرانسوا نودينو، ٢١ دولة عربية لأمة واحدة؟ تعريبنا، بيروت، منشورات بيسان، ١٩٩٢) جعل من العام ١٩٧٦ محطة لفقدان دولة لبنان سيادتها، باعتبار أن دخول قوات الردع العربية (ضمناً القوات العربية السورية المسلحة) هو بمثابة (احتلال) أو (عدوان). وفي الوقت نفسه، أهمل المحطات العدوانية الإسرائيلية. لا سيما محطة ١٩٧٨ (عملية جنوب الليطاني، واحتلال قسم كبير منها وإقامة شريط حدودي عليه). لكن المميز الأبرز في هاتين المحطتين هو أن معظم اللبنانيين رأوا في الجيش العربي السوري حليفاً داعماً للمقاومة المتمادية منذ ١٩٦٨ والمشتركة (عربية - لبنانية) ما بين ١٩٧٨ و١٩٨٢، ومن ضمنها مقاومة حركة أمل، ثم مقاومة حزب الله (١٩٨٣ - ٢٠٠٣)، ورأوا في الجيش الإسرائيلي عدواً مشتركاً ودائماً.

المفيد هو أن لبنان لم يفقد سيادته، لنقص في قرارات مجلس الأمن الدولي، ولا لقلة تضامن عربي فحسب، بل فقدها أيضاً، وخصوصاً، بسبب انفجار دولته المركزية وتفجير جيشه الوطني، المركّب على صورة انقسامه المجتمعي وتكوينه التناقضي. وأن المقاومة التي نشأت في ظروف الحروب «الإسرائيلية» على لبنان، وُلدت من رحم مجتمع وطني، لا يساوم على هويته ولا يقايض على حريته، ولا يراهن على «سيادة» تُمنح له شكلياً - فلبنان كدولة ذات سيادة لم يفقد موقعه لا في جامعة الدول العربية ولا في الأمم المتحدة، بل فقدها على أرضه بالذات - وتؤخذ منه ومن مجتمعه المحتل من جهة، والمنكوب بحروب «أهلية» من جهة ثانية. بهذا المعنى، جاءت المقاومة، بكل تعابيرها الوطنية والعربية والإسلامية، كعامل توحيد للهوية الوطنية، وكعامل استرداد للأرض، في مرحلة كانت فيها «اللادولة» هي المؤشر الرئيس على فقدان السيادة اللبنانية، وتالياً خسران الاستقلال من الافتتان. إذاً على الدور العربي السوري، أن يعزى إليه إنقاذ لبنان «سيادته»، فيما الاحتلال «الإسرائيلي» وكل المتعاملين معه سراً وعلناً، هو المصدر الدائم للعدوان على السيادة اللبنانية. والجواب الحاسم نجده في الرد على الاحتلال وفي دحره.

ب) استرداد السيادة بالمقاومة:

مع خروج منظمة التحرير الفلسطينية (١٩٨٢) تفككت «القوات المشتركة»، ودخلت قوات الحلف الأطلسي إلى بيروت، في تدعيم للاحتلال الإسرائيلي حتى العاصمة، حيث جرى تنصيب متعامل إسرائيلي رئيساً للجمهورية، ما لبثت مقاومة ما أن طبّقت مبدأ «ذهب بهم الأجنبي فليذهب بهم الشعب»؛ وقامت مقاومات حظيت بدعم عربي (سورية) وإسلامي (إيران) مباشرة

وبلا مداورة ولا مهادنة. هذه الحالة الجديدة لمقاومة الشعب اللبناني تجلت وتطورت قبل استرداد الدولة اللبنانية لشكلها الدستوري بمنطوق اتفاق الطائف (١٩٨٩). فما حدث بين ١٩٨٣- ١٩٨٩، هو أن العدوان «الإسرائيلي» تراجع عن العاصمة، ثم عن جبل لبنان الجنوبي حتى شرقي صيدا، جرّاء مقاومة نوعية (ضرب قوات المارينز والقوات الفرنسية في بيروت) ومقاومة سياسية، سيادية (إسقاط اتفاق ١٧ أيار (مايو) بدعم من دمشق): وأن قسماً كبيراً من جنوب لبنان الساحلي قد تحرّر تماماً بفعل المقاومة النوعية (1985) وما بعدها). وهكذا جرى استرداد السيادة بالمقاومة شبراً شبراً، وشهيداً شهيداً، إلى أن كانت حرب ١٩٩٦ وما عُرف بـ تفاهم نيسان ثم يوم التحرير في ٢٠٠٠/٥/٢٥؛ ولكن هذه المرة، ومنذ ١٩٩٢، في كنف الدولة اللبنانية ذات السيادة الوطنية على معظم أراضيها (باستثناء مزارع شبعا، غير الإسرائيلية، والعربية في كل حال، بصرف النظر عمّا يقال عن كونها لبنانية أو سورية).

جديد لبنان المقاوم هو أن جيلاً وطنياً قد تكوّن من وراء ظهر «الطائفية السياسية» وتداعياتها السلبية على الهوية اللبنانية وعلى سيادة الدولة نفسها؛ وأن ثقافة جديدة عنوانها «السيادة بالمقاومة»، قد بنت ذاتها على أنقاض ثقافة ميتة، نعني ثقافة الاحتراب الداخلي بالتطييف السياسي. والمؤسف هو أن من لم يشاركوا في هذه المقاومة وفي ثقافتها السيادية والنهضوّية، حاولوا الحفاظ على خطابهم «القاتل»، خطاب الهوية اللا وطنية، الطائفية أو المذهبية، فاستعانوا بالسلطة على المقاومة مداورة (قبل التحرير) ومباشرة (بعد التحرير)، لا سيما إبّان العدوان الإسرائيلي على لبنان (ما بين ١٢ تموز و١٤ آب ٢٠٠٦)؛ فيما كانت الدولة والمقاومة (قبل العام ٢٠٠٥، عام الاغتيالات وخروج القوات العربية السورية، وأيضاً عام تدفق الوصايات الأخرى) في موقع واحد: الدولة تضمن المقاومة، والمقاومة تشارك في ضمان سيادة الدولة. إلا أن انكساراً في العلاقة جاء، لا من تباعد الدولة عن المقاومة، بل من استيلاء المعادين لهذا التشارك على زمام الحكم. هنا، لا بدّ من استرجاع مسار المقاومة (خصوصاً حزب الله) في اتجاه السلطة: مشاركة جزئية في الانتخابات التشريعية والبلدية والمختارية الجارية في سنوات ١٩٩٢، ١٩٩٦ (قبل التحرير) و٢٠٠٠ و ٢٠٠٥ (بعد التحرير الأول)؛ ومشاركة في الحكومة، إثر تحالف رباعي (أمل، حزب الله، الحزب التقدمي الاشتراكي، تيار المستقبل وحلفائهما) مقابل (التيار الوطني الحر وحلفائه). ثم انكسار الحلف الرباعي، على قاعدة دولة - مقاومة بالنسبة إلى فريق أمل - حزب الله، وقاعدة دولة سيادية بوصايات عربية - غربية بالنسبة إلى فريق جنبلاط - الحريري - جعجع، إلخ. هذا الانشراخ السياسي هو الذي جعل المقاومة، بعد حرب تموز ومستبطناتها الإقليمية والدولية المضادة لمقولة الدولة - السيادية بالمقاومة. شعباً وجيشاً، تعيد النظر بتحالفاتها (تفاهم نصر الله - عون)، وتشترط مشاركة ضامنة لمشروعها السياسي. ولما لم يكن

لها ما طلبت، خرجت من الحكم، واستندت إلى الجمهور الوطني المقاوم. فحين تتغير نقاط الاستناد السياسي تتبدل لعبة الديموقراطية نفسها، وتتقلب موازين القوى وفقاً لديناميكية الفشل التي حتمت على الفريق الحاكم جزئياً أن يتمسك بسلطة متنازع فيها وعليها.

لكن المشهد السياسي اللبناني الذي لا يشي حالياً بـ «تسوية» من النمط التقليدي، التكاذبي؛ يؤشر من الآن فصاعداً على تحوُّل نوعي في تماسك الدولة اللبنانية حول تلازم السيادة والدفاع الوطني والمقاومة (كجزء رئيس من المنظومة الدفاعية الوطنية). لهذا التماسك عنوان رئيس: الاحتكام إلى قوة الرأي العام، وقوة القانون الديموقراطي، الشراكي، الذي لا يتجزأ في منظومة الدولة السيادية. ولهذا التغالب السياسي الراهن، باحتدامية النفسي والمجتمعي، هدف وحيد، هو انتصار التسالم الأهلي على «العنف الطائفي»، رغم ما اعتور الحالة السياسية اللبنانية الراهنة من خطابات «هستيرية» رمى مطلقوها إلى تزييف الخطاب العقلاني والعملاني الذي تقدمه قوى الانتصار والاعتراض على الوصايات ومن يتظلل بظلالها القاتمة.

إننا أمام مرحلة فاصلة بين لبنان «الطائفي» ولبنان «السيادي». ولا نظن أن اللبنانيين مستعدون للتضحية بسيادة دولتهم التي وقف جيشها إلى جانب مقاومتهم في حرب ٢٠٠٦، لأجل الحفاظ على «طائفية» وعلى «استتباعية» بعض الزعماء. ما نرجو حدوثه هو أن ينهض لبنان المقاوم من «تفريغه» السياسي الراهن، إلى ممارسة سياسية ديموقراطية وسيادية، بحيث يتحول النصر العسكري إلى نصر سياسي لكل لبنان، ويكون الوطن لكل المواطنين بلا تمييز أو تميُّز طبقي / طائفي وإقطاعي في كل حال.

الانتصار في إطار المشروع النهضوي الإسلامي

الباحث د. غسان طه (لبنان)

تمهيد

مقاربة في منظور القيم والعمل المقاوم

غالباً ما يقرن الحديث عن المقاومة بأنها تشكل ردة فعلٍ على الاحتلال أو الاعتداء من بلد أجنبي على بلد آخر. ويحدث هذا الأمر حين تكون الدولة عاجزة عن الدفاع عن مواطنيها وأرضها.

ولكن حين يتجاوز القول عن أنها ردة فعل إيجابي يستند على العنف المجرد إلى أشكال متنوّعة في المقاومة والممانعة، يعني أن ثمّة مشروعاً نهضوياً عاماً يجد مرتكزاته في استناد المقاومة على الممكنات المضيئة في تاريخ الأمّة، والعمل على استيعابها وتمثّلها لجعلها حاضرة في واقع الأمّة، فضلاً عمّا يحمله هذا الحاضر من ممكنات تتوالف معاً من أجل التطلع نحو المستقبل.

حينذاك، لا يعود من المجدي القول بأن انتصار المقاومة في تموز عام ٢٠٠٦ وليد ساعته أو يرتبط بالإعداد المادي والتقني فحسب، أو أنه سيبقى أسير حاضره ليتحوّل إلى حادثة في التاريخ، يجري استذكارها، بل إنه حادثة تاريخية غير منفصلة عن حلقاتها السابقة أو لما ستؤسّس له في المستقبل الذي تنشد فيه الأمّة التحرير الكامل من العدوان الإسرائيلي، القابع فوق أرضها منذ العام ١٩٤٨.

النهوض بالأمّة نحو التحرير، هو بحد ذاته المشروع النهضوي للمقاومة، بيد أن هذا النهوض بعد عقود من الضعف والعجز لا بد له من الاستناد إلى مركوزات تحتاج العمل، من أجل استنهاضها وإحيائها في جسد الأمّة، من أجل الأخذ بزمام المبادرة.

وإذ يشكل انتصار المقاومة أحد آليات الاستنهاض التي تؤذن بنهوض الأمّة، غير أن ثمّة آليات أخرى لا تقل شأناً عن ذلك، وهي التي ساهمت إلى حدٍ كبير في تحقيق الانتصار، وبتحوّل الفعل المقاوم إلى مشروع استنهاض. وهذه الآليات نجدها قائمة على فرضية سوف يعمد البحث إلى

مقاربتها وتحليلها وهي أن الفعل المقاوم لم يكن ليحقق الانتصار، ولم يكن ليتحوّل إلى مشروع نهضوي لولا ارتكازه على منظومة من القيم الممتدة على مساحة العالم الإسلامي، والتي تشكّل عناصر ثقافية كامنة عملت المقاومة على استحضارها وإعادة تظهيرها وإحيائها، وهي قيم نابعة من المناخ الثقافي العام، الذي يحيل إلى التجربة التاريخية للشعوب العربية والإسلامية، ومنها الشريحة المقاومة في لبنان.

وعلى هذا النحو، سوف تجري المقاربة، عبر البحث في معامل الارتباط بين الفعل المقاوم وعناصر منظومة القيم الدينية والأخلاقية و الاجتماعية السائدة، بوصفها توفّر إطاراً عاماً للنهوض، ومن دون أن يحيل ذلك إلى الاصطدام بالخصوصيات الذاتية لهذه الشعوب النابعة من تنوعاتها الدينية والطائفية ومن نزوعها نحو بناء مشروعها السياسي الداخلي وفق الأسس التي تجدها مناسبة بحسب المنطلقات والمرجعيات الفكرية والثقافية لنخبها وشرائحها العاملة في سبيل مشروعها التغييري.

١- المرحلة التاريخية:

شكّلت المرحلة التاريخية التي انطلقت خلالها المقاومة الإسلامية في لبنان، مرتكزاً أساسياً في الالتفاف الجماهيري الذي تردد صداه في سائر الأقطار العربية والإسلامية. ذلك أن المقاومة لم تطرح مشروعاً تحريرياً يتصل بالأرض اللبنانية فحسب، وإنما طرحت مشروعاً استنهاضياً يتطلع إلى إصلاح الوضع المأزقي في العالم العربي والإسلامي الناتج عن تقدم المشروع الصهيوني في المنطقة.

لم تكن المرحلة التاريخية لترتسم منذ لحظة اصطدام الاحتلال الإسرائيلي بالمقاومة الإسلامية في لبنان، بل تمتد بتداعياتها الدراماتيكية إلى تحويل مجرى الصراع نحو الحلول الاستسلامية التي بدت أولى ملامحها منذ كامب ديفيد، وحتى ما بعد مؤتمر مدريد في مطلع تسعينات القرن العشرين.

في حين تجلّت أولى الإخفاقات الصراعية بعدم نجاح المشروع الناصري الذي التفت حوله الشعوب العربية، بعدما أظهرت التأييد لعبد الناصر، إيذاناً منها بحل معضلة الصراع، غير أنها انتهت إلى الإحساس بالخيبة والمرارة والإحباط بعد نكسة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧.

وقد شكّل بروز المقاومة الفلسطينية غداة النكسة، أملاً جديداً من شأنه إعادة الإحساس بالقدرة على استعادة التوازن المفقود، بالاستناد إلى نهج جديد في المقاومة الشعبية المسلحة، كبديل عن منهج الاستخدام الرسمي في خوض الصراع. وقد شكلت المقاومة الفلسطينية موئلاً ومرجعية للاحتضان الشعبي الذي أظهرته الشعوب العربية والإسلامية بمعزل عن أنظمتها التي عانت من الانحدار والتراجع بعد السقوط التاريخي للمشروع القومي في المنطقة.

غير أن لحظة دخول جيش الاحتلال الصهيوني إلى لبنان، والذي أدى بتداعياته إلى إخراج

منظمة التحرير الفلسطينية، أعاد إلى الواجهة الإحساس بالخيبة والفشل بعد الآمال التي كانت معقودة على مشروع المقاومة الفلسطينية المسلحة، سيما وأن الجيش الصهيوني كان قد دخل إلى بيروت كأول عاصمة عربية منذ بداية الصراع العربي الإسرائيلي. وفيما كان المشروع الصهيوني يتخذ منحى تصاعدياً، راحت طلائع للمقاومة الإسلامية التي تشكّلت لحظة الاحتلال توجّه ضرباتها لجنوده في أماكن تواجده في مختلف الأراضي اللبنانية، فأذنت بخوض صراع مرير حتى تحرير الأرض والمقدسات.

كان يمكن للمقاومة أن تكون بنظر الشعوب العربية كإحدى التجارب التي سرعان ما تؤول إلى الأفول بفعل الإحساس بفقدان الأمل الناتج عن الخلل في التوازنات الموضوعية للصراع. ولكن بفعل الانكفاء الجزئي للاحتلال من بيروت، وصيدا وبعض مناطق الجنوب كإحدى الرهانات التي تزخر بالكثير من الإيجابية في فعل التحرير المنشود، راحت المقاومة تحظى بالتأييد الشعبي المتزايد بتزايد وتيرة ضرباتها المتكررة للجنود الصهاينة.

وقد عمدت المقاومة بعد الانحسار الجزئي للاحتلال في منتصف الثمانينات إلى مخاطبة الشعوب العربية والإسلامية حين أعلنت أهدافها في تحرير الأرض والمقدسات، وعلى أنها تشكل النقيض للمشروع الصهيوني؛ باعتبار أن الصراع معه يدخل في دائرة الصراع الوجودي الذي يفترض تضافر جهود الشعوب العربية والأمة الإسلامية على السواء.

وبذلك تكون لحظة الانطلاق قد ارتكزت على أهمية بارزة؛ باعتبارها تشكل إحدى الحلقات التواصلية مع النزوع التاريخي للشعوب العربية والإسلامية في التحرير، وكحلقة مضيئة بعد سلسلة من الإخفاقات التاريخية التي طرحت إلى الواجهة السؤال حول كيفية العمل للخروج من الوضع المأزقي الحاد لشعوب المنطقة.

وبطبيعة الحال، شكّلت إحدى نجاحات المقاومة بالتحرير الجزئي للأرض بداية للاحتضان الشعبي، ولكن هذا الاحتضان مال إلى الاتساع بعدما أكدت المقاومة استمرارية الفعل المقاوم الذي كانت تدور رحاه اليومية على أرض الجنوب، وعلى وقع دكّ التحصينات والمواقع لجنود الاحتلال المنيعة والذي ترافق على مدى سنوات مع بروز الدور الريادي لقائد المقاومة السيد حسن نصر الله، بعدما كانت قيادة المقاومة يكتنفها الغموض، وعدم الإعلان عنها، لوجود الاحتلال على امتداد الأراضي اللبنانية، وبعدما تبوّأ موقع القيادة فيها غداة استشهاد الأمين العام السيد عباس الموسوي.

ومما لا شك فيه، أن الفعل المقاوم المتساوق مع المرحلة التاريخية، والذي تجسّد باستمراريته على مدى سنوات، هو الذي أتاح هذا الالتفاف الشعبي. ولكن هذا الالتفاف اتخذ له عنواناً رمزياً، تمثّل بنظرة هذه الشعوب للقائد الكاريزمي كأحد إنتاجات هذه المرحلة؛ إذ ليس من الممكن - وعلى ضوء التجارب التاريخية للشعوب-، أن لا تتخذ أيّ حركة شعبية كانت أو

رسمية عنواناً لها يتمثّل بالقائد الذي يرمز إليها، ويستند على العزم والتصميم والإرادة في المضي بمشروعه حتى النجاح.

وقد عدّت في العالم العربي رجالات، على أنها قيادات كارزمية بنظر شعوبها لما امتلكته من هذه المزايا، وظلّت تصنّف في هذه الدائرة رغم أن مشروعها في التحرير لم يكتمل؛ مما يعني أن كارزميتها هي مسنودة أيضاً إلى المرحلة التاريخية المأزقية، التي يمتلك فيها القائد إرادة التحدّي، حتى ولو لم يكتب له النجاح في هذا المجال.

من جهة أخرى، فقد ساهمت تداعيات المرحلة التاريخية هذه، جراء المزيد من الانكفاء بفعل مشاريع الاستسلام، الذي تواصلت حلقاته مع مؤتمر مدريد، واتفاق أوسلو وطابا ووادي عربة، والتي تزامنت فيها مع عمليات المقاومة التي راح يعلن قائدها عن استمرارها حتى تحقيق النجاح المنشود، والذي تجسّد في التحرير عام ألفين. وقد شكلت رهاناتها سبلاً مثلى لتجاوز الوضعية المأزقية للمرحلة التاريخية، والتي شكّلت فيها المقاومة انقطاعاً نموذجياً عن حلقاتها الدراماتيكية المتداعية دوماً، والتي يفترض توفير الاحتضان الشعبي لها.

على هذا الأساس، تشكّل لحظة انطلاق المقاومة في تمفصلها مع المرحلة التاريخية التي اقتضت العمل المقاوم، أحد الأبعاد الأساسية التي تضيف الكثير من الأهمية لهذا العمل، سيما أنه ارتكز بحد ذاته على سلسلة من النجاحات التي تستوجب العبور نحو اكتمال أبعاده الاستنهاضية.

٢- المقاومة ومنظومة القيم

أ- معنى القيم

تلعب عوامل كثيرة في انتصار المقاومة في لبنان، غير أنها تبقى قاصرة عن الإحاطة بها مع إسقاط عوامل أخرى، تشكّل رافداً أساسياً في تجسّدات هذا الدور؛ وهي العوامل التي تتّصل بطبيعة الفعل المقاوم نفسه في تمفصله مع القيم والمعايير السائدة؛ ذلك أنه - وبحسب ماكس فيبر - أن الفكر البشري هو الذي يعطي معنى للظاهرة بفضل العلاقة بالقيم، كما أنه هو الذي يحدد في الوقت ذاته الأهمية المعطاة لبعض الظواهر، وأنه عندما نعتبر أن نتائج الأحداث التاريخية هي نتائج مهمة يكون اعتبارنا على أساس العلاقة بقيمنا الثقافية[١].

فالقيمة وفق بعض التعريفات؛ هي طريقة في الوجود أو في السلوك يعترف بها شخص أو جماعة مثالاً يحتذى، وتجعل هذه الطريقة من التصرفات أو من الأفراد الذين تنسب إليهم، أمراً مرغوباً فيه أو شأناً مقدّراً خير تقدير[٢]؛ إنها شيء يحظى بالتقدير والرغبة، وهي تعبير عن الدوافع أو الحالة التي تشبه دافعاً.

ب- القيم وعلاقات القيادة

ووفق هذه التحديدات يبرز الدور القيادي الكاريزمي للسيد نصر الله بوصفه قائداً لحركة

تختزن وتحاكي هذه المنظومة من القيم والمعايير لدى الأمة، جاعلة منه مثالاً يحتذى في تقديم الطاعة والاحترام.

على أنه ينبغي التنبه للمراتبية بين الطاعة والاحترام، في علاقتها الجدلية بين القائد الكاريزمي والأتباع أو المناصرين، على أنها ليست على درجة من التساوي الذي يجعل التماهي مع القائد على درجة واحدة، ولكن من دون أن يفقد رمزيته الكارزمية، ذلك أن تصرف الفرد في النظام الاجتماعي يخضع للنموذج الثقافي السائد الذي يكفل الانسجام والتكافل والتوازن.

القيم هي أحد عناصر النموذج الثقافي، غير أن هذه القيم لا تمارس دوراً قسرياً على الأفراد، بل إن شخصية وسلوك الأفراد تخضع لعناصر التجاذب والتناقض، بين دور الفرد ومصلحته، وتناقض المصلحة مع القيم، سيما وإن الفرد محكوم بحرية التصرف، وتوافق التصرف مع الأهداف، وهو ما يعمد إليه تالكوت بارسونز في فهم المجتمع الرأسمالي الغربي(٢).

قد يصح هذا الوصف الذي يسعى إليه بارسونز، على المجتمع الغربي، باعتبار أن القيم لا تلعب دوراً جبرياً في توجيه السلوك في تعارضها مع مصلحة الأفراد، خصوصاً في المجتمع الرأسمالي الصناعي الاستهلاكي؛ حيث النزوع نحو الكسب والربح والشهرة والنفوذ عندما يقف الفرد بمواجهة أفراد آخرين داخل المجتمع الواحد. ولكن في القضية المطروحة على بساط المقاربة هي تجلي دور القيم والمعايير في إطار المصلحة الجماعية وليست الفردية. فالحق والعدل قيمتان مطلوبتان على النحو الفردي والجماعي، والنموذج السلوكي في الفعل المقاوم يتجلى بجانبه الجماعي حيث لا يطرح النموذج السلوكي في محاكاتهما في إطار المغالبة الفردية مع الحاكم، وإنما بين أمة وأمة أخرى، أمة تؤمن بالوصول إلى مطلب الحق في استعادة الأرض، فمطلب الحق سابق على استعمال القوة الذي يغدو سلوكاً عادلاً في استعادة الحق ونموذجاً يتجلى في خطاب القائد الكاريزمي بعدما غاب عن سلوك القادة العرب، ومن دون أن يفلح النموذج المستبدل في استعادة الحق على أساس الاستسلام في استبدال المعايير في النظر إلى المصلحة الجماعية للأمة.

لكن ثمة إشكالية تدور حول جدلية العلاقة بين القائد والأفراد والأمة، على أنه إذا كان المقاومون في دورهم المتماهي مع القائد هم الذين يقدمون النماذج السلوكية التي تحاكي القيم، فلماذا تتقدم حالة الاحترام على أنها متمايزة بين القائد والمقاومين؛ ذلك أن الفعل المقاوم لهؤلاء يحظى بكل التقدير والاحترام، وينسحب عليهم كأفراد ولكن لم يصبح هؤلاء على نفس الدرجة من الكاريزما بنظر أفراد الأمة.

وقد يفهم هذا الأمر في حال التماهي بين القائد وأتباعه الإيديولوجيين أو المحازبيين، أو ممّن يشاركونه في الانتماء والأهداف بشكلٍ مباشر، ويجمعهم معه تاريخ مشترك من العمل الدؤوب والجهد المرير في سبيل تحقيق الأهداف. وكونه يشكل رأس الهرم التنظيمي الذي

يفترض تقديم الولاء والطاعة، فضلاً عن دوره في رسم الآليات السلوكية المحاكية للقيم، وخاصة قيم الجماعة المتشاركة مع في بيئة ثقافية خاصة، إلى جانب أسباب أخرى سوف تكشف عنها المقاربة في سطور لاحقة.

أما التماهي العام الذي يبرز لدى أفراد الأمة للقائد نفسه؛ أي السيد حسن نصر الله، فقد يدور الاعتقاد بأن البيئة الثقافية في العالم العربي الإسلامي التي تميل بطبعها نحو إظهار الاحترام للقائد البطل أو الرجل التاريخي، ولكونها بيئة بطركية تظهر فيها السلطة الأبوية المتحكمة إلى قيمها الخاصة في تقديم الطاعة الوالدية، فهو الراعي وهو المخلص والمستبد الذي يعرف مصلحة أبنائه أكثر مما يعرفون هم مصلحتهم، ولكن الأمر يغدو غير ذلك حين الولوج إلى التجربة الذاتية للسيد نصر الله والتي تحمل أبعاداً متشاكلة ومتمايزة في آن معاً.

فحالة التشاكل هي في حالة التماهي بين الدور القيادي والدور المقاوم نفسه الذي يجسد سلوكات ونماذج عملية في محاكاة القيم، والتي تتجسّد عملياً في ميادين شتى؛ كونه تدَّرج في العمل الجهادي قبل وصوله إلى سدّة القيادة، وهي من الموجبات الخاصة بعمل المقاومة الإسلامية في لبنان، وهو ليس موضع شك لدى المنضوين في المقاومة، وقد أتاحت الميديا الإعلامية تقديمه العفوي على شاشة تلفزيون المنار في أحد الخطوط القتالية مرتدياً زيّه العسكري وحاملاً بندقيته وتبدو على ملامحه آثار العمل المضني كسائر أقرانه، دون أن تغادره ابتسامة تفصح عن حالة الارتياح لوجوده بين المقاومين. وقد استمر هذا التجسيد بعد تبوّئه سدّة القيادة، ولكن بما ينسجم مع الدور الذي يقتضيه الموقع القيادي من مشاركة في التخطيط ورسم الاستراتيجيات والتوجيه والإشراف، ولكن من دون أن يلغي الاستمرار في تجسيد الفعل المقاوم. وقد برز هذا النموذج السلوكي عبر أثير الفضائيات إبان عدوان تموز ٢٠٠٦ عبر المتابعة الميدانية للعمليات الدائرة على خطوط القتال، وبينها أمر العملية القتالية التي استهدفت بارجة إسرائيلية عملاقة في عرض البحر، وكذلك عبر بروزه في احتفال النصر في شهر أيلول معلناً تحدي العدو الإسرائيلي الذي دأب على إعلان استهدافه بعدما اعتلى المنصّة وسط هدير الطائرات الحربية التي لم تغادر سماء الضاحية الجنوبية آنذاك.

ورغم أن مقتضيات الفعل المقاوم والقيادة على وجه الخصوص تفرض التزام جانب الحذر وعدم تقديم الفرد أو القائد لقمة سائغة للعدو تمكنه من إحراز النصر. فقد أتاح بروز القائد أمام الأمة على الأثير وهو يعلن استعداده للاستشهاد، على أنه صنو المقاومين في دورهم الاستشهادي، وقائد لا يركن في قصوره مخلداً إلى الدعة والراحة على غرار رؤساء الأمم.

من ناحية أخرى، تلعب الرمزية بشكل عام ، دوراً في أحداث التعاضد والتضامن بين أفراد الجماعة وشدها إلى بعضها. ولكن قبل كل ذلك، ينبغي القول، إن ثمة طريقة أكثر بساطة في تعريف الرمز «إنه شيء ما، يحل مكان شيء آخر ويستدعيه»؛ إن تمثالاً معيناً يذكّر رمزياً

بشخصية أو حدث أو فكرة، ويضمن لها بذلك وجوداً وفعلاً مستمرين.وإن أيّ كلمة تحلّ رمزياً محل شيء، تثير ذكراه دون أن يكون الشيء المادي ضرورياً(٤).

وللرمزية أهمية بالغة في حياة المجتمعات البشرية سواء كانت تقليدية أم حديثة.

تنبع أهميتها من وظيفتها في المشاركة والاتصال بين الجماعات ومن تأثيرها في الحياة الاجتماعية، ولكونها تفيد بصورة أساسية في تجسيد الحقائق المجردة، العقلية أو الأخلاقية في المجتمع وتجعلها مرئية وملموسة.

فالجماعات هي كيانات مجرّدة تحتاج إلى رموز لتذكيرها، إلى الأعضاء الذين هم جزء منها، أو لتمييزها عن الرموز الأخرى، أو لتثبيت وجودها بنظر الآخرين. هذه هي حالة الجماعات القومية أو الإثنية التي تتمثّل لنا برموز متنوعة: علم، شعار الشرف والنسب، نشيد وطني، لون مميز، رجل دولة (رئيس الدولة، الملك، رئيس الجمهورية)... مؤسّسة سياسية (التاج البريطاني، الأسد البريطاني، القندس الكندي الخ...) إن هذه الرموز لا تساعد فقط على تقديم الجماعات وتمثيلها بصورة حسية، وإنما يمكن كذلك أن تستخدم من أجل أن تثير أو تنمي شعور الانتماء عند الأعضاء وتضامنهم. هذا ما يسعى إليه ويثيره مثلاً إنشاد النشيد الوطني من قبل حشد من الناس، أو جولة من جولات رئيس الدولة في الظروف المؤاتية، أو كاريكاتير مظهراً الشخصية النموذجية وهي تجابه مشاكل الجماعة أو رفع العلم أو القسم به ، حتى أن احترامه يصل أحياناً إلى حد القداسة الأسطورية التي ينشأ عليها الشاب الأميركي ويكبر، وكيف يتعلم أن يحترم الشارات والرموز التي تحيط به(٥).

الرمزية الدينية تلعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان؛ لما لها من أدوار تصل الإنسان بعالم السماء، وتحدّد العلاقات التضامنية بين الأفراد، ولكونها تنطلق إلى رسم الغايات المفترضة في نظام العلاقات الاجتماعية وخصوصاً بين جماعة المؤمنين، والتي تظهر تعبيراتها في ميادين شتى كالاحتفالات والطقوس، واللباس، التي تطبع الانتماءات، وتتبرز خلالها الحالة التضامنية بالمعنى الصوفي مع رجال الدين، بوصفهم عناصر مكونة للرمزية الدينية.

وبطبيعة الحال، فإن مقاربة شخصية السيد حسن نصر الله، يعين على الفهم لما لشخصه وللدور والوظيفة التي يضطلع بها كرجل دين، ولما للرأسمال الديني من دور في عملية الجذب وشد الأفراد إليه وتكريس موقعه القيادي.

مما لا شك فيه، أن المكانة لا تحدد الدور فحسب، وإنما تحمل في طياتها سلطة رمزية هي سلطة الكلام التوجيهي والإرشادي فيما يتصل بحاجة الإنسان إلى الإرشاد في معرفة وتأدية فروضه الدينية، إذ يكفي أن يدلي رجل الدين بإفتاءاته حول بعض الأمور حتى يلجأ الفرد، - بحسب طبيعة ودرجة الالتزام الديني لديه- إلى تطبيق ما تناهى إلى سمعه ووعيه، تطبيقاً لا يحوجه بعد ذاك، إلى الشعور بالنقص في تأدية التزاماته الدينية على النحو الفردي.

فلكون الدين يشكّل أحد أهم ركائز القيم في النموذج الثقافي في المجتمعات العربية والإسلامية، يجعل لرجل الدين وظيفة رمزية في حياة الأفراد، الذين غالباً ما يظهرون له الود والاحترام، فضلاً عمّا يرسمون حوله من متخيّل ذهني يتصل بشخصيته والتوقعات حولها على غرار دماثة الخلق، والتحلي بالإيمان والصبر والدعة، والزهد... الخ، وتزداد حالة الاحترام وإظهار الطاعة، كلما تميّز رجل الدين في علمه الديني وفي تبصّره في عالم الاستنباط الفقهي، وفي عالم التفسير والتأويل للكتاب الديني وللتراث. غير أن ممارسة الدور انطلاقاً من المكانة لا يفترض جدلاً تحول رجل الدين إلى رجل قيادي على النحو الميداني، أو أن تسري علاقته القيادية على عموم المؤمنين بالدين، سيما إذا اقتصر دوره في النطاق الروحي دون الولوج إلى الاجتماع السياسي والتصدي لما يعصف به المجتمع من مشكلات، فضلاً عن جانب آخر يحدّد المتحلقين حوله، انطلاقاً من مساحة التشارك في حالة التمذهب الناشئة تاريخياً بين المسلمين، والتي تحدّد الأتباع بوصفهم منتمين إلى مذهب من المذاهب. فمساحة التشارك في الانتماء تشكل أحد العناصر الجاذبة بين الأفراد، ورموزهم الدينية ، دون أن يعني ذلك بروز التنافر مع المختلف في إطار الدين الواحد.

لهذا السبب، فإن المكانة الدينية للسيد نصر الله، تفترض وفق هذه الحال، أن تشتد وجهة التماهي معه كقائد كلما اتجه مسار ممارسة الدور القيادي من العام إلى الخاص.

ذلك أن الخاص محكوم دوماً بالتماهي المشترك بين القائد، والمحازبين لتمثلهم أهدافاً مشتركة ينزعون نحو تحقيقها، فضلاً عن الآلية التنظيمية التي تحدد قواعد الطاعة وإظهار الولاء. وبذلك تبرز حالة التماهي في مراتبها القصوى، ثم تميل نحو الانحدار النسبي كلما اتسعت دائرة امتداد الفعل القيادي، أي على مستوى الطائفة والوطن والأمة.

ففيما يتصل بالطائفة الشيعية، لناحية تموقع القيادة الدينية فيها، فثمة، تراتبيات في المكانة تقتضي تمايزاً في الأدوار بما يتوافق مع المكانة، حيث يقف على رأسها المرجع الديني ثم يليه العلماء الآخرون. فالطاعة في موقع الإفتاء معقودة اللواء للمراجع الدينية، والسيد نصر الله لم يبلغ مكانة المرجع الديني القادر على الاستنباط والإفتاء، وإنما هو أحد وكلاء المرجع الديني آية الله السيد علي خامنئي. ما يعني أن المكانة والدور ستحدد تبعاً لحالة التموقع في المراتبية الدينية، وهي ليست على أي حال صنو مكانة ودور المرجع الديني لدى الطائفة، حتى ولو كانت مضاهية لها في مزايا عدّة يفترض للمرجع التحلي بها، كالورع، والعدالة، وحسن السيرة...الخ. لكنها لا تضاهيها في غزارة العلم والقدرة على استنباط الفتوى والاجتهاد بأحكام الدين.

أما من الناحية التنظيمية، فخصوصية الطائفة الشيعية في لبنان محكومة في البناء التنظيمي على ثنائية حزبية راهنة يشكّل حزب الله أحد طرفيها، ما يعني أن التماهي في الانتماء والولاء من الناحية التنظيمية يفترض التواؤم مع هذه الثنائية.

أما في النطاق الإسلامي العام، فالساحة الإسلامية مفتوحة على توزعات مرجعيات فقهية، وتشكيلات حزبية إسلامية متنوعة، وهي تفترض بحسب هذه الحال، تماهيات مع أطر قيادية تتنوع بحسب تنوّع الانتماء سواء في نطاق التمذهب أم في نطاق الانتظام التشكلي لإحدى التنظيمات الإسلامية.

لذلك، فإن السعي إلى فهم الدور القيادي العام الذي اضطلع به السيد نصر الله، لا يحيل إلى المكانة الدينية، أو هو غير منوط بها وحدها، وإن كانت تشكل إحدى العوامل الهامة في هذا المضمار. ذلك أن هذه المكانة، وإن كانت تفتح على الاختلاف والتنوع، فإنها أيضاً تفتح على الاحترام بمعزل عن الطاعة التي سوف تبرز في مراتب متدرّجة، منحكمة إلى خصوصيات المسلمين في ممارسة التزاماتهم الدينية، وبحسب اتجاهاتهم الفقهية والتنظيمية. لذلك، فإن عمومية الدور القيادي ليست نابعة من الموقع الفقهي أو التنظيمي للسيد نصر الله، بل يتغذّى من الدور الاجتماعي والسياسي غير المنفصل عن أطروحة الدين نفسه، والذي يستوجب التصدي للقضايا المطروحة التي يرزح تحت وطأتها العالم والشعوب الإسلامية على وجه الخصوص، والتي هي ليست محل خلاف بين المسلمين، بمعزل عن تصورات تحققها وآليات رفعها عن كاهل الأمة.

وعلى هذا النحو، فإن الدور القيادي للسيد نصر الله ليس مطروحاً على أنه يمثل زعامة دينية عامة، وإنما كزعامة قيادية انطلقت من الفهم الديني إلى الميدان العام في الأمة، وصقلها في إطار القضايا العامة للمسلمين. ولذلك، فإن هذا الدور القيادي، هو دور استنهاضي عام، لا يدعو إلى النهوض فحسب، وإنما يحدد الآليات ويرسم النموذج، وينير الطريق أمام تحققه وهو نموذج المقاومة من أجل تحرير الأرض واستعادة عزة وكرامة الأمة.

ج- تجسدات القيم

إن الأهمية المعطاة لظاهرة المقاومة كحدث تاريخي، انطلاقاً من القيم السائدة هي بحد ذاتها تشكل تعبيراً شديد الارتباط بفئات من القيم الدينية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية، والتي تتجسد بنماذج من الشجاعة والكرم، وإغاثة الملهوف، والإخلاص والحرية والعدالة.

وهي نماذج ترتبط بالنزوع الإنساني العام كالحرية والعدالة، وبعضها مرتبط بالطبيعة الاجتماعية المتوارثة لدى الشعوب العربية والاسلامية على غرار الشجاعة والنجدة والكرم.

وهي لتضمنها نماذج فعل تعود إلى فئات متنوعة من القيم، تغدو أكثر أهمية مما لو تضمنت نموذج فعل يعود إلى فئة واحدة من فئات القيم، إذ ثمة تراتبية في القيم لدى الشعوب التي تسعى إلى تفضيل بعضها في أولويات ومراتب متدرجة من ناحية الأهمية. فبعضها من طبيعة روحية وبعضها الآخر من طبيعة اجتماعية أو مادية أو فكرية، لكنها ليست على درجة واحدة من التراتب. فالقيم الجمالية إذا اصطدمت بالقيم الأخلاقية والدينية في بعض جوانبها تتقدم القيم الدينية

والأخلاقية عليها، وكذلك الحال في القيم المادية في الكسب والمعاش والإنتاجية وغيرها.

وعلى هذا النحو، يغدو فعل المقاومة منطوياً أو متضمناً في نموذج يعود إلى أكثر من فئة من القيم المتواكبة في آن معاً، وبما لا يحوج إلى الاصطدام بمعايير تفاضلية بين الديني والأخلاقي والاجتماعي والإنساني، الأمر الذي يؤدي إلى اتساع وظائفها لدى الجماعات ولدى الأمة كوظيفتها في الإحساس بالانتماء، والتشارك في شدّ عرى الوشائجية التي تربط الأفراد ببعضهم البعض، وتوفير الشحنات والانفعالات التي تجعلها ملهمة للأحكام ولإظهار الولاء والطاعة.

على هذه الحال، فالقيم كمرجعية للأحكام، وكمثال يحتذى وغايات قصوى يطمح إليها أصحابها، يصبح الفعل المقاوم معياراً وتجسيداً واقعياً للجانب المعنوي الذي تشكله القيم، فالمعايير هي تجسدات واقعية في حين أن القيم هي مرجعية معنوية فإكرام الضيف، ومساعدة الضعيف، وإغاثة الملهوف هي تجسدات عملية لقيمة اجتماعية هي الكرم، وليست هي الكرم بحد ذاته. ومن هنا تأتي النماذج التي تقدمها المقاومة على أنها فعل سلوكيّ في الشجاعة والصبر والتحمل ورفع الظلم ومساعدة المظلوم، والإقدام والجرأة، ونيل العزة والكرامة والحرية، يحاكي القيم ويتوازن معها، وبذلك تصبح المقاومة النموذج المحدد للسلوك الرمزي والمرجعي في مجاراته لمنظومة القيم في النظام الاجتماعي السائد.

الذاكـرة الجمعيـة:

الذاكرة الجمعية تختزن الكثير من ذكريات الماضي ووقائع التاريخ في حياة الشعوب، ولكنها ليست أحداثاً جامدة كمدوّنات التاريخ، وإنما تبقى حية في الوجدان والعقل، يستدعيانها في المهمات وفي الأحداث المفصلية للاستضاءة بها، والاسترشاد بهديها، فضلاً عن كونها إحدى أساسيات التضامن واللحمة والوشائجية بين الجماعات أو الشعوب، كما تزخر به أحداثها ورموزها وشخصياتها من معاني مثقلة بالكثير من الإنجازات والدلالات التي تعبر عن القدرة على معالجة إشكالات الواقع، من رجالات رسمت حولها هالة كبيرة من القداسة والشرف والرفعة والحكمة من قبل المؤمنين بها.

غير أن عملية الاستحضار من الذاكرة الجمعية ليست على درجة واحدة حيث تتراوح بين الضعف والشدة. فتارة يقتصر هذا الاستحضار على الإحساس بالشعور النفسي الذي يمنح الطمأنينة حين العودة إليها، تحت وطأة الأحداث المثقلة بإرباكات الواقع، بعدما يسود التذمّر والضجر وانعدام أفق الحلول الممكنة، ثم لينفتح هذا الاستحضار على عقد المقارنات بين مثالية الماضي وإشكالات الحاضر وتصورات المستقبل. وقد تلجأ بعض الجماعات إلى عقد لواء من المصالحة بين الذاكرة الجمعية والحاضر عن طريق عقلنة الواقع، بإسناده على مجموعة من التبريرات التي تبيح القبض على زمام الأمور في إطار الظروف والشروط الموضوعية، دون إلغاء هذه الذاكرة، وإنما تستبقيها أسيرة وجودها التاريخي. وتلك هي حال النظم السياسية التي تعيش

حال الانكفاء والضعف والخضوع وحال انعدام التوازن. وتلك الحالة ليست سهلة المنال، إنما تحتاج إلى الكثير من الجهد والإقناع واستخدام أجهزة السلطة في إحداث ونقل تبريرات الواقع إلى الوعي الجماعي، دون المساس بالذاكرة الجمعية للشعوب، بل يجري التمسك والاعتداد بها وتأكيد الانتماء إليها، طالما بقيت ترزخ في دائرة التاريخ لانتفاء الظروف الموضوعية التي تعين على استحضارها إلى عالم الواقع، أو يجري الأمر من خلال إخضاعها لمجموعة من التأويلات، وجعلها منفتحة على تعدد الأفهام والرؤى حولها لناحية حملها على الواقع.

في حين إن إحدى درجات هذا الاستحضار يبلغ درجة من الشدّة في تأكيد الذاكرة الجمعية، فيجري استدعاؤها لإعادة إنتاجها في الواقع، بكل ما يضج به من تفاصيل تتدرج في الأمور اليومية والحياة الدنيوية والأخروية للجماعات، لتصل إلى قمة الهرم السياسي وتلك هي حال الجماعات الإسلامية التي باتت تسمّى بالحركات الأصولية.

على هذا النحو، تقدّم الشعوب العربية والإسلامية في تشكيلاتها الأهلية وانتماءاتها الحزبية ومؤسساتها ونظمها السياسية الكثير من الأمثلة لناحية تموضع الذاكرة الجمعية جراء ما تعصف به هذه المجتمعات من حالات الفقر والسيطرة والضعف، والنزوع نحو التنمية والمشاركة. ولعل مشكلة الصراع مع الكيان الصهيوني هو أحد أهم عوامل هذا الاستحضار لانفتاحه على مختلف المكوّنات الشعبية منها.

ذلك أن مخزون الذاكرة الجمعية يستند إلى الكثير من العناصر المتوالفة والمتراكمة على مدى أجيال، فهي ذاكرة تختزن الكثير من القدرة على الحضور، حيث لا تمتد إلى أحداث جرت في قرون خلت، وإنما تشكّلت من ماضٍ قريب متصل بالحاضر، ولأنها حين تشكلت حملت معها الكثير من الإخفاقات المشفوعة بالمآسي والحزن، والإحساس بالهزيمة وبالقليل من النجاحات المحدودة في بعض مفاصل الصراع، ولكنها بقيت تنتظر الإنجاز التاريخي الكامل وهو ما قامت به المقاومة في لبنان.

الفعل المقاوم بين المبادرة والمغامرة:

المبادرة هي إحدى السّمات الهامّة التي لا بد للقيادة التحلي بها، لاقترانها بالتحفّز والإقدام لتحقيق الغايات، وبدونها يتحول القادة إلى قادة رأي ومنظرين أو فلاسفة ينشدون فهم علل الوجود في بداهتها وعمقها، ومن دون أن ينقض ذلك دورهم التغييري، فمثالاً لا حصراً لعب مفكرو عصر الأنوار في القرن التاسع عشر في إحداث التغيير الذي شهدته القارة الأوروبية بعدما سرت أفكارهم حول الحرية والعدالة والمساواة وعلى امتداد عقود من الزمن، ووجدت لها مكاناً دافئاً في عقول المستنيرين الطامحين إلى استبدال الواقع المتردّي بفعل سيادة، السلطات المطلقة، وانعدام الأمن والحرية والعدالة. إن مبادرة هؤلاء المفكرين تجلّت عندما انبروا إلى إعمال الفكر والنظر من أجل العبور من الواقع المتردّي إلى واقع أفضل من خلال بلورة ممكنات التغيير.

وقد لا يحتاج التغيير إلى فلاسفة ومنظّرين، وإنما إلى مبادرين من نوع آخر ممن تشكلت لديهم قناعات تغييرية زاوجت بينها وبين الفعل التغييري، على غرار ارنستوتشي غي فارا وفيدل كاسترو وأحمد بن بلا وغيرهم من القادة التاريخيين الذين أفرد التاريخ لهم صفحات خلّدت أدوارهم، وجعلت منهم مثالاً يحتذى لدى شعوبهم.

وفي المرحلة الراهنة المتصلة بالصراع مع إسرائيل يتجلى الدور القيادي للسيد حسن نصر الله، باستناده إلى خيار المقاومة، داعياً إلى توسلها في حسم مسألة الصراع الذي مضى عليه عقود من الزمن، فيما المشروع الصهيوني يتقدم على ما عداه من مشاريع لحل هذه المعضلة.

فالدعوة إلى المقاومة هي بحد ذاتها مبادرة، جعلت من أصحابها دعاة تغييريين، وقادة يتحلق حولهم الجماهير.

إن المبادرة تكون شديدة الحاجة والإلحاح، حين يسود حالة من المأساوية والضّياع، وحين انعدام أفق الحلول، وتجمد الوعي التغييري، أو بفعل وجود الوعي التغييري كاستعداد كامن في النفوس، ولكن من دون خروجه إلى حيز الواقع بفعل القهر والتسلط الداخلي والخارجي على الشعوب.

وقد يصح هذا الوصف في محايثته وتزامنه مع الواقع الذي يبرز فيه الدور القيادي المقاوم للسيد نصر الله، إن لناحية الإخفاقات في حروب الأنظمة العربية في صراعها مع إسرائيل، أو لناحية الانحدارات في القضية الصراعية التي مالت منذ كامب ديفيد، ثم مؤتمرات التسوية المزعومة منذ مدريد وأوسلو، إلى تنحية مسألة الصراع والاستعاضة عنها بمفاوضات السلام، فضلاً عن ضغط الأنظمة العربية على شعوبها المتحفزة نحو استعادة الأرض والحقوق المشروعة بالارتكاز على خيار المقاومة، بمقابل مبررات تستند إليها تلك الأنظمة، مقرونة إلى الظروف الموضوعية قوامها انعدام حال التوازن مع القوة الأسطورية لإسرائيل، ومساندة الغرب لها، وبأن الأمور بخواتيمها طالما أن تلك الخواتيم هي استعادة الأرض.

وعلى هذا النحو، تصبح المبادرة في الفعل المقاوم مغامرة غير محسوبة النتائج؛ لأن منطلقاتها تتجافى مع منطق العقل ومقتضياته في تعيين الآليات والوسائل للوصول إلى الأهداف.

ورغم أن دحض فكرة المبادرة برزت أولى ملامحها مع كامب ديفيد، تسلّلت بعد ذاك بمشاريع التسوية في مدريد ووادي عربة، إلاّ أنها أصبحت بعد ذاك مغامرة، وهو ما يصح إطلاقه على موقف دولتين عربيتين في إطار الرد على الفعل الإجرائي للمقاومة في لبنان بخطف جنديين إسرائيليين جراء طلب مبادلتهما بأسرى لبنانيين في السجون الإسرائيلية. ولذلك دعا السيد نصر الله إلى تحمل النتائج.

ترى إذا كانت المبادرة مغامرة تقف بمواجهة عقلنة القرار السياسي وتوظيف العقل العملي والمعياري في قضية تدخل في إطار شبكة من القضايا المعقدة في الصراع مع إسرائيل، فلماذا

حظي الفعل المقاوم في أحد حلقاته المتصلة بحرب تموز ٢٠٠٦ بهذا التأييد من الشعوب العربية والإسلامية دون بعض حكامها؟ تكمن الإجابة في أن هذا التأييد والالتفاف لا يحيل إلى حبّ المغامرة غير محسوبة النتائج لهذه الشعوب، بقدر ما يحيل إلى انفتاحها على الأبعاد الوظيفية للعقل في جوانبه النظرية والعملية في آن معاً. ذلك أن وظيفة العقل النظري التطلع الدائم نحو الحقيقة التي تحيط بعالم الإنسان وبينها حقيقة الوجود الصهيوني المعادي، فيما ترتبط الجوانب العملية بالآليات والوسائل التي منها الفعل المقاوم، الذي يقف على دفتي الترجيح بين المبادرة أو الاستسلام.

وأما من ناحية قيادة المقاومة، فإن الخطاب الموازي للفعل المقاوم، لم يخل يوماً من تقديم مبرّرات للعقل الجمعي، على أن المقاومة لا تعني المغامرة وإنما تقترن بالعقل، حيث نجد عناصر هذا الخطاب تقدم بإزاء أعمال العدوان اليومي لإسرائيل وأمريكا في فلسطين والعراق تجربة نجاح المقاومة في تحرير الأرض في جنوب لبنان، وعناصر أخرى تتصل بالتخطيط في إدارة المعركة، وبأن المقاومة تمتلك كل أسباب القوة من سلاح ردعي، وبنية قتالية متماسكة. وهي عناصر تحمل قدراً كبيراً من الأهمية لتسويغ المبادرة. وحتى ولو كانت النتائج متواضعة بنظر البعض، فإن المقاومة تكون متصلة بحلقات أخرى في البناء الاستراتيجي لخوض المعركة المصيرية التي تستوجب المبادرات العربية والإسلامية بعد أن تكون المقاومة قدمت النموذج في هذا الميدان.

قد يصح هذا الفهم في اعتباره أحد عناصر التأييد والالتفاف لدى الشعوب من الحكام لارتباط العقل التبريري بمصالح دوام السلطة فضلاً عن تعوّده على مصادرة وظيفة العقل الجمعي لهذه الشعوب بحصره بالحاكم، في عقله الأبوي الذي لا يكفّ عن اعتبار الأفراد أطفالاً ومراهقين قاصرين عن مصالحهم الخاصة فكيف بمصالح الشعوب، ومن هنا كانت ممارسة دوره الأبوي، على أن المبادرين في الفعل المقاوم ليسوا سوى مغامرين، لا يستوجب الأمر عودتهم إلى أحضان الأبوة على غرار الأطفال، وإنما يجب تحمل تبعات أعمالهم عندما يضيق الأب ذرعاً بممارسة أبوّته ليس في السلطة، وإنما في مصادرة العقل، حتى ولو كان هذا العقل عمومياً بالفطرة ويتوزع على عموم بني البشر.

الإيثار

يرتبط الفعل المقاوم في أحد جوانبه بمجاراته لقيمة إنسانية عالية هي قيمة الإيثار، وهي قيمة رغم ارتدائها الطابع الإنساني العام، إلا أنها تحظى بخصوصية بارزة في المجتمعات العربية والإسلامية، لارتباطها بالواقع الاجتماعي والتاريخي من جهة، وارتباطها بالدين من جهة، أخرى. ولذلك فالإيثار يستند في هذه المجتمعات إلى أساس اجتماعي وديني.

ولتبيان هذه الخصوصية، نجد أن المجتمعات التقليدية وبمعزل عن الدين، مارست هذا النوع

في محاكاة هذه القيمة، ففي مجتمعات الصيد البدائية، وكذلك المجتمعات الزراعية حيث الندرة في الرزق وأسباب العيش أدت إلى وجود الحالة التضامنية والتعاضدية بين الأفراد.

ففي هذه المجتمعات تسود من ناحية القرابة، العائلة المركبة والموسعة وتجمعات القبيلة والقرى التي يعرف فيها الأفراد بعضهم بعضاً، وتشتد فيها الأعراف والتقاليد بينما تضعف القوانين المكتوبة، وفيها يؤثر الفرد أفراد عائلته أو قبيلته أو أبناء القرية على نفسه في حالات العوز والشدّة وندرة الرزق. هي مجتمعات تكاملية وتضامنية؛ حيث يعمل جميع الأبناء معاً ويعمل الفرد للجميع، ولكنها تقوم على الإيثار حين يعطي الفرد في بعض الأحيان أكثر مما يأخذ، إذ قد يتكافل أفراد أسرة ما في العمل الزراعي، ولكن الإنتاج حين يكون غير وفير تمتد إليهم يد أخرى للمساعدة في إطار من التبادلية؛ حيث يمكن أن العائلة الموفورة الإنتاج في زمن ما، محتاجة إلى يد العون، فالتبادل هو أحد الأسباب التي تؤدي إلى رسوخ العرف والقيمة في تلك المجتمعات التي لم تسيطر بعد على الطبيعة. في المجتمعات الغربية الحديثة حيث تغدو مؤسسات الدولة كبديل تضامني عن الأفراد ليس ثمة حاجة إلى امتداح الفعل الذي يحاكي قيمة الإيثار .

لقد حلّت الأسرة النواتية التي تقوم على الزوج والزوجة والأولاد أو بدونهما محل العائلة الموسعة، وغدا المجتمع أفراداً في مواجهة بعضهم البعض في التحصيل والكسب. في عالم الربح والمال، ثمة عقل عملي يتحكم بالأشياء، إذ ليس ثمة منطق في أن أعطي المال الذي أكسبه بالتعب لفرد عاجز لا يقوم هو بهذا العمل، الذي ينبغي عليه أن يقوم به ولو لم يوفّق إليه، أو حتى في أبسط الحال ثمة مؤسسات تقوم بدور رعائي للعاطلين عن العمل تموّل من الضرائب المفروضة، وليس ثمة منطق في مساعدة الآباء لأبنائهم الذين يؤثرونهم على أنفسهم وهم أطفال، ولكن بعد بلوغ السنّ القانوني عليهم بتدبر أنفسهم. وليس على الأبناء مساعدة الآباء العاجزين طالما هناك مؤسسات رعائية تحتضنهم حتى مماتهم. وليس من العقل أن أكون مضيافاً أقدم نقودي في منزلي أو في المطعم أثناء دعوة لأصدقائي و ممن جمعتني بهم الصدفة. لقد حل العقل وحساب الربح والخسارة والمنفعة في تفاصيل الحياة اليومية مما أدى إلى ضمور قيمة الإيثار من الناحية الموضوعية؛ لكونها تخالف المنطق. مع ذلك، نجد أن الكثير من الأعمال التي تحاكي هذه القيمة، ولكنها مقترنة بأصحاب الشهرة وعالم النجوم الكبار أثناء الإفصاح عن برامجهم في مساعدة الأطفال المرضى، كمرض السيدا، والسرطان وغيرها بعدما تعب هؤلاء في الجني والربح وعالم الشهرة، إذ ليس من نشاط يحوجهم إلى الشعور بإنسانيتهم أكثر من ذلك التعاطف الإنساني مع العاجزين والمعوزين وذوي الحاجات الخاصة. وهو عالم منفصل عن القيم الدينية المسيحية في المحبة والإيثار والتي غدت أسيرة أقوال الرهبان والقدسيين في كنائسهم وأعمال القديسة تريزا في حسّها الإنساني الرائع.

أما في المجتمعات العربية والإسلامية، فإن قيمة الإيثار ما تزال تحمل معانيَ محمَّلة بالكثير

من موارد القبول والاستحسان؛ لكونها قيمة متناسلة في تاريخ هذه المجتمعات وواقعها المعاش غير المنفصل عن ماضيها. ذلك أن المضي في مشروعها الحداثي لا يقوم على أساس القطيعة مع الماضي كما في البلدان الأوروبية. فالبنية الاجتماعية ما تزال تحافظ على تماسك نموذجها القائم على القرابة وعلى الوظيفة الوشائجية والتضامنية للعائلة الموسعة. كما أن هذه المجتمعات وإن دخلت مرحلة التصنيع، ولكنها لم تستطع تحويل الأفراد إلى ذوات فردية منفصلة، فالعائلة ما زالت تشكل وحدة اجتماعية اقتصادية، كما تتصل اتصالاً وثيقاً بالمؤسسة الدينية[٦]، وبالقيم الدينية. ومنها التي تحثّ على الإيثار بين ذوي القربي والأرحام في مديد العون والمساعدة، ولو على حساب الذات، بل والاهتمام بالجماعة وبأمور المسلمين والمستضعفين. وهي تعاليم تضطلع بأدوار شتى بينها توطيدِ عرى اللحمة والوشائجية لدى الجماعة، ودعوة نحو التسامي بالفرد نحو الكمال الإنساني الذي يتجرد عن الذات فضلاً عن ارتباطها بالعود والنفع الأخروي.

وبذلك يحمل الفعل المقاوم بعداً قيمياً يتجسّد بقيمة الإيثار، حيث لا يعود هذا الفعل على من يقوم بالعمل نفسه، وإنما يعود بالفائدة على الجماعة، لبنانية كانت أو فلسطينية أو عموم المسلمين، لكون معضلة الصراع مع إسرائيل تبقى إشكالية مطروحة على الوعي الإسلامي ينبغي العمل لرفعها ومعالجتها. ولما كان من غير المتيسر لجميع المسلمين الانضواء في العمل المقاوم بسبب الظروف الموضوعية المحيطة بالفرد، كان من الطبيعي أن يختزن هذا العمل بعداً عميقاً في محاكاة قيمة الإيثار، ليس في مجال تحمّل الجهد والعناء والمصاعب التي يستوجبها، والذي يخرج عن التضحية بهذا الجهد والعناء إلى حد التضحية بالمال والنفس، وهو ما لا يتحمله عموم الأفراد. إذاً لا يمكن بحسب المصلحة الشخصية، وبحسب عامل الخوف والإحساس بالضعف، ونزعة الخلود الفطرية أن يقدّم الفرد على التضحية بنفسه من أجل الجماعة أو الأمة التي ينتمي إليها.

فالاستشهاد والتضحية عمل ممدوح لا بحسب ما يحمله أفراد الأمة من قيم دينية فحسب، وإنما الفرادة والتميّز التي يستوجب التحلي بها للإقدام على هذا العمل، سيما أن المقاوم ليس جندياً في مؤسسة عسكرية لكي يدفع نحو القتال على النحو الإكراهي، وإلاّ فسوف يخضع للمساءلة القانونية والجزائية.

مع ذلك ، فإن الجندي حين يقدم نفسه في المعركة يحاط بالكثير من إسقاط عوامل الاحترام المتمثلة بالطقوس الرمزية لرفاقه في السلاح من معزوفة نشيد الموت إلى المقابر الخاصة التي تخلد ذكراهم بوصفهم أبطالاً آثروا شعبهم وأمتهم على أنفسهم، فكيف الحال حين يكون الفعل المقاوم عملاً يرتكز على الاختيار والمبادرة الفردية للإنسان الفرد نفسه.

فالشجاعة والإيثار والتضحية تنتمي إلى فئة القيم السائدة في المجتمع العربي والإسلامي،

وهي مستمدة من تواصلها مع الجانب التاريخي لهذه المجتمعات في تحولها من مجتمع القبيلة إلى الدولة في العصور الإسلامية. ومن جملة التحدّيات التي واجهتها فيما بعد إزاء عهود الاستعمار ومقاومة المشروع الصهيوني. وهي لا تزال قيمة سائدة إزاء استمرار التحدي الصهيوني للاجتماع الأهلي والمدني، بمقابل بدائل أخرى تقوم على أساس المفاوضة لاسترجاع الحقوق وهي مطروحة اليوم من قبل القادة العرب.

أما الفعل المقاوم، فهو يشكّل أحد النماذج السلوكية المعيارية، بكونه فعلاً يحاكي هذه القيمة ويرمز إليها. وهو يشكّل في أحد أبعاده فعلاً يقوم على القوة، ولكن دون أن تكون القوة وحدها تمثل الشجاعة بعينها. فقد تستخدم أسباب القوة في عصر التصنيع والتكنولوجيا، وتستخدم على أنها فعل يقوم على القوة دون الحاجة إلى عامل الشجاعة. ففي عالم استخدام السيف والمبارزة، أو المواجهة الحالية في الحروب حيث يشتبك فيها الجنود، فإن الشجاعة تبقى مطلوبة على أية حال، حيث تقترن الشجاعة بالقوة وترفدها.

في حين أن الشجاعة تفتقد إلى القيمة المطلوبة لدى الجندي الذي يقود دبابة أو طائرة مزوّدة بأحدث ما أنتجته التكنولوجيا الحديثة، فهو لا يتعامل مع أفراد وجهاً لوجه بقدر ما يتعامل مع أهداف ليس بينه وبينها حالة تفاعلية، يمكن أن تختبر فيها قدرته على الصمود في الميدان، إذ يكفي أن يدخل الهدف دائرة التحديدة المبرمجة حتى يصبح الهدف في عداد لائحة الإلغاء الوجودي بعدما يقضي عليه صاروخ نازل من أعالي السماء أو من أقاصي الأرض.

وهكذا، نجد أنه كلما ازداد تطور التكنولوجيا الرقمية، كلما مالت قيمة الشجاعة نحو التضاؤل، وتضاءل معها الإحساس الإنساني بالخوف والحذر اللذين يستوجبان استحضار الصبر والعزم والإقدام للثبات في المعركة، قبل وقوعها واثنائها وبعدها.

في حين أن قيمة الشجاعة جراء التصدي للمشروع الصهيوني تبقى مطلوبة في ظل غياب التوازن التكنولوجي.

ولذلك، تنظر هذه الشعوب إلى العمل المقاوم في لبنان نموذجاً سلوكياً يحاكي قيمة الشجاعة.

فهو يقوم على استخدام القوة، ولكنه لا بد من الاقتران بالشجاعة، لكونه يقوم أساساً على الاشتباك مع العدو في مواقعه الحصينة والمجهزة بوسائل الرصد والإنذار، والعتاد، في اندفاعة يقوم بها المقاومون نحو هذه المواقع؛ حيث تتداخل فيها كل المؤثرات التي يمكن أن تنال من المشاعر الانفعالية للإنسان كأصوات القذائف، وألسنة اللهب، وغبار المعركة وأنين الجرحى، ومشاهد القتل، خلافاً لقائد الطائرة الحربية غير المتصل بشكل مباشر مع الهدف إلاّ فيما يراه على الشاشة المحددة لأهدافه أمامه.

فالميدان إذاً، هو ميدان صبر وأناة وإقدام وهو يستوجب بلا شك رجالات يحملون هذه

المواصفات، وهو ما يجعلهم ذوي خصوصية ينظر إليها على أنها محل احترام وتقدير. ذلك أنه ليس بمستطاع كل إنسان التحلي بمثلها، إذ شتان في الأمر بين قيمة الشجاعة ذات الفعل الذي يحاكي هذه القيمة، فكم من الأفراد ينظرون إلى الرجل الكريم والمعطاء نظرة تقدير واحترام ولكنهم لا يقومون بالفعل نفسه؟ علماً أن الكرم هو قيمة اجتماعية مطلوبة، قد يتعارض الأمر مع مصلحتهم في الإنفاق أو في عدم امتلاك المال أصلاً أو بسبب ظروف موضوعية تحول دون هذا الأمر، مع ذلك يبقى فعل الكرم ممدوحاً من قبل الكثيرين كذلك الأمر في الفعل المقاوم، قد يتعارض الموقف مع مصلحة الفرد في عدم تعريض حياته للخطر والإيذاء، أو ثمة ظروف موضوعية تحول دون مشاركته في هذا الفعل، كتعرضه للمنع أو الملاحقة من قبل نظامه السائد، أو أنه في الأصل لا يحترف عمل القوة جرّاء نقص في التدريب مع أنه يمتلك القابلية للعمل الشجاع.

على هذا النحو، يبقى الفعل المقاوم عملاً معيارياً لقيمة الإيثار والشجاعة والتضحية، وهي منظومة قيم لا تزال تنظر إليها الشعوب العربية الإسلامية نظرة قيمية انطلاقاً من تاريخها وواقعها.

٣- الخطاب والتواصل

أ-تعزيز الاتجاه

وهو من الدلالات المتضمنة في الخطاب المقاوم، والذي ينطلق من تعزيز الميول السائدة لدى الأفراد فضلاً عن تكوينها لدى آخرين ممن لم يتضح لهم الميل نحو تأييد الفعل المقاوم.

ولكن بداية، نوّد تحديد هذا المفهوم لإزالة الالتباس الذي يمكن أن ينشأ حوله. فإحدى تحديدات الميل هو أنه حب الفرد لنشاط معين، ورضاه عنه، وتركيز ذهنه فيه، والاستعداد إلى بذله أقصى مجهود فيه، والاستمرار فيه أطول وقت ممكن. ويعرف الميل بحسب جيلفورد «بأنه النزعة السلوكية العامة للفرد نحو الانجذاب إلى مجموعة معينة من أنواع النشاط»: وتعني كلمة الانجذاب «أن الفرد يهتم بشيء له قيمة بالنسبة إليه أو يبحث عنه أو يتجه إليه أو يكافح للحصول عليه»(٧).

ومن هنا، فإن المقاربة تقتضي الوقوف على الكيفية التي غدا فيها الفعل نزعة سلوكية لدى غالبية الأفراد والشرائح على مستوى الأمة، تنشدّ إليه، ويحظى بتأييدها.

قد يسود الاعتقاد بأن الميل في الرضا عن الفعل المقاوم ناشئ عن فراغ، باعتبار أن الفرد يكتسب معظم ميوله واتجاهاته وقيمه ومثله العليا من المجتمع الذي يعيش فيه أو بالأحرى نتيجة التفاعل بينه وبين هذا المجتمع؛ وذلك من خلال ما يمر به الفرد من خبرات ومواقف منذ طفولته المبكرة، ولا تقتصر علاقة الفرد بالمجتمع على مجرد اكتساب الاتجاهات والقيم، بل إن المجتمع هو الذي يحدّد للفرد الدور الذي يقوم به.

وبطبيعة الحال، فإن ما هو سائد في المجتمع العربي لا يوحي على الإطلاق بأن هذه المجتمعات عبر أطرها التربوية الناتجة عن السياسات التربوية التي تضعها الدولة، تؤكد على تكوين الاتجاه فيما يتصل بالفعل المقاوم؛ ذلك أن هذه المجتمعات تنشد سيادتها على نفسها ودوام استقرارها والمضي في عقلنة الصراع مع العدو الإسرائيلي عبر مشاريع الحلول الاستسلامية، ولكن واقع الحال يكشف أن الخطاب المقاوم للسيد نصر الله ينطلق من أن ثمة اتجاهات وميول تتصل بالاتجاه نحو تأييد الفعل المقاوم، وهي تستوجب التعزيز للتحوّل نحو الفعل الاستنهاضي.

فحين تفصح بعض مضامين الخطاب أن اتصالها بموضوعة القيم السائدة، وعمّا يختلج في الوجدان الجمعي المعادي بطبيعته للمشروع الصهيوني، فهي تعيد الاتصال بمخزون الذاكرة الجمعية، وبالوعي الجمعي، وتعمل على تنشيطها وتحفيزها؛ حيث يجري التركيز في الخطاب على البعد الإيماني كمنطلق لراحة المقاومة؛ أي الإيمان بالله الحاضر دوماً في الوعي والوجدان لنرى هذه الشعوب، وكذلك في عدم إغفال منطلقاتها الإسلامية على أنها منطلقات عامة تخصّ جميع المسلمين بل تعمل بموجب التعاليم الدينية الناشئة عن الإسلام في السعي نحو الحرية والعدالة ورفض الانصياع للظلم، وبذلك تصبح المقاومة بمنطلقاتها الإسلامية محملة بشعار حضاري يدفع نحو الالتفاف حوله إذ لا يصحّ للأفراد الانضواء في عناوين تغييرية حضارية لا تنتمي لها ولا تعبر عن انتماءاتها.

لقد غاب الشعار الحضاري المتمثل بالإسلام عن النخبة العربية الحاكمة أثناء خوضها للصراع، ولكن رغم هذا الغياب فقد استحوذت الطروحات القومية على تأييد الشعوب العربية لا لتعاطفها مع المشروع القومي الوجودي الذي يجد في إسرائيل مانعاً وجودياً في سبيل تحقيق هذه الوحدة باحتلالها بلد عربي، وتهديد أقطار عربية أخرى، لكنها في تأييدها هذه لم يغب عن وعيها بأن ثمة مشروعاً صهيونياً يقوم على أبعاد دينية، لشعب الله المختار في نزوعه لتشكيل دولته من الفرات إلى النيل، وهو ما تقدمه هتافات التنديد بالعدوان الإسرائيلي في الحروب السابقة لاجتياح عام ١٩٨٢ معلنة التعبئة والدعوة إلى فتح باب الجهاد لتحرير المقدسات.

وعلى هذا النحو، فإنها تجد في الكلام الخطابي للسيد نصر الله ما يعيد الاتصال بالوعي الجمعي للشعوب العربية والإسلامية، والذي ظل قاصراً عن تقديم تجربته في المراحل السابقة بسبب اضطلاع الأنظمة بهذا الدور الصراعي، وحين تشكّلت المقاومة الفلسطينية مالت هذه الشعوب نحو دعمها وتأييدها بعدما وجدت فيها نموذجاً مقاوماً يختلف عما خبرته من نظمها، التي تراجعت على يدها القضية الصراعية بعدما دارت في فلك المداولات الدولية. غير أن هذا الوعي الذي اتجّه نحو المقاومة الفلسطينية سرعان ما بدأ يتجه نحو الانحدار؛ بفعل المنطلقات العلمانية للمنظمة التي وجدت فيها ما يتيح لإقامة دولة تعايشية بين المكوّنات الدينية للشعب

الفلسطيني، ومن ثم إقامة دولة على بعض أجزاء الأراضي الفلسطينية، وعاصمتها القدس، ولكن من دون أن تحظى بمقبولية العدو الإسرائيلي.

ومع هذه الإخفاقات، وجدت هذه الشعوب في خطاب المقاومة نموذجاً متضمناً لعناصر ثقافية ليست غريبة عن مزاجها التكويني العام تتمثّل عناصره في مفردات مركزية؛ تمثل حقلاً دلالياً متوالفاً لا يغيب عنه، فمن الابتداء بالبسملة والحمد والصلاة على النبي الأكرم التي لا تفارق خطاب السيد نصر الله، إلى الإفصاح دوماً عن هوية المقاومة ومنطلقاتها المتمثلة بالإسلام، ومن ثم إقران الفعل المقاوم بالجهاد والاستشهاد المعزز بآيات قرآنية تحضّ المؤمنين على النهوض في سبيل الدفاع عن المقدسات وذم القاعدين والمتقاعسين عنه، وهي مفردات تتمثل دلالاتها بإعادة التذكير بها، ويسهل إدراك ما تحمله من معان لاقترانها بالوعي الجماعي لهذه الشعوب التي تعيد استحضارها في مواجهة الموقف الصراعي الذي يهدّد مقدساتها ومرتكزاتها الوجودية المتمثلة بهويتها الحضارية.

ب- تكوين الاتجاه

ثمة دلالات أخرى متجاوزة لتعزيز الاتجاه لدى الأفراد في الكلام الخطابي للمقاومة من شأنها الدفع في تكوين الاتجاه والميل إلى الانجذاب إلى الفعل المقاوم وقيادته؛ ذلك أن مفردات الكلام من شأنها تحريك هذه النزعة السلوكية.. لإفصاح دلالاتها عن معانٍ ترضي في الأفراد مشاعر سارة، كما ترضي دوافع أخرى قوامها الارتفاع بالشعور والنقص المتشكل على مدى عقود من الزمن بسبب سلسلة الإخفاقات الناتجة عن الصراع مع العدو الإسرائيلي.

فالوعي الجماعي لدى الأمة كان ما زال يتحرك على أساس الشعور بهذا النقص الناتج عن انعدام حال التوازن مع العدو، والذي كان يدفع دوماً عن التفتيش عن كل الممكنات التي تؤدي إلى تحويل إلى الشعور بالاقتدار، وإلاّ ما كانت هذه الشعوب لتخفي مشاعر العداء للمشروع الصهيوني رغم انتصاراته على مدى عقود مضت.

في حين أن وقع الكلمات في خطاب السيد نصر الله تحمل كل ممكنات هذا التحويل نحو الشعور بالاقتدار «*لا مجال للخوف لا مجال للتراجع، إن إسرائيل أوهن من بيت العنكبوت*» تتناهى إلى الأسماع من قيادة المقاومة وهي مقرونة بالفعل المقاوم، الذي سرعان ما يثير مشاعر سارّة في نجاحاته الممتدة من العمليات الدائرة قبل التحرير والتي انتهت إلى تحقيق التحرير عام ٢٠٠٠ ثم الانتصار في حرب تموز عام ٢٠٠٦ ، والتي لم يندر لمقاومة عربية أن خاضتها على هذا النحو من الصمود والعناد على إحراز النجاح.

فالخطاب هو خطاب النجاح وإحراز النصر، إذ للشجاعة وللتصميم فيه محل يبرز أشد وضوحاً وجلاء من خطابات الهزيمة والاستسلام الذي يثير مشاعر مؤلمة وغير سارّة؛ باعتبارها متواصلة مع الإحباطات السابقة. إنه ليس كلاماً سياسياً ولكنه كلام في السياسة التي تعبّر عن

استراتيجية المقاومة؛ باعتبار أن في الكلام السياسي مضامين قد تختزن أشكالاً من الزيف والخداع لتسويغ المشروع السياسي للاستحواذ على السلطة والذي سرعان ما يتبدد حين الاستئثار بها.

لقد خبرت الشعوب العربية تجارب خطابية في التنمية والديمقراطية والتحرير التي كانت تثير فيها مشاعر سارّة لوقت ما قبل أن تكتشف مدى صدق تلك الوعود أو عدمها. في حين نجد في الخطاب المقاوم مفردات تقرن المثابرة والتصميم بالوعد بالنصر «أنا أعدكم بالنصر» الذي لا يجد دلالاته في نتائج عدوان تموز عام ٢٠٠٦ بقدر ما يجدها في تجربة المقاومة على مدى عقدين من الزمن، فهو كلام يحمل القابلية في الاستهواء وسرعة التصديق والتقبل؛ لأنه صادر عن شخصية تقرن القول بالفعل، ومن دون مواربة وانحراف في اتجاه المقاومة حتى في أشد الظروف صعوبة ومرارة .كما أن دلالاته ليست ناتجة من الرغبة في الشحن الانفعالي وتحريك الغرائز بقدر ما هي ناتجة عن تبريرات منطقية تخاطب الوعي والعقل العملي للأفراد؛ حيث توجد هذه التبريرات عن الكشف عن ممكنات النصر بالاعتماد على الوعد الإلهي «إننا نعتمد على الله» كدلالة على تماهي القيادة مع منطلقاتها الإيمانية المستمدة من القرآن الكريم. وهي توجد من فعل التجربة «*كما هزمناكم في عام ٢٠٠٠ سنهزمكم إن شاء الله*»، وفي الركون إلى ممكنات القوة» لقد كنا أقل قوة قبل عام ٢٠٠٠، وها نحن أكثر قوة واستعداداً وهو كلام صدق لمن يصدر عنه مع نفسه قبل أن يقدم للآخرين مشفوعاً بالتجربة والبرهان.

على هذا النحو، فأن يقدم تلك الدلالات من شأنها الولوج إلى تكوين الاتجاه والميل والانجذاب إلى الخطاب المقاوم كمثال يحتذى في حلّ معضلة الصراع مع العدو الصهيوني؛ باعتباره فعل مبادرة واقتدار وليس فعل مغامرة وانهزام.

الهوامش:

[1] د. علي سالم، **منهجيات في علم الاجتماع المعاصر**، مرجع سابق، ص ١١٢.

[2] غي روشيه، **مدخل الى علم الاجتماع**، مرجع سابق، ص ٨٨.

[3] د. علي سالم، **منهجيات في علم الاجتماع المعاصر**، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

[4] غي روشيه، **مدخل على علم الاجتماع**، ج١، تعريب مصطفى دندشلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٣، ص ١٠٧.

[5] المرجع نفسه، ص ١١٥.

[6] حليم بركات، **المجتمع العربي المعاصر**، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٩٨، ص ٢١٩.

[7] أمين حلاوي، **علم التفس العيادي**، بيروت ٢٠٠٢، ص ٧٣.

التبصُّر الخُلُقي كمكوِّن لميتا - ستراتيجيا المقاومة

الباحث أ. محمود حيدر (لبنان)
رئيس تحرير مدارات غربيّة

لو كان لنا من توصيف إجمالي لمعنى المواجهة بين العدو الإسرائيلي والمقاومة، لجاز القول إنّها في أحد تعبيراتها مواجهة تستعيد الأسس الأخلاقية لمفهوم الحرب. ففي الأعم الأغلب دلَّ تاريخ الحروب، وحروب منطقتنا بوجه مخصوص على احتجاب هذه الأسس لدواعٍ شتّى.

ومن معاينة إجمالية لتجربتها، وجدنا أنّ المقاومة أفلحت في تظهير العامل الأخلاقي على غير مستوى: في المواجهات العسكرية والسياسية، وفي إدارة المجتمع الأهلي، وفي إعادة الاعتبار إليه كعامل مركزي في استراتيجيات الحرب.

حين يجري الكلام على مثل هذا التظهير، فذلك لا يعني أنّ الأخلاقية هي مجرد قيمة مضافة إلى الممارسة العامّة للفعل المقاوم. إنّها تدخل دخولاً بيّناً في أصل الفعل. أي بصفة كونها فعالية سارية في الطبقات الفكرية، والمعرفية، والعلمية المكوّنة لمشروع المقاومة.

تدخل الأخلاقية إذاً، كأصل تكويني للمقاومة. وعلى هذا النحو، هي حالة معرفية تتجلى في السلوك، عبر سيْريّة تربوية عادة ما تترسّخ من خلال اتحاد النظر والعمل. وهنا يصحُّ القول: إن مثل هذا الاتحاد، لم يكن ليُحصّل في الواقع، لولا الحضور المبين للتبصّر الخُلقي. إذ من هذا الحضور بالذات يمكن الكلام على أصالة الأخلاق وفعليتها في إنتاج وتوليد التبّصر الخلقي. ولسوف نتبيّن مثل هذه السَّيْرية، متى اتضح لنا أن الأصالة الأخلاقية لدى المقاومة الإسلامية اللبنانية، هي من مقتضيات الحقيقة الدينية. وهي مقتضيات تحتل المقام الأول لمرجعية المقاومة. إذ من داخل هذه المرجعية بالذات، سوف تتشكّل ثلاثة أحياز معرفية تؤلف عمارة وجودها:

- الحيّز الأول: المعرفة الإيمانية (التوحيد).
- الحيّز الثاني: المعرفة الدينية (الشريعة وفروعها).
- الحيّز الثالث: المعرفة السياسية، المؤيَّدة بالحيّزين المعرفييّن السابقين.

مع توفّر هذه الأحياز ضمن بنيان مرصوص، تغدو الحقيقة الدينية سارية في الزمان والمكان،

وتمسي أخلاقيّاتها راسخة في مجال الظهور والتمثّل. ففي الترسيخ الجامع بين الأحياز المعرفية الثلاثة لا يعود يكفي مجرد الاقتران بين النظر والعمل، بل ينبغي أن يبلغ العمل، درجة يصبح معها عامل إمداد وتفعيل للنظر. بل ويشكّل عامل تجديد، وإبداع للمفاهيم والأفكار والإستراتيجيات، مثلما يشكّل تسديداً للممارسة، بأسبابها، وآلياتها، وطرائقها المتعددة.

على هذه الأحياز- المتصلة برباط وثيق فيما بينها- يستوي البعد الأخلاقي للمقاومة. بما هو بعدٌ مُتّخذٌ من القرآن الكريم بواقع اختزانه حقيقة الشريعة؛ وكذلك من الميراث اللاّمتناهي للحقيقة المحمدية الممتدة عبر الزمن؛ وتالياً من السيرة التاريخية للأنبياء والرسل، والأولياء، وأئمة أهل بيت الرسول وصحابته.

أمّا الحديث عن مذهب أخلاقي للمقاومة، فلزومُه رسم خارطة إجمالية لمجالات سلوك المقاومين في الحرب، والسياسة، والاجتماع الأهلي. فالأخلاقية - كما سنبيّن- تبقى مجرّد أحكام اعتبارية مخرّجة بكلمات صمّاء، ما لم تتحيّز في حقول الممارسة. وعند التحيّز لا يعود السؤال عن معنى الأخلاق منفصلاً عن مجال العمل. حيث يتحدّد المعنى من خلال الطريقة، أو المذهب، اللذَين يستعملانه في الواقع. ولنا هنا أن نلاحظ طائفة من المجالات، تظهر فيها أخلاقيات المقاومة كتجلٍ لتكامل النظر والعمل، ولاتحاد النظرية والممارسة، وللموازنة بين أضلاع القدرة والعقلانية، والبعد المعنوي والحضاري لمشروع المقاومة. غير أن هذه «الحزمة المعرفية» ستؤول في الطواف الأخير إلى ما يمكن أن نسميه «ميتا- ستراتيجيا المقاومة»، حيث يندرج التبصّر الخُلُقي كقيمة عليا ضمن مراتبها المتعددة.

وللتوضيح نذكر ملاحظتين تتصلان بالمفهوم وتسوّغان له:

الأولى: إنّ حرب المقاومة على إسرائيل، وحرب إسرائيل على المقاومة، تفارقان من وجهٍ أساسي منطق الحروب المألوفة. ذلك لأنّهما تدخلان في منطقة احتدام ذات سمة فوق سياسية. وهو ما نعني به «الاحتدام الميتا- ستراتيجي»، إذ عندما يستعمل هذا المفهوم، أو ما يوازيه في علم الحروب والصراعات الكبرى، سوف يتبيّن لمن يأخذ به، مركزية الإيمان الديني، وحضور الاعتقادات الغيبية في الزمن السياسي. وهذا يعني أن نشوء المفهوم ما كان ليتحصّل خارج نطاق الحراك العام. وبالتالي فإنّ «الميتا- ستراتيجيا» هي وليد موضوعي واقعي، ينمو، ويتطور، ويتكامل، ضمن سَيْريَّة الالتقاء الحميم بين الإيمان الديني، ومنظومة، الأفكار، والخطط التي تعكس المصالح السيادية العليا للأمة. وعلى هذا النحو من الالتقاء بين الغيبي والسياسي تتأسس وظيفة الفكر في الحقل الميتا ستراتيجي.

وهكذا فإن وظيفة الفكر، كما يقال، تتضاعف عندما تبلغ الأوضاع حافة الهاوية بين السلام والحرب. وهذا ما يحصل في مشهدية الحرب بين الأطروحتين المعاصرتين إسرائيل والمقاومة.

ولكن في النهاية فإن التمييز بين الوسائل الممنوعة والمقبولة في الحرب يفترض حكمة متعالية. ذلك أن علم الأخلاق - كما يقول باسكال - يتغير تغيّراً كبيراً وفق الإيمان بخلود الروح أو فنائها[1].

وهكذا تتمكّن الميتا- ستراتيجيا من إنشاء منطقة معرفية يمتزج فيها النظر السياسي بالتجربة الإيمانية. كان الإستراتيجيون يقولون: إن أضمن شكل من أشكال العمل والحكمة التي يمكن إدراكُها وتصورُها، وأكثرها فاعلية للانتصار على المدى الطويل، هو عمل الرجل الذي يقول الحقيقة من دون لفٍ أو دوران، أو قيود. وإن على القائد أن يكون استراتيجياً وفيلسوفاً في الوقت نفسه. ولكن عليه ألاّ يضحّي بالحقيقة على مذبح تسيير الأمور، ومن دون فائدة مجدية للمصلحة العامة. ذلك أن كل من اعتاد إخفاء الحقيقة بغية تسهيل العمل الفوري انتهى إلى فقدان قوة تفكيره وسلامته.

هنا يتمظهر التأسيس السياسي للميتا- ستراتيجيا على نحو ما لوحظت إرهاصاته في تجربة المقاومة الإسلامية في لبنان. ولعل ما هو ظاهر في الصورة الإجمالية، فإنّا نجده في الارتباط بين السياسة والشريعة. لكن شرط واجبية هذا الارتباط ألاّ يؤدّي في مجال الممارسة إلى الوقوع في داء الماكيافيلية. بحيث لا تتحول الشريعة إلى حقل طيّع للتوظيف السياسي. فالغاية وفق سيْريَّة هذا الحقل المعرفي السياسي المُتحد بالغيب، لا تسوِّغ الوسيلة، إذا كانت الوسيلة غير مطابقة لسموّ الغاية ومشروعيتها.

الثانية: وتتعلق بالتعرف على الشطر الثاني من المفهوم الذي نحن بصدد تأصيله. أي التبصّر. فما الذي نقصد به؟ إنه هو اللحظة التي يتوقد فيها الفكر، ويشع فيها القلب، ويحتدم فيها العمل. حتى ليصبح الفكر والقلب والعمل أمراً واحداً فاعلاً في اللحظة نفسها. عنينا اللحظة التي تستولد المعاني، والأفكار والمفاهيم الخاصة بالحقل مجال الممارسة.

والمتبصّر هو الرائي في فضاء مكتظ بالضباب. بحيث يكتسب المتبصّر إبصاره بصورة جلية وسط غبار المعار، وأدخنة النار، وسوء الانقشاع.

على هذا المنبسط المعرفي ينعقد التبصّر ضمن سيْرية عقلية تسلك خطوط التدبير المحكَم للشأن الذي تتعامل معه أو تتجه. وعندما يكون التبصّر مربوطاً بالأخلاق أو ناجماً عنها يترقى ويسمو ويغدو أشد أثراً في ميادين النشاط الإنساني. وعندئذٍ يكون التبصّر الخلقي قد بلغ المقام الذي يصبح فيه حاوياً لجدلية تتكامل وتتبادل في داخلها العقلانية والأخلاقية بلا تفاوت أو انفصال.

أما التأسيسات المكوّنة لميتا- ستراتيجيا التبصرُ الخُلُقي للمقاومة، فسنعرضها ضمن طائفة من المجالات بادئين بما انتهينا به وهو:

١. مجال ملازمة الوسيلة الفاضلة للغاية الفاضلة:

الصورة هنا مركبة، سواء في السياسة أم في الحرب. فالمقدّمات الفاضلة ينبغي أن تفضي إلى نتائج فاضلة، خصوصاً إذا أُخِذَت الأسباب المشروعة، لبلوغ الأهداف المشروعة. ولقد كانت الصِدقية من سمات عمل المقاومة السياسي، حيث نأت من ملابسات النزاع الداخلي، على امتداد أعوام الحقبة الأولى من حرب التحرير (١٩٨٥-٢٠٠٠). ثم سعت إلى استئناف سلوك كهذا، رغم التحوّلات التي طرأت على التقليد السياسي اللبناني، وقوانين تقاسم السلطة بين الطوائف. ولسوف تتعاظم أهميّة هذا المسلك بصورة أكثر فعالية في مجتمع محكوم بوضعية غير عادية، كالمجتمع السياسي في لبنان.

ولعل الطريقة التي حكمت تجربة المقاومة عند انخراط حزبها في الحياة السياسية اللبنانية، شكّلت برغم التعقيدات الجمّة التي واجهتها تحالفاته وخصوماته، لوناً جديداً حلَّ على التقليد السياسي اللبناني. تجلت سيْرِيَّات هذه الطريقة أساساً في الانصراف التام إلى ممارسة حرب التحرير، وفي العلاقة مع المحيط الجماهيري الذي تعمل المقاومة فيه، وفي التعامل مع الإنجازات التحريرية التي توّجت بانتصار ربيع العام ٢٠٠٠. وكذلك في رؤية الخصوم الداخليين بوصفهم شركاء في الوطنية الواحدة، أنّى بلغت درجات الخصومة السياسية معهم. ويمكن أن نسجّل في هذا المجال الإشارتين التاليتين:

الأولى: في المدى القريب: حين تبصّرت قيادة المقاومة حساسية البيئة الداخلية اللبنانية بعد حرب (تموز- آب) ٢٠٠٦. فقد كان عليها أن تواجه الانتقال الصعب بين عالمين متناقضين: عالم المقاومة ضد عدو تاريخي آلت استراتيجياته الحربية إلى الإخفاق، وعالم الصراع الداخلي مع خصوم سياسيين بلغ الأمر بأكثرهم حدّ المشاركة في حملة سياسية إقليمية ودولية ضد المقاومة، وسلاحها. حتى لقد ظهر بوضوح أنّ الحملة السياسية المشار إليها هي استئناف للحملة العسكرية بوسائل شتى.

ومنذ اللحظة التي اضطُرت فيها المقاومة إلى الدخول في عالم الصراع الداخلي، راحت تتصرف على قاعدة أنّ هذا الدخول هو أشبه بممر إجباري لا مناص من عبوره لإحراز ثلاثة أهداف مباشرة:

- صوناً للمقاومة من خطر التصفية السياسية.
- ومنعاً لمصادرة معنى الانتصار.
- وحفظاً للسلم الأهلي، والوحدة الوطنية من التداعي والانهيار.

الثانية: وتعود إلى ربيع العام ٢٠٠٠: فلقد كان أمراً استثنائياً في أخلاقيات الحروب، أن تتعامل المقاومة المنتصرة بكثير من التسامح، مع قرى وبلدات ومدن في جنوبي لبنان استُخدمت من جانب

جيش الاحتلال وأعوانه في ما يسمى بـ «جيش لبنان الجنوبي»، كقلاع محصّنة للعدوان على المقاومة، وجماهيرها. ولو لم تكن البنية الأخلاقية للمقاومة على قدر من السعة، والرحمانية، والترسُّخ، والتقيّد الصارم بالتوجيهات القيادية، لحصلت مجازر أشدّ فظاعة مما كان يحصل في خلال الحرب الأهلية.

لاحقاً سوف تستتبع هذه القواعد الأخلاقية، ما يوازيها ويناسبها من السلوك السياسي. وسنجد في خطب ورسائل قائد المقاومة من التوجيهات في خلال حرب صيف ٢٠٠٦، ما يشكّل على هذا المستوى خطوطاً تسدّد التبصُّر الخُلُقي، ومنها:

- اجتناب خوض النزاع السياسي والإعلامي مع أي فريق أو حزب أو تيار لبناني. على النحو الذي قد يؤدي إلى فوضى أمنية وظهور الانقسام الوطني.

- اجتناب الرد بالمثل على أي حادثة في الشارع يمكن أن تشق الطريق نحو تصدُّع السلم الأهلي، أو إيقاد النزاع المذهبي (كمثل اغتيال الشاب أحمد محمود).

- إبقاء النزاع الداخلي ضمن ميادين الصراع السياسي السلمي، على الرغم من نزوع كثيرين من خصوم الداخل إلى جعل المقاومة وحزبها وحلفائها خصماً صريحاً. حتى لدى أقسى لحظات الحرب التدميرية عليها.

٢- مجال البصيرة الخلقية:

حين نزعت المقاومة من نظرية الممارسة السياسية الكلاسيكية مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»، كانت تدرك أن مبدأ كهذا، يمكن أن يأتيها بمنافع مباشرة، ويؤمّن لها مصالح قد تكون مهمة في معايير اللعبة السياسية اللبنانية. لكن الالتزام بمبدأ الوسيلة الفاضلة للغاية الفاضلة كمبدأ أخلاقي، سيكون له مؤثراته الإيجابية الكبرى على تسديد الإدراك السياسي، وتثبيت أولوية التحرير كاستراتيجية عليا. لقد كان من شأن نهج كهذا أن يُفضي إلى تأليف إجماع لبناني حول المقاومة. وهو نهج كان له الفعل التوليدي لمجتمع أهلي ومدني، وسياسي مؤيّد للمقاومة، ومتعاطف معها، وإن بنسبٍ ودرجات تتفاوت بين فئة سياسية وأخرى، أو بين طائفة وأخرى.

ولأن البصيرة الخُلُقية استئنافٌ، وتواصلٌ، وتكاملٌ مع ما قبلها، فهي كذلك وبالمقدار نفسه، تأسيسٌ وتوليدٌ لما بعدها. تنمو هذه السَيْريَّة ضمن مسار منطقي يتعقّل الظواهر والأحداث، ويرى الأشياء كما هي موجودة، ثم ليجد لها محلها المناسب في الواقع.

لنا هنا أيضاً أن نقف قليلاً على مزايا ومناشئ التبصُّر الخُلُقي:

أولاً: تبيّن الفلسفة الأخلاقية بأطوارها وميادينها واتجاهاتها المختلفة، أنّ إحراز مَلَكة البصيرة الخُلقية، ونقلها إلى حيّز الممارسة وحقول التجربة، إنّما يدل على أن الجهة التي أحرزت هذا المقام، بلغت درجة وازنة من التحكّم بأمر نفسها، وبأمر غيرها بينما هي تمضي في إدارة

حركة المواجهة.

ثانياً: إن عملية التبصُّر أينما وكيفما تأتي، فهي تتمثَّل في إدراك الطبيعة الباطنية الحقّة لإرادات متعارضة معينة. ولذا فإنّ البصيرة الخُلقية المطلقة التي نستطيع أن ندركها، ولكن لا نستطيع الحصول عليها كاملة، سوف تدرك الطبيعة الداخلية الحقّة لكل الإرادات المتصارعة. ذلك يعني أن معرفة الآخر ضرورية؛ للاعتراف به كموجود سياسي، وهي واجبة على نحو يكون التعامل مع هذا الآخر، بوصفه شريكاً في الوطنية مهما بلغت خصومته لي أو خصومتي له.

ثالثاً: تتضمن البصيرة الخُلقية - بطبيعتها، وعند الذين يحصّلونها- الرغبة في تحقيق الانسجام، قدر الإمكان، بين الإرادات المتعارضة في ميادين التفاعل، ولا سيما تلك التي يتم إدراكها في لحظة التبصّر.

رابعاً: إذا كانت البصيرة الخُلُقية تهتم مباشرة بإرادتين متعارضتين، مثل إرادتي وإرادة شريكي في المواطنة، فإنّ هذه البصيرة تتضمن الرغبة في الفعل، كما لو كنت أنا وشريكي في المواطنة كائناً واحداً، بحيث يشتمل هذا الكائن الجديد على رغباتنا معاً.

خامساً: إذا كانت البصيرة الخُلقية تعمل ضمن غايات عامة متصارعة، كما هو حال لبنان، فستبدو الصورة حينئذ، كما لو كان الفرد الذي يدرك هذه الرغبات المتعارضة، يحوي حياة كل هذه الرغبات ضمن وجوده الخاص. ومتى أتقن الفاعل روح التبصّر، فإنه يضع في اعتباره كل نتائج الفعل، وأثره على كل الغايات التي قد تتأثر به.

سادساً: ما دامت البصيرة الخُلُقية المؤيَّدة بالتوحيد، تتصرف على أساس أنّ الآخر هو شريك في الفعل الإجمالي للأمة، فمن البديهي أن يصبح هذا الآخر، بما هو آخر إيجابي، أحد مقوّمات معرفة الذات. بل وأحد الأعمدة الأساسية لأفعال الأنا في المحيط الذي تتحرك فيه. وعلى مبدإ «لا ينبغي أن يكون الآخر إلا على نصاب ما أنت فيه» يمكن أن تولد ممارسة سياسية من نوع جديد.عنينا بها، الممارسة التي تتعارض فيها البصيرة الخُلُقية مع كل صور الدوغمائية، المبنية على غاية أخلاقية أحادية، ولا تستطيع أن تمنح سواها من الغايات، مساحة من القبول والإصغاء.

سابعاً: بمقتضى البصيرة، الخلقية المسددة، بالحقيقة الدينية، تغادر «الأنا» أنانيتها الصمَّاء، وهي إذ تفعل ذلك فمن أجل أن تصل الغير وَصْلَ الوحدة الإنسانية المشتركة. ثمَ ليحملها الإيثار والغيرية على التضحية من أجل تلك الوحدة. حيث الاستشهاد في هذه الحالة يجسد أعلى درجات القبول والتواصل مع الآخر، وبالتالي أرقى مراتب التمثيل الأخلاقي في العلاقة مع الغير.

ثامناً: إن مجال التبصّر لا ينشأ إلاّ على أرض المقاومة؛ بما هي أرض لا تحدّها مضائق الإيديولوجيا الصارمة، ولا تحبسها عن التواصل فكرة حزبية مغلقة. ذلك أن من طبيعة هذا المتسع الإنساني أن تغادر حسابات المصالح الآنية قلاعها المغلقة، وتتحول تلك الأرض إلى حقل

خصيب للنمو، والاختلاف، والتعددية الخلاقّة.

٣. مجال الصبر السياسي:

في السياسة كما في الحرب الأخيرة، ظَهَرت المقاومة نهج التبصُّر على قاعدة اعتبار البصيرة الخُلقية مقوّماً لاستراتيجيتها العليا. ولقد بدا بوضوح أنّ القدرة على التحكم بالمسارات الميدانية للمواجهة، تلازمت مع القدرة على استقراء الخطوط الأساسية للزمن الذي سَيَلي نار الحرب.

إن حضور البصيرة الخُلقية في مستويات التكتيك والاستراتيجيا، مكَّن المقاومة من مواءمة الوسائل مع الغايات، من دون أن يحصل خللٌ وسط الزحام الهائل للحرب.

الأهم في استراتيجية الصبر السياسي أن المقاومة استطاعت الإمساك بعامل الزمن. وهذا عائد أساساً إلى استيحاء المقتضى الأخلاقي للحقيقة الدينية. وهو مقتضى يقوم على مبدأ الصبر في كل أحوال وتداعيات الممارسة الحربية والسياسية. فحين أخذت المقاومة بمبدأ الصبر، أمكن لها - من وجه - ألاّ تستغرق بلذّة الانتصار الذي قد يوصل غالباً إلى حد نسيان الذات أو نسيان العدو. مثلما أمكن لها من وجه ثانٍ أن تتهيأ لاحتمال الهزيمة، بما هو احتمال واقعي وممكن، في مجال صراع الإرادات.

كان للمقاومة في القاعدة الخُلقية التي أرساها كلام الإمام علي (عليه السلام) في الصبر، ما يجعل منها طريقاً يؤخذ به لصياغة منهج متكامل، في التعاطي مع تقلبات الزمن السياسي، والاجتماعي: «الصبر صبران: صبرٌ على ما تكره وصبرٌ عما تحب» [٢]، ولا شك في أنّ استنتاج المنهج من كلام الإمام، يفضي إلى ما نسميه بـ «منطقة الاعتدال»، وهي المنطقة المعرفية، والسلوكية، التي يسيطر فيها ساكنُها على الزمان والمكان، والتي يتمكن فيها كذلك من إضفاء توازن دقيق على أفعاله أو انفعالاته ضمن جدلية الكراهية والحب والغضب.

التجربة الأخيرة للمقاومة أظهرت بالنظر والمعاينة، درجة عالية للتحكم باللحظة. فقد خاضت حرباً تتحرك فيها احتمالات الخسارة والربح بصورة متوازية. وضمن هذا الحيِّز يمكن ملاحظة ما يلي:

لم تشهد حرب التحرير أن تعاملت قيادة المقاومة مع اللحظة على خط الانفعال أو ردّ الفعل. كان كل شيء في الأداء العسكري يجري وفق حسابات بالغة الدقة. لم تصوّب الصواريخ نحو التجمعات المدنية، في مقابل التدمير المنهجي والعشوائي للمدنيين الآمنين. ومثلما كان الأداء العسكري محكماً ودقيقاً ومحسوباً، كذلك كانت صورة الأداء السياسي. فخطاب المقاومة عبر إطلالات قائدها بين حين وآخر، شكّل فعلاً استثنائياً، موازياً للفعل الاستثنائي في ميادين الصمود والمواجهة. ولقد شكَّل خطاب السيد حسن نصر الله الموجَّه إلى المجاهدين والأنصار، وبالتالي إلى اللبنانيين جميعاً، وكذلك إلى العرب والمسلمين والعالم، لحظة أخلاقية بامتياز: فهو خطاب يمكن

قراءته من جهتين كانتا تصغيان إليه بشغف نادر:

- **جهة «الأنا الجماعية»**: التي تماهت مع الكلمات المرسلة إلى درجة أنها كانت تستمع لتطمئن، وتصغي إلى دلالاتها اللفظية والمعنوية لتزداد يقيناً بصدقية «الوعد الصادق».

- **وجهة «الآخر الجماعية»**: التي على اختلاف مراتبها وتصنيفاتها (العدو المباشر- الخصم السياسي الداخلي- المحايدون) كانت تتلقى الخطاب باستعداد مسبق. وكان يحملها إلى ذلك همّان: الصدقية الأخلاقية لمرسل الخطاب، والشعور بأهمية المعلومات التي سيدلي بها، وبآثارها المفصلية على سياق المواجهات. ولنا هنا أن نذكر الحادثة التالية:

لا تزال صورة تلك المرأة (المستوطِنة اليهودية) الجالسة على عتبة دارها في كريات شمونة حاضرة، بعد نشرها على الصفحة الأولى لصحيفة «يديعوت أحرونوت» بعيد حرب عناقيد الغضب، تقول: أنا أصدق «السيد» نصر الله أكثر من الحكومة الإسرائيلية... أجابت بذلك بعد أن سألها المراسل عما إذا كانت ستلتزم النزول إلى الملجأ بعد إعلان الجيش حالة طوارئ. ولكن المستوطنة أصرت على البقاء حتى يطلب السيد من المستوطنين النزول...[٣] .

يشكل جواب «المستوطِنة اليهودية» - وإصرارها- تجسيداً للصورة التي راح يمثلها «الجمهور الإسرائيلي» عن شخصية أمين عام حزب الله. وهي صورة تراكمت جزئياتها- حتى التفصيلية منها- بفعل عوامل كثيرة تراكمت عناصرها خلال المواجهة الطويلة التي قادها «السيد نصر الله» ضد العدو الإسرائيلي [٤].

خيوط «المشكلات الأمنية والسياسية» كلها - كما يراها الكاتب الإسرائيلي يورام يومي - هي بيد «السيد نصر الله» بل وحتى الوصول إلى «حلول» ممكنة لتلك المشكلات، مرهون ب «كلمة فصل» يطلقها السيد نصر الله»، خصوصاً أنّ كلامه - وفقاً لما هو مركوز في العقل الإسرائيلي - ليس كلاماً عادياً، ف «كلماته - حسب يورام يومي - تسبب القشعريرة (لدى الجمهور الإسرائيلي) في ضوء سجل مسار حزب الله»[٥].

الصورة نفسها سوف تستعاد في حرب «الوعد الصادق»، لكن على نحو أشد وقعاً، وأعمق من ذي قبل.

٤- مجال المقاومة بوصفها منطقة حوار أخلاقي:

إنّ ما يجعل ميتا- ستراتيجيا المقاومة حاوية على مبدأ التعدّد وساعية إليه، يعود إلى أن من طبيعة تكوينها التركيب، والتأليف، والمصالحة بين الأنا والغير. ولئن كان الحيز العسكري التنفيذي قد انعقدت رايته حصراً للمقاومة الإسلامية اللبنانية خلال الطور الأطول والأكثر احتداماً من حرب التحرير، فلم يكن ذلك ليعني نفي التعدد أو إقصائه. فالمقاومة بصفة كونها أطروحة تحريرية شاملة، فإنّها بهذه الصفّة سوف يتيسّر لها، ولو من وجهة موضوعية، أن تتحرك

وسط مساحة ذات مراتب سياسية، ومدنية، وثقافية، وجماهرية متعددة. وبالتالي فكل من هذه المراتب شكّلت نظائر لحرب التحرير. وذلك ضمن سَيْريَّة متكاملة أخلت مساحات مشاركة لا حصر لها، لقوى وفعاليات المجتمع اللبناني متنوع الطوائف والمذاهب، والأيديولوجيات، والتيارات الفكرية والثقافية.

إنّ التبصُّر الخُلُقي المستفاد من الحقيقة الدينية، سوف يعزّز ميتا - ستراتيجية المقاومة المؤسَّسة على التعدد، والتنوع، والجمع. ففي التبصّر يغدو الحرص على حضور الآخر المختلف ضمن مساحة الشراكة، مسألة تتعدى القانون الذي ينظم المواطنية، إلى كونهِ مسؤولية يفترضها الالتزام بالوحي الإلهي. لكن مع هذا التحويل الذي يقيمه التبصُّر الخُلُقي في مجالات التعدد، والتنوع، والجمع، لا يبقي الآخر مجرد كائن غريب تفترض شروط الزمان والمكان التعامل معه، بل يصبح مشروع كمال للذات. وهنا لا نعود نتحدث عن «آخر» ننظر إليه وينظر إلينا بريبة وحذر. بل عن الغير الذي ليس في الحقيقة إلا ما أنا فيه، وبه، وعليه من أحوال. فالغيرية هي على الأكيد ناتج «الدفع بالتي هي أحسن» وهي تالياً ذلك التقريب الخلاَّق للآخر، الذي قد يتحوّل بعد قليل إلى ولي حميم للمقرِّب. ذلك أنّ الإنسان عندما يدافع عن حقوقه الوطنية والاجتماعية، وعن كرامته وهويته، فإنّه في حقيقة أمره يدافع أولاً وآخراً عن حقوق الغير. فالغيرية بهذا المعنى هي شرط تحقق إنسانية الإنسان. وهي لا تجد تحقّقاتها إلاّ حين يبلغ الإنسان ذروة العقلانية المؤيدّة بالأخلاق، والمشبعة بها. سوف يكتب كانط في «أسس ميتا فيزيقا الأخلاق»: «إنّ الكائنات العاقلة تسمى أشخاصاً لأنّ طبيعتها تقودها وتوجهها بصفتها غايات في ذاتها، أي باعتبارها شيئاً لا يمكن استخدامه كمجرد وسيلة فحسب، وبالتالي شيئاً يمثل حداً يقف في مواجهة كل ما يحلو لي من تصرفات ويكون موضع احترامي». كذلك فيلسوف الأخلاق إيمانويل ليفيناس (١٩٠٥-١٩٥٥) سوف يؤكد في «الوعي الأخلاقي» ما يقوله كانط في «الجميل». أي إنّ «الوعي الأخلاقي» هو تجربة بلا مفهوم. فالعلاقة التي تقوم بين اثنين بين «أنا» و«أنت»، هي الانفتاح أمام بُعد يوصلني إلى أعلى»، إلى الدين نفسه. ذلك أن «الآخر الأكبر» يحضر هنا بصفته «الآخر» الذي تقوم علاقة بيني وبينه، وهو يفصح لي عن «وجه» ويفتح بعداً يوصلني إلى الأعلى. أي أنّ وجوده يتخطى بلا حدود مقاييس معرفتي. الأمر الذي يعني أنّ الآخر يعرض نفسه، وقد تخلّص من الرغبة في القتل وانكاره له عن طريق لغة أوّلية أصلية تتحدّث بها عيناه الهادئتان. ليس معنى هذا - كما يلاحظ ليفيناس - أنّ الآخرين يكونون تجسيداً لله، بل معناه أنهم تجليات له فحسب. تجليات يظهر فيها ذلك البعد الذي يوصلني إلى أعلى حيثُ يكتشف الله [٦].

ولما كانت المقاومة منطقة تحاور، وبالتالي سَيْريَّة انتقال عبر التحاور من «الآخريَة» إلى «الغيريَّة» فإنّها بتلك المزيَّة تعد منطقة تخلُّق بامتياز. ولسوف يتمثّل لنا طور تالٍ أكثر سمّواً، عندما

تكون منطقتا التحاور والتخلّق متأتيتين من الوحي. وبالتالي من مصدرية الحقيقة الدينية. حيث تستمد الممارسة الأخلاقية أسسها ومعطياتها من خزائن مكارم الأخلاق وحقائقها، وكذلك من جملة المفاهيم القرآنية الأخلاقية المتمثلة بـ «الموعظة الحسنة» و«الدفع بالتي هي أحسن» و«المجادلة بالتي هي أحسن» الخ...

وتظهر أخلاقيات الحوار القرآنية في مقام التوصية بوجوبية الأخذ بأدب الإصغاء، والاستماع، واجتناب العبارات المؤذية لمشاعر الفريق المقابل، واعتماد الصبر، وكظم الغيظ، وقبول النقد مهما كان قاسياً، ووأد الفتنة وإن كان ذلك على حساب الكثير من المصالح السياسية الآنية.

٥- مجال القبض على الزمن والتحكّم به:

تُفضي مقولة الصبر في حقل الممارسة إلى نشوء منطقة اعتدال. ففي هذه المنطقة بالذات سوف تحرز المقاومة السيطرة على واحدٍ من أهم وأعقد استراتيجيات الحرب (الزمن). فبملاحظة السيل الهائل من التقويمات النقدية لجنرالات العدو ومفكريه وقادته، خلال الحرب وبعدها، يبرز لديهم معنى ودلالة، ومرارة، انفلات عنصر المبادرة. فكانت الحرب، بحسب الرؤية الإسرائيلية، حرباً من أجل استعادة معنى الزمن، أي إعادة ضبط الزمن السياسي والأمني والسيكولوجي على إيقاع روح الغلبة الإسرائيلية.

ولم يكن كلام شمعون بيريز في الساعات الأولى لحرب تموز ٢٠٠٦: «إسرائيل تخوض حرب حياة أو موت» سوى ترجمة «أخلاقية» للخوف من فقدان الزمن. لقد كان هذا الإحساس يعكس مستهل الجدل بين الزعامات الإسرائيلية، حول التصدّع الذي أصاب منظومة القيم التي تأسست عليها الدولة اليهودية على أرض فلسطين.

ثمة دلالة أعمق، في كلمات بيريز: فلو قالها غيره من الزعامات الجديدة، ربما لأخذنا الظن بأن القائل مأخوذ برهبة المشهد. لكن بيريز هو آخر من تبقى من عجائز اللاّهوت الإسرائيلي المعاصر، فكأنما أراد بهذا أن ينبّه إلى خَطْبٍ جللٍ، لا مناص واقع. بل كأنّه أدرك ما لا يدركه سواه، أنّ حربه هذه المرة لا تشبه سابقاتها في شيء، وأن من يحاربهم ليسوا كالذين مرّوا وأخذهم العدو في ضعفهم.

سوى أن قائداً «تاريخياً» مثل بيريز يأتي هذه المرة وفي هذه اللحظات الوجودية بالذات، ليستظهر الروح الإسرائيلية على أرض مواجهات كثّفها الزمن إلى حدّ أنّ التاريخ فيها في لحظة حياة أو موت. لقد ذهب بيريز من فوره إلى المعنى. سمع، وشاهد، وتكلّم، لكنه كان يتأمّل كيف تذوي الروح اليهودية الاستيطانية، بعد أن حلّ الجنود في حقول المفاجآت. فإنّه ما كان سعيداً قط وهو يسمع كلاماً لضابطٍ كبير في سلاح المدرّعات وهويقول: «كيف لنا أن نقاتل عدواً لا نراه..».

ربما كان صعبٌ عليه وهو على حافّة القبر أن يقع تحت هذه الوطأة. لا سيما وأنّه من جيل

الأوائل الذين صاغوا معظم الكلمات الأولى للاهوت «الاقتدار» و«أخلاقياته». لقد كشفت سَيْريَّة فعل المقاومة عن اختراق واضح لجدار الزمن الإسرائيلي السميك. وهي سيْريَّة ينظر إليها العقل الإسرائيلي كقضية ميتافيزيقية. على حين أن الأمر هنا لا يتعلق بالجغرافيا فحسب، وإنما أساساً بالمعنى. أي، معنى أن يستباح «اللاهوت السياسي الإسرائيلي» في منطقة المقدَّس الذي يمكث فيه منذ زمن بعيد.

٦- مجال الإعارة الإلهية والنصر الإلهي:

أعِر الله جُمجُمَتك..

تِدْ في الأرض قَدَمك..

وانظر إلى أقصى القوم..

واعلم أنّ النصر من عند الله..(٧).

بهذه العبارات المأثورة عن الإمام علي (ع) سوف يُستهلّ أول خطاب متلفّز يلقيه قائد المقاومة، في الساعات الأولى من حرب تموز. لقد رمى من هذه الاستعادة وَصْلَ كل مسعى في احتدامات الحرب والسياسة، بالفضاء المتسع للحقيقة الدينية. إذ بهذا الوصل ستوضع المواجهة بمراتبها، ومعارفها، وقواها المادية، والمعنوية، وفي غضون الحقل الإلهي.

في هذا الحقل لا يعود شيء من التفكير، والتدبير، والأخذ بالأسباب، بخارج عن سَيْريَّات القضاء والقدر الإلهيين. وفي الحقل إيّاه، يصبح الإيمان، والفكر، والممارسة، والقضية المسلوك نحوها، والغاية منها، معارج مترابطة ارتباط الواحد مع نفسه، ثم ليتشكّل بها، ومن خلالها ما وصفناه بـ «ميتا- ستراتيجية المقاومة. ومهما يكن من أمر، فلو اتخذنا من العبارات المأثورة أعلاه مثلاً، لوجدنا تأسيساً بالغاً لتلك الميتا- ستراتيجيا». حيث سيكون لنا أن نرى إلى أعمدتها البيانية على الوجه التالي:

أولاً: التوكل: عبر إحالة الفكر، والنفس، والعقل، والقلب إلى الله. وعلى الجملة وضع القول والعمل في حضرة الله.

ثانياً: الأخذ بالأسباب: عبر توفير عوامل القدرة، في العتاد والرجال، وقوى الدعم، ووضع الخطط الكفيلة باحتواء هجومات العدو، والالتفاف على قواه. وصولاً إلى اليقين بأن ما توفر من أسباب القوّة، كفيل بإحراز مقوّمات النصر والغلبة.

ثالثاً: تعيين الخطة الشاملة: عبر معرفة سلسلة الاحتمالات والخيارات العسكرية والسياسية التي يمكن أن يلجأ العدو إليها. ومن خلال رصد المؤثرات الجيو- استراتيجية المحلية والإقليمية والدولية التي يحتمل حصولها بعد نهاية الأعمال الحربية. ولئن كانت الإستراتيجية تستلزم فنَّ الخداع وبذلك تتعارض مع الأخلاق - كما يبيّن مفكر الحرب ليدل هارت(٨) - فإن

الإستراتيجية العليا، التي تستشعر الآماد البعيدة، وتنظر إلى أقصى القوم، تنسجم مع الأخلاق، لأنّها تتدخل كمبدأ توجيهي يحافظ به الإستراتيجي على الهدف الأصلي للجهود التي بذلها.

رابعاً: **الرجوع إلى الله**: بعد قطع الأطوار الأربعة سوف يتوفر الإيقان الثابت، بأن عليك أن تعلم أن النصر هو من عند الله. فالعلم في هذه الحال لا يُحصَّل بالاكتساب والتلقين، إنما بالاستبصار الخُلُقي، واللَّمح الداخلي، والمعرفة الإيمانية الخالصة. وعلى هذا النحو يصبح العلم بالنصر أمراً ذاتياً يحصِّله القلب المتصل بعروة وثقى بمقام التوحيد. وبذلك يتحقّق سفر المجاهدين بين المبدأ والمعاد في كل مهمة يؤدّونها سواء تناهت في الصغر أم لم تَتَناهَ في الكِبَر.

إنّ منشأ الاستبصار الأخلاقي في هذه الأطوار المشار إليها، مردّه إلى تعلّقها تعلّقاً حميماً بالحقيقة الدينية التي ظهّرتها الكلمات العَلَويّة. ففي اللحظة التي وُضعت فيها تلك الكلمات في ميدان المواجهة، أُحيلت المقدمات والنتائج إلى الإرادة الإلهية. فمع هذه الوضعية تغدو الإحالة فعلاً أخلاقياً سوف يرقى إلى مراتبه القصوى مع تصعيد الفعل الجهادي درجة التضحية بالروح. وهي تضحية مولودة من يقين لا شِيَةَ فيه، وقوامه: أن الالتزام بحقوق الخلق هو سبيل بلوغ الحق. ولسوف تؤدّي إحالة النصر إلى الله إلى إنجاز منطقة معرفية جديدة في العالم الأيديولوجي والثقافي لحركات التحرير الوطني الحديثة والمعاصرة.

إن من شأنية هذه المنطقة المعرفية، الإسهام في تفعيل وتأليف بيئة جديدة من التخليق السياسي، من عناصرها ما يلي:

أ- التأسيس لثقافة تفارق ميراثاً فكرياً مديداً ينسُب الانتصارات الوطنية والقومية إلى الزعيم، أو إلى التنظيم، وتالياً إلى الإرادة البشرية المحضة.

ب- تحويل ثقافة النصر إلى إيمان بالنصر. والفارق بين الثقافة والإيمان كالفارق بين منجز تحققه الإرادة البشرية، ونصر تكون فيه هذه الأخيرة وساطة الإرادة الإلهية إليه...

ج - محو الأنا من جانب القائد، هي فعلية أخلاقية ولّدها التبصّر. ثمّ لتتكثّر هذه الفعلية الأخلاقية عبر ولادات لا حصر لها في حقول التفاعل. إن تماهي القائد مع المقاتلين والأنصار سوف يدفع العلاقة بينهما إلى مستوى أرقى من الالتزام التقليدي بالأوامر القيادية. بحيث يتحوّل هذا النوع من الالتزام إلى تواصل رضائي تستحيل الطاعة فيه تماهياً مع أمر القائد، حتى ليستحيل المطيعون شركاء في نفس الأمر.

د- إعادة إنتاج التوحيد في ميادين المواجهة من خلال نسبة كل فعل جهادي مقاوم إلى الفاعل الإلهي. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[٩]. إنّ هذه المزِيَّة الاعتقادية سوف تجعل الآخذين بها يكتشفون بالمعاينة والحضور المباشر كيف يتحول التوحيد الإلهي إلى حقل اختبار يسهم في تسديد الإيمان الديني والمسلك الأخلاقي لدى الناس أفراداً وجماعات.

هـ- إعادة إنتاج مفهوم القيادة على النحو الذي يمنحها صفة الدور الوسائطي لإنجاز المهمة الإلهية في التاريخ. إذ حين يأبى القائد، أو ولي الأمر، أن ينسب إلى نفسه النصر فيحيله إلى الله، فإنّه يضع نفسه على خط أفقي مساوٍ للمجاهدين والمناصرين. حتى لتظهر الصورة على الحقيقة وكأن الجمع كلّهم شركاء في الدور الوسائطي. مثلما يشعر كل فردٍ منهم إنّه شريك في إبداع النصر الذي ينسبه للتو إلى الله، راضياً بدور الوسيط، مكتفياً به، محققاً بذلك أقصى مراتب التبصّر الخلقي بالمعاينة والاختبار والحضور.

٧- مجال توليد المعنى:

كل ممارسة تتوخّى إنجاز المعنى هي ممارسة أخلاقية. أي أنها فعل يتّخذ من «قبليات» الفاعل ومرتكزاته الإيمانية والأيديولوجية متكأً له. فالحرب التي وقعت في تموز ٢٠٠٦، هي «حرب معنى»، ومن «أجل المعنى» تقع بين عدويَّن، لكل منهما حدُّه الوجودي، ولكل منهما أيضاً القابلية والاستعداد لكي يقيم حده على عدوّه.

كانت المقاومة حاضرة على الدوام في معنى قتال المحتل الإسرائيلي. وهو حضور يتعلّق بجوهرية تتكامل فيها وتتكثّف كل مراتب المعنى وطبقاته، الإيمانية، والدينية، والفكرية، والثقافية، والسياسية. وهذه المراتب متصلة فيما بينها، ولا تنفصل أبداً عن البناء الأخلاقي لفعاليات المقاومة، بل هي مراتب وطبقات شكلت عاملاً مؤسِّساً، ومؤلِّفاً للتبصُّر الخلقي، وبالتالي تأسيساً لما سبق وعرّفناه بـ «ميتا- ستراتيجيا المقاومة».

إذا كان فعل المقاومة هو في المقصد الأعلى، من أجل تثبيت وترسيخ معنى انتصار العام ٢٠٠٠، وكذلك في سبيل تعميق معنى هزيمة العدو، فإن غاية كل حرب إسرائيلية على لبنان بعد اليوم تكمن في محاولة (استعادة المعنى). ونستطيع أن نقول: إنها حرب إعادة الاعتبار لأزمنة الغلبة. إذ حين جرى الكلام على الانتصار والهزيمة، والحياة والموت؛ لم يكن ذلك إلا لأن النفس السياسية الإسرائيلية بلغت حدودها القصوى من الشعور بالشك[١٠] .

لكن ذلك لا يدل على أن الحروب التي خيضت ضدنا، وانقضت، هي حروب بلا معنى. فكل حروب «إسرائيل» تكتسب هذه الصفة بدرجات مختلفة. القضية بالنسبة للاّهوت الإسرائيلي، أن كل حرب، كان يخوضها، صَغُرت أو كَبُرت، لا قيمة لها، ما لم تكن على رباط وثيق بلاهوت البقاء والهيمنة والإقصاء.

لكن الحرب التي لا نفتأ نستظل بها، هي استثناء على القاعدة. وانطباعها بهذه السّمة الاستثنائية عائد إلى كونها تُظهر الحد الأعلى من الدلالة على معيارية الهزيمة والنصر.

إن الهزيمة والنصر معنيان سيحدّدان سؤال الأخلاق وأبعاده الميتا- ستراتيجية بين المقاومة و«دولة إسرائيل». وعلى هذين المعنيين سوف يتأسس مناخ معرفي ونهضوي، يستمد من روح المقاومة وفعلها تفاؤل الإرادة وتفاؤل العقل.

الهوامش:

[1] جون غيتون، الفكر والحرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٨، بيروت،ص ١١.

[2] الريشهري، محمدي: ميزان الحكمة. ط١، الدار الإسلامية، بيروت، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، ج٥،ص٢٦٧ - استنادلاء إلى ما ورد عن الإمام علي(ع) في الصبر، في «نهج البلاغة».

[3] عوفر شليح، لغز (السيد) نصر الله، يديعوت أحرنوت ٢٠٠٠/٦/٨.

[4] حسين سلامة - حزب الله، العقل الإسرائيلي - مركز الإستشارات والبحوث - ط١ ٢٠٠٦ - ص ١١٦

[5] يورام يومي، محاولة السير على طريق جيد، حصّة حزب الله في الحرب الحالية، «يديعوت أحرنوت»، ٥-١-٢٠٠٦.

[6] جان لاكروا- اللامتناهي والحار في فلسفة ليفيناس ترجمة يحيى هويدي - راجع «أوراق فلسفية» العدد ١٢- القاهرة - ٢٠٠٤.

[7] بحار الأنوار، ج٣٢، ص ١٩٥.

[8] ليدل هارت، الإستراتيجية وتاريخها في العالم، ترجمة الهيثم الأيوبي، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٧-ص٢٩٩.

[9] سورة الأنفال، آية ١٧.

[10] محمود حيدر، نهاية الحرب الخاطفة، «حوار العرب»، العدد ٢٢، ايلول سبتمبر، ٢٠٠٦.

المحـور الثالث التداعيات الدولية الاستراتيجية للانتصار

■ مستقبل المشروع الأمريكي في الشرق الأوسط بعد الانتصار	محمد السعيد إدريس
■ الانتصـــار في الأدبيـــات المحليـــة سياسيـــاً وإعلاميـــاً	نصري الصايغ
■ عـوامـل الانـتـصـار في حـرب تموز-الاحـتـضـان الشـعـبـي وتضحيات النفس	رفيق نصر الله
■ تأثير حرب تموز على الحروب المستقبلية لإسرائيل	تيمور غوكسل
■ من تداعيات الانتصار، نهاية عهد استراتيجيا المغامرة بالحرب	إدريس هاني
■ الحرب التي زحزحت قارات من أماكنها	طلال عتريسي
■ البعد المجتمعي للمقاومة	عبد الحليم فضل الله

مستقبل المشروع الأميركي في الشرق الأوسط بعد الانتصار

رئيس وحدة الدراسات الخليجية بمركز
الدراسات السياسية والإستراتيجية في الأهرام
د. محمد السعيد إدريس

انتصاران في مواجهة مشروعين أميركيين صهيونيين. الأول هو انتصار المقاومة العراقية على مشروع «الشرق الأوسط الكبير» الذي اتخذته الإدارة الأميركية برئاسة جورج بوش الابن عنواناً لغزو العراق واحتلاله، وعنواناً لمشروعها الإمبراطوري العالمي في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة. والثاني هو انتصار المقاومة اللبنانية على «مشروع الشرق الأوسط الجديد» الذي أعلنت ولادته وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس في أوج الحرب الإسرائيلية – الأميركية على لبنان، وزعمت أنه سوف يولد من رحم هذه الحرب، أي من رحم الانتصار الإسرائيلي في لبنان، الذي كان يرجى منه أن يكون بوّابة لفرض مشروع أميركي- إسرائيلي جديد في الشرق الأوسط، في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من مشروع الشرق الأوسط الكبير، الذي تداعى أمام ضربات المقاومة العراقية ومع عجز القوات الأميركية عن البقاء في العراق وعجزها أيضاً عن الخروج منه.

جدلية التفاعل بين هذين المشروعين وجدلية تداعيهما تؤكد مجموعة من الحقائق المهمّة التي يجب أخذها في الاعتبار:

الحقيقة الأولى، هي أن هناك مشروعاً إمبريالياً أميركياً صهيونياً واحداً يهدف إلى السيطرة على وطننا العربي، قد تتعدّد المسمّيات، وقد تتنوع المداخل، لكن الأهداف واحدة وهي السيطرة الكاملة وفرض الكيان الصهيوني كقوة رائدة في المنطقة.

الحقيقة الثانية، أن الوطن العربي كله، وربما يكون العالم الإسلامي كله أيضاً هو المستهدف الرئيسي من كل هذه المشاريع الأميركية – الإسرائيلية. قد يكون التركيز مرة على العراق، وأخرى على فلسطين، وثالثة على لبنان، لكن ما يخطّط للخليج ومعه سوريا وإيران ومصر والسودان والمغرب العربي ليس خارجاً عن السياق ذاته. فكما أن الوطن العربي واحد مترابط فإنه مستهدف كله دون تمييز، قد تفرض الأحداث أن يكون التركيز في مرحلة ما على سوريا أو

العراق أو لبنان، لكن في مرحلة سابقة كان التركيز على مصر، وهكذا فإنها حلقة من استهداف أمة بكاملها.

الحقيقة الثالثة، أن المقاومة هي السلاح الحاسم لمواجهة هذا الاستهداف بمشروعاته المختلفة، والمقاومة الشاملة التي هي عنوان النهوض، قد تكون المقاومة المسلّحة هي العنوان الأبرز واللازم، لكن مطلوب مقاومة شاملة ومتنوعة بمستوى شمولية مشروعات الاستهداف.

وهكذا فإن الترابط بين مشروعي «الشرق الأوسط الكبير» و«الشرق الأوسط الجديد» يجب أن يخلق ترابطاً بين قوى المقاومة العربية على كافة المستويات، واذا كانت المقاومة العراقية قد أسقطت مشروع الشرق الأوسط الكبير، كما عرقلت المقاومة اللبنانية مشروع الشرق الأوسط الجديد، فإن هذه الانتصارات لا تضمن الهزيمة الكاملة للمشروع الأكبر الأميركي - الصهيوني الذي يستهدف الأمة كلها كأمة وكحضارة، فالمكوّنات الأساسية لهذين المشروعين شديدة الخطورة ولا يمكن الارتكان إلى ما يمكن اعتباره «هزيمة» مؤقتة حدثت لهما في العراق أو في لبنان، فحتماً سوف يتجدد أي من هذين المشروعين ربما بالأسماء نفسها أو بأسماء أخرى في العراق أو لبنان أو فلسطين أو سوريا أو مصر أو إيران، طالما ظل هدف تفكيك الأمة وهدف تفتيت وحدة الدولة العربية عنواناً لهذين المشروعين.

هذه الورقة تركّز على محتوى المشروعين والإطار الإقليمي والدولي المصاحب لهما، وتسعى إلى قراءة المواجهة المستمرة بعد هزيمة هذين المشروعين في العراق ولبنان.

أولاً: مشروع الشرق الأوسط الكبير: الاختراق وتغيير الخرائط

حمل مشروع الشرق الأوسط الكبير عنوان إعادة رسم الخرائط السياسية في الشرق الأوسط، واعتبر غزو العراق واحتلاله بمثابة قفزة لاختراق النظام العربي وتفكيكه وفق النموذج الذي سوف يفرض على العراق، ولذلك فإن الجوهر الحقيقي للمشروع هو إعادة تقسيم ما سبق تقسيمه من الوطن العربي تحت شعارات متعددة لتيسير عملية السيطرة والتحكم في منطقة هي الأهم استراتيجياً على مستوى العالم وهي الأشد خطورة بالنسبة لامتلاك مصادر الطاقة ومخزونها: النفط والغاز، فمن خلال هذه السيطرة يمكن فرض المشروع الإمبراطوري الأميركي.

وقد عبّرت دوائر رسمية وغير رسمية أميركية عن مكوّنات هذا المشروع وعلاقته بالمشروع الإمبراطوري الأميريكي، ففي عام ٢٠٠٠ نشر «برنامج القرن الأميركي الجديد» وهو يُعدّ أحد معاقل تيار«المحافظين الجدد» تقريراً بعنوان: «إعادة بناء دفاعات أميركا» ورد فيه:«لقد سعت الولايات المتحدة لعقود خلت للعب دور دائم في الخليج، بينما يمثل النزاع العالق مع العراق التبرير المباشر بهذا الشأن إلا أن الحاجة إلى وجود قوة أميركية مقدرة في الخليج سيتجاوز قضية صدام حسين»[١].

وبعد أن أكملت الولايات المتحدة غزوها للعراق بسقوط بغداد، وبعد فشل قوات الاحتلال الأميركية في إيجاد ما يثبت امتلاك العراق لأي نوع من أنواع أسلحة الدمار الشامل، التي كانت أقوى المبرّرات الأميركية للغزو، حرص الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش على تجنّب أي حديث عن أسلحة الدمار الشامل العراقية، وتحوّل إلى الدعوة للتغيير في الشرق الأوسط، واعتبر التغيير الذي حدث في العراق بإسقاط حكم صدام حسين «حجر زاوية لإعادة صياغة منطقة الشرق الأوسط. فقد صرّح بوش بأن «ظهور عراق حر وسلمي أمر هام لاستقرار الشرق الأوسط، وشرق أوسط مستقر أمر هام بالنسبة لأمن الشعب الأميركي»، كما صرّح ديك تشيني نائب الرئيس الأميركي بأن العراق «سيصبح مثالاً للشرق الأوسط بأكمله»، وبالتالي «سيساهم مباشرة في أمن أميركا وأصدقائنا»، وركّز مسؤول كبير في الإدارة الأميركية على هذه النظرية عندما قال: إن الولايات المتحدة قد بدأت التزاماً لأجيال حيال العراق مشابهاً لجهودها لإعادة صياغة ألمانيا في العقود التي أعقبت الحرب العالمية الثانية»[٢].

هذا المسؤول الكبير، ويعمل مستشاراً للرئيس الأميركي، حدّد استراتيجية طويلة المدى تنشر فيها الولايات المتحدة قيمها عبر العراق ومنطقة الشرق الأوسط، بالضبط مثلما حوّلت الولايات المتحدة أوروبا في النصف الثاني من القرن العشرين، وأوضح هذا المسؤول أن «الهدف» الأعظم للولايات المتحدة بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ هو «انتشار قيمنا، وفهم أن قيمنا وأمننا متداخلة، كما كان في أوروبا، ولكنها مرتبطة بالشرق الأوسط أيضاً»[٣].

بهذا المعنى يمكن أن نفهم أن الاحتلال الأميركي للعراق، ليس نهاية لمشوار طويل استغرقته الأزمة الأميركية المفتعلة مع نظام صدّام حسين، ولكنه بداية لمشوار أميركي أطول يربط القيم الأميركية بإقامة عراق حر يستخدم منطلقاً للتغيير في المنطقة كلها، وفي قلبها، بالطبع الصراع العربي - الإسرائيلي.

وبهذا المعنى أيضاً يمكن أن نفهم أن الدول العربية باتت معرّضة لعمليات تغييرية شاملة وعميقة، وأن الأمر لم يعد مجرّد تأثر، بدرجة أو بأخرى، بما يسمّى بـ «نكبة العراق»، ولكنه يرتبط بمصير المشروع الأميركي في العراق، وهو مشروع وصفه هنري كيسنجر وزير الخارجية الأميركي الأسبق بأنه «غير قابل للفشل»، لأن الفشل سوف يؤثر سلبياً على احتمالات نجاح المشروع الإمبراطوري الأميركي كله، الذي جعل من التغيير في الشرق الأوسط قاعدة انطلاق للمشروع الإمبراطوري الكوني. والتقرير الذي أعدّه معهد أميركان انتربرايز» الذي يرتبط بتيار المحافظين الجدد التي تقود السياسة الخارجية الأميركية حالياً وتتبنّى المشروع الإمبراطوري الأميركي تحدث بوضوح عن خطة التغيير الشاملة التي تبدأ بالعراق[٤].

والمفكّر الأميركي المعروف نورمان ميللر قال: إن الذين وضعوا خطة الحرب على العراق لا

يهمهم بقاء صدام من عدمه، أو أن لدى العراق أسلحة دمار شامل، فهدفهم بعد ضرب العراق عسكرياً هو إقامة إمبراطوريتهم التي تنطلق من الأرض العربية إلى ما بعد العراق. والكاتب الأميركي روبرت كراوتهامر - الذي يعتبر أحد أبرز الذين يعبّرون عن فكر قيادات البنتاجون - شرح بالتفصيل أن خطة الحرب على العراق لا ترمي إلى الضربة العسكرية ثم الخروج (همساً)، لكن الخطة تقوم على استراتيجية الدخول (همساً)، أي دخول العالم العربي من بوابة العراق، لإجراء تغييرات مطلوبة في أنحاء العالم العربي والإسلامي[٥].

المعنى نفسه أكده ويليام بيرنز مساعد وزير الخارجية الأميركي لشؤون الشرق الأوسط عندما تحدّث عن العلاقة بين الغزو الأميركي للعراق واحتلاله وقضية التغيير الديمقراطي وموقعها من المشروع الأميركي في الشرق الأوسط، فهو يعترف بأن الاهتمام بتحقيق إصلاح سياسي وتغيير ديمقراطي في العالم العربي ليس مجرَّد مسألة قيم أميركية، أو ضمان حقوق الإنسان الأساسية، على رغم ما لهذين الاهتمامين من أهمية قصوى، إنه أيضاً مسألة مصالح أميركية واقعية[٦]. فهم ويليام بيرنز لكون الإصلاح السياسي في العالم العربي مصلحة أميركية في الظروف الراهنة يأتي من إدراكه بأن «النظم التي لا تجد سبلاً للتكيّف مع تطلعات شعوبها إلى المشاركة ستصبح هشة قابلة للاختراق، ولا يتمتع الشرق الأوسط بأي حصانة من هذه الحقيقة تميزه عن أي جزء من العالم»[٧].

الأهم من ذلك هو الاقتناع بأنه إذا كانت حرب الخليج الثانية (حرب تحرير الكويت) قد حدثت لحماية الأوضاع القائمة في المنطقة فإن الحرب الثالثة (الغزو الأميركي للعراق) قد شنت لتدمير هذه الأوضاع، وخلق واقع جديد، وإحداث تغيير أوسع على الأرض يصعب أن يصبّ لمصلحة النظم الحاكمة في دول المنطقة. فهذه النظم خلقت فراغاً خطراً، وتخلّت عن دورها، وفرصتها في أن يكون لها كلمة في عملية التغيير المطلوبة.

هذه الرؤية ترى أن دول الخليج بصفة خاصة ظلت طيلة الـ ٣٠ سنة الماضية مشغولة بحماية الوضع القائم فيها واحتواء مختلف المخاطر المحلية والخارجية، بدءاً من القومية العربية، إلى القضية الفلسطينية، مروراً بالثورة الإسلامية في إيران وتهديدات العراق العسكرية، فضلاً عن تفاقم المشكلات السكانية والاقتصادية في الداخل، ولم تحظ أي من تلك القضايا والمشكلات بتفكير جدّي ورؤية استراتيجية فعلية بعيدة المدى. فقد كانت السياسة الشائعة إما شراء ولاءات مختلف اللاعبين أو إيجاد طرق لكسب الوقت بأمل أن تحل المشكلات نفسها بنفسها[٨].

كما ترى هذه الرؤية أن المنطقة تواجه اليوم النتائج المتراكمة لردود الفعل المتأخّرة على سلسلة طويلة من المخاطر، التي كانت تعتبر «مخاطر حاضرة» في حينها، والحل يكمن في ضرورة تبنّي حزمة من الإجراءات تشكّل فيما بينها استراتيجية شاملة وموحّدة حتى وإن تم

تنفيذها على مراحل ويأتي في مقدّمتها الإصلاح السياسي الشامل الذي يفتح الفرص أمام الإصلاح الاقتصادي والثقافي والاجتماعي(٩).

بهذا المعنى، نستطيع أن نفهم خيوط الارتباط بين المشروع الإمبراطوري الأميركي والغزو الأميركي للعراق واحتلاله، والتدخّل الأميركي في الشؤون الداخلية للدول العربية. فقد تم التعبير عن ذلك في عدد من المشروعات الأميركية التي جاءت لتؤكّد أن الاحتلال الأميركي للعراق مجرّد بداية لربط القيم الأميركية والأمن القومي الأميركي بقضية التغيير في العراق والخليج ومجمل الدول العربية من ناحية، وربط هذا التغيير بمستقبل الصراع العربي - الإسرائيلي من ناحية أخرى، وجاء مشروع الشرق الأوسط الكبير ومن بعده مشروع الشرق الأوسط الجديد ليعبّر عن هذه الروابط الخطيرة، وليكشف مدى العلاقة الممتدة بين المشروع الإمبراطوري الأميركي الراهن والمشاريع الاستعمارية الغربية والصهيونية الخاصة بالشرق الأوسط على مدى ما يقرب من قرن ونصف.

فعندما طرح مصطلح أو مفهوم «الشرق الأدنى» في منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥٠) الذي سبق بروز مصطلح الشرق الأوسط لم يكن مجرّد مصطلح سياسي أو جغرافي، ولكنه كان يعكس مفاهيم محددة لمشروع استعماري استهدف المناطق التي استوعبها وخاصة تركيا وسوريا وفلسطين ولبنان ومصر وجزيرة قبرص، وهي المناطق التي كانت تشملها أغلب أجزاء الإمبراطورية العثمانية، وظهر هذا المصطلح ليعبّر عن مشروع يستهدف الاستحواذ على هذه المناطق ضمن مخطط تفكيك الإمبراطورية العثمانية.

وعلى السياق نفسه تطور مفهوم الشرق الأوسط ليعبّر عن مشروع استعماري تزامن أو ترافق مع ظهور الصهيونية كحركة سياسية عالمية منظمة، ويشمل منطقة تشكل امتداداً للشرقين الأدنى والأقصى، وهي أغنى المناطق في العالم بالنفط والمعادن وتتمتع بمركز استراتيجي هام بين القارات الثلاث: أوروبا وآسيا وأفريقيا، وتشمل بلدان شبه الجزيرة العربية والعراق وإيران وأفغانستان إضافة إلى كل المشرق العربي ومصر، وهو بهذا المعنى أضاف دولاً إلى العالم العربي، واستبعد دولاً عربية، ولم يكن ذلك محض استبعاد أو ضم جغرافي ولكنه كان لصيقاً بـ حرب الهويات التي باتت تمثل عصب فكرة احتواء «المشروع العربي» وتفكيكه.

إن من يتابع مراحل التطور العملياتي أو الحركي لمشروع الشرق الأوسط سيجد تطابقاً هائلاً بينه وبين تطور المشروع الصهيوني ابتداءً من ظهور فكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

فنظراً لأهمية فلسطين التاريخية والدينية وموقعها الإستراتيجي بين آسيا وأفريقيا، بين بلدان المشرق والمغرب العربي، قرّر الاستعمار البريطاني إقامة «إسرائيل» في فلسطين، قلب الوطن العربي كنقطة ارتكاز وانطلاق للتحكم بالمنطقة العربية وثرواتها وإراداتها، وكتب تيودور هرتزل، مؤسّس الصهيونية (كحركة سياسية عالمية منظمة) عام ١٨٩٧ في يومياته، يقول: «يجب

قيام كومنولث شرق أوسطي، يكون لدولة اليهود فيه شأن قيادي فاعل، ودور اقتصادي قائد، ويكون المركز لجلب الاستثمارات والبحث العلمي والخبرة الفنية»[١٠].

وصدر في عام ١٩٠٧ في لندن تقرير كامبل بنرمان وزير المستعمرات آنذاك، الذي قدّمه في مؤتمر عقدته مجموعة من علماء التاريخ والسياسة والاقتصاد، بمشاركة عدد من السياسيين الأوروبيين وتناول الوضع في المنطقة العربية، جاء فيه:(«يكمن الخطر على الغرب في البحر المتوسّط، لكونه همزة وصل بين الشرق والغرب. ويعيش في شواطئه الجنوبية والشرقية شعب واحد، تتوافر له وحدة التاريخ واللغة والجغرافيا وكل مقوّمات التجمّع والترابط، وذلك فضلاً عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية الكبيرة»[١١]).

ويتساءل التقرير عن مصير المنطقة، إذا انتشر فيها التعليم والثقافة، ويجيب بأنه إذا حدث ذلك، فسوف تحل الضربة القاضية بالإمبراطوريات القائمة.

ووضع المؤتمر الاستعماري المذكور المخططات والوسائل الكفيلة لإضعاف الوطن العربي وتسهيل السيطرة عليه وعلى شطآنه واحتواء إرادته وطاقاته وثرواته ومنع تطوره وتقدمه ووحدته.(وحدّد الوسائل والأساليب للوصول إلى ذلك بما يلي[١٢]):

أولاً: إقامة حاجز بشري غريب وقوي، يفصل بلدان المشرق عن بلدان المغرب العربي، وإقامة قوة قريبة من قناة السويس، عدوة لشعوب المنطقة وصديقة للدول الأوروبية.

ثانياً: العمل على تجزئة الوطن العربي إلى دول وكيانات متعددة.

وقد بدأت الصهيونية تعمِّم هذا المصطلح ـ مصطلح الشرق الأوسط ـ بديلاً للوطن الواحد والشعب الواحد والأمة الواحدة؛ نظراً لأنه ملتقى القارات الثلاث، ويشرف على أهم الممرات المائية كقناة السويس، ومضيق باب المندب، والخليج، وخليج العقبة ومضيق هرمز، ويختزن أكثر من ثلثي احتياطي النفط العالمي. وتخشى الصهيونية والاستعمار من إقامة دولة اتحادية عربية قوية وغنية ومسلّحة بالثروة النفطية والقومية العربية والعقيدة الإسلامية.

وهكذا نستطيع أن نقول: إن قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ كان أولى خطوات النجاح الاستعمارية لفرض مشروع الشرق الأوسط كمشروع للهيمنة الغربية الاستعمارية، وبعد قيام إسرائيل توالت الخطط والأفكار والمقترحات من جانب بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية لتفكيك المشروع العربي لصالح مشروع الشرق الأوسط وفي القلب منه المشروع الصهيوني.

وجاءت المشروعات الأميركية الجديدة للشرق الأوسط لتعبّر عن نفس المنطلقات والأهداف: السيطرة وفرض النفوذ من ناحية، وتمكين المشروع الصهيوني من النجاح عبر أدوات وآليات متنوعة سياسية واقتصادية وأمنية من ناحية أخرى.

فمشروع «الشرق الأوسط الكبير» كان التعبير السياسي المرافق للغزو وللاحتلال الأميركي للعراق باعتبار أن هذا المشروع وهذه الحرب سوف تؤسّسان معاً لفرض الإمبراطورية الأميركية.

ويكمن الغرض من توسيع هذا المشروع الإمبراطوري لإقليم الشرق الأوسط ليمتد إلى وسط آسيا في حرص واشنطن على فرض سيطرتها الكاملة على أهم منابع النفط في العالم وفقاً لتطلعات تيار المحافظين الجدد الذي يرى أن هذه السيطرة ضرورية لبناء النظام الإمبراطوري الأميركي.

وقد عبَّر الكثير من مفكّري هذا التيار عن هذا الطموح على نحو ما أوضح ريتشارد كراوتهامر، وهو أحد أبرز المعبّرين عن هذا التيار في شرحه لمطلب التغيير وإعادة رسم الخريطة الإقليمية للشرق الأوسط. فقد قال كراوتهامر أمام معهد «أميريكان انتربرايز»: «إن الولايات المتحدة الأميركية الآن في صراع مع العالم العربي - الإسلامي مثل الصراع الذي خاضته في سنوات الحرب الباردة مع العالم الشيوعي». معنى هذا أنه يعبّر عن مشروع يضع هذه المنطقة على خط مواجهة معهم، ويعتبرها بتكوينها الحالي مصدر الخطر عليهم، ومن حقهم التدخل فيها لإعادة تشكيلها بالصورة التي يرونها منزوعة الخطر من وجهة نظرهم، من خلال إعادة صياغة المجتمعات والأنظمة العربية والنظام العربي وأغلب العالم الإسلامي، لكنه يتعامل مع المنطقة أيضاً كمصدر للكسب من خلال تجيير كل ثرواتها لخدمة المشروع الإمبراطوري الأميركي من ناحية ولخدمة إسرائيل، وذلك بالربط بين الديمقراطية والسلام[١٣] .

ولا يكشف النص الذي حمل اسم «مشروع الشرق الأوسط الكبير» عن جوهر هذا المشروع، فالنص جاء مخادعاً، حاول أن يتستّر وراء دعوة الإصلاح الديمقراطي داخل الدول العربية، وحاول أن يتخفّى وراء التحليل الصادر عن تقرير التنمية الإنسانية لعام ٢٠٠٢، وذلك من خلال تقديم مبرِّرات مقنعة لأهمية وضرورة الإصلاح السياسي والديمقراطي والثقافي في دول العالم العربي والإسلامي، ومن خلال تبنّي أجندة هذا التقرير المتركّزة حول قضايا أو مطالب ثلاثة هي: إقامة مجتمع المعرفة، والحرية، وتمكين المرأة، وهي قضايا قد يراها البعض ضرورية وهذا هو الهدف الأميركي من تبنّي هذه القضايا الثلاث؛ أي إكساب المشروع الأميركي قبولاً شعبياً عربياً يضمن له النجاح، في حين أن الأهداف الحقيقية التي يمكن استخلاصها من أدبيات هذا المشروع شيء آخر أكثر خطورة من كل ما هو متصوّر.

بدايات التفكير في هذا المشروع ترجع إلى عملية البحث عن صيغة أفضل للحفاظ على المصالح والأهداف الأميركية طويلة المدى، والتي تتم من خلال تقريري الاستراتيجية الشاملة اللذين تعدّهما كل من وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات كل عقد من الزمان لرسم الخطوط العريضة للاستراتيجيات الأميركية المستقبلية على ضوء توقعاتهم لخريطة العالم خلال المرحلة التالية[١٤].

وإذا كان هذان التقريران لم يركّزا بشكل محدّد على العالمين العربي والإسلامي، فإن أفكاراً أخرى أهم تمّ الدفع بها من خلال مساهمات عدد من أهم مراكز البحوث والدراسات التي لها

صلات قوية بمراكز صنع القرار في الولايات المتحدة الأميركية. فخلال مرحلة ما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بدأت المشروعات تتوالى بداية بما سمي بـ «مشروع مارشال جديد للشرق الأوسط»، والمعروف باسم «الشراكة الأميركية الشرق أوسطية»، وامتداداً لمشروع «دمقرطة العالم العربي» وغيرهما، وكانت أغلبها تركّز على ثلاثة محاور أساسية هي: تغيير المنطقة سياسياً واقتصادياً وثقافياً، على أساس تعريف الولايات المتحدة الأميركية لمصالحها في محيط هذا الشرق الأوسط الكبير.

مؤسّسة راند للأبحاث قدّمت تعريفاً مهمّاً لهذه المصالح يشمل:

حماية بقاء إسرائيل، والتوصّل لسلام في الشرق الأوسط، واستمرار تدفق النفط بسعر مناسب، ومنع قيام أنظمة قوية تعادي الولايات المتحدة الأميركية في أنحاء المنطقة، ومنع انتشار أسلحة الدمار الشامل، والدفع بعملية إصلاح سياسي واقتصادي ومكافحة الإرهاب. وهناك دراسات أخرى قدّمت إسهامات بشأن تلك الأهداف ووسائل تحقيقها، مثل الدراسة التي أجراها المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، والتي أشرف عليها فرانسوا هايبورج، وحملت عنوان«أي استراتيجية نتبع من أجل شرق أوسط كبير؟» ، أو مثل الدراسة التي أصدرها معهد أبحاث السياسة الخارجية، والتي حملت عنوان «الشرق الأوسط الكبير عام ٢٠٠٥» والتي كتبها آدم جار فينكل، وكتاب «الماي خليل زاد بعنوان «مصادر الصراع في القرن الواحد والعشرين – الاستراتيجية الأميركية ومصادر المناطق» الصادر ضمن مطبوعات راند عام ١٩٩٨.

بعض هذه الدراسات يروّج لمفهوم «الشرق الأوسط الكبير»؛ باعتباره الحل الأميركي الأمثل من منظور السلبيات والمخاوف، أي أنّه الحل الأمثل لمواجهة السلبيات والمخاوف والمخاطر التي تتهدّد الولايات المتحدة ومصالحها وأهدافها الاستراتيجية، والبعض الآخر يروّج للمفهوم باعتباره الحل الأميركي الأمثل لتحقيق أعلى درجات المكاسب.

فوفقاً لمشروع معهد أبحاث السياسة الخارجية «الشرق الأوسط الكبير عام ٢٠٠٥» الذي كتبه آدم جار فينكل، وساهم فيه كل من وارن رودمان، وآن ارمسترونج، ونورمان أوجيستن، وجون دانس، وجون كالفن، ونيوت جينجريتش، ولي هاملتون، وجيمس شليزنجر، وغيرهم، فإن الشرق الأوسط الكبير هو العالم العربي، وإسرائيل وتركيا وإيران وآسيا الوسطى والقوقاز، وهي المنطقة التي تصادف أن تكون حاضنة لأكبر احتياطيات النفط والغاز، وأن تكون مسرحاً لصراعات كل القوى الصاعدة والطموحة في العالم، وهي المنطقة التي تضم أيضاً حلفاء الولايات المتحدة الأميركية الأساسيين ومصالح الولايات المتحدة الأميركية الأكثر أهمية، وهي نفسها المنطقة التي شهدت أبرز محاولات امتلاك أسلحة الدمار الشامل، وشهدت آخر الحروب الكبرى التي قادتها الولايات المتحدة الأميركية لتأكيد وجودها ونفوذها بعد انهيار النظام العالمي القديم،

وهي المنطقة الوحيدة في العالم التي شهدت في العقد الأخير تمديد الوجود العسكري الأميركي المباشر على أراضيها، بغض النظر عمّا إذا كان هذا الوجود سيمتد أو سيتقلص في المستقبل(١٥).

الشرق الأوسط الكبير - وفق هذا المشروع أيضاً - هو المنطقة التي تشكل مصدر الأهمية ومصدر القلق في الوقت ذاته، ليس بسبب الصراع العربي - الإسرائيلي فقط، ولكن أيضاً بسبب عشرات الصراعات الموازية. وهو المنطقة التي تحتوي على أعلى درجات الاستبداد السياسي والأنظمة الفاشلة غير الفعّالة، وتشكّل موطناً للأصولية المسلحة شديدة الخطر على الحضارة الغربية ومجتمعاتها، وهو أيضاً مركز الأنشطة الخارجة عن الشرعية القانونية وبؤر الإجرام في العالم خاصة زراعة وتجارة وتهريب المخدرات، وهو من أهم مراكز تجارة السلاح، وعلاوة على هذا كله، هو أرض الصراعات الإثنية والعرقية والطائفية.

والنتيجة التي يراها آدم جار فينكل، هي أن ترك الأمور في منطقة الشرق الأوسط الكبير إلى التطور التلقائي - أي دون تدخل لضبط التفاعلات - سيعقّد الأمور كثيراً، أي أن المطلوب هو التدخل الأميركي لضبط هذه التفاعلات، من أجل درء الأخطار.

المنظور الآخر الذي يفرض الشرق الأوسط الكبير كحل أميركي بدافع من تعميق المكاسب، يطرحه «الماي خليل زاد» الذي يعد من أهم خبراء الإدارة الأميركية الحالية فهو مهندس الحرب الأميريكية في أفغانستان، وعمل سفيراً في العراق ويعمل الآن مندوباً لأميركا في الأمم المتحدة. فهو يستعمل تعبير «الشرق الأوسط الكبير» بوصفه يتعلق بالمنطقة ذات الأهمية المركزية للمصالح الجيوستراتيجية الأميركية والتي تتعرّض فيها هذه المصالح للخطر، وحيث تتصاعد الصراعات، ويحتاج الأمر إلى المزيد من التدخل العسكري الأميركي. كذلك فإن تطور الأوضاع في هذه المنطقة وتفاقم مضاعفاتها يمكن أن ينتهي - على المدى البعيد - بتأثيرات سلبية بالغة ليس على أصحابها فقط وإنما على الاستقرار والازدهار العالمي، وفي القلب منه المصالح الأميركية.

ويعتقد «الماي خليل زاد» أن تعبير الشرق الأوسط الكبير أصبح ضرورياً لالتقاط نظم المحاور الأساسية التي تميز البيئة الاستراتيجية المتجانسة لهذه المنطقة والتي تميّزها عمّا عداها، والتي تصبح، يوماً بعد يوم، أكثر أهمية، وذلك لتآكل الحدود الفاصلة بين أمن الشرق الأوسط والأمن الأوروبي والأمن الأوروآسيوي. هذا التآكل حدث نتيجة لتطور وانتشار التقنيات والأنظمة العسكرية الحديثة، ونمو التداخل والاعتمادية الاقتصادية والسياسية المتبادلة بين هذه المناطق، وتمدد الظواهر المختلفة مثل الإرهاب العابر للمناطق، وتهريب المخدرات والسلاح، وتدفق اللاجئين(١٦).

تحديد ملامح البيئة الاستراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط الكبير - وفق هذه الرؤية - له

أهمية كبيرة، ضمن مسعى تمييز أو إعادة تحديد ما يسمّى بـ «العوالم الاستراتيجية في هيكلية النظام العالمي الجديد»

الملاحظة المهمّة بهذا الخصوص هي وجود تدخل إسرائيلي قوي وملموس في ضبط مفهوم الشرق الأوسط الكبير والدفع به كخيار أميركي استراتيجي، ووجود مسعى أميركي قوي لتوريط أوروبا للانخراط في تبنّي المشروع كاستراتيجية مشتركة للنظام العالمي الجديد.

ففي الوقت الذي كان الأميركيون منغمسين فيه طيلة السنوات الخمس الماضية للخروج بمفهوم جديد للصراعات القائمة والاستراتيجية المثلى للتعامل معها، ظهر اتجاه موازٍ في التفكير الاستراتيجي الإسرائيلي يؤكّد أن «الإسلام السياسي يمثل عدواً، وأن هناك ضرورات لاستئصاله، خاصة في ظل تحوّلات توجّهات حركة «حماس»، وتزامن هذا الإدراك مع ما اعتبر كارثة تهدّد وجود إسرائيل، وهو العامل الديموجرافي، الذي كانت تأثيراته قد بدأت بالفعل في ظل الانتفاضة الثانية.

وتمّت بلورة أجندة عمل إسرائيلية وضعها ناثان شارانسكي الوزير الليكودي، واقتنع بها صقور الإدارة الأميركية، هذه الأجندة تشير إلى أن «العرب لن يقبلوا إسرائيل إلا بعد تحوّل أنظمتهم إلى الديمقراطية»(١٧).

كانت واشنطن مهيأة للإنصات لهذا المفهوم في ظل إدراك بأن الولايات المتحدة الأميركية ستكون بحاجة إلى استيراد ٧٠ من احتياجاتها النفطية بحلول عام ٢٠١٠، وأن الدول التي يمكن أن تغطي هذه الاحتياجات هي: العراق، وإيران، والمملكة العربية السعودية.

وقد تبلورت كل هذه المفاهيم الخاصة بالشرق الأوسط الكبير في ضرورة التدخل بحسم للقضاء على التهديدات التي قد تشهدها دول هذه المنطقة حتى لو ظهرت عن طريق ديمقراطية حقيقية أو انتخابات حرة، مع خلق شرق أوسط أوسع بقوى مركزية أضمن مثل تركيا وأذربيجان وإيران، وبهذا تم الدمج بين مشروع الرئيس بوش لـ «دمقرطة العالم العربي والإسلامي»، ومشروع آخر نوقش في الكونجرس وهو مشروع السيناتور جون ماكين (٢٢ مايو ٢٠٠٣) والمعروف باسم قانون «التواصل والتجارة في الشرق الأوسط للعام ٢٠٠٣» أو «مشروع منطقة الشرق الأوسط الكبرى»، والذي نص على أنه: من مصلحة واشنطن إيجاد شرق أوسط مستقر، وأن دمقرطته من عناصر مواجهة الإرهاب أو أن إقامة شراكة أو اتفاقيات تجارة حرة ليست بديلاً، بل جزءاً من الإصلاحات السياسية والاقتصادية.

وقد وضع هذا المشروع شروط عضوية تتراوح ما بين شروط اقتصادية ينبغي على الدول الأعضاء إتمامها مثل تخفيض التعريفة الجمركية وتقوية القطاع الخاص، وقيامها بإجراءات إصلاح سياسي واقتصادي، واحترام حقوق الإنسان، وتشجيع المجتمع المدني، والمحافظة على

البيئة، وسن قوانين تمنع الفساد والرشوة، وألا تكون هذه الدول مشاركة في أنشطة هدّامة أو معادية للأمن القومي الأميركي والمصالح السياسية الخارجية الأميركية، وأن تكون مؤيّدة للحل السلمي للصراع العربي - الإسرائيلي، وحرية الدين، وألا تكون أي من هذه الدول مشاركة في المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل، وأن تعترف بحق إسرائيل في الوجود بسلام وبحدود آمنة.

وإذا كان المشروع الأميركي للشرق الأوسط الكبير قد شهد بعض المراجعات نتيجة وجهات نظر أوروبية وعربية مختلفة، وبالذات بالنسبة لموضوع فرض التغيير الديمقراطي، وهذه المراجعات ظهرت فيما بعد في مؤتمر «سي آيلاند» بولاية جورجيا الأميركية التي شهدت تأسيس شراكة أمريكية - أوروبية بحضور الدول الأخرى أعضاء مجموعة الثماني (روسيا واليابان وكندا) أخذت اسم «الشراكة من أجل التقدّم والمستقبل المشترك مع الشرق الأوسط الكبير وشمال أفريقيا» الذي أقرّ آلية «منتدى المستقبل» الذي عقد دورته الأولى في العاصمة المغربية الرباط (١٠-٢٠٠٤/١٢/١١) وشهد تراجعاً أميركياً ملحوظاً في مسألة فرض التغيير الديمقراطي من الخارج، فإن الدور الإسرائيلي عمل في الاتجاه المضاد لهذه الشراكة الأميركية مع مجموعة الثماني والدول العربية التي حضرت الدورة الأولى لـ «منتدى المستقبل» الذي لم تحضره إسرائيل[١٨].

فقد سعت إسرائيل إلى إعادة مشروع الشرق الأوسط إلى أصوله الإمبراطورية من ناحية، أي ربطه بالمصالح العالمية الأميركية، كما سعت إلى تحويله إلى شراكة أميركية - إسرائيلية من خلال اجتماع واشنطن الذي عقد في الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر ٢٠٠٤ بين مستشاري شارون ورؤساء الأجهزة الأمنية والاستخباراتية الإسرائيلية وعدد من كبار خبراء ومستشاري الأمن القومي والاستخبارات الأميركية. كان هدف هذا الاجتماع هو البحث في الخطوات التنفيذية لتطبيق خطة الشرق الأوسط الكبير في أسرع وقت ممكن من خلال مناقشة مذكرتين أعدّتا لهذا الغرض، الأولى أميركية أعدّها وليم تومسون رئيس فريق العمل الأميركي، والثانية إسرائيلية أعدها دانيال ليرانو حام أحد مستشاري رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق آرييل شارون المقرّبين والتي حملت اسم «الهندسة السياسية لخريطة الشرق الأوسط في السنوات الثلاث القادمة»[١٩].

أحد أهداف هذه الهندسة السياسية لخريطة الشرق الأوسط هو إعادة توجيه مسار العلاقات العربية باتجاه ربطها بإسرائيل والولايات المتحدة الأميركية ضمن إطار العلاقات الثنائية وعلى حساب العلاقات العربية - العربية والاتفاقيات الثنائية والجماعية للتعاون الاقتصادي والأمني، وقد استطاعت إسرائيل أن تنحرف بالمشروع الأميركي للشرق الأوسط الكبير أو الموسّع مستغلة فشل المشروع الأميركي في العراق سواء على مستوى فرض الاستقرار والأمن للحكومة العراقية

الموالية وتثبيت النفوذ الأميركي بالعراق أم على مستوى تحقيق الديمقراطية بإقامة عراق جديد ديمقراطي يكون نموذجاً للنظم التي يجب أن تقوم في المنطقة وفقاً لمشروع الشرق الأوسط الكبير حسب وعود الرئيس الأميركي جورج بوش.

ثانياً: الحرب على لبنان ومشروع الشرق الأوسط الجديد: البديل

أدّى فشل المشروع الأميركي في العراق إلى ردود فعل كثيرة أخذ بعضها يشكك في جدية الدعوة الأميركية للديمقراطية[٢٠]، وأخذ البعض الآخر يشكّك في جدوى المشروع الإمبراطوري الأميركي كله[٢١]، وظهرت ميول لتقليص حدود هذا الشرق الأوسط الكبير أو الموسع، وبدأت محاولات موازية للحديث عن بدائل «عملية» لتحقيق الأهداف نفسها، منها ما يعرف بـ «الشرق الأوسط الصغير» للخروج من المشاكل التي يعاني منها مشروع الشرق الأوسط الكبير عبر تنفيذ الآليات نفسها لا سيما البنود المتعلّقة بالإصلاحات الديمقراطية، ولكن عبر مجموعة صغيرة تمثل الدول الأسهل من حيث التزامها بالتنفيذ، ووجود علاقات فعلية بينها، وترتبط أيضاً بعلاقات قوية مع واشنطن كضمانة للتنفيذ أو عدم التراجع[٢٢].

وحتى هذه الدعوة لم تستطع الصمود أمام المأزق الأميركي المستحكم في العراق، ومن هنا كانت الحرب الإسرائيلية على لبنان في يوليو ٢٠٠٦ بمثابة المخرج المناسب لفرض واقع جديد لمشروع أمريكي جديد للشرق الأوسط، لم تتردد وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس في الإعلان عنه باسم «الشرق الأوسط الجديد» في ذروة الحرب الإسرائيلية على لبنان وفي ذروة الانحياز الأميركي الكامل لإسرائيل في هذه الحرب ورفضها لكل مطالب وقفها[٢٣].

لقد أكّدت تطورات هذه الحرب أن الولايات المتحدة كانت طرفاً مباشراً في التخطيط والإعداد والتنفيذ والرعاية الكاملة كي تحقق أهدافها في لبنان، ومن بعدها في إيران للقضاء على ما يسميه الرئيس الأميركي بـ «محور الشر»، الذي أعلن أن الحرب الإسرائيلية الأخيرة مع «حزب الله» هي جزء من صراع أكبر يشمل سوريا وإيران[٢٤]. وأكّد أن الحرب في لبنان تشكّل جزءاً من معركة أوسع تشهدها المنطقة بين «الحرية والإرهاب»[٢٥].

فشل المشروع الأميركي في العراق القائم على أساس فرض التدخل الخارجي تحت شعار بناء الديمقراطية على أنقاض«الدولة الفاشلة» دفع واشنطن إلى محاولة إحياء هذا المشروع تحت شعارات أخرى هي إسقاط «محور الشر» الذي يضم وفقاً للتعريف الأميركي إيران وسوريا و«حزب الله» اللبناني وحركتي «حماس» و«الجهاد الإسلامي» في فلسطين.

ووقع الاختيار على «حزب الله» ليكون البداية في حرب طويلة ضد إيران وسوريا بعد أن فشل توظيف القرار ١٥٥٩ لتحقيق الهدفين الرئيسيين وهما: الإجهاز على النفوذ السوري في لبنان، وتصفية «حزب الله» من خلال دعوة نزع أسلحة الميليشيات.

فقد نصّ هذا القرار الذي صدر في ٢٠٠٤/٩/٢ كثمرة تعاون فرنسي – أميركي في مجلس الأمن على أربعة بنود أساسية هي[٢٦]:

– انسحاب كل ما تبقى من القوات الأجنبية (والمقصود بالتحديد هو انسحاب القوات السورية مع إغفال للقوات الإسرائيلية الموجودة في مزارع شبعا ومحيطها).

– تفكيك ونزع سلاح كل الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية (والمستهدف هو«حزب الله» دون أولوية لأسلحة المخيمات الفلسطينية).

– دعم توسيع سلطة حكومة لبنان على كامل الإقليم اللبناني (والمقصود هو إرسال الجيش اللبناني إلى الجنوب وسحب قوات «حزب الله» وإبعاده نهائياً عن الحدود مع إسرائيل وتصفية هذه القوات وفقاً للبند السابق).

– دعم عملية انتخابية حرة وعادلة وفقاً للقواعد الدستورية دون تدخل أو نفوذ أجنبي (والمعنى هنا انتخابات رئاسية تنهي عملية التجديد المرفوضة فرنسياً وأميركياً للرئيس إميل لحود باعتباره أحد أهم بؤر النفوذ السوري في لبنان).

هذه البنود الأربعة فشل الأميركيون والفرنسيون والقوى اللبنانية الموالية في فرضها بعد إكمال انسحاب السوريين من لبنان، وجاءت جريمة اغتيال رفيق الحريري في ٢٠٠٥/٢/١٤ لتفجر الأوضاع الأمنية والسياسية داخل لبنان وتفرض استقطاباً حاداً بين فريق الموالاة الذي يتبنّى مطلب نزع سلاح المقاومة وإرسال الجيش إلى الجنوب، وفريق المعارضة الذي يرفض تسمية قوات «حزب الله» بـ«الميليشيات» ويرفض نزع سلاح المقاومة[٢٧]. هذا الاستقطاب الحادّ وما أدّى إليه من مواجهات بعضها كان دامياً وفّر المناخ المناسب لتدخل خارجي، وجاءت عملية «حزب الله» التي نجحت في أسر جنديين إسرائيليين وقتل ثمانية آخرين في ٢٠٠٦/٧/١٢ لتعلن ساعة الصفر لعملية عدوانية إسرائيلية أميركية هدفها ليس فقط تصفية «حزب الله» عسكرياً وسياسياً، بل فرض شرق أوسط جديد عبر تصفية ما تسميه واشنطن بـ «محور الشر».

لقد تأكّد هذا الهدف من خلال العديد من المؤشرات والوثائق وأبرزها:

أ – الربط الإسرائيلي المبكر بين إيران و«حزب الله» في هذه الحرب، حيث كان توصيف عمير بيريتس وزير الدفاع الإسرائيلي السابق لـ «حزب الله» على أنه «وحدة كوماندوز متقدّمة لإيران»[٢٨] شديد التعبير في تقييم هذه الحرب على أنها جزء أو مقدّمة لـ «حرب إقليمية» منذ لحظة انطلاقها، وأن إسرائيل كانت تبحث في التوقيت وكانت تبحث عن «ذريعة» تتيح لها شن الحرب وحشد التأييد الداخلي والأميركي لها. وعندما فشلت إسرائيل في تحقيق النصر الذي كانت تريده بتدمير الآلة العسكرية لـ «حزب الله» نهائياً ووضعه تحت مقصلة القرار ١٥٥٩ بنزع أسلحته إجبارياً عن طريق تدميرها، بدأت تركّز بالتنسيق مع واشنطن لفرض قرار دولي يقر

بإرسال قوات دولية إلى جنوب لبنان يكون لها حق القتال ضد «حزب الله» وفقاً للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة بفرض حرمان «حزب الله» من قدرته على تحريك الجبهة في الجنوب اللبناني؛ أي إلغاء ما تعتبره إسرائيل بـ «الحدود الإيرانية - الإسرائيلية» في الجنوب اللبناني، وإلغاء «الحدود السورية - الإسرائيلية» هناك أيضاً، بمعنى آخر، العمل على جعل تلك الحرب بمثابة «الحرب الأخيرة» هناك عن طريق الانسحاب من الأراضي اللبنانية وإطلاق الأسرى؛ أي تحقيق المطالب اللبنانية للحزب في مقابل تنازله عن دوره الإقليمي طالما عجزت الآلة العسكرية الإسرائيلية عن إجباره على هذا التنازل، وهذا يعني إعطاء «حزب الله» انتصاراً سياسياً لبنانياً في مقابل خسارة دوره الإقليمي وحرمان حلفائه (إيران وسوريا) من هذا الدور نهائياً[٢٩].

ب- التوافق الإسرائيلي - الأميركي على جعل الحرب ضد «حزب الله» حرباً ضد ما تسميه واشنطن بـ «محور الشر» بعد أن تم إسقاط حكم صدام حسين في العراق، هذا التوافق تكشف مبكراً مع بداية الحرب عقب لقاء تم بين وزير الدفاع الإسرائيلي السابق عمير بيريتس مع وفد أميركي عالي المستوى ضم ديفيد ولش مساعد وزيرة الخارجية وإليوت إبرامز مسؤول دائرة الشرق الأوسط، حيث قال الوزير الإسرائيلي إن «على العالم الحر أن ينتهز الورطة التي وقع فيها كل من «حماس» و«حزب الله» عندما خطفا الجنود الإسرائيليين الثلاثة في غزة وفي الشمال الإسرائيلي، وعندما أطلق الأول صواريخ «قسّام» والثاني صواريخ «كاتيوشا» على البلدات الإسرائيلية، وأنه قد حان الوقت لتوجيه الضربة القاضية إلى جميع الشركاء في «محور الشر». وأوضح بيريتس أن «إسرائيل تلتقي مع الإدارة الأميركية في تحديد «محور الشر» هذا وترى أن المشكلة لا تقتصر على «حماس» و «حزب الله» فهما يعملان بإيحاء وتشجيع من إيران وسوريا»[٣٠].

في الوقت نفسه تقريباً عقد الرئيس الأميركي جورج بوش سلسلة اجتماعات في وزارتي الدفاع والخارجية مع كبار المسؤولين في الإدارة وخبراء في الشؤون العسكرية والأمن القومي، تركزت حول ما سمّي بـ«قوس الأزمة» الممتد من الخليج العربي إلى الشرق الأدنى في إشارة إلى الوضع المتأزّم في العراق، والمواجهة مع إيران بأبعادها الإقليمية التي «أشعلت الحرب بين إسرائيل من جهة و«حزب الله» وحركة حماس من جهة أخرى». وأوضح مسؤول في الأمن القومي الأميركي عقب هذه اللقاءات أن الإدارة الأميركية «لا يمكن أن تفصل التصعيد العسكري والأمني في المنطقة عن المواجهة السياسية بين المجتمع الدولي وكل من إيران وسوريا الداعمتين للإرهاب، وسعي طهران إلى الحصول على أسلحة دمار شامل»، وأكّد أن «الرئيس بوش متمسّك بضرورة نزع سلاح «حزب الله» نهائياً، وإتاحة المجال للحكومة اللبنانية الشرعية لفرض سيادتها ونشر قواتها في الجنوب»[٣١].

ولمزيد من إحكام الاتهامات على إيران اتهم الجيش الأميركي في العراق أطرافاً إيرانية بتدريب وتسليح «جماعات شيعية متطرفة»؛ كي تنفذ أعمال عنف في البلاد، وأن قوات التحالف عثرت على أسلحة تمّ تصنيعها في إيران.

وحسم الرئيس بوش طبيعة الحرب بين إسرائيل و«حزب الله» على أنها «جزء من صراع أكبر بين الحرية والإرهاب»، وربط بين الحروب الدائرة على الجبهات الثلاث في لبنان والعراق وأفغانستان باعتبارها حرباً واحدة ضد الإرهاب، كما ربط بين هذه الحروب وأزمة البرنامج النووي الإيراني بقوله: «نستطيع فقط أن نتخيل خطورة هذا الصراع لو أن إيران تملك القنبلة النووية»(٣٢). ولمزيد من تأكيد خطورة إيران اتجه الرئيس الأميركي خطوة أخرى بالربط بين إيران و«تنظيم القاعدة» من ناحية والتهديدات التي تواجه الأمن الوطني الأميركي من ناحية أخرى حيث قال: إن الولايات المتحدة تواجه تحرّكاً عدائياً شيعياً تقوده إيران التي تشارك تنظيم القاعدة في نفس الأهداف مشيراً إلى أن المجموعتين تمثلان «وجهين مختلفين لذات التهديد»(٣٣).

جـ- انكشاف وثائق ومعلومات تؤكّد تورط الولايات المتحدة في التخطيط للحرب ضد لبنان، ورعايتها وتقديم كل الدعم العسكري والسياسي، كي تحقق هذه الحرب أهدافها.

من أبرز هذه المعلومات ذلك التقرير الذي كتبه واين مادسن (مسؤول سابق في البحرية الأميركية وعيِّن لفترة في وكالة الأمن القومي، ويقوم منذ عام ١٩٩٤ بتغطية أخبار السياسة والأمن القومي وله مؤلّفات مهمة) على موقعه على شبكة الإنترنت يوم ٢٥ يوليو ٢٠٠٦، والتقرير الذي نشره سيمور هيرش الكاتب الأميركي المرموق في مجلة «نيويوركر»، وكل من هذين التقريرين يؤكّد التورط الأميركي مع الإسرائيليين في الإعداد لهذه الحرب التي تتجاوز «حزب الله» وتركّز على كل من إيران وسوريا.

ففي تقريره الذي حمل عنوان «اجتياح لبنان وغزة تم التخطيط لهما في يونيو ٢٠٠٦ خلال اجتماعات في الولايات المتحدة مع مسؤولين إسرائيليين كبار»، كشف واين مادسن أن الغزو الإسرائيلي للبنان تم التخطيط له بين مسؤولين إسرائيليين رفيعي المستوى وأعضاء في إدارة الرئيس الأميركي جورج بوش. ففي ١٧ و ١٨ يونيو التقى رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق بنيامين نتنياهو والنائب الإسرائيلي ناتان شارانسكي مع نائب الرئيس الأميركي ديك تشيني في مؤتمر لمعهد «أميركان انتربرايز» في بيفر كريك كولورادو وهناك تمّت مناقشة الاجتياحين الإسرائيليين الوشيكين لغزة ولبنان. وبعد الحصول على الدعم الكامل من تشيني لغزو غزة ولبنان، عاد نتنياهو إلى إسرائيل وشارك في اجتماع خاص لرؤساء الوزراء السابقين، حيث نقل دعم إدارة بوش لتنفيذ سياسة «اختراق واضح» (تقرير استراتيجي أعدته في عام ١٩٩٦

شخصيات أميركية محافظة بارزة مثل ريتشارد بيرل وجيمس كولبرت وتشارلز فيربانكس جونيور ودوجلاس فيث وروبرت لوينبرج وديفيد وارمسير، ليهتدي به نتنياهو بعد وصوله إلى السلطة في العام ذاته) وشارك في ذاك الاجتماع، بالإضافة إلى نتنياهو، كل من رئيس الحكومة الحالي إيهود أولمرت ورئيسي الوزراء الأسبقين إيهود باراك وشمعون بيريز الذي أصبح رئيساً لإسرائيل.

ونقل مادسن عن مصادر في واشنطن أن اجتياحي غزة ولبنان المدعومين أميركياً والهجومين الوشيكين على سوريا وإيران، تشكل «الحدث» المشتبه بحدوثه قبل الانتخابات (النصفية) في الولايات المتحدة في نوفمبر ٢٠٠٦ ومحاولة لحشد الجمهور الأميركي حول نظام بوش تشيني خلال فترة حرب واسعة.

وأوضح، استناداً إلى مصادر مطلعة في واشنطن، أن «الهجوم الإسرائيلي على لبنان تمّت إدارته بين حكومة أولمرت والمحافظين الجدد في إدارة بوش»، مضيفاً أن «إدارة بوش كانت على علم مسبق ودعمت الهجمات التي كانت إسرائيل تعتزم شنّها على غزة ولبنان»، وأشار إلى أن تنسيق إدارة بوش مع إسرائيل في الهجوم على حماس و«حزب الله» يشمل تبنّي البيت الأبيض رسمياً وثيقة «الاختراق الواضح: الاستراتيجيات الجديدة للأمن في العالم»، في إطار تنفيذ المرحلة الثانية من هذه الوثيقة، حيث نفذت المرحلة الأولى في العراق، وجاء الدور على فلسطين ولبنان في انتظار إكمال المهمّة مع كل من إيران وسوريا.

وأوضح مادسن أن الاستراتيجية الأميركية الإسرائيلية الحالية في قصف لبنان واجتياحه هي عملية متابعة لأربع سنوات من النشاطات السرية للبنتاجون والبيت الأبيض والموساد داخل لبنان، والتي تضمنت اغتيال مسؤولين لبنانيين كبار بسيارات مفخخة من أجل إخراج القوات السورية من لبنان. وأشار إلى «تدريبات إسرائيلية» للتعامل مع خطف «حزب الله» لجنود إسرائيليين وخطف حماس لجندي إسرائيلي قرب الحدود في غزة. وأضاف أن هذه العمليات أمنت ذريعة للهجوم الإسرائيلي على غزة ولبنان». وتابع: «تم وضع خطط مماثلة للرد على أسر سوريا لجنود إسرائيليين في لبنان قرب الحدود مع سوريا أو من مرتفعات الجولان. إن هذا سيبرّر هجوماً إسرائيلياً أميركياً على سوريا، عبر دخول إسرائيل من لبنان، وأميركا من العراق». وكشف أن سوريا (وإيران في نهاية الأمر) هما السبب وراء محاولة الولايات المتحدة عرقلة محاولات الأمم المتحدة التوصل إلى وقف فوري لإطلاق النار. إن هدف إدارة بوش هو رؤية توسع النزاع، مشيراً إلى أن «المندوب الأميركي (السابق) في الأمم المتحدة جون بولتون» كشف، خلال مقابلة (مع فوكس نيوز) عن الخطة الأميركية الإسرائيلية المستقبلية للحرب الإقليمية في الشرق الأوسط عندما قال: «أعتقد أنه إذا نظرتم إلى الدعم الذي تقدّمه إيران وسوريا إلى جماعات مثل حماس و«حزب الله» والجهاد الإسلامي في فلسطين، فإن تصفية الحساب، التي نحتاجها هنا،

لن تكون فقط مع المنظمات الإرهابية، لكن أيضاً مع الدول التي تموّلهم»(٣٤).

لم يختلف تقرير سيمور هيرش في مجلة «نيويوركر» كثيراً عن المعلومات التي ذكرها واين مادسن، وإن كان قد ركّز على ما أسماه بـ«خيار كوسوفو» وهو الخيار العسكري الذي نفذته قوات حلف شمال الأطلسي ضد القوات الصربية في كوسوفو وكانت نتائجه إيجابية، وهو الخيار القائم على قصف جوّي مكثف لمدة ٧٠ يوماً يأتي بعده التدخل العسكري البري، بحيث تقوم القوات الإسرائيلية بتجربته في لبنان، وفي حال نجاحه يتم اعتماده كخيار للحرب ضد إيران.

فقد كشف هيرش أن ضبّاطاً من سلاح الجو الإسرائيلي قاموا بزيارات للولايات المتحدة للبحث في خطة رئيس الأركان الإسرائيلي السابق دان حالوتس التي يريد فيها تكرار التجربة الأميركية في كوسوفو مع إيران ولتكن البداية في لبنان، وإذا كان الجنرال الأميركي ويسلي كلارك قد احتاج إلى ٧٨ يوماً لتنفيذ هذه الخطة في كوسوفو فإن إسرائيل تحتاج فقط إلى ٣٥ يوماً وفقاً لتعهد المستشار الحكومي الإسرائيلي لوزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس.

ويقول سيمور هيرش في تقريره إن مكتب ديك تشيني نائب الرئيس الأميركي دعم الخطة الإسرائيلية، وبالمثل فعل نائب مستشار الأمن القومي إيليوت ابرامز الذي اعتقد أنه يجب على إسرائيل أن تتحرك بسرعة في حربها الجوية ضد «حزب الله». وكانت وجهة نظر تشيني هي التالية:«لو نفذ الإسرائيليون جزءاً من هذا أولاً، وكان ناجحاً بالفعل سيكون ذلك رائعاً، سيكون بإمكاننا أن نتعلم ما يجب فعله في إيران، عبر مشاهدة ما يفعله الإسرائيليون في لبنان»(٣٥).

رغم خطورة هذه المعلومات فإن هناك من الدلائل ما يؤكد صحتها. منها على سبيل المثال ما نقلته مراسلة صحيفة «الخليج» (الإماراتية) عن السفير السوري في واشنطن عماد مصطفى حول لقاء البطريرك الماروني اللبناني نصر الله صفير مع ديك تشيني في ذروة الحرب الإسرائيلية على لبنان. ففي هذا اللقاء طلب نصر الله صفير من تشيني وقف إطلاق النار، لكن تشيني غضب بشدة ووجه حديثه للبطريرك قائلاً: «إننا (أي الأمريكيين) لم نعد نثق بكم إطلاقاً. لقد اتفقنا أن نخرج لكم السوريين مقابل قيامكم بنزع سلاح«حزب الله» فماذا فعلتم؟ لم تنزعوا سلاح «حزب الله» بل تركتموه يزدهر ويصبح له نواب في البرلمان اللبناني، وأكمل تشيني ردّه الغاضب بالقول: «سندع إسرائيل تقوم بالمهمة التي أعطيناها لكم»(٣٦).

هناك دلائل أكثر حسماً لكل هذه المعاني وبالذات إن الحرب على لبنان كانت إسرائيلية من حيث التنفيذ ولكنها كانت في الوقت نفسه أميركية من حيث التخطيط والدعم وتوفير الغطاء الدبلوماسي، وأن إيران كانت هدفاً أساسياً في هذه الحرب. من هذه الدلائل نذكر ما يلي:

أ - إعلان وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس أن الحرب الإسرائيلية على لبنان «ما هي إلا آلام المخاض لميلاد شرق أوسط جديد»(٣٧) تتغير فيه معادلات العلاقات الإقليمية. يأتي

في مقدّمة هذه المعادلات ما سعت إليه بعد ذلك وعقب انتهاء الحرب لتأسيس «محور الدول المعتدلة» أو «محور الخير والسلام» لمواجهة «محور الشر».

ب- المماطلة الأميركية المتعمدّة لمنع صدور قرار من مجلس الأمن يفرض وقفاً فورياً لإطلاق النار. فقد حرصت الدبلوماسية الأميركية بقيادة كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية ومندوبها الدائم (السابق) في الأمم المتحدة جون بولتون على توفير كل الوقت المطلوب للقوات الإسرائيلية كي تقوم بالمهمة[٣٨]، وعندما عجزت عن تحقيق الأهداف تحول الاهتمام إلى إصدار قرار يمكن إسرائيل من أن تأخذ بالدبلوماسية الأميركية ما عجزت عن تحقيقه هي بالحرب[٣٩]. بل إن واشنطن سمحت لإسرائيل بمراجعة مسودة مشروع القرار ١٧٠١ الصادر عن مجلس الأمن، ووفقاً لصحيفة «هآرتس» الإسرائيلية فقد تولى يورام طوريوفيتش رئيس هيئة مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت مسؤولية تنسيق الاتصالات مع الإدارة الأميركية قبيل وأثناء الاتصالات التي أجراها ممثلو فرنسا والولايات المتحدة حول تلك المسودة. كما أن إسرائيل، ومن أجل أن تتأكد من أن الأميركيين ملتزمون بإيراد النقاط التي ترى الحكومة الإسرائيلية ضرورة تضمينها في نص القرار، قامت بإرسال طال بوكر المستشار السياسي لوزيرة الخارجية تسيبي ليفني إلى نيويورك ليقوم أولاً بأول بالاطلاع على ما يتم الاتفاق عليه بين الوفدين الأميركي والفرنسي في مجلس الأمن[٤٠].

ج- الحرص الأميركي الشديد على تمكين إسرائيل من القيام بالمهمة العسكرية وتوفير كل الأسلحة اللازمة لذلك وعلى الأخص القنابل الذكية القادرة على تدمير التحصينات القوية على أمل الوصول إلى قيادة «حزب الله». فقد نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» الأميركية أن واشنطن سرّعت إجراءات تسليم تلك القنابل من قاعدة «العديد» في قطر حيث مقر القيادة الوسطى الأميركية لكسب الوقت، وهي عبارة عن قذائف صاروخية متطوّرة تخترق الخنادق والأنفاق والاستحكامات العسكرية لمسافة ٣٠ - ٤٠ متراً تحت الأرض[٤١]، وقد ارتكبت الطائرات الإسرائيلية مجازر بشعة باستخدامها هذا النوع من القنابل ناهيك عن القنابل العنقودية والأسلحة الملوّثة بالإشعاع الذري.

الأسوأ من هذا ما كشفته صحيفة «معاريف» الإسرائيلية من أن الإدارة الأميركية أعطت الضوء الأخضر للحكومة الإسرائيلية بالإقدام على اغتيال الأمين العام لـ«حزب الله» السيد حسن نصرالله. وقال الصحافي الإسرائيلي بن كاسبيت المعروف بصلاته الوثيقة مع صنّاع القرار في تل أبيب وواشنطن، أن الأميركيين أبلغوا نظراءهم الإسرائيليين بأن الرئيس الأميركي جورج بوش توصّل إلى قناعة بأنه «آن الأوان للتخلّص من هذا السرطان الذي يعيث فساداً في منطقة الشرق الأوسط»، لافتاً إلى أنه في حالة إخراج هذا المخطط إلى حيّز التنفيذ فإن الرئيس بوش لن يذرف

الدموع على اختفاء نصر الله من «المشهد السياسي»[٤٢].

الأهم من ذلك، هو مبرر واشنطن لاغتيال حسن نصر الله، فحسب الصحيفة الإسرائيلية فإن التوجيهات الأميركية هذه تهدف إلى صرف الأنظار عن ما يحدث في العراق من فشل أميركي، وأن بقاء حسن نصر الله على الساحة السياسية أو إحرازه أي انتصار على آلة الحرب الإسرائيلية سيلقي بظلاله على المقاومة العراقية التي تراقب الأمور في لبنان[٤٣].

كان الطموح الأميركي من هذا كله، وحسب أقوال كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية هو«إلحاق هزيمة عسكرية وسياسية بحزب الله»، وكان توقعها أن «الوضع السابق في لبنان لن يعود إلى ما كان عليه» بعد أن يتم وقف إطلاق النار[٤٤].

وكان طموح خلق «شرق أوسط جديد» خالياً من دول وأطراف «محور الشر» يضع في اعتباره أن إيران هي «حجر الزاوية» لإطلاق أو عرقلة هذا المشروع، وبعدها تأتي سوريا وما تسميه واشنطن بـ «المنظمات الإرهابية».

وبعد انتهاء الحرب بادرت كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الأميركية بعقد اجتماع استثنائي في نيويورك مع وزراء خارجية ثماني دول عربية هي دول مجلس التعاون الخليجي الست إضافة إلى مصر والأردن يوم ٢١ سبتمبر وحملت هذه المجموعة اسم «مجموعة ٦+٢» التي التقت بها رايس ثانية في القاهرة (٢ أكتوبر ٢٠٠٦)، وبدلاً من الحديث عن الديمقراطية والتحوّل الديمقراطي أصبح الحديث متركّزاً على «تحالف المعتدلين» أو «تحالف الخير والسلام» الذي يضم الدول العربية الثمانية مع الولايات المتحدة وإسرائيل في مواجهة «محور الشر» الذي يضم إيران وسوريا و«حزب الله» اللبناني وحركتي «حماس» و«الجهاد» في فلسطين[٤٥].

هذا الإطار الجديد للتحالف أرادت واشنطن أن تتحول به من دعوة التغيير الديمقراطي بهدف تأمين المجتمع الأميركي من خطر الإرهاب وتحقيق السلام في المنطقة من خلال الترويج لدعوة «السلام الديمقراطي»، إلى التحالف بين الدول الصديقة المعتدلة لمواجهة خطر التطرف والإرهاب الذي تزعم أنه وراء فشل مشروعها في العراق. وهكذا تم العدول عن أولوية الديمقراطية كهدف استراتيجي لدعوة الشرق الأوسط الكبير لصالح أولوية الأمن والمصالح الأميركية لبناء «شرق أوسط جديد» بالتحالف مع الدول الصديقة بغض النظر عمّا إذا كانت نظماً تسلطية أو استبدادية طالما أنها متحالفة معها وفق أجندة جديدة تتضمن ثلاثة أهداف أساسية:

الأول: أن يتوارى الصراع العربي - الإسرائيلي كمحدّد أساسي للعلاقات الإقليمية في الشرق الأوسط لصالح انخراط الدول العربية في عمليات تطبيع مع إسرائيل دون انتظار لحسم مستقبل ما يسمّى بالأزمة الفلسطينية - الإسرائيلية.

الثانى: تصعيد صراع عربي - إيراني يكون بديلاً للصراع العربي - الإسرائيلي بحيث تصبح الأولوية للتصدي للنفوذ الإيراني بدلاً من التصدي للمشروع الإسرائيلي.

الثالث: تفجير الصراعات العرقية والطائفية في المنطقة كمدخل أساسي لإعادة هندسة الخرائط السياسية في المنطقة. تأكيد وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني على حرص إسرائيل على أن تتعاون مع ما أسمته بـ «التحالف السني»[٤٦]، وتركيز مسؤولين عرب على التحذير من خطر «الهلال الشيعي»، واتهام «حزب الله» بتفجير الحرب مع إسرائيل في يوليو ٢٠٠٦ لخدمة مصالح إيرانية[٤٧]، ودعوة إيهود أولمرت رئيس الحكومة الإسرائيلية للتحالف مع لبنان لمواجهة «محور الشر»[٤٨] كلها مؤشرات تؤكّد جدية هذه الأهداف التي جاءت متطابقة مع مشروع رالف بيترز، وهو رجل عسكري أميركي متقاعد نشره في مقال تحت عنوان «حدود الدم» في مجلة: (Armed Forces Journal) الأميركية (يونيو ٢٠٠٦) بهدف إعادة ترسيم حدود الشرق الأوسط[٤٩]، مقال رالف بيترز جاء مشفوعاً بخريطة تقسّم عدداً كبيراً من بلدان المنطقة عربية وغير عربية وفق اعتبارين أساسيين: هما التكوين العرقي والتكوين الطائفي بما يسمح بظهور دول جديدة أكثر اتساقاً وانسجاماً مع تكوينها الاجتماعي العرقي والديني والطائفي، على حساب الدول القائمة حالياً باعتبارها دولاً غير منسجمة اجتماعياً (عرقياً وطائفياً ومذهبياً)[٥٠]. هذه الحالة من عدم الانسجام الاجتماعي هي المسؤول الرئيسي في نظر الكاتب عن الحروب وانتشار الإرهاب في المنطقة.

أهم ما يميّز خريطة رالف بيترز أنها تكاد تتطابق مع خريطة الصراعات الجديدة التي أخذت تفرض نفسها على المنطقة منذ أن شنّت الولايات المتحدة حربها ضد ما تسميه بـ «الإرهاب الإسلامي» بعد تفجيرات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وتكاد تكون تعبيراً دقيقاً عن مشروع كوندوليزا رايس عن «الشرق الأوسط الجديد».

ثالثاً: تحدّيات ما بعد النصر

إذا كان مشروع «الشرق الأوسط الكبير» قد تداعى أمام أطلال الفشل الأميركي في العراق، فإن مشروع «الشرق الأوسط الجديد» واجه أهم تحدّياته في النصر الذي استطاعت المقاومة اللبنانية تحقيقه والمكانة التي اكتسبها «حزب الله» بجدارة في الشارع السياسي العربي، وهي المكانة التي هزّت المؤسّسة العسكرية الحاكمة في الكيان الصهيوني بقدر ما هزت تحالف المعتدلين» وأدّت إلى إعاقة مشروع الاستقطاب الإقليمي.

فعلى المستوى الإسرائيلي أحدث الفشل المدوى للإدارة العسكرية للحرب هزة عنيفة أصابت نظرية الأمن الإسرائيلية في العمق ودفعت إلى مواجهات عنيفة بين العسكريين والسياسيين، وأيضاً بين السياسيين والعسكريين حول تحديد مسؤولية فشل الحرب على لبنان[٥١]. ولم تسلم

أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية من الهجوم لفشلها في رصد القوة التسليحية والقدرة القتالية لـ «حزب الله»، الذي استطاع أن يخرج بصواريخه دبابة الميركافا من الخدمة العسكرية مبكراً، وهي «عروس سلاح المدرّعات الإسرائيلي»[٥٢]، والذي استطاع إغراق المدمّرة «ساعر-١» ووصل بصواريخه إلى عمق الشمال الإسرائيلي في حيفا.

هذه التطورات كانت وراء الحديث عن حدوث «زلزال سياسي في إسرائيل»، وعزل عدد من القيادات العسكرية خاصة الميجر جنرال عودي آدم قائد المنطقة الشمالية وتعيين موشيه كابلينسكي قائداً للقتال مما أدّى إلى ظهور ما عرف بـ «حرب الجنرالات»[٥٣]، إلى جانب استقالة رئيس الأركان دان حالوتس، وقد قدّرت بعض المصادر الخسائر الإسرائيلية في الحرب بـ«٥,٧ مليار دولار»[٥٤]، في حين بلغت خسائر العسكريين الإسرائيليين ١١٩ قتيلاً و٧٥٠ جريحاً إضافة إلى القتلى والجرحى المدنيين من جراء سقوط الصواريخ اللبنانية[٥٥].

لكن الأهم هو صعود اليمين الإسرائيلي ودعوته أولاً إلى إسقاط حكومة إيهود أولمرت، ثم دعوته ثانياً إلى الاستعداد للحرب ضد إيران، وكان رد صحيفة «هآرتس» على المبادرات الجديدة لرئيس الحكومة الإسرائيلية بالنسبة للفلسطينيين، وقبوله لدولة فلسطين مقابل التخلي عن حق العودة، هو دعوة أولمرت إلى «التوقف عن إطلاق البالونات الإعلامية وحشد الأمة للتحدي الحقيقي وهو إيران»[٥٦].

هذه التطورات تحمل هي الأخرى مؤشرات سلبية، رغم تفاؤل كاتب بمستوى باتريك سيل الذي تحدث عن «تضاؤل احتمال شن أي هجوم على إيران أو سورياً».

تقييم وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني بهذا الخصوص شديد الأهمية. فقد تحدّثت ليفني عن ما تراه من نجاحات إسرائيلية تحققت من الحرب، لكنها أيضاً ألمحت إلى وجود إخفاقات وإن كانت قد أرجعت ذلك إلى أن الحكومة حدّدت أهدافاً من الحرب لم تكن على يقين بإمكانية تحقيقها.

بالنسبة للنجاحات أو المكاسب الإسرائيلية حدّدتها تسيبي ليفني فيما يلي حسب الرؤية الإسرائيلية: الحد من مكانة «حزب الله» في لبنان (وقد حدث بالفعل شيء من هذا بسبب الانقسام الداخلي على النصر وبسبب إصرار فريق ١٤ آذار على إعطاء هذا النصر صيغة مذهبية، وتصويره على أنه نصر للشيعة وليس للبنان)، والمساس بقدراته العسكرية (أي«حزب الله»)، وإبعاده عن الحدود، ودخول ٣٠ ألف جندي (١٥ ألفاً من جيش لبنان و١٥ ألفاً من القوات المتعددة) إلى الجنوب لضمان نزع السلاح في الجنوب اللبناني، ومنع تهريب السلاح له من الحدود. واعتبرت ليفني أنه «قبل الحرب كانت هناك في لبنان حكومة ضعيفة في مواجهة منظمة إرهابية تسيّطر كلياً على جنوب لبنان وتقوم بأعمال استفزازية كما تريد».

وكشفت المفارقة بين الأهداف المعلنة والأهداف الحقيقية وهي محاولة لتجميل الفشل تنكرها. وقالت:«منذ بداية الحرب عرفنا أن الأهداف التي حددناها لأنفسنا لا يمكن تحقيقها «لكن غالبية هذه الأهداف نص عليها هذا القرار (تقصد القرار ١٧٠١)»، وكشفت خلفية الجهود الأميركية - الإسرائيلية لتحقيق مكاسب في مجلس الأمن عجزت الآلة العسكرية الإسرائيلية المدعومة أميركياً عن تحقيقها في جبهة القتال مع (حزب الله) وقالت: «أردنا أن تنتشر قوات فاعلة من حلف شمال الأطلسي أو قوات قادرة على القتال، وطلبنا ألا تكون هذه القوات في إطار قوة الأمم المتحدة المؤقتة في لبنان «يونيفيل»، وما تحقق حسب رأيها ليس قوة اليونيفيل» السابقة الضعيفة، بل «قوة يونيفيل معززة مع مهمة موسعة تتيح لها استعمال القوة»[٥٧].

هذه التصريحات تكشف المأزق الإسرائيلي الحقيقي ومدى تهافت الإسرائيليين على توفير حماية دولية للحدود الإسرائيلية مع لبنان، ومحاولة تقديم تفسيرات للقرار ١٧٠١ يمكن من خلالها إعطاء قوات اليونيفيل حق نزع سلاح «حزب الله»، لكن هذا لم يحدث، الأمر الذي يعني فشلاً إسرائيلياً آخر، ويزيد من دوافع الانتقام، وعندما تقوم إسرائيل بتعيين قائد للمعركة القادمة» مع إيران، وعندما يتم تسريب معلومات إسرائيلية تتحدث عن «حرب صاروخية» مع سوريا الصيف الحالي فإن هذا يعني أن الأوضاع مازالت متوترة وأن خطر حدوث تصعيد عسكري مع لبنان أو سوريا ما زال قائماً.

هذا الخطر يكشف أن التحدّيات ما زالت قائمة وأن مشروع «الشرق الأوسط الجديد» يجري إحياؤه إما عبر التفجير الداخلي في لبنان وعرقلة كل فرص الحل السلمي للأزمة السياسية الداخلية عبر أدوار أميركية مفضوحة وضغوط على كل الأطراف الموالية في لبنان وكل الأطراف الإقليمية، وإما عبر تفجيرات أخرى داخلية في أكثر من دولة عربية ابتداءً من العراق وفلسطين ومروراً بالسودان، أو عبر تغذية حوافز الاستقطاب الإقليمي عبر ضغوط لتوريط دول عربية في مواجهة باتت شبه محتملة مع إيران. وربما تكون الحرب الإسرائيلية على سوريا بعد مناورات وزير الحرب الصهيوني الجديد إيهود باراك في الجولان هي الخطوة الأولى التي قد تسبق الحرب مع إيران. من هذه التحديات نركز على ما يلي:

١ - على المستوى الداخلي اللبناني حدث انقسام مبكر على «النصر» بين المقاومة والقوى الوطنية اللبنانية المساندة لها، وبين «فريق ١٤ آذار» الذي تمثله الحكومة برئاسة فؤاد السنيورة والقوى السياسية الداعمة ممثلة في سعد الحريري (تيار المستقبل) ووليد جنبلاط وسمير جعجع.

هذا الانقسام على النصر لم يكن جديداً لكنه ظهر منذ اللحظة الأولى للحرب عندما أعلن فؤاد السنيورة تبرؤه من مسؤولية هذه الحرب رداً على اتهامات إسرائيلية بتحميل الحكومة اللبنانية مسؤولية الحرب، ولكن مع اتساع الضربات الإسرائيلية خارج نطاق «الضاحية الجنوبية»

لبيروت حيث قيادة «حزب الله» وما يسمّى بـ «المنطقة الأمنية» إلى كل أنحاء لبنان، لم تستطع الحكومة أن تكون طرفاً مسانداً لإسرائيل في مثل هذه الحرب، وسعت إلى إنهائها بأسرع ما يمكن لتقليل حجم الخسائر والدمار، ثم بعد انتهاء الحرب يمكن فتح الملفات ومحاسبة من المسؤول عن الحرب. وعندما بدأ الخلاف حول مشروع القرار الدولي ومسألة إرسال قوات دولية إلى الجنوب، تحمّست الحكومة إلى هذه الدعوة وطالبت بإرسال الجيش اللبناني إلى الجنوب، وتصور فؤاد السنيورة أن «حزب الله» سوف يرفض هذا الطلب ومن ثم تبدأ عملية الانسحاب، ولكن موافقة «حزب الله» على إرسال الجيش فوّتت هذه الفرصة على «فريق ١٤ آذار» الحاكم الذي عجل بالمطالبة بنزع سلاح المقاومة، وهنا بدأ الصدام حيث رأى السيد حسن نصر في مثل هذا الطلب ودماء الشهداء لم تجف وجثث الضحايا ما زالت تحت الأنقاض خيانة للمقاومة(٥٨).

كان هذا الانقسام الداخلي على سلاح المقاومة مفجّراً للانقسام الحاد داخل الحكومة اللبنانية، وهو الانقسام الذي تطور فيما بعد إلى رفع المعارضة ممثلة في «حزب الله» وحركة أمل والتيار الوطني الحر بزعامة العماد ميشال عون والقوى السياسية المساندة للمقاومة دعوة استقالة الحكومة وتشكيل حكومة وحدة وطنية، لكن الحكومة ردّت بالمطالبة باستقالة رئيس الجمهورية، وربطت التغيير الحكومي بالتغيير الرئاسي. وتولى نبيه برى زعيم حركة أمل رئيس مجلس النواب مسؤولية إدارة حوار وطني داخلي، لكن الحوار وصل إلى طريق مسدود مما أدّى إلى انسحاب المعارضة من الحكومة ومن ثم الدعوة بافتقادها للشرعية الدستورية مما يحتّم استقالتها، في حين أصرّت الحكومة على البقاء، وربطت بين استقالة وزراء المعارضة، ورفض المعارضة لقانون تشكيل المحكمة الدولية في اغتيال رفيق الحريري الذي بادرت الحكومة بالموافقة عليه دون مشاركة الوزراء المستقيلين، ومن ثم كان نزول المعارضة إلى الشارع مطالبة بسقوط حكومة السنيورة(٥٩).

٢ - السعي لإضعاف «حزب الله» في المعادلة السياسية اللبنانية الداخلية. فقد ساهمت التطورات الداخلية اللبنانية بدرجة كبيرة في إعطاء فرص مواتية لإضعاف «حزب الله» داخل المعادلة السياسية اللبنانية ثم التوجه إلى تفكيك تحالفاته الإقليمية وعلى الأخص مع إيران، فقد كشفت تلك التطورات يوماً بعد يوم أن الظروف ليست مواتية أمام «حزب الله» أو إيران أو تحالفهما معاً على نحو ما كشفت النتائج الأولية للنصر، وهنا تتكشف مدى الجريمة التي ارتكبتها أطراف داخلية لبنانية بانقسامها على النصر، وهو الانقسام الذي امتد إلى انقسام على المقاومة وسلاحها وأيضاً على تحالفاتها وبالتحديد مع إيران وسوريا.

فقد رأى مساعد وزير الدفاع الأميركي لشؤون الدفاع الدولي بيكر رودمان لدى وصوله إلى بيروت قادماً من العاصمة الأردنية عمان أن إيران تشكّل «خطراً كبيراً» على واشنطن وعلى حلفائها العرب، وأن الحرب الإسرائيلية على لبنان أكّدت هذا الخطر، واعتبر أن الحرب

الإسرائيلية على لبنان ساعدت على توضيح هذه الصورة «الخطر الإيراني على المنطقة». ورأى أنه من أجل منع وقوع أزمة جديدة على الحكومة اللبنانية والجيش اللبناني أن يمارسا سيادتهما من خلال السيطرة على كامل البلاد بما في ذلك الجنوب»[٦٠]. وسبق هذا الموقف مطالبة من قوى ١٤ آذار لـ «حزب الله» أن يخرج من سياسة المحاور الإقليمية في إشارة إلى علاقته مع إيران وتلا ذلك اتهامات أميركية لإيران بانتهاك حظر السلاح المفروض على إيران[٦١].

هذا التوجه هدفه محاصرة التحالفات الإقليمية لـ «حزب الله» وعزله عن إيران، بعد أن عملوا على حجب النصر عنه ومن قبله عن الشعب اللبناني، وسعوا إلى نزع سلاح المقاومة في محاولة مستميتة إلى فرض معادلة توازن قوى داخلية جديدة، لا يكون لـ «حزب الله» فيها الدور الراجح، وفرض معادلة تحالفات إقليمية جديدة للبنان بعيدة عن كل من إيران وسوريا.

إضعاف «حزب الله» في المعادلة السياسية اللبنانية مرت بأشواط متعدّدة كان أهمها خلق انقسام شيعي حول «حزب الله»، وقد خرجت أصوات شيعية بالفعل تنزع صفة الولاية لـ «حزب الله» عن الشيعة في لبنان أو عن أجزاء مهمة منهم.

كان المأمول أن تحدث انتفاضة شيعية ضد «حزب الله»، لكن هذه الأصوات ذهبت دون تأثير مع مصداقية النصر ومصداقية مكانة «حزب الله»، الأمر الذي دفع بالولايات المتحدة وإسرائيل إلى التدخّل المباشر لتغيير الواقع السياسي اللبناني من منطلق الدعوة إلى عقد شراكة سياسية إسرائيلية - لبنانية. ففي خطابه أمام الكنيست الإسرائيلي (البرلمان) دعا إيهود أولمرت رئيس الحكومة لبنان إلى عقد حلف مشترك لمواجهة محور الشر[٦٢]. وتوافقت هذه الدعوة مع رؤية وزيرة الخارجية الأميركية لإمكانية أن تصبح إسرائيل ولبنان «شريكين في محاربة الإرهاب»[٦٣].

٣- التحديات التي تواجه العلاقات بين إيران وسوريا وتستهدف تفكيك روابط هذه العلاقات بعد أن أدركت الولايات المتحدة وإسرائيل صعوبة تصفية «حزب الله» وسوريا معاً، ومن هنا بدأ التفكير مبكراً بالإيعاز إلى عدد من الدول العربية الصديقة لبذل محاولات لإبعاد سوريا عن إيران والوقوف ضد «حزب الله»، وتشكيل «تحالف عربي» جديد ضد الإرهاب لتعزيز مسيرة ما يسمّى بـ «الشرق الأوسط الجديد»، دون اضطرار أميركي لفتح حوار له حساباته مع دمشق، ودون إجبار إسرائيل على الدخول إلى هذا الخط ومن ثم تقديم تنازلات لسوريا قد لا تكون مستعدة لتقديمها[٦٤].

فقد نقلت صحيفة «نيويورك تايمز» الأميركية عن عدد من مساعدي الرئيس بوش أن «الخطة تقتضي بأن تمارس السعودية ومصر ضغوطاً على سوريا من أجل دفعها إلى التخلّي عن علاقاتها مع «حزب الله» وإيران». وقال أحد هؤلاء المسؤولين: «المهم أن يوضحوا لهم (السوريين) أنه إذا

سارت الأمور على نحو سيئ في الشرق الأوسط فإن الإيرانيين لن يكونوا سنداً يعتمد عليه»(٦٥)؛ ونقلت صحيفة «صنداي تليجراف» البريطانية عن مسؤولين أميركيين قولهم إن بوش «يعتزم بناء مظلة من الحلفاء العرب ضد «حزب الله» وإيران»(٦٦).

فشل هذه الخطة أخذ يدفع الإسرائيليين وعلى الأخص الجنرالات منهم إلى مغازلة السوريين، وافتعال خلافات مع غيرهم من كبار السياسيين حول هذا التوجه، في محاولة لإكساب مسعى التقرب من دمشق قدراً من الجدية. فعندما أوصى رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية عاموس يدلين بالتفاوض مع سوريا وإجراء فحص جدي حول استعداد الرئيس بشار لذلك(٦٧)، وعندما دعا عمير بيريتس وزير الدفاع السابق إلى التفاوض مع سوريا مقابل مساعدتها في إطلاق شاليت(٦٨)، رفض إيهود أولمرت رئيس الحكومة هذه الدعوة(٦٩)، ودخلت كوندوليزا رايس على الخط واتهمت سوريا بأنها «دولة خطيرة تتصرف بشكل خطير»، بينما رأى إيهود أولمرت أن الرئيس بشار الأسد «ليس نظيف الكفين(!!)»(٧٠).

هذه المحاولات لم تفلح حتى الآن مع سوريا (دعوة ايهود أولمرت يوم الاثنين ٩ يوليو/ تموز ٢٠٠٧ للرئيس بشار الأسد بإجراء مفاوضات مباشرة في أي مكان يختاره اختبار مهم لهذه السياسة) لكن يبقى الاختبار الحقيقي للموقف السوري في العراق. فزيارة وزير الخارجية السوري وليد المعلم لبغداد وتوقيعه اتفاق عودة العلاقات الدبلوماسية الكاملة مع نظيره العراقي هوشيار زيباري وإعلانه موقفاً بخصوص خروج القوات الأميركية من العراق أقرب ما يكون إلى موقف الحكومة العراقية يحمل مؤشرات تغير في الموقف السوري في انتظار خطوة أميركية جادة للحوار مع إيران وسوريا(٧١) حول العراق، لكن يبقى السؤال: إلى أي مدى يمكن أن يؤدي الانفتاح السوري على العراق وعلى المبادرات الأميركية إلى اهتزاز في علاقة التحالف السوري - الإيراني؟

سؤال مهم تحمل إجابته واحدة من أهم التداعيات المحتملة على إيران بهذا الخصوص، خصوصاً بعد اعتذار الرئيس بشار الأسد عن حضور قمة ثلاثية في طهران مع الرئيسين الإيراني محمود أحمدي نجاد والعراقي جلال طالباني(٧٢)، لكن تعمّد الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد زيارة دمشق ليكون أول المهنئين بتجديد ولاية الرئيس بشار الأسد تؤكّد من ناحية أخرى أن العلاقة بين سوريا وإيران ما زالت صامدة، وأن التعاون العسكري بينهما يشهد تطورات مهمة بما يعني وجود وعي مشترك سوري - إيراني بأهمية استمرار جدية الرهان المشترك على العلاقات بينهما.

٤- تزايد خطر الحرب المذهبية والاستقطاب الإقليمي، لقد كان الهدف الأساسي من الحرب الإسرائيلية على لبنان في صيف العام الماضي (٢٠٠٦) هو فرض نظام «الشرق الأوسط الجديد» الذي بشرت به كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الأميركية في أوج تلك الحرب، ولكن الانتصار

الذي حققته المقاومة أفشل، بدرجة كبيرة، المضمون الأساسي لهذا النظام وهو فرض الحرب المذهبية الطائفية وفرض استقطاب إقليمي جديد يقسم العالم العربي - الإسلامي إلى محور للاعتدال وآخر للشر. فقد أعلى هذا الانتصار من مكانة «حزب الله» وأمينه العام السيد حسن نصر في الشارع السياسي العربي الذي وجد ضالته في سماحته كزعيم عربي قادر على مقاتلة إسرائيل والانتصار عليها. عندها سقطت ورقة وصم «حزب الله» بالطائفية السياسية وتداعت معها مؤامرة إحداث انشطار وانقسام في الشارع العربي حول الحرب وحول النصر على غرار الانقسام الذي حدث في لبنان.

حدث هذا كله وما زالت أصداؤه قائمة لكنه لا يعني أن المخطط قد توقف، وبالتحديد مخطط الحرب المذهبية والطائفية والاستقطاب الإقليمي الجديد على أسس مذهبية وطائفية. ربما يكون الانتصار عرقله وقيده، لكن إلى حين، فما زالت الأخطار قائمة خصوصاً بعد أن أدرك الأميركيون مدى أهمية «سلاح الحرب المذهبية في العراق بين السنة والشيعة». لقد فشل الأميركيون في الانتصار على العراق من خلال شن الحرب عليه، لكنهم متفائلون بكسب الحرب على العراق من الداخل من خلال تفجير الحرب الأهلية وجعلها سلاحاً قابلاً للاستعمال في أغلب الدول العربية والإسلامية، وبدلاً من أن تكون الديمقراطية هي المأمول تصديره للعرب تحت شعار «الشرق الأوسط الجديد» أصبحت الحرب الأهلية الطائفية والعرقية هي النموذج المأمول تصديره من العراق إلى جواره العربي والإسلامي تحت راية «الشرق الأوسط الجديد».

ففي أواخر مارس/ آذار ٢٠٠٦ أوفدت صحيفة «لوموند» الفرنسية موفداً إلى بغداد لدراسة جوانب الوضع العراقي خاصة احتمالات الحرب الأهلية. وبعد أيام كان الموفد يرسل أول تقاريره مشفوعاً بالخلاصة التالية: «أميركا في العراق (وبالتالي في باقي الشرق الأوسط الإسلامي) اكتشفت سلاحاً أخطر من أسلحة الدمار الشامل: الحرب المذهبية داخل الإسلام بين السنة والشيعة»[٧٣].

هناك من يعتقد الآن أن السؤال لم يعد: هل ينجح الغرب في تفجير اللغم السني - الشيعي في العالم الإسلامي؟، لكن السؤال الأهم والأكثر واقعية هو: متى؟ أي متى يحدث هذا التفجير الذي يراه البعض خطراً ماثلاً بل ومؤكداً؟

الشواهد على ذلك كثيرة الآن، وخاصة اقتران الدفع بتفجير هذا اللغم بالتركيز على ما يسمّى بـ «الخطر الإيراني» وربط دعوة «الهلال الشيعي» بهذا الخطر الإيراني، والتعامل مع إيران باعتبارها «العدو» البديل لإسرائيل.

لقد كشفت وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني عن مضمون هذه السياسة بإعلانها أن إسرائيل سوف تتعاون مع ما أسمته بـ «التحالف السني»[٧٤]. فإذا ربطنا بين هذه الصفة

الطائفية للدبلوماسية الجديدة وبين الإعلان عن الربط بين تحريك عملية السلام والملف النووي الإيراني خلال جولتين سابقتين لوزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس، سنجد أن واشنطن وتل أبيب قد شرعتا فعلاً في فرض نظام الشرق الأوسط الجديد القائم على أسس ثلاث هي: أن يتوارى الصراع العربي - الإسرائيلي كمحدّد لأنماط العلاقات والتحالفات الإقليمية، وأن يحل الصراع العربي - الإيراني بديلاً للصراع العربي - الإسرائيلي، وأن يتم التركيز على الصراع السني - الشيعي كمدخل نموذجي لفرض هذا الصراع البديل.

تصريحات ليفني كشفت أبعاد هذا التوجه الجديد عندما حدّدت الحكومات العربية التي يتوجب على إسرائيل التعاون معها، وهي:«الحكومة اللبنانية برئاسة فؤاد السنيورة، والرئيس الفلسطيني محمود عباس، والأنظمة في مصر والسعودية والأردن والإمارات»، وأكّدت أن على إسرائيل أن تتعاون مع «التحالف السني»، هناك من سبق الوزيرة الإسرائيلية بالحديث عن «الهلال الشيعي»، وهناك من تحدث عن «هلال الأزمات»، والمحصّلة أن ترتيبات جديدة يجري الإعداد لها، من أجل التوصّل إلى تفاهمات للشروع في فرض هذه الترتيبات[٧٥].

لقد كان العاهل الأردني عبد الله بن الحسين أول من حذر من خطر «الهلال الشيعي». وكان مبادراً في التحذير من «تنامي النفوذ الإيراني» في المنطقة، ومن خطر هذا النفوذ الإيراني والأصولية الإسلامية على احتمالات السلام بسبب ما يؤدّيان إليه من «الاضطراب الإقليمي»[٧٦]. الملك عبد الله الثاني لم يكتف بذلك، بل إنه بادر بدعوة ديك تشيني خلال زيارته للعاصمة الأردنية في جولة شملت عدداً من الدول العربية في مايو الماضي (٢٠٠٧)، إلى دعم المصالحة العراقية ووقف نفوذ إيران[٧٧].

وإذا كان توني بلير رئيس الوزراء البريطاني السابق قد حذر من «قوس التطرف» في الشرق الأوسط، ودعا كلاً من سوريا وإيران إلى «وقف دعمهما للإرهاب وإلا سيتم مواجهتهما»[٧٨]، فإن مارتن إنديك مستشار الشرق الأوسط السابق في مجلس الأمن القومي الأميركي والسفير الأميركي السابق في إسرائيل دعا إلى «شراكة مصالح» بين إسرائيل والعالم العربي السني، ونصح إيهود أولمرت رئيس الحكومة الإسرائيلية بالابتعاد عن سوريا وتركيز الجهود الإسرائيلية لتعزيز ما أسماه بـ «الحلف الصامت» القائم بينها وبين العالم العربي السني، وطالب إسرائيل أيضاً ببذل الجهود من أجل إبرام اتفاق سلام مع الحكومة اللبنانية[٧٩].

إنديك لم يكتف بهذا، ولكنه في مقابلة مهمة مع صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية خلص من تحليله لتجربة الحرب الإسرائيلية على لبنان في صيف ٢٠٠٦، بأن هذه الحرب «ألقت ضوءاً على المخاطر التي تواجه العالم العربي السني من المحور الشيعي بقيادة إيران الذي يضمها مع العراق وسوريا ولبنان، حيث تخضع الحكومة العراقية للسيطرة الشيعية وحيث يسيطر الشيعة

العلويون على الحكم في دمشق، وحيث يفرض «حزب الله» نفسه بقوة على السياسة اللبنانية».

هذه الحالة وهذا الخطر مفاده - من وجهة نظر إنديك أنه «ينتج عملياً مصلحة مشتركة للعالم العربي السني مع إسرائيل»[٨٠].

٥- زيادة احتمالات حدوث حرب في هذا الصيف الساخن سواء بين إسرائيل و«حزب الله» أو بين إسرائيل وسوريا، أو حرب أوسع أمريكية - إسرائيلية ضد إيران، خصوصاً في ظل الضغوط الأميركية على إيران، والتلويح بالحل العسكري على نحو ما هددت وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس بقولها: إن العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران «تزداد صعوبة مع بلد تتفاقم خطورته»، وتأكيدها أن الرئيس جورج بوش «لا يستبعد أي خيار على الطاولة»[٨١]، كما تتزايد احتمالات هذه الحرب أيضاً بعد تكليف إيهود أولمرت رئيس الحكومة الإسرائيلية لوزير الشؤون الاستراتيجية افيجدور ليبرمان بمسؤولية «إحباط البرنامج النووي الإيراني والتنسيق بين الأجهزة الأمنية والسياسية الإسرائيلية المعنية وإعداد خطة عمل وطنية لذلك»[٨٢].

يأتي تداخل سيناريوهات حل الأزمة السياسية اللبنانية وتعقدها، وعجز الحل العربي والإقليمي، ومناورات إيهود باراك وزير الحرب الإسرائيلي الجديد في هضبة الجولان ليزيد من نذر خطر الحرب التي لا يعرف أحد من أين ستبدأ أو متى، لكن ما هو معروف هو أن الأوضاع الراهنة الملتبسة لا يمكن أن تستمر دون حسم، وليس لهذا كله غير معنى واحد هو أن الأخطار ما زالت مستمرة، وأن انتصار المقاومة في صيف ٢٠٠٦ لم يغلق أبواب الخطر، بل ربما يكون العكس هو الصحيح وهو أنه فتح هذه الأبواب على مصراعيها ولا يدري أحد لا متى ولا كيف ستغلق.

ففي مقابلة مع صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية خلال الحرب الإسرائيلية على لبنان في الصيف الماضي اعتبرت ميراف وورمسر مديرة مركز الدراسات الشرق أوسطية في معهد هادسون الأميركي والعضو المؤسّس في معهد الدراسات الإعلامية للشرق الأوسط «ميمري» أن حزب الله هزم إسرائيل، وكانت المرة الأولى التي تهزم فيها إسرائيل»، وفيما تفاخرت بأن المحافظين الجدد التي هي من زعمائهم «مسؤولون عن أن إسرائيل حصلت على وقت أكبر خلال هذه الحرب»، فإنها أكّدت أن «الفكرة الأساسية كانت أن إسرائيل يجب أن تواجه العدو الحقيقي الذي يدعم «حزب الله».. من الواضح أنه لا يمكن مواجهة إيران بشكل مباشر، لكن الفكرة أنه يجب ضرب حليفها المهم والاستراتيجي، سوريا.. من الصعب على إيران تصدير الثورة الشيعية من دون سوريا، التي تعد آخر بلد عربي قومي»[٨٣]، وقبل أن تكشف وورمسر هذه النوايا كانت قد لخّصت خلال منتدى حول سمستقبل إيران في واشنطن (مايو ٢٠٠٣) أجندة المحافظين الجدد التي بدأت بالحرب على العراق بقولها: «لم تكن حربنا في العراق إلا جولة من حرب طويلة، من الخطأ الظن أن أهدافنا تقف عند العراق.. يجب أن تستمر وبسرعة أكبر»[٨٤].

حرب واسعة ومستمرة وسريعة.. هذه هي حال المنطقة الآن لكن هذا لا يعني أن المخططات سوف تنجح، فالسقوط في العراق وبعده لبنان كمشروعات أميركية في الشرق الأوسط يكشف ويؤكد أن هذا الشرق الأوسط كان دائماً وسيبقى مقبرة لهذه المشروعات شرط أن تكون هناك قوى فاعلة ومبادرة ومتحالفة وواعية لمواجهتها.

الهوامش:

(1)- Rebuilding America_s Defenses Strategy, Forces and Resources for a new Century : Areport to the Project for New American Century, September 2000, P.14, http: //www. New american Century. Org/ Rebuilding America_s Defense Pdf.

(2) دانا ميلبانك ومايك ألن، «المسؤولون الأمريكيون يتخلون عن تبرير أسلحة الدمار الشامل ويركزون على منطق مختلف: استخدام العراق كحجر زاوية لإعادة صياغة الشرق الأوسط»، خدمة واشنطن بوست، الشرق الأوسط، ٢-٨-٢٠٠٣.

(3) المرجع السابق .

(4) عاطف الغمري، «خط المواجهة يتحرك إلى الداخل»، الخليج، ٢٠٠٣٥٢١ .

(5) المرجع السابق.

(6) ويليام بيرنز، «التغيير الديمقراطي والسياسة الأميركية في الشرق الأوسط»، الحياة، ٢٠٠٣٥٢٠ .

(7) المرجع السابق.

(8) المرجع السابق، ص١٨.

(9) المرجع السابق، ص ٢٠.

(10) إنعام رعد، الصهيونية الشرق أوسطية والخطة المعاكسة، (بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٧)، ص٦٢.

(11) د. ماجد شدود، النظام الإقليمي الشرق أوسطي، (دمشق، مطبعة اليازجي، ١٩٩٦)، ص١٤.

(12) د. غازي حسين، الشرق الأوسط الكبير بين الصهيونية العالمية والإمبريالية الأميركية:
WWW. Awu - dam. Org/ book/ 05/ study/ 05/318- AH/ book 05-sa 003- htm.

(13) د. محمد السعيد إدريس، «مشروع الشرق الأوسط الكبير وآثاره الاجتماعية والثقافية على منطقة الخليج»، معهد الدراسات السياسية والدولية - المؤتمر الدولي الخامس عشر للخليج «الفارسي» - طهران، ٢١ مارس ٢٠٠٥.

(14) خالد محمود، «درجة غليان.. تشترك فيها إدارة بوش ومجموعة الثماني والأوروبي والناتو: الشرق الأوسط الكبير أحدث خطط تدجين المنطقة»، البيان، ٢٠٠٤٣٢.

(15) خالد محمود، «يجرد الجيوش من جنودها ويختطف تطلعات الشعوب - قراءة في مشروع الشرق الأوسط الكبير»، البيان، ٢٠٠٤٣٢٥.

(16) المرجع السابق.

(17) د. محمد السعيد إدريس، مشروع الشرق الأوسط الكبير وآثاره الاجتماعية والثقافية على منطقة الخليج، مرجع سابق.

(18) راجع بهذا الخصوص:

منى يعقوبيان، الترويج للديمقراطية في الشرق الأوسط - المبادرات الأوروبية في:

Special Report- United States institute of Peace: WWW. Usip. Org.

انظر أيضاً:

عبد الصمد بن شريف، «منتدى المستقبل يؤكد على خصوصية المنطقة العربية وإصلاحات نابعة من الداخل ولشراكة على قدم المساواة»، الخليج، ٢٠٠٤١١١٠.

حاتم البيطيوي وأحمد الأرقام، «اختتام منتدى المستقبل بالرباط.. والبحرين تستضيف الدورة الثانية»، الشرق الأوسط، ١٢-١٢-٢٠٠٤.

(19) مصطفى بكري، «تل أبيب تصنع إطار خريطة الهندسة السياسية لمشروع الشرق الأوسط الكبير»،٢٠٠٥. عام

الفزع العربي والبقية تأتي (٢٢١)، الأسبوع، العدد ٤٠٩، ١٧-١-٢٠٠٥.

[20] راجع على سبيل المثال:

Amy Hawthome, "Political Reform in the Arab World: aNew Ferment?" Carnegie Parpers, Middle East Series, No. 52, October 2004.

[21] راجع بهذا الخصوص:

G John Ikenberry, "Illusions of Empire: Defining the American Order", Foreign Affairs, Vol. 83, No. 2, March/ April 2004.

Phyllis Bennis, "Going Global: Building a Movement against empire", Foreign policy in Facus, May 2003.

[22] حنان البدري، «أفكار ما بعد الشرق الأوسط الكبير»، ملف الأهرام الاستراتيجي، السنة العاشرة، العدد ١١٧، سبتمبر ٢٠٠٤، ص ١٠٣-١٠٥.

[23] تقرير سيمور هيرش في «نيويوركر»: مشكلة العسكريين مع سياسة بوش حيال إيران، السفير، ٤-٧-٢٠٠٦.

- نيويوركر: نموذج كوسوفو في لبنان تمهيد إسرائيلي لحرب أمريكية على إيران، السفير، ١٥-٨-٢٠٠٦.

[24] الصراع بشمل سوريا وإيران - بوش: جبهة لبنان في الحرب على الإرهاب، السفير، ١٥-٨-٢٠٠٦.

[25] منير الماوري، «بوش: الحرب في لبنان جزء من معركة أوسع بين الحرية والإرهاب»، الشرق الأوسط، ٢٠-٨-٢٠٠٦.

[26] د. شفيق المصري، «لبنان وسوريا مطالبان بالتحرك لتطويق الأهداف الأميركية - الإسرائيلية: القرار ١٥٥٩، قراءة قانونية وسياسية»، الخليج، ٢٠٠٤٩٢٠.

[27] راجع حول تفاصيل هذا الاستقطاب الداخلي اللبناني عقب جريمة اغتيال رفيق الحريري في ١٤/٢/٢٠٠٥:

د. أحمد برقاوي، «تداعيات القرار ١٥٥٩ على المنطقة العربية سياسياً واستراتيجياً».www. P-s- news.com

[28] الحرب الإقليمية في لبنان: رسم الأدوار بالنار، الحياة، ٢٠٠٦٨٦.

[29] المرجع السابق.

[30] نظير مجلى، «إسرائيل تطلب من واشنطن خطة لتصفية محور الشر»، الشرق الأوسط، ١٥-٧-٢٠٠٦.

[31] سلامة نعمات، «بوش عقد اجتماعات مع أركان إدارته حول «قوس الأزمة» في الخليج والشرق الأوسط- واشنطن متمسكة بنزع سلاح «حزب الله» والتصدي لسوريا وإيران»، الحياة، ٢٠٠٦٨١٥.

[32] الصراع بشمل سوريا وإيران - بوش: لبنان جبهة في الحرب على الإرهاب، السفير، ١٥-٨-٢٠٠٦.

[33] بوش: إيران والقاعدة وجهان مختلفان لتهديد واحد:

.moc.nnc.cibara.www 6/9/2006

[34] راجع نص تقرير «واين مادسن» في صحيفة السفير اللبنانية تحت عنوان: «تشيني أعطى نتنياهو وشارانسكي الضوء الأخضر لشن الحرب على لبنان»، السفير، ٢٠٠٦٨١٣.

[35] راجع نص تقرير سيمور هيرش في صحيفة السفير تحت عنوان: «نيويوركر: نموذج كوسوفو في لبنان تمهيد لحرب أمريكية على إيران»، السفير، ٢٠٠٦٨١٥.

[36] حنان البدري: «تفاصيل كشفها السفير عماد مصطفى: تشيني غاضباً.. أخرجنا السوريين وفشل اللبنانيون فتركنا لإسرائيل مهمة نزع سلاح حزب الله»، الخليج، ٢٠٠٦٨٣.

[37] د. أحمد يوسف أحمد، «التداعيات العربية»، ضمن ملف بعنوان: «الحرب الإسرائيلية على لبنان وتداعياتها»، المستقبل العربي، العدد ٣٣٢، أكتوبر ٢٠٠٦، ص٤٩.

[38] بري : مقترحات رايس مرفوضة لأنها تتعارض وأولويات لبنان. www.arabic.cnn.com 25/7/2006.

[39] طلال سلمان، «ما لم تأخذه إسرائيل حرباً لن تأخذه واشنطن بالإرهاب»، السفير، ٥-٨-٢٠٠٦.

[40] صالح النعامي، «مشروع قرار وقف النار.. صنع في إسرائيل»، إسلام أون لاين، ٦-٨-٢٠٠٦.

[٤١] القنابل «الذكية» لقصف قيادات «حزب الله» ستنقل من قطر إلى إسرائيل، الشرق الأوسط، ٢٤-٧-٢٠٠٦.

[٤٢] تل أبيب: واشنطن تضغط علينا للقيام بعملية عسكرية لتصفية حسن نصر الله لصرف الأنظار عن الإخفاقات الأميركية في العراق، القدس العربي، ١٨-٧-٢٠٠٦.

[٤٣] المرجع السابق.

[٤٤] منير الماوري، «رايس: «حزب الله» سيهزم عسكرياً وسياسياً، ولن يعود الوضع السابق إلى ما كان عليه»، الشرق الأوسط، ٢٠٠٦٨٣.

[٤٥] راجع :

- د. محمد السعيد إدريس، «تحالفات جديدة طائفية»، الخليج، ٤-١٠-٢٠٠٦.
- طلال سلمان، «مهمة رايس العربية - محاصرة النصر بدل الخوف منه»، السفير، ٣-١٠-٢٠٠٦.
- رايس تتناول إفطاراً رمضانياً مع ٨ وزراء عرب والنقاش يركز على مواجهة «حزب الله» وحماس، السفير، ٤-١٠-٢٠٠٦.

[٤٦] ليفني تأمل بالتعاون مع «التحالف السني»، السفير، ٣٠-٩-٢٠٠٦.

[٤٧] ملك الأردن قلق على مستقبل الشرق الأوسط، بي بي سي العربية، ٨-٨-٢٠٠٦.

- سعود الفيصل: علينا الاقتناع بأن طموحاتنا الوطنية والقومية لن تتحقق عبر قوى خارجية إقليمية أو دولية، الشرق الأوسط، ٨-٨-٢٠٠٦.

[٤٨] حلمي موسى، «أولمرت يريد حلف مع لبنان لمواجهة الشر»، السفير، ٢٠٠٦٧١٨.

[٤٩] يوسف القعيد، «يحدث في مصر الآن: حدود الدم»، جريدة الأسبوع، العدد ٤٩١، ٢٠٠٦٨٢١.

- خالد عويس، «حديث عن دول طائفية وعرقية جديدة في العالم العربي»،

WWW. Alarabia. Net/ Articles aspc / 22/8/2006.

[٥٠] يوضح الكاتب الأميركي توماس فريدمان المقصود بذلك في دعوته إلى إعادة ترسيم الحدود في المنطقة بما يتوافق مع التركيبة العرقية والطائفية منتقداً التقسيم البريطاني - الفرنسي السابق الذي لم يستهدف مصالح شعوب المنطقة بقدر ما استهدف مصالح الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية. انظر:

توماس فريدمان، «الشرق الأوسط: تعالوا نعريه.. قبل إعادة ترسيمه»، (خدمة نيويورك تايمز)، الشرق الأوسط، ١٠-١-٢٠٠٥.

[٥١] أولمرت يتهم رئيس أركانه بتضليله خلال الحرب، الشرق الأوسط، ٩-٩-٢٠٠٦.

راجع في تفاصيل أزمة إسرائيل السياسية - العسكرية بعد الحرب في: «بركان في إسرائيل - الضربة القاضية التي تلقيناها»، العربي (الناصري)، العدد ١٠٢٢، ٢٨-٨-٢٠٠٦.

[٥٢] ضرب البارجة الحربية يحدث تخبطاً آخر في الجيش الإسرائيلي، الشرق الأوسط، ١٦-٧-٢٠٠٦.

[٥٣] إطاحة قائد منطقة شمال إسرائيل تهدد بـ «حرب جنرالات» تطال سياسيين، الحياة، ١٠-٨-٢٠٠٦.

[٥٤] العدوان على لبنان كلف إسرائيل ٥,٧ مليارات دولار، الجزيرة نت، ١٥-٨-٢٠٠٦.

[٥٥] الخليج، ٢٥-٨-٢٠٠٦.

[٥٦] القدس العربي، ٣٠-١١-٢٠٠٦.

[٥٧] نظير مجلي، «مخاوف في تل أبيب من تمرد جنرالات على القرار ١٧٠١، وليفني تطالب بنزع سلاح «حزب الله»، الشرق الأوسط، ١٤-٨-٢٠٠٦.

[٥٨] د. محمد السعيد إدريس، «إيران والحرب الإسرائيلية على لبنان» ورقة غير منشورة قدمت إلى ندوة تداعيات الحرب الإسرائيلية - اللبنانية، مستقبل الشرق الأوسط، جامعة القاهرة، مركز البحوث والدراسات السياسية، المؤتمر السنوي العشرون، ٧٥ ديسمبر ٢٠٠٦.

[٥٩] المرجع السابق.

(٦٠) مساعد رامسفيلد اليوم في بيروت: حرب لبنان أكدت الخطر الإيراني، السفير، ٩-١١-٢٠٠٦.

(٦١) قوى ١٤ آذار تدعو «حزب الله» إلى الخروج من سياسة المحاور الإقليمية وتنفيذ القرار ١٧٠١، الشرق الأوسط، ٢٩-٨-٢٠٠٦.

(٦٢) حلمي موسى، «أولمرت يريد حلف مع لبنان لمواجهة محور الشر»، السفير، ١٨-٧-٢٠٠٦.

(٦٣) رايس: «لبنان وإسرائيل شريكان في محاربة الإرهاب»، السفير، ١٦-٩-٢٠٠٦.

(٦٤) تحرك أميركي لعزل سوريا عن إيران و«حزب الله»: إقامة تحالف مع أنظمة عربية ضد الإرهاب، السفير، ٢٤-٧-٢٠٠٦.

(٦٥) المرجع السابق.

(٦٦) المرجع السابق.

(٦٧) آمال شحادة، «الاستخبارات الإسرائيلية توصي بالتفاوض مع سوريا»، الخليج، ١٣-١-٢٠٠٦.

(٦٨) آمال شحادة، «بيرتس يدعو إلى التفاوض مع سوريا مقابل مساعدتها على إطلاق شاليت»، الخليج، ٤-١١-٢٠٠٦.

(٦٩) أولمرت يرفض توصية الاستخبارات العسكرية بمحاورة الأسد، الشرق الأوسط، ١٤-١١-٢٠٠٦.

(٧٠) المرجع السابق،

(٧١) زيباري والمعلم يعلنان عودة العلاقات بعد انقطاع ربع قرن، الشرق الأوسط، ٢٢-١١-٢٠٠٦.

(٧٢) إبراهيم حميدي، قمة الأسد - نجاد - طالباني «قيد الدرس» وأنان يعتبر واشنطن محاصرة، الحياة، ٢٢-١١-٢٠٠٦.

(٧٣) راجع تفاصيل هذا كله في:

سعد محيو «هكذا تخطط أمريكا لتفجير الحرب الأهلية المذهبية في المنطقة - الفتنة الكبرى - ٢ - ، مجلة «الرأي الآخر»، بيروت، العدد الأول، أكتوبر/ تشرين ٢٠٠٦ - ص ٤٢٢٨.

(٧٤) د. محمد السعيد إدريس، «تحالفات جديدة طائفية»، الخليج، ٤-١٠-٢٠٠٦.

(٧٥) ليفني تأمل بالتعاون مع التحالف السني، السفير، ٣١-٩-٢٠٠٦.

(٧٦) عاجز عن قراءة الخريطة الإقليمية: ملك الأردن يحذر من تنامي نفوذ إيران، السفير، ١٢-١٠-٢٠٠٦.

(٧٧) العاهل الأردني يدعو تشيني لدعم المصالحة العراقية ووقف نفوذ إيران، الشرق الأوسط، ١٥-٥-٢٠٠٧.

(٧٨) بلير يحذر من «قوى التطرف» في الشرق الأوسط،

BBCARABIC.com 2/8/2006.

(٧٩) حلمي موسى، إنديك يتحدث عن «شراكة مصالح» بين إسرائيل والعالم العربي السني، السفير، ٢٩-٨-٢٠٠٦.

(٨٠) المرجع السابق.

(٨١) رايس: خطر إيران يتفاقم، السفير، ٧-٧-٢٠٠٧.

(٨٢) أولمرت يكلف ليبرمان إحباط المشروع النووي الإيراني، الأخبار (اللبنانية)، ٢-٧-٢٠٠٧.

(٨٣) البرنامج يشمل القضاء على سوريا وشيعة جنوب لبنان - المحافظون الجدد: إيران جسر العودة، السفير، ٥-٦-٢٠٠٧.

(٨٤) المرجع السابق.

الانتصار في الأدبيات المحلية سياسياً وإعلامياً

الباحث والمحلل السياسي
أ. نصري الصايغ (لبنان)

I- مقدمات لا بدّ منها:

١- لم يكتمل عام الانتصار الثاني، الوعد الصادق (تموز- آب ٢٠٠٦). كان متوقعاً أن يكون عاماً ممتلئاً بالعبر والدروس، أن يكون زمناً جديداً، يؤسّس لتاريخ قادم، يختلف عن البؤس التاريخي السالف. كان يجب أن تكرّس فيه المؤسّسات اللبنانية والعربية، جهد البحث عن الجديد في هذا الزمن، وليس استعادة ما خلّفته عبقرية التخلي، كان من المفترض أن تكون المقاومة عنوان المستقبل، غير أن الزمن القديم، دخل حقبة زمن الانتصار واستعاد مقولات الانحطاط، أفضى إلى حذف المقاومة من مقام السؤال، وأنزله إلى موقع الاتهام والتجريح.

٢- ولا بدّ من تحية، في ذكرى مأزومة. تحية تقال بلغة أخرى: سنلتقي في فلسطين، موعد الانتصار الأخير. وتحية للمقاومين الذين ما زالوا يتشبثون بوهج الجمر الجميل، مخلفين لأصحاب الأجنحة المتكسّرة، رماد الانتظار ورهانات الانكسار «البتاء».

٣- «الانتصار في عيون الآخرين» يزدوج. فعيون تراه هبة نضالية مستحقة بجدارة الإيمان والتجسيد والقيامة الممكنة. وعيون تراه وتنكره، وتكيل له كلام الفتنة، وقيم التبخيس، وافتتاناً مرضياً، يوقظ أحقاداً تاريخية، من عمر الجاهليتين الأولى والمستحدثة.

II- عناوين:

لأن المداخلة ستقتصر على ما حملته وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة، ولأن ما أثارته هذه الوسائل، يتسع ويتشابك ويتناقض. كان لا بدّ من اختيار أبرز العناوين التي أثارتها حرب تموز وكيف نشرت وتجسدت في وسائل الإعلام هذه وفي أدبياتها السياسية.

وتقتصر المداخلة على العناوين التالية:

١- الذريعة في مواجهة خطة العدو.

٢- قرار الحرب والسلم.

٣- لخدمة من هذه المعركة؟

٤- يوميات المعارك.

٥- من يرث الخراب؟

٦- المساءلة والتشكيك بالانتصار.

٧- هتك المقدّسات القيمية.

٨- التمذهب والتطييف.

ومن المؤسف، أن الظرف لإجراء هذا البحث، لا يتوفر الكثير منه للتقميش في أرشيف حديث، مرئي ومسموع. لذا كان عليّ، أن أعود إلى أوراق وقصاصات ومذكّرات خاصة. كنت قد سجلتها أثناء الحرب وبعدها. واجتهدت ألا ألقي أحكاماً مبرمة، بسبب افتقاري إلى مراجع ومصادر مؤرشفة ومبوبة ومخزنة بطريقة منهجية.

III- تصنيف:

الخريطة الإعلامية واضحة المعالم. يتوزع الإعلام المرئي والمكتوب في لبنان والعالم العربي على:

١- الأنظمة الحاكمة الرسمية.

٢- حواشي الأنظمة الحاكمة.

٣- القوى السياسية/ الطائفية.

٤- مؤسسات تتمتع باستقلال نسبي، بسبب ميول أصحابها أو طوائفهم واضطرارهم إلى سلوك طريق التنازلات، بهدف استدرار المساهمات المالية، المقيدة بالسياسة.

ولا بدّ من ملاحظة، أن هامش الاستقلال يتسع في أزمنة السلم. أما في أزمنة الحرب والحسم والمعارك فيغلب طابع الانتظام والالتزام. ويحدث ذلك إما بالقوانين أو بالتعسّف والإكراه، وأما بطبيعة الأمور نفسها. فأول ضحايا الحرب، هو الإعلام. المسموح فيه تقرره القيادات العسكرية، والممنوع فيه إذا خُرق خضع لمساءلة اتهامية. فحرب الخليج الثانية، كأنها لم تقع؛ لأن المنع كان شاملاً. وفي عدوان تموز، كان المنع من الجانب الإسرائيلي شبه مبرم؛ لأسباب عسكرية ومعنوية. الإعلام في لبنان، من جهة الميدان اللبناني، تمتع بحرية غير مسبوقة في الحروب. أتيح له أن يرى ويصور ويقول ويكتب ويعبر. وهو ما لم تقبل به الولايات المتحدة الأميركية التي كانت تمنع حتى الصحف المحلية، من وضع صورة عن حرب العراق في الصفحات الأولى. العمى وحده مشرّع. الرؤية مبرمجة وفق مختصر يتولى توزيعه على العالم مسؤول إعلامي، لا يمكن التأكد مما يقوله أو يصرّح به.

IV- الذريعة:

أثار الإعلام اللبناني والعربي، المنتمي إلى «فريق المسالمة»، مسألة تقديم الذريعة لإسرائيل

في محاولة لتحميل المقاومة مسؤولية استدعاء إسرائيل لشنّ حرب مدمرة على لبنان، وللتنصل من مسؤولية الوقوف إلى جانب المقاومة، أو لتبرير منطق عدم لوم إسرائيل على ما تقوم به.

وقدمت هذه الوسائل حججاً تتماهى مع حجج العدو الإسرائيلي من حيث التفسير. فإسرائيل اعتدي عليها. عبرت المقاومة الخط الأزرق الدولي. اختطفت جنديين من خارج منطقة شبعا. قتلت عدداً من الجنود الإسرائيليين. ثم ألم تدرك المقاومة حجم الرد الإسرائيلي على الفلسطينيين بعد اعتقال الجندي الإسرائيلي شاليط؟ ألا تعرف الثمن الباهظ الذي دفعته فلسطين؟

التركيز على هذا المنطق سهل للحكومة، في بيانها الأول، عملية التنصل من المسؤولية. فالحرب ليست حربها. الذريعة قدمت للحكومة ذريعة التبرؤ. كما أن هذا التركيز، أتاح لأنظمة عربية، أن تطلق تهمة «المغامرة» على المقاومة.

إزاء هذا التداول الإعلامي، اضطرت المقاومة إلى تقديم سيناريو مختلف للحرب مخففة من منطق الذريعة، ومركزة على خطط إسرائيل المسبقة والمعدة سلفاً، والتي كان متوقعاً تنفيذها بعد شهور، في غفلة عن المقاومة. واستمر الإعلام المسالم مركّزاً على منطق الذريعة. فيما الإعلام المقاوم يصرّ على الخطة المبيّتة، ولم يحسم الجدل، بسبب الانتماءات المسبقة، والمواقف المضمرة من أساس المقاومة حول هذه المسألة.

ويجدر بالمراقب والباحث أن يقارن بين الجدل البيزنطي، وبين الجدل المنتج لحقيقة أو لمقاربة واقعة بموضوعية. علمياً لا تمثل مسألة الذريعة أولوية في الحروب. إنها صاعق تفجير معد سلفاً. فرئيس الولايات المتحدة الأميركية، لن تعوزه ذريعة أو افتعال ذريعة وهمية، كي يوقع على حرب تشنها قواته العسكرية في أي بقعة من العالم. وإذا تعذر تقديم ذريعة موضوعية، افتعلت ذريعة، كما حصل في خليج تونكين (دمرت البحرية الأميركية بارجة لها) وكما حصل في غزو المكسيك. الذرائع غلالة يحتاجها المعتدي، كي يبرر عدوانه إما قانونياً، أو أخلاقياً؛ لأن كل حرب في التاريخ، حملت من قبل الطرف المباشر فيها، تبريراً أخلاقياً سامياً. ولم تعط أي حرب تبريراً عدوانياً.

المسألة إذاً ليست في الذريعة، بل لا بدّ من بحث آليات الحرب، بمنطق الوضعية العدائية للطرفين. فإسرائيل عدو، ولا تزال كذلك، وأن هذا العدو، كان محتلاً ومعتدياً ومدمراً وغاصباً ومخرباً ودموياً وجزاراً ، على مدى ربع قرن على الأقل. ثم إن هذا العدو الذي هُزِم في ٢٥ أيار، لا يزال يحتفظ بأسرى، وبأراضي شبعا (وإن كان مختلفاً على سيادتها بين لبنان وسوريا، ولكن هذا لا يزيل عنها صفة الاحتلال لها من قبل العدو الإسرائيلي).

إن منطق الأمور بين دولتين في حالة صراع، أن تكون على استعداد، لاندلاع حرب ذات طرف. والدليل، أن إسرائيل، كانت تشن اعتداءاتها وحروبها على لبنان، بحجة أو من دون حجة. ولا تزال

تمارس طلعاتها الجوية فوق لبنان. وفيما أنا أكتب هذه السطور، يحلق طيران إسرائيل فوق الجنوب والبقاع، بطلاقة، من دون أن يواجه بطلقة أو بتصريح، علماً أن مثل هذه الأعمال العدائية، (الخرق الجوي المستمر) تعتبر ذرائع شرعية لاندلاع قتال، إذا توفرت ظروف أخرى.

إن بلدين في حالة عداء، وفي حالة اشتباك إقليمية كبيرة، لا يمكن أن يركنا إلى ما لا نهاية من الهدوء، أو إلى وقف إطلاق النار. ما حدث في تموز، كان يمكن أن يحدث قبل ذلك أو بعد ذلك. كان سيحدث لأن سياسة إسرائيل المعلنة والحثيثة، أصرت على حراسة أمنها من خلال إخراج المقاومة من الجنوب، وتجريدها من سلاحها، ولأن السياسة الدولية، التي تبنتها مؤسسات المجتمع الدولي المنحازة، وافقت إسرائيل على مطلبها. فهي بعد ما انسحبت من لبنان، اعتبرت قديسة، ويلزم مكافأتها بمجموعة من الإجراءات لحمايتها. وقد انقسم اللبنانيون حول هذا الموضوع، بعيد الاندحار الإسرائيلي، حيث أصرت قناة لبنانية، على إنزال الجيش إلى الجنوب ونزع سلاح المقاومة.

هنا تكمن المشكلة وليس في الذريعة.

سلاح المقاومة هو المعضلة وليس خطف الجنديين.

العنوان الرئيسي هو تجريد المقاومة من سلاحها، كسائر الميليشيات، كما جاء في القرار ١٥٥٩ وليس ذريعة تجاوز الخط الأزرق.

غرق اللبنانيون في بحثهم عن جنس الملائكة، فيما كانت جهنم قد فتحت أبوابها على صراع لن يتوقف إلا في زمن آخر، غير هذا الزمن.

٧- قرار الحرب والسلم:

أكذوبة قرار الحرب والسلم، تم تداولها على نطاق شبه يومي، وبطريقة تشبه التعويذة. قرار الحرب والسلم يجب أن يكون في يد الدولة اللبنانية ومؤسساتها الشرعية، وليس بيد أي فريق آخر.

إن أي حرب بين دولتين، يتم فيها قرار السلم والحرب، من خلال مؤسسات الدولتين. وهذا في حال انتظام الصراع بين دولتين، قد اكتمل نصابهما السياسي والدستوري والمؤسساتي. أما وأن ما بين لبنان وإسرائيل، أو ما بين فلسطين وإسرائيل، أو ما بين قوات المقاومة الفرنسية والاحتلال النازي، أو ما بين قوات المقاومة الجزائرية وحكومة الجزائر الفرنسية. أو ما بين كمال أتاتورك بعد هزيمة السلطنة العثمانية، والممثل الإيطالي اليوناني ... فالمسألة تخرج عن هذا النطاق بالكامل. قرار الحرب والسلم، هو بيد المقاومة. ولا تحتاج المقاومة إلى قرار من خارجها. إما تحتضن وإما تطعن.

لبنان ليس فرنسا أو الهند أو الباكستان أو أي مكان. لبنان استولد مقاومة في ظل دولة مفتتة، عاجزة، مطيفة، متذابحة، مرتهنة. دولة شلّعها أبناؤها وحلفاؤهم في الخارج. وقد استولد الشعب

اللبناني هذه المقاومة، ليواجه تحديات العدوان الإسرائيلي والاحتلال الإسرائيلي والتدخل الإسرائيلي والغزو الإسرائيلي، عندما كانت الدولة اللبنانية في مؤسساتها الشرعية، إما متخلية أو منكفئة أو متواطئة أو منقسمة. وعندما لم تقم بأي دور لحماية لبنان من إسرائيل. بل إن بعض أطراف الدولة، استعان بإسرائيل، فمهّد لها الأرضية الطائفية والسياسية، لاحتلال السلطة، وتغيير مسار لبنان بالكامل.

لبنان هذا، ليس أي دولة، تنطبق عليها قواعد الحرب والسلم التي تلجأ إليها الدول. هو حالة خاصة به. قوته في مقاومته. من دون مقاومته، كان عرضة لاحتلال، كان سيظل رابضاً إلى أمد سياسي بعيد. من دون مقاومة سابقة، أخذت قرارها من واقعها ومن حيثيات الصراع وقوانينه، كان يمكن لإسرائيل أن يكون لها مندوب سامٍ يملي شروطه على اللبنانيين. وكان يمكن لإسرائيل، أن تبقي قواتها في بيروت والجبل والإقليم وصيدا.

اتخذت المقاومة قرار السلم والحرب، من خلال شرطية الواقع. لا من خلال شرعية النظام. الذي عليه أن يبتدع والمقاومة صيغة التبادل والتعايش البناء. فلا تفتئت المقاومة على النظام، ولا يقف النظام عقبة أمام مهمات المقاومة.

المقاومة في فرنسا، بدأت قبل وبعد الجنرال ديغول. وعندما نشأت دولة قوية قادرة على حماية نفسها، طلبت من فرق المقاومة كلها، أن تتخلى عن سلاحها. فلا سلاح غير سلاح الشرعية القادرة على حماية المجتمع.

أما وأن الدولة اللبنانية، يطلق عليها ساستها، بأنها خيمة كراكوز، أو «محصصة» طائفية. فإنها غير قادرة من دون مقاومتها، إلا أن تكتب ما يملى عليها سلماً أو حرباً أو بين بين.

VI- الهدية أو لخدمة من؟

عندما صمدت المقاومة، وثبت للبعض أن الانتصار يتقدم من خلال المواجهات الميدانية، وأن العدوان لم يحقق أغراضه، طلعت أصوات سياسية وإعلامية تسأل قائد المقاومة عن وجهة الهدية التي ستقدم. فإلى من سيهدي السيد حسن نصرالله هذا الانتصار؟

ومضمون هذا الكلام يشي :

١- هل سيهدى إلى إيران؟

٢- هل سيهدى إلى سوريا؟

٣- هل سيهدى إلى كل لبنان؟

ومضمون الإجابات على هذه الأسئلة يفضي إلى طرح عنوان آخر: لمن كانت هذه المعركة؟ أي أن الانتصار القادم هل هو دين يجب تسديده لمن اتخذ القرار بالحرب؟ وبعد أيام قليلة، طلعت تصريحات، راجت في الأوساط الإعلامية، تؤكد أن الحرب كانت بقرار إيراني- سوري، وأن هذا

الانتصار سيضاف إلى ترسانة المواجهة التي يقودها المحور الإيراني (الفارسي) السوري في لبنان.

فيما كانت المقاومة، تسجل في المعارك انتصارات عملاقة، جديدة، مبتكرة، فائقة النموذج، مبدعة الوسائل، أسطورية المواجهة، وفيما كانت الشعوب العربية، تعبّر عن عميق توقها إلى هذه اللحظة البهية، في تاريخ الأمة الكالح. وفيما تراجعت الأنظمة العربية في إعلامها، عن ترديد تهمة «المغامرة» تخطت قيادات لبنانية من الرابع عشر من آذار، كل تخوم الخجل، ودخلت في معركة إفراغ الانتصار من مضمونه ورموزه وأحداثه ومعاركه وشهدائه، عبر تجييره إلى حلف إيراني سوري. وكأن المقاومة أجيرة، أو بندقية للإيجار، أو طائفة للبيع، أو ساحة للمناورات، ما يفقد المقاومة كلياً، جدواها على مستوى التأسيس لنصر جديد وتاريخ جديد. فإذا كانت المقاومة مأجورة، تنتهي بنهاية حاجة المؤجر. أما إذا كانت مقاومة شعبية، مخلصة، قائدة، منجزة، متخطية، جديدة، متجددة، ممتلكة لوسائط الروح ووسائل المادة، ولهدف حقيقي ناصع، تتجه إليه بلا مواربة، فإنها تصبح النموذج، وحجر الزاوية، في السياسة والاقتصاد والتربية والثقافة، والإشعاع في الأصداء العربية والإقليمية والدولية، إضافة إلى كونها أعمدة الهيكل اللبناني المسكون بالروح وليس بلصوص السياسة وفريسيي الوطنية والسيادة والاستقلال. الذين يؤجرون زعاماتهم وطوائفهم للرياح الحالية القادمة، أو للرياح الدولية الآتية، ودائماً للمصالح الرخيصة الهشة، التي جعلت من لبنان الحديث بعد الاستقلال، مزرعة الطوائف المتوحشة.

«مقاومة للإيجار»، التي طرحت تحت عنواني، الهدية ولخدمة من، تسقط المقاومة أخلاقيّاً، وتجعلها في أحسن الأحوال، تنظيماً مرتزقاً.

على أن التناقض لا يحل على مستوى الاتهامات المتبادلة. وكان لا بد من طرح هذا الاختلاف من زاوية أخرى:

لم نعرف في التاريخ الحديث على الأقل، أن مقاومة أو حركة تحرر وطني، لم تكن على علاقة وطيدة بقوى مؤيدة لها أو داعمة لنضالها، وتتبادل مع هذه القوى، على قاعدة تساند أو تعاون، أو تعاقد أو تحالف. فالثورة الفيتنامية كانت مدعومة من نقيضين، ولم تكن تابعة لأي منهما: الصين والاتحاد السوفياتي. المقاومة الفرنسية، مدعومة من قبل دول الحلفاء، الثورة الجزائرية من قبل مصر (الناصرية) والمغرب (محمد الخامس) وسوريا، وجماهير ممتدة من المحيط إلى الخليج. أما الثورة الفلسطينية فكانت منذ بدايتها، مصافحة ومؤيدة من جماهير بلغ إيمانها حد الانخراط فيها.

العلاقات بين الدول المستقلة، هي ذاتها تقريباً، العلاقات بين المنظمات المقاومة. قد تبدأ بدعم أو تنسيق وتنتهي إلى أحلاف وحمايات . في مرحلة القطبية الثنائية، حمى الاتحاد السوفياتي حروب التحرير الوطنية، من تهمة الإرهاب. ولم تكن هذه الحروب تدار بكبسة زر من موسكو.

هذا الاعتداء على المقاومة، بتهمة أنها خادمة على مائدة الصراع السياسي الدولي والإقليمي، كان تمهيداً ليوم المحاسبة وهتك المقدسات.

في المطرح الآخر كانت القوى اللبنانية والعربية، تفاخر بانتمائها إلى هذه المقاومة. والدليل: صفحة السفير الثقافية، التي شرعت أعمدتها، لمساهمات كتاب ومفكرين وقراء لبنانيين وعرب. وإن العودة إلى هذه المقالات في أكثريتها، تبين مدى الأثر العميق الذي خلفته المقاومة في النفوس والعقول وأنظمة التفكير. كادت أن تصل إلى مرحلة التأثير من أجل التغيير لولا... ما سنتحدث عنه لاحقاً.

قيمة المقاومة التاريخية، أنّها، عندما تخرج من أرض المعركة منتصرة، أن تكون أداة تغيير سياسية واجتماعية وثقافية. لقد منعت من ذلك، ربما مؤقتاً، ولذلك أسباب تطول قامتها. وليس في هذه المداخلة تعدادها وعلاجها.

VII- يوميات المواجهة:

شكّل احتضان اللبنانيين للنازحين من الجنوب وبعض البقاع، صورة كادت أن تمحو الكثيرمن صور الحرب اللبنانية (١٩٩٠-١٩٧٥). وعبرت أدبيات السياسة والإعلام، عن روح متفهّمة ومتعاونة في معظم المواقف والتصريحات. وأعطت التغطيات المكتوبة والمصوّرة لكيفية تعاطي اللبنانيين في هذه المحنة، فكرة عما كانت عليه حياة اللبنانيين من جفوة مناطقية وطوائفية، وعن قدرتهم على اجتياز المحنة، بالكثير من الاحتضان والاعتناء والاشتراك في الحياة.

لكن ذلك لم يدم... لأن الحدود الطوائفية والمذهبية التي ارتسمت بعد الانتصار، ألغت هذه الفترة الذهبية الوطنية بين اللبنانيين. وحّدتهم المعاناة، وامتنع عليهم التوحّد، عندما تعاملوا مع الانتصار بصيغة التناحر الذي يكاد يصل إلى حدود الانتحار.

المواجهات اليوم، والمفاجآت التي حملتها، ومواعيد ومواقيت التهديدات، وإلى أبعد، وإلى ما بعد، وإلى ما بعد بعد حيفا، إضافة إلى المعارك الميدانية التي سجّل فيها عصر جديد من الملاحم والبطولات، من مارون الراس إلى بنت جبيل ووادي الحجير وسواها من المواقع الواجب تخليدها في الواقع وفي الذاكرة، كل ذلك، وضع السياسيين والإعلاميين والمحلّلين أمام احترام الوقائع. قلّ من شذ عن نقل صادق لهذه المعارك، ولولا استثناءات قليلة، لأمكننا القول: إن يوميات القتال، نالت ما استحقته من الاعتبار.

لكن الإعلام المسالم، اختار من يوميات القتال، أن يظهر بؤس ومآسي وفواجع الأهالي. وأبدى حماساً في نقل آراء رجال ونساء، يعظمون من هول الخسارة وعمق الكارثة التي حلّت بهم.

وقابل ذلك في الإعلام المقاوم، التركيز على أناس خسروا كل شيء، ومستعدين لخسارة الروح، فداءً للمقاومة وسيدها. وبلغ إبراز هذه المشاهد حدود المغالاة، وكان لها وقع غير مستحب لدى المستمعين والقرّاء.

جمهور المقاومة، شعب المقاومة، تفوّق في العطاء. وبرغم الدعاية التي ضخمها هؤلاء في وسائل الإعلام، تعبيراً عن صمودهم وبذلهم ونصرتهم، فإن تسجيل هذه الظاهرة الفريدة (باستثناء القرابة الفلسطينية) جدير بالاهتمام والإنجاز.

أما الشعب الذي وقف إلى جانب المقاومة، حاملاً دماءه وشهداءه وحجارة بيوته المهدّمة، وصور عائلته المتناثرة، وركام عمره النضالي، جدير بأن يعطى حقّه، جدير بأن يعتلي مرتبة وطنية عالية، لا أن يعامل، وكأنه قطيع، يقوده الراعي إلى المسلخ بدل المرعى.

جمهور المقاومة، كان السلاح الأقوى، في المواجهة. وقد استحق رتبة الشعب القائد.

VIII- مـن يـرث الخـراب:

ركّزت إسرائيل أهدافها على بنك أهداف مدنية، طالت بنى ومؤسّسات وجسوراً حيوية في كل المناطق اللبنانية، وخصّت الجنوب بتدمير منهجي واتبعت سياسة الأرض المحروثة فيه. أما الضاحية، فقد قررت إسرائيل أن تجعل أبنيتها ومؤسساتها ركاماً.

فمن يرث هذا الخراب؟

فيما كان إعلام المقاومة وجمهورها، يعلن استعداده لإعادة البناء والإعمار والتعويض، تبرّع الإعلام المسالم، بتضخيم أرقام وكلفة الخراب.

وارتفعت أصوات سياسية وإعلامية تحمّل المقاومة مسؤولية تخريب لبنان وتدمير مؤسساته، وتفويت موسم سياحي واعد. وأضيف إلى ذلك، تجاهل عنيد، للآلة العسكرية الإسرائيلية التي كانت حربها أشبه بانتقام أو ثأر، أكثر مما كانت معارك عسكرية تطال أهدافاً عسكرية حيوية.

وكان من الممكن فتح نقاش أعمق من هذا السجال الاتهامي حول كلفة الحرب، التي يهوّنها الانتصار، وبين كلفة الاستسلام أو السلامة، التي تكبّد الانتصار كل الخسائر.

أول النقاش هو: هل بناء اقتصاد خدمات وسياحة ومونتي كارلو، أو سنغافورة، يتوافق مع التحديات الإقليمية التي يتصدر فيها الصراع العربي الإسرائيلي القائمة؟ هل يمكن تصور شرق أوسط جديد مزدهر، باقتصاده المتعدد قبل أن تحل المشكلة الفلسطينية؟ هل لبنان، يمكن أن يكون مصر أخرى أو أردن ثانياً، يسالم ويصالح ويذهب في حال سبيله إعماراً وتنمية وحرية؟

لم تطرح هذه الأسئلة أبداً. غاب عمق الأسئلة لصالح السجال حول كلفة الحرب وأرقامها ومن المسؤول، ولماذا التأخر في المسح والترميم والدفع؟ وهذه،على أهميتها الحيوية، لا ترقى إلى ضرورة الجواب عن السؤال: أي مجتمع، لأي مقاومة، في أي مرحلة؟ فنحن لسنا سويسرا، ولا قبرص ولا اسكندينافيا.

في إطلالة موجزة على هذا النقاش، يطرح ما يلي:

أولاً: الحرب، تعني، أول ما تعنيه، الدمار المتبادل. التخريب الشامل، القتل والفتك؛ المجازر، المآسي. الحرب، ليست نزهة. إنها فعل دموي رهيب. فعل قتل بلا هوادة. منظومة

خراب لا مثيل لها. لم نعرف حرباً نظيفة، لم يعرف التاريخ حرباً بنّاءة. تحاول مصانع الأسلحة ابتداع سلاح، يقتل المقاتلين والجنود، ويبقي على العمران. متى؟ لا نعرف.

ثانياً: الانتصار، يخفف من كلفة الحرب الباهظة. يدفع المجتمع إلى تبوّؤ التحديات وافتتاح المستقبل. أما الانكسار، فإنه يضاعف كلفة الحرب. أما، وقد أعلنت المقاومة انتصارها، وتقدّمت إلى تنكب مسؤولية إعادة الإعمار، فإن إعلام أهل السلطة، في المقابل، قد اعتبر الانتصار عقوبة، شبيهة بالخسارة، وأن حجم الدمار أكبر بكثير من حجم الانتصار المشكوك فيه، حتى كتابة هذه السطور، برغم تقرير فينوغراد.

ثالثاً: أحد منجزات المقاومة الإسلامية في لبنان، إرساؤها بنية «مجتمع صغير»مقاوم، داخل مساحة اجتماعية مباحة لكل المغامرات السياسية والاقتصادية والمالية. أمّن هذا المجتمع الأهلي، الشيعي في إجماله، وعبر مؤسساته وخدماته ورعايته، حاضنة مثالية، أرضاً وتخوماً وتربية وروحاً ومالاً، للمقاومة المسلحة. المنتصر في حرب تموز هو هذا النموذج، الذي نشأ ونما وشبّ، داخل الفضاء اللبناني المتعدد، سياسياً وطائفياً وتطلّعاً. هل هذا البناء قابل للبقاء، وكيف، خاصة وأن لبنان بيئة خصبة في تناقضاتها الطائفية؟

الخراب لم يصب فقط جمهور المقاومة، بل أصاب جمهوراً مختلفاً، غير قادر على فهم خسارة، لم يشارك أساساً في حرب سبّبتها ولا يريدها.

XI- المساءلة والتشكيك بالانتصار:

ساد اعتقاد لدى إعلام المقاومة، أن العدوان الإسرائيلي، ليس إسرائيلياً صافياً، بل هو عدوان يتمتع بتأييد أميركي، يصل إلى حدود المشاركة، وتغطية أوروبية، وتحريض عرب الاعتدال، واستعداد فريق لبناني داخلي، للانقضاض على ما يتبقى من المقاومة بعد خسارتها المرغوبة والمتوقعة. وترسخ هذا الاعتقاد، انطلاقاً من منطق، يرى استحالة تبرير هذا الهجوم الواسع، بسبب اعتقال جنديين إسرائيليين، وتأسيساً على رغبة دولية، يترجمها قرار مجلس الأمن ١٥٥٩، الذي انتدبت إسرائيل نفسها، لتنفيذ الشق المتعلّق بسلاح المقاومة. وازداد هذا اليقين، بعد امتناع الولايات المتحدة من تأييد قرار يدعو إلى وقف لإطلاق النار، كانت تحتاجه إسرائيل، بعدما نفد بنك الأهداف، في الأيام الأولى للعدوان، كما جاء في تقرير فينوغراد. هذه الشبكة السياسية العسكرية، شكّلت حماية للعدوان الإسرائيلي، غير أن قوى معسكر السلامة غير الراغبة أساساً بوجود المقاومة، فكيف بصمودها، فقد اختارت التصعيد في أدبياتها، وبدأت عملية المساءلة والمحاسبة، انطلاقاً مما سجّرته هذه الحرب وهذه المغامرة من ويلات على لبنان. وتطورت هذه الحملة لتصل إلى استعادة فلسفة الانعزال اللبنانية، والقاضية أن يكون لبنان، محايداً. وتبيّن فيما بعد، أن الرغبة ليست في عزل لبنان عن قضايا محيطه ومنها قضية فلسطين، بل حرفه عن مساره السابق، وجعله واحداً من معسكر الاعتدال العربي، المنتظم في

سياسة الهيمنة الأميركية، الممسكة بمفاتيح الحل والربط. ولكنها تربط ولا تحل.

مساءلة المقاومة، استدعت رداً من إعلام المقاومة الذي كان قد سكت عما يفعله سمعسكر السلامة، وما يرتكبه من تشكيك وتخاذل ودعوة لأميركا لاحتضان لبنان بهدف انتزاعه من موقعه الصراعي ضد إسرائيل .

وإذ غابت مسألة نزع سلاح المقاومة، بعدما عجزت إسرائيل وأميركا ومن معها، عن ذلك، فقد تفتقت عبقرية المسالمة، عن فكرة جديدة، قضت بتبخيس الانتصار، وإسقاط البندقية في الطائفية، وتهشيم المقدّسات بما فيها ذلك دماء الشهداء .

لم تتأهل القوى السياسية في لبنان، لإجراء حساب دقيق وعلمي وملتزم بما أنتجته المقاومة. فلأول مرة تصمد مقاومة لمدة ثلاثة وثلاثين يوماً وتواجه آلة عسكرية عملاقة مدعومة ومجهّزة بأحدث تقنيات الحرب المعلوماتية، وكثافة نيران رهيبة، وتفوّق جوي ساحق، وسيطرة تامة على الأجواء والمياه الإقليمية، وتهزمها شرّ هزيمة .

لم يتأهّل المجتمع السياسي اللبناني، ولا المنظمات المدنية والسياسية العربية، درجة الوقوف عند مفصل أساسي في تاريخ العرب الحديث، مرة عند تحرير الجنوب في ٢٥ أيار، ومرة في ملحمة الدفاع عن لبنان ومقاومته وشعبه في حرب تموز ٢٠٠٦. لو وقف عند هاتين المحطتين، لكان أمام مساءلة أخرى، غير المساءلة الاتهامية التي وفّرت لإسرائيل وللولايات المتحدة فرصة الاستمرار بخطة تصفية المقاومة سياسياً، بعد العجز الذي أصيبت به المحاولات العسكرية.

المقاومة أخضعت الأراضي الفلسطينية المحتلة، إلى سيل من النيران الدقيقة بأسلحة جديدة. أفرغت شمال فلسطين من سكانه. بلغت تخوم الوسط. كان بامكانها بلوغ ما بعد بعد حيفا. أسقطت البارجة الإسرائيلية الرمز. صمدت في الجنوب كصخور قدّت من إرادة. المقاومة أنجبت مقاتلاً لا يشبهه مقاتلٌ من قبل.

المقاومة، أخضعت المجتمع الإسرائيلي إلى مساءلة نفسه، عبر مؤسّساته الديموقراطية، ومحاكمة المقصّرين، وأخذ العبر.

المقاومة انتزعت من إسرائيل اعترافاً بأنها هزمت. وأن جيشها كان قدوة في التراجع وعدم الجدوى. وأن سياسييها دون مستوى القيادة، وأن على إسرائيل أن تغيّر من استراتيجيتها.

تلك هي المساءلة التي كانت مطلوبة، لاحتضان مستقبل المقاومة، وليس المساءلة التي كانت راغبة في إدخال البندقية إلى قفص الاتهام وانتزاعها لأنها خرّبت لبنان، «تناسوا من خرّب لبنان على مدى خمسة عشر عاماً، من إسرائيل إلى أمراء الحرب» ولأنها، هذه البندقية، ليست نقيّة الولاء للبنان»، أي لبنان بصيغة أمراء الطوائف المرعيين أميركياً.

لو كان للمساءلة أن تكون علمية ومنهجية، لتوفر للأمة إفادة بالغة الأهمية، أما وقد كانت

المساءلة مبارزة بين تيارين. فقد فقدنا فرصة مفتوحة على المستقبل.

X- انتهاك المقدّس

يختلف المقدّس الديني، عن المقدّس السياسي، أو القومي، أو الوطني. مع ما في الأول من حرمة، وما للثاني من ليونة ونسبية. غير أن الشعوب تقدّس، بلغة المجاز، شهداءها. ترى إلى رموزها، كالعلم الرسمي، على أنه مقدّس. والاعتداء عليه وإهانته يفضيان إلى عقوبة مستحقة. كما أن لرموز الوطن، مكانة أقاموا فيها، بسبب ما قدّموه في مرحلة ما من تاريخ الوطن.

تعملق السيد حسن نصرالله في قيادته للمقاومة. كان منتظراً باستمرار. إذا تغيّب عن القول، أو عن الشاشة لأيام، شعرالمقاومون بالسلاح والإيمان والكلمة، بحاجة ملحّة إلى من يخبرهم الخبر اليقين، عما آلت إليه المعارك، عما آل إليه العدو، عما آلت إليه السياسة الدولية والعربية. كان انتظاره، يملأ القلوب. كان انتظاراً مستعجلاً. غيابه لأكثر من يومين يخلّف فراغاً كبيراً، عودته لمخاطبة الناس، كانت دليل عمل وفعل إيمان، وتوقع انتصاره، وحتمية دحر العدو .

محطات الإعلام المرئي، كانت راغبة بلقائه. هو الأول ... بعده بكثير، يأتي ما يقوله العدو. حتى العدو، كان ينتظر ظهوره. يقطع بثه لينقل على عجل كلماته.

هو، لوحده، كان الجزء الأساس من الجبهة الداخلية. به تجسد القول فعلاً.

هذا الإيمان لم يظهر مع كثير من القيادات السياسية. إنه نمط مختلف. الدنيا عنده انشغال بالقضية. ولأن القضية، باتت حياة أو موتاً بالنسبة للمقاومة، فإن التعلق بالسيد، كان تعلقاً بالانتصار والمستقبل. ولما بالغ المؤمن بالانتصار في التأييد كلامياً، وبايعوه بعاطفة صادقة، أثير حول هذا الموضوع شتات من الاستنكار: لماذا شخصنة المقاومة؟ لماذا من أجل حذائه؟ ماذا تعني عباءته؟ إلى آخر منظومة الاستنكار.

لم تسقط المقاومة في المعارك.

لم تسقط البنادق في المواجهة.

لم يسقط شعب المقاومة في اليأس.

لم ... لذا، لا بدّ من إسقاط المقدّس. فبدأت معركة الاعتداء على كل ما هو شريف وكل ما هو محرض على الكرامة والنبل والوفاء والتضحية.

ونبشت مفردات وتعابير تحط من قيمة المقاومة وسيدها وجماهيرها وسلاحها. لم يعرف العرب في تاريخهم الحديث أكثر صدقاً من هذه المقاومة التي لم تفعل غير أن تقاوم. المقاومة كانت كسلاحها، نظيفة من الآثام العدوانية. من الارتداد إلى الخلف، من التمتع بفائض القوة والمنافع الممكنة والمحرّمة في آن. لم يعرف العرب، سيّداً وقائداً للمقاومة، كمثل السيد حسن نصرالله. ولا عرف تعلقاً جماهيرياً به. رفعت صورته في كل ناد ومؤسّسة ومعهد، في العالم العربي. كان حضوره مستحباً في كل دنيا العرب. احتل مكانة في القلوب والعقول. لم ينظر أحد

إليه على أنه شيعي. أما في لبنان، فقد انهال عليه جمهور مسيحي واسع بالإكبار والإجلال والحب.

غيرت صورته موقع الزعامة التقليدي.

صار سيد المقاومة زعيماً عربياً ولبنانياً وإسلامياً.

وكان لا بدّ من تهشيم المقدّس.

لم يفتعل العرب تقديس هذا الموقع وهذه المقاومة وهذا السلاح. كانوا بحاجة إلى جرعة تفاؤل بعد قرن من اليأس وعقود من الكوارث، وفصول متناسلة من الخسائر. لم يكن لديه مخابرات في مصر واليمن والمغرب والجزائر وسواها، تدعو إلى رفع صوره، بل كانت الحاجة إلى هذا الإبداع القومي والوطني والديني، لتمسك مستقبلها وغدها، بأيديها.

وكان لا بدّ من تحطيم المقاومة وصورتها.

وسيقت ضد المقاومة:

- فارسيتها؛
- سوريتها؛
- شيعيتها؛
- انغلاقها؛
- نظامها الحديدي؛
- نازيتها؛
- وقوفها في وجه السنة في لبنان.

وبدأت المقاومة تخسر ما لم تخسره في الثلاثة والثلاثين يوماً من القتال.

XI - التطييف والتمذهب:

حقق المعين الروحي للمجاهدين، زاداً إيمانياً عقدياً، دفعهم لتحقيق ما يشبه المستحيل. معين روحي زوّدهم بطاقة مذهلة للانتظام والاستعداد والتدرب والانصراف الثابت إلى الهدف، والالتزام بضرورات الأخذ بالعلم منهجاً وتحققاً واستفادة، والتواضع، الذي يدعو إلى الكبر بحيث إن صورة هذا المقاوم، الذي أبدع ذاته، في هذا المحيط، أصبح لغزاً غير قابل للتفسير وغير مدرك على حقيقته، في أدبيات العدو، وفي خططه العسكرية والنفسية والإعلامية.

حققت المقاومة نصاعة الدليل وبرهان الإنجاز. أمة ركعت على أقدامها مراراً أمام جبروت الطغيان الأميركي – الإسرائيلي، وقفت وجبهتها للتاريخ الآتي، بحفنة قليلة من الرجال، فوق بقعة صغيرة من الأرض، فوق مساحة شاسعة من الإيمان والعطاء، وقدّمت بدمائها وعقلها وتنظيمها واستعدادها وانصرافها، نصاً نضالياً جديداً، كان فتحاً حقيقياً في المواجهة.

المحيط الوطني بائس وفاسد وموتور ويستعجل التواطؤ مع الهزيمة. المحيط القومي، مشغول بحياكة سياسة «الخسارة البنّاءة». استسهال السلامة. ومنطق الاتكال المفيد. المحيط الإقليمي

مهتم بتفاصيل وراثة النظام، والمحاصصة، والخصخصة، وأرصدة البنوك، والفائض المالي المذهل وغير المسبوق. المحيط الإقليمي، في أكثره، معاد لمنطق الصمود ويرى في المقاومة مغامرة، ويستعجل الحل منتظراً السخاء الإسرائيلي مهما قل حجمه ومهما بخست قيمته، متكئاً على القدرة الأميركية الفائقة في ابتداع الإملاء الإلزامي لأنظمة لا تبدع إلا التخمة لها ولحاشيتها وبطانتها ذات اللكنة الأميركية. المحيط الأميركي ينزف حروباً وعنفاً أعمى. العراق ذبيحة أميركية. الخليج ترسانة أميركية. وعنف ديني يضرب في كل مكان فلا يصيب إلا ذاته.

المناخ الدولي معادٍ. استعيدت السيادة الأميركية على مجلس الأمن الدولي، بعد تحرره نسبياً قبيل العدوان الإجرامي السفاح على العراق، المؤسّسات الدولية انتظمت في خط الجنون الأميركي. أوروبا فقدت مناعتها النسبية وانخرطت في مشروع تطويع لبنان وفلسطين وسوريا وإيران، مرة وإلى الأبد.

وسط هذا كله، أنجزت المقاومة اختراقاً، وأسّست لحالة جديدة. هي الاحتفاظ بقدرة وطاقة المواجهة، برغم الاصطفاف الدولي والإقليمي والعربي المعتدل (المسالم) والداخل اللبناني المهترئ، والتفوق الإسرائيلي الكبير.

حققت المقاومة انتصاراً، لا نجده في تاريخ الثورات؛ وذلك لأن معينها المذهبي الديني، وفر لها الإطار والآليات والاحتضان. بحيث كانت ولادة جديدة، فيما التوقعات، كانت تنتظر انتهاء المغامرة بالانتحار.

انتصار صعب... وانتصار عاصٍ على الفهم، لمن تدرّب على ما تيسّر من فتات السياسات الإقليمية والدولية. لذلك، وبعد أيام من الانتصار، خرجت أصوات التخاذل والتعصب، لتخوض ضد المقاومة، معركة «تشييع السنة»، و«تفريس» العروبة. وفجأة انقلبت أكثرية جماهيرية في أنظمة عربية متربّعة على فساد السياسة. ضد المقاومة، ودفاعاً عن مذهبها المهدد بالتشيّع.

هل كان متوقعاً هذا الانقلاب في المزاج الطائفي الإسلامي، في لبنان وفي العالم العربي؟ طبعاً.

لأن المقاومة، هي مقاومة، عندما تقاتل ضد إسرائيل. ولكنها ستستدعي رد فعل من طبيعتها، عندما تعود إلى السياسة. فالذين تسامحوا مع شيعية المقاومة في قتالها ضد العدو، عادوا وتعصّبوا ضدّها، وباتوا على قاب قوسين من الذهاب إلى أبعد من ذلك.

كان متوقعاً أن تحدث المقاومة المنتصرة تغييراً في بنية البيئة السياسية العربية عموماً. كان ممكناً ذلك، لولا تمذهبها، الذي كان معيناً لانتصارها، ضد إسرائيل، ومعيقاً لانتصارها في معركة التفاعل في الداخل.

XII- أخيراً:

بعد عام من الانتصار المبرم، أمام المقاومة سيل من الأسئلة:

أ- أي استراتيجية أمنية محلية وإقليمية؟

ب- هل ستفتح مؤسساتها المدنية، أمام لبنانيين من غير الشيعة، أم ستبقى قلعة لا يدخلها إلا أهل البيت؟

ج- أي علاقة تنسجها مع الحركات الإسلامية والعلمانية المعادية لإسرائيل والمناهضة لسياسة الولايات المتحدة الأميركية؟

د- ما موقفها من النظام اللبناني الطائفي، الذي حماها لفترة، ثم تحول إلى خنجر في ظهرها؟

هـ- هل يمكن التوفيق بين ثقافة مقاومة وطنية، وثقافة مقاومة شيعية؟

و- ما موقفها من إقامة سلطة مدنية تفصل ما بين اللاهوت والناسوت، وما بين الوحي والسياسة؟

ز- أي مستقبل للمقاومة في ظل تعقيدات سياسية، تكاد تدخل العرب في حروب داخلية، وطوائف ومذاهب تنزلق بسرعة إلى عنف وحقد لا تشفيه حروب أهلية.

أخيراً مرة أخرى.

علمانيتي لم تمنعني من الالتزام بمقاومة ذات طابع قومي أو ماركسي أو وطني أو إسلامي. فالمسافة بين علمانيتي ومذهبية المقاومة ملغاة.

ما يهمني، فقط ولا غير، هو الفعل المقاوم للاحتلال، والهيمنة. دين الفعل أو عقيدة لا تقف بيني وبين الفعل. ففي البدء كان الفعل. وأنا، ملتزم بهذه البدايات، من دون إضافة كلام.

عوامل الانتصار في حرب تموز
الاحتضان الشعبي وتضحيات النفس

مدير المركز الدولي للإعلام والدراسات
أ. رفيق نصر الله (لبنان)

ثمة عبارة لغاندي تقول *«الناس هم شجر الأرض الذي لا ينكسر»*..

ومن حقنا نحن في لبنان أن نضيف «المقاومة هي ثمر هذا الشجر الذي يأتي دائماً في موسمه عندما يحين موعد القطاف لعل ديكارت لم يكن قد اكتشف عشية طرح نظرياته أن الناس هم الذين يبتلعون الأيديولوجيا وإلا لما تحدث صمويل بيكيت عن مسرح الدهشة عندما يأكل الجمهور المسرح بإحساسهم».

كنا في القرى الجنوبية ننام على مقربة من كتف الجليل نتقلّب على كتف الاحتمال، كمن ينام على مقربة من الوحش...

كانت ضيعنا تغفو بعين واحدة، وجسدنا يلهو مع الصدفة التي كانت تعبث بوقائعنا، أمام عدو تكبر أبراجه وحصونه، يمسك بعنقنا وسمائنا وأطراف بيوتنا، وحتى بأحلام وسائدنا، ونحن غرقى في هواجسنا لا نعرف إلى أين نصوّب، وكيف، وقد بتنا في كنف الإهمال أصدقاء المعايشة المرة تماماً كتبغ عيشنا المر.

هل كنا نعيش في وطن ؟... هل كنا نشعر به وبنشيده الوطني؟... هل كان لدينا جيش يدافع عنا أم أن عيشنا كان نتاجاً لاتفاق الهدنة بما تيسر؟

أمامنا سلطة غائبة، هي حاضرة متى جاءت لمصادرة أصواتنا وأحلامنا، وعلى بعد خطوات في خارطة الوطن كان شركاء لنا في بطاقة الهوية، يحدّقون في اتجاهات لا تلتقطها بوصلتنا كأنا لسنا شركاء... بل كأنا دائماً الغرباء...

أو لقطاء جرى منحهم حق اللجوء في وطن يتقاسمه غربان الطوائف والإقطاعيات.

كبرنا في حقول تحدها ألغام المراحل، وقدمنا باكراً منذ العام ١٩٤٨ شهداء في سبيل القضية، وصرنا أسرى للخط الأمامي أو ما كان يعرف بالقرى الأمامية، وعندما جئنا إلى أطراف المدن نبحث عن العيش والحياة والمدرسة والجامعة والمستشفى ونمارس حقنا في المواطنة، بقينا أسرى أحيائنا الضيّقة، وبقيت أحلامنا في صدورنا رصاصاً مؤجّلاً. صرنا أبطال المظاهرة

وأصدقاء الوجع، والناس الذين لم يملكوا سقفاً كاملاً.

صرنا العنوان الأسود في الصحيفة والوجه الدامي في الشاشة، والمهجرين الدائمين في مفاصل الوطن.

كانت فلسطين حية نابضة فينا، فانتمى بعضنا لثورتها، واستشهد في سبيلها، وكان حلم المواجهة خبزنا اليومي.

في هذا البحر نشأ أهلنا... ناسنا وهم متخمون بوجع المواجهة، وفي هذا البحر نشأت المقاومة، ومن هذا الانتماء المتجذر، الآتي من ثقافة الثورة المفتوحة ضد الظلم، من تاريخ أرخى علينا ستائره لكي نستظل بهذا الكم من الشهداء الذين صارت شواهد قبورهم إحدى العلامات الفارقة والمميزة لجغرافية قرانا! ألا يفاخر أهلنا في القرى بعدد شهداء كل بلدة، وكأننا في مزاد علني للأجساد التي خرجت كي تدافع عن كرامة الأرض ولكي نزرع فيها ثقافة الحياة وليس انكسار الكبرياء. ومتى كانت الحياة جميلة إلا عندما أنتجت الثورات صورة مشرقة لهذه الحياة؟ وإلا ما معنى كل الثورات الإنسانية ضد الظلم؟ ومتى كانت الثورات ترتدي قفازات بيضاء لتصنع حياة؟

لقد جاءت المقاومة نتاجاً لهذه الثقافة، ولهذا الانتماء الذي يمتد من عمقه التاريخي المترابط مع كل قضايا الأمة، وتحديداً جوهر هذه القضايا، وهو فلسطين إلى التطلع نحو بناء وطن قادر على امتلاك هويته وثوابته. فنحن كنا دائماً مسرح المواجهة، فها هي أنفاس أدهم خنجر لا تزال في زوايا بيت سلطان باشا الأطرش، وها هم أهلنا في وادي الحجير ومؤتمرهم لمواجهة الانتداب والاستعمار، وها هي جماهيرنا تخرج لمؤازرة ثورة الجزائر وعبد الناصر، ولاحتضان الثورة الفلسطينية، وها هي أسماء أهلنا وأخوتنا الذين سقطوا في هذه التظاهرة أو تلك في شوارع بيروت وصيدا وبعلبك وصور والنبطية.

في هذا الحضن، نمت المقاومة فصارت هي الخيار الواضح الذي تحوّل إلى قناعات وثوابت، وصارت المقاومة المشروع المتكامل الذي يعبر عن طموحات جمهور واسع، وجد أن الأولوية تكمن في تحرير الأرض من خلال منهج المواجهة من عبر البندقية، ومن خلال المعتقد الثابت والواضح للرؤى والرؤيا.

لقد تحوّلت المقاومة إلى حصانة للطموحات، وتحول ناسنا إلى حضن كامل تتجذر فيه المقاومة، وتنمو والتي سرعان ما أنتجت ثقافتها وأدبياتها ووقائعها في خبز الناس اليومي.

صارت المقاومة في الحضن الشعبي هي البرنامج والهوية والانتماء، وتحولت إلى قوة للاحتماء أولاً وقوة الدفاع ثانياً، وقوة المواجهة لتحرير الأرض، وامتزجت هذه القناعات مع التجذر التاريخي لروح التضحية المتأصّلة في مجتمع لم ييأس من ممارسة رفضه للظلم كيفما تجلى هذا الظلم منذ أن كان.

في قرانا صارت المقاومة هي الحالة الواضحة للانتماء السياسي، وهي المعبّر عن الحركية السياسية والاجتماعية، حيث تجمّعت عناصر عدة أدّت إلى أن تصير المقاومة خياراً كاملاً بعد أن أعطت نماذج فذة في إطار المواجهة.

فهي لم تكن مقاومة شعاراتية...

ولم تكن مقاومة استعراضية...

ولم تكن مقاومة كنتاج مرحلي يعبّر عن تطلعات هذه الجهة أو تلك... بل كانت مقاومة عسكرية كما هي مقاومة مدنية، كما هي اجتماعية محدثة للتحوّلات.

احتفظت هذه المقاومة بسريتها وبروحها الأخّاذة، وظهر استشهاديون أعطوا المثال وتحوّلوا إلى الرمز البطولي الكامل في الذاكرة اليومية للناس الذين تحوّلت حكاياهم اليومية إلى سرد للبطولات والمواجهات، وصار مسرى دمائهم في جغرافية الجنوب مدار حكايا يومية، وحدد الخط الفاصل بين أن تكون مع المقاومة أو ضدها، فلا حيادية في قرار تحرير الأرض، بل خيار لا بدّ من المجاهرة فيه.

هكذا كان حال الناس في الحد الفاصل بين أن يكونوا حضن المقاومة في مواجهة من تفيّأتهم أرضهم وصاروا حفنة من السفلة الذين حملوا لقب عميل.

لقد هان الموت أمام قوة الانتماء... وصار السجن والمعتقل موعداً ليس فقط للذين انخرطوا في المقاومة، بل الذين نمت في حضنهم المقاومة.

إن دراسة وضعت مؤخراً أشارت إلى أن ٦٥ بالمئة ممن اعتقلوا في الخيام، هم من سكان القرى ولم يكونوا أعضاء منتمين للمقاومة، وإن اكتشف الجلاد أنها تعيش في عيونهم وقلوبهم.

لقد فشل الاحتلال ومن كان معه طوال ٢٢ عاماً في إحداث تغيير في هذه القناعات، بعد أن مارس هذا الاحتلال كل الوسائل الوحشية ضد أبناء شعبنا من نسف للمنازل أو الاعتقال أو الطرد أو الاغتيال أو حتى الاعتداءات المتكررة كما جرى عامي ١٩٩٣ و ١٩٩٦ وغيرها من الاعتداءات المفتوحة التي أدت إلى تدمير ما يزيد عن ١٣ ألف منزل وإلحاق الأضرار بأكثر من ١٥ ألف وتعطيل ٦٠ بالمئة من الأراضي الزراعية، ودفع أكثر من أربعين بالمئة من السكان للنزوح، عدا آلاف الشهداء وآلاف الأسرى وآلاف الجرحى، وغير ذلك من الأثمان التي دفعها أهلنا.

لقد نشأت ثقافة مشهدية جديدة لدى ناسنا، أليس مشهد العودة الفورية بعد كل نزوح هو نوع من ثقافة الارتباط وتأكيد الثوابت؟ ألا يدل مشهد عودة مئات الآلاف من أهلنا عند الساعة الثامنة والربع بعد قليل من وقف العمليات العسكرية عن هذه الثقافة فور انتهاء حرب تموز التاريخية.

لقد تحوّل مجتمعنا إلى مجتمع مواجهة، فهو كان يمارس حياته ودورته اليومية في البناء وزراعة الأرض وفي التمسك بها رغم كل الظروف. وأيضاً ورغم كل الاعتداءات كان إيمانه أقوى بحيث لم تؤد هذه الاعتداءات إلى فك الارتباط الوثيق الذي نشأ بين المقاومة والمجتمع الذي

تدافع عنه.

لقد تمّ تحديد الهوية للحركة السياسية في الوطن من خلال ارتباطها بمشروع المقاومة التي سرعان ما حققت أهدافها بالانتصار الذي تحقق عام ألفين.

لقد نشأ نسيج عضوي بين المقاومة برموزها واستشهادييها ومقاتليها، وبين جيل جديد من شباب مجتمعنا الذي انخرط في صفوف المقاومة دون أن يعني ذلك عسكرة مجتمعنا، كما جرى في تجارب سابقة، فقد اكتشفنا أن بعض شهداء المقاومة أو معظمهم كانوا من طلبة الجامعات أو ممن أنهوا تعليمهم الجامعي في لبنان والخارج. كذلك شكّل التعاطف الشعبي حاضناً لتلقف كل ما كانت تتعرّض له المقاومة سواء من العدو الأساس إسرائيل أم من محاولات تشويه صورة المقاومة - كما يجري الآن في الداخل - حيث أفشل الإطار الحاضن للناس كل تداعيات حرب تموز وما بعد حرب تموز، وبين أن المقاومة تسبح في بحر من الناس الذين خرجوا يرفعون قبضاتهم وأصواتهم الغاضبة لتسقط مؤامرة اغتيال المقاومة..

لقد عبّرت المقاومة عن طموحات الناس بصدق التضحيات والممارسة، وهو ما جعلها تختصر الطرح السياسي لجمهور واسع من شعبنا، وهذا صقل واقعاً جديداً في حجم القدرة على المواجهة، بحيث سجّلت وفي مراحل مختلفة ظاهرة لافتة تجلّت في حجم التضحيات التي قدّمها شعبنا بالتغلب على كل ما تعرّض له مجتمعنا، وصولاً إلى تداعيات حرب تموز، والذي أعطى المثال الكامل على مدى الارتباط العضوي الكامل بين المقاومة وجمهورها.

لقد تحوّل إعلام الناس إلى إعلام حاضن في حرب تموز، وعفوية الذين وقفوا أمام منازلهم المهدّمة وهم يطلقون أصواتهم الواثقة في التعبير عن حقيقة ما يشعر به هؤلاء من تأكيد فهمهم لجوهر الصراع على أن العدوان بكل أوجهه لم يكن يستهدف المقاومة بحركيتها وجوهر وجودها، أو برموزها بقدر ما كان يستهدف كل هذا المجتمع بهويته وثقافته وثوابته، ومن خلال فهمه لأبعاد هذا المشروع والذي كان تحقيقه يحتاج إلى ضرب المقاومة كمدخل لإحداث تغيير زلزالي بأبعاده الديموغرافية والسياسية والثقافية، وحتى الدينية، ولهذا وجدنا أن الحاضن الشعبي كان بقوة الرادع العسكري، وهو ما ساهم في صقل روح الانتصار بهذا المستوى.

ألم يقل أحد الضباط الدوليين معلّقاً - وهو يرى مئات الآلاف من النازحين يعودون عند الساعة الثامنة والربع من ذلك الصباح بعد توقف العمليات العسكرية - بالقول:«هؤلاء مجانين، أنظروا إنهم يرفعون أعلام حزب الله ويعودون كما لو أن شيئاً لم يكن !»...

تماماً، كما ردّد ضابط إسرائيلي - وهو يضرب كفاً بكف-:«نحن كنا نقاتل خيالاتنا»...

«أنظروا عادوا ورفعوا أعلامهم من جديد !»...

لقد عبّرت المقاومة عن حاجات الفرد في وطن كان الناس يشعرون فيه أن الدولة بكل مؤسساتها غائبة عن دورها اجتماعياً واقتصادياً، ومدنياً، وحتى في حقيقة الدفاع عن الأرض

والوطن في مراحل مختلفة. وجاء مشروع المقاومة كبديل رغم كل تعقيدات الوضع اللبناني الطائفية والمذهبية والطبقية والمناطقية وغيرها...

دعوني أعود بكم إلى الذاكرة إلى عام ١٩٤٨ يوم ارتكب الإسرائيليون مجزرتهم الرهيبة في حولا بقتل ٨٩ مدنياً، وتهجير أهالي ٧ بلدات جنوبية، ويومها ذهب أحد مواطني حولا إلى مخفر الدرك في بلدة جويا ليبلغ عن المجزرة، كان الرد بسجنه أربعة أيام وجلده بتهمة إزعاج السلطات.

دعوني أيضاً أشير إلى أن صحف تلك الأيام لم تشر إلى المجزرة إلا بعد ٧ أيام وبإشارة ضعيفة.

كان يراد تعتيم ما جرى كانعكاس لثقافة البعض في ذلك الوقت، والتي كانت لا تريد ربط لبنان بالصراع العربي - الإسرائيلي، وهذه السياسة ظلّت قائمة وربما لا تزال حتى الآن لدى هذا البعض.

كان أهلنا يشعرون أنهم في موقع خلفي من الوطن، هم ضحايا ويراد لهم أن يظلوا ضحايا، وظلّت هذه الدولة ببنيويتها خارج حركية المواجهة.

من هنا جاء مشروع المقاومة ليعبّر بصدق عما يختزنه شعبنا، الذي صار يشعر أولاً بشخصيته ومن ثم بقدراته، وبعد ذلك بثقة امتلاك القرار، وصولاً إلى نصر أكيد. هذه المعادلة نشأت بعد العام ١٩٨٢ عندما صار للمقاومة هويتها وشخصيتها وخياراتها الواضحة، وعرفت كيف تخرج من رحم جمهورها لتنمو في حضن هذا الجمهور.

ومن هنا، صار من الصعب إحداث فك ارتباط بين ناسنا وثقافة المقاومة مهما كانت الهجمة كبيرة على غرار ما نشهد الآن. ومن هنا يمكن فهم هذا التعالي الذي تجلى في قدرة التحمل لدى جمهور المقاومة، ليس فقط لأن لديه مخزوناً ثقافياً - مواجهاتياً تاريخياً، بل أيضاً لأن قناعاته تحوّلت إلى ثوابت وإلى هوية، وصارت المقاومة هي خياره الاستراتيجي ليس فقط في التمسّك بالبندقية كحق للدفاع، بل أيضاً في ثقافة هذه المقاومة من خلال فهم حقيقة وجوهر الصراع.

لقد امتلك هذا الحاضن البشري وعيه بكل تداعيات الصراع، ونما هذا الوعي مع نمو قدرة المقاومة، وصولاً إلى العام ألفين واستكمل هذا الوعي في مواجهة أعتى عدوان يتعرّض له وطن.

هل خرجت الحاجة كاملة مدفوعة من أحد لتشير إلى بيتها في الضاحية وقد تهدّم؟... وإلى بيتها في الجنوب وقد تداعى هكذا؟... أم عبّرت بعفوية مطلقة عن قناعاتها المتجذرة، كما خرج الآلاف من شعبنا الذين صاروا هم إعلام المواجهة، وهم قوة الدفاع بنفس قوة الصواريخ التي كانت تتوالى على مواقع العدو.

لقد شعروا في حرب تموز بروح التحدي خاصة، وقد وعوا لخطورة العدوان الذي لم يكن

إسرائيلياً فقط بل هو جزء من مشروع كامل يهدف إلى اقتلاعهم، وبدل أن تؤدي الهجمة نتائجها بما خطط أدّت روح التحدّي وقوة الانفعال والغضب عند شعبنا إلى تصليب الموقف الحاضن للمقاومة والذي أدّى بدوره إلى قلب كل المعادلات التي لا تزال نعيش مع أنفاسها الأخيرة الآن.

كانت قسمات وجوه أهلنا في كل مكان قاسية عندما وقع التحدي، وساخرة عندما توهم العدو أنه سيفك من عضد الارتباط مع المقاومة، وجدية متى جاءت اللحظة التي تتطلب صلابة مواجهة هذا المشروع الذي يعصف الآن بالوطن.

إسمعوا ماذا تقول صحيفة هآرتس العبرية عشية تظاهرة المليون ونصف المليون «الآن تأكدنا أننا فشلنا في حرب تموز، على هؤلاء الساسة عندنا أن يذهبوا إلى بيوتهم، من أين يخرج هؤلاء، لقد قصفت طائراتنا الأوهام التي وضعها قادة جيشنا».

أما معهد بيغين - السادات في النقب وهو الذي يرسم الاستراتيجيات في إسرائيل فيقول:

يبدو أننا لم ندرس جيداً أوضاع هذا الشرق، فهؤلاء أسلحة لم نعرها انتباهاً - ويقصد هنا الناس - الذين عادوا فور العدوان دون أن يترك العدوان فيهم ندوباً.

ولنقرأ في مذكرة أحد الخبراء الدوليين الذين وصلوا إلى الجنوب للإعداد لنشر القوات الدولية فور صدور القرار ١٧٠١ يقول حرفياً «لقد تجولت في مناطق تشبه المقبرة المفتوحة، حيث أسقف البيوت التي تهاوت، لكني في نهاية الأسبوع وجدت هناك أناساً يبتسمون ويروون بعض الشتول أمام بيوتهم المدمرة، عندها فهمت لماذا خاضت إسرائيل كل هذه الحروب دون نتيجة».

يجب أن نفهم الواقع السياسي والاجتماعي لجمهور المقاومة.

هو جمهور عانى من انعدام حقه الكامل في المواطنة على مستوى الوطن عبر الإهمال على كل المستويات.

وهو جمهور يلامس كتف القضية الفلسطينية بكل تداعياتها وجد أن قرار السلطة في ذلك الوقت يتنافى وكل ما كان يملك من تطلعات.

وهو جمهور صدمته نكسة ٦٧ وما جرى بعد ذلك، وربما هذا ساهم في قبول الحالة الفلسطينية الجديدة فكان اتفاق القاهرة، حيث دفع هذا الجمهور ثمن المواجهة مع إسرائيل منذ ذلك الوقت.

وهو جمهور لم تعامله السلطة كشريحة تدفع ثمن المواجهة التاريخية، بل نظرت إليه وفق ظروف المواجهة كمهجر أو لاجىء أو مجرد حالة استعطاء.

وهو جمهور له ثقافته السياسية الموروثة ضد كل أشكال الاستعمار والانتداب والاحتلال، يحمل مخزوناً كاملاً على هذا الصعيد.

وهو جمهور أعطى كل التجارب الحزبية والثورية، فكان أساسها وحطبها في كل مجالات المواجهة.

لقد اختلط هذا الواقع بنسيج التحولات، مما حدد إطار تشكيل ثقافة الانتماء للمقاومة.

تـــأثيـــرات حـــــرب تمّـــوز ٢٠٠٦
على الحروب المستقبلية لإسرائيـل

الناطق الرسمي السابق باسم قوات اليونيفيل
أ. تيـمور غوكسـل
تعريب: مريـم صـالح

تمت كتابة هذا البحث من منظار عسكري من دون أي حكم سياسي. والآراء المعبر عنها هي خاصة بي. إن هذا البحث ليس بحثاً علمياً، فهو غير منظم وليس فيه حواشي أو مراجع. ولا يوجد فيه معلومات سرية. كتابة هذا البحث لم تتم من قبل خبير عسكري بل من قبل شخص مدني أمضى ٢٤ سنة في جنوب لبنان، ورأى الكثير من الحروب ويهمّه أمر هذا البلد وشعبه.

إن حرب صيف ٢٠٠٦ حققت إيجابية واحدة مهمة لإسرائيل وهي: معرفة أن شيئاً ما ليس على ما يرام. هذا بالإضافة إلى التحقيق الذي يجري على صعيد الدولة والذي يحقق في الإشكاليات التي أظهرتها الحرب على الصعيدين السياسي والقيادي، فقد بدأ الجيش الإسرائيلي ٤٠ تحقيقاً داخلياً، من دون شك إن بعض ما سيظهر على الأقل، يمكن أن يغير طبيعة الصراع التالي الذي سوف تكون إسرائيل جزءًا منه، سواء أكان في لبنان أم في أماكن أخرى.

في آخر عدد من التقرير السنوي المؤثر جداً والموثوق لجامعة تل أبيب تحت عنوان «التوازن الإستراتيجي للشرق الأوسط ٢٠٠٥ -٢٠٠٦» قيل عن لبنان التالي :«إن حرب لبنان أثبتت مشاكل إسرائيل الإستراتيجية وعدم استقرارها، وسببت ضرراً لصورتها المعوقة، وكشفت نقاط ضعف جيش الدفاع الإسرائيلي في أخذ القرار في إسرائيل».

يجب أن نعي أن هذا لم يكن مجرد اشتباك محلي بين إسرائيل وحزب الله. بل سيكون لهذا الأمر نتائج بعيدة الأمد على صعيد التطورات السياسية والعسكرية في المنطقة. إنه لمن المبكر قول ما هي هذه التغيرات، ولكن هناك بعض الدلالات التي يجب أن تلاحظ، وهذا ما سأحاول القيام به في هذا الجهد اللاإحترافي المتواضع.

بشكل عام إن ما تسميه إسرائيل حرب لبنان الثانية (مع أنني شاهدت خمسة منها)، قد علّمت إسرائيل الدروس التالية: الفصل بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية، ضعف حاد في أخذ القرارات القيادية على مستوى الأركان العامة وعدم كفاءة قياديي القتال الكبار، تأخر في تحريك وحدات الاحتياط، الاتكال الزائد على القوة الجوية لمحاربة حزب الله، عدم القدرة على

حل مشكلة الصواريخ القريبة المدى، وأخيراً التدريب الضعيف لقوات المشاة.

إن حرب إسرائيل في صيف ٢٠٠٦ لم تشن على أساس خطة تكتيكية إستراتيجية محترفة ومحضّرة ، بل على أساس آراء شخصية لقائد الأركان الجنرال دان حالوتس، والذي كان أول عسكري من القوات الجوية يعمل في هذا المنصب.

أنظروا لما كتبته في مقالة خاصة لصحيفة الدايلي ستارفي ٥ آذار ٢٠٠٤، عندما تم تعيين حالوتس نائباً لقائد الأركان في القوى الجوية الإسرائيلية، والتي تعرف عادة باسم قوات الدفاع الإسرائيلية: «إن أصبح حالوتس في منصب (قائد الأركان) فهذا يعني أن الهواتف الخلوية في لبنان ستتوقف عن الإرسال». هذا كان قصدي في قول إن حالوتس سوف يهاجم البنى التحتية للبنان . وبالطبع في تلك الأثناء لم يكن بالإمكان للبنان أن يشغل بأمر صغير كهذا، لأن الكل كان مشغولاً في الجدال حول شركات الهواتف الخلوية، وما كان يجري من أحداث في بنك المدينة ...إلخ

وكتبت أيضاً: بالنسبة لحالوتس يمكن حل كل المشاكل بالاستخدام المناسب لقوة النار من الـ«أف ١٦» أو «الأباتشي». وكان حالوتس يعتبر أن الانسحاب الإسرائيلي من لبنان كان خطأً عظيماً لا يمكن تصحيحه إلا من خلال القوات الجوية».

كان حالوتس يعتقد أنه بإمكانه أن يكبح جماح حزب الله من خلال القصف الجوي، تؤازره قوة نارية دقيقة من الأرض والسلاح البحري. فهو مدافع أساسي عن المفهوم الإسرائيلي الذي يقول إنه إذا دمرت القرى والطرقات والبنى التحتية للبنان وخاصة المشاريع الكبيرة التي أسسها الشهيد الرئيس رفيق الحريري، سوف يغضب الشعب اللبناني ويفرض على حكومته أن يكبح حزب الله. أني أرى أن حالوتس أراد أن يدمر أكثر في لبنان ولكن تم منعه من قبل قيادته السياسية.

وهذه النزعة ذاتها كانت موجودة سابقاً وهي التي حددت هجومات إسرائيل ضد لبنان في ١٩٩٣ و١٩٩٦. وفي كل الأحوال، فإن تلك النزعة غير الواقعية والجاهلة قد فشلت وجيشت الرأي العام اللبناني ضد إسرائيل وليس ضد حزب الله. ولكن لا تظنوا بأنهم سيتعلمون من هذا الدرس، بل أنهم سيعيدون الكرة مرة أخرى.

الخلفيـة

قبل الدخول في التفاصيل التقنية من المفيد أن نرى ما هي أهداف الحرب الإسرائيلية: لم يكن لها أي هدف، أو موضوع، أو جدول زمني. والأهداف تغيرت في اليوم الذي لاحظت إسرائيل أنها تخوض الحرب الخطأ مع العدو الخطأ. هذه التي تعد إحدى أهم الآلات العسكرية في العالم، مع قوة نارية هائلة تستخدمها دون أي كبح وبتزويد من الولايات المتحدة، نسيت أنها خلال السنوات أصبحت قوة احتلال إستعمارية تلاحق الأطفال الذين يرمون الحجارة، وتدمر البيوت، وتضايق المدنيين من الشعب الفلسطيني باستمرار.

إن جهازهم الاستخباراتي الذي خرق المجتمع الفلسطيني في العمق من خلال استخدام الآلاف من العملاء، قد فشل بشكل كبير في خرق حزب الله. كانوا غير واعين للقوة العسكرية الكامنة داخل حزب الله. وفي الحقيقة إنهم كانوا يعرفون الكثير ولكن كانوا غير آبهين، فقد كان في تفكيرهم أن إنهاء حزب الله والإجهاز عليه قد يستغرق معهم يومين، وأن كل ما عليهم القيام به هو إرسال قوتهم الجوية والتي هي باعتقادهم بصدق أنها «الأقوى».

عندما فشل هذا الاعتقاد، حولت إسرائيل حادثة محلية إلى حرب كبيرة. فوافقت حكومتها بشكل أولي على الحملة الجوية لتحقيق ثلاثة أهداف أساسية: تضعيف قدرة حزب الله العسكرية بأقل خسارة بشرية وتكلفة مالية لإسرائيل، التأكيد على عودة الجنود الأسرى والضغط على الحكومة اللبنانية لتطبيق القرار ١٥٥٩ والسيطرة على جنوب لبنان. والذي لم تلاحظه الحكومة هو أن الجيش أراد وبشكل أساسي إعادة بناء قدرة إسرائيل على ردع أعدائها. هذا الردع كان قمة العقيدة الأمنية الإسرائيلية منذ تأسيس هذه الدولة، وكانت الحاجة لإعادته أمراً مهماً جداً. لكن ما فات القيادة العسكرية هو أن القدرة على الردع لا يمكن أن تكون على أساس القوة بل على أساس الإدراك. إذ يمكن أن تنجح مقابل الدول وليس مقابل عامل ديني وطني غير دولي مثل حزب الله الذي لا يهاب الجيش الإسرائيلي حيث قاتل وما زال يقاتل هذا الجيش منذ ٢٠ سنة.

عندما أضاف الجيش هدف قدرة الردع نسيت إسرائيل خطتها الأساسية في الصراع في لبنان.

كانت إسرائيل تعلم أن حزب الله يخزّن الصواريخ بعد الانسحاب الإسرائيلي من لبنان عام ٢٠٠٠، وبدأت الاستخبارات الإسرائيلية بتسجيل أعداد كبيرة ومتزايدة من الصواريخ التي تصل إلى لبنان. آخر رقم كان ١٢,٠٠٠ رأس حربي في مواجهة إسرائيل بما فيها التي تصل إلى تل أبيب. كان عند إسرائيل معلومات عن الشحن ولكن ليس عن مكان التخزين إلا لبعض الصواريخ البعيدة والمتوسطة المدى والتي تم كشفها من الجو، بمساعدة المصادر الاستخباراتية البشرية.

ما نقص إسرائيل هو معلومات عن تنظيم حزب الله القتالي، والهيكلية القيادية ونشرها للصواريخ قصيرة المدى، وأيضاً قدرتها على استخدام أسلحة مضادة للدبابات. والأمر الأكثر أهمية، أن إسرائيل لم تكن على علم بنظام حزب الله الدفاعي الموجود تحت الأرض والذي تم بناؤه أمام أعينهم. أنا شخصياً أعتقد أنه كان لديهم إشارات كافية ولكنهم لم يأبهوا لها. على كل، فقد اعتقدوا أن قوتهم الجوية كانت ستنهي حزب الله من خلال القصف من بعيد ومن خلال تحويل الشعب اللبناني ضدهم، كل هذا دون أي إصابات إسرائيلية.

من السهل للمحللين أن يناقشوا الأخطاء القتالية، ومشاكل القيادة والتحكم اللوجستية. لكن ما لم يلاحظه المحللون أن إسرائيل أصبحت تهتم بوضع المفاهيم بدل التدريب للحرب. وأن الجيش الإسرائيلي أصبح جيشاً أكاديمياً. هذا يحصل عادة في فترات سلام طويلة، عندما يبدأ

الرأي العام بالتساؤل عند جدوى إنفاق الأموال الهائلة على الجيش حيث لا يوجد أي تهديد، يبدأ الأشخاص الموجودون في الجيش بوضع الخطط والتهديدات لتبرير أجورهم.

يوجد في إسرائيل مؤسسة تسمى مركز دراسات الحروب. هذا المركز طور مفهوماً تحت عنوان «فن الحروب» تبناه الجيش بشكل رسمي.

أمروا الضباط بفهم وتطبيق هذا المفهوم. وفي الطريق نسوا أن الحرب ليست مجرد مفاهيم، بل إنها تركيز على المهمة، وتجهيز، وقيادة الجند، وأخذ المبادرة في الميدان والسعي للتواصل مع العدو.

هذا الهوس بالعقيدة أوصل الإسرائيليين إلى نسيان مبدئها الأول في كل حروبها: إزالة التهديد من خلال أخذ الحرب إلى منطقة العدو. ولكن تأكدوا من أنهم سوف يتذكرون هذا في المرة المقبلة.

كان يتم النظر إلى حزب الله وغيره من الأعداء من خلال منظار هذه العقيدة الأكاديمية التي لم يتم اختبارها. كان من المتوقع من العدو أن يتصرف حسب المفهوم الإسرائيلي . وهذا ما أثر على تقويم الجيش الإسرائيلي لحزب الله وعلى الوضع على الأرض.

أول اعتراف رسمي بخطر الصواريخ قريبة المدى، والحاجة للتخلص منها كان في آب، أي بعد ثلاثة أسابيع من بدء الحرب. ذهبت إسرائيل إلى الحرب مع اعتقادين أساسيين، ثم ظهر بأن هذين الاعتقادين كانا مضلين: أولاً أن إسرائيل لم تؤمن بأنها سوف تذهب إلى قتال جدي مع حزب الله، وثانياً وإن كان هناك حرب كهذه، فيمكن لإسرائيل أن تنهي هذه الجهة التي تحاربها في خلال يومين وذلك من خلال إرسال قواتها الجوية.

بدا خلال الحرب أن الجيش الإسرائيلي لم يكن مهتماً بتدمير حزب الله كقوة عسكرية، بل في شل قدرته على شن العمليات.

إن الجيش الأميركي يؤمن بما يسميه «عمليات على أساس التأثيرات» وإن استطاع الجيش الإسرائيلي القيام بهذا الأمر فهذا سيكون أفضل.

في هذا الجزء من العالم، يترجم هذا المعتقد من خلال ضرب الدولة اللبنانية والشعب للحصول على النتائج المرجوة بدلاً من الخوض في معارك كبرى على الأرض لقهر العدو. وقد رأينا هذا التفكير أو هذه الطريقة في التفكير في هجومات إسرائيل ضد لبنان في ١٩٩٣ و١٩٩٦، لهذا السبب ما زالوا يعلنون كيف أنهم يستهدفون مراكز حزب الله بنجاح، ويستهدفون قيادتهم وخطوط التواصل لديهم ونقاط مهمة أخرى في بنائهم العسكري. من خلال اعتقادهم أنهم كانوا يفعلون الصواب. ولكن، هل كان لحزب الله بناء عسكري صلب يمكن أن يتحطم إذا دمرت نقاطه الأساسية؟ هل كانوا يعرفون ما هي هذه النقاط الأساسية؟

أم أنكم كنتم تقصفون الضاحية وتبرروها من خلال الحديث عن إنهاء قيادة حزب الله وبنية

الاتصالات؟ دمرتم الطرقات والجسور بهدف قطع خطوط الإمدادات الخاصة بحزب الله؟ وما زلت إلى الآن أتساءل ما هي الإمدادات التي أوقفتموها من خلال تدمير جسر غزير؟ ومع ذلك فإن الأخبار ووسائل الإعلام الجاهلة في كل الأنحاء كانت تصدق هذه الكلمات، وكانت تستمر في بث تكتيكات الجيش الإسرائيلي الذكية في قطع خطوط الإمداد وتدمير البنية القيادية لحزب الله.

كنت أبتسم كثيراً في تلك الأيام عندما كنت أتحدث مع الصحفيين الذين لم يسبق لهم أن حملوا السلاح في حياتهم، ولكنهم أصبحوا خبراء ومحللين، كيف أن إسرائيل كانت تسحق حزب الله بشكل بطيء ولكن مؤكّد. سألت أحدهم ، ما كان دور قصف السوبر ماركت ومصنع الحليب في تحليله الخاص؟ فلم يكن لديه جواب. أفضل تعليق وجدته كان في إحدى الصحف التي حاولت تبرير ضرب إسرائيل لمحولات الكهرباء في صور «من خلال قطع الكهرباء، تكون إسرائيل قد شوشت على خطوط التواصل والقيادة لحزب الله». حبيبي، إن أبسط مزارع في الجنوب لم يعد على الكهرباء التي أمنتها كهرباء لبنان حتى في أوقات السلام. هذا الكاتب الماهر كان يعتقد أنك إذا قصفت محولات صور فإن المقاتلين في الفندورية سيتوقفون عن القتال.

إن إسرائيل تذكّرت حروبها مع القيادات العربية المركزية التي لم تسمح لأي مبادرات من قبل القياديين الجدد، والتي أصرت على معرفة كل شيء بشكل فوري وهي تتخذ حتى أبسط القرارات، ولكنها لم تفهم أنها في مواجهة بناء لا مركزي يتكوّن من قيادات محلية مستقلة. هذه الوحدات المحلية لم تقلق بشأن إعادة الإمداد أو التحرك، ولم تكن مجبرة على سؤال القيادة العليا بشأن ما يلزم فعله. ليس من المستغرب أن أحد الضباط الإسرائيليين قال «هؤلاء لا يقاتلون كالعرب». وإسرائيل في ثباتها على معتقدها استمرت في البحث عما يعرف بـ «مركز الجاذبية للعمليات»، لتوصّيل ضربات يمكن أن تتسبب في تفكيك حزب الله، ولكن كيف يمكنهم إيجاد شيئ غير موجود؟

الميـدان

لا يهدف هذا البحث إلى تحليل كيف تم خوض المعارك. ولكن المطلوب بعض المراقبة للفهم الأفضل لكيف يمكن أن تكون المعارك المستقبلية.

إن حزب الله ليس منظمة ثرثارة، ونعلم أنها منظمة وصبورة كما نعرف أنها تخطط بشكل دقيق. إن عملية الأسر في ١٢ تموز كانت بشكل واضح مبنية على أساس مراقبة صبورة بالقرب من منطقة عمليات الجيش الإسرائيلي والدفاعات المادية على طول الحدود . إذ كان حزب الله يعلم أن هناك ٣٠ نقطة عمياء على طول الحدود لم يتمكن الجيش الإسرائيلي من مراقبتها. وكان يعلم أن الجيش الإسرائيلي كان ممنوع عليه القيام بدوريات على الحدود، وأن الإنذارات من سياج الحدود كانت تأتي من على مسافة بعيدة.

كان حزب الله يعلم أن إسرائيل لديها نقص في القوة البشرية في هذا الجزء من الحدود، وأن منطقة الأسر لم تتم تغطيتها خلال سنة تقريباً، وأنه كان هناك مشاكل في الاتصالات في النقطة التي سماها الجيش الإسرائيلي وادي ١٠٥، وأيضاً كان يعلم أن جهاز الكاميرات على السياج كان المفتاح للمراقبة الإسرائيلية (والتي تخلصوا منها من خلال القنص في ١٢ تموز).

لا أعلم إن كان حزب الله يعلم أن الجنديين الذين أسرا كانا من ضمن قوات احتياط كانت تُعتبر غير مؤهلة للخدمة. وكان قائد المنطقة قد طلب من قائد الأركان تبديل هذه الوحدة بقوات مدرّبة بشكل أفضل، ولكن قائد الأركان قرر أن يُبقي هذه الوحدة على الحدود إلى نهاية خدمتها في ١٢ تموز.

إن التحليل للتاريخ العسكري لإسرائيل سوف يُظهر أن مفتاح النجاح في الميدان كان القوة العسكرية والتحرك.

يمكن تطبيق قوة النار عندما تعلم أين هو العدو. حزب الله كان يعلم قوة إسرائيل النارية وحضّر لهذا الأمر بشكل جيد.

إن التحرك مهم لتدمير الإمداد اللوجيستي للعدو. ولكن أين كان الإمداد اللوجيستي لحزب الله؟. هل كان في أي وقت من الأوقات يعاني من نقص في الطعام والذخيرة؟

إن استخدام حزب الله الاحترافي لمجموعة من الصواريخ المضادة للدبابات والمختارة بشكل جيد كان يُرعب القادة الإسرائيليين الذين كانوا يخافون من إحراج خسارة دباباتهم الثمينة، أمام مجموعة صغيرة من الميليشيا العربية. فكانوا يستخدمون الدبابات كإسعاف عادة وفي مهمات آمنة إجمالاً بدل من قيادة الهجوم.

أُعطيت الدبابات دوراً هجومياً فقط في وادي السلوقي، وكانت نتائجه معاكسة وفاضحة. أنا متأكد من أن عملية وادي السلوقي سوف يتم مناقشتها كمثال على كيفية التنسيق بين ثلاثة مجموعات في شن هجوم بدل أن تتبادل إطلاق النار.

حزب الله كان يعلم كيف يستخدم معرفته بالأرض ودعم الناس له، بدل الاعتماد على التكنولوجيا والمفاهيم الأكاديمية، وكان يعلم كيف يُحفّز مقاتليه، ويعلم أهمية تحصيل المعلومات من خلال مراقباتهم الخاصة وبأنفسهم، وكان يعلم بنقاط الضعف لدى عدوه، وبالتالي كان يسلّح ويدرّب رجاله على أساس تقويم واقعي للمعارك المستقبلية في جنوب لبنان.

أنا قديم في المنطقة. ولقد رأيت الكثير من الميليشيات والجيوش تشتري الموجود في سوق السلاح وتستخدمه في إستعراضاتها، ولم يكونوا يفكرون إن كانوا سيحتاجون لهذا السلاح، أو إذا كانو يعرفون نوع الحرب التي سيخوضونها، ولكن كان المهم أن إثارة اهتمام من دفع ثمن هذا السلاح. بينما أنا أعلم أن حزب الله قد استخدم كل أنواع السلاح الذي حصل عليه.

من الأمور، هناك أمر أعتبره الأكثر إدهاشاً، والتي لم تتم مناقشته، وهو قوة حزب الله

الدفاعية الموجودة تحت الأرض والتي أستغرقت سنوات من البناء. طبعاً إن قراراً كقرار بناء هذه القوة في مارون الراس وعيتا الشعب واللبونة لم يؤخذ في آخر لحظة، بل هو نتيجة سنوات من التحضير. فإذاً، كيف علم حزب الله ومنذ سنوات ما هي البوابات الثلاثة التي سوف يستخدمها الجيش الإسرائيلي من بين ٢٤ بوابة عندما يدخل إلى لبنان؟ أتمنى لو أنني أعلم الجواب. لم أسأل أحداً في حزب الله، ولن يجيبونني على أية حال. وأيضاً هناك نقطة ثانية لم تسمعوا بها على الأرجح وهي : في سنة ٢٠٠٠ كانت الأمم المتحدة تريد تنظيف الألغام التي هي خلف الإسرائيليين على الجانب اللبناني، ولكن حزب الله رفض هذا الأمر وبشكل لائق، وقال وقتها إن هذه الألغام ليست مهمة لأنها لم تكن على أراض زراعية، وبالتالي لن تؤثر على حياة الناس. العاملون الدوليون الذين يتعاملون مع قضية الألغام لم يتفهموا موقف حزب الله وكانوا منزعجين. ولكنني في أثنائها حزرت أن حزب الله أراد استخدام حقول الألغام في لبنان ضد أي غزو إسرائيلي على لبنان، بدل أن يكون الغزو على مساحة واسعة مع القوة العسكرية الهائلة، مما اضطر الجيش الإسرائيلي لاستخدام ممرات آمنة في حقل الألغام الخاص به، ولكن حزب الله كان يعلم أماكن هذه الممرات الآمنة.

الوحدة الإسرائيلية الأساسية في الحرب كانت في قسم الجليل، والمعروف بقسم ٩١، والذي سبق واستقال قائدها الجنرال غال هرش. إن قسم المشاة هذا هو المسؤول عن الحدود بشكل كامل، وليس لهذا القسم قوات عضوية ولكنه يقود الوحدات الموجودة في منطقة عملياته. وفي هذه الحرب كان لدى هذا القسم ٧ ألوية و٣٠ فرقة قتالية تحت إمرته. يتركز التحقيق الآن حول اداء هذا القسم بشكل خاص لفشله في معارك بنت جبيل وعيتا الشعب ومارون الراس. كانت هذه الوحدات تعلن أنها احتلت ٣ قرى وقتلت عدداً من مقاتلي حزب الله، ولكن في اليوم التالي كان جنودها هم الذين يُقتلون في الأماكن ذاتها.

والأمر الأكثر إحراجاً كان أن صواريخ الكاتيوشا استمرت في الانطلاق من هذه القرى التي كان من المفترض أن تكون قد دمرت وحررت. إن اللافت أن معظم قياديي المجموعات الإسرائيلية لم يقودوا قواتهم في الميدان، بل بقوا جالسين في مراكزهم في برانيت، وكانت لوجستياتهم فاضحة، أحياناً كان يتم وقف عملية كاملة من أجل إخلاء جندي جريح. لقد نسوا أنهم لم يكونوا يقومون بعملية أمنية في قرية فلسطينية، ولكنهم كانوا في حرب بلبنان.

هناك مفهوم آخر قد فشل وهو عمليات القصف الدقيقة المكثفة، فقد قامت القوات الجوية الإسرائيلية بأكثرمن ١٥,٠٠٠ غارة (١٠,٠٠٠ منها كانت غارات قتالية)، وهاجمت أكثر من ٧٠٠٠ هدف، وأطلقت مدفعياتها أكثر من ١٥٠,٠٠٠ جولة وهذا أكثر مما أُطلق في حرب ١٩٧٣، إذ أنها شنت أقل من ١٠٠٠٠٠ غارة عندما كانت تخوض حرب وجود ضد أكبر جيشين عربيين.

في صيف ١٩٩٣ اعتمد الجيش الإسرائيلي هذا النوع من الحملة ضد حزب الله من خلال

القصف من الجو، ومن المدفعيات المتمركزة في أماكن بعيدة، ولم يكن لدى حزب الله الكثير ليفعله، ولكن في ١٩٩٦ تعلّم الدرس. وكان أن اعتمد الجيش الإسرائيلي مرة ثانية على عمليات القصف المكثفة في عام ١٩٩٦، ولكن في هذه المرة حفظ حزب الله عن ظهر قلب المبدأ الإسرائيلي القائل بتكثيف إطلاق النار، وعرف أن الطريقة الوحيدة لمواجهة كثافة النار تكون بضرب العمق الإسرائيلي.

في صيف ٢٠٠٦ كان حزب الله يعلم أن عقيدة الجيش الإسرائيلي هي في القصف العنيف والمكثف، وكان يعلم أن محاربة هذا القصف لم تكن من خلال تحدي هذا القصف، بل من خلال ضرب إسرائيل بشكل كبير.

في ٢٠٠٦ لم يُؤثر هذا القصف بشكل حقيقي على حزب الله كقوة عسكرية، ولكنه كان فعالاً ضد المتاجر، والمصانع ومحطات البنزين والجسور في كل أنحاء البلاد. وفي الكثير من الحالات لم تكن المدفعيات الإسرائيلية تعرف أسماء القرى التي كانت تسحقها، بل زودوا بإحداثيات وقيل لهم أن يقصفوا كل ما رأوه في تلك المربعات.

أما الآن فقد تعلّمت إسرائيل أن أي عملية على أساس القصف من الجو أو من الأرض يمكن أن تمحق القرى وتدمّر جسور المشاة التي تستخدم على شواطىء الدامور، ولكنها لن تنهي عدواً يعتمد حرب العصابات.

عندما أدركت إسرائيل هذا الأمر، بدأت بإرسال قوات مشاة بشكل متقطع ولكن بدون خطة حقيقية. وأنا ما زلت أتساءل لماذا أرسلت إسرائيل مجموعات لتدمير قواعد لحزب الله موجودة على طول الحدود، وقد تم إخلاؤها وتدميرها مسبقاً، ولم يكن لديها أي هدف هجومي على أي حال. وأتذكّر كيف أن تدمير مواقع المراقبة هذه كان يُقدّم على أنه إنجاز قتالي حقيقي. وكانت هناك حركة علاقات عامة جيدة للتأثير في الجمهور الإسرائيلي وبعض الصحفيين السذج. ولكنني أعتقد أنه خلال أول أيام الحرب أصبحت إسرائيل واعية للفخ الذكي الذي وضعه حزب الله باستخدامه الذكي لمجموعة من الصواريخ والوحدات الدفاعية المحلية.

كان على إسرائيل إما منع المواجهة على الأرض، أو كشف أرضها للصواريخ، أو دخول لبنان، ليس فقط لاحتلال التلال وبعض البيوت في أطراف القرى، ولكن لمسح تام للمنطقة بما فيها القرى، وأخذ مواقع حزب الله الواحد تلو الآخر، وتحمل خسائر فادحة في الأثناء.

إن أكبر وأقوى وأكثر الجيوش تطوراً في الشرق الأوسط لم يستطع تحمل التعامل مع ٥٠ مقاتلاً كانوا يُدافعون عن بنت جبيل أو عيتا الشعب لأكثر من أسبوعين. فليس من المستغرب أن إسرائيل بدأت بإعلان أعداد القتلى لدى العدو أو أنهم اعتقدوا أنهم قد قتلوا.

عندما لم يُحطّم حزب الله، ولبنان لم يستسلم كما كان يُعلن من قبل المفاهيم والمعتقدات الإسرائيلية. أصاب قيادة الجيش الإسرائيلي الهستيريا، ما سبب وجود مئات الآلاف من القنابل

العنقودية في كل أنحاء جنوب لبنان؟ إن هذا الأمر شكّل فضيحة وأدى إلى أن يتهم رئيس أركان الجيش الإسرائيلي مدفعياته بالقصف بدون أوامر، فأجاب ضباط المدفعيات أن كل جولة من القصف كانت بإذن من القيادة العليا ويمكن لهم أن يثبتوا ذلك.

«ما فعلناه كان جنونياً ووحشياً، لقد غطّينا مدناً كاملة بالقنابل العنقودية». هذه الجملة لو كنت أنا من قالها، لكنت أتُهمت بالعداء لإسرائيل، ولكنها ملاحظة من رئيس وحدة الصواريخ في الجيش الإسرائيلي وقد وردت في إحدى الصحف الإسرائيلية «هآرتز». الضابط نفسه قال: إن نظام قصف الصواريخ المتعددة استخدم أيضاً، مع أنه من المعروف أنها غير دقيقة مع هامش من الخطأ يقرب من ١٢٠٠م. من الهدف المقصود.

لم يتم قصف صواريخ القنابل العنقودية كردّ على صواريخ حزب الله ولكن كقوة ردع، ولا يمكنك أن تطارد قاذفات صواريخ حزب الله وصواريخك تنثر حول البلد، ولكن الآن نعلم أن الجيش الإسرائيلي لا يطلق القنابل العنقودية إلى الأماكن التي ينوي دخولها، ولهذا كان أكبر وجود مكثف للقنابل العنقودية في جنوب صور، تبنين وشمال الليطاني، وكل الأماكن التي لم ينو الجيش الإسرائيلي دخولها.

لا شكّ في أن القوة الجوية كانت مفتاح العمليات الإسرائيلية في لبنان. مع أنني لا أملك أي معلومات من جهة حزب الله، ولكن ما فهمته من الإعلانات الإسرائيلية أن القوة الجوية استطاعت أن تضرب بعض صواريخ حزب الله المتوسطة والبعيدة المدى، خصوصاً بتقليص مدة فعاليتها بعد أن يتم إطلاقها. ولكن هذا الكلام لا يصدقه الكثيرون من الناس حتى وإن كان صحيحاً. إن النجاح هو للاستخبارات أكثر مما هو للقوة الجوية، ولا أدري إن كانت الشاحنات التي قصفتها طائرات الهليوكابتر في موقف الأشرفية هي من ضمن لوائح الأهداف التي يعمل الإسرائيليون على عدّها.

حسب تقرير إسرائيلي، كان هناك صاروخ زلزال٢ في شارع مونو، ولكن الحقيقة وكما علم الجميع في بيروت أنها كانت مضخة مياه قديمة، وتعلمون أن هذه المضخات نراها في كل أنحاء بيروت، تضخ المياه تحت المباني.

الصحيح أن القوة الجوية كانت ناجحة في تدمير قاذفات م٢٢٠ و ٣٠٦م. خلال دقيقتين أو ثلاثة دقائق بعد إطلاقها، وهذا لن يصبح أفضل في الحرب القادمة، فالتحسن الوحيد يكمن في جمع المعلومات الاستخباراتية قبل بدء المواجهات.

بالرغم مما نقرأه عن نجاح سلاح الجو الإسرائيلي في القضاء على صواريخ حزب الله، إلاّ أن حزب الله قد فاجأ إسرائيل باستخدام أسلحة لم يتم استخدامها في القتال من قبل.

علمت الاستخبارات الإسرائيلية أن حزب الله يمكن أن يستخدم صوايخ غراد ٢٢٠ملم. وزلزال-٢ ٦٠٠ملم. مع مدى ٢٠٠ كلم.

إن استخدام حزب الله لصواريخ غراد مداها ٥٠كلم، كانت مفاجأة كبيرة. والفجائية كانت أيضاً أن لدى حزب الله ٢٠٠ قاذفة من القاذفات المتحركة والتي يمكن أن تقصف صواريخ٢٢٠ملم. و ٢٤٠ملم.

لم يتمكن سلاح الجو من التعامل مع قاذفات الصواريخ قصيرة المدى، وكان حزب الله يقصف القدر الذي يريده باستخدام قاذفات فردية وموزعة في كل أنحاء جنوب لبنان، وبالاستخدام الجيد لساحة الميدان.

هذا المستودع من الصواريخ البسيطة هو المفتاح لاستراتيجية حزب الله في السيطرة على المواجهة، وسوف يتم مناقشة الموضوع في المراحل الآتية، كجزء من خطة حزب الله الذكية لانجرار إسرائيل إلى جنوب لبنان وأماكن القتال.

أيضاً كان هناك حرب الطائرات من دون طيار والمناطيد التي قامت بما يقرب من ١٥٠٠ طلعة دامت لأكثر من ٢٠،٠٠٠ ساعة لتجميع المعلومات ومهمات استطلاع وتصرير الأهداف، مع أن الأمر لم يتم الإعلان عنه بشكل رسمي، وقد تم استخدامها أيضاً لاستهداف مدنيين من مرجعيون، وحين سُمح لهم بالمغادرة من قبل الجيش الإسرائيلي تم قصف الموكب على الطريق، وقتل وجرح العديد من المدنيين.

معظم صواريخ حزب الله تم اكتشافها من قبل طائرات التحكم عن بعد والتي كانت ترسل صورها مباشرة إلى طائرات الأباتشي والأف ١٦. وهذه الطائرات كانت في كل أنحاء أجواء لبنان لمدة ٢٤ ساعة واستطاعت أن تلتقط صواريخ متوسطة المدى وإرسال معلومات عن الهدف إلى الطائرات خلال دقيقة واحدة.

الوحدات الأصغر على الأرض كانت تطلق طائراتها الاستكشافية الصغيرة، وهذه الطائرات هادئة جدا ووزنها فقط ٦ كلغ ويمكن أن تطلق من قبل جندي واحد وكأنها نموذج طائرة. تبقى في الهواء لمدة ٩٠ دقيقة ومولّدها الهادىء يجعلها مفيدة في الليل. وتم أيضاً استخدام (الهرميز UAV) والتي يمكن أن تطير لمدة ١٦ ساعة لضرب الأهداف في الليل وفي النهار، وهذا كان يسمح لقوة الجو الإسرائيلية تقليص استخدام الهلكوبتر الذي فيه الكثير من المخاطرة، مع أن حزب الله لم يظهر أي من صواريخ الأرض جو خلال القتال. اكتشفنا جميعاً أن الأباتشي كانت مثالية في ضرب الأهداف غير المحصنة وللاغتيالات، و لكنها ليست مثالية عند مواجهة عدو مسلح بشكل جيد ومدرّب.

أحد الأمور التي لم يتم تغطيتها من قبل المحللين هو الاستخبارات التكتيكية. من الواضح أن الجيش الإسرائيلي لم يكن يملك المعلومات الكافية عن بنية حزب الله وعملياته وانتشاره.

في غزة معظم الهجومات الجوية يتم قيادتها من قبل عملاء على الأرض. أما في لبنان، فقد كانت هناك إشاعات عن عمليات كهذه ولكنني أعلم أنها لم تكن على صعيد كبير.

وجد حزب الله طريقة في إيقاف عمليات استخباراتية لإسرائيل والتي تتنصت على على كل شيء. لم يستخدم حزب الله أي جهاز يمكن للجيش الإسرائيلي التنصت عليه أو فهمه. كما فشل الجيش الإسرائيلي في تقويم المعلومات الاستخباراتية عن نقل وتحصيل السلاح من قبل حزب الله. ولا أظن أن الجيش الإسرائيلي وإلى اليوم يعلم عدد المقاتلين الذين يمكن أن يكونوا على الأرض ومن يقودهم.

الإحراج الأكبر كان في عدم وجود معلومات عن نظام التخزين تحت الأرض لحزب الله.

انظروا إلى ما قاله قائد اللواء يوفال هليش ضابط الاستخبارات الرئيسي في الاستخبارات العسكرية في الجيش لصحيفة هآرتس: إن مواقع حزب الله كانت مخبأة بشكل جيد واكتشفهم الجنود الإسرائيليون فقط عندما صادف أنهم كانوا يقفون فوق المخازن الموجودة تحت الأرض.

مفاجأة أخرى لإسرائيل كانت وبخلاف الجيوش العربية. عزم حزب الله على القتال في الليل، وإلى الآن كان الجيش الإسرائيلي يظن أنه هو وحده يستطيع العمل ليلاً.

هنا أريد أن أضيف هذه العملية الحسابية التي رأيتها في جريدة يديعوت أحرونوت: هذه الحرب كانت أكثر الحروب تكلفة في تاريخ إسرائيل من غير أن يتم عد الخسارة البشرية، وإن التكلفة العسكرية والمدنية وصلت إلى ٥ بليون دولار.

قتل الجيش الإسرائيلي ما يقرب عن ٢٥٠ من رجال حزب الله حسب معلومات الحزب، والأضرار المترتبة على حزب الله لم تكن قيمتها أكثر من٥,١ بليون دولار. إن قتل ٢٥٠ من رجال حزب الله كلف إسرائيل ٢,٥ بليون دولار ، أي ١٤ مليون دولار لكل مقاتل، وهذا يعني أن الجيش الإسرائيلي والذي يرى نفسه أكثر الجيوش فعالية في العالم أنفق ١٤ مليون دولار لقتل رجل واحد من حزب الله. إن مسؤولين في الاستخبارات الإسرائيلية يقدرون أن جعل مقاتل واحد من حزب الله يتقاعد من جناحه العسكري يمكن أن يكلف ٥٠٠،٠٠٠ دولار، وكان يمكن لإسرائيل أن تنفق بليون دولار وتشتري تقاعد ٢٠٠٠ من مقاتلي حزب الله، وتوفر ٢،٥ بليون دولار، دون خوض حرب، ودون صواريخ الكاتيوشا ودون القنابل العنقودية ودون وجود أي موتى أو جرحى هكذا قالت الصحيفة.

نتيجتي المبدئية : إن الحرب التي شنت من أجل إعادة قوة الردع وصورة الجيش الذي لا يقهر انعكست نتائجها ليس فقط من خلال تآكل قوة الردع بشكل زائد، بل أيضاً بتعزيز صورة حزب الله.

الحـرب القادمـة:

إن حزب الله والجيش الإسرائيلي يتعلمان ويراجعان ويقومان باستمرار أداءهما وأداء أعدائهما. وسوف يقومان ببعض التغييرات، لكن هذه النتائج لا تنطبق فقط على حزب الله وإسرائيل. فقد رأى «تقرير الشرق الأوسط الاستراتيجي» أن لهذه الحرب نتيجتين مهمتين

وخطيرتين: الأولى أن الدول العربية الآن تشك في القوة الإسرائيلية وقد تقوم في المستقبل بمهاجمة إسرائيل وهذا ما كان مجرد التفكير فيه مستحيلاً قبل الحرب. لذلك ستضطر إسرائيل على إعادة صياغة جذرية لعقيدتها العسكرية وإعادة تجهيز جيشها وتدريبه من جديد.

بضع مئات من مقاتلي حزب الله وقفوا بوجه أربعة ألوية عسكرية إسرائيلية، بل وفي وجه طائراتها المتفوقة وسلاح بحريتها. ومن الممكن أن هناك جهات في المنطقة قد تستنتج أن الجيش الإسرائيلي أصبح ضعيفاً وعاجزاً عن خوض أي حروب جديدة.

وهذا ما يصعب تصديقه، فمنذ حرب ١٩٦٧ ما زال الجيش الاسرائيلي أقوى جيش في الشرق الأوسط وصار جيشاً لا يقهر في أذهان العديدين وأي تغيير في هذا الفهم سيكون له مفاعيل خطيرة على المنطقة.

لقد كانت حرب صيف ٢٠٠٦ بمثابة إنذار للجيش الإسرائيلي، فالخبراء الحقيقيون في إسرائيل واعون جداً أن قدرة حزب الله العسكرية لم تضرب بشكل جيد. لذلك فإن الحرب القادمة ستكون أعنف، وسيشارك فيها قيادة عسكرية إسرائيلية مركّزة وعدد كبير من جنود الاحتياط. وسوف يحاول الجيش الإسرائيلي التوغل سريعاً في جنوب لبنان، ولن يكون تحركه فقط من الجنوب إلى الشمال، بل سيكون تحركاً في كل اتجاه للضغط على أهداف حزب الله في كل لبنان. وسوف يحاول الجيش الإسرائيلي أن يضرب بعنف ويتحرك بسرعة أكبر وبدون توقف. فقد لاحظت إسرائيل أن الاداء المفاجئ لوحدات الدفاع في القرى لم تكن بحاجة إلى إمدادات ولا إلى اتصال مباشر بغرفة عمليات القيادة وقد غيرت مسار الحرب. لذلك في المرة القادمة ستحاول إسرائيل السيطرة على هذه القرى بسرعة لمنع إبطاء حركة الجيش الإسرائيلي كما فعلوا بشكل مدهش عام ٢٠٠٦.

الآن تدرك إسرائيل أنها تواجه قيادة عسكرية على قدر عال من التدريب، وأنها تحكم سيطرتها على مقاتليها وعلى المعركة، فكل صاروخ أطلق كان ضمن خطة المعركة. لم يكن نظام قيادة حزب الله مرتكزاً على قاعدة هشة. إذ إن شرائح الاتصالات التي اعتمدها حزب كانت رغم بساطتها فعالة جدا. لقد اعتقد الاسرائيليون كما اعتقد كثيرون غيرهم أن حزب الله لن يستطيع خوض المعركة بهذا العدد القليل من المقاتلين، متجاهلين الوحدات المحلية الموجودة في القرى. فالقوات الخاصة في حزب الله الآن محترفة ولها قدرة على التحرك بسرعة، يمكنهم أن يحاربوا كوحدات كما يمكنهم استخدام أسلحتهم بمهارة قصوى ويستطيعون الاستفادة القصوى من الأرض. وإن برامج تدريب الجنود الإسرائيليين سوف تشمل من الآن التدريب على إيجاد وتدمير الخنادق التي استخدمها حزب الله بفعالية كبيرة.

لقد لاحظ الجيش الإسرائيلي أنه عندما كانت وحدات النخبة كوحدة المظليين ولواءا غولاني وغفعاتي تقوم بمهامها على أكمل وجه، أسفرت الوحدات العادية عن مشاكل في التعامل مع نوع

المعركة التي واجهوها وبرهنوا عن فشلهم في المعارك الصغيرة عندما لا يؤازرون بغطاء ناري. لا شك في أن الجيش الإسرائيلي سيقوم بمناورات للوحدات الصغيرة خلال التدريبات للجولة القادمة. غير أن المهمة الرئيسية في إعادة تاهيل الجيش الإسرائيلي ستكون بإعادة بناء القدرة القتالية لجنوده.

ما زال هناك عدد من الإخفاقات التي لم يتم الحديث عنها حتى في أفضل وحدات النخبة. ولكن دراسة الحالة التي سوف تكون الأكثر إحراجاً هي فشل أحد أقسام الاحتياط في وحدة المشاة، ومجموعة الدبابات التي أرسلت إلى الداخل لإيقاف قصف الكاتيوشا من منطقة مرجعيون- الخيام.

إن مجموعة الدبابات هي التي سيطرت على ثكنة مرجعيون، ولم تستطع فعل شيء حيال القصف من الخيام، وخسرت العديد من الآليات. وفي الحقيقة، إن إحدى مجموعات الدبابات هربت من الساحة بشكل سريع إلى درجة أنها نسيت قائد المجموعة وحده في الميدان. هذه المجموعة دمرت في إحدى الحالات المشهورة، وأحد قادة قوة الدبابات هو من نفس المجموعة التي أمرت بإخلاء الدبابات المتضررة وإعادتها إلى إسرائيل، أعلن أنه ليس قادراً على تنفيذ الأمر، واتصل بقائد سابق من بيته وطلب منه الذهاب إليه، وبترك عمله كقائد والانضمام إلى القتال كجندي.

في الحرب التالية سوف نرى التغيرات في إدارة المعلومات العامة لدى الجيش، وسوف يصبحون أقل انفتاحاً للإعلام والأخبار. لدي إحساس أنهم في المرة المقبلة لن يركزوا على إعلان خسائرهم كما فعلوا هذه المرة في ٢٠٠٦؛ لأن الجمهور، وبالتالي الجيش، كانوا يعيشون هوس الخسائر، وفي بعض الأوقات توقفت وحدات بأكملها عن التحرك عندما كانت تنظم إخلاء أحد الجنود الجرحى، لأن القادة كانوا يعتقدون أن نجاحهم سوف يتم قياسه ليس بكيف يقاتلون عدوهم بل بكيف يحمون جنودهم. إنهم نسوا أن التركيز الزائد على حماية القوة إذا أخذ مداه، فإنه يأخذ حيزاً على حساب التواصل مع العدو ومواجهته في القتال.

من دون أدنى شك، إن إسرائيل لديها أحد أفضل الخدمات الصحية وخاصة في ساحة المعركة وإلا لكانت نسبة خسائرها أعلى بكثير. وهناك الكثير الذي يمكن أن نتعلمه منهم في هذه الحرب، لقد استغرق الجيش مهمة إخلاء الجرحى ما يقارب ٣،٥ ساعات، وهذا الوقت معقول في جو القتال. ولكن الجيش الآن يتدرب على إعطاء أفضل عناية لعدد أكبر من الجرحى في وقت واحد ... لاحظت إسرائيل أنها كانت تخلي ٤،٥ جنود جرحى في كل غارة وهذا يسبب مشاكل وعوائق في إعطاء العناية الفاعلة لجميع الجرحى.

سوف يكون هناك تغيرات في العتاد أيضاً. لقد تسبب استخدام حزب الله السلاح المضاد للدبابات بأكثر الخسائر من سلاح الدبابات والمشاة. فقد علمت إسرائيل أن لدى حزب الله

صواريخاً تستطيع اختراق أكثر الدبابات تحصيناً ولكنها لم تتحضّر لذلك. كما خسرت ٣ دبابات مع طوقمها جراء اصطدامها بالألغام الكبيرة. لم يكن لأي من الدبابات أي حماية في داخلها كخطوة أولى. الدبابات مجهزة بنظام حماية مصنوع محلياً والمعروف «بتروفي» وسعر كل دبابة سوف يكون أكثر من ٢٠٠،٠٠٠ . ولن أكون متفاجئاً إن لم أر الميركافا ٢ و ٣ في ساحة القتال بعد الآن. أنا أظن أنهم ضعفاء جداً أمام السلاح المضاد للدبابات وغير قادرين على تحمل الأرض القاسية الوعرة لجنوب لبنان. إن المجموعة ٤٠١ والتي خسرت ١٢ من جنودها والعديد من الدبابات، هذه المجموعة التي لم تتذكر إطلاق مولدات الدخان عندما أصبحوا في كمين. الآن يتعلم الجنود العيش في دباباتهم وأكل حصتهم القتالية داخل دباباتهم والنوم في دباباتهم.

استطاع حزب الله أن يدعم قواته لمدة ٣٣ يوماً من القتال دون الحاجة إلى مهمات إعادة تزويد بالمؤنة، حتى مع فقدان الطعام والمياه.

ستتذكر إسرائيل في الحرب التالية أن المجتمع والجنود معتادون على وسائل الراحة في الحياة، ولإيقاف الشكاوى سيتطلب مصاريف كثيرة وأنظمة جديدة.

في لبنان، الجيش الإسرائيلي كله يقاتل قوة غير نظامية على ساحة واحدة وسرعان ما انتهت ذخيرته حتى أن تأمين السلاح السريع من الولايات المتحدة الأميركية لم يساعد.

إسرائيل خاضت حرباً مع مصر وسوريا في ١٩٧٣، عندما طلبت مساعدات من أميركا في ٢٠٠٦ في ٢١ تموز تلقت واشنطن طلباً من إسرائيل أنها تحتاج إلى المزيد من الذخيرة الذكية، هل يمكن لأحد أن يقول لي إن إسرائيل كانت قد نفذت لديها الذخيرة خلال ٩ أيام خلال قصفها لأهداف حزب الله؟ أم أنها كانت منشغلة في تدمير بلد بأكمله؟

إن عمل القوة الجوية لن يتغير وسيجب عليه التعامل مع القاذفات بعد أن يتم إطلاقها دون أن تنسى أنه لم يتم تحدي القوى الجوية في الجو وبشكل قليل من الأرض. الطقس كان مثالياً المساحة المغطاة كانت صغيرة والمسافة قصيرة و قريبة من القاعدة، هذا ما سمح لهم البقاء لمدة أطول فوق سماء لبنان. هذه كانت حالات مثالية والتي يمكن أن لا تكون موجودة في المرة القادمة بالرغم من كل التقارير الفارغة عن أن القوة الجوية الإسرائيلية قد سحقت حزب الله من خلال تدمير ٨٠ من صواريخه المتوسطة والبعيدة المدى . في اليوم الأول أظهرت الحرب والأهداف التي اختيرت بشكل مناسب، أظهرت أن هذه الدعاوى لم تكن دقيقة. إن إسرائيل واعية بأن حزب الله استطاع أن يتفوق بنفس درجة التفوق الإسرائيلي من حيث قوة النار ومن خلال استخدام أسلحة مضاد للدبابات والمشاة. ويمكن أن نرى التغيرات الكبيرة في نظام الجيش في المعركة بعد سلسلة من الجولات المحرجة والقاتلة في التنسيق بين المجموعات في نفس القسم. إن عمل القسم ١٦٢ والذي كان في منطقة الطيبة-مركبا- عديسة- القنطرة- الغندورية، سوف يتم دراسته بشكل جيد. وهجوم مجموعاته المسلحة ٤٠١ التي وقعت في كمين في وادي السلوقي.

نفس القسم في لواء «نحال» والذي أتوا به بعملية إنزال ضخمة وتم التخلص منه من قبل المقاتلين في الغندورية. حتى اليوم مازالت هاتان المجموعتان تناقشان قضية: من لم يساعد من؟ ولجعل الأمور أسوأ فإن دبابات الـ٤٠١ تم ضربها من الخلف من العديسة بعد أن كانت في سيرها إلى داخل وادي السلوقي. ومجموعة «كرملي» الاحتياطية والتي كان يجب أن تؤمن منطقة العديسة لم تقم بعملها. وبالطبع إن عدو إسرائيل في الحرب التالية سوف يكون قد تعلم من تجربة الـ٢٠٠٦ في لبنان، ولن يجعل قاذفات الصواريخ سهلاً للطائرات الإسرائيلية. وسوف تقوي إسرائيل نظامها الدفاعي الذي يمكن له أن يستخدم ضد الكاتيوشا والصواريخ الفلسطينية الصنع «القسام»، وستتم دراسة العديد من الخيارات: طائرة الاعتراض التي يمكن أن تقذف من الجو، وشيء آخر مبني على ١٦٠ملم. من الصواريخ، وآخر على الليزر، وأخيراً رشاش يتحكم به من قبل الرادار واسمه «سكاي شيلد».

إن القوة البحرية الإسرائيلية خسرت باخرة العلم بصاروخ دودة قز واحدة. المرة المقبلة سوف يطلقون الرادار. في الحقيقة في الحرب التالية يمكن أن نرى أن القوة البحرية سوف تستخدم للمرة الأولى الآليات السطحية غير المقادة من أشخاص والتي ستستخدم للتجسس وقوة الحماية، البحث والإنقاذ، ومهمات الحرب الإلكترونية. ثم يتم استخدامها لمهمات قتالية أيضاً. فكونوا حاضرين لرؤية بعض الزوارق السريعة الفاخرة والتي لا يوجد فيها أحد.

سوف نرى بعض التغيرات في ما يتعلق بالاحتياط : فيمكن رفع سن التقاعد لدى الضباط والذي هو مبرر لأن الخيانة التي يرونها تصدر من عدد من القادة صغيري السن المستعدين للبقاء لمدة طويلة. عدد الأيام القصوى التي كان يخدمها الإحتياط كانت ١٨٠ يوماً ولمدة سنة، وهذا العدد الذي تقلص بعد حرب لبنان في ١٩٨٢ سوف يزداد ، وسوف يخضع الاحتياط لتدريب أكثر. الجيش الإسرائيلي ينوي أن ينفق أكثر من ١٠٠ مليون دولار لتدريب وإعادة تجهيز وحدات الاحتياط لديه.

إن مدرسة القيادة للجيش الإسرائيلي المنسية سوف يتم إعادة تنظيمها لتعليم مهارات القيادة التي كانت مفقودة عند القياديين الكبار، وفي الحقيقة إن أكثر من ضابط كبير في الجيش سوف يذهب إلى المدرسة، إن قاعدة التدريب على محاربة الميليشيا قرب حيفا والتي تم تأسيسها في أواخر التسعينات للتعلم على كيفية قتال حزب الله قد أغلقت بعد عام ٢٠٠٠، والآن أُعيد فتحها.

إن أكبر مهمة للاستخبارات الإسرائيلية الآن هي مشاهدة وفهم تحضيرات حزب الله للجولة القادمة. وسيحتاجون للمزيد من المعلومات على الأرض. إسرائيل تعلم أن حزب الله سوف يستمر بتطوير مستودع الصواريخ، وبتحسين البنى التحتية لحماية الصواريخ البعيدة المدى. إن

حزب الله يعلم أن أنشطته الأكثر فعالية كانت من خلال الصواريخ القصيرة المدى، وسيتم تقوية هذا النشاط، وسوف ترى إسرائيل إن كان حزب الله سيوزع مكاتبه بدل من تركيزها كلها في الضاحية. طبعاً إسرائيل ترغب في أن تعلم إن كان حزب الله يستطيع أن يتغلب على أحد أهم نقاط الضعف لديه وهي التحرك في ساحة المعركة، ويعني ذلك القدرة على نقل الرجال والمعدات من قرية إلى قرية.

فشلت الاستخبارات الإسرائيلية في فهم بنية حزب الله العسكرية، إن مبدأ ضرب نقاط الوصل المهمة لقطع التواصل بين رجال حزب الله وبين قيادتهم على الأرض فشل فشلاً ذريعاً، وإن استخبارات الجيش الإسرائيلي سوف تعمل كجامع للمعلومات ومحلل وليس كمفكر أكاديمي.

إن أكبر خسارة في هذه الحرب لإسرائيل كانت قوة ردعه وأسطورة قوتها التي لا تهزم، والجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر، لا أعتقد أن إسرائيل تتحمل أن لا تكون في موقع يُنظر إليها كقوة مسيطرة في المنطقة، وسوف تخوض إسرائيل حرباً ثانية لترى من هو المسؤول أو المسيطرفي المنطقة، ولكن عليها أن تتذكّر أن عدوها الآتي هو حزب الله مرة أخرى، وسوف يقاتل ثانية للدين وللوطن وللدفاع عن بيوته.

إن الجولة الثانية في لبنان، سوف تكون قاتلة بشكل أكبر مع إمكانية أن تمتد إلى خارج لبنان، فإن إسرائيل سوف تسعى إلى معاقبة من ترى أنهم يدعمون حزب لله.

أعلم أنني تركت أمراً هاماً وهو أمر يمكن أن يعقّد الجولة الثانية في لبنان، وهو اليونيفيل الجديدة، إن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة منفصلة، ولكني أعلم أنه إن كانت الجهات المعنية في الصراع تريد خوص الحرب، فلا يمكن لليونيفيل إيقافها.

أنا لست من مثيري الحروب، ولقد رأيت العدد الكافي منها، وأنا أيضاً لست رجلا يرتعب بسهولة ويصدق كل شيء يقال في منطقتنا. عبر السنين تعلمت أن أقرأ بين السطور، ولكن منذ اليوم الذي انتهت فيه الحرب، وبعض صانعي القرار الأساسيين في إسرائيل والجهات العسكرية العليا يدقون طبول الحرب.

لقد استخلصوا أن سوريا وحزب الله يمكن أن يبدأوا حرباً في صيف ٢٠٠٧. فأطلق الجيش الإسرائيلي برنامج تدريب وأسلحة جديدة.

إن ما لا استطيع أن أقرأه بين السطور هو هل هي تحركات أم هي خطة دبلوماسية- سياسية لاستعادة جزء من قوة الردع التي خسرت على الأقل، أم أنها حركة يقوم بها السياسيون والعسكريون القدامى للبقاء في عملهم من خلال الظهور بمظهر القوي، أم هي طريقة الجيش الإسرائيلي الكلاسيكية للحصول على المزيد من الدعم المالي، أم هي خطة تحرك حقيقية؟ وبالمناسبة، ولعدة سنوات كان مطلوب من الرجال الإسرائيليين خدمة عسكرية لمدة ٣ سنوات.

وكان الناس يشتكون من طول المدة، وكانت هناك خطط لتقليص مدة هذه الخدمة. وأيضاً كان هناك خطط لتقليص عدد القوات الموجودة على الأرض، وكل هذه الخطط تم نسيانها الآن. ولا يوجد حديث بعد الآن عن جيش صغير من المتطوعين يمتلك أحدث التقنيات.

لقد قرروا أن يتعلموا كيف يخوضون حرباً من جديد، بعد أن تنتهي حرب الجنرالات عندهم.

من تداعيــات الانتصــار
نهايــة عهـد استراتيجيـا المغـامرة بـالحـرب..

الباحث والكاتب في قضايا الفكر العربي
أ. إدريس هـاني (المغـرب)

تفكيك النموذج الإرشادي لسياسة التدخل الأمريكي

ليس أيسر على القوى المهددة للسيادة والخارقة لقواعد المنتظم الدولي في مواجهة خيار المقاومة، إلا التذرع بورقة الإرهاب التي أكسبتها الولايات المتحدة الأمريكية هذه الأيام منزلة النموذج الإرشادي لتفسير كل الأحداث والسياسات التي تشهدها اليوم العلاقات الدولية. ذلك لأن جل النماذج التي قدمها خبراء أمريكيون طيلة العقدين الأخيرين على رجع صدى التحدي الكاسر لصمت الفراغ الدولي بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، لم تكن كافية لتفي بالغرض ، من حيث أنها لم تقدم مخارج واقعية وعملية لهذه اللعبة الاستبدالية لملأ مكان المنافس السوفياتي. إن أطروحتين من طراز نهاية التاريخ للخبير الأمريكي فرنسيس فوكوياما أو صدام الحضارات للخبير الأمريكي هينتنغتون ، قدمت أفكارا فلسفية وثقافية وأحيانا حقائق لا تصلح إلا للتحليل لا إلى أفكار قابلة للأجرأة دونما تحدي حقيقي من المنتظم الدولي. إن اختبار ردات الفعل بعد طرح الفكرتين ، أكدتا بما فيه الكفاية على أن لا جديد تحت الشمس قابلا لإحداث هزات في النظام الدولي. فنهاية التاريخ وصدام الحضارات، أثارت ردود فعل من داحل الكتلة الغربية نفسها ـ نذكر الرأي العام الأوربي وجزءاً مهماً من الرأي العام الأمريكي وكذلك دولا وهيئات سياسية في أوربا بالإضافة إلى الاتجاه العام للسياسة الأممية ـ أكثر منها في العالم الثالث وتحديدا العالم العربي والإسلامي. وهي فضلا عن أنها عصية الأجرأة في إطار السياسة الدولية، توحي للبعض بالكثير من هواجس النزعة العرقية والتفاضلية التي تهيمن على الثقافة السياسية الأميركية. ومثل هذا البارادیغم يصلح للتفسير لا لإحداث التحول المطلوب في منظور العلاقات الدولية وعلى صعيد صناعة الحدث. الإرهاب، هذا المفهوم الذي سعت القوى العظمى اليوم على طرحه على غموضه ليبتلع بوقاحة وبنعسف مفهوم المقاومة نفسها مهما بدت شريفة ومشروعة، كان هو البارادیغم الأنجع الذي إن لم نقل أنها كانت ضالعة في رسم سيناريوهاته واستثماره أيما استثمار. فجأة وجدت الأمم المتحدة والهيئات الدولية والقوى التحررية في العالم

نفسها أمام انزياح خطير يسعى إلى إحداث القطيعة التاريخية مع كل قيم التحرر الوطني التي كانت هي المؤسس الرئيس للوضع الدولي الراهن قبل حدوث الردة الدولية، ليصبح الاستعمار أمرا يجري به العمل في صمت و تحت رعاية واعتراف الأمم المتحدة، ولا يزال اليوم يهدد الكيانات السياسية ويمارس ضغوطه الإمبريالية والمزايدة على استقلالها وسيادتها. وقد ظهر إثر هذا التحول الكبير في حسابات وموازين العلاقات الدولية التي جعلت الشرق الأوسط استثناء لكل أشكال الانتهاكات السافرة للقانون الدولي والأعراف الدولية، ظاهرة أخرى شكلت ثنائيا في لعبة يتجادل فيها عنصر الحصار والتبشيع للمقاومة، أعني ظاهرة الإرهاب التي باتت تكمل فصول مسرحية جديدة لتسديد أكبر ضربة قيمية لشرعية المقاومة وأخلاقياتها. من هنا باتت المقاومة المشروعة تواجه هذا التحدي المزدوج الذي لا يزال يشد الخناق عليها في تكامل أدوار تفضحه الحسابات الموضوعية المشتركة بين الإمبريالية والإرهاب، حيث باتت المواجهة اليوم لوجهين من التحدي المحدق بالعالمين العربي والإسلامي.

فماذا نعني بالإمبريالية الجديدة والإرهاب والمقاومة.. وما الذي يجعل المقاومة مشروعة أو غير مشروعة.. وما الحد الفاصل بين المقاومة والإرهاب.. وما هي آفاق المقاومة في ظل تحديات الإمبريالية الجديدة.. وما المطلوب من المقاومة لكي تستجيب لهذا التحدي في عالم متغير.. وهل بإمكان المقاومة أن تساهم في محاصرة الإرهاب.. وهل بمقدور المقاومة أن تغير من الحسابات الدولية وتؤثر في القانون الدولي والعلاقات الدولية.. وهل ثمة من يستطيع القول إن للمقاومة تاريخها النموذجي وأنها اليوم لم تعد ناجعة مع التحولات التي شهدها العالم لا سيما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي.. ما مستقبل المقاومة، وما هي مجالاتها .. وماذا بعد المقاومة؟

علينا أن لا ننكر هذا التناقض الكبير الجاثم على صدر المنطقة العربية والإسلامية ، لا سيما في الشرق الأوسط. فهذه المنطقة كانت قد اتسعت إلى أبعد من الثنائية الحصرية لمنطق الاستعمار والمقاومة. بل إننا نعيش اليوم لحظة عارمة من التشويش بفعل تعقد المجال وتشعب مشكلاته وتقاطع المصالح والنفوذ في هذه المنطقة التي لم تعد تتحمل ثقل هذا السباق الدولي الخفي على المحاصصة النفطية التي لا ندري هل هي حقا نعمة أم أنها نقمة على شعوب هذه المنطقة. ولعله من المفارقة أن نتيجة التهديد للمنطقة يكون في صالح زيادة برميل النفط، ما يفيض على خزينة هذه الدول .. فالتهديد يكون تهديدا سياسيا لكنه يشكل طفرة نفطية جديدة!؟ إنها منطقة تتسع اليوم لتفاعل ثلاثية الاستعمار والإرهاب والمقاومة. وكل واحدة من هذه المشاريع تحمل بين طياتها أجندة خاصة ورهانات مختلفة، كما أنها تستند إلى مسوغات سياسية وأخلاقية وأيديولوجية في إحراز مشروعيتها أمام الرأي العام، سواء المحلي أو الدولي. وهاهنا تحديدا تدور رحى المعركة الإعلامية الحادة، والتنافس في إحراز الشرعية. ومن هنا سوف يتأطر حديثنا عن تفاعل الثلاثية المذكورة.

هل تملك القوى العظمى منطقا يسوغ أمام الرأي العام المحلي والدولي لا جدوائية المقاومة؟

المسوغ السياسي

في كل حروبها ، لم تبدل الولايات المتحدة الأمريكية ولا حليفتها إسرائيل كبير جهد لإقناع الرأي العام الدولي ومؤسساته المعنية، بتمام مشروعية ما تقدم في سياق سياسة التدخل. ولكنها في الوقت ذاته تبقي على شعرة معاوية مع المنتظم الدولي ، ولو على أساس: صدق أو لا تصدق. تدرك الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، بأن خرقها للقوانين والأعراف الدولية واحتقار الإرادة الدولية قد يؤدي إلى نتائج تعود سلبا على مصداقيتها ومصالحها. ومن هنا فإنها تلجأ إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي متى لم يعد في جعبتها ما تقدم عليه على أساس التجاوز السافر للشرعية الدولية. هذه المناورات المفضوحة والالتفاف على الشرعية الدولية لعبة قديمة/جديدة، وستظل كذلك ما بقيت القوة جابرة لهذا الخرق المستدام للقوانيين الدولية. إن قوى الاحتلال اليوم تسلك من خلال القناة الدولية وبفعل المناورات التي ترهن الأمم الفقيرة لبيع أصواتها للدولة العظمى لانتزاع قرارات تعزز سلطة الفيتو واحتكار القرار الأممي، حتى وإن لم تكتمل الشروط القانونية لمشاريعها العدوانية. ترمي الولايات المتحدة الأمريكية برزم كبيرة من المعطيات والحقائق المضللة، وتخلق في المجال المستهدف وبفعل مناوراتها وسلطة إعلامها الواسع الانتشار، نوعا من الفوضى والاضطراب، لبلبلة الرأي العام، وإدخال العالم في ضرب من الخاووس الإعلامي واللامعنى السياسي. ما يسهل عليها فرض قناعاتها باسم الشرعية الدولية. وتستعمل القوة المحتلة جملة من الشعارات السياسية لتبرير سلوكها العدواني، نظير: الدفاع المشروع عن المصالح القومية الأمريكية، حماية إسرائيل من خطر التهديد بإزالتها من الخريطة، محاربة الإرهاب، وجود أسلحة الدمار الشامل.

والحق، إنه لم يعد في وسع القوة العظمى إقناع العالم بمصداقية هذه الأحجية المكرورة والمملة، بعد أن فقدت سمعتها و مصداقيتها أمام العالم وأمام الرأي العام الأمريكي الذي لا يزال يعيش صراعا حادا بين قواه الحية أمام نفوذ وتحت تحكم اللوبي الصهيوني بقراره السياسي. إننا أمام هذا الواقع الذي صنعته الولايات المتحدة الأمريكية نلاحظ أنها تتراجع يوما بعد يوم، وتكاد تحاصر على الأقل شعوبيا، بأنها دولة شريرة أو شيطان أكبر ما زال العالم يدفع فاتورة كل الحروب التي فرضتها على الأمم الضعيفة منذ أصبحت لاعبا بارزا في المجال الدولي. وهذا يعني أن القوة الإمبريالية تتراجع ولا تتقدم في مسوغاتها السياسية. لقد أصبح للولايات المتحدة الأمريكية ثلاث شعارات سياسية نموذجية لفرض اختياراتها العسكرية على المنتظم الدولي: الإرهاب، أسلحة الدمار الشامل، الديمقراطية. وهي كما ترى كلمة حق يراد بها باطل:

الإرهاب

كان من المفترض بالنسبة للدولة التي واجهت تحديات الإرهاب، أن تكون هي المبادر الأكبر

لتعريفه وخلق ثقافة داخلية وخارجية موجهة ضد الإرهاب. ولكن سوف نفاجأ ويا للمفارقة؛ بأنها كانت أكبر معترض على فكرة قيام مؤتمر دولي للتعريف بالإرهاب بما يميزه عن حركة التحرر الوطني. ولا شك أن مؤتمرا كهذا لو قدر له أن يتحقق، فستكون الولايات المتحدة هي المدان الأول بجريمة إرهاب الدولة . لقد خاضت الولايات المتحدة الأمريكية حربها على الإرهاب، أو لنقل تحديدا توظيفها لورقة الإرهاب، بإرهاب شامل نشر الرعب في العالم، بما في ذلك الدول النائية والتي لا تقع في منطقة النفوذ والمصالح الأمريكية. إنها لغة البلطجة في عرائها ووقاحتها التي لم يشهد لها التاريخ مثيلا. فلقد أبدعت الولايات المتحدة ضربا من الإرهاب الاستباقي الذي يحاكم النوايا ويردم الهوة بين المجرم والبريء. ناشرة الفوضى في الداخل والخارج على السواء، معززة كل مخاوف الداخل من العدو المفترض، والطوفان الذي يتهدد دولة العم سام. تظهر وقائع الأحداث بأن ما سمي بالإرهاب، هو ظاهرة أمريكية بامتياز. فهؤلاء الانتحاريون العرب الذين شكلوا فائض القيمة في أفغانستان، لم يكسبوا كل هذه المهارة على التفجير والتدمير إلا تحت تأطير وكالة الاستخبارات الأمريكية . CIA . إبان الحرب الباردة. وربما لا يحتاج اليوم أن يتعلم الإنسان فنون الإرهاب والعنف بطبقاته الجهنمية التي جعلت الكائن يلفظ ما هو أبعد من الدم القرمزي؛ بل أصبح بدله طيفا من الصديد وأحيانا يتبخر الكائن من شدة التدمير ، لأنه يموت ملايين المرات في هذا الاختزال الموتى الذي يعبر عنه انقلاب الدم ، وتحول الأجسام وانمساخها. تراجيديا الموت الجديد كما تفننت في استعراضه مؤسسة هوليوود ، جعلت العقل المعاصر برسم تراجيديا الاستقتال المستدام، إنما هو عقل أمريكي بامتياز. تعلم هؤلاء كما يمكن أن يتعلم كل كائن ينتمي إلى العصر الأمريكي ويدمن ثقافته الإرهابية أن يعتلوا وسائل التدمير، بعنف القتل ومفارقة «جمالية» التدمير بالمعنى الهوليوودي الذي تتيحه الثقافة الأمريكية، لتكون أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي حصدت ألوفا من الأبرياء الأمريكيين والأجانب، رجع صدى صرخة العنف الأمريكي، بملامحه وصورته أيضا. ما حدث اليوم ولا يزال، هو أن الإرهاب يتكرس في ثقافتنا ويجرف معه كل القيم والأعراف الدولية باسم الحرب على الإرهاب. فهل يا ترى الإرهاب هو القتل بغير حق .. وهل الإرهاب هو قتل الأبرياء.. وهل الإرهاب هو الخروج عن النظام والقانون؟ لا يحتاج المراقب البسيط إلى كثير جهد، كي يصل إلى تلك الحقيقة المرة التي باتت محل إجماع كل من يحيى فوق هذا الكوكب بمن فيهم المرتكبون لتلك الجرائم في حق الإنسانية، وهو أن الولايات المتحدة الأمريكية فعلت كل هذا وكانت المصداق الأبرز لكل العناوين الممكنة للإرهاب والحروب القذرة. ولكن يبدو أن ما تبغي الولايات المتحدة الأمريكية ترسيخه من خلال ملحمة الرعب الدولي، أنه في عالم الاستكبار، ليس لأحد الحق في أن يدافع عن نفسه، ولا أن ينازع الكبير في إرهاب. بل عليه أن يستوعب الضربات، وربما عليه أن يبدي متعة الاستسلام بلا ضوضاء. في هذا الاتجاه باتت الولايات المتحدة في خط التراجع في

مصداقيتها للحرب على الإرهاب. لأنها فضلا عن أنها بنت استراتيجيتها لمحاربة الإرهاب على محاكمة النوايا، فهي باتت أسيرة سياسة الفوضى البناءة التي لم يعد في مستطاع المنتظم الدولي الاستمرار على الصمت حيالها وإلا يكون الكوكب برمته مهددا بنهاية محتومة. هذا فضلا عن أن الحرب على الإرهاب إنما زادت في وتيرته ومنحت أصحابه مشروعية مضافة، حيث باتت له امتدادات عنقودية في العالم، إلى حد أنه بات أشبه بعدو مجهول وشبح كبير يخيم على الأذهان. وبينما بدّدت الولايات المتحدة ملايين الدولارات في تعقب فلول الإرهاب وحصدت أرواحا بريئة وغزت دولا برمتها، إلا أنها حتى الآن برهنت على عجزها عن أن تلقي القبض على رموزه الذين تورطو في تدمير برج التجارة الدولي وغيرها من الحوادث التي اعترفوا بمسؤوليتهم فيها: أعني أسامة بن لا دن والظواهري. لقد عجزت الولايات المتحدة الأمريكية عن إلقاء القبض على شخص واحد، بكل هذه الإمكانيات والمناورات وملحمة الموت الكبرى طيلة سنوات. ترى ، هل لا يزال في وسع العالم ما يتسع إلى مزيد من الإرهاب الأمريكي لدول وشعوب كبيرة من أجل وضع حد لإرهاب الجماعات الصغيرة.

إن التراجع الدراماتيكي لشعبية الرئيس بوش، وانحسار الدعم الدولي لكل المشاريع الأمريكية وشيوع مناخ التشكيك في مصداقية السياسة الخارجية الأمريكية وانتفاضة الرأي العام الأمريكي وأخيرا انتفاضة الجنرالات الأمريكيين الداعية إلى إقالة رامسفيلد، وانتشار خبر الأكذوبة التي بررت احتلال العراق ، والملابسات التي أحاطت بتفاصيل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كل هذا جعل الحرب على الإرهاب تفقد مصداقيتها وشرعيتها. ولا يمكن أن يتاح لها عمر أكثر من هذا مهما عززتها الضغوط الأميركية المستمرة ومناوراتها التي مكنتها من حشر أنفها في كل مكان من عالمنا الفسيح وسيصبح الأمر غاية في الوضوح، حينما يدرك الرأى العام بأن الدولة العظمى لازالت متورطة في استثمار الإرهاب في الدفع بالفوضى الخلاقة إلى منتهاها حتى لو تعلق الأمر بالتآمر مع الإرهاب لمواجهة المقاومة. وما يؤكد أن ثمة علاقة بنيوية بين الارهاب والإمبريالية، أنها في لحظة ما معطاة يمكن أن يحصل هذا النوع من التواطؤ. فتكون المقاومة ليس أنها ضحية الاستعمار فحسب، بل كثيرا ما تكون ضحية الإرهاب أيضا. فالمقاومة وحدها من يستعصي على هذا التوظيف، لأنها لو فعلت لما بقيت مقاومة.

إن مظاهر الفوضى التي يعيشها العالم العربي والإسلامي اليوم، هي صنيعة إمبريالية بامتياز. فالإرهاب الذي تقوم به أقليات شاذة في عالمنا ما كان لها أن توجد بهذا القدر من النشاط لو لم تمكن لها قوى الاستعمار كل هذا الدعم. الارهابيون يأتون من عواصم الغرب وهناك ينسجون مخططاتهم وليس المقاومة التي تعيش بين الناس ويتمسك بها الناس و يفدونها بأرواحهم!؟

أسلحة الدمار الشامل

تستعمل الولايات المتحدة الأمريكية شعار أسلحة الدمار الشامل لتبرير سياستها في التدخل. وقد بلغ ذلك حد الهجاس، الذي يستهين بكل الحقائق والمعطيات ليتراوح بين التخيل ومحاسبة النوايا. وبالتأكيد ليس ذلك معناه أن العقل السياسي الأمريكي قد دخل دورة المرض فحسب، بل هو حبل الكذب الذي طال أكثر مما يجب. لقد استطاع المخيال السياسي الأمريكي أن يركب صورة تلاقي أسلحة الدمار الشامل مع الإرهاب يجعل من العدو المفترض، غولا برأسين: أو إرهاب جماعي ترعاه إحدى دول الشر المارقة، والمزودة بأسلحة الدمار الشامل. على هذا الموال عزفت سياسة التدخل واحتلال العراق، قبل أن تجد الولايات المتحدة الأمريكية نفسها أمام حقيقة عارية ، جعلتها تنضم إلى محور أكبر الدول الكاذبة في التاريخ السياسي للنوع. ومرة أخرى يحاول الكذاب أن يعيد استغباء المنتظم الدولي بخصوص سوريا، واتهامها بحيازة أسلحة الدمار، كما لوح دائما قبل أن يعثر على ورقة جديدة لإحكام حصاره وضغوطه عليها في سياق محاصرته لعناصر خط الصمود في المنطقة. غير أن الفصل النهائي، يتعلق بالضغوط والتلويح بالتدخل مرة أخرى في سياق الملف النووي الإيراني الذي أحبط اللعبة الأمريكية في توظيف شعاراتها على الطريقة الفوضوية والغامضة التي لا تلتفت إلى تفاصيل الإجراءات القانونية للمشروع النووي الإيراني، الذي حتى الآن لا يزال يتحرك داخل الشرعية الدولية، ولا يحيد عنها قيد أنملة. ولا ننسى أن التشبث الإيراني بالشرعية الدولية والحق في تخصيب اليورانيوم للأغراض السلمية وتحت مراقبة الوكالة الدولية، لم يكن لينفع إيران، لو لا أنها عززت قانونية مشروعها النووي بمناوراتها العسكرية وجدية أطروحتها، التي أعادت الولايات المتحدة الأمريكية التي فقدت كل مصداقيتها لكي تتذرع مرة أخرى بالشرعية الدولية على أسس لا تزال غامضة وتستند إلى عنصر الضغط والمناورة. غير أن هذا الحرص الدولي على منع إيران من تخصيب اليورانيوم للأغراض السلمية تحت طائلة فوبيا حيازة إيران للقنبلة الذرية، قوبل بمواقف أمريكية، بلغت حد الإعلان عن حرب نووية ضد إيران، ما يعني أن الدولة العظمى أكدت على أنها اليوم تواجه الإرادات الجادة، وبأنها مستعدة كما فعلت دائما استعمال أفتك الأسلحة المحرمة لإعاقة تقدم هذه البلدان، لتأمين نوع من الميل الفاحش في ميزان القوى لصالح حليفتها إسرائيل. وكان من المفترض، أن يتحرك المنتظم الدولي ضد هكذا قرارات تستخف بالكرامة الإنسانية، حيث بات واضحا أن الولايات المتحدة التي لم تعتذر اعتذارا حقيقيا على جريمتها النكراء في هيروشيما و ناكازاكي، بأنها مستعدة لكي تعيد التاريخ المعاصر إلى بدايته المرعبة. يحدث هذا كله، في حين أن الدولة العظمى التي تملك أكبر احتياطي من أسلحة الدمار الشامل وبتاريخ درامي في استعماله وحماية المشروع النووي الإسرائيلي، هي نفسها التي ترفع شعار التدخل لمنع أسلحة الدمار الشامل. أمام هذه الازدواجية التي باتت مهضومة على مضض

ومفضوحة كفاية، لم يعد في وسع الولايات المتحدة أن تستند إلى هذا الشعار في فرض سياسة التدخل من دون أن يكون ذلك خرقا سافرا للقانون وبالتالي تعريضا بمصالحها وعزلتها عن العالم.

الديمقراطية

قصة أخرى دخلت دورة الملل..بل لعلها الملهاة الجديدة التي اكتملت فصولها وبان عوارها بعد أن ظل ثاويا بين السطور: إنها ملهاة دمقرطة الشعوب، وتبرير سياسة التدخل والاستعمار، بألف ليلة وليلة من أكذوبة نشر الديمقراطية في العالم العربي والاسلامي. كان شهريار العربي ينام دون أن يقدر له سماع النهاية. وبعد كل هذا العمر من حكايات شهرزاد الأمريكية، جاءت الولاد ، ولم يعد في وُسع شهريار أن يتصرف بعد ثقل الولادة وشروطها؛ لقد غرق العالم العربي في الاحتلال والقواعد الأمريكية والالتزامات والمعاهدات والبقشيش والديون الأميركية..لم يعد في وسع شهريار إلا أن يعانق شهرزاد على علاتها ويغفر لها أكذوبة ألف ليلة وليلة وكل هذا السهر الكاذب الذي ذهب هدرا وجزافا!

المار كوتين الديمقراطي والاستثمار في البؤس

طيلة العقود السابقة، وتحديدا إبان الحرب الباردة، حدث نشاط منقطع النظير للحروب القذرة التي استبسلت فيها الولايات المتحدة الأمريكية. وقد شكلت لعبة الانقلابات العسكرية والاجهاز على الديمقراطيات الناشئة واحدة من أبرز متطلبات الاستراتيجيا الأمريكية. مثل ذلك حدث في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا، والعالم العربي.. وضعت الولايات المتحدة كل إمكاناتها الاستخبارية في الحؤول دون دمقرطة العالم الثالث، وحيث بات كافيا ذلك القدر من ذهاب وإياب الرساميل بالقمار والاستثمارات اللامشروطة التي لا تزعجها أي سياسة اجتماعية، تعويضا عن الديمقراطية. نجحت الولايات المتحدة في خلق هجين رأسمالى متوحش يعيش في قلب القذارة الكومبرادورية لمجتمعات توقفت فيها مسارات التنمية، مستكفية بكرنفال الرأسمالية الديكتاتورية..او رأسماليات حكومات العسكر أو الحزب الوحيد.. راسماليات الكازينوهات والقمار والمخدرات واستغلال البؤس المحلي والفساد الاداري والسياسي ..كل ذلك كان يتم برسم مكافحة الشيوعية ومحاصرة المد الأحمر. حينئذ بات واضحا أن الولايات المتحدة الأمريكية شكلت بعبعا مرعبا للشعوب التواقة إلى الحرية والديمقراطية والتنمية والعدالة الاجتماعية. اقترنت الحروب القذرة الأمريكية بمظاهر الحصار والتجويع المستمر للمجتمعات ودعم الديكتاتوريات والفساد السياسي في العالم الثالث. لقد حمت الولايات المتحدة الأمريكية نظما فاسدة وغضت الطرف عن كل الفظاعات التي ارتكبت في حق مناضلي العالم الثالث. ولم يكن أي نظام فاسد يملك يومئذ قدرة على البقاء إلا بواسطة العنف العاري ورفع مستوى القمع السياسي وفساد الطبقة السياسية. وطبعا كان ذلك في ظل حماية الولايات المتحدة

الأمريكية، حيث كان يكفي الإعلان عن مجرد الانضمام إلى حلفها لإبادة شعب بأكمله دون محاسبة. ولذا ما كان للولايات المتحدة ان تحتج عن مئات الإبادات الجماعية التي قام بها ديكتاتوريون ومجرمو حرب موالون لها، مثل ما حدث في تشيلي أو أندونيسيا أو العراق أو...أو....فما الذي تغير إذن؟ في نظر هينتنفتون إن النموذج تغير، وآن الأوان أن ننخرط في نموذج ما بعد الحرب الباردة التي انتهت وانتهت معها جملة من قواعد اللعبة في السياسة الخارجية الامريكية.

ومع ذلك يبدو أن أمريكا خططت كثيرا للدخول في المرحلة الجديدة عبر مرحلة انتقالية، هي تغيير جبهة التحالف، وربط العلاقة مع الشعوب..لكنها العلاقة التي مرت بفترة انتقالية لترويض هذه الشعوب وتدميرها من الداخل، بإطلاق العنان لجرائم الديكتاتوريين وأيضا بالحصار الاقتصادي الذي أنهك شعبا مثل العراق وجعله يرتب أولوياته بصورة تسقط في حساباتها أولويات أخرى كالسيادة الكاملة والاستقلال الكامل .. السلاح الذي يبدو اليوم ابتكارا أمريكيا، هي شعوب أنهكها الجوع والتخلف والقمع والحصار، يجعلها تقبل بالحد الأدنى من الانخراط في الكرنفال الديمقراطي، والقبول بحرية الثرثرة وداخل مؤسسات ودول مرتهنة للالتزامات وبنود واتفاقات تجرف حقها القومي والوطني والحضاري والاستراتيجي. إنها لعبة تسعى لرهن الاستراتيجيا المحلية للاستراتيجيا الكبرى للدولة العظمى بمعاوضة ديمقراطية ممسرحة كما لا يخفى.. يتساءل المراقبون عن سبب إصرار الخارجية الأمريكية على سياسة الكيل بمكيالين حيث لم يعد ينفع الاحتجاج ولو زفت كل الأدلة، فلا حرج حتى لو أصبح المدعي هو الأمم المتحدة نفسها. فالحالة الكرنفالية للبدائل التي يصنعها الخيال الأمريكي في الخارج، تستمد حيويتها من الحالة الكرنفالية نفسها التي حكمت ولا زالت تحكم الشخصية الأمريكية والمتخيل الأمريكي. فما تأتي به الحداثة بمنطق التاريخ وقيود الجغرافيا، هو أمر ممكن وبأي ثمن. الحداثة المتوثبة القائمة على التحدي والمغامرة والتهور الذي لا يزال يزعج أوروبا التي مهما استنكرت من هذه الروح الأمريكية، فإنها ستظل تلك العجوز التي لم يعد بإمكانها، ليس فقط التقدم على الطريقة الأمريكية، بل لم يعد بإمكانها الدفاع عن نفسها وحداثتها أمام زحف البربرية المتربصة بالعالم الحر، في نظر المحلل الأمريكي.

يقوم هذا الاختراع الأمريكي الجديد؛ ديموقراطية الإجهاز على المكتسبات الوطنية وديمقراطية الإجهاز على السيادات والاستقلالات أو لنقل دمقرطة الديكتاتورية، بمنحها جمالية الواجهة مع الاحتفاظ بالقمع الداخلي الممنهج، من منظور استراتيجي يستند بدوره على نظرية المباريات، وجدل الـ «ماكس - مين» والـ «ميني - ماكس»، كما يفرضه فارق الربح بين الديكتاتورية العارية وبين الديمقراطية المغشوشة. وليس أمام الدولة العظمى وفي سياق الفوضى البناءة، أو بالأحرى فوضى العماء واللامعنى، سوى تصعيد سياسة الاستثمار وتوظيف رعب الجماهير من

سطوة الديكتاتورية العارية وقسوة الحصار للقبول بالكرنفال الديموقراطي المغشوش والممسرح على حساب موقفها الاستراتيجي، ورهاناتها الحضارية. ومع ذلك، بدا عرس الديمقراطيات برسم الاحتلال الأمريكي، يواجه الباب المسدود ويفضح اللغة الأمريكية المنسية وراء خطاب التضليل وسياسة الواجهة . لقد قدمت فلسطين البرهان الأخصر على أن الولايات المتحدة الأمريكية لا زالت مستعدة لتجويع شعب بكامله للرجوع عن إرادته السياسية في الانتخاب الحر لحكومته. وبالإمكان أن يعاقب الشعب الفلسطيني اليوم ويحاصر جوعا تماما كالعراق، وليس الفارق في المقام، سوى أن الحصار هنا عقابا لديكتاتورية صدام حسين، وحصاره هناك عقابا لديمقراطية الشعب الفلسطيني. ولا ندري يا ترى إن كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد احتلت العراق من أجل تخليص الشعب من الديكتاتورية وبناء الديمقراطية في العراق، فهل ستفكر أن تحتل أو تنيب عنها إسرائيل في احتلال الشعب الفلسطيني لتخليصه من حكومته المنتخبة وبناء ديكتاتوريته على أعقاب ديمقراطيته المجهضة.. تلك هي المسألة!

المسوغ الأخلاقي

لم تتخل الولايات المتحدة الأمريكية عن شعارها الأخلاقي، حتى وهي تحصد الأرواح البريئة بالجملة. إنها الرسالة التي وجدت في أحلام الإنجيليين الجدد ما تدعم بها ساديتها ونزوعها التدميري للنوع. هذا الاستعجال التدميري والتمهيد لآرماجيدون، وتحمل رسالة المخلص هو ما حدى بجورج بوش الابن لتقسيم العالم إلى فسطاطين، وإعلانها حربا صليبية ضروس. إنه الخيرالمطلق في مواجهة الشر المطلق. ومسؤولية عالم أهورا مازدا في مقارعة عالم أهرمن. على أساس هذه الثنوية الماجية المطلقة، أصبح العالم كله تحت نار ملتهبة، وفي اتجاه العماء السياسي في العلاقات الدولية. غير أن هذا المسوغ لم يمكن الدولة العظمى من النجاح في إقناع الرأي العام الوطني والدولي، بل لقد أضافت إلى سجلها الأسود المليء بالأكاذيب السياسية، فظاعات أخلاقية، كانت حمامات الدم في العراق وأفغانستان وما تفعله إسرائيل في لبنان وفلسطين، اللمسة اللاأخلاقية الأخيرة على صورة تقطر دما وفضائح، ومرة أخرى: صدق أو لا تصدق. فسكر القوة يقلب المعايير ويزرع الشك في عقول الضعفاء ومعذبي الأرض. كشفت فضائح أبو غريب عن فساد الضمير الأمريكي، وعن الأخلاق الأمريكية العالية، وعن رسالة الخير التي قدمتها للعراق. كما عبرت الدولة العظمى في تجريد خطير عن رغبتها في استعمال أسلحة نووية ضد إيران، هذا ناهيك عن أكثر من عقد من الزمان من حصار المجتمع العراقي وتجويعه وتدميره. كل هذا مشهود ولا يحتاج إلى كثير شواهد. وهذا هو الدليل عينه؛ أننا لم نعد في حاجة إلى شواهد في المقام. غير أن المسوغ الأخلاقي الذي تستند إليه الدولة العظمى لا يمكنه أن يستمر أو يخدش في شرعية وجدوائية المقاومة، لأنه مسوغ مبني على سياسة الكيل بمكيالين، وهو اليوم يضع الدولة العظمى وسياستها في منطقة الضوء أمام شعبها وأمام العالم. وعلينا أن

نستمر في الحديث عن الشعب الأمريكي المغلوب على أمره، لأنه وإن كان مجتمعا ديمقراطيا وحرا، إلا أنه في السياسة الخارجية، تراه مضطرا إلى الاذعان، بسبب التجهيل الممارس في حقه وفوضى المعطيات التي يزوده بها إعلام متحيز ومحكوم بوجهة نظر اللوبي المهيمن. بالإضافة إلى طبيعة الدورة الاستهلاكية وطريقة العيش الامريكي التي تجعله يعيش في عزلة عما يجري في الخارج إلا من خلال الصورة النمطية التي يقدمها الإعلام المتحيز وما يبتغيه اللوبي المهيمن. فإلى جانب ضحالة المسوغ الأخلاقي لسياسة التدخل الأمريكية، هناك ضحالة المسوغ الديني المعزز للمسوغ الاخلاقي، والذي حاول الرئيس الأمريكي أن يوظفه لاستثارة العصبية الدينية الغربية في وجه العالم الإسلامي. ليس مرد ذلك إلى ضحالة هذا النوع من التوظيف الرجعي الذي يسعى لإحياء تاريخ غربي ما قبل الثورات الحديثة فحسب، بل لاستحالة تحقق هذا المسوغ، وخطورته مهما تضخم في أذهان حفنة شاذة من صناع الموت العبثي في عالمنا المعاصر. بل لأنها مجرد إصرار ساذج على خوض حرب صليبية لا يمكن أن تعبر عن نفسها سوى في مخيال بائس.. ذلك لأن الإعلان عن حرب صليبية أمر مستحيل بمنطق التوازنات القووية التي تفرض على الدول مهما بلغ اقتدارها العسكري حدا من الاحساس بأن العالم لم يعد يقبل بالفوضى حتى في مفهومها المتخيل شأن الفوضى البناءة. إن حربا صليبية ستكلف العالم تبعات فوق طاقة الكوكب نفسه. وهي بهذا المعنى كارثة عالمية، جميع أمم الأرض معنية بها. إن حربا صليبية متخيلة في الأذهان الساذجة كما تعبر بعض الأفكار/ النشاز في الغرب الذي يغرق في مزاجية خارج - دينية لم تعد تملك ذلك القدر من الوفاء لدينها، معناه استعمال آخر احتياطي نووي ؛ إبادة أمم بكاملها واجتثاث صبغياتها وجيناتها المورثة. ليست الحرب الصليبية اليوم لعبة كلمات، حتى وإن كشفت عن خبث النوايا بأشكال تعبيرية خفيضة وأحيانا هوجاء، فهي أتفه سيناريو يمكن أن يقع. ما الذي تملكه أمريكا والغرب كله لإعلان هذا اللون من الحروب..وما الفارق بين الحرب الصليبية الكلاسيكية والحرب الصليبية المتوقعة؟ وما هو وجه الاستحالة في ظل الشروط الراهنة..إنها قصة خيال فقير، وعصر «ولدنة» القرار الأمريكي، وغياب الرشد السياسي.

المسوغ الأيديولوجي

منذ قيام الدولة العظمى، كان الخيال الأمريكي قد أخذ في إبداع كبرى الإيديولوجيات المسوغة للتدخل وإرهاب الدولة، وأشد الايديولوجيات هشاشة من ناحية المعقولية. لكن عمر تحقق الأحلام الصغيرة للدولة العظمى، كان مشروطا باستمرار التفوق العسكري ليس إلا. لكن غداة سقوط الاتحاد السوفياتي، نشط الخيال الأمريكي مرة أخرى ليكشف عن أطاريح ومشاريع وأفكار، شكلت منعطفا جديدا جاء ليعزز هذا الانتصار الكبير الذي لزم عن انهيار دراماتيكي للمعسكر الشرقي. منذ مطلع تسعينيات القرن الماضي، طفت على المشهد ثلاث أطروحات أيديولوجية، اثنان لخبيرين أمريكيين هما صامويل هينتنغتون وفرنسيس فوكوياما، تحدث

أحدهما عن الصراع بين الحضارات والثاني عن نهاية التاريخ. هذا في حين نشطت أيديولوجية أخرى، أعني الإيديولوجيا الإنجلية للمحافظين الجدد. ففي أي خانة يا ترى يمكننا وضع السياسة الامريكية اليوم؟

ليس في وسع أحد من هؤلاء أن يدعي استئثاره بالمشهد بوصفه ملهم الأيديولوجيا المؤسسة اليوم للسياسة الخارجية الامريكية، بعد أن تبرأ كل من هينتنغتون وفوكوياما من مسارات وتداعيات السياسة الخارجية الامريكية. والحق يقال، إن الأيديولوجيا المؤسسة للسياسة الخارجية الأمريكية ليست بسيطة بل هي مركبة. وإنها لا تحتفظ بوفاء كامل لإحدى هذه الأيديولوجيات المتضاربة، بل إنها استطاعت استنادا إلى مخيالها المولع بالمفارقة، أن تركب أيديولوجيتها الخاصة استنادا إلى العناصر ومكونات الأيديولوجيات المذكورة. وهكذا يمكن للقارئ لمسارات وتداعيات السياسة الخارجية الأمريكية ومجمل خطابات مسؤوليها أن يقف على هذه العناصر أشتاتا مما يوحي بأن العقل السياسي الأمريكي بات اليوم في وضع الألعبان الذي يتأرجح بين رهانات ومديات ثاوية بالجملة في الإيديولوجيات الثلاث. بمعنى آخر إنك تقف على ظلال نهاية التاريخ وظلال الصراع بين الحضارات وظلال من أحلام هرمجيدون.. وسوف نقف في كل هذه المكونات على أن هذه المسوغات وإن ظلت مرفوضة من قبل العالم، بما في ذلك الغرب نفسه، سنكتشف بأنها لا تتحمل في طياتها مشروع إبطال مشروعية المقاومة.

صدام الحضارات ونهاية التاريخ:

أيديولوجيا الانسداد أم انسداد أيديولوجيا

هل هو صدام بين المركز والهامش أم صدام بين حضارات؟

لسنا في وارد اختبار هذه الأطروحة التي تحمل في طياتها الجواب الممتنع عن سؤال فقد موضوعه. فلا يوجد في الرؤس سوى نزوع باتجاه نمط حضاري واحد هو حضارة الانسان المعاصرة. وثمة على كل حال قوى تتصارع من داخل الحضارة وعلى هامشها للاستئثار بروائعها وحرفها باتجاه أجندة الأشرار. هي قصة استكبار عالمي وليس قصة حضارات تتصارع، لأن الحضارات لا تتصارع، لسبب بسيط وهو أنه لا يمكن أن تعيش على الأرض إلا حضارة إنسانية واحدة تظلل هذا الطيف الكبير من الثقافات.

ككل المفاهيم والأطاريح التي باتت هذه الأيام تتساقط فوق الرؤوس، جاءت أيديولوجيا الصدام بين الحضارات، لكي تؤدي وظيفة شحن الرأي العام وتنبيه الطبقة السياسية لامر جلل قادم لا محالة، وهو يتهدد كيانا صورته المقولة الهنتنغتونية كحظيرة من الحملان المذعورة من ذئاب ما فتئت تتناسل على خلفية الصدام في خطوط الصدع الذي تفنن هينتنغتون في تخيل خرائطها وتكهن تخومها الدموية المرعبة. يدافع هينتنغتون عن الغرب ككيان واحد، محكوم بنمط واحد ومصير مشترك. فلكي نحمي الحدود الطبيعية للغرب الذي يشكل في نظر هينتنغتون

حقيقة جغرافية وثقافية وسياسية وتاريخية، فما علينا الا ان ننبه بعض اطراف الغرب الذي تظهره المقاربة الهنتنغتونية غربا متمركزا على نواته الأنغلوساكسونية، للانضمام إلى جبهة التحصن الغربي، بقطع كل الروابط التي من شأنها تهديد الوحدة السياسية والثقافية والتاريخية للغرب: الغرب الفريد المستحيل استنساخه إلا عبثا. سقطت ادلوجة الصدام بين الحضارات فوق الرؤوس، وتفاعل معها العالم بصيغ وآراء وتعبيرات مختلفة. وبينما كانت الأدلوجة الهنتنغتونية تقدم الغرب ككيان مذعور، سرعان ما اعتبرها البعض تهديدا للعالم وتحريضا للعنف الامريكي تجاه الأغيار. وكانت تلك هي أكبر الأخطاء والمغالطات التي وقع فيها القارئ العربي وغير العربي حتى للأدلوجة الهينتنغتونية الغارقة في فوبيا الآخر، وبوصفها رسالة تحريض للانزواء الحضاري الغربي، والكف عن سياسة التدخل التي هي مقدمة الواجب الهينتنغتونية لحماية الحدود الطبيعية لغرب تحثه فرادته الأزلية والتكوينية على أن يتحول إلى قلعة مغلقة على مكتسباتها.

هل أطروحة صدام الحضارات مع أو ضد المقاومة؟

كنا ولا نزال نخالف الرأي المشهور حول أطروحة الصدام بين الحضارات المنسوبة إلى الخبير الأمريكي هنتنغتون. ذلك لأن العالم وبشكل كبير العالم العربي، كان قد انزلق في تداعيات ردات الفعل التي أثارها العنوان، ليعتبروا هذه الأطروحة، الأيديولوجيا المؤسسة لإرهاب الدولة كما تمارسه اليوم الولايات المتحدة، جارفة معها اليابس والأخضر، وأيضا جعلوا من هينتنغتون كاهنا للعنف الثقافي والصدام بين الحضارات. والحق يقال، إن أطروحة الصدام بين الحضارات، على جملة ما يكتنفها من عوار على مستوى التحليل والمعطيات، هي الأطروحة المؤسسة لمشروعية المقاومة.هذا إن لم نقل أنها هي نفسها الدعوى الصريحة لحث الولايات المتحدة على أن تنهج مقاومة حقيقية للدفاع عن كيانها الثقافي المهدد من قبل غزات حضاريين كان قد حددهم هذا الاخير في عدد من الكيانات الثقافية. وقبل أن نفصل بعض الشيء في هذا الجانب المتصل بالوجه غير المقروء من الأطروحة المذكورة، نريد أن نؤكد مرة أخرى على أن دعوى كون الادارة الأمريكية بولائها للمحافظين الجدد الذين هم اليوم كالاسلاف من قراصنة الأفراس، في وارد إقامة أعواد مشانق عالمية، في عملية مونتاج متجدد لتقاليد السلف الكوبوي؛ أجل، نريد التأكيد على أن لا صلة في الجوهر بين ما قصد إليه هينتنغتون وما تنهجه وتقصده الإدارة الأمريكية اليوم. إن محتوى الاطروحة السالفة الذكر انها جاءت لتحذر الولايات المتحدة من مغبة السقوط في سكر القوة والتمادي في الهيمنة، في حين يبدو أن الداخل الأمريكي يتآكل يوما بعد يوم. بهذا المعنى كأن هينتنغتون يريد القول: إنه كلما خطت أمريكا خطوة باتجاه ما وراء البحار، كلما فقدت خاصية من خصائص ثقافتها.. وكلما تقدمت في نفوذها العالمي كلما فقدت السيطرة على الطوفان الذي يجرف حضارتها من الداخل. إن الامتداد الطبيعي للولايات المتحدة

الامريكية، لا يجب ان يتخطى نطاق التحالف الحضاري مع أوروبا بوصفها الام التي تشاركها الثقافة نفسها. وعليه، فإن مؤدى الاطروحة الهينتنغتونية، أن تتوقف الولايات المتحدة الأمريكية عن فرض نفوذها في الخارج وأن تهتم بداخلها، فذاك هو الطريق الوحيد لتأمين نفسها ومصالحها وضمان مستقبلها كدولة غربية.إننا من خلال هذا المنظور القرائي الذي يلامس معنى المعنى في أطروحة هينتنغتون، ندرك فرية أن الإدارة الأمريكية تنفذ البرنامج الهينتنغتوني. بل هي النقيض التام لهذه الأطروحة، وحيث ليس لها منها سوى السطح كما يظهره العنوان المضلل. إذا أدركنا ذلك ، قلنا إن الاطروحة الهينتنغتونية هي في الأصل دعوة للمقاومة. وهذا يدرك من خلال النقاط التالية:

- اعترف هينتنغتون بخفي العبارة وأحيانا بصريحها ، بحق الآخر في أن يقاوم النفوذ الأمريكي. وذلك حينما أشار إلى أن هذا النفوذ مستحيل ولا يمكن لأمريكا أن تهيمن على العالم. مضافا إلى هذا أنها تسلك مسلكا خاطئا، حيث أن العالم غير الغربي لا يمكن أن يكون غربيا، ومن هنا زاد بأنه لا يمكن أن يكون ديمقراطيا أيضا. ولعل هذا التصريح هو ما أثار حفيظة الكثير من المحللين العرب ، حيث رأوا فيه ضربا من التمييز بين الحضارات. إلا أننا ندرك أن المناخ الذي هيمن على التحليل الهينتنغتوني، هو مناخ الحروب، وأيضا بحكم الاشتغال، غلبة النموذج السياسي والعلاقات الدولية. غير أن تمييزه للحضارة الغربية لم يكن سوى اجتهادا بنيويا ، وليس تاريخيا ، لتقديم الدليل على فساد الهيمنة باسم تصدير النموذج الحضاري. إن تميز الحضارة الغربية في نظره عن غيرها بجملة الانجازات كالديمقراطية وما إليها ليس تمييزا عرقيا بل تمييزا نسبويا، يدل على ذلك قوله بأن أجمل القيم عندنا قد تكون اسوأ القيم عندهم. على أن الاستناد إلى طريق خطأ في بلوغ نتيجة صحيحة، يجبر ما بدا تمييزا من قبل هينتنغتون، الذي حرص على أن يزيل كل الذرائع التي تتذرع بها الولايات المتحدة الأمريكية في استراتيجيتها للغزو. إنما الحديث هنا يتصل بمآل الأطروحة المذكورة، حيث ليس النقاش في الصورة المنطقية للأطروحة بل في مؤداها الذي يلجم الإدارة الأمريكية عن التمادي في سياسة النفوذ. ويؤكد على ذلك وجهة نظره من فرض القيم المحلية على الآخر بالعنف، معتبرا ذلك نهجا لا أخلاقيا.

- إن الأطروحة الهينتنغتونية تنظر إلى الإمكانات الأمريكية نظرة واقعية، ولا تنظر اليها النظرة الاسطورية التي تهيمن على أذهان بعض المحافظين الذي يرون فيها الدولة العظمى التي لن تخضع بعد اليوم إلى سنن التحلل والانحطاط والضعف، بل هي وكما غلا خبير أمريكي آخر، تشكل ـ من حيث النموذج - نهاية التاريخ. إن الأطروحة الهينتنغتونية مهجوسة برد التهديد والغزو الذي يتربص بالولايات المتحدة الأمريكية في شكل هجرات من القارة الأمريكية الجنوبية، والتحدي الذي يهدد اللغة الانجليزية والثقافة الانغلوساكسونية الأمريكية...إنها وبتعبير آخر كما يصرح هينتنغتون نفسه، ستكون الولايات المتحدة الأمريكية ـ إذا لم تأخذ تدابير

وقائية من الآن. أول دولة غربية لن تعود غربية.

- يحرص هينتنغتون على أن يحث بلاده على الانسحاب إلى حيث حدودها الطبيعية. والعمل على الاهتمام بتعزيز حضارتها في الداخل، وأن تجعل عالمها الطبيعي هو الغرب، الغرب الكبير الذي يشمل أوروبا نفسها. فليست أوروبا في نظر هينتنغتون هي وحدها من تتصرف أحيانا ضد مصالحها، بل إن أمريكا نفسها تتحرك بالاتجاه المعاكس لمصالحها. إنها مرة أخرى دعوة للممانعة والصمود في وجه الغزو الثقافي الخارجي..

- المقاومة في نظر هينتنغتون هي أمر واقع تفرضه سنن الصراع التي تتفجر على خطوط الصدع، متى ما التقى طرفان يتناقضان ثقافيا. ومن هنا فإننا ندرك بأن المشروع الصهيوني لو أنك قرأته قراءة هينتينغتونية ستصل إلى النتائج التالية:

. إن الرؤية الهينتنغتونية الواقعية تؤكد على أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تفرض سلطتها على العالم على طول التاريخ وامتداد الجغرافيا. وعليه إذا كان مقوم الدولة الصهيونية حتى اليوم هو الدعم الأمريكي اللامحدود، فهذا حتما لن يستمر طويلا.

- إذا كان هينتنغتون يصرح بأن فرض قيم ثقافية مختلفة على أمة أخرى هو نهج لا أخلاقي، فكيف إذا كان المشروع الصهيوني ككيان ثقافي مختلف، فرض ولا يزال يفرض بالقوة والاستكبارفي قلب كيان ثقافي شديد الانتساب إلى جذوره الثقافية والحضارية كالعالم العربي والاسلامي؟.

- يتحدث هينتنغتون عن استحالة تغيير الثقافة بالقوة. هذا فضلا عن لا أخلاقية هذا النهج. غير أن ما يبدو تغييرا تنهجه القوى الإمبريالية اليوم التي تتطلع لتغيير الثقافة العربية والإسلامية بنشر الطريقة الأمريكية والغربية في السلوك الاستهلاكي والمظاهر السطحية، أمر مرفوض في نظر هينتنغتون، باعتبار أن الحضارة الغربية لا يجب اختزالها في ثقافة الهامبرغر أو الكوكاكولا أو غيرها من مظاهر الاستهلاك، بل الحضارة الغربية تتمثل في الماغناكارتا والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وما شابه ذلك. باختصار إن المشروع الصهيوني في نظر هذه الأطروحة ليس له مستقبل، بل إنها قراءة تعزز مقولة: نهاية إسرائيل. وبأن لا مستقبل إلا للكيانات المنسجمة ثقافيا. وعلى هذا الأساس لن تكون مشكلة إسرائيل مع حدود الصدع المتاخمة والمحيطة بها، بل ستكون مشكلتها مع كيانها الفسيفسائي الذي تخفي مؤشرات انفراط عقده بمناوراتها واستعراضاتها وقمعها الخارجي الممنهج. إن كيانا ثقافيا غريبا، لن يضمن مستقبله بأي سلاح آخر، ما دام لا يملك مقومات البقاء ولا يمكن أن ينتزع روح المقاومة من الشعوب التي استباحها بالقوة.

استكبار نموذج وليس نهاية للتاريخ

في السياق نفسه، جاءت أطروحة نهاية التاريخ والرجل الأخير، لتتوج هذا الانتصار

والاستفراد القطبي الأمريكي، بإعلان خاتمة النموذج، وقراءة تاريخ مستقبل النوع على أساس باراديغم الانتصار النيوليبرالي المغشوش. وهو كذلك مغشوش من حيث أنه صادر على المطلوب، ومنح من أحكام القيمة ما تعدى الحقيقة التاريخية. إن نهاية التاريخ لم تكن فكرة قديمة استحياها فوكوياما على دق أجراس الانتصار وأفول المعسكر الشرقي فحسب ولا هي استبدال ساذج لنهاية أيديولوجيا وتولد أخرى من رماد الفيكتورية الجديدة فحسب، بل إنها لا تعدو أن تكون مجرد إنشاء جديد يستند إلى رؤية مسطحة تستبعد مكر التاريخ، فهي تجني على منطق التاريخ حكمة قوانينه التي لم يمنحها الخبير الأمريكي فرصة التعبير عن نفسها من خلال التطوح الكبير للإدارة الأمريكية التي باتت في وضع الدونك شوت الذي يسعى جهده لمقارعة طواحين الهواء.. لقد حاولت الدولة القطب الوحيدة في العالم أن تحول دون تعدد الأقطاب، لكنها فشلت وستفشل في ذلك لا محالة. لكن هذا لا يمنع من القبض على هشاشة المنطق المزدوج لهذه الأطروحة الايديولوجية المؤسسة لسياسة الغلب، وربما هي أكثر مما يمكن أن تفعله الأطروحة الهينتنغتونية كي تسند نزعة التدخل لحماية النموذج الأمريكي ، بوصفه النموذج الأخير، وتعزز قناعته بمهمته التاريخية في حصار البرابرة وإبادتهم، تماما كما حصل بالأمس القريب ضد الهنود الحمر. إلا أن أطروحة نهاية التاريخ تستند بدورها إلى أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الاعتراف والكرامة. على أساس هذا المنظور الهيغلي للتاريخ ، تصبح المقاومة والصمود في قلب حركة التاريخ التحرري للشعوب، حيث ليس في وسع أطروحة نهاية التاريخ أن تخرم هذه القاعدة التي انبنت عليها أيديولوجيا نهاية التاريخ والرجل الأخير. أذكر ذات يوم حينما ألقى علينا عشية أحداث الحادي عشر من سبتمبر السيد نبيل خوري الذي أصبح فيما بعد مستشارا في الخارجية الأمريكية، حيث تساءل: ماذا ستفعلون إذا لم تكن أمريكا وخرج عليكم رجل مثل هتلر أو ميلوزوفيتش؟ في الحقيقة هي كلمة حق يراد بها باطل. فالولايات المتحدة الأمريكية ليست لها معايير ثابتة وعامة إنسانية وأخلاقية للتعريف بالمجرمين بحق الإنسانية. بل الموحش هو ما وقع في مربع الممنوع أمريكيا. ليس ذلك غريبا من منظور النزعة الثنوية الامريكية التي تلبست لغة الواعظ الذي قسم العالم الى محور الخير ومحور الشر. لن نتحدث عن عدد الكوارث التي تطلبتها كل الحروب بما فيها القذرة - وأكثر حروب أمريكا قذرة ـ التي استعملتها هذه الأخيرة للسيطرة على العالم. إنه يبدو أمرا خياليا بالمقارنة مع كوارث النازية. لقد أجبته بكل بساطة: «إن العالم قائم بنفسه لا بأمريكا. بل ربما سنربح الكثير من دون وجود أمريكا وأول شيء سنربحه: أن تحل مشكلة الشرق الأوسط».

إن كان ثمة من يجب أن يطرح عليه هذا السؤال فهو الكيان الصهيوني. لأنه حقا كيف يستمر من دون وجود أمريكا. بل إنني أعتقد أن الدعم الأمريكي اللامحدود والسافر لهذا الكيان الغاصب ليس مجرد استجابة طبيعية لضغوط اللوبي الصهيوني أو سقوط السياسة الأمريكية في

حبائل السياسة الصهيونية. قد يكون لذلك جانب كبير من الأهمية. لكن ثمة ما هو أهم: يتعلق الأمر بكيان لقيط منزوع الشرعية القانونية والتاريخية والأخلاقية ولا يقوم إلا بأمريكا اليوم. وهذه الأخيرة تدرك مأزق هذا الكيان كما تدرك أن لا وجود لدولة ذات سيادة يمكنها أن تكون مخلصة لخدمة المصالح الأمريكية في المنطقة أكثر من إسرائيل. وعليه فإن وجود هذا الكيان كقاعدة أمريكية متقدمة في المنطقة لخدمة المصالح القومية والاستراتيجية الامريكية هنا ليس مجرد قضية توافق. بل هي قضية مصيرية بالنسبة لهذا الكيان تصل معه إلى حدود «نكون أو لا نكون». فبما أن لا وجود لدعامة قانونية وأخلاقية تسند هذا الاصطفاف والتحيز الغامض ، فهو لن يعدو كونه سوى شكل من الابتزاز بين دولة عظمى وأخرى يقع مصيرها فوق كف عفريت. لكنه في نهاية المطاف هو شكل من الابتزاز من جنس ما يجري عادة بين اللصوص. ألا يحق لنا أن نتساءل بعد ذلك كله، أن السياسة الأمريكية اليوم تسلك المنحى النازي نفسه. وكان على صاحب فكرة نهاية التاريخ أن يتأمل الحدث بعد تراجع كل مؤشرات انتصار الخيار النيوليبرالي الأمريكي بعد الفشل والاندحار الكبير لمشاريعه الاقتصادية والسياسية التي طالما تغنى بها هينتنغتون بدء من النموذج الأمريكي الذي بات اليوم يعيش على عجز كارثي في الموازنة لم تشهدها الولايات المتحدة الأمريكية من قبل وانتهاء بثورة النمور الآسيوية. لكن ألا يكون أولى أن ينطبق ذلك الحكم الفوكويامي على السياسة الأمريكية نفسها حينما قال: «لكن لم يكتب للفاشية البقاء لمدة طويلة حتى تعاني من أزمة داخلية في الشرعية وذلك بسبب الهزيمة التي لحقتها في الحرب، وقد لقي هتلر وحلفاؤه حتفهم مؤمنين حتى النهاية بصواب النازية وشرعية سلطة هيتلر. وكنتيجة طبيعية لهزيمة الفاشية في أول صراع لها مع ثقافة أخرى، تضاءلت جاذبيتها في أعين الناس. فقد أقام هتلر ادعاءه بشرعية سلطته على الوعد بالسيطرة على العالم، لكن بدلا من ذلك انتشر الخراب في ألمانيا بل وتم احتلالها من قبل شعوب أقل سموا».

قد يكون في هذا الكلام بعضا من الحقيقة. فالفاشية، هذه الحركة التي تنطلق من ثقافة هي ليست أخرى خارج المجال الغربي، لم يكن ليكتب لها النجاح في العالم حتى لو حققت انتصارا عسكريا حقيقيا. لكن السياسة الأمريكية اليوم وهي تكيل بمكيالين تعاقر في أكثر من موقع، السياسة الفاشية نفسها القائمة على الإبادة والاستهتار بكرامة الشعوب. إن كل ما ذكره فوكوياما صحيح، لكنه اليوم ينطبق على السياسة الامريكية بامتياز. إن هذه الأخيرة كانت قد فقدت جاذبيتها ومصداقيتها وأججت الكراهية ضدها وهي اليوم تعبر عن عجز عن السيطرة الموعودة على العالم بعد أن نشرت فيه خرابا. إنها النهاية السيئة لسياسة التدخل والغزو والكيل بمكيالين.ليست الولايات المتحدة الامريكية في هذا استثناءا!

لا شك في أن ثمة تاريخا فعليا لنشأة الأيديولوجيتين المؤسستين. لكن لا ننسى أنهما الأطروحتان اللتان واجهتا ممانعة شديدة، إلى الحد الذي بات أصحابها يتنكران لها. وبالتالي

فمعنى هذا أن لا مستقبل لهما، فما سقط فجأة يموت فجأة. وهذا نفسه ثمرة لفعل المقاومة.

الأيديولوجيا المحافظة

لقد وجدت الإدارة الأمريكية الحالية في الموروث الإنجيلي وطبقة المحافظين الجدد معالم خريطتها في اتجاه تعزيز سياسة التدخل، ما جعلها في وضع مفضوح، لشدة التغير في خطابها .فمنذ أن اعتلا جورج بوش الابن سدة الحكم، حدث تحول كبير في الخطاب، وحساسية مفرطة في نزعة الغزو، وفقدت الولايات المتحدة رشدها وكذا تضاءلت لغتها السياسية. لقد أعادهم هذا الأخير إلى ماضي العصيدة الأمريكية الممزوجة بالدم والدين والانتقام وإرادة الغزو..تماما كما تمت إبادة أمة بكاملها باسم رسالة التحضر والدين، أمة متوحشة ووثنية شوهها التاريخ الأوربي الدخيل على قارة آهلة بملايين من البشر، أصبحوا حكاية أمريكية تختصر في جملة الكائنات الغرائبية والوحشية. لقد وجدت الهجرات الأولى ليهود أوربا في الأرض الجديدة ما عوضها حلمها في الظفر بصهيون الجديدة. وقد حصل ذلك قبل أن تبدأ حكاية أكثر عنفا وأبعد مدى؛ تأسيس الدولة الصهيونية في أرض فلسطين. التاريخ يعيد نفسه، وليس بين قصة الهنود الحمر والشعب الفلسطيني سوى هذه اللعبة الاستبدالية التي كادت تحقق نموذج الإبادة الأوربية للهنود الحمر على أرض فلسطين. ولم تكن سوى المقاومة هي المعامل الجديد الذي أفشل النموذج وأطال أمد اللعبة حتى اليوم. ومع كل هذا الصراع الطويل الذي دام أكثر من نصف قرن بين العرب وإسرائيل، كان لا بد من إعادة قراءة التاريخ دفعا لخرافة الأيديولوجيا المؤسسة لإسرائيل. والقصة هي أعمق من إعادة التأريخ للمحرقة، وأبعد من عدد الذين قضوا في الإبادة الجماعية والهولوكوست النازي. فمع وجود هذه المحرقة وافتراض صحة عدد الضحايا، يكون الموضوع، أنها جريمة حصلت في أوربا وتحت تأثير الأيديولوجيات الأوربية.إنما يظل السؤال، كيف أمكن لهذه العصابة الصهيونية أن تستغل فظاعة الميز العنصري الأوربي ضد اليهود، لانتزاع اعتراف بحقهم في دولة على أرض غير أوربية. لقد ظلت مشكلة اليهود في أوربا تكمن في الدولة. وقد كان البريطانيون يتمتعون بكرم القرصان: أن يتبرعوا عليهم بأرض محتلة. كان وعد بلفور مؤامرة حقيقية ضد الوجود اليهودي في أوربا. هو قرار ترانسفير ناعم، ومصيدة للمغادرة الطوعية على أحلام يقظة صهيون الكبرى. وهكذا باتت إسرائيل تحمل مبررات فنائها في وجودها الشاذ، حيث لا يمكن إلا أن تكون نشازا، ووجودا مشروطا بتخلفنا وانهيارنا الحضاري، وهو أمر مرفوض في منطق التاريخ ومنطق الجغرافيا.

تختزل الأيديولوجيا المحافظة اليوم أسوأ قراءة للمشهد اليهودي وتستعجل ملاحم وفتن، تهيء لليهود ما هو أشد من الهولوكوست، أي أن تجعل من الدويلة الصغيرة أداة لتحقيق ما يمهد لأرماجيدون الكبرى. البنية التحتية لعقائد المحافظين الجدد، والاصوات التي تدعم وجودهم على سدة الحكم، تعيش صور هذا المستقبل كواقع متوقع.

لا نريد فناء اليهود، بل إننا نتحدث عن مشروع يحمل بذور الفناء في كيانه. فاليهود عاشوا إلى جنب العرب والمسلمين منذ زمن بعيد، وحتما ستستمر حياتهم إلى جنب في المستقبل البعيد أيضا. وإذا كانت مشكلة العرب والمسلمين مع إسرائيل الكيان العنصري الدخيل ، فليس لديهم أي مشكلة مع اليهود في هذه المنطقة. بينما ما لا تبوح به الاستراتيجيا الغربية ، أنها اصطنعت قصة صهيون ، وهي اختراع نشأ واكتمل وتغدى داخل الأيديولوجيات الغربية وفي سياق ما عرف يومها بالمسألة اليهودية. إن إسرائيل هي في نهاية المطاف مشروع ترانسفير غربي إلى المنطقة العربية، حيث طرحت المسألة اليهودية تحديا على الوجدان الأوربي، بأن لا مكان لليهود في أوربا، وبأن الحل، أن يوجد لهم وطن خارج الجغرافيا الغربية. إن الغرب الذي يحتفل بالكفاءات والعقول المهاجرة تراه يبدي زهدا في هذا العقل اليهودي، وفيما كان يعرف لديه بعبقرية الأقلي. لكن الغرب ليس في وارد الاستغناء عن العقل اليهودي، بل يريد أن يبني لهذه العقول خلفية دولانية في الشرق ، حتى يتفادى ما كان يعرف قبل الحرب العالمية بكون اليهود حاولوا دائما ان يشكلوا دولة داخل الدولة، وبأنهم خطر على الدولة القومية في اوربا.

أدلوجة مركبة

هل بوش هينتنفتوني أم فوكويامي الهوى؟

سبق أن طرحت هذا السؤال على فوكوياما مرة، لكنه أجاب بما يبرئ ذمته من الوقوع في شرك تبني فكرة المؤامرة السياسية. وكنت متوقعا أن يكون الجواب على غير ما نعتقد على الأقل في العالم العربي والإسلامي حيث استقبلت فكرة نهاية التاريخ وفكرة الصدام بين الحضارات أسوأ استقبال. وكان ذلك أمرا طبيعيا لأنهما فكرتان تعززان ثقافة الغلب التي مارستها ولا زالت الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة. مع أنني أعتقد خلاف ذلك. إن السياسة الأمريكية في عهد بوش ترتكز على ثقافة أمريكية تقليدية، في نزوعها إلى القوة والخيار العسكري في حسم مشكلاتها مع الخارج. إنها ثقافة الغزو و فتح خروم في جدار الممانعات التي تعتبر آخر عناصر القوة الممكنة بالنسبة للكيانات الصغيرة أو ضحايا الاعتداء على السيادة. وإذا التقت هذه السياسة أحيانا مع بعض الأفكار الواردة في صدام الحضارات، فهذا لأن هينتنغتون قد استند في الكثير من آرائه على هذه الثقافة السياسية. ومع ذلك يمكننا تأكيد الفرضية التي انطلقنا منها منذ البداية؛ ثمة أيديولوجيا مركبة تمتح من الثالوث الأيديولوجي المذكور، وثمة عقل سياسي أمريكي يتأرجح بين أضلاع ذلك الثالوث. لعل هذا ما يجعل الثقافة السياسية الأمريكية تعاني من حالة بارانويا، تتأرجح بين نزعة الانزواء التي تؤمنها الأطروحة الهينتينفتونية ونزعة الهيمنة والانتشار التي تؤمنها أطروحة فوكوياما ونزعة تديين الحرب التي تؤمنها الأطروحة المحافظة. يبدو العقل الأمريكي متأرجحا بين الإحساس بالاضطهاد ونزعة السوبرمان، والتباكي على الله: فليبارك الله أمريكا!

إذا تبينت هشاشة المنطق االذي تقوم عليه كبرى الأيديولوجيات المؤسسة لسياسة التدخل وتجريم المقاومة ومبدأ حق الشعوب في التحرر والتحرير وإذا تم تحييد أطروحة هينتنغتون، وأيضا تحييد أطروحة فوكوياما الذي بدا متراجعا في الآونة الأخيرة عن الكثير من آرائه، حيث هدء سكر القوة وانتهى مفعول منشطات الانهيار السريع للمعسكر الخصيم وإذا تم أيضا تحييد الايديولوجيا المحافظة لهزال محتواها الخرافي وشذوذه، فماذا تبقى للادراة الامريكية في محاولاتها للنيل من مشروعية المقاومة والتشكيك في جدواها. في سياق حرب نفسية تحرص فيها هذه الاخيرة على خلط المفاهيم وادراج المقاومة في خانة الارهاب. وما هو المنطق الذي تستطيع أن تستند إليه في مواجهة قوى الممانعة.

المقاومة توجد في الثقافة الأميركية بالعرض لا بالذات

ربما يتساءل الكثير من المراقبين حول الأسباب الحقيقية التي تجعل العقل السياسي الأمريكي ينحاز إلى جهة السلب في مواقفه من المقاومة، على الرغم من التراث التحرري للتاريخ الأمريكي، والذي للأسف لا يمكن أن نقول عنه تاريخا حديثا، لأن ليس له دورة تاريخية قديمة. والحق أن هناك إحساسا شديدا بالذنب يجد تعويضاته في كل هذه الملحمة الممسرحة من الشعارات الزائفة التي توحي للولايات المتحدة الأمريكية بأنها تلعب دور المخلص الذي يكرهه الآخرون وأحيانا يحسدونه للمكانة التي يحتلها في العالم. ولا ننسى أن تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية مع الشعوب، هو تاريخ مكتوب بدم المقاومة التي جعلت العقل الأمريكي يكاد يكون عقلا مناقضا للعقل المقاوم. فليس ثمة في قاموس الشعوب التاريخية الحرة ما يجد له صدى في العقل الأمريكي ، حيث كل معاني الاستقلال والسيادة والكرامة والوطنية والشرعية التاريخية ليس لها إلا صدى خفيفا ، لا يسنده إحساس عميق في الثقافة الأمريكية مقطوعة الجذور. إن كل التاريخ التحرري الأمريكي المزعوم ، ما هو إلا انتفاضة غاضبة من قبل المستوطنين تجاه الميتروبول. إنها ثورة تحرر من هيمنة الدولة الأم ، ثورة مصالح ،وليست ثورة تحرر وتحرير بالمعنى الحقيقي للعبارة. ذلك بأن الكيان الأميركي نفسه المفتعل ، ليس سوى غزوا لعله أبشع وأشرس غزو في تاريخنا البشري.

من هنا لا غرابة في أن تمانع الولايات المتحدة في تمييز حركات التحرر الوطني عن حركات الإرهاب، لأنها تجتر تاريخا من المواجهة مع حركات التحرر الوطني، منذ الحرب العالمية الثانية. ولقد سعت أمريكا دوما للهيمنة على الجغرافيا وهي اليوم بصدد الهيمنة على التاريخ ، في محاولة لتزييف حركته وحرف القيم المؤسسة للأعراف الدولية. لقد استغلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر شر استغلال، ووظفتها توظيفا مسرفا خرج بها إلى مديات أخرى، بحيث حاولت اختزال الأزمة الدولية في حفنة من المسلحين الذين ضخمت من قدراتهم في حركة استخفافية بالوجدان العالمي، لم يكن بمقدورهم أن يتحدوا دويلة صغيرة، بالأحرى أن يصبحوا العدو البديل

عن المعسكر الشرقي الذي كان يناطح الولايات المتحدة الأمريكية بإمكانات مرعبة.

لقد حصل تحالف موضوعي بين دولتين استعماريتين: أمريكا وإسرائيل. تشتركان في أنهما معا دولتان احتلاليتان، تتمتعان ببنية اجتماعية لقيطة لا تجمع بينها سوى المصالح.

بمثابة ختام: تداعيات انتصار المقاومة اللبنانية بعد حرب تموز العدوانية:

كان لا بد أن ينتصر طرف ما في هذه الحرب . ذلك هو منطق الأشياء. غير أن ما لم يكن واردا في منطق الاستراتيجيات الدولية، فضلا عن العربية ، فضلا عن شعوب المنطقة، أن تنتصر المقاومة مجرد انتصار، بالاحرى انتصارا معجزا ظهرت تجلياته في جودة الأداء والتكتيك والخطاب السياسي واقتصاد الزمان. ربما حسب هذا المنطق، كان لا بد للكيان الصهيوني أن ينتصر. ينتصر لأنه الأقوى من حيث القوة العسكرية المتفوقة بمقاييس فلكية على كل النظم العربية فضلا عن احتكار الردع النووي. هذا القدر هو نصيب التقدير الاستراتيجي والحسابات والتوقعات الدولية بما في ذلك أمريكا التي ساهمت مباشرة في تأمين التغطية الدولية والسياسية للعدوان على لبنان، وبما في ذلك الدول الأوربية ، والهيئات الأممية التي احتفظت بالموقف السلبي الذي لم يخرج من حالة الصمت إلا بعد هزيمة اسرائيل وتراجع الاصرار الأمريكي على مشروع الحرب على لبنان بوصفها ـ كما أكدت كوندوليزا رايس ـ مؤشراً على ولادة شرق أوسط جديد. وكان لا بد لاسرائيل أن تنتصر بحسابات أخرى اعتملت فيها عوامل تفوق التقدير الاستراتيجي القائم على حساب اختلال موازين القوى؛ أعني في منطق الحسابات العربية التي تعتبر فيه الهزيمة، حتى عشية العدوان على لبنان، تحصيل حاصل. فالعرب لم يعودوا لا يحلمون بالنصر فقط، بل أصبح مجرد الحلم بالنصر بمثابة تراجع في الوعي السياسي وغباء استراتيجي. وكان لابد لاسرائيل أن تنتصر، لأنها تدخل إلى المعركة ليس بالضمانات الأمريكية والغطاء السياسي الدولي والتفوق العسكري فحسب ، بل تدخلها بالمعنوية العالية التي تفوق معنويات كل الجيوش في العالم بما في ذلك الجيش الأمريكي، كما تفوق حجم الهشاشة التي تختفي وراء كل هذه المعطيات في الكيان الصهيوني الذي كان ينتظر مواجهة لا يمكن أن تكون منطقية إلا إذا كانت بالفعل مغامرة. فليس غريبا أن هكذا عرفها بعض القادة العرب. لهذا السبب شكل الانتصار ليس جرحا في معنويات العدو، بل اضطر الفاعلين الأساسيين في مشروع الشرق الاوسط الكبير أن يعيدوا النظر في سياساتهم بعد ان ارتبكت دعائم استراتيجيتهم. إذا كانت الاوضاع في الشرق الاوسط هي من سيحدد مصير العلاقات الدولية في آفاقها وامتداداتها شرقا وغربا، فإن الانتصار في حرب تموز لها الفضل في ذلك التحول الذي سيشهده العالم على المدى القريب وقد ظهرت مؤشراته تباعا بعد الحرب مباشرة.

لقد وضع الانتصار الفكر السياسي العالمي على موعد آخر مع حقائق أقل ما يمكن القول عنها أنها ستكون مقوضا حقيقيا لأيديولوجيتين شكلتا النموذج الارشادي للسياسة الخارجية

الأمركية: أعني الفكر السياسي لليمين المحافظ الذي يعتبر الحرب طريقا حاسما لمجد الولايات المتحدة الأمريكية. في حين أن هذه السياسة أثبتت بأنها وراء تضخم الكراهية وانهيار سمعة الولايات المتحدة الامريكية لدى الرأي العام العالمي، وتهديد المصالح القومية الأمريكية وتراجع الثقة في علاقاتها بالخارج فضلا عن المشكلات الاقتصادية التي شكلت حصاد العهد البوشي. لقد جاء الانتصار ليؤبن هذا المشروع ويظهر مكامن القوة الكامنة تحت رماد الاندحارات العربية والهزائم المادية والنفسية أمام سياسة الغطرسة والتدمير الممنهج للكيان العربي والاسلامي. لقد انقلب الاحساس والوعي ١٨٠ درجة، حينما منحت المقاومة انتصارا ناجحا ومعجزا لأمتها، منحها من الشعور بمعنى الوجود والاستمرارية ما لم تمنحه إياها أي حرب و أي تسوية منذ ستين سنة. وكما هو الامر بالنسبة لايديولوجيا المحافظين التي التقت مع الايديولوجيا الصهيونية القائمة على معامل الحسم والاستعراض والترعيب العسكري، فإن ثمة أيديولوجيا لا تقل ضراوة وخطورة: نهاية التاريخ والرجل الأخير. والحق أن الانتصار الأخير أكد على أن لا التاريخ انتهى ولا هو سينتهي بالضرورة على مقاس هذه الرؤية المتعسفة التي حاولت إسدال الستار على عالم الإمكان. ولا الرجل الأخير هو ما ستنتخبه هذه الخطاطة الأيديولوجية، ليأتي من خلف سهوب الغرب. الانتصار الأخير إن لم يغير من كل هذا المعتقد المتجذر في اللاوعي السياسي الامريكي والصهيوني، فعلى الاقل سيخفف من غروره وسيرغمه حتما على مزيد من التأمل. وسوف تسفر الأيام القادمة عن بروز أيديولوجيات ستطوي صفحة كل ما سبق من ايديولوجيات عقد التسعينيات. لم أتحدث عن فكرة الصدام بين الحضارات، لأنني أعتقد أن الانتصار الأخير عزز من مصداقية الموقف الهينتنغتوني مرتين:

الأول: حينما أكدت المقاومة بأنها لم تفعل سوى أن واجهت ما أسماه هينتنغتون بوقاحة فرض قيم أمة معينة على أخرى بالقوة. كما أنها أكدت على اعتقاده بأن أمريكا لا تملك الامكانات الكافية للسيطرة على العالم وآن لها أن تعود إلى ما وراء حدودها الطبيعية.

الثاني: لأن هينتنغتون لم يفعل سوى أن افترض وجود نموذج جديد لتفسير أحداث العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وسقوط سور بيرلين. بمعنى أوضح إنه وضع النموذج الحضاراتي بدل نموذج الحرب الباردة لغاية تتعلق بالنمط الاكثر نجاعة من الناحية التفسيرية. لكنه ترك هامشا لإمكان تغيير النموذج. بل تحدث عن شكل من أشكال التحول الذي من شأنه أن يجعل حوادث العالم غير قابلة للتفسير وفق هذا النموذج أيضا. إن الانتصار ولد نموذجا تفسيريا جديدا. من شأنه أن يجيب على التساؤل الهينتينغتوني.

دوليا كان للانتصار دورا بارز على مستوى عودة الفعالية أكثر للمنتظم الدولي. لم تعد أمريكا هي اللاعب الوحيد في رسم مصائر العالم. اليوم هناك تصاعد في حجم التدخل الأممي وفعاليته الدولية وكذا نشاط الوسائط والمبادرات والمساعي الدولية بصورة تتسع طرديا مع

تقلص النفوذ الأمريكي. لن نخال الكيان الصهيوني في المستقبل أقوى منه قبل حرب تموز ولا أقوى في زمن تراجع القوة الأمريكية. هذا معناه أن المقاومة لها دخالة كبرى في عودة الفعالية للشرعية الدولية ما يؤكد أن المقاومة هي ضرورة أممية أيضا.

في المجال الإقليمي حدث تراجع كبير ومشهود في حجم الضغط الأمريكي على النظم العربية. فقبل حرب تموز كانت الدول العربية الأكثر قربا من الولايات المتحدة الامريكية، وحلفاؤها التقليديون يواجهون صعوبات وتحديات بل لقد وضعتهم سياسة بوش أمام مستقبل غامض وحرج، وتهديد أمريكي يصل إلى مستوى التلويح بالتدخل. انتصار المقاومة أعاد الفعالية لهذه النظم وبات الحديث اليوم عن مساندة ودعم دول الاعتدال في المنطقة. لقد أنقذت المقاومة النظم العربية من موجة الشرق الاوسط الكبير، وأعادت لهم هامشا للفاعلية لم تمنحهم إياه أي قوة أخرى منذ قرر بوش أن يفرض التغيير ضد النظم العربية ويبشرهم بمستقبل ديمقراطي كما حصل في العراق أو أسوأ.

مستقبل المنطقة والعالم سيتحدد لا محالة وفق نتائج و تداعيات الانتصار. الحرب وضعت أوزارها، أي نعم، لكن حسابات المرحلة القادمة ومؤشرات الاستراتيجيا القادمة ستصاغ حتما ضمن معطيات جديدة، لا تستثني انتصار المقاومة اللبنانية ونتائجها. بالتأكيد سوف تتواصل سياسة التدخل بشكل آخر، لكن الجديد أنها لن تقبل هذه المرة بسياسة الغزو والفوضى الخلاقة في منطقة هي أعقد من أن نغامر فيها بسذاجة بوش. ألمرتية. وهي أعقد من أن تكون فيها حروب الغزو نزهة . فليس في المنطقة، من يوزع زهورا على المحتل، بل ليس ثمة إلا من ينحني في أسوأ الأحوال، وقد يبالغ في الانحناء أيضا، كما قال يوما الشاعر أحمد مطر، لكن «لكي يزرع القنبلة»!

إذا كان ولابد على الولايات المتحدة الامريكية أن تكف عن الاستمرار في فرض مشروع الشرق الأوسط الكبير. وإذا كان ولابد على الكيان الصهيوني الغاصب أن يدرك بأن أي مغامرة بالحرب بعد حرب تموز وأي صورة للرعب لم تعد تجدي وسيدفع ثمنها مضاعفا، فإن ذلك كان بفضل مقاومة خاضها رعيل سمع فقط بالهزيمة ولم يصنعها. إن خرافة إسرائيل التي لا تقهر مثل أي أسطوانة مشروخة لم يرق للجيل العربي الجديد سماعها. نوافقكم على أن العالم يجب أن يتغير. ولقد تغيرنا وحققنا قطيعتنا الكبرى. نقسم على ذلك. أننا بعد جلال مقاومتنا وجمال انتصارنا، لم نعد نقبل بالهزيمة!

- كان من المفترض أن يخصص جزء من مداخيل الريع النفطي الذي شهد ارتفاعا ملحوظا إبان العدوان الصهيوني على لبنان، ليس لدعم المقاومة التي وفرت عناء التموقف العربي الرسمي إلى جانب المقاومة بدعوى استغنائها وتفردها التاريخي بمواجهة العدوان، بل لإعادة إعمار لبنان والنهوض ببنيته التحتية. ذلك لأن المقاومة لم تفعل فقط أنها منحت للموقف الرسمي العربي هامشا لاستعادة دوره الذي تم إلغاؤه نهائيا قبل الحرب، بل سببت انتعاشا

اقتصاديا من خلال ارتفاع مداخيل الريع النفطي!

- وقد بات ذلك واضحا اليوم بعد الهزيمة التي منيت بها الحربية الصهيونية وكذا الهزيمة التي منيت بها الاستراتيجيا الأمريكية في المنطقة. فلقد عاد إلى الواجهة دور الوسائط السياسية لأوربا المستبعدة قبل الحرب ، وسوف ننتظر مزيدا من الدور الأممي الذي كان حتى قبل العدوان الصهيوني على لبنان محايدا وأحيانا سلبيا. إن عودة الدور الاممي والوسائط الاوربية هو مؤشر تراجع في الاستراتيجية الأمريكية والصهيونية، وعلامة على إخفاق سيعقبه نوع من التعليق للحلول خلال الفترة القليلة القادمة، إلى حين إحلال خطة جديدة محل مشروع الشرق الاوسط الجديد ـ الكبير، واستراتيجيا الغزو العسكري.

الحـرب التـي زحـزحت قـارات من أمـاكنها

الباحث في قضايا الشرق الأوسط
د. طـلال عتريـسي (لبنـــــان)

يصف المعلق السياسي الاسرائيلي بن كسبيت في مقابلة له مع جريدة معاريف في الذكرى الاولى للحرب على لبنان (١٢ تموز ٢٠٠٧) ما حصل «بانه زلزال هز الأرض وزحزح قارات من اماكنها. ومع ذلك لا تزال الخريطة حتى الآن غير واضحة في العالم العربي»

وفي تفسيره لهذا الزلزال الذي حصل في الشرق الأوسط يبدأ المعلق الاسرائيلي من الصدمة التي تعرضت لها دولته نفسها التي اكتشفت الترهل داخل الجيش، والتي تلقت صفعة الآن بدلاً من تلقي لكمة لاحقاً. في حين حقق حزب الله انجازاً معنوياً مهماً. ثم يشرح ما حصل على صعيد دول المنطقة: فهي المرة الاولى التي تشجع فيها دول عربية كبيرة اسرائيل علناً على الحرب ضد عدو اسلامي – عربي. في الوقت الذي تخشى فيه هذه الدول الثورة الاسلامية في ايران، ولا تريد «معانقة الدب الاسرائيلي». ويبدي بن كسبيت المخاوف على الاسلام المعتدل ،ويضع المصريين والأردنيين والسعوديين والاسرائيليين والاميركيين والفرنسيين والايطاليين واللبنانيين المعتدلين ...في قارب مثقوب بحسب تعبيره.في حين ان القارب الآخر «مليء بكل خيرات البلاد والمشكلة هي «ان أحد هذين القاربين يجب ان يغرق».

ربما يكشف ما كتبه الاسرائيليون بشكل خاص عن «دروس الحرب» الكثير والأهم من التداعيات التي نجمت عن تلك الحرب. فما جرى في ذلك الصيف من تموز/يوليو ٢٠٠٦ لم يكن على الاطلاق رهاناً اسرائيلياً في المقام الأول لاسترجاع الجنديين الاسيرين. وحتى الاهداف الاخرى مثل تطبيق القرار ١٥٥٩ ونزع سلاح حزب الله أو دفعه بعيداً من الحدود، إنما وضعت لاحقاً. كما بينت ذلك كل التقارير الاسرائيلية التي نشرت بعد أشهر من الحرب، وفي الذكرى الاولى لها، وكذلك الكثير مما نشرته الصحافة العالمية أيضاً. فالحرب كانت وبحسب تلك المصادر والتقارير، وسيلة أرادتها الإدارة الأميركية، بالذراع الاسرائيلية لتحقيق انتصار في لبنان بالقضاء على حزب الله، يتيح اضعاف حلفائه في سوريا وإيران ويحد من الفشل الأميركي في العراق. ولذا كانت تداعيات الحرب التي فشلت فيها إسرائيل ولم تحقق الاهداف الاميركية

زلزالاً أربك كل الحسابات الاقليمية والدولية. التي كانت ستذهب في اتجاه مغاير تماماً لو نجحت الحملة الاسرائيلية في القضاء على حزب الله في لبنان.

كانت الولايات المتحدة عشية الحرب الاسرائيلية على لبنان في ١٢ تموز ٢٠٠٦ في وضع لا تحسد عليه في العراق. وكانت التقديرات والتقارير التي تصدر من معظم مراكز الدراسات في العالم بما فيها الولايات المتحدة تؤكد ان العراق قد تحول إلى «مستنقع» للادارة الاميركية لا تقدر على البقاء فيه ولا تستطيع الخروج منه.

فبعد ثلاث سنوات من الاحتلال لم يعرف العراقيون الاستقرار. ولم تشهد بلاد الرافدين سوى المزيد من التدهور الأمني والسياسي. ولم تضع الحكومة ولا قوات الاحتلال حداً للفوضى الأمنية ولا للتفجيرات التي أودت بآلاف العراقيين. وتبدو الولايات المتحدة عاجزة عن صياغة العراق الجديد الذي وعدت به. أي العراق الآمن والموحد والديمقراطي... وعاجزة أيضاً عن كبح جماح المقاومة ضد قواتها. وحتى العملية السياسية لا تبدو أنها تتجه نحو الاستقرار، إذ ينشغل العراقيون تارة بوحدة العراق، او بوحدة الحكومة، وطوراً بالمصالحة الوطنية، من دون اي تقدم حقيقي لا نحو هذه ولا نحو تلك. وبسبب هذا التدهور السياسي والامني، ومعه المزيد من القتلى في القوات الاميركية، تتراجع شعبية الرئيس الاميركي، ويزداد الانتقاد له ولفريقه من داخل الكونغرس وفي أوروبا، ومطالبته بوضع جدول زمني للانسحاب... فقد فشل الرئيس في نقل العراق الى «الديمقراطية» التي أرادها «المحافظون الجدد» لبلدان الشرق الاوسط. وفشل في القضاء على «الارهاب». بل زاد هذا الأخير انتشاراً واستعاد قدراته مجدداً حتى في افغانستان. في حين يصر الرئيس بوش على الدفاع عن سياساته في العراق وعلى التمسك ببقاء قواته هناك غير آبه بتلك الدعوات الى سحبها أو إلى تقليص عددها تدريجياً.

تبدو المكابرة الاميركية في رفض الإقرار بالفشل في العراق منطقية تماماً في إطار تصورات المحافظين الجدد للشرق الاوسط الذي ينبغي بحسب ادبياتهم الكثيرة ان يخلو من الانظمة الاستبدادية وأن يكون أمن الدولة العبرية وديمومتها متيسراً ومضموناً... وأن يطيح بالانظمة القائمة..[١]

لأن الاقرار بهذا الفشل يستدعي الاقرار بمثله في أفغانستان بعدما عادت حركة طالبان وبعد خمس سنوات على إسقاط نظامها الى استئناف عملياتها ضد القوات الاميركية وبوتيرة متصاعدة. (راجع عدد نيوزويك في الاسبوع الأخيرمن شهر أيلول ٢٠٠٦) ما يعني ان الادارة الاميركية فشلت هنا أيضاً في تغيير الواقع الافغاني السياسي والامني، خاصة وأن الحكومة الافغانية والرئيس الافغاني يعملون في دائرة جغرافية ضيقة من الحماية الأميركية داخل العاصمة كابول بينما تعيش باقي الولايات الافغانية خارج سلطة الحكومة.

والنظر إلى فلسطين لا يبدو افضل حالاً، أو أكثر إقتراباً من مشروع «الشرق الأوسط» الذي

يتخيله المحافظون الجدد. فما ان فازت حركة حماس فوزاً ساحقاً في انتخابات ديمقراطية فعلية، وتشكلت حكومة بقيادة هذه الحركة مباشرة، حتى تم حصارها سياسياً ومالياً، وبدت السلطة الفلسطينية في حال من الارتباك، فلا هي قادرة على التراجع امام تقدم حماس، ولا هي قادرة على التقدم نحو الحكومة الاسرائيلية لإستئناف التفاوض. ولا تبدو الولايات المتحدة مهتمة كثيراً بدفع هذا التفاوض قدماً، واللجنة الرباعية لم تعقد اي اجتماع منذ زمن وشارون في غيبوبة... وهكذا بدا الوضع الفلسطيني في مرحلة انتقالية مع حكومة حماس. والتفاوض الفلسطيني- الاسرائيلي في حالة من الجمود، والاهتمام الدولي ينصب على غير فلسطين (العراق وايران). حتى ذهب الكثيرون الى الاعتقاد بأن مستقبل الملف النووي الايراني الذي يشغل الولايات المتحدة واوروبا هو الذي سيحدد كيف ستحل ملفات المنطقة الأخرى في الشرق الأوسط.

ولذا عندما اندلعت الحرب الاسرائيلية على لبنان اجمع معظم المحللين على صلتها بالدور الايراني وبالملف النووي. تارة لجهة الادعاء بأن ايران هي من أوعز بشن الحرب لحماية هذا الدور وذلك الملف، وتارة لجهة التوكيد بأن الحرب شنت استباقياً على أقوى حلفاء إيران في المنطقة لإضعاف دورها وقدرتها التفاوضية، وللتخلص من تهديد حزب الله الصاروخي اذا اندلعت الحرب الاسرائيلية - الايرانية - او الاميركية-الايرانية كما ذكرت بعض الدوائر البحثية في الولايات المتحدة(٢).

ان أبرز «انتصار» حققته الولايات المتحدة في الحروب التي شنتها منذ الحادي عشر من ايلول ٢٠٠١ للقضاء على الارهاب، ولنشر الديمقراطية في الشرق الأوسط وبعد احتلال العراق، كان في لبنان. فقد تم إخراج القوات السورية، بعد صدور القرار ١٥٥٩. لكن «سلاح الميليشيات(حزب الله) وفي المخيمات الفلسطينية» بقي عصياً على انتزاعه ولم يفلح «الحوار الوطني» في الاتفاق على إيجاد المخارج او البدائل المناسبة لهذا السلاح. لذا بقي «الانتصار الاميركي» جزئياً ومعلقاً وحتى مهدداً.

حصلت الحرب في تلك البيئة الاقليمية المتوترة بساحاتها المفتوحة على الصراعات التي لم تحقق فيها الولايات المتحدة انتصاراتها النهائية . لا بل كانت القوة العظمى تشهد تعثراً واضحاً في العراق، وعودة لعمليات الطالبان في افغانستان، وعناداً ايرانياً نووياً، وإنزعاجاً عربياً من السياسة الاميركية في العراق التي اتاحت لإيران التمدد وزيادة نفوذها في العمق العربي والخليجي.

لذا كان على الولايات المتحدة أن تضع حداً لذلك التراجع المتدحرج في شعبية رئيسها، ولتزايد الانتقادات إلى وزير دفاعه دونالد رامسفيلد، لادارته السيئة للحرب على العراق، وأن تفعل كل ما تستطيع وباي ثمن لتحقق انتصاراً مدوياً يعيد خلط الاوراق في لبنان وفلسطين

والعراق. ويجعل ايران ومعها سوريا اكثر إنصياعاً للمطالب الاميركية - الاوروبية و«المجتمع الدولي». بحيث يؤكد هذا الانتصار رؤية المحافظين الجدد للشرق الأوسط الذي يطمحون اليه: اي خال من «العنف والكراهية» ضد إسرائيل والولايات المتحدة ومنفتحاً على الديمقراطية. وكانت اسرائيل في الوقت نفسه تنتظر اللحظة المناسبة لإعادة الاعتبار الى هيبة جيشها بعد الانسحاب المذل من لبنان عام ٢٠٠٠ واحياء قدرته على الردع التي تتراجع منذ حرب تشرين عام ١٩٧٣، مروراً بالانتفاضة والمقاومة في لبنان من دون ان يسجل هذا الجيش نجاحات بارزة في المواجهة مع «الحروب الصغيرة».(٣)......

كان خطف الجنديين ذريعة ثمينة لكل من اسرائيل والولايات المتحدة. الاولى لاستعادة قدرة الردع الاستراتيجية، والثانية لاستعادة الشرق الاوسط كما تصورته الادارة الاميركية. لعل القضاء على حزب الله يثبت الانتصار الاميركي في لبنان، ويضعف حليفته سوريا ويمهد الطريق من دون تردد امام الخيار العسكري للتعامل مع إيران،.. وبهذا تكون الحرب هي مخاض ولادة شرق اوسط جديد كما قالت كوندوليزا رايس في الايام الاولى لاندلاعها عندما رفضت أي حديث عن وقف لإطلاق النار، وأي عودة بالوضع الى ما كان عليه قبل الثاني عشر من تموز ٢٠٠٦.

وضعت الحرب اوزارها في الرابع عشر من آب ٢٠٠٦ بعد ثلاثة وثلاثين يوماً من دون ان تحقق إسرائيل الاهداف التي حددتها لها. فلم يتم القضاء على حزب الله ولا نزع سلاحه، ولا إيقاع الهزيمة به. وبات من السهل الاستنتاج بأن كوندوليزا رايس لم تنجح في التقدم نحو «الشرق الاوسط الجديد» الذي توقعت ولادته مع بداية الحرب.

لم تكن هذه الحرب على لبنان، تختلف عن حروب أخرى، بامتداداتها وتداعياتها الإقليمية. وإذا تجاوزنا إنعكاسها على لبنان الذي لم يتوحد حول نتائجها السياسية والعسكرية. فإن أبرز ما يمكن تسجيله من تداعيات لهذه الحرب على المستوى الاقليمي هو التالي:

١- إسرائيل:

خرجت إسرائيل من الحرب وهي مصابة بدوار سياسي وعسكري. يشبه الدوار الذي يصيب ركاب السفينة في بحر هائج متلاطم. فالحرب التي جعلت من اهدافها استعادة هيبة الجيش وقدرة الردع وتحطيم اسطورة انتصار حزب الله عام ٢٠٠٠ اسقطت النسبة المتبقية من تلك الهيبة. فعلى الرغم من «الافراط في القوة» وعشرات الآف القذائف، وأكثر من ثلاثين الف جندي...والتدمير الهائل غير المسبوق... لم يتقدم الجيش نحو الاهداف المتدحرجة التي حددتها القيادة السياسية له. وفشل ميدانياً في أكثر من موقع من مواقع المواجهة ودفع أثماناً كبيرة غير مألوفة في حروبه السابقة مع العرب من أرواح جنوده وفي دبابته الشهيرة «الميركافا». لقد فقدت إسرائيل في هذه الحرب «قدرة الردع» التي شكلت طيلة عقود الحصن الذي يحمي الدولة والمجتمع، والتهديد الذي يمنع العدو من مجرد التفكير في أي حرب ضد اسرائيل. ولقد

كتب الكثير من المعلقين ومن المحللين السياسيين والعسكريين الاسرائيليين في إثناء الحرب وبعدها،وفي الذكرى الأولى لها، عن المشكلة الوجودية الخطيرة التي نجمت عن تصدع هذه القدرة.تقول صحيفة هآرتس في ٢٠٠٦/١٢/١٥ «إذا كان هدف الحرب هو الردع فإن النتيجة جاءت معكوسة» وربما هذا ما خشي منه شيمون بيريز عندما وصف هذه الحرب بأنها حرب حياة أو موت بالنسبة إلى إسرائيل. وتعكس النتائج السياسية للحرب، وتقرير لجنة فينوغراد والاستقالات من المناصب العليا العسكرية والسياسية التي اعقبت ذلك التقرير وتراجع شعبية اولمرت الى ٢٪ فقط، الفشل في تحقيق أهداف الحرب، والزلزال الذي أصاب الكيان الاسرائيلي.

كشفت الحرب الداخل الاسرائيلي. فلأول مرة منذ تأسيس اسرائيل تعجز الدولة والجيش عن حماية المدنيين الذين نزحوا من بيوتهم (نحو مليون نازح) وبقوا في الملاجئ طيلة ثلاثة وثلاثين يوماً هي مدة الحرب والصواريخ تتساقط فوق مدنهم حتى البعيدة عن الحدود اللبنانية... وهذا يعني على المستوى الاستراتيجي أن عقيدة إسرائيل القتالية واستراتيجيتها الدفاعية فقدت مبرراتها وصدقيتها. لأن هذه العقيدة كانت تقوم على الحرب الخاطفة التي تحقق فيها اسرائيل انتصاراً في بضعة أيام كما فعلت في حرب الايام السنة عام ١٩٦٧. وتستند هذه العقيدة الى مساحة إسرائيل الجغرافية الصغيرة التي لا تستطيع ان تتحمل حرباً طويلة ولا نقل المعركة الى الداخل. ولهذا كانت اسرائيل تبدو عاجزة تماماً وهي تنظر الى الصواريخ وهي تتساقط على مدنها ولا تفعل شيئاً حيالها. كما لم يستطع الجيش أن يدمر منصات الصواريخ التي لم تتوقف عن الاطلاق الى اليوم الأخير من الحرب (٢٥٠ صاروخاً يومياً). وقد اعتبر هذا العجز من أبرز وجوه الفشل الاسرئيلي في هذه الحرب.

ومن أهم نتائج الحرب على إسرائيل أن استطلاعات الرأي اللاحقة أثبتت أن الجمهور الاسرائيلي لم يعد يثق في قدرة قيادته السياسية أو العسكرية على تحقيق الانتصار، وفي أن دولته تنتصر دائماً في الحروب التي تخوضها.

إن هذه الاستنتاجات تتصل بجوهر الوجود الاسرائيلي. لأن هذا الوجود قام منذ نشأة الكيان على فكرة الردع والحرب الخاطفة والدولة التي لا تهزم، والحرب في ارض العدو، وحماية المدنيين الاسرائيليين الذين لم يشعروا يوماً لا بمخاطر الحرب عليهم ولا بتأثيراتها على حياتهم اليومية. لقد اسقطت الحرب ذلك كله..

امتدت نتائج الحرب إلى اسئلة اخرى لا تقل أهمية عن اسئلة الردع والعقيدة القتالية المستقبلية. مثال مدى قدرة إسرائيل على خوض معارك تريدها الولايات المتحدة؟ وأين هي مصلحتها في خوض معارك مماثلة؟ وكيف ستستعيد إسرائيل قدرة الردع من جديد؟ وهل ستشجع هذه الحرب دولاً اخرى على الثقة بإمكانية هزيمة الجيش الاسرائيلي أو على الاقل

بالاعتقاد بأنه «جيش لا يقهر» خلافاً لما كان سيُنظر إليه سابقاً؟ وهل ستخوض اسرائيل حروبها المقبلة بالطريقة نفسها. أم ان عليها إعادة النظر في إستراتيجيتها وتكتيكاتها العسكرية بعد المواجهة التي ربح فيها حزب الله بعدما دمج في أساليبه القتالية بين المقاومة الشعبية وبين قتال الجيوش المنظم.

وكان من اللافت بعد الحرب ذلك التناقض في تقدير طبيعة العلاقة المفترضة مع سوريا بين من يريد من القيادة الإسرائيلية الدعوة الى استئناف التفاوض معها (تسيبي ليفني وعمير بيرتس) وبين من يرى ذلك دليل ضعف لا ينبغي حتى مجرد التلويح به،او نزع الصدأ عن اقفاله، لأن «دمشق لا تزال عاصمة الارهاب»(ايهود أولمرت ٢٠٠٦/٩/٢٩).

خرجت إسرائيل من الحرب في حالة من الاضطراب الشديد، وهي تحتاج الى إعادة ترميم مفاهيمها العسكرية والسياسية والامنية. لكن خطابها التحريضي بعد الحرب اتجه مباشرة نحو «الخطر الإيراني».

٢- سوريا:

واجهت سوريا قبل الحرب اوضاعاً سياسية وأمنية صعبة ومعقدة، بلغت حد التلويح بإسقاط النظام. وظهرت علانية، ولأول مرة شخصيات سورية تدعو الى تغيير هذا النظام. (نائب الرئيس السابق عبد الحليم خدام) وتفاقم الخلاف الاميركي - السوري وبلغ حداً من التوتر غير مسبوق منذ سنوات طويلة. وكانت الولايات المتحدة تكرر شروطها لرفع الضغوط عن سوريا: منع تسلل «الارهابيين» عبر حدودها الى العراق وإقفال مكاتب المنظمات الفلسطينية في دمشق و نزع السلاح الميليشيات في لبنان، حتى بعد خروجها منه إثر القرار ١٥٥٩. وعاشت سوريا مناخاً من التضييق الاعلامي والسياسي بعد اتهامها بارتكاب جريمة اغتيال الرئيس رفيق الحريري. وظهرت بوادر تصدع في علاقاتها مع «المحور» السعودي - المصري الذي كان متشدداً في المسارعة الى خروج القوات السورية من لبنان. وتراجع بعض نفوذ سوريا الإقليمي بعدما فقدت وجودها العسكري المباشر وأنتهت إدارتها للحياة السياسية في لبنان.

أصبحت سوريا اكثر التصاقاً بحليفتها ايران، بعدما تراجع حلفها العربي التقليدي. وفي الوقت الذي اشتدت الضغوط الاقليمية - الفرنسية على سوريا فتح نجاح حركة حماس في الانتخابات الفلسطينية كوة في جدار حصار سوريا. إذ شرعت دمشق بواباتها للفائزين القادمين من فلسطين في الوقت الذي اغلقت فيه أبواب العواصم العربية الاخرى في وجوههم. ولذا كانت الحرب على لبنان، وهدفها الرئيسي القضاء على حزب الله لن تعني بالنسبة الى سوريا سوى خسارة حليف قوي سيسمح لأعدائها بمزيد من تهديدها وإضعافها... وعندما خرج هذا الحليف منتصراً ولم يسحق في تلك الحرب، سارع الرئيس بشار الاسد، في اليوم التالي لوقف النار، الى إعلان خطاب الانتصار في (٢٠٠٦/٨/١٥) موجهاً التهم القاسية الى القوى

السياسية اللبنانية المناوئة لنظامه (نتاج اسرائيلي) والى الانظمة العربية التي أيدت الحرب ووقفت ضد حزب الله (انصاف الرجال) أي السعودية ومصر والاردن. وكان من الطبيعي ان تشعر سوريا بأنها تجاوزت منعطفاً سياسياً وعسكرياً خطيراً. لأن هزيمة حزب الله في هذه الحرب كانت ستفتح على الأرجح شهية الجيش الاسرائيلي للانعطاف نحو سوريا.(كما تبين لاحقاً أن الرئيس الفرنسي جاك شيراك شجع إسرائيل على ضرب سوريا مع استعداده لتامين الغطاء السياسي الدولي المناسب لهذه الضربة. كما شجعت الادارة الاميركية أيضاً على توسيع الحرب ضد سوريا).

كان على سوريا ان تدفع غالياً ثمن دعمها السياسي والعسكري لحزب الله لو فشل هذا الأخير في تلك الحرب. ولذا لم تعتبر القيادة السورية نفسها من أول المستفيدين من نتائج الحرب ، بل اعتبرت نفسها الشريك المباشر في هذا الانتصار. ويكفي ان نذكر الاشارات التي صدرت بعد الحرب مباشرة من امين عام الامم المتحدة، حول محورية الدور السوري في أي حل للأزمة في لبنان، وكذلك زيارة وزير الخارجية الاسباني اليها داعياً الى إشراك سوريا في أي حل، ومن ثم الدعوات الاسرائيلية الى التفاوض مع سوريا، لنستنتج ان سوريا خرجت اكثر قوة من هذه الحرب، وخرج «المحور السوري- الايراني»، اكثر تماسكاً وأشد اعترافاً به وبدوره.ولم تطل الذكرى السنوية الاولى للحرب الا وقد تراجعت كل التهديدات باسقاط النظام في سوريا،كما تراجع الحصار الدولي السياسي والديبلوماسي الذي ارادته الادارة الاميركية عليها ،إذ اتى الى العاصمة السورية عشرات الوفود والشخصيات الاميركية والاوروبية الرسمية وغير الرسمية لتبحث مع القيادة السورية قضايا المنطقة من لبنان الى فلسطين والعراق... وحتى الادارة الاميركية نفسها اضطرت بسبب فشل «حربها» في لبنان واستمرار مازقها في العراق الى الحوار مع «المحور السوري- الايراني» كما اوصى بذلك تقرير«لجنة بايكر- هاملتون» الذي حاول الرئيس الاميركي تجاهله وضرب عرض الحائط بتوصياته.حتى ان الرئيس بشار الاسد أشار في خطاب القسم لولاية رئاسية جديدة تزامنت مع ذكرى الحرب الاولى على لبنان ،الى ما سماه «المفارقة» في علاقة سوريا مع المجتمع الدولي،إذ يطلب مجلس الأمن من سوريا عدم التدخل في قضية ما ثم تجتمع مجموعة دول الثماني لتطلب من سوريا عدم التدخل في قضية اخرى .ولكن نفاجأ بأن كل المسؤولين الذين زارونا من الغرب يأتون ليضغطوا علينا لنتدخل، تماماًعكس ما يحصل» (السفير ١٨/تموز/٢٠٠٧)

٣- إيـران :

تعتبر ايران من أكثر الدول الإقليمية التي انعكست عليها إيجاباً نتائج الحرب . ليس فقط لأنها هي من اسهم في إنشاء حزب الله كحركة مقاومة وامدته بالدعم والتدريب منذ عام ١٩٨٢ بعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان . بل لأن المشروع الاميركي الاسرائيلي بالقضاء على هذا الحزب

يندرج في إطار مشروع المواجهة الاميركية- الايرانية التي تشكل فيها ايران حلقة اساسية من حلقات الاختلاف والممانعة مع الولايات المتحدة . ومن المعروف ان عقدة الخلاف بين واشنطن وطهران سبقت احتلال العراق. وتعود الى ما تسميه الادارة الاميركية «دعم الارهاب» في لبنان وفلسطين. أي حركات المقاومة ضد اسرائيل. والقطيعة التامة بين البلدين تعود الى عام ١٩٧٩ بعد انتصار الثورة مباشرة وتفرض الولايات المتحدة منذ ذلك التاريخ عقوبات اقتصادية وتجارية وتسليحية على إيران. ومع تقدم برنامج ايران النووي قبل سنوات، تصاعد الخلاف بينها وبين الغرب، الذي يتهمها بالسعي الى امتلاك السلاح النووي، في حين تؤكد ايران ان الطاقة النووية التي ستحصل عليها هي للأغراض السلمية فقط . وعلى الرغم من قناة التفاوض الاوروبية (المانيا وفرنسا وبريطانيا) مع إيران، لم تحل الثقة بين طهران وبين «المجتمع الدولي» بشأن برنامج هذه الاخيرة النووي. ولم تستبعد الولايات المتحدة الخيار العسكري كسيناريو محتمل لمنع ايران من المضي في هذا البرنامج. كما لم توقف ضغوطها لإحالة «الملف الايراني النووي» الى مجلس الأمن لفرض العقوبات على إيران، تمهيداً للخيار العسكري الذي لم يتخل عنه الرئيس الاميركي تماماً، وتشجعه اتجاهات سياسية وإستراتيجية في الولايات المتحدة[٤] . وفي ذروة الحرب على لبنان أصدر مجلس الأمن قراراً (١٦٩٦) يحدد نهاية شهر آب ٢٠٠٦ موعداً لإيران لوقف تخصيب اليورانيوم . أي ان الحرب لم تصرف انظار «المجتمع الدولي» عن ملف ايران النووي. ولم تعطل اجتماعات وكالة الطاقة الدولية، ولا اجتماعات مجلس الامن، ولا اللقاءات الاميركية - الاوروبية. بل استمر كل هؤلاء في متابعة هذا الملف التي تجلت في القرار ١٦٩٦. ما يعني ان فرضية شن الحرب من جانب حزب الله لصرف الانظار عن البرنامج النووي الايراني كانت فرضية واهية لأن المخاوف الغربية من هذا البرنامج والضغوط لوقفه بدأت قبل سنوات واستمرت إثناء الحرب، وهي متواصلة بعد توقف الحرب. لا بل إن الفرضية الاخرى التي تقول بأن القضاء على حزب الله هو إضعاف لإيران، هي الفرضية المنطقية، إذ تفقد ايران احد أقوى حلفائها في المنطقة، ما يمهد، من دون اي مخاوف من رد حزب الله على اسرائيل ، للخيار العسكري الاميركي ضد طهران [٥]

لذا كان من الطبيعي ان تشعر ايران بأنها انتصرت ايضاً في هذه الحرب. وإن لم تعلن ذلك كما فعل الرئيس السوري بشار الاسد. لكن فشل الحرب الاسرائيلية ومعها «المشروع الاميركي «الشرق اوسط جديد» عبر لبنان، لن يعني بالنسبة الى ايران سوى عرقلة التقدم نحوها، والاعتراف المباشر بقوتها ونفوذها وقد شهدنا كيف ذهب وزير الخارجية الفرنسية فيليب دوست بلازي الى السفارة الايرانية في بيروت لملاقاة نظيره الايراني منوشهر متقي للتباحث في صيغ القرار الدولي لإنهاء الحرب. وكيف ذهب كوفي أنان ايضاً الى طهران بعد الحرب. وقد كان لافتاً جداً تراجع الموقف الاوروبي عن فرض العقوبات وحتى عن إرسال الملف الايراني الى مجلس

الامن بعد انتهاء الحرب وفشل الحملة العسكرية الاسرائيلية.

وها هو خافيير سولانا الممثل الاعلى للسياسة الخارجية الاوروبية يستأنف الحوار مع علي لاريجاني مسؤول الملف النووي الايراني بعد انقضاء الواحد والثلاثين من آب ٢٠٠٦ (الموعد الذي حدده مجلس الأمن عبر القرار ١٦٩٦ لوقف ايران تخصيب اليورانيوم) ومن دون ان توقف ايران التخصيب. وها هو الرئيس شيراك يدعو الى عدم التسرع لا في فرض العقوبات ولا في بحث الملف الايراني في مجلس الامن. أما إيطاليا فطالبت بان تكون شريكاً في المفاوضات الاوروبية مع ايران. وهذا كله حصل بعد الحرب مباشرة

لقد خرجت ايران اكثر قوة من هذه الحرب وأكثر إعترافاً بنفوذها، بعدما فشلت الحملة الاميركية -الاسرائيلية في القضاء على حزب الله حليفها القوي.

وقد ظهرت ايران كأبرز الرابحين الاقليميين بعد حرب تموز ٢٠٠٦ فقد تبين ان السلاح الاميركي الذي استخدمته إسرائيل لم يردع قدرة حزب الله الصاروخية فكيف بالقدرة الصاروخية الايرانية ذات المدى الابعد والاكثر تدميراً ؟ ما يعني ان على إسرائيل والولايات المتحدة ان تتحسبا كثيراً قبل التفكير في أي عمل عسكري ضد إيران.

لكن ذلك لن يعني بأي حال ان ايران ستشعر بالاستقرار، على الرغم من الابتعاد الاوروبي النسبي عن السياسة الاميركية المتشددة تجاهها. فالإدارة الاميركية لا تزال تمارس الضغوط لفرض العقوبات، ولا تزال تلوح بأن الخيار العسكري ليس خارج الاحتمالات[٦]... خاصة مع اعلان الرئيس الأميركي ان حربه مستمرة ضد «الفاشية الاسلامية» التي لا تمييز فيها بين «الإرهاب السني والإرهاب الشيعي».

لذا ان أفق العلاقة الاميركية - الايرانية سواء باتجاه التفاوض الذي بدأ بطيئاً حول العراق او باتجاه الخيار العسكري الذي تريده بعض الاوساط في الادارة الاميركية (نائب الرئيس ديك تشيني وفريقه) سيترك تأثيرات مباشرة على مجمل القضايا الساخنة والعالقة في منطقة الشرق الاوسط من لبنان وفلسطين الى العراق...

٤- فلسطين والعراق:

قبل خطف الجنديين الاسرائيليين في جنوب لبنان بأسابيع قليلة كانت حركة حماس قد اختطفت بدورها جندياً أسرائيلياً من داخل غزة. وطوال تلك الاسابيع لم تتوقف الهجمات والغارات الاسرائيلية على القرى والبلدات الفلسطينية. وارتكب الجيش الاسرائيلي عشرات المجازر، من دون أن يتدخل أحد في العالم لمنعه او إدانته. وقام باعتقال مجموعة من نواب حماس ووزرائها. لذا عندما خطف حزب الله هذين الجنديين، نجح في إضعاف الطوق المفروض على الفلسطينيين. وتردد ان التفاوض لإطلاق الأسرى قد يتخذ مساراً واحداً في لبنان وفلسطين. إلا أن الحرب التي اتسعت رقعتها وتعقيداتها السياسية والديبلوماسية أبقت كل صيغة

تبادل على حدة. ومن المعلوم ان تجربة خطف الجنود الاسرائيليين بدأها حزب الله في لبنان قبل سنوات ثم انتقلت الى فلسطين.

وإذا كانت مواجهة قوة الاحتلال نفسها، ستفضي الى تكرار بعض الاساليب هنا وهناك، الا ان الأهم من ذلك كله ان اصرار حزب الله على رفض اطلاق الجنود من دون تبادل، سيدفع حماس الى عدم التراجع واعتماد المبدأ نفسه على الرغم من كل الضغوط التي قد تتعرض لها. وإذا قاتل حزب الله وصمد امام ضخامة ووحشية الآلة العسكرية الاسرائيلية، ولم يُهزم او يقضي عليه. فإن حركة حماس والحركات الفلسطينية الاخرى ستعتبر ذلك إنموذجاً يمكن الاقتداء به.

وإذا أظهر الجيش الاسرائيلي عجزاً او إرتباكاً، او اعترافاً بفشل قواته في الميدان وخرجت الاصوات لمحاكمة المسؤولين عن هذا الفشل، فإن حركات المقاومة في فلسطين سوف تشعر بالقدرة على القيام بالمواجهة نفسها وهذا من أهم وأخطر نتائج هذه الحرب على المواجهة الفلسطينية - الاسرائيلية. ويكفي ان نذكر بأن الانتفاضة اندلعت عام ٢٠٠٠ بعد أربعة أشهر فقط على تحرير جنوب لبنان وانسحاب الجيش الاسرائيلي من دون قيد او شرط في ٢٥ آيار في العام نفسه.

وإذا كانت تداعيات هذه الحرب لن تظهر بسرعة على أداء حركات المقاومة وفي مقدمتها حركة حماس في فلسطين، وسوف يمضي بعض الوقت قبل ان يتم تدارس الاساليب القتالية الجديدة، فإن اسرائيل في المقابل لن تسمح بمثل تلك السهولة بجعل حماس على سبيل المثال تكرر تجربة حزب الله في منع الجيش من تحقيق أهدافه. لذا اشتدت ضراوة العمليات العسكرية الاسرائيلية وعمليات الاغتيال ضد الناشطين الفلسطينيين من الفصائل كافة. وعلى الرغم من ارتفاع حرارة الحديث عن العودة الى التفاوض والى احياء مسار التسوية او خارطة الطريق، او تدخل اللجنة الرباعية، فلم يحصل أي تقدم حقيقي على طريق احياء التفاوض مع السلطة الفلسطينية أو التوصل الى حلول لم ينجح الطرفان في بلوغها قبل هذه الحرب. وإذا كانت القيادة الاسرائيلية تتحدث عن استعداد للتفاوض او لإحياء مسار السلام مع الفلسطينيين او مع سوريا فلأنها تريد تحويل الانظار عن فشل الجيش في لبنان وعن لجان التحقيق في أسباب الاخفاق في الحرب. لكن لا شيء يؤشر الى استئناف التفاوض في المدى المنظور خاصة وإن البيت الفلسطيني أيضاً يعاد ترتيبه بعدما حوصرت حماس طيلة الاشهر الماضية وبات خيار الوحدة الوطنية هو المخرج لأزمة الحكم بين حماس وبين السلطة.وقد ازداد خيار العودة الى التفاوض تراجعاً مع التطورات التي حصلت في غزة في منتصف شهر تموز/يوليو ٢٠٠٧ وأدت الى سيطرة حماس التامة على كل المؤسسات الامنية والسياسية بما فيها تلك التي تعود الى السلطة الفلسطينية. وإلى أن تصبح حماس (التي تنتمي الى المحور المعادي للولايات المتحدة) هي العقدة التي تبحث العواصم الدولية وبعض العواصم العربية عن كيفية تجاوزها او حلها قبل

أي تقدم مفترض باتجاه استئناف التفاوض بين الفلسطينيين والاسرائيليين.

اما في العراق فلم تغير نتائج الحرب من واقع التعقيدات السياسية والامنية فيه.

فالسلطة العراقية تبدو عاجزة امام الضغوط الاميركية من جهة والفلتان الامني وعمليات المقاومة ضد الاحتلال من جهة ثانية. ومستقبل العراق الموحد او الفدرالي يشغل جميع القوى السياسية العراقية. ولذا لن تشعر هذه القوى بأثر نتائج الحرب على تعديل المسار السياسي او الامني في العراق.

ربما ستكون ايران اكثر من يستطيع توظيف نتائج هذه الحرب في المواجهة مع الولايات المتحدة. بعدما تبين ان حزب الله (حليف ايران) قادر على الصمود في وجه الحملة الاميركية-الاسرائيلية، وقادر على افشال مشروع الشرق الاوسط الجديد من لبنان. ومثل هذه النتيجة يمكن ان تقرأ اميركياً في المجال العراقي نظراً لنفوذ ايران وامتدادها في الاوساط العراقية كافة. ما يعني المزيد من الحسابات الاميركية قبل التفكير في اي عملية عسكرية ضد ايران.ولعل هذا ما حمل الادارة الاميركية على التفاوض المباشر مع ايران حول الوضع في العراق وطلب العودة مجدداً الى هذا التفاوض في شهر تموز/يوليو ٢٠٠٧ اعترافاً غير مباشر بالفشل في العراق الذي لن يعني سوى الاعتراف بفشل المشروع الاميركي في الشرق الاوسط.

٥-النظام الإقليمي العربي:

لأول مرة في تاريخ الصراع العربي - الاسرائيلي تتخذ بعض الدول العربية (السعودية - الاردن - مصر) موقفاً يبرر العدوان ويحمل الطرف العربي (حزب الله) مسؤولية اندلاع الحرب.

(البيان الذي نقلته وكالة الانباء السعودية عن مصدر رسمي سعودي في ١٣-٧-٢٠٠٦ ثم البيان المشترك المصري- الاردني في اليوم التالي. في حين وقفت دول اخرى علانيةالى جانب المقاومة (سوريا واليمن).

وقد اتضح هذا الانقسام بشكله الرسمي في الاجتماع الوزاري لمجلس جامعة الدول العربية الذي انعقد في القاهرة في ٢٠٠٦/٧/١٥ إذ توزعت مواقف الوزراء بين ثلاثة اتجاهات: الاول يضم مصر والاردن والسعودية والكويت والعراق والرئاسة الفلسطينية والامارات والبحرين. ويحمل هذا الاتجاه حزب الله مسؤولية التصعيد الذي جاء «في وقت غير مناسب» وقد يجر المنطقة الى حرب كبيرة». الاتجاه الثاني ضم سوريا ولبنان واليمن وأعتبر ان عمليات حزب الله ضد اسرائيل مشروعة ولا تتعارض مع ميثاق الامم المتحدة. والاتجاه الثالث ضم المغرب والسودان وليبيا... وراى ان حزب الله لم يرتكب جريمة عندما أسر الجنديين... ولكن كان عليه التنسيق مع الحكومة اللبنانية. أما الاجتماع الطارئ الذي أقر لاحقاً لمجلس الوزراء العرب على ان يعقد في بيروت فكان في ٢٠٠٦/٨/٧، أي بعد نحو شهر على بدء العدوان الاسرائيلي [٧]

لا يعكس هذا الانقسام وهذا التأخير في الاجتماع جديداً في الموقف العربي من قضية بهذه

الاهمية. فقد سبق وحصل انقسام مشابه عشية الحرب الاميركية على العراق عام ٢٠٠٢. ولم تتم الدعوة اثر تلك الحرب الى قمة طارئة .علماً بان المصادقة على دورية القمة قد تمت في قمة القاهرة عام ٢٠٠٠ .كما ان التحفظ الرسمي العربي كان واضحاً من فوز حركة حماس في الانتخابات التشريعية في شباط ٢٠٠٦. وحالت بعض الحكومات دون زيارة او لقاء رئيس الوزراء الفلسطيني وهو من حركة حماس. ولم تعترض على المواقف الاميركية والاوروبية التي دعت الى قطع المساعدات عن الشعب الفلسطيني بعد فوز حماس...

أي ان التفكك في النظام الاقليمي العربي وانقسام مواقف دوله تجاه القضية الواحدة وعدم حصول اي اجتماع (او حصوله متأخراً) على مستوى القمة، لم يكن مفاجئاً او طارئاً في مواجهة الحرب الاسرائيلية على لبنان. لا بل كشفت هذه الحرب حجم التدهور الذي آل اليه هذا النظام. وإذا كانت السنوات الماضية قد رأبت هذا الصدع جزئياً عبر ما اطلق عليه «المحور السعودي- السوري - المصري» الذي حافظ على الحد الادنى من المعالجة العربية المشتركة التي كانت تفرض نفسها على باقي المواقف العربية تجاه الحرب الاسرائيلية على لبنان (١٩٩٦) او المواقف من دول الجوار (إيران تركيا) او التعامل مع الملف الفلسطيني (المقاومة والسلطة)...

فإن هذا «المحور» نفسه قد تصدع بدوره عام ٢٠٠٥ بعد اغتيال الرئيس الحريري وما أعقبه من مواقف سعودية ومصرية مارست ضغوطاً واضحة وقاسية للمسارعة في سحب القوات السورية من لبنان. وفي الوقت الذي اتسع فيه التباعد العربي - العربي ذهبت سوريا الى تمتين تحالفها مع إيران. ولهذا سيكون من بين الاهداف الاميركية بعد الحرب الاسرائيلية على لبنان محاولة جذب سوريا بعيداً من ايران من خلال تقديم الحوافز عبر رفعها عن لائحة الارهاب، وتقديم المساعدات، وفتح باب التفاوض حول الجولان...(ولكن من دون أي جدوى).

اذاً لم يكن النظام الاقليمي العربي فاعلاً في أثناء الحرب .فقد اجتمع وزراء الخارجية العرب، كما سبق وأشرنا في بيروت في ٢٠٠٦/٨/٧ بعد نحو شهر على العدوان، وقبل اسبوع فقط من وقف الحرب. وعلى الرغم من تشكيل لجنة ثلاثية من الوزراء العرب لنقل وجهة النظر العربية الى مجلس الامن بشأن الصياغة النهائية لمشروع القرار الفرنسي - الاميركي الذي سيصدر لاحقاً تحت الرقم ١٧٠١، فإن حصيلة الموقف العربي من العدوان ومجرياته السياسية والعسكرية كانت أدنى بكثير من حجم ما حصل. وتجلى ذلك ايضاً في تبخر فكرة القمة الطارئة التي طرحت أثناء اجتماع وزراء الخارجية في بيروت. والتي لم تعقد الى اليوم، وكذلك في غياب القادة العرب عن حضور القمة الاسلامية التي انعقدت في ماليزيا لبحث العدوان على لبنان.

اذا كانت هذه الحرب قد صدّعت المثلث او المحور «السعودي - المصري - السوري» فإنها اثبتت في الوقت نفسه إنه من الصعب لهذا المثلث ان يشكل القيادة البديلة للنظام الاقليمي العربي كما ظن البعض في مرحلة معينة خاصة بعد تراجع دور مصر أثر اتفاقيات كامب ديفيد.

علماً بأن هذا «المثلث» لم يكن له دور محوري في كثير من المحطات والازمات التي عصفت بالمنطقة العربية من الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ الى الحرب العراقية- الايرانية بين ١٩٨٠ و ١٩٨٨، وصولاً الى الاحتلال الاميركي للعراق عام ٢٠٠٣ من دون ان يعني ذلك ان هذا المثلث لم يكن له دور ايجابي ايضاً في دعم سوريا والمقاومة في لبنان على سبيل المثال طوال فترة الاحتلال الاسرائيلي حتى التحرير عام ٢٠٠٠. لكن من المؤكد ان «النظام العربي» يشهد فراغاً على مستوى القيادة، كشفت الحرب الاخيرة على لبنان حجمه وتعقيداته. فقد وقفت قطر على سبيل المثال ضد المملكة السعودية وإتخذت سياسة مغايرة لها، ومواقف حادة من مسؤوليها فجاء الموقف القطري مؤيداً للمقاومة وداعياً الى المحافظة على سلاحها في مقابل الموقف السعودي الذي اعتبر ما قام به حزب الله «مغامرة غير محسوبة» في بداية الحرب. وتبدو أزمة القيادة من خلال هذا المثال بالمقارنة بين حجم دولة قطر وحجم المملكة السعودية.

ولا يبدو في الأفق، حتى بعد هذه الحرب ما يشير إلى أي تبدل في واقع النظام العربي، ولا في الفراغ على مستوى قيادته، على الرغم من «التماسك» النسبي الذي يظهر في الموافقة الجماعية على مشاريع التسوية معإسرائيل مثال: (قمة بيروت عام ٢٠٠٢). لكن محاولات رأب الصدع لن تتوقف في الوقت نفسه لأن الجميع يخشى ان تصل الامور الى القطيعة النهائية، كما حصل في عودة التقارب المصري - السوري حتى بعد خطاب الرئيس الاسد. الشهير في ٢٠٠٦/٨/١٥

ثمة واقع آخر على مستوى النظام الاقليمي العربي هو الواقع الشعبي والجماهيري الذي تجاوز مواقف حكوماته واعرب عن تأييده التام للمقاومة في لبنان ضد اسرائيل فخرجت التظاهرات في معظم العواصم العربية وحتى الاسلامية ترفع شعارات حزب الله وصور السيد نصرالله، فتجاوزت بذلك أجواء الفتن المذهبية التي كان البعض يؤكد على خطورتها وإمكانية حصولها. ولعل هذا الموقف الشعبي الواسع يعبّر عن رغبة عميقة في تخطي الشعور الدائم بالهزيمة والانكسار امام اسرائيل الذي تسببت به الحكومات العربية طيلة العقود الماضية، ولا تزال تشيعه في وسائل الاعلام على المستويات السياسية والنفسية. لقد حرك صمود حزب الله في هذه الحرب تلك الرغبة القوية عند عموم الناس التي تجلت في التظاهرات الشعبية، للمطالبة بالمشاركة في القتال وفي صناعة الانتصار. كما ارتفعت في الوقت نفسه شعارات النقد والاتهام بالعجز والتقصير والتآمر للحكومات التي طالبها المتظاهرون باتخاذ المواقف التي تتناسب وما يحصل في جنوب لبنان.(مثل قطع العلاقات مع اسرائيل، أو استدعاءالسفير من إسرائيل، او طرد السفير الاسرائيلي من الدولة التي وقعت اتفاقات سلام، الى ارسال المساعدات، وصولاً الى فتح باب التطوع أمام الراغبين بالمشاركة في القتال).

وقد احدثت تلك المظاهرات إرباكاً وحرجاً لدى الحكومات العربية. ما اضطرها الى تعديل بعض خطابها تجاه الحرب خاصة وإن الوقائع الميدانية بدات تشير الى انكسار الهجمة العسكرية

الاسرائيلية والى نجاح المقاومة في الصمود امام العدوان.

واذا كان ما حصل سيحرّك الكثير من الآمال والرهانات على هذا الواقع الشعبي الذي تبين له عملياً كيف يمكن التصدي لإسرائيل والصمود في وجه آلتها العسكرية وإفشال اهدافها، فإن هذا التعاطف يحتاج لكي يكون اكثر فاعلية في المستقبل الى قوى منظمة ومهيأة لقيادته على المستويات كافة. وهذا غير متوفر في معظم البلدان العربية. وإذا كانت المقاومة في وجه اسرائيل حققت هذه الوحدة الشعبية وهذا الحراك الشعبي القوي فإن القضايا العربية الاخرى ربما لن تحقق مثل هذه الوحدة خاصة عندما يتوجه الجميع نحو الداخل لمواجهة الحكومات المستبدة او الظالمة او التابعة... كما ان هذه التحركات الشعبية لم تتمكن حتى في اثناء الحرب وحرارتها الملتهبة من الضغط على حكوماتها لتغيير حقيقي في سلوكها، كقطع العلاقات، او التهديد بالمقاطعة الاقتصادية او ما شابه ذلك... وهكذا لعبت التحركات الشعبية والمدنية دوراً مهماً ومؤيداً للمقاومة وقائدها إبان الحرب. وكان لهذا الدور تأثيراته الاعلامية والنفسية والسياسية الايجابية على المقاومة. لكن الرهان على هذا الدور يحتاج مستقبلاً الى القوى التي تستطيع الانتقال به من العمل العفوي الى العمل المنظم، ودون ذلك عقبات كثيرة في المستقبل المنظور.

نحو حروب جديدة؟

ذهبت بعض التحليلات الى ان ما جرى في لبنان سيكون آخر الحروب العربية الاسرائيلية. وإن المنطقة لن تشهد حروباً لأن إسرائيل من جهة عجزت عن تحقيق أهدافها من الحرب وهي لن تدخل في حروب جديدة مع سوريا او مع أي دولة عربية أخرى. ولأن هذه الدول من جهة ثانية تريد التسوية الشاملة مع إسرائيل وهي على استعداد للتطبيع معها كما عبرت عن ذلك قمة بيروت عام ٢٠٠٢. وترى هذه التحليلات ان وجود قوات اليونيفيل والجيش اللبناني في الجنوب سيمنع فعلياً أي نشاط للمقاومة حتى لو احتفظت بسلاحها. ما يعني ان إمكانية نشوب حرب أخرى من خلال لبنان لن تكون فرصتها متوفرة.

إن تداعيات الحرب على دول المنطقة التي سبق وأشرنا اليها ربما لن تسمح بهذا التحليل المتفائل لجهة غياب الحروب وتقدم الاستقرار والتسويات... فإسرائيل التي خرجت وهي تبحث عن اسباب الفشل في هذه الحرب لن تبقى أسيرة هذا الواقع الى الابد خاصة لجهة تأثيراته الاستراتيجية على مستقبل ووجود الكيان الاسرائيلي. بل ستعمل على إعادة ترميم قدرة الردع لإعادة الاعتبار الى هيبة الجيش، في اول فرصة ستسمح لها بذلك.

كما ان إسرائيل لا زالت حتى بعد دخول الجيش اللبناني إلى الجنوب ووجود قوات اليونيفيل هناك، تنتهك السيادة اللبنانية وتستمرفي طلعاتها الجوية فوق الاراضي اللبنانية كافة، وإذا كانت المقاومة لا تزال تمتلك الصواريخ وترسانة عسكرية مهمة، وتتمسك باستراتيجية الدفاع

عن لبنان فهذا يعني ان اسرائيل ستتحين الفرص للتخلص من هذا التهديد بالوسائل كافة، بما فيها الحرب إذا لزم الامر. ولكن مثل هذه الخيارات المحتملة لا تعني ان اللجوء اليها قد يتم في وقت قريب، فدون ذلك فترات طويلة وربما سنوات قد تتغير فيها الكثير من الاوضاع في المنطقة. وإذا كانت اي حرب تخوضها إسرائيل لا تنفصل عن المشروع الأميركي في المنطقة فهذا يعني ان الحديث عن آخر الحروب أو عن تجددها يرتبط ايضاً بالرؤية الأميركية لمنطقة الشرق الاوسط. ففي حقبة المحافظين الجدد في الادارة الأميركية شهد العالم حرباً مفتوحة على الارهاب تم خلالها إسقاط أنظمة في العراق وأفغانستان وإشعال حرب في لبنان. ووصل التوتر مع إيران إلى ذروته. والتهديد بالضربة العسكرية لمنع ايران من امتلاك الطاقة النووية لا يزال قائماً. وتشير بعض التقديرات الى ان بوش لن يغادر البيت الأبيض إلا ويكون قد وجه ضربته العسكرية إلى إيران. ولا أحد يقدر على التنبؤ بحجم رد الفعل الإيراني على هذا الخيار الاميركي المحتمل الذي قد يشعل المنطقة برمتها. ما يعني ان الحرب قد تعود الى المنطقة ولكن من البوابة الايرانية هذه المرة وليس من بوابة لبنان.

ثمة احتمال آخر لحرب إسرائيلية - سورية. فإسرائيل التي خسرت حربها في لبنان، لا يمكن ان تذهب الى التسوية مع سوريا. وها هي الاصوات الإسرائيلية قد خرجت لتؤكد أن الجولان جزء لا يتجزأ من ارض اسرائيل وإن إعادته مستحيلة الى سوريا. كما أن سوريا في المقابل بدأت تلوح بفقدان الامل في السلام، وبأنها تخشى أن تكون الحرب هي السبيل لاستعادة الارض. ومع استمرار الرغبة الأميركية في حصار سوريا وفرض العقوبات عليها (تصريحات كوندوليزا رايس في ٢٧-٩-٢٠٠٦، فإن سيناريو الحرب سيظل احتمالاً بين سوريا وإسرائيل.

أما على المستوى الفلسطيني فإن الحرب لم تتوقف أصلاً. ومنذ سنوات، وحتى أثناء الحرب على لبنان تقوم اسرائيل بعمليات دهم واغتيال وهدم للبيوت في المناطق الفلسطينية كافة. كما تستمر وبتفاوت عمليات الرد تارة بقصف المستعمرات او بعمليات تفجير... ولا يبدو ان الوضع يتجه نحو الاستقرار او عقد التسويات. فبعد أكثر من عشر سنوات على اتفاقيات اوسلو لم يحصل الفلسطينيون على دولتهم المستقلة على الرغم من الوعود الأميركية والأوروبية الصريحة والقاطعة بهذا الشأن. وبعد أكثر من مشروع عربي للتسوية والاعتراف بإسرائيل لم تُعلن هذه الأخيرة اي استعداد جدي للانسحاب من كل الأراضي العربية المحتلة

أو الاعتراف بدولة فلسطينية. ما يعني استمرار التوتر الفلسطيني الإسرائيلي الذي سيُغذي التوتر السوري- الاسرائيلي واللبناني الاسرائيلي لأسباب مختلفة.

بعد عام على الحرب الإسرائيلية على لبنان بتداعياتها الإقليمية والدولية، تبدو منطقة الشرق الاوسط وكأنها تتأرجح بين خيارين: الاقرار الأميركي بالفشل في العراق، وما يعنيه هذا الاقرار من انسحاب تدريجي من «المستنقع». وهذا الخيار الذي يزداد التفكير فيه حتى على مستوى

البنتاغون يفترض ليس فقط الحوار مع ايران حول العراق بل وبحث التسويات الممكنة للبرنامج النووي الإيراني التي تتيح لإيران استمرار التخصيب والحصول على الطاقة النووية للأغراض السلمية في مقابل الاشراف الدائم للوكالة الدولية للطاقة الذرية على هذا البرنامج. أما الخيار الثاني الذي يخشاه العالم فهو خيار الهروب الأميركي الى الامام لعدم الاعتراف بالفشل في العراق وتحمل الولايات المتحدة وحلفاؤها تبعاته. ويقضي هذا الخيار بشن الحرب على ايران بذريعة منعها من استكمال برنامجها النووي. لكن هذا الخيار الذي لا يفترض انتصاراً اميركياًأبديهياً، سوف يدخل منطقة الشرق الأوسط كلها في أتون حرب لا أحد يستطيع تقدير حجم ومدى الحرائق التي ستندلع بسببها. وحتى الولايات المتحدة نفسها لا تستطيع التأكد من ان هذه الحرب ستحقق لها المصالح التي عجزت عن تحقيقها بعد فشلها في العراق وفشل إسرائيل في الحرب على لبنان .

ان الحرب الاسرائيلية التي عجزت عن تحقيق اهدافها الاميركية الشرق اوسطية من خلال لبنان، هي التي أدت الى تصدع المحور السعودي المصري السوري. وهي التي شجعت خيار الفتنة الأميركي للرد على انتصار حزب الله في هذه الحرب. وهي التي كشفت عجزالحكومات الضعيفة في لبنان وفلسطين التي احتاجت واشنطن الى اعلان تاييدها ودعمها عشرات المرات.وهذه الحرب هي التي أزاحت اوروبا من مواقفها السابقة باتجاه الحوار مع سوريا والاعتراف مجدداً بموقعها ودورها الاقليمي. وهذه الحرب هي التي زعزعت لأول مرة مفهوم الردع الإسرائيلي وزلزلت مستقبل الكيان نفسه.

ان نتائج هذه الحرب هي التي قد تشعل حرباً أخرى لا يمكن تقدير مدى الأضرار أو «الزلازل» التي ستصيب دول الشرق الاوسط بسببها. ولعل كل هذه التداعيات التي قلبت الكثير من المواقع الثابتة وبدلت الكثير من موازين القوى بين بلدان المنطقة ومواقع النفوذ فيها ...هي التي دفعت المعلق الاسرائيلي بن كسبيت إلى وصفها بالحرب التي أزاحت قارات من أماكنها.

الهوامش:

[1] لمزيد من التفصيل حول «المحافظين الجدد» راجع: ستيفان هالبر وجوناثان كلارك «التفرد الاميركي، المحافظون الجدد والنظام العالمي. دار الكتاب العربي بيروت ٢٠٠٥ وكذلك الفصل الاول «ثورة المحافظين الجدد من كتاب جيل كيبل الفتنة، حروب في ديار المسلمين، دار الساقي بيروت ٢٠٠٤.

[2] راجع على سبيل المثال:

james phillips,John C.Helsman,and James Jay Carafano: The Heritage Foundation,policy research and Analysis, December 14, 2005

[3] اهارون ليفران :«أفول قدرة الردع الاسرائيلية، سلسلة أوراق اسرائيلية(٥) منشورات المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، رام الله، ٢٠٠١

(4) James Phillips, John C.Helsman, and James Jay Carafano R Countering IranU¢s Nuclear Challenge R The Heritage Foundation, Policy Research And Analysis , December 14,2005

[5] راجع مقالة سيمور هيرش في صحيفة نيويوركر في ٢٠٠٦/٨/١٤ والتي ترجمتها الصحف اللبنانية.

[6] راجع على سبيل المثال

Henry Kissinger, the next steps with iran the Washington Post, Monday 31 July 2006

[7] د. أحمد يوسف احمد «التداعيات العربية، ورقة قدمت في ندوة «الحرب الاسرائيلية على لبنان: التداعيات اللبنانية والاسرائيلية وتأثيراتها العربية والاقليمية والدولية، بيروت في ٢١ أب - ١ أيلول ٢٠٠٦ مركز دراسات الوحدة العربي

المقاومة في لبنان: الرؤية الوطنية والمنطق الاجتماعي

نائب رئيس المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق
السيّد عبد الحليم فضل الله (لبنان)

أعادت حرب تموز ٢٠٠٦، التأكيد على أن الصراع العربي- الإسرائيلي هو قوة جذب مركزية لنزاعات المنطقة وتحولاتها، مع أنه جاء في سياق مختلف بعض الشيء. فقد حصلت محاولة غير مألوفة لتوظيف الترسانة العسكرية الإسرائيلية الهائلة في الحملة الأميركية المتعثرة في العراق. بمعنى آخر جرى ولوقت محدّد «أمركة» السياسات الإسرائيلية، في خروج مؤقت عن الالتزام الأميركي التام بوضع المصالح الإسرائيلية في المنطقة فوق كل اعتبار، فبات «أمن اسرائيل» وقدرتها على الردع مرهوناً بوضع الأميركيين في العراق، الذين يسجلون التراجع تلو الآخر.

من النتائج البارزة للحرب، أنها مثلت نقطة انكسار رئيسية للتحالف الأميركي- الإسرائيلي الذي قاد المنطقة نحو اختلالات خطيرة لم يسبق لها مثيل، فأعاد الاعتبار من جديد للتوازن التاريخي المركب بين طرفي الصراع، والمقصود هنا التوازن النفسي والعسكري والإنساني والثقافي (كما يعبر بن يشاي الكاتب السياسي في صحيفة هآرتس)

كان «البعض» يعتقد أن تطورات عقد من الهيمنة الأميركية الأحادية، ونصف عقد من حروب ما بعد ١١ أيلول كافية لفرض توازنات مختلفة، وإذا أضفنا إلى ذلك تصدع النظام العربي ونهاية العمل العربي المشترك، تصبح المقاومة الشعبية مجرد محاولة عابرة لتقليل الخسائر، أو تعويض يائس عن انسداد الأفق وانعدام المخارج، لكن حرب تموز أثارت الاهتمام باحتمال مغاير تماماً، وهو أن تمسك المقاومات العربية بزمام المبادرة، فتتحول شيئاً فشيئاً الى البديل المستقبلي الناجز لخيارات عربية أخرى بينت التجارب عقمها.

بهذا المعنى، حقّقت المقاومة اللبنانية ممثلة بحزب الله، نجاحاً متعدد المضامين، حدود الانتصار لا تقف عند الانجازات الميدانية أو في الالتفاف الشعبي الهائل، أو في التمرين السياسي الناجح الذي شجعت عليه شعوباً عربية، بل تتعداه إلى خلاصة بارزة تجسدها الصلة الوثيقة بين الوقائع الميدانية والديناميات الاجتماعية والسياسية والثقافية، التي بدت شديدة

الرسوخ وذات قدرة على التحريك؛ فهناك مجتمع «عادي» تعرضت يومياته المألوفة لمقاطعة عنيفة وخضع طوال ثلاثة وثلاثين يوماً للتمزيق الدامي، لكنه قرر أن يمضي بالمعركة حتى نهايتها، في صورة نادرة للبسالة الجماعية. يتصل ذلك كما يبدو بتحولات حاسمة في الوعي حققها انتصار عام ٢٠٠٠، حين أجبرت المقاومة قوات الاحتلال على الانكفاء إلى ما وراء الحدود بعد ١٨ سنةً من القتال. على هذا النحو تصبح الهزيمة ممنوعة كونها تعني تفكيكاً رمزياً لوجود الجماعة المتحلقة حول المقاومة ورداً لها إلى بؤس البدايات. لقد اكتفت المقاومة بمقاسمة مجتمعها رغبته العارمة هذه، فخاضت معركتها وهي مطمئنة إلى أن البيئة السياسية غير الآمنة التي تحيط بها يقابلها نسيج اجتماعي متماسك ويمكن الاعتماد عليه.

المقاومة.. كمبادرة متصاعدة:

لم تكن العلاقة بين المقاومة ومجتمعها وليدة اللحظة، فالأمر يتعلق بحرب استنزاف هي الأطول على الإطلاق في تاريخ الحروب العربية الإسرائيلية. مرّت هذه العلاقة بتحديات ومنعطفات وبمخاضات داخلية وخارجية أنتجت ذلك التقارب المشهود بين خيارات المقاومة وتطلعات مجتمعها.

كانت البداية مع اجتياح عام ١٩٨٢ حين نفذت القوات الإسرائيلية كما هو معروف، هجوماً برياً واسعاً بقصد طرد منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان. وذهب ضحية الهجوم آلاف المدنيين ونجم عنه احتلال أراض لبنانية واسعة من بينها العاصمة بيروت لأيام قليلة. عشية هذا الاجتياح كانت النزاعات الأهلية متداخلة إلى حد لم يكن من الممكن معه التمييز بين دوافعها الداخلية والخارجية، ولا بين نزاعات الطوائف التاريخيّة والنزاعات المرتبطة بصراعات المنطقة. مع ذلك فإن حيويات اجتماعية كانت تتفاعل وتتصاعد بحثاً عن تعبير سياسي، ولم يكن صعباً ملاحظة أن رياح الحرب الأهلية في لبنان (١٩٧٥-١٩٩٠) حملت بذور التغيير الذي ترغب به فئات واسعة عانت منذ الاستقلال (١٩٤٣) من هامشية ونقص في التمثيل. بذور التغيير هذه لم تكن معزولة عن مصدر آخر للحيوية هو القضية الفلسطينية، التي تأثرت بها فئات لبنانية واسعة وتحفزت بقوة لجعلها جزءاً لا يتجزأ من برنامجها الوطني والإصلاحي. لكن ظروف الانتشار الفلسطيني المسلح في لبنان آنذاك وترتيباته، والانقسامات التي أحاطت به، منعت من تحقيق الوصل بين ديناميتين: داخلية ارتبطت بالإصلاح، وخارجية تتصل بمواجهة الخطر الإسرائيلي. وقد تغير الأمر بعد الاجتياح بحيث التقى الاعتراض السياسي-الاجتماعي بالاعتراض الوطني المتمثل برفض العدوان الإسرائيلي والهيمنة الأميركية.

تحوّل الاحتلال إلى قضية مركزية للمجتمع الجنوبي، الذي انتقل فوراً من الاعتراض المدني إلى المواجهة الأهلية والمسلحة، وقد ترافق ذلك مع حقائق لا يمكن إغفالها؛ أولاها أنّ

المقاومين الجدد هم أنفسهم الراغبون بإلحاح في نيل حقوقهم في نظام سياسي غير منصف، والثانية بدء إفلات الحيوية الشعبية المناهضة للاحتلال والهيمنة في المنطقة من قبضة النظام العربي لتقع في يد التيار الإسلامي الذي كان يسبح في فضاء خاص بعيد عن الأنظمة بل متعرض لاستبدادها. وتتمثل الحقيقة الثالثة في المضمون العقائدي والثقافي الجديد الذي نشرته الثورة الإسلامية في إيران (١٩٧٩)، والتي مزجت في مركبها الخاص بين الإسلام والإصلاح ومعارضة «الإمبريالية الأميركية» (الاستكبار)، فتحولت الآيديولوجيا على طريقتها إلى مساحة شعبية واسعة تتخطى بكثير حدود النخبة.

سياق مترابط

إنّ تتبع المرحلة الأولى ١٩٨٢-١٩٨٥ وهي الفترة المرجعية لنشوء حزب الله وتقدمه في صفوفها، تظهر أن النشاط المناهض للاحتلال لم يطلق دفعة واحدة وبصيغة محددة مدروسة، بل كان مشروعاً يتولد في كل لحظة ويسري في عروق المجتمع الجنوبي واللبناني عموماً جامعا تحت مظلته مع مرور الوقت الشريحة تلو الأخرى. الإطار المدني للمقاومة كان لصيقاً بإطارها العسكري، القرية التي تحتوي على مناصرين أكثر للمقاومة تقاتل أكثر من غيرها، وكلما زادت وتيرة العمليات كلما زاد عدد المناصرين .. وهكذا في تسلسل جدلي لا يتوقف. لم ينغمس المقاومون بالحرب الأهلية التي كانت مستمرة، لكن ميزان القوى الداخلي كان مؤثراً على ميزان القوى مع الاحتلال، عام ١٩٨٥ كان فاصلا، ففيه تمكّن تحالف وطني عريض من منع أميركا وحلفائها من حماية الحكم اليميني المحافظ من الاستقرار في السلطة التي أمسك بها في ظروف الاجتياح والوجود الغربي في لبنان، وفي نفس العام أجبر المقاومون قوات الاحتلال على إخلاء مناطق لبنانية واسعة، والتمركز في شريط حدودي عريض تناهز مساحته ١٠٪ من لبنان.

كانت المقاومة في مرحلة التأسيس إذاً حصيلة العديد من المبادرات المحلية المتزامنة، التي عبّرت عن نفسها مدنياً من خلال انتفاضات القرى والبلدات والمواجهات الشعبية، وعسكرياً بالعمليات العسكرية المتصاعدة. لقد تنامت هذه المبادرات في مناخات محلية، لكن داخل حاضنة اجتماعية سياسية وثقافية هي نفسها التي احتواها ونظمها حزب الله فيما بعد.

لم تكن المقاومة بالتالي ثمرة توافق استراتيجي وسياسي من لون خاص، أو فكرة «لا اجتماعية» فرضت فرضاً، بل سيرورة إصلاحية حاولت بدأب أن تجمع بين مهمتي القتال ضد الاحتلال والدفاع عن مصالح المجتمع الذي تقاتل من أجله، فكانت جزءاً من منظومة خيارات سياسية لم يكن بالإمكان الفصل بينها، أو اختصارها في بند واحد.

بعبارة أخرى قامت المقاومة اللبنانية التي قادها حزب الله على ثلاثة عناصر مترابطة:

- التبادلية: فمن جهة اندمجت بالمجال الوطني اللبناني، وساهمت في تطوير الخيارات

الوطنية، وفي حسم الجدل حول مسائل التأسيس، كالهوية العربية للبنان والموقف من «إسرائيل» والعلاقة بالغرب ونظام الهيمنة الأميركي، ومن جهة أخرى خضعت لموجبات هذا المجال الوطني ورسمت لنفسها داخله سياقاً تطورياً انتقل بها من مرحلة إلى أخرى، فباتت تحولات الداخل جزءاً بل شرطاً لاستمرار المقاومة في تحقيق أهدافها. وهو ما ظهر في حرب تموز على نحو لا لبس فيه. معنى التبادلية هو أن المقاومة التي شاركت بعمق في صياغة المشروع الداخلي، وفي التأسيس الجديد للفكرة الوطنيّة، تأثرت بتفاعلات النموذج اللبناني وانسيابيته وسيولته، وبتنوع أبعاده وبخياراته المتعددة غير الجازمة.

- التوازن والتكامل بين المسألتين الوطنية والقومية/الإسلامية، بين السياقين الداخلي والخارجي للأحداث. أثمر ذلك معادلة استقرار باتجاهين: الاتجاه الأول يتصل بأن لبنان من خلال المقاومة تمكن للمرة الأولى من تقرير علاقته بالصراع العربي الإسرائيلي بنفسه، وتتضمن هذه اللبننة حلاً لمعضلة مزمنة من شأنها الإطاحة بالاستقرار، إن بالتورط المتطرف في ذلك الصراع لأسباب تتجاوز لبنان، أو الحياد السلبي الذي يعني ضمناً انتقالاً إلى الضفة الأخرى.

ويتمثل الاتجاه الثاني بمنع التوترات الأهلية المتفاقمة في المحيط الإقليمي القريب من التمدد عبر الحدود، وفي حين تنزلق المنطقة نحو قعر مذهبي وطائفي لا قرار له تحت ضغط التحلل الاستراتيجي الراهن، تمكن لبنان حتى الآن من أن يربط توتراته بخيارات وطنية واجتماعية متباينة، لا بانقسامات فئوية وعصبية ضيقة وخطيرة، مستفيداً من أمرين تمكنت المقاومة من تثبيتهما: التطلع إلى قضايا المنطقة من منظارين متوازيين وطني وقومي، والفهم الجديد لبناء الدولة الذي يمزج بين مفاهيم الحرية والعدالة والقوة كضمانة للسيادة.

- **الاعتدال والتكافؤ**: عانى لبنان أكثر من غيره من تبعات اضطراب الهوية، ومن تبدل توازناتها الخاصة مع تبدل التوازن بين الطوائف وتغير اتجاه الرياح الدوليّة، فيما أدت التجربة الناجحة للمقاومة إلى أن يكون البعد العربي راسخ الحضور في الهوية الوطنية اللبنانية، لتصبح الاستنفارات الدوريّة للطوائف هذه المرّة متأثرة بالمتغيرات الوطنية والقومية الكبرى عوضاً من أن تكون محددة لها كما في كل مرة.

إن تكافؤ الهوية هو محطة عبور إلى الاستقرار الاجتماعي والاعتدال الوطني والسياسي. في التاريخ السياسي للبنان كان الاعتدال يقاس بمدى الارتماء في أحضان أوروبا والغرب في مقابل صلات أقل قوة مع الجوار الأقرب. آنذاك بات وجود الدولة واستقرارها رهناً بضمور الوطنية اللبنانية والتقليل من أهمية العناصر المحلية لصالح العناصر الخارجية. إنّ أرجحيّة الخارج على الداخل هو تعبير آخر عن مأزق الدولة الوظيفيّة، حيث الأمّة نتاج عرضي ومتبدّل لأهداف تفوقها

رتبة وقيمة. لقد كان انشغال لبنان بدور صلة الوصل بين الشرق والغرب، سبباً في إفقاد هويته المضمون الاجتماعي والثقافي المطلوب، فبات تعرضها للتفكّك أو التأزّم مألوفاً ومتوقعاً في المنعطفات الكبرى، وبدلاً من أن يدور النقاش حينها حول الخيارات السياسية المفترضة، كانت تطرح في كل مرة الأسئلة التي تحمل في طيّاتها أزمات التأسيس ونواقصه.

في سياق ذلك شكلت الخيارات المتطرفة، لنقل الأقلويّة، التعويض المتاح عن ضعف الالتزامات الوطنيّة وعدم استقرار الهويّة. كان التطرف السياسي هو السبيل الأقرب لتماسك نظام حافل بالاختلالات والمفارقات. التطرف اللبناني لم يفض إلى ديكتاتورية أو تشدّد كما قد يظن، بل أفضى إلى تجارب سلطة متقطّعة، لا ترعى مصالح غالبية معتبرة من اللبنانيين، ولا تؤسس لوطنيّة جامعة طالما أنها غذّت وتغذّي الطوائف بمشاعر انقساميّة متقابلة لشعور بالغبن أو لرغبة بالاستئثار.

عبّر التطرف السياسي عن نفسه بالأحاديات والثنائيات الطائفيّة الحاكمة، وبتجريد شرائح شعبية واسعة من حقوق أساسيّة، وتضييق قاعدة السلطة إلى حدّ كادت تلتصق فيه بالعصبيّة الغالبة وما أحاط بها من شبكات مصالح، كما أن هذا التطرف الذي فجّر الحرب الأهليّة وأخر طيّ صفحتها، أسقط المسألة الاجتماعيّة من التوافقات السطحيّة التي نجحت في إنهاء الحرب، لكنها أخفقت في التعامل مع أسبابها الغائرة ونتائجها العميقة، وهو -أي التطرف- ما أملى على لبنان لعقود، الانكفاء الاستراتيجي، فغاب عن طاولة القرار الاقليمي ليكون ساحة له لا شريكاً في اتخاذه، وهو الذي حوّل أيضاً الديموقراطية اللبنانيّة إلى مجرد تقليد محدود يحكم علاقة السلطة بالرأي العام، من دون أن يتسنى لها أن تمسك بقياد السلطة التي ظلت ممزقة بين التفسخ الداخلي والتدخل الخارجي، لتصاغ الخيارات الكبرى خارج المظلة الديموقراطيّة.

غذّت التجربة المحلية للمقاومة بالمقابل، الاعتدال السياسي المراد له تثبيت الهوية اللبنانيّة وبناء الوطنيّة اللبنانيّة، وذلك على ثلاثة صعد:

استراتيجياً؛ بالتوفيق بين المشاركة في القرار الإقليمي والتفاعل مع قضايا المنطقة وتحدياتها وحيوياتها، وبين التطلع إلى ذلك من بوابة رؤية وطنيّة متمايزة ومنسجمة مع المصالح المحليّة والتسويات الاجتماعيّة المتوافق عليها. الفعاليّة الاستراتيجيّة تعني هنا أن لبنان لن يكون بعد اليوم مجرد «ساحة» أو «جسر» أو «رسالة» .. بل دولة حقيقيّة تبحث عن وجود قوي ومؤثر في الجيواستراتيجيا التي تنتمي إليها. أما التأطير المحلّي لهذه الفعاليّة فتعني أنّها ستراعي بدقة التوازن بين ما هو محلّي وما هو إقليمي، على نحو يكفل الاستقرار الاجتماعي ولا يطيح به.

سياسياً؛ بإعادة التوازن لمعادلة الداخل/ الخارج التي طالما كانت مختلّة في لبنان لصالح الأخير. لعل ذلك يجعل الآليات السياسيّة الاعتيادية والطبقة السياسيّة التي تمارسها، قادرة على مواجهة التحديات ورسم السياسات الوطنيّة بنفسها بأقل قدر من التدخل الخارجي.

اجتماعياً؛ إذ سبقت الاشارة إلى أنّ البناء التاريخي للدولة في لبنان كان متحللاً من الالتزامات الاجتماعيّة، فالدولة-الجسر- تركز على النقاط التي يربط الجسر بينها لا على المياه التي تمر من تحته. لقد تطلّب الأمر عشرين عاماً على الاستقلال ليسجّل الشأن الاجتماعي حضوراً مؤقتاً في الإصلاحات الشهابيّة، وخمسة عشر عاماً أخرى من الحرب الأهليّة حتى يستوعب النظام السياسي الفئات المستبعدة عنه. ثم جاءت تطورات عام ٢٠٠٥ التي تلت اغتيال الرئيس رفيق الحريري، ليجد «البعض» أن الفرصة سانحة لإعادة تركيب النظام على القاعدة الاجتماعية-الاقتصادية نفسها التي سادت إثر الاستقلال. والمؤسف هو أنّ الصعود السياسي بعد اتفاق الطائف للشرائح الجديدة، قام على أساس مقايضة ضمنيّة في إطار اقتصاد التحويلات والريوع، منعت من تحويل هذا الحضور المتنامي إلى قوّة تغيير فعليّة للأسس الاجتماعية التي يرتكز عليها النظام.

في الخلاصة

تشكّل المقاومة اليوم ضمانة الوصل بين ثلاثة توافقات ترسم استقرار هرم الدولة، توافق الاندماج في المحيط مع السيادة، وتوافق السيادة مع الانتماء، وتوافق الانتماء مع الاستقرار، وهي أيضاً ضمانة أن يظلّ المنطق الاجتماعي حاضراً وقوياً بما فيه الكفاية لجعل الإصلاح جزءاً لا يتجزأ من السياسات العامة لهذا البلد، خصوصاً وأنها أي المقاومة، تحولت مع الوقت إلى حيوية واسعة تشدّ إليها معظم الحيويات المعوّل عليها في إنجاز هذه المهمّة. ولو تمعّنا في حدود الانقسام السياسي في لبنان اليوم للاحظنا أنه يترافق مع انقسام في الرؤية الاجتماعية للفريقين المتقابلين، فالأول يجمع بين مناهضة الاحتلال والهيمنة وبين منظور اجتماعي النزعة للنظام السياسي- الاقتصادي، بينما يسلك الفريق الثاني طريقاً يربط ما بين العلاقة المميزة بالغرب والليبرالية المغرقة.

المحور الرابع المقاومة وحروب الشرق الأوسط الجديد

■ انتصار لبنان — حسن حنفي

■ الانتصار في مواجهة المشروع الأميركي للشرق الأوسط الجديد، التداعيات وآليات التعامل معها — بلال التل

■ الانتصار في مواجهة المشروع الأميركي للشرق الأوسط الجديد — وليد سكرية

■ الانتصار المقاوم من المنظور السياسي لنظرية المباريات — فتحي عبد العليم

■ الانتصار وسقوط النموذج البديل — جورج حجار

انتصـــار لبنـــان

أستـاذ الفلسفة في جامعة القاهرة
د. حســن حنفــي (مصــر)

١- تحيـة إلى لبنـان

ورفعت الأعلام الحمراء والبيضاء ووسطها شجرة الأرز باسقة تهزّها أيادي العرب في لبنان. وتذكّر بالثورة الفرنسية والعلم المثلث الألوان، والمارسيليز، والاستيلاء على سجن الباستيل. وأين؟ في أصغر دولة حجماً مساحة وسكاناً، صورتها في ذهن العرب الجمال والحب، والشعر والغناء، والجبل والسهل والبحر، جمال الروح وجمال الطبيعة. وفي نفس الوقت في أكبر دولة من حيث المقاومة والقدرة على العمل والإعمار. فقد حرّر شعبها الجنوب المحتل بفضل تنظيماته السياسية وقواه الشعبية. وما زال صامداً ضد كل محاولات نزع سلاحه وإنهاء مقاومته بدعوى السلام القادم مع العدو المحتل، واستقلال الدولة وسيطرتها على المجتمع. في حين أنه في دول أخرى مركزية مثل مصر وسوريا تطالب الولايات المتحدة الأمريكية بتقوية المجتمع المدني وتخفيف الدولة قبضتها عليه. وهي لا تريد هذا ولا ذاك، لا مجتمعاً مدنياً قادراً على مناهضتها، ولا دولة وطنية مستقلة ترفض التبعية لها. لبنان عقل الأمة في الفكر والأدب، طباعة ونشراً. لغتها وشعرها ونهضتها منذ القرن التاسع عشر، وأدباؤها ومصلحوها المهاجرون من بر الشام إلى بر مصر. وقد كان حصار بيروت في ١٩٨٢ من شارون، رجل السلام الآن، هو حصار لعقل العرب بعد الجثمان على جسد العرب في فلسطين والجولان. وكتم نفس العرب في مصر.

ولقد تساءل الناس من قبل: أين الشارع العربي؟ أين جماهير العرب؟ أين الأمة العربية التي طالما خاطبها عبد الناصر لردع العدوان عنها وتوحيدها؟ لقد نزلت الملايين في عواصم الغرب ومدنه الكبرى، وفي قلب الولايات المتحدة الأمريكية، باريس ولندن وبراج وسياتل وفلورنسا وجنوه ضد الاحتلال الأمريكي للعراق، رافعة أعلام العراق وفلسطين فوق الأعناق. ولم يتحرك الشارع العربي إلا في هبات وقتية ومظاهرات طلابية أعظمها الرباط، في أقصى المحيط، وأولها في الخليج الذى لم يتعوّد على حركة الشارع، وقلبها في جامعات مصر. ومع ذلك ظلت منذ عدة سنوات محدودة الأثر. وغلب على الشارع العربي السكون وكأن الأمر لا يعنيه، بعد أن أدار ظهره

لنظم الحكم التي احتكرت القرار السياسي على مدى نصف قرن، في الحرب والسلام، وفي الاشتراكية والرأسمالية، بل وفي الاستقلال والتبعية. والأمة يتزايد عددها منذ أن كان يشير إليها عبد الناصر في خطبه مائة وخمسون مليوناً، وقد جاوزت الآن المائتي وخمسين. بل إن الأمة الإسلامية المحيطة تزيد على المليار، خمس سكان العالم، وما زالت القدس محتلة، وأفغانستان والشيشان وكشمير أيضاً محتلة. أصبحت الأمة كالقلب أو الجوف المفتوح تجري فيه القوى الدولية ما تشاء من عمليات جراحية وكأن الجسد بلا صاحب، جثة هامدة واراها التراب. صاحبه يخدّره، وعدوه يقتله.

وأخيراً تحرّك الشارع العربي في بيروت يحمل الأعلام الوطنية وليست الحزبية، ويترنّم بالنشيد الوطني. ويقف في ساحة الشهداء يرثي شهداءه القدماء والجدد. وتسقط الجماهير الحكومة، وتفرض إرادتها على المجلس النيابي. فليست جماهير جورجيا وأوكرانيا وكولومبيا وشيلي بأفضل من الجماهير العربية. تجاوزت الجماهير ممثليها المنتخبين. وتجاوز الممثلون حكومة الأغلبية. فالغليان في القلب قد طالت مدته. وتدافع الجماهير العربية عن كرامتها الوطنية. وتسأل عمن اغتال رئيسها ومعمّرها وموحّدها؟ وتدافع عن استقلال الأوطان. وتطالب بانسحاب قوات دولة الجوار التي طالت على أكثر من عقد من الزمان بعد اتفاق الطائف وانسحاب الأجهزة الأمنية التي لم يتعود عليها لبنان الحر الطليق، بل والفوضوي العتيق. والتدخل الأجنبي في هذه الحالة من القوى الغربية التي تسيطر على المنظمات الدولية يصطاد في الماء العكر. وتصدر القرارات دفاعاً عن استقلال لبنان وسيادته وهو يهدف إلى السيطرة على المقاومة. وتوطين اللاجئين، وجر لبنان إلى مخطّطات التسوية في اتفاق ١٧ مايو- أيار جديد. ويركب الموجة، موجة الشارع اللبناني والوطنية اللبنانية باسم الشرعية الدولية، ومزارع شبعا ما زالت محتلة في الجنوب، والجولان ما زال محتلاً في الشمال، بالرغم من صدور العشرات من القرارات الدولية بانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة في يونيو- حزيران ١٩٦٧. وتم تشويه الحركة الوطنية اللبنانية التي استطاعت لأول مرة منذ الاستقلال وبعد الحرب الأهلية النزول إلى الشارع باسم الاستقلال الوطني وليس باسم الطائفية والعشائرية محققة بذلك، وعلى نحو تلقائي، أحد بنود اتفاق الطائف. وتم تشويهها بقسمتها إلى موالين ومعارضين، موالين لسوريا والنظام في لبنان، ومعارضين لهما. وكلاهما وطنيون عروبيون قوميون. إنما هي التعددية السياسية التي تصل إلى حد الصراع السياسي على حساب الوفاق الوطني الذى يعمل له «حزب الله» في الجنوب، والمتهم بالإرهاب والعنف. والمطلوب نزع سلاحه وكأنه ميليشيات تقاتل على الهوية وليس محرراً للجنوب.

إن ما حدث في بيروت وتحرّك الشارع العربي قابل أن يتكرر في باقي العواصم العربية. يقلب موازين القوى في الوطن العربي لصالح الشعوب. ويفك أسر الأنظمة المحاصرة بين المطرقة

والسندان، مطرقة الخارج وسندان الداخل. فليست نظرية «الدومينو» في دول البلقان وأوروبا الشرقية وفي جنوب شرق آسيا قاصرة على الطوفان القادم بعد اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق من أجل زعزعة المنطقة كلها، واختلاط الحابل بالنابل لإشعال فتيل حروب أهلية في العراق وفلسطين ولبنان والمغرب العربي ومصر وسوريا والسعودية طبقاً لمخططات القوى الكبرى. بل تنطبق أيضاً في الاتجاه المضاد، في حركة الشارع العربي ضد مخططات التجزئة في الوطن العربي إلى فسيفساء عرقي طائفي، تكون فيه إسرائيل هي أقوى دولة عرقية طائفية في المنطقة، وتأخذ شرعية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية فيها بدلاً من أساطير المعاد وشعب الله المختار التي أعطاها لها هرتزل في «الدولة اليهودية» في أواخر القرن التاسع عشر، والتي ولم يعد يصدقها أحد. الاحتقان في الشارع العربي على أشده. بلغ الذروة. وينتظر الشرارة التي قد تكون قد وقعت في بيروت. ولن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تمتد حركة الشارع إلى باقي العواصم والمدن العربية، تسترد زمانها بأيديها، وتدافع عن استقلال أوطانها، وتحمي كرامتها من الطعن في القلب باحتلال فلسطين والعراق، وقص الأطراف بالتلويح بالعدوان أو الهجر للنظم العربية التي لم تسر بعد في طريق التحوّل الديموقراطي أو التي تسير ببطء أو التي تعطي باليمين ما تأخذه باليسار، خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الوراء، انتخاب الرئيس بين أكثر من مرشّح وليس الاستفتاء على مرشح واحد ثم وضع الضوابط التي تمنع من الترشيح، وإبقاء المدة بلا حدود، واستعمال إعلام الدولة وأجهزتها وراء المرشّح الأوحد الذي تعود عليه الناس على مدى نصف قرن. لقد حدث التراكم الكمي الضروري في الشعب العربي الذي أحدث في بيروت تغيراً كيفياً. وبالتالي تصبح العواصم العربية زينة الحاضر كما كانت زينة الماضي. ويفك الحصار العربي عن الأنظمة بفعل الداخل وليس بفعل الخارج. فالنظم الشعبية قادمة بعد بيروت. تحرر الأوطان من العدوان الخارجي وتحرر الشعوب من القهر الداخلي. ومن ثم تنتهي موجة العقود العجاف وتبدأ موجة العقود السمان.

٢- تبديد الوهم

للأسماء سحرها. وللتعبيرات دلالاتها. لذلك تناقل الناس الأقوال المأثورة والأمثال العامية. وعلقوها على جدران المنازل والمحلات العامة. ويستشهدون بها في حياتهم اليومية لتفسير الأحداث وإعطاء شرعية لها.

وفي الحرب العربية الإسرائيلية السادسة الدائرة الآن بين فلسطين ولبنان من ناحية والكيان الصهيوني من ناحية أخرى بدأ سحر الكلمات ودلالة العبارات. فقد تم أسر جندي من جيش الاحتلال في عملية فدائية نوعية وقتل آخرين أطلق عليها "تبديد الوهم". وساندت المقاومة اللبنانية ممثلة في حزب الله المقاومة الفلسطينية ولتخفيف الضغط عليها وكانت بداية المواجهة المفتوحة في عملية «الوعد الصادق». وأطلق العدو الصهيوني على العدوان على لبنان عملية

«أمطار الصيف».

وأهم من الأسماء والتعبيرات هو مضمونها أي فن الحرب. وقد كتب فيه علماء الاستراتيجية مثل كلاوشفتز وتسن سو والجنرال جياب وجيفارا تنظيراً للممارسات العسكرية التي أدت إلى انتصار الجيوش وضد الأساطير التي ينسجها الأعداء كنوع من الحرب النفسية لتحقيق النصر قبل أن تبدأ المعارك. فالمعارك ليست فقط بالسلاح حين المواجهة، بل أيضاً بالصور النمطية التي يخلقها كل طرف للطرف الآخر.

وقد نسج العدو الصهيوني حول نفسه أسطورة «العدو الذي لا يُقهر» اعتماداً على الحروب العربية الإسرائيلية السابقة منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧، مع أنه كان لكل حرب ظروفها. هزم فيها العرب ليس لقوة العدو، بل لضعف العرب. ففي هزيمة ١٩٤٨ دخلت الجيوش العربية مفكّكة مفرقة في مواجهة عصابات منظمة، أركان حربها أقرب إلى قوات الاحتلال البريطاني لفلسطين. أسلحتها فاسدة. ومع ذلك حافظت على نصف فلسطين بعد أن رفض العرب قرار التقسيم. وفي العدوان الثلاثي في ١٩٥٦، كانت إسرائيل بمثابة دراجة ممسكة بعربة نقل كما صور موسى ديان. ولم تحدث مواجهة بين الجيش المصري والجيش الإسرائيلي بعد الأمر بالانسحاب. وفي هزيمة ١٩٦٧ لم تحدث مواجهة أيضاً بعد الأمر بالانسحاب إثر تدمير سلاح الطيران المصري. أما حرب الاستنزاف في ١٩٦٨-١٩٦٩ فقد أوجعت إسرائيل. وفي حرب أكتوبر بدأت أسطورة العدو الذي لا يُقهر في الانقشاع نظراً للأداء العلمي العسكري لعبور سيناء والتنسيق العسكري المصري السوري على جبهتين في آن واحد.

أقام العدو الصهيوني استراتيجيته العسكرية على الحرب الخاطفة بحد أقصى أسبوعاً كما حدث في حرب الأيام الستة. فلما طالت في حرب أكتوبر بدأ الانهيار التدريجي للأسطورة. وقامت خطتها على سلاح الطيران والقوة التدميرية الهائلة، الحرب عن بُعد ودون مواجهة. فلما صمم العرب دفاعاتهم الجوية على الصواريخ المضادة للطائرات في حرب أكتوبر سقط سلاح الجو الإسرائيلي أمام حائط الصواريخ. وانتهت أسطورة الذراع الطويلة.

وبعد عمليتي «تبديد الوهم» التي قامت بها المقاومة الإسلامية الفلسطينية وعملية «الوعد الصادق» التي قامت بها المقاومة الإسلامية اللبنانية غيّر العرب استراتيجيتهم طبقاً لإمكانياتهم وتراثهم العسكري. فانهارت أسطورة العدو الذي لا يُقهر. ففي مقابل طيران العدو، ذراعه الطويلة، ظهر الصاروخ تجاه المدن. ولأول مرة تنتقل المعركة إلى داخل الأراضي المحتلة منذ ١٩٤٨. وضربت نهاريا وعفولة وطبرية وصفد وغيرها من مدن الشمال، وحيفا وعكا من مدن الساحل. فسماء العدو مفتوحة. تعودت على الهجوم وليس الدفاع. ولم تستطع صواريخ باتريوت المضادة للصواريخ اقتناص صواريخ الكاتيوشا أو رعد لاختلاف مستويات الارتفاع. ونزل الإسرائيليون إلى المخابئ. وغادر السياح. وتحول مليونان من العاملين إلى عاطلين. ونزحوا إلى

الجنوب. وانتابهم الرعب. وذاقوا مما ذاق منهم الفلسطينيون واللبنانيون. فالسماء مفتوحة للجميع، ليس فقط لطيران العدو، بل لصواريخ المقاومة. بالإضافة إلى دقة التصويب باستراتيجية سياسية محسوبة، تتوقف على مدى استهداف طيران العدو المدنيين اللبنانيين. ومصافي حيفا ومصانعها البتروكيميائية والإلكترونية في المرمى. وتستطيع أن تنال ما هو أبعد من حيفا وعكا وطبرية، ومدن بير سبع واللد والرملة وعسقلان وإيلات قريبة من فلسطين ومصر والأردن والسعودية لو قامت الحرب الشاملة.

وتستطيع المقاومة الصمود شهوراً. والعدو الصهيوني لا يستطيع أن يصمد أسابيع. فالجند هم العاملون. والاحتياط يحارب ولا ينتج. وبالتالي انتهت استراتيجية الحرب الخاطفة. وقد كان الأسير الإسرائيلي الطيار يسأل بعد إفاقته: هل الحرب ما زالت قائمة؟ فيُقال له: نعم، فيصاب بالإغماء. فإذا فاق مرة ثانية يسأل: وهل مصر ما زالت تحارب؟ فيُقال له: نعم. فيُغشى عليه ولا يفيق. والآن تقوم المقاومة اللبنانية بدور مصر. ويقوم سماحة الشيخ حسن نصر الله بدور الزعيم الخالد جمال عبد الناصر. والشعب العربي من المحيط إلى الخليج يساند القائدين.

كانت الحروب السابقة جيشاً في مواجهة جيش، ودولة في مواجهة دولة. بل دولة في مواجهة دولتين أو ثلاث أو اثنين وعشرين دولة عربية. وأقام العدو استراتيجيته على التفوق عليها جميعاً كيفاً وكمّاً في نوعية السلاح. والآن يقف شعب في مواجهة جيش، ومقاومة في مواجهة دولة. والشعب في كل مكان. والمقاومة تحت الأرض. لذلك لم يجد العدو أمامه إلا ضرب المدن وقتل المدنيين، أطفالاً ونساءً وشيوخاً وشباباً، وتدمير البنية التحتية، جسوراً وطرقاً ومحطات طاقة وثكنات جيش ومحطات إرسال، بل وشاحنات خشية من نقل الصواريخ، وعربات مدنية خشية من حركة المقاومة. ولم يجرؤ العدو حتى الآن القيام بغزو بري للجنوب كما فعل من قبل عند احتلاله بيروت عام ١٩٨٢، والقضاء على المقاومة الفلسطينية واللبنانية على الأرض. يخشى المواجهة الأرضية وجهاً لوجه. لا يقاتل إلا في حصون حديدية أو عن بعد في عنان السماء أو في عباب البحر.

وإذا كانت الحروب العربية الإسرائيلية السابقة قد قامت على التخطيط من جانب العدو، والارتجال والخطابة والعنتريات التي ما قتلت ذبابة من جانب العرب فإن العرب، مصريين وسوريين، منذ حرب أكتوبر عبروا القناة والجولان بناء على تخطيط علمي دقيق لخط بارليف، تيارات المياه في القناة، وسد فتحات اللهب، واختراع مدافع المياه لشق الساتر الترابي، والقوارب المطاطية، وضرب مراكز القيادة المتقدّمة في عمق سيناء، والرجل في مواجهة الدبابة، والصاروخ في مواجهة الطائرة. فالعلم العسكري ليس حكراً على شعب دون شعب. ولا تمتاز به حضارة على حضارة أخرى.

وإذا كان الإعلام العربي في الحروب العربية الإسرائيلية السابقة قد غلب عليه التهويل

والكذب والخداع، في حين أن أعلام العدو كان أقرب إلى الصدق. فالمنتصر لا يحتاج إلى دعاية وخداع شعب، فإنه تحول منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ إلى إعلام دقيق وصادق يخبر عن حقائق. واستمر ذلك في الحرب العربية الإسرائيلية السادسة. إذ تميّز إعلام المقاومة بالصدق والدقة دون ادعاء حتى ولو كان إسقاط طائرة للعدو. في حين لجأ إعلام العدو إلى الحرب النفسية لرفع معنويات جنوده حتى يقبلوا المواجهة مدفوعين بأسطورة العدو الذب لا يُقهر.

وبالرغم من استعمال العدو الصهيوني للأسلحة المحرّمة دولياً مثل الصواريخ والقنابل التي تنفجر مرتين، والقذائف التي تقطع الجسد أشلاء أو تحرقه، بحيث لا يمكن التعرّف عليه، والمقذوفات السامّة إلا أنها في لحظة يأس قد تستعمل مخزونها النووي ولها في تراثها ما يبرّر ذلك في عقدة الماسادا الانتحار ساعة الخطر وكما فعل شمشون. لذلك من مصلحة العرب التنسيق مع القوى النووية في المنطقة مثل إيران وباكستان من أجل ردع العدو.

ومن الواضح أنه لا فرق بين يسار ويمين ووسط في إسرائيل. فوزير الدفاع من اليسار، ورئيس الوزراء من الوسط، وزعيم المعارضة من اليمين. والكل يجمع على ضرورة الاستمرار في الحرب حتى تحقق إسرائيل شروطها: الإفراج عن الأسرى الثلاثة، نزع سلاح حزب الله، وضع قوات دولية في جنوب لبنان تقوم بدور جيش لبنان العميل السابق الذي قضت عليه المقاومة بعد تحرير الجنوب. فاليسار الإسرائيلي أسطورة. وإذا كان الرأي العام العالمي، وقرارات الأمم المتحدة، والدول الثمانية، والاتحاد الأوروبي كله لصالح إسرائيل، ولا أحد يذكر العشرين ألف أسير عربي في سجون إسرائيل، وإذا كان الكل يعترف بحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها ولا أحد يذكر حق المقاومة لتحرير الأراضي المحتلة طبقاً لمواثيق الأمم المتحدة، فليس أمام العرب إلا أنفسهم. وكما جربوا الهزائم فإنهم قادرون على تجربة الانتصارات.

٣- بشائـر النصـر

لم يعد السؤال الآن الهزيمة أم النصر بل بشائر النصر. ففي نهاية الأسبوع الثالث من المعركة الدائرة الآن بين المقاومة الوطنية اللبنانية وجيش العدو الصهيوني، بدأت بشائر النصر. العدو يصرخ ويتألم، وجيشه الذي لا يقهر ينخرط لواؤه المختار باكياً. وليس أمام العدو إلا قتل المدنيين، وتدمير البنى التحتية، واتباع سياسة الأرض المحروقة. وهي أفعال لا تقدم عليها الجيوش ذات المبادئ التي تعتمد على شرف القتال وليس على الجبن وخسة المقاتلين وضعفهم، وهروبهم من المواجهة.

لثالث مرة يحارب لبنان وحده بمجتمعه، ومقاومته، ومنظماته المدنية، جيشاً يُعتبر من أقوى الجيوش في العالم، تسليحاً وتدريباً ومناورة، بعد محاولة غزو بيروت في ١٩٨٢، ونجاح المقاومة في تحرير الجنوب في ٢٠٠٠. وهذه المرة بأسر جنديين إسرائيليين لتبادل الأسرى مع تسعة آلاف جندي لبناني ومثلهم من الفلسطينيين وبضع مئات أخرى من العرب المقاتلين. فالمعركة

قومية. وأراضي ثلاث دول عربية محتلة. لقد تدرب جيش العدو على مقاتلة الجيوش بداية بالطيران، وبأسلوب الحرب الخاطفة وحركات الالتفاف كما حدث في ١٩٥٦ وفي ١٩٦٧. والآن يحارب شعباً ومقاومة شعبية تتجاوز الدول ونظمها السياسية. لم يتعوّد على مواجهة رجال عراة من مخابئ الحديد والحصون. وكلما استردت الشعوب حريتها وكسرت احتكار الدول والنظم السياسية القضايا الوطنية زادت فرص النصر. فالنظام مهتم بالبقاء في كرسي الحكم حتى ولو احتلت الأوطان. فغرض العدو إسقاط النظام قبل احتلال الأرض! سقطت الجولان وبقي النظام. واحتلت سيناء وبقي النظام في ١٩٦٧. فالنظام التقدمي أولى بالمحافظة من أراضي الوطن!

وقد أثرت الحرب الدائرة الآن بين المقاومة الإسلامية اللبنانية والعدو الصهيوني في حركة الشارع العربي. فقامت المظاهرات في معظم العواصم العربية، دمشق والقاهرة والخرطوم وصنعاء والرباط والمنامة وغزة ورام الله، بل وفي بعض العواصم الإسلامية في دكا وإسلام أباد وجاكرتا. قد يؤثر ذلك أكثر في حركات التحول الديموقراطي من الداخل. وقد يساعد ذلك على فك الحصار حول الأنظمة العربية المحاصرة بين مطرقة الخارج وسندان الداخل. وقد يستيقظ الحكام بعد مقتل كليب أخِ المهلهل: «اليوم خمر، وغداً أمر». وأين النتائج الإيجابية لتبعية الأنظمة العربية الموالية للولايات المتحدة في الضغط عليها باسم الصداقة والموالاة والتأييد في غزو العراق، وكذا الأنظمة الموالية لإسرائيل للمطالبة بوقف إطلاق النار، وادانة قتل المدنيين، وتدمير البنى التحتية؟ وأين الأنظمة العربية التي فاوضت وصالحت واعترفت بإسرائيل في الضغط عليها بإيقاف العدوان والتهديد بسحب السفراء العرب أو بقطع العلاقات الدبلوماسية أو بإيقاف التطبيع وتوريد الغاز والبترول والرمل والحديد، وهو ما تسير به المركبات والمدرعات والطائرات الإسرائيلية للعدوان على لبنان وفلسطين وما تبني به إسرائيل جدار الفصل العنصري؟ وهل نتائج الصلح والحلول السلمية تصفية المقاومة وضرب المدنيين وتدمير السلطة الوطنية الفلسطينية؟

إن ما يحدث الآن في الحرب العربية الإسرائيلية السادسة والتي كانت لبنان وحدها في ثلاثة منها ليدل في العمق وعلى الأمد الطويل على بشائر النصر. لقد تعود الخطاب العربي على لغة الهزيمة، النواح والبكاء والصراخ، ونعي مفردات العهر القديمة، وكتابة الهوامش على دفتر النكسة وشيوع مفردات النكبة والنكسة والهزيمة، واستصغار النفس وتضخيم الآخر. ومن هذا الوضع النفسي بيننا وبين العدو نشأت الصور النمطية له ولنا. فهو العدو الذي لا يقهر، القادر على الدخول في معارك على الجبهات العربية كلها في وقت واحد والنصر فيها كما حدث في حرب ١٩٦٧. جيشه أكثر تدريباً وتسليحاً وإمداداً وخبرة وذكاء وحماساً وقضية. ونظامه السياسي أكثر ديموقراطية وحرية وشعبية. وهو الذي يتوسع باستمرار من ١٩٤٨ حتى اليوم والذي بلغ أوجه في الاحتفال بمرور نصف قرن على تأسيس الكيان الصهيوني، أما نحن فالأقل تسليحاً واتحاداً

وديموقراطية وتدريباً. دفاعنا انسحاب في ١٩٥٦ ثم في ١٩٦٧. وتحولت هزائمنا وانتصارات العدو إلى قدر لا يمكن الفكاك منه، ومصير محتوم لا يمكن الهروب منه.

واليوم، في الحرب العربية الإسرائيلية السادسة، وهي بحق الحرب اللبنانية الإسرائيلية الثالثة، تبدو بشائر النصر. فلماذا استمرار لغة الهزيمة ونغمتها ومفرداتها ونعي العرب وعهر المفردات؟ هذه هي الحرب السادسة. كانت الهزائم في الحروب الثلاثة الأولى لأسباب عسكرية وسياسية واجتماعية وثقافية في ضياع نصف فلسطين في ١٩٤٨، وفي العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦، ثم في العدوان على مصر وسوريا والأردن، واحتلال أراضي ثلاث دول عربية، وضياع ما تبقى من فلسطين في هزيمة ١٩٦٧. فكانت هي نهاية القاع. كان الخط منحدراً من ١٩٤٨ نصف نصر ونصف هزيمة بالحفاظ على الضفة الغربية وقطاع غزة إلى ١٩٥٦ التي كانت هزيمة ثم تحوّلت إلى نصر بانسحاب الجيش الإسرائيلي من سيناء بعد الإنذار الروسي إلى ١٩٦٧ التي كانت هزيمة كاملة واحتلال فلسطين كلها والجولان وسيناء. وكانت أكبر جرح غائر في الوجدان العربي، النكبة الثانية. وانتشر أدب الهزيمة، وثقافة الهزيمة، والموت في الروح، والسكون في التاريخ.

وبدأ الخط في الصعود مباشرة بمعركة رأس العش والصمود في مثلث بورسعيد وإغراق المدمرة إيلات وبداية حرب الاستنزاف ١٩٦٨-١٩٦٩ والتي لا يكاد يذكرها أحد بالمدافع والغارات الليلية في سيناء.

واستمر في الصعود في حرب أكتوبر ١٩٧٣ التي كانت نصراً عسكرياً بكل المقاييس، عبور أكبر مانع مائي في التاريخ، وتدمير خط دفاع لم تكن تقوى القنابل الذرية عليه. وتحررت سيناء على مراحل، عسكرياً في الأقل وسياسياً في الأكثر حتى طابا التي تم استردادها بحكم من محكمة العدل الدولية. كان الثمن المفاوضة والصلح والاعتراف، وما زالت الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان محتلة. وأضعف الصلح المنفرد بين مصر وإسرائيل روح العمل الجماعي لقضية العرب. فتابعت الأردن والضفة الغربية ما زالت محتلة. وهرعت موريتانيا وهى لا لها في العير ولا في النفير. إنما فقط للحصول على الرضا الأمريكى، والوعد بالرفاهية والرخاء، واستثمار رؤوس الأموال الأجنبية. وأعقبتها مكاتب تجارية في الخليج أو اتصال في تونس والمغرب، بل وتدريبات عسكرية مشتركة بين حلف شمال الأطلنطي وإسرائيل وبعض الأقطار العربية. والأخطر من ذلك كله اتهام المقاومة بأنها مغامرة غير محسوبة واستعداء أمريكا وإسرائيل على لبنان، وإعطاؤهما الغطاء الشرعي للعدوان عليه.

ثم استمر الخط في الصعود في صمود بيروت وفشل الغزو الإسرائيلي في جنوب لبنان عام ١٩٨٢ لإخراج المقاومة الفلسطينية منه. قاوم الشعب الجيش وانتصر عليه وهزت صورة جيش الدفاع. وسميت مغامرة شارون. وقضت على وزير الدفاع.

ثم استمر الخط صاعداً في تحرير جنوب لبنان بفضل المقاومة اللبنانية عام ٢٠٠٠ وهروب جيش الدفاع ليلاً من جحيم المقاومة. وانتهى جيش لبنان الجنوبي في الشريط الحدودي إما بالاستقرار لدى العدو أو العودة إلى لبنان الوطن ومحاكمته بتهمة الخيانة الوطنية أو العفو عنه. فصدر الوطن قادر على احتضان حتى من يخطئ في حقه.

وبالرغم من انشغال العرب بالعدوان على العراق في ١٩٩١ بدعوى تحرير الكويت ثم الغارات المتتالية عليه في ١٩٩٨ وأخيراً غزوه في ٢٠٠٣ بدعوى القضاء على الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل، إلا أن الانتفاضة الفلسطينية قامت في ١٩٨٧ بالحجارة ثم بالسلاح منذ ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ يوم طواه النسيان لصالح ١١ سبتمبر ٢٠٠١. فالقوى هو الذي يحدد معالم التاريخ والحوادث الفارقة فيه.

وأخيراً ظهرت بشائر النصر في الحرب العربية الإسرائيلية السادسة الدائرة منذ ثلاثة وثلاثين يوماً بمقاومة شعب ضد غزو جيش، وصواريخ ضد مدن، ورجل في مواجهة دبابة، ونقل المعركة إلى أرض العدو من شمال لبنان دون الجبهة الشرقية في الأردن، والجنوبية في مصر والسعودية، وبئر سبع وإيلات واللد والرملة وعسقلان على مرمى صواريخ العرب. ولأول مرة يعيش نصف سكّان إسرائيل في الملاجئ وتحت الأرض، يذوق ما ذاق منه العرب. وتم التخطيط للحرب بعيداً عن العنتريات التي ما قتلت ذبابة ومنطق الناي والربابة. وتطول المدة. وتنتهي أسطورة حرب الأيام الستة، والحرب الخاطفة. فالكيان الإسرائيلي لا يتحمل الحرب الطويلة. فجيشه وشعبه تحت الاحتياط. وكلما طالت الحرب توقف الإنتاج، وتعطلت السياحة، وبدأت الهجرات المضادة.

لم يبق إلا السلاح النووي الإسرائيلي الذي يوازي السلاح النووي الإيراني والباكستاني جوار العرب، ردعاً بردع. والمهم أين العرب الذين يعرفون قيمة دول الجوار والدخول في دوائر تحرك جديدة بعيداً عن أوهام الطائفية والحرص على كراسي الحكم؟

ويظل السؤال أي لحن يغرد العرب؟ هزائم الماضي أم بشائر النصر؟

٤- الدواء أم الداء؟

ماذا يحتاج لبنان؟ إرسال الدواء أم القضاء على الداء؟ فبعد أن تُرك لبنان وحيداً يقاوم، يُذبح عدة مرات في تاريخه الحديث منذ إنشاء الكيان الصهيوني أمام صمت الأنظمة السياسية أو إعطاء غطاء شرعي للعدوان حتى لا تمتد المقاومة إليها ومناصرة الشعوب لها.

عقد مؤتمر وزراء الخارجية العرب الأول تحت أسنة الرماح، وبعد موافقة الكيان الصهيوني على هبوط طائرة الوزراء. فالنظم السياسية لم تعد نظماً حرة في أوطانها، بل أسيرة الكيان الصهيوني وتحت مظلة الهيمنة الأمريكية. وكان أقصى جهده التأثير في قرار مجلس الأمن ١٧٠١ بجعله أكثر توازناً بين الجلاد والضحية، بالاستعانة بفرنسا صديق لبنان التقليدي، وبأمريكا التي

تحالفت بعض الأنظمة العربية معها. ولم يكن من بين الوفد وزير خارجية الشقيقة الكبرى بعد أن تنازلت عن دورها للشقيقة الصغرى. وحققت الدبلوماسية العربية نصراً في أروقة مجلس الأمن لم يترجم نفس القدر من النصر الذي حققته المقاومة اللبنانية على الأرض على مدى أكثر من شهر، أطول حرب عربية إسرائيلية منذ غرز الكيان الصهيوني في الوطن العربي منذ أكثر من نصف قرن. وبالتالي يؤدّي العرب بعض الاستحقاقات للبنان وهو إيقاف العدوان بعد أن تخلوا عن مناصرته، والإبقاء على نفسه الأخير بعد أن أصبح الجسد مثخناً بالجراح، وإن كان قلبه ما زال ينبض ويقاوم العدوان عليه.

وينعقد مؤتمر وزراء الخارجية العرب الثاني من أجل إعمار لبنان. وما أسهل أن يتم ذلك وبأقل التكاليف، بعض الملايين من عائدات النفط التي تراكمت بعد مضاعفة أسعاره منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ حتى الآن. وإن تخلى العرب عن الدفاع عن لبنان المقاومة، فعلى الأقل المساهمة في تضميد الجراح، وتوفير الدواء، وإعادة بناء البنية التحتية، والمنازل المهدمة، ودفن الموتى، وتجهيز الأنعاش، والسير في المآتم، وتقبل العزاء. وتعويضاً عن العجز عن مناصرة لبنان في ساحة القتال تتم المغالاة في التعبير عن مظاهر النشاط الإنساني بإرسال الوفود الرسمية والشعبية من المثقفين والفنانين لإعلان التأييد، وتقديم العزاء، والترحم على الشهداء مما لا يبعث الموتى من تحت الأنقاض ولا من ظلمات القبور، كأن أقصى طموح العرب، الرأفة بالضحية وإدانة الاستعمال المفرط للقوة، والحفاظ على البنية التحتية، وحماية المدنيين. وماذا يضير سلخ الشاة بعد ذبحها؟

أما التكليف الثاني للأمين العام للجامعة العربية في المؤتمر الأول لوزراء الخارجية العرب بالدعوة إلى عقد مؤتمر قمة عربي فقد طواه النسيان. فقد انفضت الحرب وآثر يرّبَع الفرزدق السلامة. فما زالت الخلافات السياسية قائمة، وهي الداء، بين من يناصر لبنان والمقاومة ولو بالقول وبين من يعتبرها مغامرة غير محسوبة خارج إطار الدولة، ودون تقديم طلب رسمي للموافقة عليها. وبدلاً منها تتقدّم دول ثلاث تخلت عن واجبها الوطني والقومي لنصرة المقاومة خوفاً من إسرائيل «ما قدرش أحارب إسرائيل» أو «نحن الذين نحدد ساعة المعركة» لعقدة الهزائم المتكررة بالرغم من انتصارات العرب في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وفي صد العدوان على بيروت في ١٩٨٢، وفي تحرير الجنوب عام ٢٠٠٠، تتقدم بمشروع لإحياء عملية السلام بعد أن أعلن الأمين العام لجامعة الدول العربية موتها. لقد عجز النظام العربي من قبل على مناصرة الانتفاضة الأولى، انتفاضة الأقصى في ١٩٨٧، والانتفاضة الثانية انتفاضة السلاح في ٢٠٠٠، وترك شعب فلسطين يُذبح بتصفية قادة المقاومة، وقتل الأبرياء، وهدم المنازل، وإقامة الجدار العازل، وإقامة المستوطنات مع مناداة شعوب العالم لمناصرة خارطة الطريق، والغاية منها كما بدا حتى الآن تصفية القضية الفلسطينية كجزء من عملية أكبر، الشرق الأوسط الجديد، بعد

تصفية دوله الوطنية ومقاومته الشعبية في العراق وفلسطين ولبنان، والبقية تأتي على سوريا باسم الإرهاب، والسودان باسم دارفور، وعلى الخليج كله باسم حقوق السكان الآسيويين والعمالة المهاجرة، وعلى المملكة العربية السعودية التي خرج منها تنظيم القاعدة، والمغرب العربي باسم الأقلية البربرية وصولاً إلى مصر، بعد قص ريشها، وعزلها عن محيطها العربي، وإغراقها بالمعونات لتوفير الخبز لثمانين مليوناً من الأفواه.

وماذا عن الداء ذاته؟ ذبح لبنان منفرداً. والنظام العربي يتفرج، والشعوب العربية تصرخ، لا فرق بين نظام قومي وإسلامي، تقدّمي ومحافظ، بين الجيش وقريش، بين العسكر والأئمة، بين آل القشلاق وآل البيت. إن الغاية من العدوان على لبنان الاستمرار في مهانة العرب في العراق وفلسطين، وغرز إحساسهم بالعجز وباستباحة الأوطان، والقضاء على مفهوم القومية العربية، وغرز مفهوم القطرية قبل تفتيت الأقطار إلى دويلات طائفية وعرقية يكون فيها الكيان الصهيوني أقوى دولة طائفية عرقية في المنطقة يأخذ شرعيته من طبيعة الجغرافيا السياسية فيها بدلاً من أساطير التكوين الأولى في القرن الماضي، أساطير أرض المعاد والميثاق وشعب الله المختار. غاية العدوان هو الاستمرار في هزائم العرب المتكررة منذ ١٩٤٨ في الحروب العربية الإسرائيلية السابقة، وجعل الهزيمة هي القاعدة والنصر هو الاستثناء. والدفاع العربي المشترك مجرّد ورقة لا تعني شيئاً. والشقيقة الكبرى آثرت السلام بعد أن أثخنتها الجراح. ودول الطوق تعزل شعوبها عن ساحة القتال أكثر مما تحاصر الكيان الصهيوني. الطوق لمن؟ وحول من؟ ودول الجوار الإقليمي، كل منها يبحث عن مصالحه، ويغنّي على ليلاه، في الغرب أو الولايات المتحدة الأمريكية أو في ودائع البنوك أو في الحفاظ على المنصب ضد الخطر الداخلي والمد الشيعي وسط الأغلبية السنية.

الداء هو الشرق الأوسط الجديد الذي تتفتت فيه الأوطان، ويُقضى على مظاهر المقاومة الشعبية فيها من أجل ضم الفتات داخل مشروع الهيمنة الأمريكية على المنطقة. فقد شن الكيان الصهيوني العدوان على لبنان بالوكالة، وليس بالأصالة. فقد تسلق الكيان الصهيوني على القوى الكبرى منذ نشأته استفادة من سماحة الإسلام في العصر العثماني إلى الاستعمار البريطاني حتى قوة الإمبراطورية الأمريكية الجديدة.

قد يكون الداء هو الدفاع عن فكرة الكيان الصهيوني، وإنهاء مقاومة التطبيع، ورفض الاعتراف الشعبي بها. فالعدوان الصهيوني بالأصالة، وليس بالوكالة. يحقق مشروعه الخاص، وهو الدفاع عن الوجود الصهيوني في المنطقة وليس عن حدود دولة. فمصر، الشقيقة الكبرى، صالحتها وعقدت معاهدة سلام معها. وخرجت من المعركة منكفئة على ذاتها كما يخرج القلب من الجسد. ولبنان، الشقيقة الصغرى التي ما زالت تقاوم منذ ١٩٤٨ وإسقاط اتفاقية أيار حتى الدفاع عن بيروت في ١٩٨٢ وتحرير الجنوب في ٢٠٠٠ عليها أن تدخل بيت الطاعة. وسوريا

وإيران اللذان يمدان المقاومة بالسلاح ستدور عليهما الدائرة. وبالتالي يصبح الكيان الصهيوني هو ركيزة الشرق الأوسط الجديد، قلبه ونموذج تحديثه. تقوم بدور مصر وإيران في آن واحد.

ليست القضية هي تحرير أسيرين وقتل ثمانية في معركة عسكرية داخل الكيان الصهيوني. فقد كان العدوان مبيّتاً منذ شهور مضت وينتظر الذريعة. يريد رد الاعتبار إلى الجيش الإسرائيلي بعد انسحابه المذل من الجنوب عام ٢٠٠٠. ويساهم في صنع الشرق الأوسط الجديد بعد أن تكفلت أمريكا بتفتيت العراق. وتتكفل إسرائيل الآن بتفتيت لبنان وابتلاع فلسطين، وتهديد أمريكا وإسرائيل بضرب سوريا وإيران. ليس الهدف من العدوان الصهيوني فقط رد فعل على فشله في غزو بيروت عام ١٩٨٢، بل القضاء على لبنان كله من الجنوب إلى الشمال، ومن الجبل إلى البحر، بل وإثارة الحرب الأهلية في لبنان ضد المقاومة مع الاطمئنان لضعف العرب، وذبح المقاومة الفلسطينية. فحماس مثل حزب الله، والقضاء على القوة العسكرية الإيرانية. فالكل من جنس واحد.

والهدف البعيد من ذلك كله ترسيخ فكرة وجود إسرائيل. فقد وجدت لتبقى مهما عصفت بها حوادث الدهر، وتغيرت موازين القوى الدولية، ووقفت ضدها المقاومة في لبنان وفلسطين، ورفضت الشعوب العربية في مصر والأردن وموريتانيا التطبيع معها. ومهما تجرأت المقاومة على ضرب مدن إسرائيل، ووصول صواريخ المقاومة إلى حيفا وما بعد حيفا وما بعد بعد حيفا، وانهيار الجيش الذي لا يقهر، وتهجير نصف سكان الكيان الصهيوني من الشمال إلى الجنوب، واهتزاز ثقة العرب به بما في ذلك الولايات المتحدة. فتكلفة بقائه عالية. الحفاظ على الأساطير المكونة للكيان الصهيوني ضروري من أجل الاعتراف به والاستسلام له، وخضوع العرب وعجزهم أمامه. يحتاج الكيان إلى نصر إعلامي للمحافظة على الصورة القديمة أمام الآخرين، هزيمة العرب الأبدية ونصر إسرائيل الأبدي. الحفاظ على الكيان الإسرائيلي الداخلي من التفكك هو الهدف من جولة قادمة وإلا انتقلت الحرب إلى الداخل بين العسكريين والسياسيين، وبدأت الهجرات المضادة، وتوقفت السياحة. واتجه الغرب والولايات المتحدة إلى حلفاء آخرين أقل تكلفة، وأكثر قبولاً لدى الرأي العام العالمي. يريد الكيان الصهيوني أن يحوّل اللاشرعية إلى شرعية وهو ما لا يرفضه النظام العربي في مبادراته باسم الواقعية السياسية التي تصل إلى حد الخيانة القومية. وهو ما ترفضه المقاومة الشعبية. المعركة إذاً ليست معركة حدود، بل معركة وجود. ومن يدرب، فربما يتحول يقين العدو بالنصر إلى شك ويتحول شك العرب بالنصر إلى يقين.

٥- إسـرائيـل والعـالـم

يعجب العرب كيف أن العالم كله مع إسرائيل! فهل اقتنع العالم بالصهيونية والاستيطان واحتلال أراضي الغير والتوسّع والعدوان وقتل المدنيين الفلسطينيين ثم اللبنانيين وأصبح العالم كله صهيونياً؟ وأين الغرب المعروف بتعدديته واختلاف آرائه وتعارض مصالح دوله وهو يتفق على

رأي واحد بالنسبة لتأييد إسرائيل منذ بيان الدول الصناعية الثمانية في موسكو حتى اعتراض أمريكا في مؤتمر روما الأخير على اتخاذ قرار بوقف إطلاق النار حتى تنتصر إسرائيل على المقاومة اللبنانية وتحتل شريطاً حدودياً في الجنوب حيث كان جيش لبنان الجنوبي والذي طردت منه إسرائيل عنوة وهربت منه تحت جناح الليل عام ٢٠٠٠ بفعل ضربات المقاومة؟ صحيح أن الغرب قد عُرف بأنه قوة بلا عدل منذ أوج الاستعمار في القرن التاسع عشر حتى العولمة الجديدة بعد نهاية عصر الاستقطاب. ثم قامت حركات التحرر الوطني لمقاومته وانتصرت عليه في القرن العشرين. وقضت في عقدين من الزمان، في الخمسينيات والستينيات، على استعمار الغرب لغيره من الشعوب في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية على مدى قرنين من الزمان. ولم يحدث أن أجمع الغرب الأوروبي على تبنّي المطالب الإسرائيلية كما يحدث هذه الأيام في المواجهة بين المقاومة اللبنانية والكيان الصهيوني وكأنه هو المجني عليه وليس الجاني، وكأنه هو الضحية وليس الجلاد! بل لقد استخدم الغرب الأمم المتحدة آخر ملجأ للعدل دون القوة لصالح إسرائيل. ولم تستطع وقف إطلاق النار أو حتى إدانة قتل أربعة من المراقبين الدوليين. ولأول مرة تكتفي بالأسف دون الإدانة. ولو أنهم قتلوا بأيدي المقاومة لدُك لبنان أو ما تبقّى منه عن آخره. ويظهر المعيار المزدوج من جديد، السماح لإسرائيل بأن تفعل ما تشاء، وعقاب العرب إذا ما فعلوا أصغر شيء لتحرير أوطانهم من الاحتلال. ويترك لإسرائيل استمرار العدوان حتى تقضي على الغرب، وتفرض شروطها على طاولة المفاوضات. فليس مسموحاً بانتصار العرب أو بهزيمة إسرائيل.

ويعرض العالم كله على العرب شروط إسرائيل للتسوية وكأن العرب لا وجود لهم. يعرض العالم على العرب كشرط لوقف إطلاق النار الإفراج عن الأسيرين الإسرائيليين بلا مقابل وكأنه لا يوجد آلاف الأسرى من اللبنانيين والفلسطينيين والعرب في سجون إسرائيل. فإسرائيليان اثنان لهم أهل. وآلاف العرب لا أهل لهم. ومنهم من قضى في سجون إسرائيل ربع قرن! وكم في الحياة من أرباع القرون؟ ولماذا تسمية عملية «الوعد الصادق» التي أسرت فيها المقاومة اللبنانية جنديين إسرائيليين وقتل ثمانية «خطف» جنديين وليس أسر جنديين في معركة عسكرية بين المقاومة اللبنانية وجيش الاحتلال الإسرائيلي لمزارع شبعا؟ ولماذا لا يُذكر خطف الفلسطينيين من سجن أريحا أو خطف إسرائيل مقاومين فلسطينيين من منازلهم في معركة غير متساوية بين جيش الاحتلال الإسرائيلي ومواطنين مدنيين عزّل؟

ومن الشروط الدولية وضع قوات طوارئ دولية أو من حلف شمال الأطلنطي في جنوب لبنان مجهزة بأحدث الأسلحة، ولماذا لا توضع نفس القوات الدولية في شمال إسرائيل وداخل حدودها لحمايتها أو على الأقل على الجانبين على مسافة متساوية في آن واحد؟ وهل يأتي العدوان فقط من لبنان على شمال إسرائيل أم أنه يأتي من إسرائيل أيضاً بقصف قرى الجنوب؟ ومن ضمن الشروط إبعاد المقاومة اللبنانية من الجنوب إلى حدود نهر الليطاني دفاعاً عن شمال إسرائيل،

ونزع سلاح حزب الله. وبسط سلطة الدولة والجيش اللبناني في الجنوب وليس انسحاب إسرائيل من مزارع شبعا حفاظاً على استقلال لبنان ووحدة التراب الوطني. ولماذا يكون لإسرائيل وحدها حق الدفاع عن نفسها وهي الدولة المحتلة وليس للبنان وفلسطين حق الدفاع عن نفسيهما وهما الدولتان الواقعتان تحت الاحتلال؟ ولماذا ضرورة تنفيذ كل بنود قرار مجلس الأمن رقم ١٥٥٩ الذي يدعو إلى نزع سلاح حزب الله وليس تطبيق مئات القرارات لصالح لبنان مثل القرار ٤٢٥ أو لصالح فلسطين مثل القرار ٢٤٢ أو ٣٣٨ الذي يدعو إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧؟

وماذا عن جوهر القضية ذاتها وهو احتلال أراضي لبنان وفلسطين وسوريا وإيقاف العدوان الإسرائيلي على المدنيين في لبنان وفلسطين وكأن إسرائيل لم تستطع القضاء على المقاومة فانبرت إلى قتل المدنيين وهدم المنازل وتدمير البنية التحتية في لبنان وفلسطين كنوع من العقاب الجماعي المعروف في تاريخ اليهود وفي عقائدهم؟ لماذا أخذ الأعراض، الحرب المتبادلة بين العرب وإسرائيل، وترك الجوهر وهو احتلال إسرائيل لأراضي ثلاث دول عربية، فلسطين وسوريا ولبنان؟

السبب في هذا الوضع، رؤية العالم الغربي كله لمصالح إسرائيل والميل نحو جانب واحد ليس فقط المعيار المزدوج، والاعتماد على القوة دون العدل، بل غياب الطرف الآخر، العرب كلية. لا يعترف الغرب بأي أحد سواه. وعلاقته بالآخر علاقة المركز بالأطراف، السيد بالعبد، والمخدوم بالخادم. يخاف الغرب لا شعورياً من العرب والمسلمين بسبب الهجرات من جنوب البحر الأبيض المتوسط إلى شماله، وسرعة انتشار الإسلام في أوروبا بعد أن أصبح الدين الرسمي الثاني فيها بعد المسيحية، وبقاء الدولة الإسلامية مثل البوسنة والهرسك وألبانيا في أوروبا الشرقية، واحتمال دخول تركيا الاتحاد الأوروبي، ومخاطر تكوين قطب عربي إسلامي ثان في عالم أحادي القطب منذ نهاية عصر الاستقطاب واتخاذ الإسلام عدواً بديلاً عن الشيوعية.

كل هذه المغالاة في حب إسرائيل، الطفل المدلل للغرب، وتأييد عدوانها والتحدث باسمها إنما هو ستار خارجي يخفي كراهية دفينة لهم لأسباب عقائدية وتاريخية وسياسية. فهم الذين أنكروا السيد المسيح. وتعاونوا مع الرومان في التخلص منه. وهم الذين سيطروا على رأس المال ومراكز إصدار القرارات في الدول الغربية. بل وساهموا في إسقاط الإمبراطوريات بأكملها مثل الاتحاد السوفيتي وانهياره. تاريخها في السيطرة على العالم من خلال القوة الكبيرة السيطرة، انجلترا أولاً ثم الولايات المتحدة ثانياً. والآن تحاول التسلق على أكتاف الهند والصين. فمن يدري مستقبل الولايات المتحدة إلى أين وقد بدأ رد الفعل في العالم كله ضدها، شعوباً بالمظاهرات، ونظماً سياسية بوصول اليسار في بعض دول أمريكا اللاتينية إلى الحكم؟

إن هذا التأييد المطلق لإسرائيل في العالم سيحدث رد فعل عنيف ضد الغرب عامة والولايات

المتحدة خاصة، وكشف أن كل محاولات الحوار العربي الأوروبي أو الإسلامي المسيحي أو الديني أو حوار الحضارات أو الشمال والجنوب أو الشرق والغرب كل ذلك مجرد كلام في كلام. وما زال إنكار الغرب أي وجود فعلي لغيره هو السائد. وهو إنكار بنيوي قائم على عنصرية دفينة أو مركزية وغرور. كما يكشف عن أن كل ما قيل عن حقوق الإنسان وإنسانية الغرب وفلسفة التنوير ما هو إلا زيف وبطلان. وقد يزيد ذلك أيضاً في انفصال النظم الغربية عن شعوبها. فالنظم تزداد يميناً، والشعوب تتجه يساراً باستثناء إيطاليا التي سقط فيها مرشح اليمين ونجح فيها مرشح يسار الوسط. فعصر الشعوب قادم. وهو معادٍ لنظم الغرب وهيمنة الولايات المتحدة.

لقد استولت دولة صغيرة الحجم مثل إسرائيل على العالم كله بالباطل. وانتصرت دولة صغيرة الحجم مثل لبنان عليها بالحق. فالتحية واجبة للمقاومة اللبنانية التي استطاعت كسر شوكة الكيان الصهيوني حتى لو سيطر على العالم كله. وتعويضاً عن عجز إسرائيل عن مواجهة المقاومة في الجنوب، وجهاً لوجه، فإنها تقوم بتدمير دولة بأكملها، وتشرّد شعباً بأكمله. وبالمثل المصري العامي «اللى ما يقدرش على الحمار يقدر على البردعة». وبالتالي يظهر للعالم أنه لا يهرب فقط من مواجهة الرجال ولكنه أيضاً يقتل الأطفال والنساء والشيوخ. وفي غياب نصر فعلي تعود عليه من قبل يوهم بنصر مزيف سوف يتعود عليه.

٦- لبنان، الدولة والمقاومة

فرح الجميع عندما رفرفت أعلام لبنان في الشوارع وفي ميدان الشهداء فيما سمي فيما بعد بحركة ١٤ آذار، وشجرة الأرز الخضراء وإطارها الأبيض والأحمر تملأ سماء لبنان وتنتشر فوق أرضه. نزلت الآلاف إلى الشوارع دفاعاً عن استقلال لبنان ضد وجود قوات أجنبية على أرضها، وتأكيداً لسلطة الدولة والاستقلال السياسي. وكان العرب قد عانوا من غياب الشارع العربي بالرغم من تفاقم الأزمة الوطنية إلى حد الكارثة في العراق وفلسطين لولا نزول المصريين أيضاً إلى الشارع ممثلين في الحركات الجديدة للمجتمع المدني مثل «كفاية» و«الحركة المصرية من أجل التغيير». والكتاب والفنانين والمثقفين الوطنيين ضد التوريث والتسلط والفساد، ودفاعاً عن المقاومة في العراق وفلسطين.

واختلف الناس في دوافع الحركة الوطنية اللبنانية وأهدافها، وطنية أم تآمر؟ دفاع عن استقلال لبنان أم بداية تحقيق مشروع الشرق الأوسط الجديد بتقليص دور سوريا وإيران في المنطقة؟ بناء لبنان أم بداية تدمير لبنان؟ ولما انسحب الجيش السوري من لبنان كان يمكن لبطاريات صواريخه الدفاع عن سماء لبنان ضد العدوان الإسرائيلي الأخير الذي دمر لبنان الدولة والمجتمع. كان يمكن أن تدخل سوريا الحرب ونخفف العبء على المقاومة اللبنانية وعدم ترك لبنان وحيداً، مسيحاً يُصلب في حديقة جتسماني، والحواريون نائمون. يختبره الشيطان وحيداً في الصحراء.

كانت الحركة الوطنية فقط موجهة ضد وجود القوات السورية في لبنان دون وجود القوات الإسرائيلية في مزارع شبعا وكفر شوبا، ودون العدوان المستمر عليه، واختراق أجوائه الفضائية، ومياهه الإقليمية، وعمليات الإنزال في مطار بيروت لتصفية المقاومة اللبنانية. ولم يكن من أهدافها الحفاظ على استقلال لبنان وهويته ضد التبعية للولايات المتحدة الأمريكية ومشاريعها في الهيمنة على المنطقة بداية بالعراق ثم فلسطين ثم لبنان ثم سوريا والخليج ونهاية بمصر. وطالما نقد العرب المعيار المزدوج في الغرب، والكيل بمكيالين بين فلسطين والكيان الصهيوني. وتقع الحركة الوطنية الجديدة في لبنان في نفس الفخ، استقلال وطني بالنسبة لسوريا، وتبعية ورضوخ بالنسبة لأمريكا وإسرائيل.

وبعد انتصار المقاومة الوطنية في الجنوب، وتبديد وهم الجيش الذي لا يقهر، وسقوط الصواريخ على المستوطنات في شمال فلسطين المحتلة، وعودة الثقة إلى المقاتل العربي في أطول حرب عربية إسرائيلية منذ نشأة الكيان الصهيوني، وتكبيده أكبر الخسائر البشرية والمادية في تاريخه، عادت حركة ١٤ آذار تطالب ببسط نفوذ الدولة على كامل أراضيها. وتحولت الحركة من مناهضة سوريا إلى مناهضة المقاومة ممثلة في حزب الله والتي لم تشارك فيها الحركة ونخبها السياسية المتقلبة المزاج والأهواء والمصالح. فأين كانت سلطة الدولة أثناء احتلال الجنوب والشريط الحدودي وتكوين دولة داخل الدولة، وجيش داخل الجيش، جيش لبنان الجنوبى التابع لإسرائيل والذي انهار، وفرّ معظمه إلى إسرائيل بعد انسحابها من الجنوب ليلاً تحت ضربات المقاومة؟ أين كانت سلطة الدولة على مزارع شبعا وكفر شوبا وعلى سماء لبنان ومياهه الإقليمية وكامل أراضيه الوطنية، بجباله وسهوله، ضد محاولات الاختراق والإنزال واحتلال الأراضي؟ أين كانت سلطة الدولة أثناء الحرب الأهلية التي دامت أكثر من خمسة عشر عاماً بين المليشيات والقوى السياسية المتناحرة للسيطرة على الدولة لولا اتفاقية الطائف؟ ولماذا تكون سلطة الدولة موجهة فقط ضد المقاومة الوطنية في جنوب لبنان ممثلة في حزب الله وليس ضد باقي القوى الوطنية في كل الأراضي اللبنانية في الجنوب والشمال، قواعد الجبهة الشعبية، والجبهة الديمقراطية؟ وماذا عن السلاح المخبأ والمنتشر لدى ما تبقى من ميليشيات الحرب الأهلية؟ وأين سلطة الدولة مع محاولات التطبيع مع إسرائيل وإثراء المرتزقة من تجار لبنان ومهرّبي البضائع؟

كانت الدولة على علم بنية المقاومة، أسر بعض جنود العدو الصهيوني للإفراج عن الآلاف من المعتقلين اللبنانيين والفلسطينيين والعرب في سجون العدو، وبعضهم قضى فيها أكثر من ربع قرن. فحزب الله ممثل في الحكومة. وله أعضاؤه في المجلس النيابي. ولم يرفض أحد الفكرة والأسلوب. أما الإخطار بتحديد الزمان والمكان للعمليات العسكرية فهذا ما تأباه طبيعة الحروب في وقت لم تعد فيه أسرار عسكرية بسبب وسائل الاتصال الحديثة والقدرة على جمع المعلومات

من كل طرف عن الطرف الآخر. وفرق بين بيروقراطية الدولة وأوراقها وأختامها والمقاومة الوطنية التي تقوم على عنصر المفاجأة.

وبدلاً من تهنئة المقاومة بالنصر ودرء العدوان الصهيوني على جنوب لبنان بدأ التآمر عليها لتصفيتها وإنجاز ما لم يستطع العدو إنجازه بالسلاح ولا الولايات المتحدة من خلال مجلس الأمن. بدأت حركة ١٤ آذار وحلفاء سوريا السابقين قبل الانقلاب عليها بالدعوة إلى نزع سلاح حزب الله وهو ما لم يطالب به العدو الصهيوني بعد أن أدرك حدود قدراته مكتفياً بإبعاده عن الجنوب أو إضعافه. وهو ما لا ينص عليه قرار مجلس الأمن الأخير ١٧٠١ المنحاز إلى إسرائيل أصلاً. وأرادت الحركة تحويل العرس إلى مأتم، والفرح إلى حزن، والوحدة الوطنية إلى حرب أهلية، والنصر إلى هزيمة.

المطالبة بنزع سلاح حزب الله الآن والحرب لم تضع بعد أوزارها، والعدوان الإسرائيلي ما زال مستمراً كما بدا في حركة الإنزال الأخيرة في البقاع، والجيش الإسرائيلي ما زال محتلاً للجنوب، ومزارع شبعا وكفر شوبا لم تتحرر بعد خيانة وطنية وإدخال لبنان المدمر في مشروع الشرق الأوسط الجديد. ولا يُخفي قادة الكيان الصهيوني نياتهم الاستعداد للجولة الثانية لاستعادة هيبة الجيش، وأسطورة العدو الذي لا يقهر، وهيبة الدولة القادرة على إملاء شروطها على العرب. وتدفعها أمريكا إلى ذلك، وتعد لها الغطاء الشرعي عن طريق قرار جديد من مجلس الأمن، يطالب بنزع سلاح حزب الله وجعل الجنوب اللبناني منزوع السلاح، وإعطاء قوات الطوارئ الدولية مهام قتالية دفاعاً عن إسرائيل، اعتماداً على البند السابع من الميثاق. فدعوة حركة ١٤ آذار وحلفاء الأمس بنزع سلاح المقاومة هو تنفيذ للمخطط الإسرائيلي الأمريكي، وانحياز صريح لأعداء لبنان.

والأخطر من ذلك هو نزع صفة الوطنية عن المقاومة، وتصور حزب الله تابعاً لسوريا وإيران. والمقاومة الوطنية بطبيعتها لا تكون تابعة لأحد لوجود تناقض رئيسي بين الاستقلال والتبعية. وهي نفس قراءة أمريكا وإسرائيل لنزع الشرعية عن المقاومة الوطنية للاحتلال الإسرائيلي للجنوب وكذريعة للهجوم على سوريا وإيران. وقد اتُّهم عبد الناصر بأنه عميل الاتحاد السوفيتي لمجرد أنه كان يمده بالسلاح لمقاومة العدوان الإسرائيلي. كما اتُّهمت من قبل كل الحركات الوطنية بنفس الاتهام في كوبا وفيتنام.

إن عظمة لبنان في الوطن العربي أن المجتمع المدني فيها أقوى من الدولة، ويضرب به المثل بالتعددية السياسية. فلماذا تريد حركة ١٤ آذار القضاء على أهم سمة في لبنان والتي نود نحن العرب أن نكون مثلها، وأن تكون مجتمعاتنا المدنية أقوى من نظمنا السياسية بدلاً من السيطرة شبه المطلقة للدولة على المجتمع المدني؟ وإذا كان لبنان يمثل نموذج أولوية المجتمع المدني على الدولة فإن النظام العربي في مجموعه في مصر والسعودية وليبيا وتونس وعُمان يمثل أولوية

الدولة على المجتمع المدني. وتشارك العراق وفلسطين الآن في النموذج اللبناني، أولوية المجتمع على الدولة. لذلك تزدهر المقاومة. وطالما كانت الدولة ممثلة في نظامها السياسي تابعة للعدو الأجنبي المحتل كما هو الحال في أفغانستان والشيشان وكشمير.

إن المقاومة اللبنانية الممثلة في حزب الله مقاومة وطنية عربية إسلامية تستعيد بها روح الخمسينيات والستينيات، روح جيفارا وعبد الناصر وروح الثورة الإسلامية في إيران. تجمع بين الوطنية والعروبة والإسلام في نظرية الدوائر الثلاث التي صغناها في عصر التحرر الوطني وتخلينا عنها وتطبقها إسرائيل الآن. عدوها إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، وظهيرها العرب والمسلمون والمسيحيون ومجموع دول الشرق وأحرار الغرب. هدفها تحرير الأراضي العربية المحتلة وإزالة آثار العدوان. وإذا كان الشعب العربي في لبنان وفي باقي أرجاء الوطن العربي مع المقاومة فلا يضيره مؤامرات النخب السياسية عليها. وسيحافظ على وحدته وانتصاراته ضد دعاة التفرقة والهزيمة. وسيظل لبنان منارة للعلم والفكر منذ فجر النهضة العربي في برّ الشام وبرّ مصر.

الانتصار في مواجهة المشروع الأميركي للشرق الأوسط الجديد.. التداعيات وآليات التعامل معها

الأمين العام لرابطة بلاد الشام
أ. بلال حسن التل (الأردن)

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبيه الكريم وعلى آله الطيبين الطاهرين

شكّل الانتصار الذي حققته المقاومة الإسلامية في لبنان، ممثلةً بحزب الله منعطفاً هامّاً في تاريخ أمتنا المعاصر على وجه العموم، وفي تاريخ صراعها مع عدوّها على وجه الخصوص. وأول تداعيات هذا الانتصار، أنه أساس مع الانتصار الذي سبقه عام ٢٠٠٠ للمقاومة الإسلامية واجبارها العدو على الانسحاب من جنوب لبنان لصورة جديدة للعدو أكدت ما سبق، وأن ما ذهب إليه سيد المقاومة السيد حسن نصر الله مبكراً، عندما قال: إن إسرائيل ليست قوية إلا في أذهاننا فقط، وعندما يسقط هذا الوهم، ونستخدم القوة الكامنة فينا، سنجد أن هذا الكيان الذي اسمه إسرائيل أوهن من بيت العنكبوت. وهذه الصورة الجديدة التي رسمها انتصار حزب الله، هي أنه عدو ضعيف، غير قادر على الصمود في أيّ مواجهة حقيقية، وأن أمتنا قادرة على الانتصار عليه بفعل عوامل الضعف الكامنة في بنيانه، التي حاول خطاب الهزيمة أن يخفيها عنا، وأن يستبدلها بصورة مغايرة تكرّس هزيمتنا، والدراسة المتأنية لواقع الكيان الصهيوني تؤكد قناعة السيد بأن إسرائيل أوهن من بيت العنكبوت. ونحن هنا لا نلقي القول على عواهنه، بل نستند إلى تقارير وأقوال العدو نفسه، فها هو الخبير القضائي لإسرائيل موشيه نغبي في كتابه أصبحنا مثل سدوم: في المنزلق من دولة القانون إلى جمهورية الموز، يعدّد الآفات التي تفتك في الكيان الصهيوني فيكتب قائلاً: (عصابات الإجرام المنظّم تزرع العنف في شوارع إسرائيل. وأذرعها تتغلغل في سلطات النظام الحاكم، وتهدّد بأن تمسّ بالديمقراطية من الداخل. قتلة، مغتصبون، أزواج عنيفون وتجار نساء يتجولون بيننا طلقاء بسبب حدب المحاكم. أماكن لوائح المرشحين للكنيست تباع في وضح النهار عداً ونقدًا أو بما يوازي النقود، والساسة الذين يشترونها هم الذين يشرّعون قوانيننا.. مواطنون عاديون يسامون مرّ العذاب في غياهب السجون

والمعتقلات دونما ذنب اقترفوه، بينما يواصل مسؤولون كبار، استغلوا مناصبهم لتحسين وضعيتهم ووضعية المقربين منهم، جريهم نحو القمة دون حسيب أو رقيب. القضاء العسكري يمنح حصانة للقادة الذين أهدروا بإهمالهم الإجرامي حياة جنودهم أو استغلوا جنسياً جندياتهم، وأيضاً للقادة الذين ينكلون بالفلسطينيين. الإعلام الباحث عن الحقيقة، اللاسع، يفقد نيوبه ويأخذ مكانه إعلام امتثالي وفاسق، وأفظع من كل هذا أن سلطات القانون مشلولة تماماً حيال التحريض والعنف الديني-القومي، اللذين سبق لهما أن أديا هنا إلى اغتيال رئيس الحكومة إسحاق رابين في ١٩٩٥).

نعم، هذه هي حقيقة الكيان، الذي حاول بعض المحسوبين على أمتنا تصويره بالجمهورية الفاضلة، وبوابة الديمقراطية، وبالمجتمع القوي الذي لا يمكن التغلب عليه، خاصةً وأنه قد رافق جهود تسويق فكرة قوة وتفوّق الكيان الصهيوني محاولةً لتسويق صورة مناقضة لأمتنا؛ باعتبارها أمة متخلفة ممزقة لا يمكن لها مواجهة هذا العدو.

انهيار مجتمع الرّفاه

لقد كانت أولى ثمار الآفات التي عددها نغبي في كتابه انتهاء أكذوبة مجتمع الرفاه، التي حاولت ثقافة الهزيمة تصوير الكيان الصهيوني عليها، وهو ما اعترف به الكثيرون من القادة الإسرائيليين في مختلف المجالات، ومن ذلك ما كتبه المحلّل الصهيوني أنطوان شالحت تحت عنوان – دولة الرفاه الإسرائيلي- نحو مزيد من الأفول يقول: (يشتمل العدد رقم ٣٧ من – أوراق إسرائيلية- على وثيقتين أعدّهما مركز أدفا/ معلومات حول المساواة والعدالة الاجتماعية في إسرائيل. الأولى حول صور الوضع الاجتماعي في إسرائيل العام ٢٠٠٦، والثانية حول الموازنة الإسرائيلية في العام ٢٠٠٧، والتي تضمّنت تكاليف الحرب على لبنان في صيف ٢٠٠٦ والنتيجة التي يتوصل إليها هذا المركز، في وثيقته الثانية، الوثيقة الصلة بالأولى، هي أن العقد الأول من القرن الحادي والعشرين الحالي، بات من شبه المؤكد أن يرتسم بكونه عقداً اجتماعياً مفقوداً من ناحية إسرائيل. فالتقليصات المقررة العام ٢٠٠٧ في الخدمات الاجتماعية، وفي شبكة الضمان الاجتماعي، بحجة تغطية تكاليف الحرب، وتلك المتوقعة العام ٢٠٠٨، تضاف إلى تقليصات عميقة في الموازنة تم تنفيذها في الأعوام ٢٠٠١-٢٠٠٤. وإذا ما تمّ ربط كل هذه التقليصات، فإنّ الخلاصة المطلوبة هي أن العقد الحالي سيكون عقداً كاملاً من الانكفاء الاجتماعي في مجالات التعليم، التعليم العالي، الصحة، السكن والرفاه والضمان الاجتماعي، على ما تؤكد الوثيقة في هذا الشأن، خصوصاً وأن النية متجهة نحو المزيد من صرف الأموال على الاستعداد للجولة الحربية المقبلة، التي تترسخ في الوعي الإسرائيلي باعتبارها شبه حتمية. لعل الكلمة المفتاحية في الوثيقة الأولى هي اللامساواة أو انعدام المساواة في توزيع الموارد، وأساساً في تقاسم ثمار النمو الاقتصادي. ويؤكد كاتبا الوثيقة أنه مع كون النمو في إسرائيل

مطروحاً من قيادتها السياسية كهدف مركزي لسياستها في المجال الاقتصادي، إلا أن المعطيات الواردة في الوثيقة تبين أن النمو في حد ذاته، وحين لا يكون مصحوباً بسياسة عامة ملائمة، يمكن أن يظهر كهدف منقوص وجزئي، ففي العقود الأخيرة شهدت إسرائيل سنوات من النمو الاقتصادي الكبير، بل وانضمت إلى مجموعة الدول الغنية في العالم، وذلك بمصطلحات الناتج للفرد. ولكن إلقاء نظرة تتجاوز المعطيات الكميّة لمعدلات النمو، سرعان ما تكشف أن النمو اقتصر فقط على أجزاء من المجتمع والاقتصاد الإسرائيليين، في حين لم يقيّض لأجزاء كثيرة أخرى أن تحظى بشيء يذكر من هذا النمو، وثمة أشكال عديدة لانعدام المساواة، منها ما هو على أساس قومي وطائفي، ومنها ما هو على أساس جندري أو على أساس التوزيعة الجغرافية، وما شابه ذلك، يضاف إلى هذا أن انعدام المساواة ينسحب على كل مجالات الحياة، وهناك تركيز خاص على التعليم والتعليم العالي والخدمات الصحية وكذلك على نظام التقاعد. وإن الأرقام والفجوات التي تقدمها الوثيقة تعرض حال الوضع الاجتماعي في إسرائيل ببريق ساطع، وليس من المجازفة القول إن ما يستكنهه مركز أدفا هو أشبه بتحصيل حاصل السياسة الاقتصادية الاجتماعية المنتهجة منذ عدة سنوات، والتي دقت المسمار تلو الآخر في نعش دولة الرفاه الإسرائيلية، كما سنتوسع في قراءة بعض مداليلها في إطار السطور التالية: رأى العديد من الخبراء وأساتذة الجامعات في معرض تعقيبهم على نتائج الانتخابات الأخيرة في إسرائيل للكنيست السابع عشر التي جرت في ٢٨ آذار ٢٠٠٦، وحتى قبل أن تندلع الحرب على لبنان في الصيف المنصرم، أن الوضع الاجتماعي سيزداد تفاقماً، وذلك نظراً لأن دولة الرفاه الإسرائيلية أخذت تقترب من الأفول أو الزوال.

وذهب بعضهم إلى أن هناك أولاً وقبل أي شيء، ضرورة لفهم حقيقة أن مشكلة الرفاه في إسرائيل لا تقتصر على المواضيع التي خاض فيها زعماء الأحزاب عشية تلك الانتخابات فقط، وهذه المواضيع هي: تقليص البطالة وهو موضوع لم يعد مطروحاً بقوة على جدول الأعمال، رفع أجر الحد الأدنى المتدني، إضافات إلى سلة الأدوية الهزيلة وفرض رقابة على أسعار الأدوية المرتفعة، إجراء تغييرات في نسب ضريبة الدخل ومخصصات التأمين الوطني للمسنين والمعوقين والمتقاعدين وإلغاء أو تقليص شركات القوى البشرية. فإن أية مناقشة جادة في موضوع الرفاه لا بد وأن تتناول أيضاً أجهزة الثقافة والصحة والتعليم والعلم والمساواة لجميع المواطنين في إسرائيل، علماً بأن هذه المجالات كافة تعاني من تدهور خطير جداً، وفقاً لكل المقاييس العالمية الموثوقة. وتحتل إسرائيل مكانة متدنية للغاية في سلم الدول المتطورة والديمقراطية. وإزاء ذلك فإن أياً من الأحزاب الإسرائيلية (بما في ذلك حزب المتقاعدين) لا يطرح حلولاً حقيقية للوضع المتدهور الذي يقبع فيه جهاز الرفاه بأكمله.

وطبقاً لبرنامج كديما وتصريحات متحدثين باسمه، فإن هذا الحزب الحاكم متمسك

بالسياسة الريغنية والتاتشرية التي يتبناها زعيم الليكود الحالي بنيامين نتنياهو، والمغزى العملي لهذا التوجه هو مزيد من التدهور في وضع الرفاه في إسرائيل، وذلك من جراء التعاظم المستمر لأصحاب رؤوس الأموال، الذين أصبحوا الآن أصحاب السلطة أيضاً، على سبيل المثال فإن الذين تولوا إجراء المفاوضات لتشكيل الائتلاف الحكومي الحالي هم بالأساس محامون يمثلون أثرياء الدولة، أو أنهم أنفسهم من أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة).

ويضيف شالحت قائلاً: قبل أن تصبح عضواً في الكنيست من قبل حزب العمل رأت الصحافية الإسرائيلية البارزة شيلي يحيموفيتش (عملت آنذاك في القناة الإسرائيلية التلفزيونية الثانية) أن إسرائيل قاب قوسين أو أدنى من أن تكون دولة تسيطر عليها الميزتان الأبرز لجمهورية الموز، وهما المستوى المتدني لنزاهة الحكم، والفجوات الهائلة بين الفقراء والأغنياء.

جاءت هذه النبوءة في سياق «مونولوج فصحي» نسبة إلى «عيد الفصح العبري» كان عبارة عن شكوى حادة صافية وصريحة أساساً من أداء وسائل الإعلام الإسرائيلية، التي باتت تتماشى إلى حد التماهي أحياناً مع أصحاب الرساميل في تأييد السياسة الاقتصادية الاجتماعية التي تنتهجها الحكومة لصالحهم، وتنذر بأن تقضي قضاءً مبرماً على دولة الرفاه، حتى إلى ناحية تجاهل معاناة ضحايا هذه السياسة من السكان اليهود أنفسهم. وإنّ أداء وسائل الإعلام هذه في ميدان التماثل حتى لا نقول الامتثال مع سياسة الحكومة العامة أصبح هو أيضاً من الأسرار المفضوحة بما لا نحتاج معه إلى عناء التكرار.

وبصدد مسألة نزاهة الحكم في إسرائيل نشير إلى أنه سبق أن جرى تخصيص العدد رقم ٢٨ من سلسلة أوراق إسرائيلية لهذا الأمر، وفيه عرض الخبير القضائي الإسرائيلي موشيه نغبي ما اعتبر أنه فشل ذريع لمنظمة أجهزة سيادة القانون الإسرائيلية في حماية الديمقراطية من الذين يحاولون تدميرها وتقويضها من الداخل لغاياتهم المخصوصة، التي ليس أبسطها التغطية على الفساد المستشري في القمة، وقد احتوى هذا العدد على مقالتين مأخوذتين من كتاب لهذا الخبير صدر قبل فترة وجيزة في خريف ٢٠٠٤ مشتملاً على العرض ذاته، إنما بصورة أكثر سعة وشمولية. وجاء الكتاب تحت عنوان «أصبحنا مثل سدوم»: في المنزلق من دولة قانون إلى جمهورية موز. النتيجة التي يخلص إليها نغبي في الكتاب عموماً مفادها أنه لا نهضة ترجى لدولة تخاف سلطاتها من أعداء القانون والديمقراطية، بدل أن يكون سلوكها نقيض ذلك جملة وتفصيلاً).

إلى أن يقول: (أما فيما يختص بالفجوات الضخمة بين الفقراء والأغنياء، وهي الميزة الأبرز الثانية لـ «جمهورية الموز» على ما قالت يحيموفيتش، فيمكن استعادة ما سبق أن قاله عالم الاجتماع الإسرائيلي شلومو سبيسكي، وهو كاتب مشارك للوثيقة حول صورة الوضع الاجتماعي، من كون ذلك أشبه بصيرورة «ثقافة تطور» أو «ثقافة تنمية» اقتصادية اجتماعية انطلقت من مبدأ

تكريس هذه الفجوات بدايةً بين أبناء الطوائف اليهودية المختلفة (إشكناز وشرقيين) وبينهم وبين العرب الفلسطينيين المواطنين في إسرائيل، ثم اتسع تطبيق هذا المبدأ لاحقاً ليشمل بعد العام ١٩٦٧ الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة ومن ثم غيرهم على مرّ السنوات الماضية وصولاً إلى الأيام الراهنة).

والفقـر أيضـاً

وفي نفس إطار التأكيد على زوال أكذوبة دولة الرفاه والقانون والمساواة، تدل التقارير على ملمح آخر من ملامح ضعف كيان العدو، يتمثّل في تزايد نسبة الفقر في هذا الكيان، فقد جاء في تقرير الفقر للنصف الثاني من عام ٢٠٠٤ والنصف الأول من عام ٢٠٠٥، الذي نشرته ما تسمّى بمؤسسة التأمين الوطني الإسرائيلية والذي جاء فيه (أن نسبة الفقراء في إسرائيل ازدادت خلال النصف الثاني من ٢٠٠٤ والنصف الأول من ٢٠٠٥ بنسبة ٣، حيث ارتفع عدد الفقراء من ١،٥٣٤،٣٠٠ إلى ١،٥٨٠،٢٠٠ نسمة نصفهم من الأولاد، وحسب التقرير ارتفع عدد العائلات الفقيرة خلال الفترة المشار إليها من ٣٩٤،٢٠٠ عائلة إلى ٤٠٣،٤٠٠ ما يعني ارتفاعاً بنسبة ٢,٣. أما عدد الأطفال الفقراء الذين عاشوا في إسرائيل خلال هذه الفترة، فقد ارتفع من ٧١٣،٦٠٠ نسمة في عام ٢٠٠٤ إلى ٧٣٨،١٠٠ في عام ٢٠٠٥، ما يعني زيادة بنسبة ٢،٤. ويتضح من مقارنة لتقارير الفقر أن نسبة الفقر بين الأولاد في إسرائيل ارتفعت منذ ١٩٩٨ بنسبة ٥٠، وقالت مؤسسة التأمين الوطني في تقريرها إن ١٧ فقط من الأولاد الفقراء تمّ إنقاذهم من تحت خط الفقر في العام ٢٠٠٥، مقابل ١٩ في العام ٢٠٠٤ و٢٥ في العام ٢٠٠٣، ويستدل من مقارنة لتقارير الفقر التي أصدرتها مؤسسة التأمين الوطني الإسرائيلية خلال السنوات الخمس الأخيرة أيضاً أن نصف مليون إسرائيلي، بينهم قرابة ٢٥٠ ألف ولد وفتى تدهوروا إلى ما تحت خط الفقر، ويستدل من مقارنة بين إسرائيل وعدد من دول العالم أن إسرائيل تحتل المرتبة الأولى من حيث تفشي ظاهرة الفقر بين الأولاد ٣٣ تليها الولايات المتحدة ٢٧ وإيطاليا ٢٥ وبريطانيا ٢٤ وكندا ٢٤ ولوكسمبورغ ٢٣).

القنبلـة السكانيـة

ونتيجة لتفشي الفقر، وانهيار مجتمع الرفاه دخل ملمح آخر من ملامح ضعف الكيان الصهيوني التي ستقود في النهاية إلى زواله وهذا الملمح يتكون من شقين أولهما تنامي نسبة البطالة وثانيهما تزايد الهجرة المعاكسة من كيان العدو، مما يؤكّد انكشاف الزيف وانتهاء الحلم الصهيوني في جر اليهود إلى الأرض الموعودة أرض السمن والعسل، وهذا يعني في وجه من الوجوه ضعف القوة البشرية لهذا الكيان، فإذا اجتمعت الهجرة المعاكسة مع تدني نسبة المواليد في مقابل تنامي نسبة مواليد العرب في فلسطين المحتلة، عرفنا سبب قلق قادة هذا الكيان من القنبلة السكانية التي تهدده.

إن الاستشهادات التي أوردناها في الصفحات السابقة من وثائق إسرائيلية و على لسان باحثين إسرائيليين تؤشّر من بين ما تؤشر إليه، إلى ملمح مهم من ملامح ضعف الكيان الصهيوني يتمثل في حجم الفساد الذي استشرى في الكيان الصهيوني؛ وهو الفساد الذي وصفه رئيس الوزراء الأسبق لهذا الكيان نتنياهو بأنه سرطان أصاب الكيان، وبأنه مستنقع لا يمكن الخروج منه وقد دلت استطلاعات الرأي العام على أن ٨٢ من الإسرائيليين يعتقدون أن إسرائيل دولة فاسدة، أما المستشار القضائي لحكومة الكيان الصهيوني فقد وصف ما أسماه بالفساد الجماهيري في إسرائيل بالوباء، وقد أصاب هذا الفساد كل مكونات كيان العدو ابتداءً من رئيس الكيان الذي اضطر للاستقالة من منصبه بسبب فضائحه الجنسية، إلى رؤساء الوزراء المتعاقبين، فرئيس الوزراء الحالي أولمرت تطارده تهم الفساد منذ أن كان رئيساً لبلدية القدس، مروراً بمواقعه الوزارية، وانتهاءً بتهم الفساد التي تطارده كرئيس وزراء وتطارد معه أفراد أسرته، وهي تهم تتراوح بين الرشوة والتعيينات السياسية وتسهيل الصفقات. ولم يكن الأمر يختلف مع سلفه شارون وعائلته وملاحقة القضاء لهم بسلسلة من قضايا الفساد، من بينها حصول شارون على رشوة بقيمة ثلاثة ملايين دولار، بالإضافة إلى فساد ابنه عمري، كما وسبق أن خضع نتنياهو للتحقيق في قضايا فساد من بينها تمويل استطلاعاته من خلال ميزانية وزارة المعارف، ولم ينج إسحاق رابين من الملاحقة بتهم الفساد كذلك.

أما نائب رئيس الوزراء ليبرمان فقد تعددت تهم الفساد التي وجّهت له؛ ابتداءً من التعاون مع المافيا الروسية، وانتهاءً بإدارة شركات والحصول على أموال بطرق غير قانونية.

ومثل رؤساء الوزارات ونوابهم، كذلك الوزراء فوزير المالية الإسرائيلي أوقف عن العمل على خلفية التحقيق معه في قضايا اختلاس، من بينها تقديم أموال لشخصية سياسية كبيرة؛ كما تمت إدانة وزير القضاء بسبب أعمال مشينة مارسها ضد مجنّدة، كما قدمت فتاة أخرى شكوى ضده لنفس الممارسات، وكذلك اتهامه باستخدام القوة. كما جرى تحقيق مع وزير الزراعة حول رشاوى تلقاها وشبهة فساد في التعيينات. أما عمير ميرتس، وزير الحرب أثناء العدوان على لبنان عام ٢٠٠٦ ورئيس الهستدروت، فقد اتُّهم بخرق قانون الجنسية وقانون عمل النساء.

واللافت للنظر أن تهم الفساد التي وجهت لرؤساء الوزارات والوزراء الإسرائيليين شملت أيضاً عائلاتهم زوجات وأبناء وبنات؛ مما يدل على أن الفساد صار ثقافة عامة في الكيان الصهيوني والأسماء التي ذكرناها أعلاه هي أسماء وزراء عاملين الآن، ولو أردنا ضم أسماء الوزراء السابقين الذين وجهت إليهم تهم الفساد، فإن القائمة لن تنتهي، وكذلك الحال بالنسبة لنواب الوزراء والمدراء العامين في الوزارات. وقد تراوح فساد هؤلاء بين الرشوة والاختلاس وتهريب المخدرات والاغتصاب وسوء استعمال السلطة...إلخ.

وفي الكنـيست

ومثال الفساد في الحكومة، كذلك الفساد في الكنيست حيث تمّ طلب رفع الحصانة من قبل المحكمة العليا عن عضو الكنيست غورولوفسكي بتهمة تزييف التصويت في الكنيست بالتعاون مع عضو كنيست آخر هو يحيئيل حزان، الذي اتهم أيضاً بالسرقة من مخازن الكنيست، ومحاولة إخفاء أدلة. أما رئيسة الكنيست روحاما إفراهام فقد خضعت هي الأخرى للتحقيق بتهم تلقي رشاوى وخيانة الأمانة، كما اتُهم عضو الكنيست يئير بيرتس بحصوله على لقب جامعي مزور، كما اتهم عضو الكنيست بنيزري بتلقي رشاوى مقابل تسليمه معلومات تتعلق بعدد العمال الأجانب المتوقع وصولهم إلى إسرائيل أثناء توليه منصب وزير العمل والرفاه.

ومثلما هو الحال مع الوزراء، كذلك الأمر مع أعضاء الكنيست فقد وجهت تهم الفساد أيضاً لأفراد عائلاتهم، كما أن إضافة أسماء أعضاء الكنيست السابقين إلى قائمة المتهمين ستطيل القائمة.

وفـي الأحـزاب

ومـثـل الـحكـومـة والـكـنـيست، كذلك استشرى الفساد فـي الأحـزاب السيـاسيـة فـي الكيـان الصهيوني؛ فقد وجهت اتهامات بالفساد لزعيمي حزب كاديما وحزب العمل، كما قام كل من حزبي كاديما والعمل بفضح الفساد المالي والإداري لدى كل منهما، علماً بأنه تمّ إلغاء ثلث طلبات الانتساب لحزب العمل بسب خروقات يشوبها الفساد. كما نشرت في كيان العدو تقارير تؤكد بأن عصابات الجريمة تقوم بعقد اتفاقيات مع السياسيين الإسرائيليين لتمويل حملاتهم الانتخابية، ومساعدتهم على السيطرة على مناطق نفوذهم، مقابل قيام السياسيين بمنح هذه العصابات بتسهيلات في المناقصات والبناء والتجارة.

فســاد دبلومــاسي

ومثل الفساد الوزاري والحزبي كذلك الفساد في الدبلوماسية الإسرائيلية، فقد اتهم دبلوماسي في البعثة الإسرائيلية في نيويورك بالمشاركة بأفلام إباحية، كما جرى التحقيق مع سفير الكيان الصهيوني في بريطانيا بتهمة تبييض الأموال، كما خضع سفير هذا الكيان في واشنطن للتحقيق بتهم فساد. كما تمّت محاكمة القنصل الإسرائيلي لدى هولندا بتهم فساد؛ من بينها بيع جوازات سفر. كما اعترف الوزير شالوم بتدخل زوجته بعمل سفارة الكيان الصهيوني في واشنطن؛ حيث تقدّم السفير بشكوى ضد الوزير وزوجته. كما تمّ اعتقال ابنة سفير الكيان الصهيوني في البيرو لحيازتها ٩ كغم من الكوكايين. كما تمّ طرد القنصل الإسرائيلي من أستراليا بسبب تصرفاته الجنسية.

فساد إداري ومالي

ومثلما استشرى الفساد في الجهاز السياسي والدبلوماسي للكيان الصهيوني، استشرى كذلك في الجهاز الإداري والمالي لهذا الكيان؛ حيث جرى التحقيق مع رئيس سلطة الضرائب ونائبه في كيان العدو بتهم فساد. وجرى اعتقالهما مع سلفه ومع اثنين من رجال الأعمال الإسرائيليين. ومن بين التهم التي وجهت لهم الرشاوى والتهرب الضريبي والتلاعب بالتعيينات.

كما يجري بين الفينة والأخرى اعتقال موظفين رسميين بتهمة بيع معلومات عن إسرائيليين لمحققين خاصين، وقد كشف تقرير لمراقب الدولة ما أسماه بالخروقات الخطيرة في السلطات المحلية، وقال: إن لجان التنظيم والبناء تخدم مصالح سياسية، وأن هذه السلطات تتستّر على تهرب الجيش من دفع الضرائب من خلال قيام هذه السلطات بفرض ضرائب غير قانونية على الإسرائيليين وفي إطار الفساد الإداري وجهت اتهامات بالفساد للمدير السابق لشركة كهرباء إسرائيل. وقد جاء في أحد تقارير مراقب الدولة حول استشراء الفساد في الكيان الصهيوني أنه يسلم الشرطة ملفات تصل المستوى الجنائي من بين سبع حالات من الفساد، يحقق فيها وتشمل شركة القطارات وسلطة المطارات، ومناقصات مشبوهة، وشركة الكهرباء، وخصخصة مصنع أمني وتعيينات سياسية ومحو قروض بنكية في بنك إسرائيل.

فساد أمني وعسكري

حتى المؤسسة الأمنية والعسكرية التي تعتبر من أهم مكوّنات الكيان الصهيوني، لم تنج من داء الفساد الذي يستشري بها، ويفتك بقوّتها ويجعلها سهلة الاختراق وأكثر قابلية للهزيمة، فقد أجرت لجنة رسمية إسرائيلية تحقيقاً حول تعاون الشرطة مع إحدى عصابات الجريمة المنظّمة؛ ومن صور فساد المؤسسة الأمنية الإسرائيلية الرسالة التي بعث بها الضابط بروفسكي عام ٢٠٠٤ إلى عمري شارون، والتي يقول فيها إنه إذا تمّ تعيينه مفتشاً عاماً للشرطة، فسيقوم بتغيير طاقم التحقيق مع عائلة شارون إلى طاقم أكثر راحة. ومن مظاهر فساد المؤسسة الأمنية في الكيان الصهيوني تعيين الضابط يورام ليفي قائداً للوحدة الخاصة لمكافحة الإرهاب في ما يسمى باللواء الجنوبي، مع أن هذا الضابط متعاون مع العصابة المعروفة بالأخوة فرينيان: كما يجري بصورة دائمة ترفيع ضباط الشرطة المعروفين بعلاقتهم مع هذه العصابة التي تمارس الإجرام المنظّم. كما يتم الإعلان بصورة دائمة عن اعتقال رجال شرطة بتهم الرشوة والتحرش الجنسي والعلاقة مع عصابات الإجرام.

وعلى صعيد الفساد الذي يفتك بالجيش الإسرائيلي أيضاً، فتطالعنا التقارير بصورة شبه يومية عن ممارسة جنود وضباط هذا الجيش للسلب والنهب من منازل المستوطنين، ومن ثكنات الجيش وعن بيعهم للأسلحة، وعن نسبة ارتفاع الملفات الجنائية ضد أفراد هذا الجيش ومن بينها جرائم القتل واغتصاب المجنّدات، وارتفاع حالات التحرش الجنسي بهن وممارسات،

اغتصاب القاصرات من الإسرائيليات بما في ذلك المسنات، بالإضافة إلى تعاطي المخدرات والاتجار بها، وعن تدهور الأوضاع النفسية للضباط والجنود، وتزايد الانتحار بينهم، وهو ما ينطبق على منتسبي الموساد والشاباك.

فســاد قضــائي

ومثلما يفتك الفساد في الجهاز السياسي والإداري والمالي للكيان الصهيوني، فإنه يفتك أيضاً بالجهاز القضائي هذا الجهاز المتهم بتشجيع الاتجار بالنساء عن طريق الأحكام المخفّفة، كما تمّ توجيه الاتهام لأكثر من مسؤول قضائي كبير في كيان العدو لتدخلهم في التعيينات، وتهم بسوء استغلال المنصب - ومن صور الفساد التي يعاني منها القضاء الإسرائيلي اتهام أكثر من قاضية بالتجسس على أزواجهن - كما تمّ إدانة قضاة بتزييف محاضر المحاكمات، وإتلاف وثائق خاصة بالقضايا المعروضة عليهم.

فســاد المؤسســة الدينيــة

ولم تنج المؤسّسة الدينية في كيان العدو من ممارسة الفساد، فقد خضع الحاخام الإسرائيلي الأكبر للتحقيق بتهم إخفاء الحقيقة، كما اتهم هذا الحاخام باختطاف شاب والتنكيل به لعلاقته بابنة الحاخام بمشاركة زوجته وابنه وابنته. كما تمّ اعتقال حاخام إسرائيلي لقيامه بالاعتداء الجنسي على قاصرات. كما نشرت الصحف الإسرائيلية بصورة متكررة تقارير عن ممارسة طلبة المعاهد الدينية الإسرائيلية لتجارة المخدرات.

فســاد طبــي وتعليـمي

حتى المؤسّسة التي يُفترض بأنها تتصف بالإنسانية، وتحافظ على الأخلاق، أعني المؤسسة الطبية، لم تنج من الفساد الذي يفتك بالكيان الإسرائيلي؛ حيث استشرى فيها الفساد بصورة كبيرة، فقد تمّ ضبط ستة جرّاحين إسرائيليين بتهمة تقديم بحث علمي لمؤتمر طبي اعتماداً على تقارير كاذبة، كما أشار أحد التقارير التي نشرت نهاية العام الماضي إلى أن ٨٧٠ مريضاً أُخضعوا لتجارب غير قانونية في إحدى المستشفيات الإسرائيلية. كما تم اعتقال أربعة من كبار الأطباء الإسرائيليين بتهمة إجراء تجارب غير قانونية على المرضى، وذلك خلال شهر تشرين أول من عام ٢٠٠٦. كما كشف النقاب خلال العام الماضي عن تجارب طبية غير قانونية أجريت على ٦٠ مريضاً بداء السكري. وفي واقعة أخرى، جرى التحقيق في شهادة تشير إلى وفاة ٦ مرضى جرى إخضاعهم لتجارب طبية غير قانونية في الكيان الصهيوني، كما تمّ كشف النقاب عن عشرات التجارب غير القانونية التي تجري على المرضى المسنّين، وعن تزييف ملفات المرضى وتقديم معلومات غير صحيحة لوزارة الصحة. كما يتم اعتقال أطباء بتهمة تلقي الرشاوى لتحويل مرضاهم إلى فئران تجارب؛ كما وُجهت لائحة اتهام ضد طاقم طبي إسرائيلي بتهمة التنكيل بمتخلّفين عقلياً بمستشفى (اتينانيم) الإسرائيلي. وفي واقعة أخرى رُفعت دعوى

ضد مستشفى إسرائيلي لقيامه بإجراء تجارب على ممرّض من قبل طبيب محتال كان نزيل السجون.

ومثل القطاع الطبي، كذلك القطاع التعليمي الذي تكثر فيه عمليات بيع الشهادات المزورة وقيام العلاقات الشاذة بين المعلمين من الجنسين وبين طلابهم من الجنسين أيضاً.

إن كل ما قدمناه في الصفحات السابقة، مجرد نماذج عن الفساد المتجذّر والمسيطر على مكوّنات الكيان الصهيوني، ويجعله أكثر ضعفاً يوماً بعد يوم.

جريمة منظمة

في ظل هذا الفساد الذي يفتك بكل مكونات الكيان الصهيوني، ليس مستغرباً أن تنتشر الجريمة المنظمة في هذا الكيان، وأن تصبح الجريمة بكل أنواعها ملمحاً أساسياً من ملامح هذا الكيان، وخاصةً جرائم القتل حيث لم تتمكن الشرطة الإسرائيلية من كشف حوالي ٦٠٠ قاتل خلال الأعوام الأربع الماضية. ويقول تقرير نشر في الكيان الإسرائيلي: إنه خلال الربع الأول من عام ٢٠٠٦ وقع ٢٥٠ حادث طعن ،وسرقة عشرة آلاف سيارة، واقتحام ١٦ ألف منزل، في حين تحدثت أرقام عام ٢٠٠٥ عن ١٣ ألف قتيل ومصاب في ٧ آلاف حادث طريق، وتكثر في إسرائيل العائلات الإجرامية وتؤكد التقارير استفحال الجريمة المنظمة في الكيان الصهيوني.

وتتهم التقارير الحكومة الإسرائيلية بعدم جديتها في التعامل مع العنف المنتشر في الكيان الصهيوني بعد أن أشارت هذه التقارير إلى تعرض ألف امرأة للعنف، بالإضافة إلى مئات جرائم القتل خلال العام ٢٠٠٤. واللافت للنظر أن ممارسة الإجرام تشمل كل أعمار وفئات الإسرائيليين حيث تمّ الكشف أكثر من مرة عن عصابات يرأسها صبية وتتكون من صبيان أيضاً، كما تؤكد التقارير ارتفاع نسبة تورط ما يسمى بشبيبة إسرائيل بأعمال العنف.

وفي ظل هذا الانتشار للإجرام الذي يفتك بالكيان الصهيوني، تنوّعت الجرائم في هذا الكيان، غير أن أبرزها الجرائم المتعلقة بالاغتصاب والدعارة والمخدرات، ففي تقارير الشرطة أن طفلتين كانتا تتعرضان للاغتصاب من قِبل والدهما وشقيقيهما ، وأن الثلاثة كانوا يقدمون على اغتصاب الطفلتين بصورة منفصلة مع علم كل منهم بما يفعل الآخران، وهذا النوع من الممارسات يكثر في الكيان الصهيوني ويكشف مدى إفلاسه وانهياره.

وبسبب ارتفاع الجرائم الجنسية تتزايد نسبة المتوجهين إلى مراكز مساعدة ضحايا الاعتداءات الجنسية، ويشارك في هذا النوع من الجرائم مسؤولون كبار في الكيان الصهيوني، فلم تغب عن الذاكرة فضيحة رئيس الكيان الصهيوني كتساف، وكذلك مدير عام الرئاسة الإسرائيلية، كما أُدين زوج المليونيرة الإسرائيلية شيري آرسون بالاعتداء الجنسي، وتنتشر في الكيان الصهيوني الشبكات الدولية للاتجار بالنساء التي تجبر آلاف النساء على العمل بالدعارة داخل وخارج هذا الكيان. وتؤكد التقارير ارتفاع حالات الاغتصاب الجماعي والاعتداء الجنسي

في الكيان الإسرائيلي عاماً بعد عام، فقد ارتفعت عام ٢٠٠٥ بنسبة ٢٨ عن عام ٢٠٠٤، في حين ارتفعت حالات الاعتداء الجنسي عن نفس الفترة بنسبة ٢٥ وتشير الاحصاءات إلى ٥٠ من ضحايا الاعتداءات الجنسية هم من القاصرين. وخلال الفترة من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٥ وقع في كيان العدو سنوياً ما بين ٤٤٠ - ٦٠٠ اعتداء جنسي ١٥ منها داخل العائلة و ٦٠ من الضحايا من القاصرين.

لا يتسع المجال لسرد كل أنواع الجرائم التي تسيطر على الكيان الصهيوني وأسباب هذه الجرائم، ولكن الثابت أن الجريمة صارت ملمحاً ثابتاً من الملامح التي تضعف هذا الكيان وهذا الملمح مع كل ما أشرنا إليه فيما تقدّم، يؤشر على مدى ضعف وهشاشة الكيان الصهيوني اللذين تؤكدهما أرقام الاحصائيات وحقائق الواقع.

ثقافة الهزيمة تقلب الحقيقة

لقد كان من المفترض أن تنعكس هذه الحقائق، عن مدى ضعف كيان العدو وهشاشته وعوامل فنائه في مجمل إنتاج المثقفين في أمتنا واستثمارها في رفع الروح المعنوية لأبناء الأمة، وتعبئتهم لمواجهة هذا العدو ولزرع بذور الأمل فيهم، وتحريضهم على المقاومة، والتأكيد على قدرة الأمة على تحقيق النصر على عدوها الذي يأكله الفساد. غير أن ما جرى وخاصةً بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ عكس ذلك تماماً إذا انتشرت في أوساط الأمة ثقافة الهزيمة. وبرز كتابها وصارت شرائح واسعة من المحسوبين على ثقافة الأمة تنظر إلى كيان العدو ككيان قوي ومتماسك. وأنه واحة الديمقراطية والنموذج المميز في المنطقة من حيث العدالة والحرية والريادة، بل وصل الأمر إلى ما هو أخطر من ذلك، عندما صار بعض هؤلاء ينظر إلى اغتصاب فلسطين على أنه استقلال، فقد جاء على أحد المواقع الالكترونية العربية ما نصه: (اعترف الرئيس الأميركي هاري ترومان بدولة إسرائيل بعد الإعلان عن استقلالها بإحدى عشرة دقيقة. وكان هذا الاعتراف يبشر بإقامة علاقات على أساس قيم مشتركة تتسم بصداقة عميقة واحترام متبادل. ففي كلا البلدين نظام ديمقراطي نابض بالحياة وأرسيت أسس الأجهزة السياسية والقضائية في كليهما في تقاليد ليبرالية. ونشأ كلا البلدين من مجتمعين طلائعيين ولا يزال كلاهما يستوعب مهاجرين ويسعى إلى دمجهم في المجتمع)(١). وصار الكثيرون من الكتاب والمحللين السياسيين العرب يؤكدون تفوق إسرائيل على العرب مجتمعين، كما كتب الدكتور محمد السعيد إدريس من مركز الأهرام للدراسات الاستراتيجية يقول: (السؤال موجه إلى كل دولة عربية وإلى كل الدول العربية مجتمعة، إذا لم يكن في مقدور أي منها أن تكون قادرة بمفردها على موازنة القوة «الإسرائيلية» والتفوق عليها، وذلك في وقت شرعت فيه «إسرائيل» لأن تتفوق على مجموع القوة العربية ليس فقط في المجال العسكري، ولكن في المجالات المهمة الأخرى. وبالذات: الاقتصاد والتكنولوجيا. قد يتصور البعض للأسف، أن ما نعنيه هنا بـ «تفوق القوة» «الإسرائيلية» هو مجرد المكانة الرمزية أو الزعامية، لكنه يتعدى الجانب المعنوي إلى

الجانب المادي؛ أي السيطرة والتحكم وفرض النفوذ والتبعية سواء من منطلق وزن القوة والقدرة الإسرائيليتين» مقارنة بالقوة العربية، أم باعتبارها أي «إسرائيل»، وكيلاً إقليمياً للقوة العظمى الأمريكية، بما يعني أن الوطن العربي في مجمله، والدول العربية متفرقة معرضة لأن تكون منطقة سيطرة ونفوذ «إسرائيلي»).

وفي ظل هذا المنطق صار كيان العدو من وجهة نظر بعض المثقفين المحسوبين على أمتنا بيئة مثالية لكل صور التقدم؛ فقد نقل موقع مركز الدراسات الإسلامية عن مقال لماجد كيالي قال فيه: (وبالإجمال؛ فإن البيئة الإسرائيلية (برغم كل ما يحصل)، هي بيئة جاذبة للاستثمارات المالية وللكفاءات من المهاجرين اليهود في حين تبدو البيئة العربية (السياسية والاقتصادية والاجتماعية) بيئة غير جاذبة (بل طاردة) في هذين المجالين).

بل لقد ذهب بعض المحللين والكتّاب إلى محاولة ترسيخ صورة كيان العدو كدولة فوق الدول فقد كتب أحدهم يقول: (وبحكم تكوينها و«فلسفتها» «حل نهائي» للمسألة اليهودية، نقيض الحل النازي وطباقه) وذاكرتها المعاد بناؤها لخدمة مطلب الهوية المغلقة من تواريخ يهودية مفتوحة في الأصل، فإن إسرائيل دولة لا كالدول، دولة عليا: تبحث عن أمن مطلق)(٢).

ويستمر الضخ لترسيخ مفهوم التفوق الإسرائيلي إلى أن يكتب أحدهم: (بين أية دولة عربية وإسرائيل، بل بين الدول العربية مجتمعة وبين إسرائيل، فارق قوة نوعي، مضمون بكفالة أميركية معلنة ومعروفة، ترتفع إلى مستوى شرعة دولية راسخة)(٣)، ويمضي صاحب هذا الرأي إلى القول: (زبدة القول إن إسرائيل تجمع بين تفوقين: تفوق عسكري وتفوق أخلاقي. الأول تكفله لها القوة الحاكمة عالمياً، وهذه لا يستنفدها التعريف بلغة المصلحة وموازين القوى، ولا تعريف نظامها السياسي ودستورها ونمط حياتها (لعله من مجال الدين، ينبغي البحث عما يتيح لنا وصف هذه القوة) وتفوق أخلاقي «الفضل» فيه لألمانيا النازية)(٤).

جـزء مـن مكـوّن

لقد اعتمد هؤلاء في محاولتهم لترسيخ مفهوم تفوق كيان العدو في أذهان أبناء أمتنا على مكوّن واحد من مكوّنات قيام الدول هو المكون المادي، بل إنهم اعتمدوا على جانب واحد من الجوانب المادية هو جانب البحث العلمي، فقد نشر أحدهم على أحد منتديات شبكة الانترنت وتحت عنوان «أسرار تفوّق إسرائيل العلمي» يقول: (التفوق العلمي للكيان الصهيوني على العالم العربي أمر معروف لدى القاصي والداني وهو لا يقتصر على التطور العلمي في مجال الأسلحة بل يمتد إلى الجوانب العلمية والتقنية والأبحاث والتكنولوجيا..لكن أن يوازي هذا التقدم أو يفوق أحياناً دول العالم المتقدم (أمريكا، اليابان، الصين، فرنسا، ألمانيا) أمر وراءه حتماً أسباب ينبغي معرفتها وقراءاتها قراءة متفحصة لاكتساب الدروس وأخذ العبر)، وهذا ما ذهب إليه جمال زهران عندما كتب يقول: (ومنذ منتصف التسعينات زاد انفاق العرب على البحث العلمي

بحوالي النصف..ورغم ذلك، فإن هذا الانفاق لا يزيد [illegible] سبع المتوسط العالمي ١,٤ وبالمقابل يرتفع المؤشر في إسرائيل عن المتوسط العالمي إلى أعلى من ٢ أي أكثر من عشرة أمثال العرب، وإذا أخذنا في الاعتبار التفاوت في عدد السكان وفي حجم الناتج السنوي لاتسعت الفجوة بين العرب وإسرائيل في الإنفاق على البحث العلمي إلى أكثر من ٣٠ مثلاً وهذه المقارنة تقتصر على الأبحاث المدنية فلو أضفنا الإنفاق على الأبحاث العسكرية لتحولت الفجوة إلى هاوية).

ويكرّر نفس الفكرة في فقرة أخرى من مقاله حيث كتب: (ويزيد عدد العلماء في الدول العربية على خمسة أمثال عدد العلماء في إسرائيل، ولكن بالمقارنة بين عدد السكان تصبح إسرائيل أغنى..إن في العالم العربي ثلث عالم أو باحث لكل ألف من السكان وهو نصف المتوسط العالمي (٠,٨ في آلاف) وعشر المستوى في إسرائيل وهو ٣١٨ في الألف. ولا جدال أن يهود الشتات هم رصيد خارجي لإسرائيل يتميزون بمستوى التأهيل العلمي الراقي في الدول التي يعيشون فيها مثل الولايات المتحدة الأمريكية حيث تطور البحث العلمي واستقر وحسم الخلاف بين المعامل والمصانع)[٥] ويضيف: (ووفقاً لدليل النشر العلمي يتدنى نصيب البلدان العربية في عام ١٩٩٥ لأقل من سدس ما هو متوقع منهم في حين يرتفع نصيب إسرائيل من النشر العلمي إلى عشرة أضعاف ما هو متوقع منها وهنا يتعدى التفوق النسبي لإسرائيل عن العرب السبعين مثلاً)[٦].

إلى أن يقول: (ولم يتفوق على إسرائيل في مجال تسجيل براءات الاختراع سوى الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وسويسرا وتايوان، وبعد إسرائيل جاءت كوريا الجنوبية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا. إن هذه المؤشرات تعني أن تفوق إسرائيل علينا علمياً تجاوز تفوقها علينا اقتصادياً ففي الاقتصاد سبعة أمثال وفي العلم والتكنولوجيا أكثر من ألف)[٧]. ويضيف: (أما العامل الثاني الذي تتميز به إسرائيل، ويضفي عليها قوة مضافة تمكنها من استثمار مواردها (المادية والبشرية) بشكل أفضل، فيتمثل بطريقة إدارتها لأوضاعها ولمجتمعها، وبنظامها السياسي الديموقراطي (بالنسبة لمواطنيها اليهود). فبفضل هذه الإدارة وهذا النظام تتمكن إسرائيل من تجاوز نقاط ضعفها (محدودية المساحة وعدد السكان وعداء المحيط)، مثلما تتمكن من السيطرة على تناقضاتها ومشكلاتها الداخلية وتوجيهها للخارج، على عكس الواقع العربي الذي يعيد إنتاج علاقات الضعف والتهميش. وللمفارقة فإن التميز الإسرائيلي في هذا المجال هو ما تفتقده حال الكيانات العربية، وهو نقطة ضعفها بالقياس للإمكانيات الكبيرة التي تمتلكه: المساحة - الكثرة العددية - الثروة النفطية، عوامل تكوين الأمة)[٨]، ويمضي إلى القول: (اللافت أن إسرائيل هذه التي نشأت قبل عدة عقود، تبدو أكبر من حجمها وأكثر قوة من إمكاناتها وأفضل استقراراً من غيرها، خصوصاً بالقياس لحال الكيانات العربية السائدة على الرغم من تحديها وتناقضاتها الداخلية والخارجية، وبالذات على الرغم من تداعيات الصراع

العربي - الإسرائيلي...! عليها)[٩] ويضيف: (وما ينبغي الاعتراف به هنا هو أن إسرائيل على الأرجح مدينة بهذا التميز وبالقدرة على الاستقرار والتطور، إلى عاملين رئيسيين: الأول يتمثل بكيفية تأهيلها وإدارتها واستثمارها لمواردها البشرية على رغم محدوديتها العددية)[١٠]، ويضيف: (ينبغي الاعتراف بنقاط التميز الإسرائيلية لإدراك نوعية ومستوى التحديات التي تمثلها إسرائيل للواقع العربي للعمل لتداركها وتجاوزها)[١١] إلى أن يقول: (إن تحدي إسرائيل للعالم العربي لم يقتصر البتة على المجال العسكري فقط (ولا على التفوق الاقتصادي والتكنولوجي فحسب)، بقدر ما هو أيضاً نتاج التمايز في مجالات النظام السياسي وإدارة الموارد البشرية والمشاركة السياسية)[١٢].

نتـائج خطيـرة

على أن أخطر ما في هذا التوجه الثقافي والفكري الذي ساد في بلادنا هي النتائح التي توصّل إليها، وسعى لترسيخها في وجدان الأمة والمتمثل بترسيخ التفوق العسكري للعدو وباستحالة الانتصار عليه، بل إن أصحاب هذا التوجه لم يكتفوا بترسيخ تفوق العدو في هذه المرحلة من مراحل التاريخ، بل سعوا إلى مصادرة مستقبل الأمة عبر تأكيدهم باستحالة التفوق على العدو مستقبلاً، بل وباستحالة التعادل معه وفي هذا السياق يقول جمال زهران في المقالة التي سبق وأن أشرنا إليها: (إن العرب سيدخلون القرن الواحد والعشرين بحوالي ٧٠ مليون أمي غالبيتهم من النساء، سيدخلونه بعيداً عن النور في حالة من العمى المزمن، الذي يولد الخرافة والبطالة والتعنت والتعصب الأعمى والتكفير وغير ذلك، ويسد كل ثقوب التفاهم في لغة التخاطب مع العالم الذي نحن جزء منه شئنا هذا أم أبينا)[١٣].

ويختتم زهران بالقول: (وعندما نتغلغل في ادعاء هذه الحقائق؛ فذلك لأن العالم يعلنون أن الإنسان العربي لا يزال مفقوداً حتى إشعار آخر، وأننا في سباق الدنيا المجنون نحو الآفاق البعيدة نركب خيولاً خشبية نهتز عليها بعنف دون أن نتحرك من مكانها)[١٤].

هذا على الصعيد العام أما على الصعيد العسكري فيبلغ التيئيس ذروته حيث يصل جمال زهران إلى خلاصة مفادها أنه في ظل تفوق إسرائيل يصعب التفكير في سيناريو بديل يغيّر كثيراً في طبيعة الواقع الحالي، لكن الأمل يبقى في تصور قد يساهم في تغيير نمط الصراع (العربي - الإسرائيلي) يعتمد على تبدلات جذرية في النظام الدولي، والتفكير العربي بانتهاج الخيار النووي والاتجاه إلى التنسيق الفاعل، ما يقود إلى تسويات عادلة ودائمة للصراع (العربي - الإسرائيلي)[١٥].

ويشاركه في هذا الرأي كثيرون من بينهم فيصل الحوراني الذي كتب في بحث منشور على موقع السلطة الفلسطينية: (وإذا كان من غير المتوقع أن تتغلب المقاومة الفلسطينية على آلة

البطش الإسرائيلية في أي وقت، فإنه من المتوقع أن يؤدي استمرار المقاومة وتشديدها إلى تبديل المناخ السياسي الذي يجيز الآن لإسرائيل استخدام هذه الآلة دون ضوابط).

ويخلص الحوراني في هذا البحث إلى تأكيد استمرار تفوق العدد العسكري بقوله: (ولعل من الضروري على الدوام أن نستحضر الحقيقة المتصلة بالقوة العسكرية الإسرائيلية، فهذه ستظل متفوقة على قوة المحيط العربي كله، وفي المصادر الذاتية الإسرائيلية والدعم الخارجي لإسرائيل ما يكفي لتعويض أي نقص كمّي أو نسبي في تفوق إسرائيل العسكري، يستوي في هذا أن يضار التفوق الإسرائيلي بسبب جرأة المقاومة الفلسطينية أو نتيجة تطور القوات المسلحة العربية) إلى أن يسدّ الأمل أمام أي حل عسكري، ويعلق كل الآمال على ما يسمى بالحل السلمي: (فإن الأمل بتبديل سلوك إسرائيل لا يجد ما يسوغه إن استند هذا الأمل على حسابات الصراع بالسلاح وحده، أما الأمل الذي لم تسد طريق تحقيقه فهو الأمل الذي يعوّل على ما يبذله مقاومو الاحتلال في مجال التأكيد على أن التسوية هدف لا بد من تحقيقه حتى يتحقق الاستقرار للجميع، وهذا يعادل التأكيد على أن إسرائيل لن تتمتع بالاستقرار قبل أن تستجيب لمتطلبات التسوية، ومن أجل هذا لا يحتاج الأمر إلى قوة عسكرية جسيمة بمقدار ما يحتاج إلى تفعيل الوسائل التي في المتناول، وتأليب كل من يعنيهم الأمر ضد سلوك إسرائيل؛ أي ضد سياسة البطش بما هي سياسة تغيّب فرصة تحقيق الاستقرار، والواقع أن معالم التصور الفلسطيني لهدف الانتفاضة، إن لم ترتسم بكاملها منذ البداية فقد أخذت تتبلور بمضي الوقت وارتسمت في هذا الإطار: حرمان المحتل ومستوطنيه من الاستقرار وحمل القيادة الإسرائيلية على أخذ الشرعية الدولية بعين الاعتبار، والقبول باعتمادها مرجعاً لمفاوضات التسوية).

ولا يتردد الحوراني في الزعم بأن المقاومة تسعى لتحقيق هدف واحد فيقول: (لا مجال لمغالطة النفس، فللمقاومة هدف رئيس هو الهدف المطلوب حتى لو لم يتم الإفصاح عنه صراحة هو تصحيح مسار العملية السياسية، أو تصحيح الخطأ، فلن تجري أي مفاوضات مجدية أو يمكن أن تصير مجدية ما لم يستخدم الفلسطينيون وسائل الضغط المتيسرة لإرغام إسرائيل إرغاماً على التفاوض بجديّة والكفّ عن الختل، كما أنه لا مجال لمغالطة النفس في شأن آخر).

السخرية من المقاومة

وفي ظل هذا المنطق التيئيسي المبني على قناعة باستمرار تفوق العدو العسكري، ذهب أبناء هذه المدرسة التيئيسية وهي أهم تجليات ثقافة الهزيمة التي سادت في بلادنا إلى السخرية من المقاومة بكل أشكالها ورموزها ومصطلحاتها واعتبارها عملاً مجنوناً، وقد اخترنا في هذا المجال نموذجاً من نماذج ثقافة التيئيس ذهب صاحبه إلى القول: (تمادي فارق القوة ذاته على مستوى القوى المنظمة وحروب الدول هو السبب أيضاً وراء تقدم «الحرب غير المتوازية»، بما تتسم به هذه من «لا عقلانية»، تتبدى في «لا ارتداعية» المحاربين غير المتوازيين، ومن نزوع نحو

الحرب المطلقة، ورفض التسويات السياسية، ومن استناد إلى منطق الجهاد والاستشهاد، ومن توسل محتمل للإرهاب، أي الامتناع عن التمييز بين العسكريين والمدنيين الذي تقتضيه حروب الدول)[١٦]، ولا يتردد صاحب هذا الرأي في وصف المقاومة بالإرهاب وبأنها فائض الضعف العربي فيقول: (أصل «اللاتناسب» الإسرائيلي هو لا تناسب قوة إسرائيل مع محيطها، أو ما تحوزه إسرائيل من فائض مقارنة بالدول العربية. وأصل «الإرهاب» العربي فائض الضعف أو عجز الدول عن القيام بوظيفة سيادية أساسية، وظيفة الدفاع. وثمة أصل واحد لـ «الدولة العليا» الإسرائيلية ولمنظمات ما دون الدولة العربية، ولا نحتاج إلا إلى قواعد التفكير السياسي العادي لفهمهما معاً)[١٧]، بل إنه لا يتورع عن تفضيل المعتدي على المقاوم عندما يقول: (هل تشبه الدولة العليا منظمة إرهابية؟ لن نقول إلا أنهما تختلفان عن الدولة العادية بطريقتين متقاربتين جداً: لا تميزان بين المدنيين والعسكريين، لا ترتدعان، تؤسسان شرعيتهما على العقيدة، لا تعترفان بأصول للحرب، خارجتان على القانون)[١٨]، وهو يرى بأن المقاومة ليست أكثر من حصيلة اختلال عندما يقول: (يمكن النظر إذاً إلى انتقال الصراع العربي الإسرائيلي من أيدي الدول إلى أيدي منظمات دون الدولة، وحلول الحرب غير المتوازية محل الحرب النظامية، بأنهما حصيلتان للاختلال غير القابل للإصلاح لموازين لقوى العسكرية بين الدول العربية المشرقية وإسرائيل)[١٩]، وهو يسخر من العمليات الاستشهادية ويساوي بينها وبين جرائم قتل المدنيين فيقول: (في مواجهة التفوق المطلق الإسرائيلي، وتعذّر الحرب (والسياسة)، طور العرب سلاحاً مطلقاً لم يسبق أن عرفوه في تاريخهم: الاستشهادي.

ومثل السلاح المطلق الآخر، النووي، لا يميز سلاحنا هذا بين مدني وعسكري لا تناسب اللاتناسب)[٢٠]، بل إنه ينزع عن المقاومة وخاصةً الإسلامية صفة حركة التحرر في قوله: (فإن تنظيمات ما دون الدولة قائمة على أساس ديني حصراً، مع نزوع أصولي قوي. هل الصفة الأخيرة عارضة؟ بل هي محتومة وجوهرية فيما نرى)[٢١]، بل إنه يذهب إلى ما هو أخطر من ذلك عندما يعتبر المقاومة القائمة على أساس ديني، وهو هنا يتحدث عن المقاومة الإسلامية التي يعتبرها خطراً على المجتمع فيقول: (على أن المشكلة الخطيرة في مقاومات ما دون الدول أنها دينية في مجتمعات المشرق المتعددة الأديان، والمتعددة الإسلام أيضاً، ما يجعل منها، من حيث المبدأ ومهما أبدت من حرص، ضد المجتمع وليس ضد الدولة العاجزة فحسب)[٢٢].

بل يزعم أن حركات المقاومة محل استياء الناس حيث يقول: (والخلاصة العملية التي يمكن ترتيبها على ذلك، قد تنص على أن استعادة الصراع إلى الدول، وإلى العقلانية، يقتضي تمكن أو تمكين الدول هذه من تدارك عاهاتها السيادية، ومواجهة أعدائها بصورة فعالة. دون ذلك سيكون المشهد العربي مزيجاً من دول خانعة، لا تندرج خياراتها السلمية المعلنة في استراتيجية متكاملة لحل المشكلة الإسرائيلية، وبين منظمات ثائرة تبقى موضع استياء من قطاعات من الرأي العام

في البلدان المعنية)[٢٣].

سبيــل النصــر

لقد بنى أصحاب ثقافة الهزيمة المحسوبين على أمتنا نتائجهم وقناعاتهم حول تفوق العدو على مكوّن واحد من مكونات قيام الدول والمجتمعات، هو المكون المادي، بل إنهم بنوه على جانب واحد من هذا المكوّن هو ما أسموه بالتفوق العلمي، وقد فات أصحاب هذه المدرسة أن الأمم والشعوب والدول لا تقوم ولا تستمر بفعل مكوناتها المادية فقط مهما عظُمت هذه المكونات، وفي الماضي البعيد وفي الحاضر القريب. ما يؤكد هذه الحقيقة؛ فقد انهارت مهزومة إمبراطورتي قيصر وكسرى أمام جيوش المسلمين المكوّنة من الحفاة العراة رعاة الغنم، كما كان يصفهم القياصرة والأكاسرة، ولم يكن بين هذه الجيوش والامبراطوريات التي واجهتها أي توازن في موازين القوى المادية، ومع ذلك انتصر الأضعف مادياً على الأقوى مادياً. وفي العصر الحديث لم ينهر الاتحاد السوفييتي بسبب ضعف قوته العسكرية التي كانت تشكل قوة ردع للغرب كله، وفي مقدمته الولايات المتحدة الأمريكية كما أنه لم ينهر بسبب تخلفه العلمي، فقد كان ينافس الولايات المتحدة الأمريكية على غزو الفضاء.

لقد فات هؤلاء أن جيوش قيصر وكسرى انهزمت، وأن الاتحاد السوفييتي انهار، لأسباب أخرى هي عين الأسباب التي جعلت شرائط الإمام الخميني تنتصر على بطش السفاك وجبروت الشاه؛ فبالعقيدة وبالبناء المعنوي القائم على الحق، والساعي للعدل والحرية تقوم الدول وتنتصر الشعوب عندما تؤمن بقضية تجسدها في ثقافة كثقافة المقاومة التي ترى في عدوها مجرد بيت عنكبوت كما فعل سيد المقاومة السيد حسن نصر الله عندما رسّخ في أذهان مجاهدي حزب الله القناعة بأن إسرائيل ليست قوة إلا في أذهاننا فقط. وعندما يسقط هذا الوهم ونستخدم القوة الكامنة فينا سنجد أن هذا الكيان الذي اسمه إسرائيل أوهن من بيت العنكبوت، وهذا ما أثبتته التجربة سواء في انسحاب العدو أمام ضربات المقاومة من الجنوب عام ٢٠٠٠ أم في انتصارها المدوّي في حرب تموز ٢٠٠٦.

ملامــح الانتــصار

هذا الانتصار الذي بدأت ملامحه تظهر قبل وقف العمليات العسكرية من خلال تراكم الخسائر المادية العسكرية وغير العسكرية لدى العدو، حيث تمكن مجاهدو حزب الله من تدمير العشرات من دبابة ميركافا، وهي الدبابة الأحدث في العالم والتي كان العدو الإسرائيلي يفاخر بها ويدلل من خلالها على تفوق صناعته العسكرية قبل أن تباشر صواريخ المجاهدين قنصها وتدميرها، تماماً مثلما فعلت ببوارج العدو وزوارقه الحربية. كذلك لم تنج طائراته العمودية والنفاثة وتلك التي بدون طيار. بالإضافة إلى معدّاته الأخرى من جرافات وناقلات جنود وغيرها.

وهو ما ينطبق أيضاً على خسائر العدو المادية الأخرى متمثلة بقصف آلاف المنازل وعشرات المصانع والمتاجر.

وهو الذي عنى فيما عناه للكيان الصهيوني خسائر اقتصادية ضخمة، حتى زادت كلفة الحرب بالنسبة له عن ستة مليارات دولار أمريكي. وتمّ شلّ اقتصاده على الصعد السياحية والزراعية والصناعية بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ هذا الكيان، وخبراء الاقتصاد يعرفون ماذا يعني اقتصادياً إغلاق ميناء حيفا وترحيل صناعات كثيرة من مواقعها (٢٤). وقد عكس وزير مالية الكيان الصهيوني في الأسبوع الثاني للعدوان حجم الخسائر الاقتصادية الإسرائيلية عندما قال: *(إنه من المبكر الحديث عن تعويضات مالية لأن الحرب لا تزال بأولها وأضاف أنه إذا استمرت الحرب مدة أطول فإن الاقتصاد الإسرائيلي سيتكبد خسائر فادحة تؤثر على مكانته في الأسواق المالية العالمية)* (٢٥). لقد زاد من خسائر العدو الاقتصادية عملية النزوح الضخمة التي شهدها الكيان الصهيوني لأول مرة في تاريخه هرباً من صواريخ المقاومة. وقد توّج هذا النزوح بقيام حكومة العدو بإجلاء سكان مستعمرة كريات شيمونة رسمياً عنها. وهذا تحول خطير في تاريخ الصراع بين أمتنا وعدوها فقد اعتدنا في المواجهات السابقة على نزوح العرب وبقاء الإسرائيليين مستمتعين في منازلهم ومتاجرهم وحاناتهم. بل وعلى شواطئهم. ويزيد من أهمية هذا التحول أنه ترافق مع ضرب العمق الإسرائيلي بكثافة ولأول مرة في تاريخ الصراع بين أمتنا وعدوها.

بالإضافة إلى الخسائر المادية، فإن الخسائر البشرية شكلت هي الأخرى ملمحاً آخر من ملامح انتصار حزب الله على العدو فعلى الصعيد العسكري وصل عدد قتلى ضباط وجنود العدو إلى العشرات؛ مما جعل إسرائيل كلها في حالة صدمة وبكاء. ولعل في وصف مراسل إذاعة جيش العدو لمشهد من مشاهد الصدمة الإسرائيلية ما يكفي للتدليل على حجم الخسارة الإسرائيلية فقد قال هذا المراسل: *(إن السكان الذين ظلوا في كفار جلعاد قرب الحدود اللبنانية وقفوا حول الجثث مصدومين وبكوا فيما كانوا ينظرون إليها)* (٢٦).

وهو ما ينطبق على قتلاه من المستوطنين. أما الجرحى فقد دخلوا في خانة المئات سواء من الضباط والجنود أم من المستوطنين. وقد لخّص مصدر طبي إسرائيلي حجم خسائر إسرائيل البشرية عندما وصف هذه الخسائر في بنت جبيل بأنها فادحة، وهو ما قد تكرر في مواقع أخرى غير بنت جبيل.

الاعتراف بقدرات المجاهدين

ومن المؤشرات التي دلت على انتصار حزب الله على العدو الذي شنّ عدوان تموز اعتراف العدو المبكر بقدرة مجاهدي حزب الله فقد كتب المحلل السياسي الإسرائيلي ألون بن دفيد

يقول: *(نتحدث عن مئات المسلحين وجميعهم على درجة عالية من التدريب. تحركهم دوافع قوية ويقاتلون بشكل مستقل عن القيادة العليا لحزب الله. وهم يتحركون في شبكة من الخنادق والأنفاق على غرار ما كان يفعله الشيوعيون في فيتنام مما يتيح لهم الخروج لشن هجوم سريع بصواريخ الكاتيوشا أو البنادق ثم الاختباء مرة أخرى)*.

وهذا الاعتراف من محلل سياسي إسرائيلي بقدرة وكفاءة مجاهدي حزب الله، جاء انعكاساً لاعتراف ضباط وجنود جيش العدو الذين تجرّعوا مرارة الهزيمة على يدي مقاتلي حزب الله الذين تصدّوا لنخبة الجيش الإسرائيلي، ممثلة بوحدة رأس الحربة في لواء جولاني. وهو لواء النخبة في جيش العدو الذي نسجت حوله الأساطير. حتى التقى بمقاتلي حزب الله فجدعوا أنفه وقصموا ظهره. خاصة عندما أبادوا وحدة رأس الحربة في هذا اللواء. فقد قال ضابط في هذه الوحدة: *(إن الوحدة التي نفذت عملية ناجحة قبل أسبوعين في غزة دون أن تسجل في صفوفها أي إصابة قد تلقت ضربة قصمت ظهرها أثناء المعركة التي شهدتها تخوم بنت جبيل اللبنانية)* (٢٧). مثلما قال أحد ضباط هذه الوحدة: *(بأن وحدته أبيدت تقريباً وخرجت من ساحة الفعل العسكري معترفاً بأن جنوده يعانون من صدمة شديدة جراء الضربة التي نزلت بهم)* (٢٨).

وإذا كان ضباط وجنود لواء جولاني أو لواء النخبة كما يحلو للإسرائيليين تسميته قد اعترفوا بهزيمتهم أمام القدرات القتالية لمجاهدي حزب الله، فإن وضع سائر وحدات جيش العدو لم تكن أفضل. وقد عكست الاعترافات المنشورة لضباط وجنود الجيش الإسرائيلي رغم التضييق الإعلامي مدى خوف جنود العدو من مواجهة مجاهدي حزب الله. فقد نشرت مجلة تايمز اعترافاً لأحد جنود إسرائيل قال فيه: *(كان القتال معهم جحيماً، إنهم مدرّبون جيداً ليسوا ضعفاء كما كنا نظن، إنهم يعرفون كيف يقاتلون)*. وقال جندي آخر: *(عندما تكون هناك تكون خائفاً طوال الوقت، لم ننم طوال أسبوع)*. ووصف جندي ثالث الوضع بقوله: *(إنه وضع خاسر فهم مجموعة من الإرهابيين ونحن جيش نظامي لا يمكننا هزيمتهم)* (٢٩).

وقال جندي من كتيبة رافيت: *(القتال كان مخيفاً، هذه حرب حقيقية مقاتلو حزب الله قاتلوا جيداً، سنعود وأنا خائف مثل أي أحد آخر، لكنني مدرك أن لدينا عملاً نؤدّيه)* (٣٠). وهذه الاعترافات لضباط وجنود العدو تجعلنا لا نستغرب فشل كل عمليات الإنزال التي قام بها العدو حتى في المناطق المدنية. كما تجعلنا لا نستغرب عدم قدرة إسرائيل على البقاء في أي بقعة أعلنت احتلالها سواء في بنت جبيل أو مارون الراس أم غيرها.

انهيار الروح المعنوية للعدو

رافق هذه الاعترافات ملمح آخر من ملامح انتصار المقاومة الإسلامية، تمثل بانهيار الروح المعنوية للإسرائيليين على صعيد الجيش الذي أصيب الكثير من أفراده بحالات هستيريا وانهيار

عصبي. وامتنع الكثيرون منهم عن الالتحاق بالحرب على لبنان خوفاً من مواجهة مجاهدي حزب الله. وهو الأمر الذي ينطبق على المستوطنين من حيث انهيار الروح المعنوية، والإصابة بحالات الهستيريا والانهيارات العصبية، مما ساهم في بدء تصدع الجبهة الإسرائيلية الداخلية. وخروج مظاهرات تطالب بوقف الحرب في قلب تل أبيب. ثم في تراجع شعبية رئيس وزراء إسرائيل ووزير حربه؛ وتعالي الأصوات بضرورة المحاسبة، وتنبؤ المحللين بزلزال سياسي سيضرب إسرائيل نتيجة لهزيمتها في الحرب. وهو ما تحقق خلال العام المنصرم سواء من خلال الاستقالات التي شهدها جيش العدو وفي مقدمتها استقالة رئيس أركانه دان حلوتس بالإطاحة بوزير الحرب عمير مرتيس أم من خلال تقرير لجنة فينوغراد.

تفوّق استخبـاري وإعـلامي

ومن ملامح الانتصار الذي حققته المقاومة الإسلامية على العدو خلال عدوان تموز وآب التفوق الاستخباري لحزب الله على العدو وهذه قضية مهمة، فقد تمّ تصوير الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية على أنها قادرة على كل شيء. وأنها تعرف كل شيء. وإذا مواجهاتها مع حزب الله تثبت فشلاً استخبارياً ذريعاً لهذه الأجهزة، اعترف به العدو نفسه. وقد تجلى هذا الفشل الاستخباري الإسرائيلي بالمفاجأة التي أصيب بها العدو من حيث إمكانيات حزب الله القتالية والتسليحية. خاصةً على صعيد شبكة الصواريخ ومنصاتها. وعلى صعيد شبكة الأنفاق. مثلما فشل العدو في تحديد أي موقع من مواقع أي قائد من قادة حزب الله. ولم يقف الأمر عند فشل العدو في اختراق حزب الله. بل لقد انقلب الأمر، فإذا حزب الله هو الذي يخترق العدو استخبارياً. بدءاً من اختراق شبكة اتصالاته، وصولاً إلى الوصول إلى المكالمات الهاتفية بين جنود وضباط العدو. إضافةً إلى كم هائل من المعلومات الاستخبارية التي اعترف العدو بحصول حزب الله عليها، وهذا بدوره يشكّل تحولاً هاماً في سجل الصراع بين أمتنا وعدوها، ويؤسّس لانتصارها النهائي عليه. ومثل التحول على الصعيد الاستخباري كذلك الأمر على الصعيد الإعلامي فقد أثبت إعلام حزب الله تفوقه ومصداقيته التي عزّزتها مصداقية السيد حسن نصر الله الأمين العام للحزب. وهي المصداقية التي اعترف بها العدو بوضوح. ويكفي أن العدو عجز رغم كل محاولاته عن إيقاف قناة المنار.

تراجـع عن تحقيـق الأهـداف

على أن من أهم ملامح انتصار حزب الله على العدو تراجع هذا العدو وحلفائه وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية عن مطالبهم وشروطهم التي أعلنوها عند بدء العدوان. وأهمها اجتثاث حزب الله بعد نزع سلاحه. وهو الأمر الذي اعترف قادة العدو السياسيون والعسكريون باستحالة تنفيذه. فقد قال أحد وزراء إسرائيل في اليوم الأول من آب: *(إنه ليس هناك أي امكانية*

لتدمير صواريخ حزب الله كلها)[٢١]. من جانبه استبعد العقيد احتياط في الجيش الصهيوني موشيه اليعاد في تصريحات صحافية أن تحقق الحملة العسكرية الإسرائيلية في لبنان هدفها بشكل كامل وقال: *(إن الجيش الإسرائيلي لن يتمكن من تدمير ترسانة حزب الله)*[٢٢]. واستمر التراجع الإسرائيلي الأمريكي عن أهداف الحملة العدوانية على لبنان حتى تقلصت إلى ما وصفه المحللون السياسيون بمحاولة إنقاذ رئيس الوزراء الإسرائيلي يهود أولمرت.

الاعتـراف بالهزيمـة

وإذا كانت الملامح السابقة قد تحتمل الجدل عند البعض، فإن الذي لا يحتمل الجدل هو ما يسمّيه أهل القانون بسيد الأدلة؛ أعني الاعتراف فقد توالت اعترافات قادة العدو السياسيون والعسكريون والإعلاميون بالهزيمة، حتى قبل أن تضع الحرب أوزارها فقد قالت وزيرة خارجية إسرائيل: *(ليس هناك أي جيش في العالم بقدرته نزع سلاح حزب الله بالوسائل العسكرية فقط)*.

- أما رئيس أركان الجيش الإسرائيلي دان حالوتس الذي قدم استقالته على خلفية هزيمة جيشه فقد قال: *(بهجوم بري على لبنان في الأيام الأولى. كنا سنجد أنفسنا مطرودين وخائبين؛ لأنه كان علينا أن نبني أيضاً الحملة البرية)*.

- أما زئيف شيف المحلل العسكري الإسرائيلي فقد كتب يقول *(على الدولة أحياناً أن تتلقى صفعة حتى تستيقظ للواقع الذي تغير من حولها)*.

- وكتب أري شفيط في صحيفة هآرتس: *(من أجل منع هزيمة إسرائيلية محدودة يجب أن نعرّف الوضع تعريفاً دقيقاً. في البدء يجب أن نحدد المشكلة الشديدة الإلحاح: فشلت إسرائيل في المراحل الثلاث الأولى من حرب ٢٠٠٦، فشل الهجوم الجوي وفشل الهجوم البري المحدود، وفشلت أيام الإحجام والارتباك بعد بنت جبيل، ونتاج ذلك، أصبحت إسرائيل ترى عاجزة إزاء منظمة ضمن دولة تضربها مرة تلو أخرى .. إلى أن يقول: إذا لم تكن إسرائيل قادرة على الدفاع عن سيادتها وعن مواطنيها في وجه حزب الله لمدة أسابيع طويلة. فإن الانطباع الذي ينشأ هو أنها أصبحت دولة لا يمكن الدفاع عنها)*.

- أما بوسي بن هاليفي من مركز شاليم للأبحاث فكتب يقول: *(إن أولمرت بدأ هذه الحرب بتأييد شعبي مطلق تقريباً.. وينهي هذه الحرب وخلفه أمة منهكة وجريحة تشعر أنها بلا قيادة ورغم التأييد الذي أبداه حلفاء أولمرت، فإن الإسرائيليين أبعد ما يكونون عن الاقتناع بأن الحرب انتهت بالنصر)*.

- أما الجنرال موفاز رئيس الأركان السابق للجيش فقد دعا الحكومة الإسرائيلية للاعتراف بالهزيمة التي لحقت بها.

وهذا الفيض من اعترافات قادة العدو هو الذي أدى إلى تشكيل لجنة فينوغراد للتحقيق في أسباب الهزيمة. وهل بعد النتائج التي توصلت إليها هذه اللجنة من جدل حول الانتصار الذي حققته المقاومة الإسلامية، ممثّلة بحزب الله على العدو الإسرائيلي، وهو الانتصار الذي عنى فيما عناه انتصار العقيدة العسكرية لحزب الله، وهي العقيدة التي عززت حقيقة عدم إمكانية كسب الحروب من الجو. مهما كان حجم الدمار الذي تلحقه الطائرات. وهذه النتيجة مهمة جداً في المواجهات المستقبلية بين أمتنا وعدوها فقد كان هذا العدو يراهن دائماً على سلاحه الجوي الذي لم ينفعه شيئاً في مواجهته مع حزب الله إلا أنه زاد من صورة العدو وضوحاً من حيث حجم الإجرام والهمجية التي يتصف بها، والتي تجسدت في التدمير الممنهج للمنشآت المدنية في لبنان بعد أن عجز عن مواجهة مقاومته في ميدان المعركة.

ضرب المشروع الأمريكي

لا تقتصر أهمية الانتصار الذي حققته المقاومة الإسلامية في حرب تموز ٢٠٠٦ على أنها منعت العدو من تحقيق أهدافه المعلنة وغير المعلنة في لبنان، وإجباره على الاعتراف بهزيمته بل إن قيمتها المضافة أنها شكلت ضربة قوية وموجعة للمشروع الأمريكي في المنطقة بعد أن راهن أصحاب هذا المشروع على ولادة الشرق الأوسط الجديد وفق المقاييس الأمريكية من رحم العدوان على لبنان وعلى أنقاض مقاومته.

ويزيد من قوة هذه الضربة للمشروع الأمريكي أنها جاءت بالتزامن مع أمرين الأول تعثره المستمر في العراق، والثاني اطمئنانه إلى نجاحاته على صعيد قضية فلسطين وتنامي خط الاستسلام على صعيد المواجهة مع العدو الصهيوني، حتى لقد كان لافتاً للمراقبين أن الرئيس الأمريكي بوش الابن لم يتطرق في خطابه عن حالة الأمة الذي ألقاه في كانون الثاني عام ٢٠٠٤ لما يسمى بمسيرة السلام بين العرب وإسرائيل ولو بكلمة واحدة. وبعدم حديثه عن الصراع العربي الإسرائيلي وتجاهله لما يسمى بمسيرة السلام كان أبلغ من كل كلام. فكل المؤشرات على الأرض كانت تشير إلى أن الصراع العربي الإسرائيلي لم يعد مشكلة رئيسية بالنسبة للإدارة الأمريكية ورئيسها. فقد حسم الرجل موقفه وموقف بلاده. وتخلى عن دور الوسيط النزيه الذي حاول بعض العرب إلزامه به متجاهلين موقفه الحقيقي والمعلن شريكاً كاملاً لإسرائيل. وحامياً لأمنها ومخططاتها. ومبشراً بنبوءاتها التي تحكم اليمين الأميركي المتطرف، والمتصرف بالقرار السياسي الأمريكي. والمؤمن بصراع الحضارات والمبشر بمعركة هيرمجدون. فبوش الابن يسير على خطى أبيه وأمه بربارة، ومن قبلهما الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان. فجميع هؤلاء من أتباع المسيحية الصهيونية التي تؤمن بإسرائيل الكبرى. وبأن المعركة النهائية ستقع على أرض فلسطين. وقد كانوا يتمنون بأن يكونوا من جنودها المخلصين. وهذه ليست مجرد أوهام. ولا تكهنات ولكنها اعترافات وأمنيات أعلنوها أكثر من مرة. وبأكثر من صورة من

صور الصراحة التي لا تحتمل اللبس .

لقد استطاعت السياسة الأمريكية بتوجهها الصهيوني من خلال استثمارها لرمي النظام الرسمي العربي لكل أوراقه على طاولتها أن تجرد الصراع في فلسطين من كل ابعاده. وكان أول ذلك تجريد الصراع من بعده الإسلامي. ثم من بعده القومي بحجة القرار الوطني المستقل. ثم من بعده الوطني بحجة إصلاح السلطة الوطنية الفلسطينية. وبهذه الحجة حولت الصراع إلى صراع فلسطيني فلسطيني حول صلاحيات رئيس السلطة ورئيس الوزراء ، وحول الجهة التي تتبع لها الأجهزة الأمنية، كما نجحت هذه السياسة في خلق حالة من الاحتراب العربي العربي. فحاصرنا السودان بقرار أمريكي. وحاصرنا ليبيا بقرار أمريكي. وحاصرنا العراق بقرار أمريكي. وأعلنا الحرب على كل خلية مقاومة في جسد الأمة بدعوى محاربة الإرهاب الذي لا نعرف له حتى الآن تعريفاً نحتكم إليه.

منــع تدميــر المقاومــة

وسط ذلك كله جاء انتصار المقاومة الإسلامية على العدوان الذي شُن على لبنان في تموز ٢٠٠٦ ليشكل ضربة للنجاحات الأمريكية على صعيد قضية فلسطين؛ وهي النجاحات التي أراد أن يبني بها وعليها مشروعه للشرق الأوسط الجديد ، ففي هذا الإطار جاء العدوان على لبنان بهدف تدمير واحدة من أهم مراكز مقاومة الأمة لأن المشروع الأمريكي يريدها أمة مستسلمة لا مقاومة لديها. وهو الهدف الذي منع الانتصار الذي حققته المقاومة عبر عدوان تموز ٢٠٠٦ الذي يصلح لدراسته كنموذج لمعرفة حقيقة مواقف الولايات المتحدة الأمريكية من مجريات الصراع في المنطقة، وحقيقة مشروعها لهذه المنطقة، دون مساحيق تخفي هذه الحقيقة أو تخفف من حدتها. كما أنه يصلح نموذجاً لمعرفة آليات مواجهة المخططات الأمريكية للمنطقة فوسط الركون الأمريكي للنجاحات التي حققتها السياسة الأمريكية في تركيع النظام الرسمي العربي وإبقائه في حالة لهاث مستمر خلف سراب السلام الموعود ، كان يجر الأعداء لمرحلة جديدة من مراحل الحرب الأمريكية على الأمة بهدف القضاء على مواقع المقاومة فيها وفي الطليعة منها المقاومة الإسلامية في لبنان. فجاء عدوان تموز وهو عدوان أمريكي على المقاومة الإسلامية في لبنان بدأه بالنيابة عنها حليفها الاستراتيجي أعني الكيان الصهيوني، وهو ما أشارت إليه أوساط كثيرة في الغرب، من بينها صحيفة (الإندبندنت) البريطانية التي كتبت تقول: *(هناك مؤشرات مقلقة بأن واشنطن تنظر إلى إسرائيل باعتبارها تحارب نيابة عن الولايات المتحدة ضد أعدائها الإقليميين في الشرق الأوسط سوريا وإيران)*. كما لم يخف الانتجاه اليميني من المحافظين الجدد الذين يحكمون الولايات المتحدة الأمريكية رأيهم بأن الحرب على لبنان ليست أكثر من حرب أمريكية بالوكالة طرفاها على الأرض إسرائيل وحزب الله.

ولكن عندما أدركت الولايات المتحدة الأمريكية أن وكيلها في الحرب؛ أعني الكيان الصهيوني

غير قادر على تحقيق أهدافها دخلت هي الحرب بصورة مكشوفة ومباشرة، وكانت بداية هذا الدخول أعلن الكونغرس الأمريكي تأييده الكامل لإسرائيل ثم أخذت المشاركة الأمريكية في العدوان على لبنان أشكالاً مختلفة منها:

- تزويد إسرائيل بالصواريخ العنقودية الانشطارية، وتسريع عملية إرسال المزيد من القنابل الموجهة بالليزر.

- التسريع بإرسال صواريخ إم ٢٦. التي تطلق ضمن صليات. ويحمل كل صاروخ منها مئات القنابل الصغيرة التي تنتشر ثم تنفجر في مساحة واسعة.

- تزويد إسرائيل بأكثر الطائرات القتالية تطوراً في العالم من نوع إف - ٢٢ (المتملصة) والتي لا يمكن اكتشافها بواسطة أجهزة الرادار، والمزودة بصواريخ جو - جو وقنابل ذكية. وقد تم تزويد إسرائيل بهذه الطائرة بعد تسع سنوات من حظر بيعها وفق قرار من مجلس النواب الأمريكي، ويبلغ ثمن هذه الطائرة ١٥٠ مليون دولار، وحسب مصادر أمريكية وكما جاء في نيويورك تايمز فإن قرار تزويد إسرائيل بالأسلحة تم بسرعة وبعد مناقشات بسيطة وسريعة داخل الحكومة الأمريكية.

- لم تتوقف المشاركة الأمريكية المباشرة في العدوان على لبنان عند حدود تزويد إسرائيل بالأسلحة المتطورة، بل ذهبت واشنطن إلى حدود المساهمة في توجيه العمليات العسكرية وتوقيتها وتحديد أهدافها، فبحسب المصادر الصحافية فإن مسؤولين أمريكيين ذكروا (أن واشنطن وتل أبيب اتفقتا على مواصلة القصف على أهداف لحزب الله لمدة اسبوع آخر لتقويض القدرات العسكرية للحزب).

- كما سعت الولايات المتحدة الأمريكية لكسب الوقت لصالح إسرائيل حتى تتمكن من تحقيق أهدافها. لذلك تصدت بقوة لضغوطات غالبية الدول التي شاركت في مؤتمر روما لمنع المؤتمر من إصدار قرار بوقف إطلاق النار، فلم تخفِ وزيرة الخارجية الأمريكية معارضة بلادها للدعوة إلى وقف فوري لإطلاق النار حيث قالت: (نريد وقف العنف بشكل ملح - بشرط أن يتم ذلك- على أساس أن يكون دائماً هذه المرة، لأن هذه المنطقة شهدت الكثير من إعلانات وقف إطلاق النار التي خرقت). وأوضحت رايس (أنه يتعين السعي إلى هدنة متى تكون الظروف ملائمة لذلك) وقالت (يجب أن يكون لدينا خطة تهيئ فعلياً ظروفاً تمكن من وقف لإطلاق النار بكونه قابلاً للاستمرار). لقد أجمعت جميع المصادر وجميع الأطراف على إصرار واشنطن على كسب الوقت لحساب إسرائيل. وقد لخصت صحيفة الغارديان البريطانية ذلك عندما كتبت تقول: (إن إدارة بوش وبدعم من بريطانيا أعاقت الجهود داخل مجلس الأمن وخلال قمة الثماني للدول الصناعية الكبرى في سانت بطرسبورغ واجتماع وزراء خارجية الدول الأوروبية في بروكسل للمطالبة بوقف مباشر للاقتتال). ونسبت الغارديان إلى مسؤول أوروبي بارز قوله: (من الواضح أن الأمريكيين

أعطوا الضوء الأخضر للإسرائيليين لمواصلة هجماتهم فترة أطول). وقد شعر الأمريكيون بعدم رضى الأطراف الأخرى عن سياساتهم بكسب الوقت. وهو ما عبر عنه مسؤول أمريكي بارز بحسب جريدة الرأي الأردنية الصادرة يوم ٢٠-٧-٢٠٠٦ عندما قال: (بأن الأطراف ليست راضية جميعاً عن الموقف الأمريكي موضحاً: (نحن حذرون للغاية حول كيفية التحدث عن المسألة). وأضاف أن الولايات المتحدة تقول لإسرائيل: (إن هناك حداً للوقت الذي سيسمح لها فيه بمواصلة ما تقوم به حالياً).

- رفض الإدارة الأمريكية المتكرر لوقف إطلاق النار إلا من خلال شروط صعبة لم يكن حزب الله ليقبل بها فقد امتنع الرئيس الأمريكي جورج بوش في لقاء مع رجال أعمال في ميامي عن المطالبة بوقف فوري لإطلاق النار في لبنان، وقال (إنه يعمل على خطة في مجلس الأمن لمعالجة المشكلة من جذورها). وقد حاولت رايس فرض هذه الشروط الصعبة لوقف النار في لبنان عندما قالت: (لن يكون هناك وقف لإطلاق النار قبل إطلاق سراح الجنديين دون شرط، وانسحاب قوات حزب الله مسافة ٢٠ كيلومتراً من الحدود)، وقد كررت ذلك عندما قالت: (إن العنف في الشرق الأوسط سيتواصل لفترة من الوقت حتى بعد تبني قرار من مجلس الأمن حول وقف لإطلاق النار). وهو ما عادت وأكدت عليه في مؤتمر صحافي قالت فيه: (نحن نحاول أن نعالج مشكلة تتفاقم في لبنان منذ سنوات وسنوات لذلك فإنها لن تحل بقرار واحد من مجلس الأمن). ثم عادت وقالت: (إن الولايات المتحدة تعتقد أنه ينبغي أن يكون هناك وقف لإطلاق النار بين إسرائيل وحزب الله في لبنان بأسرع ما يمكن ولكن حينما تكون الظروف مواتية). أما (جون بولتون) مندوب الولايات المتحدة الأمريكية في الأمم المتحدة حينها، فقد قال في هذا السياق: (من الصعب للغاية أن يفهم ممن يطالبون بوقف إطلاق النار كيف يمكن وقف إطلاق النار مع منظمة إرهابية مثل حزب الله). وأضاف: (لست واثقاً من أن المفهوم التقليدي لوقف إطلاق النار يكون له أي معنى عندما نتعامل مع جماعة إرهابية تطلق الصواريخ على سكان مدنيين وتختطف إسرائيليين أبرياء). وهو نفس الموقف الذي أكده (توني سنو) المتحدث باسم البيت الأبيض عندما قال: (وقف لإطلاق النار يترك بنية أساسية إرهابية سليمة ليس مقبولاً). وأضاف: (عندما يحدث وقف لإطلاق النار..سيفسر حزب الله ذلك على أنه نجاح لأساليبه). وقد انعكس هذا الموقف الرسمي الأمريكي في تصريحات الكثيرين من العاملين في المؤسسات الأمريكية الأخرى. فمن جانبه قال جيفري وايت من معهد واشنطن للشرق الأدنى (إن الولايات المتحدة لا تضغط من أجل وقف سريع لإطلاق النار؛ لأن ذلك سيحد من قدرة إسرائيل على إلحاق أضرار أكبر بإمكانات حزب الله). أما (ماري روز عوكر) رئيسة اللجنة العربية الأمريكية لمناهضة التمييز فقالت: (لم يدع الرئيس بوش ووزيرة الخارجية رايس أو وزير الدفاع رامسفلد في أي وقت لوقف إطلاق النار في لبنان. بل على العكس شجعت إدارة بوش أعمال العنف بإرسالها شحنة

عاجلة من القنابل إلى إسرائيل حيث أعطت هذا البلد الضوء الأخضر لمواصلة قصفه العشوائي على لبنان).

- تبني مطالب إسرائيل وفي سياق المشاركة الأمريكية في عدوان تموز على لبنان كان من الطبيعي تبني واشنطن لمطالب إسرائيل، وتسعى لجعلها مطالب المجتمع الدولي، وأول هذه المطالب نزع سلاح حزب الله الذي حملته واشنطن مسؤولية اندلاع الصراع. عندما قال المتحدث باسم البيت الأبيض توني سنو: (إن حزب الله هو الذي بدأ الصراع وينبغي لسوريا وإيران أن تستخدما نفوذهما لوقفه مشيراً إلى هجمات حزب الله على إسرائيل انطلاقاً من لبنان)، ليطالب المندوب الأمريكي في مجلس الأمن (جون بولتون) بنزع سلاح الحزب عندما قال:(إنه يتعين على المجلس التركيز على نزع سلاح ميليشيات حزب الله). وهو الموقف الذي سبقه إليه الرئيس بوش ووزيرة خارجيته كوندليزا رايس.

- وممّا يؤشر أيضاً على أن العدوان على لبنان هو عدوان أمريكي نفذته إسرائيل أن واشنطن سعت إلى استغلال هذا العدوان لتصفية حساباتها مع بعض خصومها في المنطقة، وخاصة سوريا وإيران اللتين اتهمتهما واشنطن بأنهما وراء حزب الله، فقد قال مساعد وزيرة الخارجية للشؤون السياسية نيكولاس بيرنز: (إن إيران أوجدت حزب الله في ١٩٨٢ وموّلته وزودته بالصواريخ بعيدة المدى التي تسقط حالياً على شمال إسرائيل. علينا أن ننظر إلى هذا النزاع ليس على أنه نزاع بين حزب الله وإسرائيل وعلى أنه نزاع حدودي، إنه نزاع أوسع لأن إيران تعمل بشكل مخالف لتطلعاتنا جميعاً إلى الاستقرار والسلام في الشرق الأوسط، وإن إيران وسوريا دفعتا حزب الله إلى شنّ هذا الهجوم على إسرائيل).

- ومن هذا الفهم طالبت واشنطن إيران بوقف دعمها لحزب الله عندما قال الرئيس الأمريكي: (إيران لا بد أن تضع حداً لدعمها المالي للجماعات الإرهابية مثل حزب الله وتزويدها لتلك الجماعات بالسلاح). وفي مناسبة أخرى قال بوش: (سوريا وإيران ترعيان أنشطة حزب الله وحماس وتدفعان بهما قدماً بغية إثارة الفوضى، بغية استخدام الإرهاب لوقف تقدم الديمقراطية).

ولم تتوقف الولايات المتحدة الأمريكية عند حدود مطالبة سوريا وإيران بوقف دعم حزب الله، بل ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك، عبر الدعوة لمعاقبتهما فقد نقلت صحيفة الحياة الصادرة في لندن يوم ٢٠٠٦/٨/٨ عن مسؤول أمريكي قريب من مجلس الأمن القومي الأمريكي قوله: (إن بوش يعتبر إيران وسوريا مسؤولتين عن إحباط المشروع الديمقراطي في العراق فيما يسعيان اليوم لإحباط الحكومة اللبنانية المنتخبة، ويساهمان في تصعيد الأوضاع في العراق وفلسطين من خلال دعمهما للإرهاب) وأضاف: (إن الرئيس الأمريكي يرى ضرورة معاقبة النظامين الحاكمين في دمشق وطهران لكنه يصطدم بعوائق دبلوماسية ولوجستية فيما دخل

الوضع في العراق مرحلة محرجة).

وهذا الموقف الرسمي الأمريكي انعكس في العديد من التحليلات الأمريكية، فقد دعت صحيفة (واشنطن بوست) إلى معاقبة سوريا وإيران عندما كتبت: (إنه حتى وإن عوقب حزب الله في بلده سياسياً. فإن المشكلة التي تكمن وراء هذه الأحداث ستظل. ألا وهي إيران وسوريا اللتان ترعيان حزب الله). وطالبت الصحيفة مجلس الأمن بمحاسبة إيران ليس فقط على تخصيبها لليورانيوم، ولكن أيضاً على دعمها لحزب الله وتجديد الضغوط الدولية على دمشق التي تؤوي حماس وحزب الله. بما فيها فرض عقوبات عليها.

أما (جاريت أيفانز) المختص بشؤون الشرق الأوسط: فقد قال: (إذا رفض حسن نصر الله وضع قوات دولية في جنوب لبنان ستضطر إسرائيل إلى قصف مواقع عسكرية في سورية). وهو نفس ما دعا إليه المحلل الأمريكي الترمان: عندما قال: (إن واشنطن ستقبل ضمنياً شن غارة جوية إسرائيلية على سوريا لتبعث برسالة بتحميلها مسؤولية ما حدث. ويخاطر مثل هذا الهجوم باختبار تعهد إيران بالدفاع عن سوريا).

وقد مارست الولايات المتحدة الأمريكية تهديدها فعلياً. عندما أعلنت أنها فرضت عقوبات على سبع شركات أجنبية من بينها شركة تصنيع الطائرات الحربية الروسية (سوخوي) بسبب تزويدها إيران بمعدات يمكن استخدامها في تطوير أسلحة دمار شامل وشركة إنتاج الأسلحة الروسية (روسبور وتكسبورت) وشركتين هنديتين وشركة كوبية وشركتين كوريتين شماليتين.

إن هذا الانحياز الأمريكي المكشوف لإسرائيل ومشاركتها في العدوان على لبنان لم يثر سخط جماهير العرب والمسلمين فقط، بل كان محل انتقاد جهات أمريكية عديدة وهو ما عبّر عنه بوضوح (دينيس روس) مبعوث الرئيس الأمريكي السابق بل كلنتون لـ (الشرق الأوسط) عندما قال: (ساهم عدم التدخل في تدهور الأمور بوضع الولايات المتحدة في موقف لا تملك فيه نفس الثقل الذي كانت تحظى به).

أما (دانيال بنجامين) المحلل المختص بشؤون الشرق الأوسط في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية فقد قال: (ستكون هناك فكرة قوية بأن الولايات المتحدة لم تظهر اهتماماً كافياً بالضحايا المسلمين)، وأضاف (لا شك أننا لا نكسب أي أصدقاء جدد في المنطقة باستثناء إسرائيل).

أما نائب رئيس المركز الأمريكي لدراسات الأمن القومي والسياسة الدولية فقد حمّل الولايات المتحدة مسؤولية احتدام الوضع في الشرق الأوسط، مؤكداً أن الاعتداءات الإسرائيلية على لبنان أدّت إلى إثارة غضب المسلمين في العالم بأسره، وخلقت جيلاً جديداً من الشباب العرب الناقمين على الولايات المتحدة وإسرائيل. وأشار إلى أن إدارة البيت الأبيض الحالية أظهرت ضعفها منذ البداية، وأن الرئيس جورج بوش لا يسيطر على سير الأحداث في المنطقة.

تحذيـر مـن الخسـارة

لقد حذر عدد من النواب الأمريكيين من الحزبين الرئيسيين الجمهوري والديمقراطي الولايات المتحدة وإسرائيل من مغبة خسارتهما للرأي العام العالمي كثمن للدمار الذي يلحقه العدوان الإسرائيلي المدعوم من الولايات المتحدة على الشعبين اللبناني والفلسطيني.

ومجمل هذه الانتقادات الأمريكية لأداء إدارة بوش أثناء عدوان تموز ٢٠٠٦ على لبنان تؤشر إلى حجم الفشل الذي لحق بالمشروع الأمريكي للشرق الأوسط الجديد، مما حرّك الحريصين على هذا المشروع للتنبيه للخسائر التي قادت إليها رعونة بوش وإدارته، وهو الأمر الذي يجب أن يحرّك الحريصين على مستقبل أمتنا للبناء على الإنجاز الذي حققه حزب الله في مواجهة المشروع الأمريكي للشرق الأوسط الجديد، وأول ذلك بالتصدي لثقافة الهزيمة التي يسعى أصحابها إلى تثبيط عزيمة الأمة وزرع اليأس في نفوس أبنائها، والتصدي لثقافة الهزيمة يعني التأكيد على ثقافة المقاومة التي صار الحديث يكثر عنها بعد انتصار المقاومة الإسلامية في حرب تموز ٢٠٠٦ كواحدة من أهم نتائجها.

ثقافـة فـي مواجهـة أخـرى

إن من أهم نتائج وتداعيات انتصار المقاومة في حرب تموز ٢٠٠٦ تنامي الحديث عن ثقافة المقاومة في حياة الأمة أكثر من الماضي، فقد صارت حاجة الأمة إلى ثقافة المقاومة ضرورة من ضرورات الوجود والاستمرار لمواجهة الحرب الشاملة التي تُشن على أمتنا وأبنائها من قبل الاستكبار الأمريكي وحلفائه وأدواته لبناء الشرق الأوسط الجديد وفق المقاييس الأمريكية الصهيونية.

هذه الحرب التي تبدأ بسلب الإرادة السياسية للأمة وصولاً لاجتثاث وجودها الحضاري بكل مكوناته الثقافية والسياسية والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية والقيمية، ومحاولة فرض النموذج الغربي على كل مكوّنات حياتها. وفي هذا السياق تدخل معركة الحجاب ويدخل إصرار الولايات المتحدة الأمريكية على التدخل في المناهج التعليمية في العالم الإسلامي، وفي طليعتها مناهج المدارس والمعاهد والجامعات الدينية لتفريغ كل المناهج من مضامين التمايز وعناصر المقاومة لتتماشى مع الأهداف التي يريدها أعداء الأمة. وفي هذا السياق أيضاً تدخل الهجمة الثقافية والإعلامية الشرسة على العالم الإسلامي عبر تشويه صورة الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام، وتعميم ما صار يعرف بالإسلاموفوبيا، ويدخل في ذلك تشويه القيم السامية للأمة وفي طليعتها المقاومة والسعي لتوصيفها في خانة الإرهاب وفق المقاييس الأمريكية والعمل على تشويه رموزها واغتيالهم معنوياً إذا لم يتيسر اغتيالهم جسدياً، حيث تسخر لذلك مؤسسات إعلامية ضخمة وعند وسائل الإعلام لا بد لنا من وقفة لنحذر فيها من تدفق المال الأمريكي خصوصاً والغربي على وجه العموم لإقامة عشرات الفضائيات ومئات مراكز الدراسات وآلاف

المطبوعات والندوات والمؤتمرات، وكلها مسخرة لتغييب ثقافة أمتنا وحضاراتها بغية فرض نموذج ثقافي وحضاري جديد عليها، يفقدها تفرّدها وشخصيتها المتميزة واستغلال أراضيها في أبشع وأكبر عملية إرهابية لاستئصال حضارة متكاملة؛ لأن أبناءها يرفضون التحول إلى مجرد أدوات وعبيد للاستكبار الأمريكي المتفرد بقيادة العالم في هذه المرحلة من تاريخ البشرية، ومن غريب الأمر أن جزءاً كبيراً من العمليات الإرهابية التي تستهدف الأمة تموّل بأموال وامكانيات هذه الأمة عبر وكلاء الاستكبار الأمريكي في بلادنا، الذي يمارس أيضاً الإرهاب الاقتصادي ضد أمتنا بصور شتى؛ من بينها الاستيلاء على موادها الخام غصباً أو بأسعار زهيدة، ثم إعادتها سلعاً يتقاضى مقابلها أسعار باهظة وعبر تجميد أرصدة الدول والجمعيات والجماعات والأفراد بحجة تجفيف منابع الإرهاب، وظل أن ننتظر فتوى بتحريم الزكاة حتى لا تُستخدم بتمويل الإرهاب وفق المنظور الأمريكي الذي صار يتدخل في شؤون فتاوانا الدينية في إطار ما يسميه بالحرب على الإرهاب، مع أن الوقائع والحقائق تؤكد أننا أول ضحايا الإرهاب خاصةً وأن الإرهاب الموجّه لأمتنا عبر المشروع الأمريكي للشرق الأوسط الجديد يأخذ شكل الحرب الشاملة عسكرياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعلمياً ونفسياً وإعلامياً وثقافياً، وهذه الحرب التي يقودها المشروع الأمريكي للشرق الأوسط الجديد هي نتاج ثقافة متأصلة عند أعداء هذه الأمة، ثقافة زرعت فيهم دموية تبررها تعاليم التلمود الذي يقود المحافظين الجدد في واشنطن، وحلفاءهم في تل أبيب وهذه الدموية تتجلى في سلسلة المذابح المستمرة التي يتعرض لها أبناء الأمة، والتي شهدنا نماذج منها أثناء عدوان تموز ٢٠٠٦ على لبنان، والتي تعكس همجيتها الصفة الثانية من صفات هذا العدو وهي صفة الحقد الأعمى الذي تجعله لا يستثني حتى الطفل والمرأة ولا المقدسات في عدوانه المستمر على أمتنا.

وفوق حقده ودمويته، فإن هذا العدو يتصف بالخيانة والغدر؛ لذلك لا يحترم عهداً ولا ميثاقاً ولا اتفاقاً ولا يترك فرصة سانحة يواصل فيها حربه الشاملة ضد أمتنا إلا واستغلها، وهي حرب تحتاج من أبناء الأمة إلى مواجهة شاملة أول خطواتها أن تخرج الأمة من حالة الاقتصار على وصف الواقع وتحديد الداء والشكوى من مرارته ولعن العدو إلى مرحلة العمل الجدي، والمباشرة بعلاج هذا الواقع لتغييره في إطار استراتيجية شاملة أول مداميكها التأكيد على ثقافة الوحدة باعتبارها تكليفاً شرعياً وضرورة دنيوية علماً بأن فرقة الأمة هي من أهم أسلحة العدو وأدواته لتحقيق أهدافه في إبقاء أمتنا ضعيفة ممزقة جاهلة.

أما ثاني مداميك الاستراتيجية الشاملة فهو ترسيخ ثقافة المقاومة ونشرها بدلاً من ثقافة الخنوع التي يحاولون تربية أبناء الأمة عليها تحت مسمى ثقافة السلام.

ولترسيخ ثقافة المقاومة؛ فإنه لا بد من التأسيس لخطاب إبداعي جديد لأمتنا ليتولى هذا الخطاب ترسيخ مفاهيم النصر والأمل والتفوق والوحدة وليشحن الأمة بالقدرة على إحداث

التغيير، من خلال بناء روح جديدة تسري في الأمة تنشر بين أبنائها روح المقاومة والصمود والثقة بالنفس والقدرة على صناعة المستقبل الذي تريده، من خلال امتلاكها لقرارها ولقدرتها على الفعل والإصرار على الانتصار، وتحقيق الأهداف، وهذا يستدعي أن تستبدل مفردات تقسيم الأمة وتخذيلها في الخطاب السائد الآن، بمفردات الوحدة والثقة عبر الخطاب الإبداعي الجديد الذي ندعو إلى تأسيسه ليركز على الجوانب الإيجابية في حياة الأمة للبناء عليها. مع التأكيد على ضرورة التصدي لمواطن الخلل لمعالجتها. نريد خطاباً يستبدل مفردات التثبيط والتشكيك بمفردات التحريض والصمود والمقاومة؛ وذلك في إطار السعي لإعادة بناء أبناء الأمة عقدياً وتثقيفهم تثقيفاً شاملاً بقضيتهم وتربيتهم على الانضباط والإنتاج والتحلي بالمناقبية الأخلاقية التي تتجسد بالالتزام المسلكي النابع من قيم ثقافة المقاومة التي هي في الأصل ثقافة عملية علمية تطبيقية، تسعى لتقديم الحضاري الإسلامي لكل مكونات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصحية والتعليمية. وفي هذا المجال يمكن دراسة وتعميم تجربة المقاومة الإسلامية سواءً في لبنان أم في فلسطين وتطويرها وتعميمها لإخراج الأمة من أسر النموذج الغربي الاستكباري الذي يحاولون تذويبها فيه، عبر ما يسمى بثقافة السلام التي تنادي بالتصدي لها عبر ترسيخ ونشر ثقافة المقاومة والتي تحتاج أول ما تحتاج إلى امتلاك أدواتها، وفي الطليعة منها بناء منظومة ثقافية وإعلامية إسلامية تؤمن بثقافة المقاومة. وهنا أيضاً يمكن دراسة وتعميم تجربة حزب الله الإعلامية والثقافية لتتصدى هذه المنظومة لكل الألسن والأقلام التي تسعى لجعل الخيانة وجهة نظر والعمالة واقعية والاستسلام جنوحاً للسلم. وهذا يستدعي أيضاً تطهير مؤسسات الأمة وخاصة الثقافية والإعلامية من عناصر الطابور الخامس الذي يقوم بدور المنافقين تثبيطاً لعزيمة الأمة وشقاً لصفها ودفعها للاستسلام لعدوها.

ولا يفوتنا، ونحن ندعو إلى بناء منظومة ثقافة المقاومة أن ننبّه إلى ضرورة أن نعيد للمساجد دورها في التربية والتعبئة والتحريض لإبقاء جماهير الأمة في حالة جهوزية واستعداد ويقظة وحذر لكل أبعاد الحرب الشاملة التي تتعرض لها الأمة، تحت مسمّيات مختلفة، لكنها جميعها تلتقي في جوهر واحد هو إخضاع الأمة للكيان الصهيوني، عبر تمزيقها إلى كيانات وكونتونات يكون الكيان الصهيوني أكبرها، وهذا هو الهدف المركزي للمشروع الأمريكي للشرق الأوسط الجديد الذي تلقى ضربة قوية على يد المقاومة الإسلامية في لبنان أثناء حرب تموز ٢٠٠٦ أفقدته صوابه، واضطرته إلى استنفار رصيده الاحتياطي الممثل ببعض القوى السياسية والإعلامية العربية فكلفها بمشاغلة قوى الممانعة والمقاومة في الأمة سواءً في لبنان أم فلسطين؛ ولذلك لا نستغرب هذه الدعوات المحمومة لنزع سلاح المقاومة واعتبار حركات المقاومة مليشيات مسلحة، والسعي لتشويه قياداتها بعد أن قدمت هذه القيادات نموذجاً رائعاً في التلاحم مع مقاتليها وجماهيرها، جعلت هذه الجماهير تشكل حاضناً لهذه المقاومة سواء في لبنان أم

غزة، وهو الأمر الذي يستوجب السعي لتعميم هذه النماذج القيادية، مترافقاً مع السعي لتوسيع حاضنة المقاومة بتوسيع التواصل مع جماهير الأمة بكل السبل، والوسائل لأن هذه الجماهير هي الرصيد الحقيقي للمقاومة، ولأن الحرب الشعبية هي أملنا الوحيد في دحر العدوان سواء اتخذ هذا العدوان اسم إسرائيل أم اسم الشرق الأوسط الجديد وفق المقاييس الأمريكية.

إن التواصل مع جماهير الأمة يعني في جوهره استكمال بناء مجتمع النصر الذي أسست له المقاومة الإسلامية في لبنان، ممثلةً بحزب الله عبر انتصارها الأول عام ٢٠٠٠، والذي أثبتت من خلاله أن العدو قابل للهزيمة والانسحاب بدون قيد أو شرط، كما انسحب من جنوب لبنان وعبر انتصارها الثاني عام ٢٠٠٦، والذي أثبت من خلاله زيف الادعاء بأن قرارات الولايات المتحدة الأمريكية ومشاريعها قدر لا يرد فقد انهزمت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها، وعلى رأسهم الكيان الصهيوني، وعملاؤها في وطننا الذين قدموا لعدوان تموز ٢٠٠٦ الدعم اللوجستي والسياسي، وحاو ل بعضهم استكمال العدوان بعد أن هدأت المدافع على الجبهات من خلال إصرار هؤلاء على انكار انتصار المقاومة رغم اعتراف العدو نفسه بهذا الانتصار، وبمحاولة هؤلاء أيضاً جر المقاومة إلى معارك جانبية سياسية ومذهبية وطائفية. ولعبت الولايات المتحدة الأمريكية بورقة هؤلاء يعني في صورة من صوره أنها استنفذت رصيدها الاستراتيجي، ولجأت إلى رصيدها الاحتياطي الممثّل بالعملاء سياسيين وكتّاب، دولاً وأحزاب، وخطر هؤلاء يكون في بعض الأحيان أكبر من خطر العدو نفسه؛ لأنهم يطعنون في الظهر، ويخذلون عند المنعطفات الصعبة كما فعل المنافقون يوم أحد، ولأنهم يعيشون بين ظهرانينا ويتحدثون بلغتنا ويظهرون بمظهر الحريص على الوطن باعتبارهم شركاء فيه، ولهذا كله فإنه علينا أن نكشف زيف هؤلاء ونقيم الحجة عليهم لنطهر الصفوف منهم، ونحن نسعى إلى تحقيق وحدة الوطن والأمة كأهم أسلحة المواجهة مع المشروع الأمريكي الذي يريد أن يبني منطقتنا على أسس طائفية ومذهبية وعرقية تأخذ شكل الكنتونات التي تكون فيها إسرائيل صاحبة اليد الطولى، ولذلك فإن علينا أن نسعى لترسيخ ثقافة الوحدة كمكون أساسي من مكونات ثقافة المقاومة وآخرها. ونعتقد أن الفرصة مهيئة لذلك.

لقد أثبت انتصار المقاومة سلسلة من الحقائق لا بد من السعي لترسيخها في المرحلة القادمة وأهم هذه الحقائق:

١- أكذوبة تفوق العدو وتماسكه وصار من المهم أن نرسخ حقيقة ضعف العدو ووهنه ليصبح جزءاً من ثقافة جماهير الأمة، في إطار تعبئتها للمواجهة الشاملة مع العدو.

٢- كشف العدوان على لبنان في تموز ٢٠٠٦ حقيقة التحالفات والعلاقات في المنطقة، وأكد العلاقة العضوية غير القابلة للانفصام بين الولايات المتحدة الأمريكية والكيان الصهيوني، ومن ثم فإنه لا يجوز تصنيف الولايات المتحدة كوسيط نزيه في ما يسمى بالسلام بين أمتنا والكيان

الصهيوني، فقد أثبت العدوان أن أمريكا عدو. وعدو يمكن الانتصار عليه، وعلينا في المرحلة القادمة أن نتعامل معه على هذا الأساس.

٣- سقوط كل الادعاءات بأن المقاومة عمل عبثي وغير مجدٍ؛ لذلك فإن علينا أن نتصدى لكل محاولات السخرية من شعارات الممانعة والمقاومة والرد على مقولات بأن المقاومة هي حالة وممارسة إرهابية أو تعبير عن عجز خلل.

٤- أثبت انتصار المقاومة زيف أكذوبة أنه لا أمل للأمة في كسب مواجهة مسلحة مع العدو، وصار علينا أن نرسخ حقيقة القدرة على هزيمة العدو عسكرياً بعد أن أصبحت لدينا أدلة مادية ملموسة ممثلة بسلسلة انتصارات المقاومة من جهة، وآخرها انتصار تموز ٢٠٠٦ مثلما صار لدينا سلسلة من الشواهد والبراهين والأدلة على إخفاقات مشروع التسوية، وما يسمى بالسلام الذي حاولوا أن يصوروه لنا بأنه الخيار الوحيد أمام أمتنا وبناءً عليه، تمّ إسقاط الخيار العسكري من قاموس النظام الرسمي العربي، فجاء انتصار المقاومة ليعيد لهذا الخيار اعتباره. وعلينا أن نؤكد ترسيخ قيمة هذا الخيار في وجدان أبناء الأمة لتصبح المقاومة هي الخيار الذي يقود لانتصارنا النهائي عبر عملية تنسيق حقيقي وتكامل فعلي بين كل قوى الممانعة والمقاومة في بلادنا، ومن خلال ترسيخ القناعة له عند الجميع بأن المقاومة جزء أساسي من مشروع النهوض الحضاري، ورافعة رئيسية لهذا المشروع، وأن تقرير مصيرها أو مصير سلاحها ليس من حق هذا النظام السياسي أو ذاك فالمقاومة ملك للأمة كلها والاعتداء عليها اعتداء على الأمة كلها والدفاع عنها واجب على كل الأمة.

٥- إن الحرب التي تُشنّ ضد أمتنا تأخذ طابعاً شمولياً لذلك فإن علينا التصدي لها بكل أدوات العمل المقاوم ابتداءً من العمل الاقتصادي بكل مكوناته وأولها بناء اقتصاد الانتاج ومقاومة نزعات الاستهلاك في بلادنا، وثانيها جعل المقاطعة للعدو ممارسة يومية لكل فرد من أفراد الأمة مروراً بالعمل السياسي الذي يجب أن ينصبّ على الدفاع عن حق الأمة في المقاومة وصولاً إلى العمل العسكري المسلح.

٦- لعبت المصطلحات والمفاهيم دوراً مهماً في المواجهة مع العدو وخدمة مخططات هذا العدو تعرضت بلادنا لهجمة شرسة من المصطلحات التي جعلت المقاومة إرهاباً والشهيد انتحارياً والاستسلام سلاماً، والعدو شريكاً، وحتى نتمكن من ترسيخ النتائج التي حققها انتصار المقاومة في تموز ٢٠٠٦ لا بد من بذل جهد حقيقي في معركة المفاهيم والمصطلحات السائدة في بلادنا لإعادة الاعتبار للمفاهيم التي حاول العدو تغييبها وفي طليعتها أن نؤكد على حقيقة الصراع ببعده الديني والحضاري وأن القدس لبّ هذا الصراع والدين جوهره وأنه صراع وجود لا صراع حدود وأن الانتصار في هذا الصراع يحتاج إلى الأخذ بأسباب البناء التربوي والثقافي لتدريب الجماهير على الصبر والتحمل وفضيلة التقشف وإحياء روح الانتاج لديها وقد أثبتت

التجارب أن جماهير الأمة مؤهلة لذلك ولعل صبر وتحمل جماهير المقاومة أثناء عدوان تموز ٢٠٠٦ يرسم صورة مشرقة في هذا المجال يجب البناء عليها لبناء مجتمع النصر الذي تسوده روح المسؤولية واليقظة وشدة الملاحظة والتميز بالجهوزية الدائمة، وتلعب فيه جماهير الأمة دوراً مركزياً من خلال تصديها لتحمل مسؤولياتها وأولها تشكيل حاضنة حامية لقوى المقاومة والممانعة في الأمة.

٧- كشف عدوان تموز ٢٠٠٦ أن العملاء يلعبون دوراً مركزياً في خدمة مخططات العدوّ وحتى نتمكن من ترسيخ نتائج انتصار تموز ٢٠٠٦ فإنه لا بد من بذل جهد خاص لتطهير صفوف الأمة من العملاء عبر تذكيرهم بمصير من سبقهم من العملاء سواء في جنوب لبنان أو غيرهم وعبر ردعهم بكل الوسائل بما في ذلك تعرية ممارساتهم لأن من بينهم سياسيون كبار لا يتورعون عن تسويق عمالتهم على أنها إنقاذ للوطن من الذين يريدون جره إلى حرب مع عدو قادر وهم يقصدون هنا قوى المقاومة في الأمة.

٨- إن بناء مجتمع النصر الذي أسست له انتصارات المقاومة، يستدعي استمرار تحريض الجماهير وتعبئتها وإبقائها في أجواء المواجهة، والعمل على إعادة الاعتبار للرأي العام العربي ليعود تأثيره على صناعة القرار السياسي للنظام الرسمي العربي الذي يلاحظ أنه خلال السنوات الأخيرة، لم يعد يكترث لردات فعل الرأي العام العربي.

٩- كشف عدوان تموز ٢٠٠٦ على لبنان حجم التواطؤ الدولي مع العدو ابتداءً من مجلس الأمن مروراً بمواقف غالبية دول العالم مما يؤكد سقوط الخيار الدبلوماسي لحل الصراع مع العدو الصهيوني واستعادة حقوق الأمة من خلال الجهود الدبلوماسية غير أن اللافت أن هناك تبايناً بين مواقف بعض الحكومات وشعوبها مما يستدعي تنشيط الدبلوماسية الشعبية لتجنيد الأنصار للمقاومة من أبناء الشعوب.

١٠- أكد انتصار المقاومة أهمية الدور الذي تلعبه القيادة التي تضرب من نفسها القدوة والمثل في الصمود والتصدي والالتحام مع جماهيرها لتحقيق الانتصار وهو النموذج الذي علينا أن نسعى لتعميمه وترسيخه لدى أبناء أمتنا.

١١- وبناء مجتمع النصر يحتاج إلى حسن اختيار الأساليب والوسائل الملائمة لكل مرحلة وكل حالة.

١٢- لقد تمكنت المقاومة من تعطيل الآلة العسكرية المعتدية من لعب دورها في تحقيق المشروع الأمريكي لبناء الشرق الأوسط الجديد وفق المقاييس التي يريدها أصحاب هذا المشروع، غير أن علينا أن نعترف بأن أدوات أخرى لهذا المشروع تحقق نجاحات ملموسة في صفوف أمتنا وعلينا أن نسعى لتعطيلها هي الأخرى في إطار مفهوم شامل للمقاومة يتصدى للتغلغل الأمريكي، وعبر ما صار يعرف بالتمويل الأجنبي وبمشاريع الإصلاح ومشاريع نشر

الديمقراطية التي تخترق مؤسسات المجتمع الأهلي في بلادنا أحزاباً وجماعات وجمعيات، والتي تخترق منظومتنا القيمية عبر التركيز على قضايا المرأة والشباب وثقافة الجند إلى آخر ما يطرح في بلادنا من قضايا للنقاش الذي يستهدف هز الثوابت والعبث بقيم الأمة، مستخدماً بذلك أدوات الثقافة والإعلام سواءً تلك التي اخترقها بالتمويل أم تلك التي أقامها بصورة مباشرة.

إن أمامنا طريقاً طويلاً شقته لنا انتصارات المقاومة الإسلامية في لبنان بدماء شهدائها، وظل علينا أن نكون أوفياء لهذه الدماء بأن نسير على دربها، ونحمي تضحياتها، ونتعامل معها على أنها قاعدة مشروع النهوض الحضاري لأمتنا الذي لا بد له من أن ينتصر، ليدفن المشروع الأمريكي المعتدي في رمال بلادنا كما دفنّا كل مشاريع العدوان عبر التاريخ، وسنفعلها هذه المرة أيضاً والشواهد على ذلك كثيرة، لعل من بينها أننا نجتمع اليوم لنتدارس كيف نرسّخ انتصاراً صنعته مقاومتنا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الهوامش:

(1) موقع التواصل نت.

(2) في أصول «اللاتناسب» الإسرائيلي و«الإرهاب» العربي/ ياسين الحاج صالح، موقع ألوان.

(3) في أصول «اللاتناسب» الإسرائيلي و«الإرهاب» العربي/ ياسين الحاج صالح، موقع ألوان.

(4) في أصول«اللاتناسب» الإسرائيلي و«الإرهاب» العربي/ ياسين الحاج صالح، موقع ألوان.

(5) ماجد كيالي/ موقع مركز الدراسات الإسلامية.

(6) ماجد كيالي/ موقع مركز الدراسات الإسلامية.

(7) م.ن.

(8) م.ن.

(9) م.ن.

(10) م.ن.

(11) م.ن.

(12) م.ن.

(13) ماجد كيالي/ موقع مركز الدراسات الإسلامية.

(14) م.ن.

(15) م.ن.

(16) في أصول «اللاتناسب» الإسرائيلي و«الإرهاب» العربي/ ياسين الحاج صالح، موقع ألوان.

(17) م.ن.

(18) م.ن.

(19) م.ن.

(20) م.ن.

(21) م.ن.

(22) م.ن.

(23) في أصول«اللاتناسب» الإسرائيلي و«الإرهاب» العربي/ ياسين الحاج صالح، موقع ألوان.

(24) ذكرت مصادر صحفية أن خسائر العدو الإسرائيلي الاقتصادية جراء صمود حزب الله زادت عن ستة مليارات دولار أمريكي منها:

- مليون دولار خسائر السوق الصناعية اليومية.
- إفلاس القطاع التجاري وزيادة البطالة.
- ٥٠ مليون دينار خسائر القطاع الزراعي.
- من ٩٠ مليون إلى ١١٠ ملايين دولار يومياً إجمالي الخسائر الاقتصادية.
- ١١,٥ مليار شيكل (٢,٥ مليار دولار) إجمالي الخسائر الاقتصادية. وهي نسبة تشكل ٢ من إجمالي الناتج القومي لإسرائيل.
- تراجع الناتج المحلي بنسبة ١ والنمو الاقتصادي بنسبة ٢.

(25) الدستور الأردنية (٢٠/٧/٢٠٠٦).

(26) الرأي الأردنية (٨/٨/٢٠٠٦).

(27) العرب اليوم الأردنية (٢٩/٧/٢٠٠٦).

(28) م.ن.

(29) العرب اليوم الأردنية (٨/٦/٢٠٠٦).

[٢٠] جريدة الرأي الأردينة (٢٠٠٦/٨/٣)

[٢١] جريدة الدستور الاردنية (٢٠٠٦/٨/٢).

[٢٢] جريدة الدستور الأردنية (٢٠٠٦/٧/٢٠).

المراجع والمصادر:

١- **كتاب سقوط الوهم**/ تأملات في انتصارات حزب الله.

بلال حسن التل/ منشورات المركز الأردني للدراسات والمعلومات/ آب ٢٠٠٦.

٢- **كتاب العداء**/ صور من العداء الغربي لأمتنا.

بلال حسن التل/ منشورات المركز الأردني للدراسات والمعلومات/كانون ثاني ٢٠٠٧.

٣- وثائق بنك المعلومات في المركز الأردني للدراسات والمعلومات - عمان.

٤- الموقع الالكتروني، عرب ٤٨.

٥- الموقع الالكتروني للسلطة الوطنية الفلسطينية.

٦- موقع التواصل نت.

٧- موقع ألوان الالكتروني.

٨- موقع مركز الدراسات الإسلامية.

الانتصار في مواجهة المشروع الأميركي للشرق الأوسط الجديد

العميد الركن المتقاعد
وليد سكرية (لبنان)

السيادة الوطنية واستراتيجية المقاومة الدفاعية: دور المقاومة منذ نشأتها في استعادة السيادة ثم في حمايتها. دلالات التحرير وهزيمة العدو عام ٢٠٠٠ من منظور السيادة الوطنية. معنى التمسك بالاستراتيجية الدفاعية بالنسبة إلى حماية السيادة الوطنية.. أدوار كل من المقاومة والجيش والشعب والسلم الأهلي في حماية السيادة الوطنية.

١- السّيادة الوطنية:

يمكن تعريفها على أنها تحقيق سيطرة الدولة على كامل ترابها الوطني ومواردها الطبيعية والاقتصادية. وحماية الوطن أرضاً وشعباً وموارد من أي انتهاك. وحرية الدولة في خياراتها السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية، بما يعبّر عن تطلعات شعبها، دفاعاً عن كيانها ومصالحها وتطلعاتها دون ارتهان.

فالسيادة ليست كلاماً فارغ المضمون، وشعارات تخفي تحتها الاستسلام لإرادة الخصم. أو التنازل الضمني عن مصالح الوطن الكبرى، أو دفن الرأس بالرمال هرباً من التصدّي للمخاطر التي تهدّد أمن الوطن أو مصالحه، وترك القرار وتحديد المصير لإرادة الغير. بل هي مواجهة للتحديات، لكل ما ينال من كيان الوطن وحرية شعبه ومصالحه.

١.١ يتجسّد تحقيق السيادة الوطنية جلياً في الحالات التالية:

- تحرير أرض الوطن المحتلة من الاحتلال، واستعادتها لسيطرة الدولة.
- ردع العدو عن أيّ انتهاك لحرمة الوطن، براً وجواً وبحراً وحماية الوطن من العدوان.
- التحكم بالموارد الوطنية واستغلالها بحرية وفق المصلحة الوطنية، دون التنازل أمام تهديدات خارجية.
- حرية الدولة في خياراتها وقراراتها بما يتعلق بـ:
- خيارها في نظامها السياسي تعبيراً عن إرادة شعبها وعدم الرضوخ لضغوط خارجية.
- خياراتها السياسية في علاقاتها الخارجية، ومواقفها من المسائل العالمية والإقليمية.

- نظامها الاقتصادي وبناؤها الداخلي، وعلاقاتها الاقتصادية الخارجية.
- بناؤها الاجتماعي والتربوي والثقافي بما يجسّد شخصيتها وتوجهاتها.
- حريتها في سياستها الدفاعية واستراتيجيتها في البناء العسكري، والتعاون الخارجي، دفاعاً عن كيانها وحماية لمصالحها الكبرى.

٢- السّيادة والأمن القومي:

إن لمفهوم السيادة الوطنية ترابطاً كلياً بمفهوم الأمن القومي للدولة. فالهدف من تحقيق الأمن القومي أو الوطني، هو تحقيق سيادة الدولة على أرضها ومواردها وحمايتها من أي اعتداء وحماية مصالحها الكبرى.

قد تسلك الدولة لتحقيق أمنها القومي وحماية كيانها ومصالحها عدة مسالك هي:

٢.١ إعلان الحياد في الصراع الدائر. قد يصح الخيار إذا كان الصراع لا يمسّ بمصالح الدولة، أو لا يتهدّد كيانها. وموقعها الجغرافي بعيداً عن مسرح الحرب. أما إذا كانت موضع أطماع بعض الفرقاء أرضاً أو موارد، وتقع في مسرح الحرب؛ وتتهدّد مصالحها بنتائج الصراع، يصبح الحياد، دفناً للرأس بالرمال، وترك تحديد المصير لإرادة الغير.

٢.٢ طلب حماية دولة كبرى. قد تلجأ لها الدولة إن تقاطعت مصالحها مع مصالح هذه الدولة وسياستها. لكن عليها التنازل جزئياً عن سيادتها وحرية قرارها، والتزام قرارات سياسة الدولة الحامية؛ كذلك عليها دفع ثمن الحماية من مصالحها الاقتصادية.

أما اللجوء لدولة كبرى تتعارض سياستها ومصالح الوطن، لتأمين مصالح فئة حاكمة، فيشكل تهديداً كبيراً لمصالح الوطن وخيانة وطنية.

٢.٣ الأمن الإقليمي. هو مسعى تسعى إليه دول منطقة ما، لتحقيق الأمن. قد يتحقق باتفاق دول المنطقة في حال السلام. أو يتحقق عبر تحقيق توازن الرعب بين القوى المتصارعة فتمنع الحروب.

٢.٤ مواجهة التحديات. عبر استعداد الدولة عسكرياً وفي كافة الجوانب لمواجهة المخاطر. قد تلجأ إليها الدولة منفردة، معتمدة على قواها الذاتية، إذا كانت قواها أكبر من التهديدات. أو عبر التحالف والتعاون مع دول تلتقي معها بالأهداف والتطلعات، أو تتقاطع معها في مواجهة عدو مشترك. فدول أوروبا الكبرى انضوت بحلف الأطلسي لمواجهة خطر أكبر من إمكانياتها، هو خطر الاتحاد السوفياتي، لالتقاء أهداف وتطلعات هذه الدول. أما في الحرب العالمية الثانية، فتحالف العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي رغم تناقض التطلعات، لمواجهة عدو مشترك هو النازية.

قد يأخذ التحالف أشكالاً مختلفة من دفاع مشترك إلى تعاون عسكري محدّد إلى تعاون في مجالات شتى.

على الدول المتحالفة أو المتعاونة دعم بعضها بعضاً سياسياً وربما اقتصادياً وعسكرياً. وتنسيق جهودها بما يعزز قوة التحالف في مواجهة التحديات المشتركة.

بالتحالف قد يضطر الفريق الأضعف مراعاة استراتيجية الفريق الأقوى، لما فيه مصلحة الفريقين؛ لأن للفريق الأقوى الدور الرئيسي في المواجهة وتحديد نتائج الصراع. هذه ليست تنازلاً عن السيادة، بل تنسيقاً للجهود بالشكل الذي يحقق النجاح لصالح جميع قوى التحالف.

٢- مكرر: السيادة الوطنية والاستراتيجية الدفاعية:

ليس للاستراتيجية الدفاعية تحديد واضح ودقيق. بل نعتبر هدفها تحقيق الأمن القومي وحماية أرض الوطن من العدوان وحماية مصالح الوطن الكبرى.

بذلك تشمل خيارات الدولة السياسية لتحقيق ذلك، بما فيها خيارها تحقيق الأمن القومي باستخدام القوات المسلّحة؛ أي اعتماد خيار المواجهة وكيفية المواجهة.

٣- المشروع الأميركي للشرق الأوسط الجديد والمواقف منه:

سعى الاستعمار الغربي للسيطرة على العالم العربي بعد الحرب العالمية الأولى، عبر تجزئته وفق اتفاقية سايكس بيكو، وزرع الكيان الصهيوني في وسطه، لتشكّل إسرائيل، أداة عسكرية يستعان بها عند اللزوم لقهر أي تمرّد على الهيمنة الغربية. مثّلت إسرائيل العلاقة بعدها مع الولايات المتحدة حصراً، كأكبر قوة غربية، حامية لمصالح الغرب على اتساع العالم. فأصبحت الولايات المتحدة مصدر إمداد إسرائيل بكافة عناصر القوة لتحقيق مشروعها الصهيوني التوسعي، وحامية لها في مجلس الأمن، فيما تشكّل إسرائيل أداة عسكرية تستخدم عند اللزوم. حتى يتندر الأميركيون فيصفون إسرائيل، كأكبر حاملة طائرات بالأسطول السادس الأميركي. ارتبطت إسرائيل وأميركا أخيراً بمعاهدة تعاون استراتيجي تضمن بموجبها أميركا أمن إسرائيل وتفوقها الاستراتيجي على كافة أعدائها.

إثر سقوط الاتحاد السوفياتي، دعت الولايات المتحدة لنظام عالمي جديد، تسعى من خلاله تكريس تفرّدها بزعامة العالم. تعمل لتحقيقه عبر توسيع دائرة نفوذها على موارد ومواقع العالم الاستراتيجية، ومحاربة ظهور قوى كبرى مناوئة لها. كما دعت لنظام أمن إقليمي في الشرق الأوسط، مبني على تسوية سلمية للصراع العربي الإسرائيلي، وسوق شرق أوسطية للتنمية. تبني من خلالها الولايات المتحدة شرقاً أوسط جديداً؛ ليس به قوى معادية لها. تفرض هيمنتها السياسية عليه، وتعمّم نظامها السياسي والاقتصادي به، وتنشر ثقافتها في مجتمعاته.

يحكم سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط عاملان هما:

سعيها للتفرد بالهيمنة كقوة عالمية كبرى، وإبعاد أوروبا وروسيا قدر المستطاع. لتتحكم منفردة بالموارد والمواقع الهامة.

ارتباطها بإسرائيل، والتزامها ضمان أمن إسرائيل. فترى الشرق الأوسط بالعين الصهيونية؛

بما يلبّي مطالب إسرائيل. وتسعى لبناء شرق أوسط جديد وفق هذه الشروط. فتسعى لضرب أي مشروع لبناء قوة عسكرية معادية لإسرائيل، أو تحقيق تطور يحقق توازناً مع إسرائيل؛ كما تعمل لتفتيت العالم العربي وبعث التناقضات الكامنة فيه، للحؤول دون أي تضامن أو توحد أو بناء مشترك يحقق توازناً مع إسرائيل. ولجأت لاستخدام القوة العسكرية لضرب أي تضامن عربي أو موقف يتعارض وتحقيق مصالح إسرائيل. فحربها على العراق جاءت بعد تضامن العرب بمؤتمر القمة في بيروت، ودعوتهم إسرائيل للانسحاب لخط الرابع من حزيران الذي رفضته إسرائيل. والقرار ١٥٥٩ جاء لفك وحدة المسارين بين لبنان وسوريا ونزع سلاح المقاومة الذي حقق نصر عام ٢٠٠٠. وحرب تموز ليست إلا حرباً أميركية بأدوات إسرائيلية لتحقيق المصالح الأميركية الإسرائيلية المشتركة.

تلتزم أميركا الموقف الإسرائيلي لتحقيق التسوية السلمية، فتعهدت لإسرائيل رفض حق العودة للاجئين الفلسطينيين، بل إبقاؤهم حيث هم. وحق إسرائيل بتعديل الحدود إلى حدود يدافع عنها عسكرياً؛ وببقاء الكتل الاستيطانية كأمر واقع وبقاء الجيش الإسرائيلي على نهر الأردن. كما تلتزم بتحقيق السلام على أساس منفرد وتكريس الهيمنة الإسرائيلية وإضعاف أعدائها.

٣.١ إسرائيـل:

تعارضت التسوية السلمية مع حلم إسرائيل بتحقيق إسرائيل كبرى. فاستعاضت عنها ببناء إسرائيل عظمى بإمكانياتها قياساً بضعف الأعداء. بذلك تضمن إسرائيل أمنها في هذه المرحلة، ريثما تعود للحروب مستقبلاً فتكمل مشروعها الصهيوني. انطلاقاً من هذه النظرية لأمنها القومي، لإسرائيل ثوابت أو مبادئ تلتزم بها وتسعى لتحقيقها في مسيرة الصراع الحالي في المنطقة أهمها:

تكريس تمزق العالم العربي والإسلامي ومنع قيام أي تضامن يكرّس تفوقاً كمياً على إسرائيل، وتضافراً للموارد يحقق بناء القوة. ذلك عبر:

- التزام السلام في حال تحقيقه على أساس منفرد مع كل دولة. ورفض أي سلام شامل.

- تفتيت ما يمكن من الدول العربية وبعث التناقضات العرقية والمذهبية وتكريسها في الأنظمة. هذا ما نراه بالعراق والسودان. وهذا ما دفع لإذكاء انقسام مذهبي بين السنة والشيعة، لفصل إيران عن العالم العربي أيضاً.

- هدر الثروات العربية، أو بناء اقتصاد ريعي وعلى أساس قطري، ومحاربة أي بناء اقتصادي يؤسّس لامتلاك القوة وتحقيق الأمن العربي، أكان بالصناعة وامتلاك التكنولوجيا أو بالزراعة وتحقيق الأمن الغذائي.

- تكريس هيمنتها وإشرافها بالتعاون مع أميركا على البناء الاقتصادي في الشرق الأوسط،

لاستغلال ثرواته، وضمان عدم استثمارها بما يتعارض ومصالح إسرائيل وأمنها.

- تكريس ترتيبات أمنية عبر اتفاقيات السلام، تضمن عمقاً استراتيجياً لأمن إسرائيل؛ وتكرس انقسام العرب وعدم تضامنهم في أي تعاون عسكري يهدّد إسرائيل.

- إبقاء التخلف العربي، ومحاربة أي نهضة وامتلاك العلم والسعي لبناء دول عصرية. هذه أحد الأسباب الرئيسية لمعاداة إيران والسعي لإجهاض نهضتها.

- منع حق العودة للفلسطينيين، والسماح بإدارة ذاتية باسم دولة في الضفة الغربية وقطاع غزة، تبقي أمن إسرائيل على الحدود الخارجية لفلسطين.

تعتمد أميركا في تحقيق هذه الشروط لبناء تسوية سلمية على هذا الواقع؛ نظراً لموقع إسرائيل وحجمها ومساحتها، ستلعب دور المدير الذي يشرف على اقتصاد الشرق الأوسط لتحدد توجهات البناء، مع سيطرة على قطاع الخدمات، الذي حقق من خلاله لبنان ازدهاره.

٣.٢ الدول العربيـة:

انقسمت بين سوريا وقوى الممانعة التي دعت لسلام عادل وشامل يحفظ للعرب بعضاً من حقوقهم، ويضمن حريتهم في بناء مستقبلهم، وبين دول انصاعت لأميركا ودخلت في تسوية سلمية منفردة. ودول وقفت موقف المتفرج. تنقسم اليوم بين قوى ممانعة للمشروع الأميركي المتحالف مع إسرائيل، وقوى مرتبطة بالسياسة الأميركية، بمستويات مختلفة.

٣.٣ أوروبـا:

أدركت أوروبا أن الولايات المتحدة تستهدف قوة أوروبا من خلال سيطرتها على الشرق الأوسط الذي تعتبره مجالها الحيوي. فسعت لتحقيق سياسة أوروبية مستقلة عن الولايات المتحدة، لكنها فشلت حتى الآن. تتمايز أحياناً عن أميركا، ليس لتعارض الأهداف، بل للخلاف على تقاسم المغانم.

٣.٤ روسيـا:

انكفأت بعد سقوط الاتحاد السوفياتي لاعادة ترتيب بيتها الداخلي. تعود الآن للتدخل في سياسة المنطقة. يزداد تدخلها مع نموقوتها. أمدّت إيران بالسلاح لتشكّل خط دفاع عن روسيا، عقبة أمام التوسع الأميركي في الشرق الأوسط الكبير. تعود لتسليح سوريا الآن كمؤشر لقدرتها على التدخل في المنطقة.

٣.٥ إيـران:

تلتزم إيران بمبادئ الثورة الإسلامية التي تدعو لتحرير العالم الإسلامي من الهيمنة الغربية، وإزالة إسرائيل كغدة سرطانية في قلب العالم الإسلامي. كما تسعى لبناء دولة عصرية وامتلاك عناصر القوة، فتحقق التوازن الاستراتيجي مع إسرائيل. مما يجهض المشروع الصهيوني ويشكّل سنداً رئيسياً فاعلاً للعرب بصراعهم مع إسرائيل، وتحريراً لإرادتهم من الهيمنة الغربية، لبناء

مستقبلهم وفق مصالح شعوبهم، وليس وفق ما تمليه أميركا بما يؤمن مصالح إسرائيل الأمنية.

٤- لبنان وصراع الشرق الأوسط:

من قدر لبنان وقوعه في عين الإعصار في الصراع الدائر في المنطقة. فلبنان يقع على حدود إسرائيل الشمالية، وأجزاء كبرى منه تقع ضمن أطماعها التوسعية التي يسعى إليها المشروع الصهيوني. وهو مصدر المياه الوحيد على حدودها التي تطمع بها لحاجتها الماسة لها، حتى منعت إكمال مشروع الليطاني أو استغلال مياه الوزاني سابقاً. وهو المعبر عسكرياً لضرب سوريا، وفضاؤه مجال للطيران الإسرائيلي لمراقبة العمق السوري من الجولان حتى الساحل. وهو ملجأ ومقر قسم كبير من اللاجئين الفلسطينيين الساعين لتحرير أرضهم والعودة لديارهم. فجميع أسباب وعناصر المواجهة متوفرة بين لبنان وإسرائيل.

التزم لبنان سياسة الحياد في الصراع العربي الإسرائيلي سابقاً؛ وتبني سياسة قوة لبنان بضعفه؛ أي التزام السياسة الغربية الداعمة لإسرائيل في تحقيق مشروعها، دون الأخذ بعين الاعتبار أطماع إسرائيل، وأن دوره آت لا محالة.

استفاد بعض حكام لبنان وقطاع الخدمات من مقاطعة العرب لفلسطين المحتلة، والنهضة الاقتصادية في المشرق العربي، وتطبيق الاشتراكية في دول أخرى، ليحقق اقتصاد لبنان مكاسب آنية لقطاع الخدمات حققت ازدهاراً ظاهرياً، يحمل في داخله إهمالاً صارخاً لقطاعات أخرى، ونمواً لمناطق على حساب أخرى، وضعفاً عسكرياً لعدم تحمل التكاليف، مما فجر التناقضات الداخلية وأطاح بأمن واستقرار لبنان، ونسف كل الازدهار الذي تحقق. فسياسة دفن الرأس بالرمال والاستفادة من مآسي الآخرين لتحقيق منافع آنية، سياسة عرجاء لم تحم استقرار لبنان الداخلي، ولا منعت إسرائيل من انتهاك سيادة لبنان بشكل شبه يومي، حتى وصلت للاجتياح.

فسياسة لبنان الدفاعية القائمة على حياد لبنان وتجنيبه الصراع حتى لو تنازل عن بعض سيادته، وسياسة قوة لبنان بضعفه، لم تحم لبنان الواقع في عين الإعصار، من الانهيار أمنياً واقتصادياً.

٤.١ لبنان والمشروع الأميركي لشرق أوسط جديد:

عام ١٩٩٠ إثر حرب الكويت، عندما دعت أميركا لنظام أمن إقليمي في الشرق الأوسط مبني على سلام بين العرب وإسرائيل، وسوق شرق أوسطية للتعاون؛ كان لبنان في أصعب أوضاعه. إذ كان منقسماً على نفسه بحرب داخلية؛ وجزء من أرضه محتل من قبل العدو الصهيوني؛ وفريق من أبنائه يتعاون علناً مع إسرائيل؛ فإسرائيل لاعب أساسي على الساحة اللبنانية تشارك في تقرير مصيره. وعلى أرضه لاجئون فلسطينيون غير محدّد مصيرهم بعودتهم إلى أرضهم أم توطينهم في لبنان. مياه بعض أنهره تذهب لإسرائيل ويمنع من الاستفادة منها؛ وفي سجون إسرائيل أعداد من أبنائه.

٤.٢ مسيرة التحرير حتى العام ٢٠٠٠:

إثر توحيد لبنان أرضاً ومؤسّسات وأجهزة دولة؛ تبنّت الحكومة اللبنانية سياسة التزام وحدة المسارين مع سوريا في مواجهة تحديات التسوية السلمية؛ أي خيار السلام العادل والشامل ورفض السلام المنفرد. كما تبنّت سياسة دفاعية تلتزم دعم خيار المقاومة المسلحة لتحرير الأجزاء المحتلة. فيما تولى الجيش المحروم من التجهيزات الحربية بضغط أميركي، عملية حفظ الأمن الداخلي، وبسط سلطة الدولة، ومنع العودة للحرب الأهلية. أما في الشق الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، بقي لبنان كسابق عهده دون تغيير. فسارعت الحكومات لبناء اقتصاد يقوم على قطاع الخدمات، بعيداً عن اقتصاد يواجه صعوبات المرحلة. ولم تتطرق لثقافة المقاومة أو بناء المجتمع المقاوم.

المقاومة وحدها، بواقعها في جنوب لبنان، بنت مجتمع مقاومة، وعمّمت ثقافة المقاومة، وبنت القدرات القتالية لمواجهة العدو وردعه، باستقلال عن إجراءات الحكومة. هذه استراتيجية المقاومة منذ انطلاقتها عام ١٩٨٢. بتضحيات المقاومة، وعبثية بقاء الاحتلال على أرض الجنوب دون جدوى، تحقق النصر والتحرير عام ٢٠٠٠.

يمكن إعادة تحقيق التحرير للعوامل التالية:

تحقيق وحدة الجبهة الداخلية في لبنان، عبر السلم الأهلي الذي هيأ للمقاومة التفرغ لمقارعة العدو.

حماية ظهر المقاومة من التآمر الداخلي عبر:

قطع يد إسرائيل في الداخل ومنعها من التآمر.

تأمين الأمن والاستقرار، مما حمى ظهر المقاومة. هذا دور الجيش في حينها.

التزام الحكم وحدة المسارين، ورفضه السلام المنفرد مع العدو.

هذه العوامل أفقدت العدو الأمل من تحقيق خرق أو مكاسب على الساحة اللبنانية.

تضحيات المقاومة واستنزافها العدو عسكرياً، جعل خسائره دون مردود سياسي يذكر. مما أرغم العدو على الانسحاب من معظم الأرض المحتلة.

٤.٣ نتائج التحرير في تحقيق السيادة الوطنية وحماية المصالح الكبرى:

كان للتحرير عام ٢٠٠٠ أبهى النتائج في تحقيق السيادة عبر:

- تحرير معظم الأرض المحتلة وبسط سلطة الدولة عليها.
- السيطرة لأول مرة بتاريخ لبنان على مياه نهري الوزاني والحاصباني والاستفادة منها.
- شكّلت المقاومة قوة ردعت العدو عن الانتهاكات والاعتداءات الدورية التي كان يستبيح بها أرض لبنان وسماءه ومياهه وشعبه.
- حررت إرادة الدولة وقراراتها من التهديدات والضغوط الإسرائيلية.

٤.٤ نتائج التحرير في دعم موقف لبنان والعرب بالصراع مع العدو:

للتحرير نتائج أبعد من تحرير أجزاء من الأرض؛ فأظهر للأمة العربية، أن خيار المقاومة هو الخيار الصحيح الذي يؤدّي لاستعادة الحقوق؛ وليس خيار اللجوء إلى الوصاية الأميركية استجداء للمساعدة. فكانت انتفاضة الشعب الفلسطيني على وهج تحرير جنوبي لبنان، بعد أن وصل السلام المنفرد عبر اتفاق أوسلو إلى فراغ.

ما أعادت الانتفاضة للعرب شيئاً من قوة الموقف. فكان تضامنهم في مؤتمر القمة في بيروت عام ٢٠٠٢، والتزام انسحاب إسرائيل حتى حدود عام ١٩٦٧، مما أقفل الطريق أمام مزيد من التسويات المنفردة.

إن تمتين الموقف العربي كنتيجة لانتصار عام ٢٠٠٠ وتموز ٢٠٠٧، وصمود قوى الممانعة، يعزز موقف لبنان في مواجهة تحديات التسوية السلمية؛ عبر ضمان حق العودة للاجئين، مما يحرّر لبنان من خطر التوطين؛ ويعزّز دور لبنان اقتصادياً في المنطقة بأبعاد شبح الهيمنة الصهيونية المنافسة له.

التزاماً من أميركا بدعم الموقف الإسرائيلي الرافض لحق العودة أو الانسحاب لخط الرابع من حزيران، أو حتى لموقف عربي متضامن؛ لجأت أميركا وإسرائيل لاستخدام القوة، فاجتاحت إسرائيل الضفة الغربية، واحتلت أميركا العراق؛ لفرض شرق أوسط جديد أميركي إسرائيلي، وليس أميركياً إسرائيلياً عربياً.

إثر تعثرها في العراق، اتجهت أميركا إلى لبنان، لضرب قوى الممانعة عبره. فكان القرار ١٥٥٩ القاضي بفصل لبنان عن سوريا ونزع سلاح المقاومة. وإثر فشلها في نزع سلاح المقاومة سلماً؛ حاولت ذلك في حرب تموز ٢٠٠٦ باستخدام القوة الإسرائيلية فخاب أملها.

٤.٥ نتائج حرب تموز وانعكاسها على الصراع:

أدت هزيمة إسرائيل أمام صمود وتضحيات المقاومة في لبنان إلى نتائج سياسية واستراتيجية هامة، ليس على صعيد لبنان، بل على صعيد المنطقة وحتى العالم، واتخاذ الصراع في المنطقة منحى جديداً. تمثلت بعض تداعيات حرب تموز بالتالي:

- إضعاف قدرة إسرائيل على الردع.
- إضعاف دور إسرائيل دولياً كأداة عسكرية لتنفيذ المخططات الغربية، مما يؤسّس لتحوّل في المواقف الدولية من الصراع، أن تكرس هذا الضعف الإسرائيلي.
- درس للعرب، أن بمقدورهم مواجهة الغطرسة الصهيونية، وهناك طريق آخر غير الاستسلام لاستعادة الحقوق وحمايتها.
- كما أظهرت حرب تموز دروساً استراتيجية أهمها:
- إن المقاومة هي خيار الدول الضعيفة في مواجهة القوى الكبرى المتفوقة عسكرياً في الإطار

الكلاسيكي.

- إن المجتمع المقاوم هو البيئة السليمة والحصينة لاحتضان المقاومة ونموها ودعمها وتغذيتها بالقوى.

- إن ثقافة المقاومة تربية وتعبئة وتوجيهاً، هي السلوك الواجب تعميمه لبناء مجتمع مقاوم.

- يجب بناء اقتصاد الدولة، بما يتلاءم مع الواقع المعاش، وليس مع واقع غير محقّق، لمواجهة الأخطار. فإما الهروب إلى حين مواجهة التحديات، طمعاً بمكاسب آنية كموسم اصطياف مثلاً، كما كان سابقاً، أو بناء اقتصاد لا ينهار في حال المواجهة ويدعم صمود المجتمع والدولة.

- إن الجيش المقاوم، المجهز بالعتاد المناسب لمواجهة العدو، والمنظّم والمدرّب والمعبأ لذلك، ضرورة وطنية لتعزيز قدرة الدولة على ردع العدو والدفاع عن الوطن ولحفظ السلم الأهلي وحماية ظهر المقاومة.

- إن المقاومة هي العنصر الأساسي لمنع العدو من احتلال الأرض أو البقاء عليها لتحقيق أهدافه السياسية. فالجيش يستطيع الدفاع، أما المقاومة فتستطيع الدفاع والقتال خلف خطوط العدو حتى انسحابه إن احتل أجزاء من الوطن. فهي عنصر أساسي لا غنى عنه في تعزيز قدرة الدولة على الردع ومنع العدو من التفكير بالاجتياح.

٥- لبنان والاستراتيجية الدفاعية الواجب اعتمادها لحفظ السيادة وحماية المصالح الوطنية:

يواجه لبنان تحدياً وتهديداً لمصالحه الوطنية عبر المشروع الأميركي للشرق الأوسط الجديد. فعلى ضوء ما سيرسو عليه الصراع، سيتحدد شكل الشرق الأوسط الجديد ودور كل دولة فيه. إما شرق أوسط أميركي صهيوني، تهيمن به إسرائيل إن انتصر المشروع الأميركي، أو شرق أوسط متوازن عربياً وإسرائيلياً، أو شرق أوسط تنتصر به قوى الممانعة العربية والإسلامية فتضع حداً للمشروع الصهيوني، وترسم الشرق الأوسط بإرادة أبنائه ووفق مصالحهم ورغباتهم.

٥.١ تحديات السلام التي تواجه لبنان:

يواجه لبنان تحديات عدة في مصالحه الكبرى وسيادته في نتائج الصراع وهي:

- كيفية حل قضية اللاجئين الفلسطينيين. إما توطينهم في لبنان أو عودتهم إلى دولة فلسطينية كاملة السيادة، تنشأ على جزء من أرض فلسطين، أو عودتهم إلى ديارهم الأساسية.

إن توطين اللاجئين في لبنان يهدّد الكيان اللبناني بطغيان فريق على آخر، أو اللجوء إلى الكانتونات والتقسيم. وفي كلاهما نسف للدولة اللبنانية. علماً أن دستور لبنان ينص بإجماع الفرقاء على رفض التوطين.

- مستقبل لبنان الاقتصادي.

إن لبنان دولة فقيرة الموارد. لقد ازدهر في ظرف استثنائي إبان الحروب العربية الإسرائيلية، بقطاع الخدمات فقط، مستفيداً من مقاطعة العرب لفلسطين المحتلة، وتخلفهم في نموّهم الاقتصادي، وتطبيق الاشراكية في بعض الدول. فتحولت بيروت إلى بنك المشرق العربي، واحتكر لبنان السياحة والاصطياف، ونشطت التجارة والترانزيت بين أوروبا والمشرق العربي عبر بيروت.

- فضلاً عن ذلك، يواجه لبنان تحدي استغلال مياه أنهره التي تتّجه إلى فلسطين، ويواجه تحدّي الترتيبات الأمنية بينه وبين الكيان الصهيوني إن تحقق السلام.

إن لإسرائيل أطماعاً في مياه لبنان لن تتخلى عنها إلا إذا حصلت على البديل من مصادر أخرى.

إن إسرائيل في حال تحقيق السلام، ستحوذ على دور لبنان بالخدمات. لها نفس موقع لبنان للتجارة والترانزيت. ومهيأة للسياحة، وستهيّمن على المصارف لتتحكم بتوجيه الاقتصاد بالمنطقة، وهي الأقدر على ذلك. مما يفقد لبنان دوره الذي ازدهر به.

إن إسرائيل ترفض رفضاً قاطعاً عودة اللاجئين وتصر على توطينهم خارج أرض فلسطين. قد ترضخ في حال فشلها، لقبول عودتهم إلى دولة فلسطينية. إن إسرائيل تسعى بالترتيبات الأمنية لبناء عمق أمني لها داخل الدول المجاورة كما حصل في سيناء والأردن. مما يشكّل انتقاصاً من السيادة الوطنية على أرض الوطن.

٥.٢ خيارات لبنان الدفاعية:

- ***الحياد:*** إن اعتماد لبنان سياسة الحياد في الصراع، -وهذا ما تسعى إليه الحكومة اليوم-، يشكّل دفناً للرأس بالرمال، وترك تقرير مصير المصالح الوطنية للقوى الأخرى. مما يهدد بفرض التوطين وضياع مستقبل لبنان اقتصادياً؛ سوى مصالح بعض السماسرة ممن لا ضير عندهم أن يكونوا أدوات بيد الصهيونية للتغلغل بالعالم العربي اقتصادياً، وغزوه ثقافياً، لتقويض مجتمعه القادر على النهوض وبناء الدول العصرية.

- ***الحماية:*** إن الدولة الوحيدة القادرة على الحماية الآن في الشرق الأوسط هي أميركا، أو أوروبا بموافقة أميركا. وهذا يؤدّي إلى التنازل كلياً عن السيادة الوطنية لحليفه إسرائيل لتقرّر مصير الوطن ومصالحه الكبرى وفق مصالح إسرائيل.

- ***الممانعة:*** هي الخيار الوحيد أمام لبنان لمواجهة التحدّيات، دفاعاً عن سيادته ومصالحه الوطنية. وهذه لا تعني بالضرورة إعلان الحرب على أميركا؛ بل رفض مشروعها، والوقوف بوجه تنفيذه، وبناء القوة للدفاع عن الوطن إذا اضطر الأمر، وتعزيز القدرة على الممانعة، مساهمة في تعزيز الموقف المواجه للمشروع الأميركي الصهيوني حتى استعادة الحقوق، أو أقلها عدم التفريط بالموجود منها.

إن خيار الممانعة أو المواجهة يتطلب:

- بناء دولة المواجهة أو الممانعة.
- بناء المجتمع المقاوم وتعميم ثقافة المقاومة وتمتين الوحدة الوطنية والسلم الأهلي.
- بناء الاقتصاد الملائم للواقع.
- بناء الجيش القادر على الدفاع وحماية السلم الأهلي والاستقرار الداخلي.
- اعتماد خيار المقاومة المسلحة إلى جانب الجيش.

أما في السياسة الخارجية، فعلى الدولة الخيار ببناء علاقاتها وتحالفاتها بين دول حليفة كلياً لإسرائيل، أو دول محايدة في الصراع أو دول تتصدى للمشروع الأميركي الصهيوني.

إن مصلحة لبنان تقضي بالتعاون مع الدول الممانعة المواجهة للمشروع الأميركي الصهيوني، القادرة على دعم لبنان لبناء قوته وقدرته على ردع العدو، حيث ترفض أميركا تسليح لبنان لأنها حليفة إسرائيل. والتكامل مع دول الممانعة سياسياً لتعزيز جبهة مواجهة الخصم، لا مانع من الاحتفاظ بهامش مناورة بالعلاقات مع الدول المحايدة وحتى مع أوروبا الباحثة عن دور.

لقد نجحت سياسة الممانعة والمقاومة في إفشال المشروع الاميركي الصهيوني حتى الآن، ونجحت بتحرير لبنان عام ٢٠٠٠ وانتصار تموز ٢٠٠٦ وانتفاضة الشعب الفلسطيني، مما دفع لتعديل المشروع الأميركي مراراً، وصولاً للإقرار بقيام دولة فلسطينية. إن ثبات قوى الممانعة سينسف المشروع الأميركي الصهيوني، ويلزم أميركا بالإقرار بالحق العربي أخيراً. أو يخرج أميركا من المنطقة.

في حال عجز الدولة عن تبني خيار المواجهة كلياً. عليها:

- تحقيق الاستقرار الداخلي وحفظ السلم الأهلي.
- تدعيم الجيش لحفظ الأمن والاستقرار والدفاع عن الوطن.
- تبنّي خيار المقاومة لمواجهة العدو، وتحدّيات المرحلة بما يحمي مستقبل لبنان.
- إطلاق يد المقاومة في بناء مجتمع مقاوم لمواجهة التحديات.
- التنسيق سياسياً بين عمل المقاومة والحكومة.

الانتصار المقاوم
من المنظور السياسي لنظرية المباريات

الباحث بمعهد العلوم السياسية - جامعة القاهرة
الأستاذ فتحي عبد العليم (مصر)

تمثل حرب يوليو / تموز ٢٠٠٦ بين حزب الله والعدو الصهيوني، عند قيامها وبعد أن وضعت أوزارها إحدى المحطات والمنعطفات الهامة في مجريات الصراع العربي – الإسرائيلي. وواحدة من الفصول التي لا بدّ أن تأخذ خاتم التاريخ في سجل وديوان العرب والمسلمين. وهذا الاستحقاق والتقييم علينا أن نعطيه من خلال أحكام العقل البارد وليس من قبيل الانحياز العاطفي والعقائدي الساخن، وإذا كان قادة وخبراء العدو قد اعترفوا بالهزيمة وفقاً لحسابات دقيقة، وبناءً على معايير عسكرية وأمنية واستراتيجية لا تقبل المجاملة أو الأهواء الشخصية أو العبث، فذلك أمر يُحمد لهم، وأن نحذو حذوهم، فكم من معارك وكوارث وقعت في تاريخنا ومرت دون حساب أو تقييم أو مراجعة؟! ثمة ملاحظة أخرى وهي إذا كانت أكتوبر ١٩٧٣ م في مجملها ومحصلتها النهائية، رغم تسليمنا بقيمتها وروعتها، إلا أنها مثلت في النهاية مجرّد – جملة اعتراضية - في سياق تاريخي مهزوم لأمة مهزومة. واستطاعت إسرائيل ومن معها إبطال مفعول هذا النصر واحتواء آثاره وتبديد معالمه وملامحه فنحن لا نريد للنصر اللبناني أن يكون مجرّد جملة اعتراضية أخرى في نفس السياق التاريخي المهزوم لأمتنا المنكوبة. ولا نريد له أن يكون نصراً ميتاً بحماقة أصحابه وسذاجة صانعيه وأن يتم دفنه في صحراء العرب المقفرة، نحن نريد له أن يكون بداية للعودة وعودة للروح وترياق لآمة استبدت بها العلل مصدقاً للحكمة العربية القديمة التي تقول:

ومن العجائب والعجـــائب جُمّة قرب
قـرب الدواء ومـــا إليه وصولُ
كالعيس في البيـــداء يقتلها الظمـأ
والمـاء فوق ظهـــورها محمول

من هذا المنطلق، ولهذا المرمى والغرض، غرض صيانة الذاكرة، وتجديد الوعي، والعض بالنواجذ على نصر لا بدّ له أن يعيش، والسعي من أجل أن يكون شعلة وسط التيه، وأن يكون مرفأ

آمناً للدياسبورا العربية. سوف يجتهد الباحث وقلمه، في النظر إلى الحرب اللبنانية الإسرائيلية الأخيرة ومحاولة تسطيرها وفقاً لأداة بحثية معروفة في العلوم السياسية وهي نظرية المباريات. وسوف يتم تناول ذلك بشكل تحليلي تحت عناوين متتابعة كما يلي:

أولاً: تعريف نظرية المباريات:

نظرية المباريات فرع من فروع علم الرياضيات، تم استعارتها من العلوم الرياضية والطبيعية واستخدامها في العلوم السياسية والاستراتيجية. إذ إن العلوم السياسية تستفيد من كثير من العلوم الأخرى. ونظرية المباريات نظرية قديمة، حيث بدأ وضع لبناتها الأولى منذ عام ١٩٤٤ م بواسطة مجموعة من كبار العلماء في نطاق مشروع منهاتن وهو المشروع الذي جاء في أعقاب حيازة الولايات المتحدة للقنبلة النووية. وتسمّى هذه النظرية أيضاً: مباراة «٢٢» حيث يضع اللاعب نفسه موضع الطرف الآخر، ليرى كيف يفكّر، وبالتالي كيف تكون ردود أفعاله. تعتمد نظرية المباريات على معيار محوري وأساسي وهو، تعظيم المكاسب والفوائد وبعبارة أوضح من يكسب أكثر من خلال إجراء كافة العمليات الاحتمالية. أي أنها تقوم على كل ما يتعلق بالرغبة والدوافع والقيم الذاتية، ومن هنا فهي ليست نظرية موضوعية أو وصفية مثل العديد من النظريات الأخرى التي تفسّر مفهوماً أو ظاهرة الصراع الدولي مثل «نظرية القوة» أو نظرية «التحالف». ولكنّها نظرية معيارية، معيارها الأول والأساسي هو فكرة العقلانية، أي القدرة على اتخاذ قرارات رشيدة ومحسوبة ومنطقية في إطار بيئة صراعية تفاعلية، تفترض نظرية المباريات أن هناك موقفاً صراعياً ناجماً عن وجود شيء يحتّم الصراع من حوله، أملاً في الحصول عليه، سواء كلية أو اقتباساً. ويجري تصور الصراع على شكل مباراة بين طرفين، ولكل طرف اختياران: الأحسن والأسوأ. ويطلق على هذا التصور: مصفوفة مباريات «٢٢» حيث يوجد طرفان يمكن التعبير عنهما رمزياً: (س)، (ص). يوجد لكل لاعب من طرفي المباراة خياران فمثلاً اللاعب (س) له خياران هما«Ah» بينما اللاعب (ص) يملك الخياران "Ch"D" ويوجد دافع أساسي للطرفين إلا وهو الحصول على أفضل النتائج، بمعنى تحقيق أكبر قدر من المنفعة والمباراة في إطار زمني ومكاني، تلعب مرة واحدة، وتنتهي نهاية واحدة، ويحكمها في سياقها وتوتراتها وتقلباتها ودرجات الصعود والهبوط ومستويات التهدئة والتصعيد صراع الإرادات، وحسابات ومناورات الأدمغة والعقول وتتكون المصفوفة الأساسية للمباراة من أربعة احتمالات هي كالآتي: ص

A 1/1	C 3/3
B 2/2	D 4/4

وبالتالي تأخذ الاحتمالات الأربعة التقييم التسلسلي التالي:

- الاحتمال رقم (١) مثالي
- الاحتمال رقم (٢) أحسن
- الاحتمال رقم (٣) أقل سوءً
- الاحتمال رقم (٤) الأسوأ

وقبل أن تبدأ أي مباراة، لا بدّ لكل لاعب أن يمتلك تصميماً مسبقاً لما يسمّى هيكل المنافع (structural of jt˙...s)، والمقصود بهذا المصطلح، مجموعة القيم التي تحدد ما يمكن أن يربحه كل طرف من أطراف المباراة. وتتضمن المنفعة عدة عناصر، يتخلق التفاعل فيما بينها، ومعطياً هيكل القيم لكل طرف من أطراف المباراة، وتلك العناصر تشمل ما يلي:

١- الهدف من المباراة.

٢- الموارد المستخدمة.

٣- المعلومات.

وعند البدء في إجراء الحساب الاحتمالي لكل اختيار، يوجد ما يسمّى بالفوائد، والتوابع والمقصود بالفوائد (utilities) هو مجموعة المزايا، أما التوابع (consequences)، فهي مجموعة العوامل المؤثرة في بيئة اللعب، والتي تعني بالضرورة أن يكون اللاعب واعياً بها ومدركاً لها قبل تحديد أي منافع ويعني ذلك أن هناك تأثيرات ناتجة عن تفاعلات ما، حيث إن المباريات بطبيعتها - دائماً هي مباريات تفاعلية، وبالتالي فالنتيجة لا تعني فائزاً على طول الخط أو خاسراً على طول الخط، ولكن الفائز أو الخاسر يكون بقدر وهذا القدر يتسع أو ينكمش بناءً على التأثيرات المضافة والحاكمة لخيارات المستقبل المنظور، والتي تعني إمكانيات اللعب والنزال في جولات تالية. وهو ما يسمّيه بعض الباحثين، ظل المستقبل "shadow of future" فكل طرف يدخل المباراة ولديه رؤية وتصور خاص عن مكاسبه المتوقعة والمأمولة وإحساس وإدراك بالتوابع الناتجة عن الفوز أو الخسارة. وهكذا تتشابك الأبستمولوجيا العميقة للصراع مع تهديدات الأنطولوجيا (الوجود) لتفرز مناخاً وبيئة يتم بمقتضاها تحديد المصير، ويتصارع الطرفان على الحياة فيحتكمان إلى الموت إذا كانت المباراة معركة حربية. وقد يتصارعان على المغنم والمغرم، إذا كانت المباراة لعبة سياسية يضاف إلى ذلك أن كل طرف يجري حساب احتمالاته في مواجهة احتمالات الخصم، فكل طرف يملك مجموعة من الاحتمالات في نفس اللحظة. والعنصر الحاكم واللازم لهذه الاحتمالات هو ما يملكه كل طرف من استراتيجية معلنة وخريطة مرسومة.

ثانياً: حديث عن العقلانية:

كما أسلفنا القول، تعتمد نظرية المباريات على فكرة ومعيار العقلانية، وشاءت الأقدار

وتداعيات الأحداث أن تكون ردود الأفعال الأولية على بداية واشتعال معركة يوليو / تموز ٢٠٠٦ م من قادة الدول العربية مصر والسعودية والأردن، هي أن ما فعله حزب الله هو مغامرة غير محسوبة وأن حزب الله هو الذي جرّ المنطقة إلى الحرب. ترى ما مدى صحة هذا الكلام؟ وهل تنتفي صفة العقلانية عن السلوك الابتدائي لحزب الله في هذه الحرب؟ وهل دخل حزب الله هذه الحرب بدون حسابات أو بحسابات خاطئة أو محدودة؟ وماذا يمكن أن تقدّمه نظرية المباريات في هذا الأمر؟ الشاهد أن حزب الله كان يبغي عملية عسكرية محدودة كان دافعها وحاكمها التزاماً دينياً وأخلاقياً وسياسياً في المقام الأول بهدف التخفيف عن شعب يتعرض لمجازر يومية يندى لها الجبين، وتمثّل عاراً على الجميع، وسُبة في تاريخ البشرية وضمير الغرب والعالم الميت.

ولم يكن يتوقع قادة حزب الله رد الفعل الهائل (hyper action) من جانب العدو الصهيوني. والدليل على ذلك تصريحات السيد حسن نصر الله عندما قال: «إذا كانوا يريدونها حرباً مفتوحة، فلتكن حرباً مفتوحة».

ولكن هذا لا ينفي صفة العقلانية، أو غياب الحسابات عند كل طرف في المباراة الدموية فحزب الله كان يعلم تماماً أنه مستهدف، وأن هناك خطراً قائماً لا يغيب، لذلك كان لديه خططه الجاهزة للدفاع عن ذاته وكيانه. وفي المقابل كان هناك تحدٍّ ومعضلة عسكرية وأمنية تواجه إسرائيل، وخطر قابع على الحدود الشمالية، ذو طبيعة ونوعية مختلفة، يملك طاقة معنوية هائلة، ومرجعية عقائدية هي الخطر الحقيقي على وجود ومصير الدولة العبرية. وتجردت منها الأنظمة العربية فوصلت إلى ما وصلت إليه. يضاف إلى ذلك أن هذا العدو صعب ترويضه أو استئصاله وتركه دون عقاب أو إبادة يعني استفحال الخطر ونمو لمعطيات جديدة غير مرغوب فيها. لذلك كان لزاماً أن يأتي وقت الحساب وأن تدنو ساعة الحقيقة حيث يتعين على الكيان الصهيوني أن يقضي على هذا الخطر، ويزيل هذا التحدي دون أن يرضى بالتكيف معه.

يتضح من التحليل السابق أن حسابات المواجهة كانت موجودة سلفاً لدى الطرفين، أما الحسابات الغائبة كانت حسابات التوقيت فقط. حيث شاءت تداعيات وتعقيدات الأحداث على الساحة الفلسطينية، أن تعجل بشرارة المواجهة.

ولكن ماذا عن نظرية المباريات القائمة على العقلانية؟

الإجابة، أن هناك أربعة أنماط مختلفة من العقلانية، وهي:

١ - *العقلانية المتشددة (optimum rationality).*

والمقصود بها السلوك الذي يبغي أقصى درجات العدالة الممكنة بين أطراف المباراة لأنها ستنتهي بخاسر مقابل فائز. لذلك هذا النمط يرى أن جميع اللاعبين يجب أن يكونوا في وضع عادل ومتكافئ قبل بداية المباراة.

٢-العقلانية القصوى (rationality of maximization)

ويقصد بها ذلك السلوك الذي يتوخى تحصيل أكبر قدر من المكاسب والمنافع، بحكم أنه الطرف الفاعل والقوي والإيجابي والذي يدفع باتجاه بدء المباراة وهو في وضعية أفضل، ويهدف إلى تحقيق مكاسبه ومصالحه الصماء دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى.

٣- العقلانية المختلطة (mixed rationality).

ويقصد بها ذلك السلوك، الذي يمزج بين ضرورات المصلحة الذاتية، والاعتبارات الأخلاقية والإنسانية والعامة. وقد يكون للطرف الفاعل بعض الاعتبارات التي تجعله يتجاوز حسابات المكسب والخسارة في سبيل عدم الإخلال بما يراه حقاً وواجب.

٤- العقلانية الرخوة (soft rationality).

والمقصود بها ذلك السلوك الذي ينحاز دوماً إلى كل ما هو سائد ومتوقع في بيئته، بغض النظر عن أية نتائج لحسابات معقدة، أو ضرورات حفظ ورعاية مصالح وأخلاقيات ومبادئ بعينها. ومعنى ذلك أنها حسابات ضيقة لضرورات مواقف خاضعة لردود فعل داخل البيئة التفاعلية.

- وبإسقاط الأنماط الأربعة المختلفة السابقة على ما جرى في معركة حزب الله ضد إسرائيل الأخيرة، ونجد أن النمط الأول هو العقلانية المتشددة ليس له محل من الاعراب فلا يوجد عدالة أو تكافؤ فرص بين الأطراف قبل بدء المباراة.

- أما النمط الثاني وهو العقلانية القصوى التي تسعى لتحقيق أهدافها دون أي غطاء أخلاقي أو إنساني أو حضاري فينطبق على العدو الإسرائيلي وجرائمه خلال الحرب.

أما النمط الثالث وهو العقلانية المختلطة والتي تسعى إلى تحقيق الأهداف والمصالح مع الحفاظ على الحق وأداء واجب تحت مظلة من القيم فينطبق على حزب الله، بل هو صميم رسالته ومضمون كيانه ومشروعه الفكري الحضاري.

أما النمط الرابع وهو العقلانية الرخوة فهو سلوك الأنظمة والقادة العرب، والذين فقدوا مبرّرات وشرعية وجودهم، وأصبحوا مجرّد عناوين للإفلاس والنهاية في مرحلة مريضة من تاريخنا. وجاء وزراء خارجيتهم على متن طائرة أخذت الإذن بالهبوط من سلطات العدو الصهيوني، في مسرحية تضامنية تفضح أكثر مما تستر. وبكى أمامهم رجل طلبت منه امرأة من بني إسرائيل ألا يبكي وأن يجفّف دموعه !! وهكذا نطوي المشهد اللبناني على زخم من التناقضات فضلاً عن المفارقات السياسية مصداقاً لقول الشاعر العربي:

وليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبةٍ

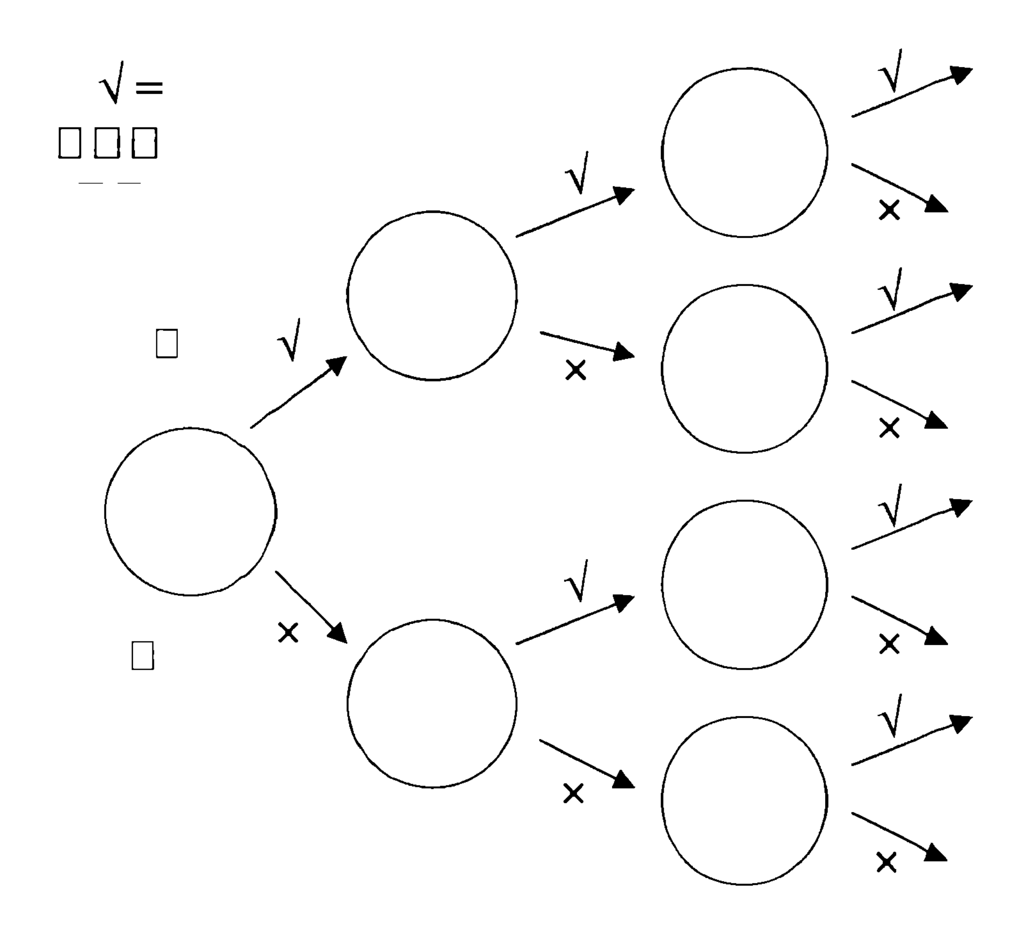
ثالثاً: نظرية المباريات وأهمية المعلومات:

إن قيمة وحجم وماهية المعلومات التي يملكها كل طرف من أطراف المباراة، تشكّل عاملاً فارقاً وعنصر الحسم لنتيجة المباراة لأي من الطرفين والمعلومات السابقة على خوض غمار المباراة هي التي تحدّد أدوارها، وتتحكّم في مسارها وفي سلوك وردود فعل طرفيها، وأي تغيير في كم وماهية وجودة هذه المعلومات يؤدّي بالتبعية إلى تقلبات وتحولات في أدوار وأطوار المباراة، وعمليات من التباديل والتوافيق في السلوكيات والمواقف للأطراف المباشرة والغير مباشرة سواء على الخط (on lone) أو من خارج الخطوط (out sides) وعلى كل من يدير الصراع أن يعتمد المعلومات في بناء استراتيجيته، ومعرفة الخصم، وطرق وأساليب اللعب والمناورة، ونقاط القوة والضعف لديه، وحيث إن مطابخ ودهاليز السياسة في المجتمع الدولي تتسم بالمعلومات غير الكاملة والتي تغدو صعبة المنال، ومن هنا يظهر دور أجهزة المخابرات وحرب المعلومات ومدى الكفاءة والحرفية لدى الكوادر التي يملكها كل طرف.

وبالنظر إلى وقائع وأحداث حرب يوليو/تموز، يتضح فوز حزب الله في حرب المعلومات، ومدى الفشل المخابراتي للعدو الصهيوني، فالضربات المباشرة والدقيقة والمتدرّجة والمحسوبة، لمستوطنات ومدن وموانى الشمال الإسرائيلي جاءت بناءً على خرائط كاملة من المعلومات في مقابل ضربات جوّية عشوائية لم تسعفها الأقمار الصناعية أو طائرات الاستطلاع التي كانت تجوب الأجواء ومعروف قبل الحرب بفترات، ما كانت تقوم به طائرات مرصاد[١] ومرصاد[٢] من رصد واستطلاع والتي ابتكرها أبناء حزب الله. وبلغت الأمور ذروة الإتقان والإنجاز عندما ظهر الشيخ المعمّم على شاشة التلفاز يخاطب الجماهير ويبلغهم بإصابة وإغراق المدمرة الإسرائيلية تجاه الساحل، وهو مشهد نادر بالمقاييس العسكرية والمعلوماتية، فضلاً عن مضامينه المعنوية والنفسية وسط محنة ودمار شامل يتعرض له شعب بأكمله. وقد حدثت خلافات وإشكاليات بين القيادات العليا الإسرائيلية نتيجة الإخفاقات والانكسارات المتتالية وعدم قدرة أجهزة الاستخبارات على اختراق أو تفكيك شبكة الاتصالات لحزب الله.

في مقابل نجاح مقاتلي حزب الله في التصنت على أجهزة المحمول للجنود الإسرائيليين ومعرفة أماكن الحشد والتجمع في الشمال الإسرائيلي وضربها. يضاف إلى ذلك أن عدم معرفة المواقع الحصينة لحزب الله والفشل في تدميرها كان يعني جهلاً مخابراتياً وغياباً للمعلومات وعمياً ميدانياً. وجاء تحطيم أسطورة الميركافا أثناء الهجوم والحرب البرية ليمثل صفعة مؤلمة للكبرياء العسكري الصهيوني، وليقضي على مستقبل ومبيعات هذا السلاح. وكان ذلك نصراً مدوياً في السلاح والمعلومات.

رابعاً: نظرية المباريات وشجرة الاحتمالات:



تقوم نظرية المباريات على حساب الاحتمالات، والتي يتم بناءً عليها إعداد التكتيكات، وبناء الخطط والاستراتيجيات. وبالتبعية تحديد السلوك واتخاذ المواقف. وتتفرع من احتمالات هذه الشجرة (س) و (ص)، مجموعة من الاحتمالات الفرعية والجزئية الأخرى والتي تأخذ ثنائية «نعم» و«لا». وهكذا في متوالية احتمالية وبناءً على ذلك، يتم حساب التأثيرات مما يسهل - إلى حد بعيد - بيان وحساب تعددية الاحتمالات والفوائد. ويمكن القول: إن هناك فوارق بين الفائدة والتأثير والاحتمال. فالفائدة هي المزايا التي تنتج عن خوض المباراة، بينما الاحتمال هو سلوك متوقع حدوثه عند حدوث أو تحقق ظرف ما، أي أن الاحتمال لا يسبح في الفراغ أو المطلق، ولكنه محكوم أو مشروط بشيء ما. أما التأثير فهو، السلوك المتولّد نتيجة تحقق الاحتمال.

بعبارة أخرى الاحتمال يحدث أولاً، ثم يتبعه التأثير كنتيجة سببية له وبالتطبيق على الحالة اللبنانية - الإسرائيلية محل البحث، توافرت لدى كل طرف مجموعة من الاحتمالات الأصلية ثم

الفرعية الممتدة ما بين نعم ولا.

بالنسبة للطرف الإسرائيلي، تبدأ شجرة الاحتمالات باختيار أصلي أو مبدئي وهو اتخاذ قرار الحرب وبدء الضربات الجوية (نعم أم لا) فنعم معناها بدء الحرب ولا معناها الامتناع عن الحرب، وقبول الإهانة بخطف الجنود الإسرائيليين من داخل حدودها. وبدء الضربات الجوية كاحتمال بنعم، يعقبه التأثير وهو الآثار التدميرية للعدو (حزب الله) وهنا تتفرع الاحتمالات بنعم أو لا، من قبيل هل تم تفكيك بنية الحزب وكسر إرادته أم لا؟ فإذا كانت نعم فيكون الهدف الغالي إعادة احتلال لبنان وقيام الشرق الأوسط الجديد، وإذا كانت لا، فيتم اتباع أسلوب الأرض المحروقة وتدمير البنية التحتية للدولة اللبنانية بأكملها وقصف المدنيين. أما الطرف الآخر وهو حزب الله، فيكون الاحتمال الأصلي والمبدئي، وهو بدء الحرب والقصف الجوي أم لا. فنعم معناها المواجهة المرتقبة بحكم طبائع الأشياء واستحكام التناقضات، ولا معناها نجاح العملية المحدودة لخطف الجنود دون ثمن، وفي حالة نعم عند بدء القصف الجوي الإسرائيلي، لا يوجد لدى حزب الله قوات جوية مضادة فيكون البديل القصف الصاروخي المكثف للعمق والشمال الإسرائيلي، وهكذا بالتتابع قصف الضاحية الجنوبية يقابله قصف حيفا، وقصف بيروت بأكملها يقابله قصف تل أبيب، تدريجياً، حيث «نعم» يقابلها «نعم» و«لا» يقابلها«لا» في مباراة تكتيكية تدريجية تصاعدية، تنطوي على الردع والحرب النفسية، والوعيد بمزيد من المفاجآت من طرف حزب الله. أما بالنسبة للإدارة الأميركية فتبدو شجرة الاحتمالات في احتمال أولى وهو نجاح الحملة العسكرية الإسرائيلية، فنعم معناها إعادة ترتيب الأوضاع والفك ثم التركيب والتبشير بالشرق الأوسط الجديد، وتعطيل اجتماع مجلس الأمن لإعطاء الفرصة للحليف الصهيوني لإنجاز المهمة، وحصار سوريا ثم ضربها لاحقاً.«لا»، يستتبعها التدخل السياسي، ومد جسور الإمداد بالأسلحة الذكية والغبية، ثم إنقاذ الحليف من سقوط مدوي بإيقاف الحرب وإرسال قوات دولية.

وهكذا يتضح من السرد والتحليل السابق وجود متوالية احتمالية قائمة على الحساب وعقلانية اتخاذ القرار في بيئة دامية وملتهبة ومفعمة بكل أنواع الضغوط والمناورات، فضلاً عن المدى الزمني الغير قصير والذي لم يتعود عليه الجيش والمجتمع الصهيوني، في مقابل نوع من الاحتمال والصبر والطاقة الصامدة شبه الإعجازي لدى مقاتلي حزب الله دون أي غطاء جوي والذي يعد من أدبيات وأبجديات أي حسابات عسكرية تهدف إلى الصمود والنصر في أية معركة عسكرية. ولكنها كانت معركة غير تقليدية توافرت فيها عناصر غير مادية، وغير قابلة للقياس الرقمي أو الديجيتال التكنولوجي. فهي المحرّكة للمادة وتتعالى عليها ولا تخضع لها، يفهمها أصحابها ممن تربوا على مبادئ راقية وثقافة أصيلة وحضارة لن تزول.

خامساً: بيئـة المباريـات:

بالنظر إلى البيئة التي تجري فيها المباريات يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من البيئة وذلك كما يلي:

١- *بيئـة التأكـد (Decision under certainty)*

والمقصود بها ذلك النوع من البيئة، والتي يتوافر من خلالها الحد الأقصى من المعلومات الصحيحة والمؤكّدة. وهنا تكون البدائل المتاحة أمام متخذ القرار على درجة عالية من الوضوح، وبالتالي فالاحتمالات تكون محدودة، وبالطبع لا يوجد احتمالات مطلقة.

٢- *بيئـة عـدم التـأكـد (Decision under uncertainty)*

وهي بيئة تتسم بعدم توافر معلومات كاملة أو صحيحة. ومن هنا توجد أربعة معايير والتي يمكن بواسطتها حساب بيئة عدم التأكد:

أ- معيار المتوسط الحسابي، ويتم استخدامه في الحالة الطبيعية.

ب – معيار أفضل الأسوأ، ويتم حسابه في حالة التشاؤم.

جـ – معيار أفضل الأفضل، ويتم حسابه في حالة التفاؤل.

د – معيار الأقل ندماً.

ويستخدم معيار المتوسط الحسابي (average)، عندما يكون هناك غياب للمعلومات بشكل شبه كامل مما يدفع متخذ القرار إلى فرض مجموعة من الاحتمالات ومن ثم استخلاص متوسط لها. ومن المعروف أن المتوسط لأي مجموعة من البدائل هو ناتج قسمة حاصل جمع تلك البدائل على عددها، بينما معيار أفضل الأسوأ «أقصى تشاؤم» يستخدم عندما تكون المعلومات المتوافرة والمتاحة تدفع باتجاه حدوث نتائج غير مرضية مما يؤدي بصانع القرار إلى الحرص وتوخي الحذر واللجوء إلي الاحتمالات التي تمنحه أقل خسائر ممكنة وفي المقابل، إذا كانت المعلومات المتوافرة أمام صانع القرار تدل علي توافر فرص كبيرة في الحصول على أكبر مكاسب وبالتالي يلجأ متخذ القرار إلى استخدام معيار أفضل الأفضل «أقصى تفاؤل»، حيث يفاضل متخذ القرار بين البدائل المتاحة ويختار البديل الذي يحقق له أفضل النتائج أما المعيار الرابع وهو معيار الأقل ندماً فيتم استخدامه عندما يكون هناك تكلفة أو خسارة أو تضحية يتم تكبدها في حالة عدم اتخاذ القرار السليم وبالتالي يكون صانع القرار مضطراً إلى توخي الحذر، ويتخذ قراره في سياق تخفيض درجة الخسارة إلى أقل حد، وبالتالي الندم يكون أقل ما يمكن.

٣- *بيئـة المخـاطر (Risk)*

وهي بيئة وسط تقع بين النوعين السابقين بيئة التأكّد وبيئة عدم التأكد: وتقضي بأن صانع القرار يكون في بيئة تحتوي على درجة من المخاطرة ويأمل في الوصل إلى ما يسمّى القيمة المتوقعة.

- وبالنظر إلى وقائع الحرب اللبنانية يمكن القول: إن أحداثها وقعت تحت النوع الثاني من أنواع البيئة وهي بيئة عدم التأكد، حيث هناك عدم توافر للمعلومات الكاملة والصحيحة أو المؤكد لدى كلاً من الطرفين المتصارعين.

أما المعايير الأربعة السالف عرضها ففي الجانب الإسرائيلي، كان صانع القرار مضطراً إلى استخدام معيار أفضل الأسوأ «أقصى تشاؤم»، حيث وصل إلى اتخاذ البديل الذي يوقف تيار الهزيمة والضياع الكامل لهيبة الجيش الإسرائيلي وضرب العمق الإسرائيلي لأول مرة في تاريخ الصراع العربي - الصهيوني.

أما في الجهة المقابلة لدى قيادات حزب الله فكان متخذ القرار مضطراً إلى قبول المعيار الرابع وهو معيار الأقل ندماً، فهو قد حقق إنجازات كبيرة ولكن في المقابل تم تدمير البنية التحتية للدولة، وهناك نوع من الانقسام والمعارضة على مستوى السلطة والحكومات اللبنانية والقوى السياسية، بالإضافة إلى أن الخسائر في المدنيين كانت فادحة، وبالتالي لم يكن من المنطق الاستمرار في هذا الوضع إلى ما لا نهاية، خصوصاً أنه قد تم إفشال كل أهداف ومخططات العدو، بالإضافة إلى توافر مستوى عالٍ من الشعور الإنساني، والإحساس بالمسؤولية، لدى قيادات حزب الله تجاه ما يحدث للمدنيين وأبناء الشعب اللبناني، لذلك تم قبول وقف إطلاق النار وقبول مجيء قوات دولية إلى الجنوب اللبناني.

- سادساً: أنواع وأشكال المباريات

توجد عدة أنواع وأنماط مختلفة من المباريات يمكن إلقاء الضوء عليها تباعاً كما يلي:

١- المباراة الصفرية (Zero game)

وهي ذلك النوع من المباريات والتي تكون محصلته الجبرية صفراً بمعني أن (+٥ -٥= صفر)، ويعني ذلك، أن المباراة تنتهي بفوز أحد الطرفين فوزاً كلياً في المقابل خسارة الطرف الآخر خسارة كلية.

٢- مباراة التهديد

يطلق عليها البعض «مباراة الخوف» أو مباراة «من سيكون الضحية» وتعتمد على فكرة أن هناك طرفاً أول يهدّد طرفاً ثانياً، وأن هذا التهديد يتسم بدرجة كبيرة من الجدية والمصداقية.

وهنا إذا بادر الطرف الثاني بمبادلة الطرف الأول بنفس القدر من التهديد، فسوف تعم الخسارة الطرفين أي أن التهديد هنا هو تهديد متبادل ومتكافئ ومهدد لوجود الطرفين، ولكن تكون الخسارة أقل لمن ينفّذ تهديده أولاً، أو بعبارة أخرى لمن يقوم بالضربة الأولى. وأوضح مثال لهذا النوع من المباريات مسألة الرعب النووي والتي استمرت طوال حقبة الحرب الباردة بين القطبين الرأسمالي والاشتراكي. وتهتم مباراة التهديد حالياً بقياس أهمية الضربة الأولي والتي لم تكن محل اهتمام في السابق.

٣- مباراة معضلة السجينين

يقوم هذا النمط من المباريات على تصور، أنه تم القبض على اثنين من المشتبه فيهم في ارتكابهما فعل ما مُجرم أو خارج عن القواعد القانونية وتم إيداعهما في المعتقل في حجرتين منفصلتين، أي حبس انفرادي لكل منهما، بحيث لا يتوافر بينهما أي قدر من الاتصالات. وقد أراد قاضي التحقيقات، أن يجعل السجينين يعترف كل منهما على الآخر فذهب إلى السجين الأول (أ) وعرض عليه أن يصبح «شاهد ملك» في مقابل الاعتراف على الآخر (ب) ويتم إطلاق سراحه وذهب مسؤول التحقيقات وعرض على السجين الثاني (ب) نفس العرض أن يكون «شاهد ملك» ويعترف اعترافاً كاملاً على صديقه السجين (أ) مقابل أن يطلق سراحه وهنا تعتمد استراتيجية قاضي التحقيقات على أن يضحي كل سجين بالآخر ويصل إلى هدفه ثم يتخلص منهما بالعقاب بعد ذلك، وهنا توجد مجموعة من الخيارات والبدائل أما السجين (أ) وبنفس القدر لزميله (ب) ويتمثل ذلك فيما يلي:

١- في حالة اعتراف (أ) بالكامل على (ب) وعدم اعتراف (ب) عليه فإنه يحقق مصلحته القصوى بإطلاق سراحه ويتحمّل (ب) العقوبة بالكامل.

٢- في حالة اعتراف (أ) بالكامل على (ب) في مقابل اعتراف (ب) بالكامل على (أ) فإنهما يحصلان على أقصى عقوبة ويصل قاضي التحقيقات إلى هدفه ومصلحته القصوى.

٣- في حالة عدم اعتراف (أ) على (ب) في مقابل اعتراف (ب) بالكامل على (أ) فإن (أ) يحصل على أقصى عقوبة، ويخسر الفرصة المتاحة أمامه في مقابل أن يحصل (ب)على مصلحته بالكامل ويصبح «شاهد ملك» عليه.

٤- في حالة عدم اعترافه على (ب) وعدم اعتراف (ب) عليه، فإنهما يحصلان على أقل عقوبة، وقد يخرجان من هذه المعضلة، بينما يحصل قاضي التحقيقات على أقصى درجات الفشل.

- ويتوقف حساب المعضلة على خبرة الطرفين، فتكون المباراة سهلة نسبياً إذا كانا معتادين على هذه المواقف وتتوافر معلومات لكل طرف عن صاحبه ويعرف كيف يتصرف الآخر، وتكون المباراة في غاية الصعوبة، إذا كانت هي المرة الأولى، التي يتعرضان فيها لهذا الموقف في حين تكون سهلة بالنسبة لمسؤول التحقيقات.

٤- مباراة المستغل

وهذا النوع من المباريات يكون فيه الطرفان غير متساويين في القوة ويوجد حالة من انعدام التكافؤ بين الطرفين، ويكون توزيع القوى بعيداً عن التعادلية، حيث طرف متخم بالوسائل والإمكانات ويلقي كافة أشكال الدعم في مقابل طرف قد يفتقد إلى أبسط مقوّمات الحياة فضلاً عن أدوات المواجهة والحرب، وهنا لا يوجد مكان لاعتبارات العدالة أو الأخلاق ولكن يوجد طرف

قوي يتقن كافة أساليب الاستغلال تجاه طرف ضعيف.

حسابات وتكتيكات الاستغلال:

ينبغي الإشارة في هذا المقام إلى ملاحظة جديرة بالنظر والوقوف عندها بالتأمّل والاعتبار،وهي أن كافة عمليات وبدائل الاستغلال ينطوي على شكل ما من أشكال المشاركة والتعاون بين الطرفين القوي والضعيف وأن درجة ومستوى الاستغلال تأتي كمحصّلة لإرادة الطرفين وهنا قد تأخذ المباراة حالات طبيعية سوية، يحاول فيها الطرف الضعيف أن يتخلّص من ضعفه ويدافع عن حقوقه فتتقلص مساحة عدم التكافؤ وتأخذ الأمور منحاها ومسارها الطبيعي فلا تظل القوة حكراً على طرف دون آخر، أو تظل مظلة ثابتة لطرف ويبقى الطرف الآخر مكشوفاً عارياً، بل تأخذ القوة قانونها الطبيعي كما خلقها الله وسيلة لاغتصاب الحقوق في أيادي الظالمين ووسيلة لاسترداد هذه الحقوق في أيادي المظلومين وأصحاب الحقوق وقد تأخذ المباراة حالات مرضية غير سوية، حيث تتآكل أو تتلاشى إرادة الطرف الضعيف أمام الإرادة الغالبة للطرف القوي ويخضع لمطالب الطرف الأقوى وقد تصل به الأمور، إلى أن يتعاون معه ولو على حساب حقوقه المشروعة ومصالحه فضلاً عن مبادئه وأخلاقياته وعقائده. وهنا قد يحقق هذا الطرف المريض بعض المصالح الآنية أو الضيّقة أو الوهمية وهي لا تصمد أمام تيار الخسائر الفادح والفاتورة الباهظة الثمن.

وبناءً على التحليل السابق يمكن بيان حسابات وبدائل الاستغلال من خلال الشكل التالي:

ص

C -4/+4	A +3/+3
D +1/+1	B +4/-4

١- البديل الأول (B +4/-4)حيث يقوم الطرف الأقوى (س) باستغلال الطرف الضعيف (ص) ويحقق س أكبر قدر من المكاسب (+4) في مقابل تكبد الطرف (ص) أكبر قدر من الخسائر (4-).

٢- البديل الثاني (C+ 4-/4) يتم فيه استغلال الطرف الضعيف (س) ويلحق به أكبر خسائر (-٤) في مقابل أكبر مكاسب للطرف القوي (ص) أي (+4).

ويلاحظ هنا أن البديلين الأول والثاني وهما C,B يعتبرا وجهين لعملة واحدة والأمر هو تبادلي بين الطرفين س،ص من حيث مركز القوة أو الضعف ويأخذ كل بديل منهما أحكام المباراة الصفرية حيث مكاسب كاملة لطرف في مقابل خسائر كاملة لطرف آخر.

٣- البديل الثالث A (+٣/+٣) هنا يجتهد الطرف الضعيف في التخلص من ضعفه ويسعى للتمرد والمواجهة مطالباً بحقوقه من الطرف القوي فيحقق الطرفان أعلى درجات للاقتسام المتكافئ للمكاسب (+٣).

٤- البديل الرابع D (+١ /+١) وهنا أيضاً يتخلص الطرف الأضعف من ضعفه ويتمرّد على الطرف الأقوى مطالباً بحقوقه، ويحقق الطرفان أقل درجات لمكاسب الاقتسام المتكافئ وهي(-١).

- بعد الاستعراض السابق للأنواع المختلفة من المباريات وإذا حاولنا الاجتهاد في إجراء التكييف النظري لحالة الحرب اللبنانية الأخيرة ووضعية حزب الله فيها، نجد أنه من الصعب أن تكون الحرب الأخيرة حرباً صفرية أي هي مكاسب كاملة لطرف في مقابل خسائر مقابلة لطرف آخر. والأنواع الأخرى من المباريات وهي مباراة التهديد أو مباراة معضلة السجينين، فهناك بعض التحفظ أو التكلف عند محاولة تطبيقها على حالة الحرب اللبنانية محل الدراسة.

دروس ودلالات الانتصار

لكن المناسب والأقرب إلى الموضوعية والتكييف الصحيح هو مباراة الاستغلال حيث تبرز القيمة الحقيقية لحزب الله، وتعظيم الاستفادة من مشروعه الحضاري والفكري وفلسفته الجهادية، وتظهر أهمية الحرب الأخيرة وما تحقق فيها من دروس ودلالات عميقة، نحن كشعوب ومجتمعات = وعربية وإسلامية في أمسّ الحاجة إليها في ظروفنا الراهنة ومرحلتنا التاريخية الحرجة، فوسط أطلال الانهيار لأمة عريقة ذات حضارة وتاريخ، لا بدّ أن يكون هناك بناؤون قادرون على تقديم فلسفة متماسكة للبناء، ونموذج معرفيّ نقيّ معبّر عن الهوية والذات، فضلاً عن تقديم إنجازات حقيقية على أرض الواقع تمثل تحدٍّ لجبروت وإجرام أهل الباطل، والأهم أن ترد الحيارى وهم كُثر إلى رشدهم وصوابهم وتهديهم إلى شاطئ ومرفأ الحق والحقيقية. وأيضاً تُخرس الكثيرين من تجار الدعارة السياسية ونخاسي الشعوب والأوطان. وإذا لم تخرسهم لأن صوتهم عالٍ في زمن الردة والخيانة والتي أصبحت مجرّد وجهات نظر في عصرنا الحالي، فعلى الأقل يتم كشفهم وتعريتهم وإحراجهم أمام الشعوب والرأي العام والزج بهم ودحرجتهم إلى مزبلة التاريخ. وإذا كانت مجتمعاتنا العربية والإسلامية وليس المجتمع اللبناني فقط، تعاني من عملية استقطاب حادة وأنواع من الانقسام السياسي والثقافي، والتي ينزعج لها الكثيرون ولهم الحق في ذلك، إلا أنه يمكن النظر إلى ذلك على أنه عملية فرز طبيعية ولكنها قاسية تمر بها الشعوب والمجتمعات في فترات التحول والانتقال.

إن عمليات التوتر التاريخي والصدام الحضاري تستدعي الغربلة والفرز، وتستدعي اختبارات عميقة للأفراد والفئات والجماعات. وعندما يصل الباطل إلى منتهاه، لا بدّ للحق أن يأخذ مبتداه.

والحقيقة أن الحياة في مجملها والعملية برمتها، هي نوع من الاختبار العميق الذي تتحدد بناءً عليه مصائر الجميع فرادى وجماعات وكيانات.

إن من يختار الباطل ويتحمس له ثم يتبوأ مقعد القيادة ليقود دولة أو حزب أو شعب ويرجو المكسب والفوز فهو يحلم ببيضة الديك التي لن تأتي أبداً، في حين أن النموذج الآخر الذي يجري الحق منه، مجرى الدم من العروق فالمكسب بالنسبة له يدخل في دائرة اليقين ويعتبر الفوز والمكسب والانتصار بمثابة «الوعد الحق»، وشتان ما بين الوعود والأماني الكاذبة وبين مواثيق غليظة تشهد عليها الأرض وتباركها السماء.

وأخيراً، في محاولة للاجتهاد بالقلم نرجو لها ألا تخيب، حاولنا أن نطبّق نظرية في العلوم السياسية على ملحمة بطولية نرجو لها البقاء في العقول والضمائر. ولكننا إذا وسعنا مداركنا واتسع الأفق أمامنا، سوف نكتشف أن القضية ليست حالة أو نموذجاً ضيقاً محلاً للبحث والدراسة، ولكنها مباراة تاريخية كبرى، تمتد عبر أقطار السموات والأرض، وهذه المباراة ليست محدودة زمانياً أو مكانياً.

إنها مباراة ضد الإسلام وأهله وأرضه ومبناه ومعناه، ويا ليت قومي أو كثيراً من قومي يعلمون.

مراجــع الدراســة

أولاً: باللغــة العربيــة:

(١) د/ جهاد عودة، **الصراع الدولي**، مفاهيم وقضايا،(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مكتبة الأسرة،٢٠٠٦).

(٢) د/ إسماعيل صبري مقلد، **العلاقات السياسية الدولية**، دراسة في الأصول والنظريات (الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٩١م).

(٣) د/ فاروق يوسف أحمد، **قواعد علم السياسة**، اقتراب واقعي من الظاهرة السياسية، (القاهرة: مكتبة عين شمس،١٩٨٩م).

(٤) د/ عبد الحميد أحمد أبو سليمان، **أزمة العقل المسلم**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ميردن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأميركية،١٩٩١م).

ثانياً: باللغة الإنجليزية:

(1) Hamdy A. Taha , Operation research , An introduction. Maxwell macmillon Canada, Toronto, 1992.

(2) Thomas C. Scheling , The strategy of conflict, Oxford university press, 1971.

(3) Daniel S. Geller and David singer, Nations at war, Cambridge university press, 1998.

(4) Joseph S.Nye, Jr. Understanding international conflict. Longman third edition, 2000.

الانتصار وسقوط النموذج البديل في لبنان

الباحث والمفكر العربي والإستراتيجي
د. جورج حجار (لبنان)

مقدمة:

لتوضيح الدافع الرئيس وراء احتلال العراق، كتب الباحث الأميركي جان بركنز(John Perkins) عن مركزية العراق الاستراتيجية الأميركية في مشروع الهيمنة الدولية المتصاعدة، ومما جاء في كتابه: «بالإضافة إلى النفط والمياه، إن العراق يقع في موقع استراتيجي جاذب. وتقع على حدوده إيران، الكويت، السعودية، الأردن، سوريا وتركيا، وله خط متشاطئ على مدى الخليج الفارسي، إنه ضمن المسافة التي تحتاجها الصواريخ للوصول إلى إسرائيل والاتحاد السوفيتي السابق. الاستراتيجيون العسكريون يساوون العراق الحديث أو يعتبرونه بمثابة وادي نهر هدسون إبان حروب الفرنسيين والهنود والثورة الأميركية. في القرن الثامن عشر كان الفرنسيون والإنكليز والأميركيون يعرفون من يُسيطر على وادي نهر هدسون ليسيطر على القارة بكاملها. اليوم إنها معرفة عامة أن من يسيطر على العراق يلتقط مفتاح السيطرة على الشرق الأوسط»[(١)].

العراق نموذج للديمقراطية الأميركية؟

من العدوان على العراق إلى العدوان على لبنان، إن البغاة في أرضنا تستنسر، لكن مقاوماتنا المسلّحة قد فرضت على الولايات المتحدة وأتباعها الانتقال من مرحلة محاربة دول «محور الشر» إلى مرحلة التقهقر والانكفاء و«حال الإنكار»، حيث تتساقط أعمدة الرايخ الرابع وتتراجع الجيوش مما يُنبئ بزعزعة الإمبراطورية وإمكانية زوال الوكيل الإقليمي لذلك الأخطبوط؛ أي إسرائيل الصهيونية.

وتهيئة للمواجهة العسكرية غير المتكافئة تم صك وإعلان دول «محور الشر» في ٢٩ ك٢ عام ٢٠٠٢ في خطاب «حال الاتحاد».. على نسق إمبراطورية الشر السوفيتية في عصر ريغن... وارتقت كوريا الشمالية وإيران والعراق من مرتبة «الدول المارقة» إلى مرتبة «دول محور الشر»

(١)- أسعد تلحمي، العام الأسوأ في تاريخ إسرائيل، الحياة، ٣٠-١٢-٢٠٠٦.

واختيرت العراق كهدف أول وأمثولة لأنها اعتبرت «الهدف الأسهل» منالاً، وخاصة بعد الإطاحة بنظام طالبان في أفغانستان وفي حرب استباقية سريعة من ٧ تشرين الأول إلى ١٣ تشرين الثاني ٢٠٠١.

وكانت إدارة بوش الابن وبقيادة نائب الرئيس ديك تشيني - الذي يلقبه دارسو العلاقات الدولية H'Cardinal Richelie- المحرّك الأساسي لنظام بوش.. قد حسمت أمرها في آب ٢٠٠٢ وقررت الحرب الاستباقية على العراق، علماً أنها كانت حرب خيار لا حرب ضرورة.

ولتسويغ الحرب، لجأت الولايات المتحدة إلى التلفيق والأكاذيب وزعمت - وأقنعت نفسها والآخرين - على أن العراق كان يمتلك أسلحة دمار شامل وكان موئلاً للإرهاب وله علاقة بالقاعدة، لا بل إنه متورّط بالحرب التي شنتها القاعدة على كاتدرائيات ورموز نظام العظمة والجبروت، نظام الرأسمالية المعولمة، مركز التجارة الدولية وحصن حصون التخطيط والتوجيه وشن الحروب، البنتاغون، وزارة الدفاع الأميركية.

وللحقيقة التاريخية - سواء وقعت حادثة الغارة القاعدية على اليابسة الأميركية لأول مرة في التاريخ أم لم تحدث - كان هناك تصميم من اليوم الأول لانطلاقة نظام بوش لتدمير النظام العراقي استكمالاً لمشروع إعادة احتلال دول الخليج وانتقاماً لمحاولة اغتيال بوش الأب بواسطة مجموعة عراقية إبان زيارته للكويت. ويروي وزير الخزانة المستقيل «بول أونيل» على أن إدارة بوش كانت قد وضعت العراق في صدارة جدول أعمالها في أول اجتماع لمجلس الأمن القومي في أواخر ك٢ ٢٠٠١، أي ثمانية أشهر قبل وقوع حادثة مركز التجارة - البنتاغون! وقررت استمرار سياسة الاحتواء المزدوج «وبالتالي، العمل بموجب وثيقة أحادية الهيمنة، وعنوانها: «لا لولادة دولة عظمى منافسة»، الوثيقة التي وضعها فريق وزير الدفاع ديك تشيني آنذاك وصحبه وولفوتيز وفايت إلخ... من تلك العصابة في آذار ١٩٩٢. لكن هزيمة بوش الأب في انتخابات الرئاسة، تشرين الثاني عام ١٩٩٢ وانتصار كلنتون، أجّلا التطبيق حتى وصول بوش الابن إلى سدة الحكم في ٢٠/ك٢/ ٢٠٠١.

إن حرب القاعدة على أميركا أطلقت شرارة الحرب على العراق وعلى«الإرهاب الدولي» حسب التصنيف الأميركي، ومن وجهة النّظر الأميركية، إن تلك الحملة أعطت إدارة بوش المأزومة في شرعيتها دعماً معنوياً لشن الحرب على القاعدة وإلى ٧٣ لشن الحرب على العراق، الحرب التي سيُهزم فيها بوش استراتيجياً وعسكرياً في عامي ٢٠٠٤- ٢٠٠٦ بعدما كان قد أعلنها في ٢٠ آذار ٢٠٠٣، وخسرها على أيدي المقاومة العراقية المسلّحة التي هزّت عروش الإمبراطورية وكادت تبشّر بإسقاطها أميركياً بعدما وصلت شعبية بوش إلى ٣١ في خريف عام ٢٠٠٦.

صحيح أن بوش الابن قد انتقم فعلاً لأبيه بإعدام الرئيس صدام حسين في نهاية عام ٢٠٠٦،

ولكن الأصح والأهم تاريخياً هو أن بوش ونظامه قد مُنيا بهزيمة عسكرية نكراء في العراق وأن الحليف الإقليمي الأعظم إسرائيل قد أُصيبت بانكسار مماثل في لبنان، هناك في العراق لقد درس ودوّن الهزيمة أهم خمسة كتّاب أميركيين مؤرِّخين لمجريات وتداعيات الهزيمة على أميركا والعالم، وخاصة الوطن العربي. وقد استنتجوا بأن العصر الأميركي في المشرق العربي قد ولّى. وهنا في لبنان، لقد سجّل الانتصار العظيم نهاية التوسّع الإسرائيلي إلى غير رجعة في المنطقة ولربما وضعنا أمام بداية العد العكسي لانهيار الكيان وزواله. وهذه المرحلة تفتش عن مؤرخين لتدوينها ونأمل بأن يساهم مؤتمر الانتصار بهذه المهمة.

إن عناوين الكتب الأميركية الخمسة لخير مؤشّر ودليل على مضامينها واستنتاجاتها وهي كالتالي:

١- Tom Ricks:Fiasc – *إخفاق تام*

٢- Michael Gordon & Gen. Bernard Trainor, Cobra II – *الأفعى الصِلّ*

٣- Bob Woodward, state of Denial – *حال الإنكار*

٤- Ron Suskind, the one percent doctrine – *مبدأ الواحد بالمائة*

٥- Laurence Wright the looming tower – *البرج في الأفق*

وتتضمّن الكتب ثلاثة استنتاجات مطلقة، هي: إن الحرب كانت إخفاقاً استخباراتياً. إن الحرب كانت فشلاً سياسياً. إن الحرب كانت فشلاً صحافياً. وهذا الأخير هو الأخطر، لأن الصحافة سكتت أو تواطأت عما كان يحدث في أميركا والعراق والعالم، وبالتالي، إن الصحافة قد تخلّت عن رسالتها لخدمة مشروع الهيمنة عوضاً عن فضحه وتفنيده قبل فوات الأوان!

أما بالنسبة «لمحوري الشر» الكوري الشمالي والإيراني الرقمين التاسع والعاشر في النادي النووي فإن مجلة تايم في عددها السنوي (٢٠٠٦/١٢/٢٥ – ٢٠٠٧/١١) قد نقلت عن الرئيس الإيراني أحمدي نجاد«المحرّض» (Agitator) أن على أميركا أن تغيّر سلوكها ووجهة نظرها قبل دخول الحوار مع إيران وأن على أميركا والغرب إزالة إسرائيل لأنهم هم من خلقها، وأعلن بدون تردّد، أن زمن السلاح والقنابل قد ولّى، وأن زمن الحوار والمنطق والقانون والعدل هو الزمن الحالي والآتي. وأن على أميركا الاعتراف بإيران نووية، وفيما يتعلّق بكوريا كيم يونك إيل، فقد اعتبرته تايم (Gate- Crasher) الطفيلي الذي حطّم الأبواب ودخل أخطر نادٍ، النادي النووي وأن على أميركا التعاطي الإيجابي معه لا تجاهله ومنحه معونات اقتصادية والإقرار أن «لا تغيير للنظام» في سياسة أميركا رغم انتهاكات حقوق الإنسان في كوريا الشمالية. وللتذكير، إن الدول العظمى ارتعدت لتجربة كيم النووية في ٩ تشرين الأول ٢٠٠٦، التجربة رقم ٢٠٤٧، في تاريخ التجارب النووية منذ العام ١٩٤٥، ولم تجرؤ أميركا التهديد بالغزو لأنها تدرك أن كيم يملك ٧٠ قنبلة و٥٠

كيلوبلوتنيوم.

سوريا في عين العاصفة

تتأرجح السياسة الخارجية الأميركية تجاه سوريا بين مفهومين كل منهما يكمِّل الآخر هما: مفهوم تغيير النظام بالإطاحة به سواء أكان ذلك عن طريق الغزو أو العسكر أو الثورة الشعبية الملوَّنة. ومفهوم تغيير سلوك النظام أي الأخذ بالإملاءات الأميركية والدوران في الفلك الأميركي أو العودة إلى المفهوم الأول والتلويح بمصطلحاته وتبعات كل من مفردات الاحتلال المباشر أو الانقلاب العسكري أو ثورة الشارع «الديمقراطي» الشعبي. ومفاد فحوى قصة العلاقات الأميركية - السورية هي باختصار كالتالي: بعد سقوط النظام العراقي في ٩ نيسان ٢٠٠٣، جاء كولن باول في شهر أيار ٢٠٠٣ أيضاً إلى دمشق بعد بغداد وأبلغ الرئيس الأسد أن ما عليه فعله إذا أراد البقاء في السلطة هو معالجة الحدود، البعث العراقي، الصلح مع إسرائيل، الديمقراطية، إلخ... في إطار السياسة الأميركية وإلا سيواجه إسقاط النظام والإخضاع على الطريقة العراقية وتفتيت سوريا. ولم تمض على «تعليمات» باول أشهراً حتى ظهر موريس كوردولد - مونتاني، أحد مستشاري الرئيس شيراك في دمشق في تشرين الثاني ٢٠٠٣، حاملاً رسالة من أقطاب «المعارضة» للحرب على العراق - أي من رؤساء فرنسا، ألمانيا، وروسيا... : السيد الأسد،«إن الحرب قد غيَّرت الأشياء في الشرق الأوسط وإن عليك أن تظهر إنك أنت قد تغيّرت أيضاً: عليك أن تزور القدس أو اتخاذ قرار جسور من أجل السلام مع إسرائيل». استفسر الأسد إذا كانت محادثة السيد موريس «الناطق باسم الأميركان»؛ وكان الجواب إنه يمثِّل الثلاث أعلاه وأميركا أيضاً. ويضيف (المصدر دافيد أكناتيوس، في مقالته التي نُشرت في واشنطن بوست ودايلي ستار في ٣ شباط ٢٠٠٦، وبعنوان: هل الصلة الفرنسية هي من قتل الحريري)؟

(Did the French connection kill Hariri?)

متسائلاً هل الحريري هو الخصم الرهيب لسوريا؟ ولا يجيب عن سؤاله بالقطع، إنما يوحي بأن الحريري كان «الخصم اللدود لسورياً الذي بدأت تضغط عليه للتمديد للرئيس لحود. واستمر السجال من خريف ٢٠٠٣ حتى خريف ٢٠٠٤، بينما كانت فرنسا تلعب دور الوكيل الإقليمي وتحاول التوصل إلى إجماع غربي - روسي حول أميركا ووضعها المتأزِّم في العراق ومنع خسارتها الحرب بعدما اتضح أنها فقدت المبادرة وأن المقاومة المسلّحة العراقية قد انتزعت المبادرة وانتصرت في الخطوة الرئيسية الأولى؛ أي أنها ربحت الحرب الاستراتيجية وهي تمهّد للانتصار العسكري الميداني في عامي ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ وهكذا كان. وهذا ما لا تقبله طغمة الدول العظمى. إبان تلك الفترة التقى حلفاء واشنطن في النورمندي في ٦ حزيران ٢٠٠٤ في الذكرى الستين لتحرير فرنسا من براثن النازية، وتقرر الإطاحة بالنظام السوري عبر البوابة اللبنانية وتولّى الثنائي

الأميركي - الفرنسي إدارة التخطيط والتوجيه للحرب، وهذه المرة، عن طريق الأمم المتحدة التي تجاوزتها الولايات المتحدة في حربها العدوانية على العراق.

وفي آب ٢٠٠٤ كان التشاور والبعثات السرية والقنوات الخلفية تعمل ليلاً نهاراً لتحقيق المأرب الأميركي ألا وهو التفتيش عن نصر بديل للهزيمة في العراق، وعليه، جاء قرار ١٥٥٩ كإجماع دولي ومحاولة لإنقاذ هيبة أميركا وسمعتها وتوفير مخفر أمامي لها في لبنان بغية الإطاحة بالنظام السوري: وكان قرار ١٥٥٩ الأداة لطرد سوريا من لبنان ونزع سلاح حزب الله وتوكيد نهائي على أسبقية الإمارة الأميركية الوهّابية السعودية في لبنان بدون منافس وتحت الحماية الأميركية الناجزة.

مدَّد البرلمان بقيادة الحريري وجند مستقبله للرئيس لحود في مطلع أيلول ٢٠٠٤ بعد إقرار قرار ١٥٥٩ في مجلس الأمن الدولي. وبدأ الصراع بالعلن والخفاء وشرع الحريري بالتخطيط للثورة الملوَّنة على الطريقة الأوكرانية وكانت حركته إلى حدٍ ما بطيئة وبدأت المناخات تتهيأ لقدوم العاصفة، الزلزال الإقليمي بالتآمر على النظام السوري ومع بعض أقطاب النظام السوري أمثال غازي كنعان وعبد الحليم خدام وغيرهم. وإذا كان الحصاد قد وفّر صفراً في هذا المجال، فقد تواطأت الأحداث وتزامنت التحركات المتسارعة والإخفاقات والانكشافات من بغداد إلى دمشق إلى بيروت. وعليه لجأت أميركا على طريقتها المعهودة في إحداث هزة أرضية واغتالت مع حليفتها إسرائيل الرجل الدولي، الرمز لسُنّة لبنان والمنطقة بعد أن كان الحريري قد أنجز تمذهب السُنة ونقلها إلى المدار الأميركي في السياسات المحلية والإقليمية والدولية.

إن اغتيال الحريري، رغم تداعياته المتعددة، لم يحقّق سوى طرد السوريين من لبنان بطريقة مهينة ومشينة وفتح كوة ضخمة في العلاقات اللبنانية - السورية كوة لا يمكن تغليفها أو ردمها لسنين عديدة لسببين أساسيين هما:

١- محاولة الحريريين الاستيلاء على السلطة كاملة في لبنان خلافاً للتعايش اللبناني في كونفدرالية الطوائف القائمة في ظل استقلال صوري منذ العام ١٩٤٣ والتي تأسست على كتائبية النظام وفرضت على كل طائفة أن تتحول إلى كتائبية مذهبية على طريقتها.

٢- هو استيلاء الليكود اللبناني على مقاليد الأمور وتوجيهها ومحاولة تعميق الفجوة بين اللبناني والسوري، وبثّ طوفان رائحة العنصرية اللبنانية المنبعثة من الكتائب وقرنة القراني، قرنة شهوان وأبطالها الميامين الذين يتصرفون وكأن لبنان بقعة في جنوب المحيط الهادي، لا في غرب آسيا ولا في المشرق العربي ولا يشكّل البوابة الرئيسية لولوج بلاد الشام وأهلها المنفتحين على بعضهم بعضاً في كافة العصور والعهود.

إن اغتيال الحريري (١٤ شباط ٢٠٠٥) هو الحدث التاريخي الذي افتعلته أميركا - فرنسا -

إسرائيل مع عملائها ليس لزعزعة النظام في سوريا فحسب إنما لنزع سلاح حزب الله وتحويل حزب الله إلى كتائب شيعية على نموذج الكتائب اللبنانية، وحزب الله القضية والعهد لا يمكن أن يخضع أو يتورط أو ينخرط في هكذا مشاريع.

حرب ١٢ تموز: نقلة نوعية في النموذج

تمتاز الحرب الإسرائيلية - العربية السادسة بأنها لم تكن حرباً بين إسرائيل ودولة أو دول عربية، إنما بين إسرائيل وحزب الله - حركة تحرر وطني لبنانية - الحزب المتجذّر والأصيل في جنوب لبنان والمسوَّر بإجماع وطني لبناني، إذا لم نقل، بإجماع شعبي عربي الذي سيحصل عليه لانتصاره على إسرائيل في حربها الشاملة عليه، والتي استهدفت استئصال حزب الله وجعل الجنوب محمية إسرائيلية بغطاء أميركي - أوروبي وعربي يميني متخلّف.

قال سيد المقاومة: إنه لم يكن يتوقع حرباً شاملة مع إسرائيل في ١٢ تموز عندما أسر أبطال المقاومة جنديين إسرائيليين وقتلوا ثمانية، إنما يعتبر العدو أن الحزب قام بضربة استباقية لحرب كان يخطط لحدوثها في تشرين الأول عام ٢٠٠٦، ولكن المسألة الكبرى عن طبيعة الحرب ومآلها وفحواها جاءت على لسان بوش عندما فاجأ شيراك في مؤتمر قمة الثمانية في مدينة بطرس (١٥/٧/٢٠٠٦) بقوله: إن حرب إسرائيل على لبنان هذه ليست عملية إسرائيلية وافقت عليها الولايات المتحدة لكنها عملية للولايات المتحدة تنفذها إسرائيل، وينقل محمود عوض في جريدة الحياة (١٣ آب٢٠٠٦) عن تيري ميسان، أحد مستشاري الرئيس شيراك في نيويورك تايمز،«إن مشروع تدمير لبنان قدّمته إسرائيل لأميركا قبل العام الماضي بقليل كما نشرت San-Francisco Chronicle- ولكن الأدهى والأوضح هو أن الهجوم على لبنان كان جوهر مناقشات جرت في American Enterprise Institute، مركز أبحاث اليمين المتطرّف الأميركي، حيث اجتمع فريق الحرب الإسرائيلي مع ديك تشيني في ١٧ و١٨ حزيران ٢٠٠٦ وقد تمثّل بـ نتنياهو، بيرل، شارانسكي، وأعدوا خطة الهجوم المتوقع في تشرين الأول عام ٢٠٠٦.

أما محقق التحقيقات الشهيرة سيمور هيرش يتساءل في مجلة نيويوركر إذا كانت «حرب لبنان هي التصميم للحرب على إيران» (Blue print)، ويضيف هيرش «إن التصميم قد وضع بالتواطؤ مع أميركا في الربيع والهدف منه هو إيجاد معيرة - نموذج ناجح في لبنان يكون بمثابة تمرين وتدريب لشن الحرب على إيران»؟ ويهتم البيت الأبيض بتبنّي سياسة التمذهب والتحريض والتخطيط لحرب هدفها تحريك الخلافات المذهبية، لخدمة إسرائيل وسؤددها وبالتالي، فرض استقطابات عربي - فارسي، سني - شيعي، حرب بين المعتدلين والمتطرفين في محور سوري - إيراني قوامه الهلال الشيعي بمواجهة «القوس السني» بقيادة مصر - السعودية - الأردن - الإمارات.

الملف في وضع المخططات والتمهيد للحروب وشنها هو أن الليكود اللبناني بجناحيه القواتي والمستقبلي وكذلك الجنبلاطي كانوا على اطلاع على مجريات الأمور وتطوراتها، لا بل توقيتها. وفي هذا السياق كتب جان عزيز في البلد بتاريخ ٢١ تموز ٢٠٠٦ على أن الزوار اللبنانيين لنيويورك وواشنطن كانوا على اضطلاع وخاصة على «نموذج كوسوفو» وحسب مصادرهم فإن العدوان تأجّل من ٢٨ أيار إلى ١٢ تموز، ورغم ذلك لم يطلعوا لا حزب الله ولا قيادة الجيش على ما يجري لأنهم اعتبروا «أن الفرصة سانحة للقضاء على حزب الله».

وفي خضّم الحرب أطلعتنا السيدة رايس على شرق أوسط جديد في مخاض عسير قيد الولادة (٢٢ تموز ٢٠٠٦) وهبطت كمظلي في بيروت (٢٤/ تموز ٢٠٠٦) وأكّدت شرق أوسطها الجديد وثبّتت الشرخ اللبناني في عوكر، حيث توزعت المهام واطلع الجميع على تطورات الأحداث وبشّرتهم في مستقبل مشرق آمن لعظمتهم وأمجادهم الآتية. وتمشياً مع التطورات والتوقعات في النصر العظيم لأميركا وحلفائها، قام بلير (٤ آب ٢٠٠٦) بتحوير «محور الشر» كمفهوم إلى محور أكثر اتساعاً وانتشاراً بعنوان التطرف والاعتدال ولحقت به رايس في ٣ تشرين الأول أثناء زيارتها للمنطقة ودعت لتشكيل «محور المعتدلين» لمواجهة محور المتطرفين وطرحت بشكل خجول مقولة الديمقراطية المتهاوية في السياسة الأميركية والمتوجهة نحو استبدالها بمقولة الاستقرار وإلا الفوضى والدمار.

بين المقاومة والمستقبل الإسرائيلي والعربي

وفي ٢٢ أيلول، أعلن سيد المقاومة «الانتصار الإلهي» وأكّد للجماهير المليونية أن النصر كان نصراً للبننة والعروبة، الأمر الذي أضاف رعباً على رعب في أوساط الليكود اللبناني، لأن النصر واللبننة والعروبة ليسوا من السمات المتداولة في قاموس أنظمة العربان وفي نهج الليكود المتأمرك، الذي راح يروّج لهزيمة المقاومة ويحاول ترجمة النصر العسكري إلى هزيمة سياسية.

وإذ بالاستراتيجي الأميركي Cordsman يطلعنا في مجلة المستقبل العربي (عدد أيلول ٢٠٠٦) على أهداف إسرائيل التي خاضت الحرب على لبنان لتحقيقها، وها هي بالحرف الأحمر:

١- تدمير «القيادة الغربية» الإيرانية قبل أن تتمكّن إيران من التحول إلى دولة نووية.

٢- استعادة صدقية الردع الإسرائيلي بعد الانسحابات من لبنان وغزة ومواجهة الصورة التي تظهر إسرائيل ضعيفة ومجبرة على الانسحاب.

٣- إجبار لبنان أن يصبح - وأن يتصرف كما تتصرف - دولة تخضع للمساءلة وإنهاء وضع حزب الله كدولة ضمن دولة.

٤- تحطيم أو شلّ حزب الله.

٥- إعادة الجنديين الأسيرين من دون مبادلات رئيسية مع سجناء تحتجزهم إسرائيل.

السؤال: ماذا تحقق من هذه الأهداف لكي يفرح ويبتهج الليكود اللبناني ويهلك من أجلك يا أورشليم الجديدة؟

١- هل دُمِّرت«القيادة الغربية» «للمحمية الفارسية» وتحوَّلت إلى «محمية إسرائيلية»؟ أم ازدادت قوة وجبروتاً وسطوعاً وتألقاً كحركة تحرّر لبنانية؟

٢- هل استعاد الردع الإسرائيلي مصداقيته وعاد إلى طور الجيش الذي لا يقهر؟ أم أنه دخل في طور الاستبطان الذاتي والتحقيق في الإخفاقات وتبادل التهم بين قيادة الجيش والسياسيين؟

٣- هل فرض على لبنان الخضوع للمشيئة الإسرائيلية وبوساطة الذي يحتل السراي على مقربة من تمثال رياض الصلح، رمز السيادة الوطنية؟ أم انتصر الشعب اللبناني بجميع فئاته للمقاومة الوطنية؟

٤- هل تحطم حزب الله أو شلّ أم أصبح مصدر إلهام ونموذج للثوار العرب والمسلمين؟ وأصبح سيد المقاومة في استطلاعات الرأي رقم واحد بين أهم ثلاثين شخصية رئيسية عربية وإسلامية؟ السيد رقم واحد، خالد مشعل الفلسطيني رقم اثنين، وأحمدي نجاد رئيس الجمهورية الإيرانية رقم ثلاثة. هذا ما تتطلع إليه إرادة الجماهير العربية وما تعتبره قدوة ونموذجاً ومعلماً للتحرر والتحرير.

٥- هل أعيد الأسرى الإسرائيليون إلى الأرض المحتلة بدون مقابل؟ أم علينا الانتظار إلى وقوع حرب ثانية تُعد لها إسرائيل لتحريرهم.؟ هل وقع الليكود اللبناني في الأسر أم استولى على بعبدا وانطلق منها لإسقاط دمشق؟ وأين نحن من «السيادة والاستقلال والحرية»؟

والليكود يمثلون صناصل الحكم في حكم القناصل في بيروت!

يبقى السؤال التاريخي إلى أين يأخذ حزب الله لبنان؟ وسؤالنا له، هل أنت ذاهب إلى اللبننة والانكفاء في لبنان؟ أم أن اللبنانية والعروبة والثورة هي العناوين للمنحى التاريخي القادم والبوصلة المحددة طريق المستقبل.

نحن نقول: إن الكتائبية الشيعية ليست موئلاً أو ملاذاً لحزب الله، وإن الطوائفية اللبنانية والانخراط في تعرجاتها هي اغتيال لحزب الله. ونقول: إن حزب الله هو العربية المتجددة بدءاً من بغداد مروراً في بيروت وصولاً إلى فلسطين العربية!

اختتم بالإشارة إلى إسرائيل في حرب تموز في التقويم القائل: «الحرب على لبنان ونتائجها الفاشلة باعتراف الإسرائيليين أنفسهم سيسجّل أيضاً في تاريخ الدولة العبرية حدثاً مفصلياً سقط فيه تاج الهيبة الذي زيّن به رأس الجيش الإسرائيلي، وغدوا يتحدثون للمرة الأولى عن أشدّ ضربة تلقتها سياسة الردع الإسرائيلية متحسبّين من عواقب ما حصل على الجبهة اللبنانية على جبهات أخرى».

المحور الخامس تأثير الانتصار على هزيمة الوعي الإسرائيلي

- التداعيات والعواقب النفسية للحرب على لبنان — عدنان حب الله
- الخطاب الإعلامي للمقاومة اللبنانية قراءة في خطب قائدها — آمال الخزامي
- انعكاسات حرب تموز على الرأي العام الأميركي ودعم الكونغرس لإسرائيل — فرانكلين لامب
- تداعيات حرب تموز على المجتمع والدولة في الكيان الإسرائيلي — عزمي بشارة

التداعيـات والعواقب النفسيـة للحرب على لبنـان

البروفسور عدنان حب اللـه (لبنان)

لا يمكن أن نفهم نصر الجيوش على الأرض دون أن يرافق ذلك تحليل نفسي لوضعية المقاتل وعلاقته مع النسيج الشعبي الذي يتكون منه، فصراعنا مع إسرائيل هو قدر لم نختاره.

فقد شاء هذا القدر أن يكون بناء الكيان الصهيوني في زمن جيلنا، وأن يضع هذا الجيل على عاتقه مسؤولية الجهاد ومقاومة الاحتلال. فلو حصل قبل مئتي سنة أو بعد مئتي سنة لكان مصيرنا يختلف عمّا نحن عليه اليوم.

وكما يقول نابليون: «قدر الشعوب في جغرافياتها، كما هو قدر الإنسان في تكوينه البدني». فمن هذا المنطلق لا خيار لنا شئنا أم أبينا. فصراعنا مع الكيان الصهيوني كتب علينا، كما كتب علينا أن نخلق ونعيش ونموت في هذه الأرض. فقسم كبير من هذا الجيل قد أبصر النور على الحرب الإسرائيلية العربية الأولى وما زال يعيش تكرارها الواحدة تلو الأخرى، إلى أن حصلت حرب تموز الأخيرة سنة ٢٠٠٦ وهي ليست الأخيرة، لأن الصراع مستمر منذ الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل. وكلها محطات في تاريخنا، كل جيل يحاول أن يؤدي دوره على أتمه حتى لا يلعنه الجيل الذي يليه. من هذا المنطلق، ومن هذا المنبر، لا نستطيع إلاّ أن نحيّيَ المقاومة الوطنيَة- المقاومة التي يتماهى ويتباهى بها كل من آمن بحقه بالأرض والحياة ودافع عنهما- إذ لا بدّ أن يكتب له النصر يوماً ما.

ومن هذا المنطلق، أيضاً، فقد تناولت الموضوع لكي أضفي أضواء على التفاعلات النفسية سواء على الصعيد الوطني أم على الصعيد الذاتي. لأن المقاومة العسكرية من دون المناعة النفسية لا يمكن أن تعطي نتائجها المثمرة.

سأتناول في هذا البحث الوضع النفسي للجندي الإسرائيلي وللمقاوم، والتأثير النفسي على المجتمع اللبناني وأحدد موقعه في العالم العربي.

يجب أولاً أن لا يغيب عن ذهننا أثر صدمة الحرب وعواقبها على كل المجتمعات التي تخوضها.

فالحرب هي صدمة في حد ذاتها؛ لأنها تخلق كسراً في سياق التاريخ، كذلك تخلق تداعيات حسب نتائجها، بين ما قبل وما بعد - وتصبح في حد ذاتها ولادة جديدة لتاريخ بدأ ولتاريخ انتهى - حيث تنشأ ما بين الحاضر والماضي هوّة يحاول كل طرف أن يتأقلم ويبني عليها نظرته للمستقبل. فمنذ الآن وهذا ما أسمعه دائماً، تاريخ جديد قد بدأ، فيقولون ما قبل تموز وما بعده، كما لو كان بداية لولادة جديدة حلّت محل الولادة البيولوجية.

الجـانب الإسرائيـلي:

تقوم دراستي على ضوء التقارير العلمية التي كتبها أطباء النفس الإسرائيليون المرافقون للجنود، عند دخولهم إلى لبنان منذ سنة ١٩٨٢ حتى خروجهم سنة ٢٠٠٠، والتي تفسّر إلى حد ما الهرولة التي طالت هؤلاء الجنود عند خروجهم من الأراضي اللبنانية. فقد تبيّن لهؤلاء الباحثين أن ٥٩٪ من الجنود قد بدا عليهم تناذر صدمي متأخر. وقبل الخوض في الدوافع والظروف الخاصة المحيطة بهؤلاء الجنود، لا بدّ من توضيح ما هو التناذر المابعد الصدمي - أي ما يسمى PTSD (Post Traumatic Syndrome). فحسب التصنيفات الدولية (CIM) وهي شبيهة بما ورد في معجم الأمراض النفسية الأميركية DSM-IV - فهنالك العوارض التي تحصل مباشرة بعد الحدث كانفجار قذيفة أو عبوة أو معركة ضارية. هذه العوارض بقدر ما تكون شديدة الوقع بقدر ما يكون عامل المفاجأة سريعاً. وهذه المرحلة تتميز بالضياع والتشتت الفكري وعدم القدرة على التركيز - أو حالة من الشلل والسطلنة؛ أي ما يفقد المصاب تحديد الزمان والمكان.

أما العارض الأساسي فهو ما يسمّى تناذر أو Syndrome، فلا يحصل إلاّ بعد فترة من الزمن تتراوح بين الأسبوع والستة أشهر - وبعض العلماء يذهب إلى حد السنتين، بعد أن يكون الشخص قد نسي الحدث الصادم، ولكن هذا لا ينفي أنه كان يعيش تحت ضغطه.

وباختصار فهذه الحالة المرضية النفسية ما بعد الصدمة - أي التناذر- تتوزّع على الأعراض التالية:

١- عملية تكرار الحدث وذكراه التي تتجدد في كل مناسبة مع حالة وجدانية يرافقها قلق شديد واضطرابات سلوكية، وتكرارها يظهر إمّا في وضح النهار في كل مناسبة تذكّره بالحدث، ولكن بصورة عامة في الليل عبر الأحلام والكوابيس التي تقطع عليه نومه، وتوّلد أرقاً يَسلبه الراحة والاطمئنان في اليوم التالي.

٢- تبلّد نفساني: أي ردّات فعل بطيئة، وتأتي متأخرة عما هو مطلوب منه.

٣- الابتعاد عن الآخرين: ويفضل العزلة على الصحبة.

٤- حساسية تجاه البيئة ومحيطه: فيصبح سريع الغضب، قليل الصبر.

٥- سلوك اجتنابي لكل ما يذكّره بالحادث الصدمي.

٦- حالة من اليقظة المتناهية: أي يصبح المصدوم بحالة استنفار دائم، يتأثّر بأقل ضجة ويترقب الأحداث بانتظار المخيف.

٧- أعراض نفس- جسدية وهمية تتطلب العديد من الفحوصات الطبية.

أضف إلى ذلك الحالة الاكتئابية التي ترافقه فترة طويلة من الزمن أو استيقاظ أمراض نفسية كانت نائمة حتى حدوث الحدث - وقد يلجأ المصدوم في مثل هذه الحالات إلى العلاج الذاتي عن طريق تعاطي الخمر كمهدئ، أو اللجوء إلى المخدرات الخفيفة ثم الثقيلة مثل الهيروين والكوكايين والانفيتامين. في كل الحالات العلاجية الذاتية هذه تبقى النتيجة واحدة وهي كارثية، ليس فقط على الصعيد الذاتي وإنما أيضاً على الصعيد العائلي والمسلك الاجتماعي.

فكل هذه العوامل والتناذرات النفسية التي يتعرض لها المقاتل خلال الحرب، تؤثر على توجهات المعركة لأن ظهورها يستنفد الطاقة القتالية، ويحولها إلى الأحاسيس الجسدية والخيالية التي تحول دونه ودون الهدف الذي أتى إلى ساحة القتال من أجله. وهذا ما حصل في الفييتنام وفي الجنوب والآن في حرب الخليج.

فالعلماء الإسرائيليون استعانوا بهذا التوصيف المتبع لكي يحددوا:

أولاً: نوعية الأمراض النفسية التي عانى ويعاني منها الجنود الإسرائيليون.

ثانياً: لكي يتمكنوا من تحديد الأسباب النفسية والبيئية التي أدت إلى اندحار الجيش الإسرائيلي سنة ٢٠٠٠. وقد استطاع هؤلاء الأطباء عبر الاستطلاع تحديد العوامل التي أدت بقسم كبير من الجيش الإسرائيلي إلى إصابته بالتناذر ما بعد الصدمة(PTSD):

- ***التعرض الدائم للموت:*** فبعد الاجتياح وتبدّد الشعور بنشوة النصر، تبيّن للجنود أنهم وقعوا في كمين لم يكن يحسب له سابقاً، إذ وجدوا أنفسهم بين شعب مقاوم يضمر لهم العداء المميت. وأن الموت يترصّدهم في كل زاوية من كل شارع - وأن التلال والطرقات والسيارات أصبحت نذير شؤم تخفي وراءها مقاوم يترصّد لهم. وبعد تزايد العمليات الاستشهادية أصبح كل فرد من أفراد الشعب قنبلة مؤقتة، يجب أن يحافظ على مسافة لعدة أمتار بينه وبينهم. ويقول الأطباء أن هذا العداء الشعبي والمقاوم ولّد عند الجنود خوفاً جعلهم يعيشون في مناخ استنفار سيكولوجي دائم ومستمر، مما جردهم من قواهم القتالية قبل أن يخوضوا معركة ما.

ثالثاً: إذا ما أصيب عنصر بإصابة مباشرة، ينتابه خوف مداهم لرعب الموت، نظراً لعدم اطمئنانه إذا كانت إصابته طفيفة أو بالغة الخطورة. سيما أنه سيموت في أرض خارج أرض إسرائيل.

رابعاً: إذا ما حدث وأصيبت مجموعة بمقتل أحد زملائهم كانوا يمازحونه منذ لحظة، ينتاب هذه المجموعة خوف من أثر الصدمة، تشلّ قدرتهم القتالية ويستسلمون إلى حالة نكوصية طفلية.

خامساً: يجتاحهم شعور بالغربة بمجرد أن يجتازوا الحدود الدولية، ويسيطر عليهم شعور بالخوف والغربة من أثر العزلة والوحدة، لأنهم فقدوا كل معيل عائلي أو إجتماعي، سيما إذا كان هؤلاء الجنود في سن يانعة ولم يألفوا خبرة الحرب بعد.

سادساً: انفصاله عن عائلته والرفاهية التي كان ينعم بها، تؤدي عند الجندي إلى صعوبة في الذوبان في الجيش، لأن ذلك يتطلب التضحية بما كان ينعم به، فيصبح غريباً عن جسد الجيش، همّه الوحيد تجنب المجازفة، والمخاطر في المعارك، أملاً في أن يعود سالماً وينعم من جديد بما فقده.

سابعاً: تغيّر الظروف الفيزيولوجية والمناخية في أرض موحشة؛ فقلة النوم والسهر الدائم والاستنفار النهاري تضعف قدراته القتالية، ويصبح أكثر هشاشة ومعرّضاً للوقوع في المرض لأقل حدث أو مفاجأة يتعرّض لها. بالإضافة إلى تغيّر الظروف المناخية؛ سيما إذا وجد في منطقة جبلية وعرة.

كلها ظروف - يقول التقرير - تجعل الجنود أكثر وهناً وأكثر تعرضاً للأحداث غير المتوقعة.

يشير التقرير أيضاً إلى عامل إيديولوجي يلعب دوراً مهماً في إضعاف دواعي القتال أو التضحية إذا ما سنحت الفرصة. فهنالك ما يسمّى بإيديولوجية الحرب المعادية لإيديولوجية السلام: فإذا كانت الأولى تدفع إلى القتال واستباحة القتل، فالثانية تدعو إلى تحريم القتال والالتزام بالأخلاق أو عدم الاعتداء على الآخر، لأن القانون كطرف ثالث يدخل وسيطاً لكي يحلّ نزاعاتهم.

فالحرب لا تستباح إلاّ في حالة الدفاع عن النفس وعن الأرض. من هذا المبدأ كان الجنود الإسرائيليون يشعرون بأنهم يقاتلون في سبيل قضية ليست قضيتهم، ودخول أرض غير أرضهم، وأنهم في النهاية بيادق على مربع الشطرنج لسياسة لم يكونوا قد استشيروا بشأنها. فهم أدركوا في قرارة أنفسهم أنهم يقاتلون في سبيل حفنة من رجال السياسة لكي يحققوا طموحاتها أو يعززوا رصيدها في حصيلة الانتخابات النيابية. وعلى ضوء ذلك حصل شرخ في نفسية المقاتل الإسرائيلي ما بين مبدأ الدولة وما بين دواعي الحرب، مما ولّد لديه صراعاً ذاتياً جعله متردداً، بدلاً من أن يكون مصمماً وراغباً في القتال.

هذا باختصار ما يقوله الأطباء النفسيون الذين عالجوا وعاينوا واستطلعوا حالة الجنود الإسرائيليين ما بعد الحرب وخلالها.

الملفت للنظر أنّه بعد كل حرب: إذا كانت ناجحة، انبرى رجال السياسة لكي يقطفوا ثمار النصر، ويعزّزوا من خلالها موقعهم السياسي ويحتلوا مراكز في السلطة لم يكونوا يحلمون بها.

أما إذا فشلت الحرب كما حصل في حرب تموز: فيحاول هؤلاء السياسيون غسل أيديهم من كل تورط، فيرموا المسؤولية على العسكر. ولكن في نظام ديموقراطي كما هو الحال في إسرائيل،

لم تعد هذه اللعبة تنطلي على أحد، لذلك ظهرت كما ذكرت في الصحف فضيحة لجنة فنوغراد Vinograd - وأضحت أشبه بآلة قناصة تُسقط رجال السياسة الواحد تلو الآخر. والاعتراف بالفشل لم يكن ليحصل لولا وجود نظام ديموقراطي، وهذا ما نفتقده في مجتمعنا العربي. فنحن حسب بيانات الدولة قد أحرزنا النصر في جميع حروبنا وحتى الكارثة التي حلّت بنا سنة ١٩٦٧ أصبح اسمها نكسة تلطيفاً لغوياً لوقعها.

ب- الواجهة اللبنانية، المقاومة اللبنانية:

مما لا شك فيه، أنني أفتقد إلى الدراسات العلمية حول وضعية المقاوم النفسية. وكنت بمناسبة حرب تموز قد أخذت المبادرة وأقمت مركزاً للعناية النفسية لمنكوبي الحرب في صور بمساعدة المنتدى الثقافي، مع فريق من المعالجين النفسيين. وقد تم الكشف على حوالي ٩٥٠ مصاباً بالتناذر المابعد الصدمي، وقد تبيّن لنا أنه لم يتقدم أي مقاوم لمعالجة نفسية.

فلذلك، كل ما أستطيع قوله ينبع من مطالعاتي الشخصية للحدث ولمعرفتي بالإيديولوجية الوطنية والإسلامية التي يتمتع بها كل مقاوم، وبالدواعي القتالية التي نشأ وترعرع عليها وبنى على أساسها تكوينه النفسي.

وفي هذه المقاربة ما بين الجندي الإسرائيلي والمقاوم المسلم، تكشّف لنا سر انتصاره رغم تفوق العدو عدّة وعدداً.

أولاً، شرعية القتال:

وهي تنطلق من شرعية التحرر وتتفق عليها كل دول العالم وحتى شريعة الأمم المتحدة. وحتى الأميركيون عندما حرّروا بلادهم بقيادة جورج واشنطن سنة ١٧٧٦ من حكم الإنكليز، فلم يحصل أن أحداً نعتهم بالإرهابيين، بل بالعكس فقد أعطوا شرف تحرير وتأسيس الدولة الأميركية. والتاريخ حافل بمثل هذه المقاومات التي حرّرت بلادها من طغيان الاستعمار، وعلى رأسها فرنسا ضد النازية.

فإذاً، المقاومة انطلقت من حق تحرير الأرض من الاغتصاب. وهنالك من يؤمن بهذا الحق وهنالك من لا يؤمن به؛ كله مرهون بقدرة الإنسان على تحمل الذلّ والهوان، فمن رفضه قاوم ومن قبل العيش به فقَدَ كرامته ونفسه.

من هذا المنطلق، وقبل حمل السلاح، فقد تأججت نفسية المقاوم بقدرة ذاتية عارمة لتقطع سلاسل الاستعباد. ولا بد من هذه الخطوة الأولى حتى تتأسس نفسية المقاوم، سيما إذا دعمت بالإيمان واختزال الحياة باستعادة الحق وصون الكرامة.

وعندما تعمّمت ثقافة المقاومة على المجتمع اللبناني، وبصورة خاصة على هؤلاء الأطفال الذين أصبحوا اليوم رجالاً نظراً لتعرضهم لشتى أنواع التهجير والشتات والإهانة، أصبحت المقاومة هوناً في الحياة إن ما جسدت الحياة نفسها.

إذاً، المقاوم في حزب الله هو جزء من كل، تجمع أعضاءه إيديولوجية واحدة، وإيمان ديني واحد، ومثل عليا مستقاة من تاريخ أجداده، وعلى رأسهم الإمام الحسين بن علي سيد المقاومة. فهذا النموذج التاريخي الأمثل لمعنى الجهاد قد أصبح في نفسية المقاوم بنيوياً، ماثلاً أمامه في كل معركة يخوضها. وهنا يجب الإشارة إلى نتيجة هذا التماهي؛ فالموت قد نفي بل لم يعد موجوداً، لأنه حل مكانه الاستشهاد؛ والاستشهاد هو استمرارية لحياة انتهت في حياة أفضل وأسعد.

ثانياً، كيف يترجم ذلك على ساحة المعركة؟:

فكما ذكرنا سابقاً: الإسرائيلي يخاف الموت ويتجنّبه بشتى الوسائل، أما المقاوم فالموت مطلب له إن اقتضت الضرورة، سيما إذا تحوّل هذا الموت إلى استشهاد. من هنا نستنتج: إذا التقى مقاتلون أحدهم يخاف الموت والثاني ارتضى الموت عن قناعة ويقين، فمما لا شك فيه، النصر سيكون من نصيب الذي ارتضى الموت كقدر إلهي. ويتبيّن ذلك من خلال المعارك التي شهدناها على الشاشات المتلفزة- إن الأول لا يعرض نفسه لأي خطر، أمّا الثاني فيتحدى المخاطر، ومكان الخوف عند الأول يحل محل الإقدام والشجاعة عند الثاني. فهذا التغلب على الخوف من الموت يعطي المقاوم جرأة وإقداماً، ويفتح أمامه العديد من الفرص للنيل من عدوه.

ثالثاً، دور القـائـد:

كل مجموعة مقاتلة، لا بد لها من قائد يديرها، يوجهها ويرشدها ويوحد فيما بينها.

فحب القائد هو المحرك والقوة غير المنظورة لأنه يوحد بينها، فتصبح جسداً واحداً يديره قائد واحدٌ. وهنا يحصل نوعان من التماهي:

١- **تمـاهي عمـودي:** من قبل مجموعة الأفراد التي تتطلع إلى القائد بحب وإخلاص، وتنتظر منه الإرشاد والتوجيه والبركة إذا كان يتمتع بهالة قدسية، فيتساوى الجميع أمامه.

٢- **تمـاهي أفقـي:** حيث يربط أفراد المجموعة فيما بينهم؛ أي إن كل واحد يرى نفسه في الآخر. وأيّ اعتداء على أحدهم هو اعتداء على الجميع - تتعاون المجموعة فيما بينها وتساند بعضها وتتحرك كجسد واحد.

هذا المفهوم العام، كرّس له فرويد دراسة مطوّلة حول التماهي Essaie de pdychanalyse.
أمّا بما يختص بحزب الله، فإن السيد حسن نصر الله قد حظي بكل صفات القائد بامتياز، سواء بمقدرة ذكائه الفذة أو بتحكمه بخطابه الموجّه إلى جماهيره التي تسمعه بأذنيها وبقلبها وبأحاسيسها. إضافة إلى هذه الكاريزما الجماهيرية، فإنه يتمتّع بهالة دينية بلغت حد القداسة. وإن كان هنالك مآخذ لبعض الأطراف السياسية والعربية لأسباب مذهبية على هذه المبالغة، إلاّ أنه مما لا شك فيه، فالقائد له دور أساسي في نفسية كل مقاوم؛ لأنه ماثل أمامهم أينما ذهبوا، يصاحبهم بالقتال في العيش بالبراري في البرد، في الجوع، في العطش، في

المعاناة... وهذه قوة هائلة لأن كل مقاتل يتماهى به، ويشعر بالسعادة بالفوز برضاه، فهو بمثابة المثال الأعلى وفي نفس الوقت قريب منهم كأيّ فرد - وهذا مما يزيد في قوتهم وصمودهم. والقائد يبلغ ذروة نفوذه وتأثيره عندما يصبح بعيداً- قريباً، مثالاً أعلى- فرداً عادياً يخاطبهم دون أي فروقات.

ونحن قد رأينا قوة تأثيره، عندما كان يخاطب المقاومين بلغة تترجم الحب والاحترام، والفخر والعزّ، مما جعل صمودهم نموذجاً لم تشهد مثله الساحة العربية، ولو لم يكن هنالك العامل المذهبي لنُصِب السيد نصر الله زعيماً عربياً بمثابة عبد الناصر.

من هنا نفهم قدرة المقاومة على الصمود واختلال موازين القوى للعدوّ على الصعيد النفسي. فكل الترسانة العسكرية الإسرائيلية الحديثة بطائراتها وبوارجها لم تستطع أن تنال من صمودهم أو تخيفهم - فما الفرق بين الموت في ساحة القتال أو على فراش المرض؟ لذلك لا أستغرب أن لا يكون هنالك مرضى نفسيون مصابون بالتناذر الصدمي؛ لأن المناعة النفسية التي كانوا يتحلون بها، حالت دون ذلك.

رابعاً، الخبـرة الذاتيـة:

وهنا أتكلم انطلاقاً من خبرة ذاتية مع فريق من المعالجين على أثر ما ذكرت «إقامة مركز للعناية النفسية»؛ حيث كان الطلب كثيفاً إلى درجة أننا أوقفنا الدعاية لوجودنا. وكان المصابون نفسياً يتوافدون من كل المناطق الجنوبية، من الشريط الحدودي حتى الليطاني، وقليل منهم عن طريق السمعة، من منطقة النبطية والزهراني.

الكل يبدأ بالقول: «منذ حرب تموز» حصل معي كذا وكذا... فهذا التاريخ أضحى بداية أزمة وبداية عهد جديد يشوبه القلق والريبة والخوف من المستقبل. وقد تبين لنا أن الأعراض النفسية تتوزع كالتالي: منها نتيجة إصابة مباشرة بالجسد والأملاك، ومنها غير مباشر نتيجة الخوف من الغارات الإسرائيلية وبصورة خاصة الطيران على الطرقات، ومنها، وهي الأهم، التهجير القسري والنزوح إلى أماكن آمنة في لبنان وخارج لبنان.

١-**الإصابات المباشرة**: إذا طالت الجسد فبالإجمال قليل من المصابين يلجأ إلى العيادات النفسية؛ لأن المستشفيات التي لجأوا إليها تتولى علاجهم نفسياً وجسدياً. أمّا الذين أصيبوا بأملاكهم وبيوتهم، فكان أكثرهم من النساء. ويفهم ذلك عن طريق ارتباط جسد المرأة بالبيت الذي سهرت على ترتيبه وتأسيسه، فهو بالنسبة إليها أصبح الداخل الجسدي، فأي انتهاك لحرمة البيت يؤخذ على الصعيد الرمزي كما لو كان انتهاكاً لحرمة جسدها. وعلى سبيل المثال: أذكر ثلاث حالات لنساء هدمت بيوتهن بكاملها. وحصل عارض غريب يتطلب منا تأويلاً تحليلياً: فالثلاثة امتنعن عن علاقتهن بأزواجهن، وحصل عندهن نفور بل كراهية لأزواجهن حتى طلب الانفصال، بالإضافة إلى العوارض الجانبية الخاصة بالتناذر الصدمي، من أرق الليل وكوابيس

ليلية، واكتئاب صباحي وشعور قهري بالفرار من البيت (البديل). فهذا العارض الذي يبدو غريباً ولا شيء يبرّره في علاقة الزوجين سابقاً، بدا لنا على علاقة مباشرة بالحدث - إضافة إلى التمزق والتفكك في العلاقات الاجتماعية نتيجة النزوح والتشتّت إلى أماكن جغرافية متعدّدة. هنالك تفكك حصل أيضاً في العلاقات الزوجية على درجات متفاوتة وحتى بين الأهل والأولاد. هذا بالإضافة إلى أن تدمير البيت وكشف داخله على مرأى من الناس، كان له تأثير مباشر على علاقة المرأة بجسدها، فأصيب رمزياً بالانتهاك والتشوّه، فقضى على نرجسيتها، وأفقدها مشاعرها الليبيدية تجاه زوجها، سيما أنه لم يعد صالحاً لترميم هذه النرجسية إذ إنّه لم يبدُ الشجاعة اللازمة لمواجهة الحدث، فكان أول الفارين.

أما التناذر الصدمي، فقد أصيب به قسم كبير من الشريحة الاجتماعية، ولكن القسم الأكبر شفي منه سواء باحتواء البنية النفسية للحدث أم بالاستعانة بالإيمان الديني واللجوء إلى مرجعية كربلاء كحد أقصى لما يصيب إنساناً في حياته من نكبات.

٢- النـزوح: أما الصدمة الحقيقية والأكبر، والتي بنظري تتعدى خطر الموت من جراء القصف العشوائي والغارات، فهي تكمن في نزوح القسم الأكبر من أرض الأجداد. الشعور السائد عند مجمل الناس، في بداية الأحداث، أنهم اقتلعوا من مسكنهم ومن أرضهم ولا يعرفون متى يعودون! فهذا المجهول- متى العودة؟- ورغم أنهم وجدوا في أماكن آمنة، كان يسبب قلقاً يومياً يلاحقهم حتى في الليل أو يقطع عليهم نومهم. فالخسارة كبيرة تتعدى إمكانية الفرد على تحملها لأنها تعود إلى ارتباطه بالأجداد الذين أورثوه هذه الأرض التي هي أشبه بالوديعة، تعود ملكيتها إلى الأجيال السابقة والحاضرة واللاحقة. فانقطاع هذا التواصل في الإرث الزمني، خلق نوعاً من القلق العام دون أن يدرك أحد أسبابه. أضف إلى ذلك، النزوح إلى أماكن غريبة والإقامة في أماكن عامة من مدارس وباحات وساحات. اقتلَع مجموعة هؤلاء السكان الآمنين من ديارهم ومن عاداتهم ومن طقوسهم، وألقى بهم في أماكن غريبة، شكلت لهم صدمة نفسية ستبقى في الذاكرة رغم التكريم والحضانة التي أحيطوا بها من قبل المستقبلين في المناطق اللبنانية.

فالكارثة لا تعوّض ببعض البدائل للحاجات الآنية، والعلاقة بالأرض هي علاقة مع التاريخ وتواصل مع المستقبل. هذه الحالة أفرزت معاناة نفسية، مع ظهور أعراض لم تكن موجودة من قبل. ولكنّ قسماً كبيراً منها تبدد بعد عودة النازحين إلى أرضهم. وهنا يجب الإشارة إلى عامل المفاجأة؛ فحسب التقييم العيادي، بقدر ما تكون المفاجأة سريعة بقدر ما يكون الحدث صادماً؛ فأكثر السكان هجروا مساكنهم دون أن يتمكنوا من تحضير بعض اللوازم الضرورية - فخرجوا من دون ثياب ومن دون مال. وهذه السرعة في النزوح كان وراءها خطر الموت والخوف على الأطفال.

لذلك، نستخلص ممّا شهدناه وسمعناه، أن الحدث سواء أدّى إلى معاناة نفسية دائمة أم لم

يؤدّ، سيبقى ماثلاً في الأذهان كنقطة فصل بين ماضٍ انتهى وحاضر بدأ. وأضحى نقطة بداية لتاريخ جديد، يحدد ما هو قبل وما هو بعد. وهنا يجب الإشارة نتيجة لهذا التأثير الوجودي إلى ظاهرة الاكتئاب التي شكلت العامل البارز لطلب المساعدة النفسية؛ فأكثر الوافدين إلى العيادة النفسية كانوا يعانون من عوارض الاكتئاب بكل مظاهره حتى عند الأشخاص الذين لم يفقدوا شيئاً. ولكن الموضوع أو الخسارة أتت في مثل هذه الحالات ملازمة للحدث. فهنالك حقبة زمنية خلقت قطيعة في سياق الزمن، بشكل أن هذا الحدث قد قطع الزمن إلى شطرين، تاريخ انتهى وتاريخ بدأ، وبين الاثنين فجوة لا يمكن ترميمها؛ لأنها واقع لا يمكن إنكاره. والواقع في المفهوم النفسي يعود بشكل أعراض نفسية – إذا ما حاولنا إنكاره – والسبيل الوحيد لوضع حد للمعاناة النفسية، هو إطلاق عملية الحداد عليه. فمن دون ذلك تتحول الحياة إلى حداد مستمر دون خاتمة العزاء، وتصبح الآلام النفسية جرحاً مستمراً كمن فقد عزيزاً لا يستطيع رفع الحداد عليه إلى أن يأتي أجله، ويضع له حداً نهائياً.

لقد كنا نواجه صعوبة في إقناع بعض المصابين بأن هذا قدرهم، ولم يكن لهم خيار عندما ولدوا وعاشوا على هذه الأرض، فهي متاخمة لعدو شرس مجرد من كل المشاعر الإنسانية.

وعلى سبيل المثال: عندما جاءني أبو حسين بصحبة عائلته التي اكتشفت أنه يعاني من هلوسة؛ فهو أضحى يرى الإسرائيليين في كل مكان في الحقل، في الشجرة، وما بين ركام البيوت، ولا يستطيع أن يقنعه أحد بأن إسرائيل انسحبت ولا وجود للعدو بتاتاً. وقد تفاجأ الأهل عندما قلت أن أبا حسين على حق وهم على خطأ. فسألوا مستفسرين بحيرة من أمرهم.

فتوجهت إلى أبي حسين وسألته: هل حصل وسمعت بالقنابل العنقودية؟

فتأمل بي وأجاب: كيف لكن! إبن أبي محمود كان يحصد لي الحقل، وانفجرت واحدة بين رجليه فقطعوا رجله.

فقلت: «شوف» يا أبا حسين، ما تقوله ليس خطأ ولا خرافة، فالإسرائيليون انسحبوا، ولكن تركوا القنابل العنقودية لكي تحل مكانهم في حال غيابهم.

فبدت ابتسامة على وجهه، وأخيراً، وجد من يصدقه ويعترف له بحقيقة ما يقول. إذا، كل هذيان يحمل في طياته حقيقة لواقع يفرض نفسه.

وجدت في هذه النبذة العيادية، نموذجاً للإرهاب النفسي، وهو يختلف عن الحرب النفسية. لأن هذه الأخيرة تعتمد على اختلاق الأكاذيب، ونشر الإشاعات، كي تخيف وتضلل العدو. أمّا الإرهاب النفسي فيعتمد على خطر حقيقي كالسيف المسلط، يهدّد المجتمع المدني. ونحن كما نعرف عبر وسائل الإعلام أن إسرائيل عمدت إلى إلقاء مليون ومئتي قنبلة عنقودية في الثماني والأربعين ساعة الأخيرة من نهاية الحرب، وهي تعلم أنها ستنتهي، فلماذا فعلت ذلك؟ الهدف منها أنها وزعت قناصين غير منظورين في الحقول والبساتين والوديان كي يقوموا باصطياد

المواطنين تعويضاً عن عجزها وفشلها. فأصبحت موجودة في كل مكان تمنع وتعكر التواصل بين المزارع وأرضه. أي أن تحوّل هذه الأرض الخصبة المضيافة الخيّرة إلى أرض معادية تنصب الموت لكل من يقترب منها - هذا هو الإرهاب النفسي- فهو يقتضي أن يتحول المحب إلى معادٍ، والأليف إلى غريب، والحميم إلى هجين، فيصبح المزارع غريباً عن أرضه وتتحول ثمرة أتعابه إلى سمٍّ يهدّده.

هذا الإرهاب النفسي تحرّمه كل قوانين الحروب منذ أن اعتمدت اتفاقية جنيف. ولكن كما نعرف فإن إسرائيل تسمح لنفسها بانتهاك جميع القوانين الإنسانية؛ لأنه لا يوجد أحد يمكن أن يحاسبها سوى بعض الأصوات الهوائية التي تنطلق في سياق احتجاجات عند الدول الغربية. وهذا المسلك يعود منذ البداية إلى تأسيس دولة إسرائيل على عملية اغتصاب أرض وانتهاك حرمة شعب.

الناحية التي أريد الإشارة إليها هنا في عواقب الحرب، تأثيرها على الأطفال سيما إذا كانوا دون العشر سنوات. فالحالات العيادية التي مرّت في تجربتنا تشير إلى أن الضرر النفسي الذي حصل عند الأطفال يفوق ما حصل عند الراشدين؛ هناك ضرر مباشر وضرر غير مباشر:

- **الضرر المباشر:** يحصل بعد الحدث مباشرة بشكل خوف وحالة نكوص إلى مراحل طفلية سابقة؛ فمنهم من يفقد النطق ومنهم من يعود إلى التبول بعد أن يكون قد نَظُف، ومنهم من يصبح عدائياً تجاه إخوته، أو تجاه أقرانه في المدرسة، فيثير احتجاج المشرفين على تربيته، ومنهم من يصاب بأعراض حركية تقلق راحة الأهل - فقدان القدرة على النوم، الإلحاح في الطلبات أو بخواف لم يكن موجوداً: خواف من الطائرات ومن صوتها عندما تخترق جدار الصوت، خواف من صوت الأسلحة النارية ومن المظاهر العسكرية-. ولكن الأهم من كل ذلك هو المسلك الدراسي؛ فالطفل المصاب يفقد قدرته على التركيز والاهتمام لإتمام واجباته المدرسية، ويبدأ بالتشويش على رفاقه بالصف، بسبب إكثاره من الحركة وعدم القدرة على المكوث في مكان واحد.

وكلها تعود إلى القلق الداخلي الناجم عن فعل الحرب والتهجير الذي حصل، والنوم في العراء أو الأماكن العامة، الشيء الذي جعله يفقد الألفة والأماكن التي تعوّد عليها وأصبحت تؤكد هويته وتثبت مراجعه النفسية - أي فقد التواصل ما بين الذات والأجواء الخارجية الأليفة- فأصبح يشعر بغربة ترافقه، حتى ولو عاد إلى الأماكن التي اعتاد عليها . وهذا ما يفسر كثرة الحركة والانتقال من مكان إلى آخر، دون أن يتمكن من أن يحصل على المكان الضائع الذي كان يجد نفسه فيه.

والحصيلة لهذه الحالة هو التخلّف الدراسي، فبعد أن كان من الأوائل في الصف، يتراجع لأنه لم يعد يملك القدرة على التركيز. ومما يزيد الأمور تعقيداً هو قلق الأهل ما بعد الحرب، فإنه

ينتقل حتماً الى الأطفال، لأن الأهل يمثلون بالنسبة إليه الدرع الواقي من خطر العالم الخارجي، بل الوسيط الذي يمكنهم لاحقاً من التحكم به، فإذا إنهار يجد نفسه نظراً لضعفه غير قادر على مواجهة العالم الخارجي. وهذا ما يفسر تعرضه لكوابيس الليل والخوف من الظلام أو من الابتعاد عن الأهل؛ لأن غيابهم يشكل بالنسبة له الخطر الأكبر.

- **أمّا العواقب غير المباشرة**: فهي أن تتكوّن لدى المصدوم نواة صدامية تتكيس في الذات ولا تظهر عوارضها إلاّ في المراهقة أو في سن الرشد، فتكون سبباً في اندلاع عصاب الحرب واضطرابات في الشخصية مما يؤثر لاحقاً على مسلكه الاجتماعي ويهدد مستقبله الدراسي.

أمّا بالنسبة إلى الراشد فالخبرة العيادية بيّنت لنا أنه إضافة إلى الصدمة الأولى والتعرض لخطر الموت - كما لمّحنا سابقاً - فإنّ ما يميّز هذه الصدمة هو عامل المفاجأة. وكل الدراسات تجمع على أنه بقدر ما تكون المفاجأة سريعة بقدر ما يكون وقع الصدمة كبيراً. لأن اختزال عامل الوقت إلى ثوان أو ساعات، يفقد الذات قدرتها على استنفار قواها النفسية لدرء هذا الخطر وحتى استيعابه. فتحدث شرخاً في الذات يحتاج فيما بعد إلى أيام أو أشهر لردم الهوة بين الحدث والواقع النفسي المستجد. فإذاً، إضافة إلى هذا العامل هنالك النزوح وما سبّبه من معاناة وتجربة غربة. وحتى بعد العودة إلى البيوت وما لحقها من دمار، بقي العامل النفسي المؤثر يتمثل بالشعور بالإهانة والإذلال والدونية. فلم يكن هنالك تصور لمثل هذا الواقع المستجد .فالآمن في بيته ورفاهيته الذي هو محصّن اجتماعياً باحترام الآخر له، وباعترافه بمكانته وكرامته، وجد نفسه فجأة في أماكن غير أليفة وانقطع عن تواصله الاجتماعي الذي اعتاد عليه. وبغض النظر عن تكريم المستضيفين لهم وتأمينهم حاجاته، فهو بقي يشعر بالدونية وبالإهانة وفقدان الحرية التي كان يتمتع بها في منزله. هذه الذكرى بقيت ماثلة في ذهنه وكانت مصدراً لعوارض نفسية متعددة.

ولكن السؤال هنا كيف تخطى الجنوبيّ هذه التجربة الذاتية الصدامية؟

الجواب عن هذا يكمن في عاملين، ولولاهما لكانت الكارثة الاجتماعية وتداعياتها أكبر بكثير مما حصل.

العامل الأول، هو صمود المقاومة:

هذا الصمود والانتصار الذي حققته باعتراف إسرائيل نفسها، وبالإجماع العربي قد سجله التاريخ في سجله المشرف؛ لأنه لم يحصل حتى الآن أن حصلت مقاومة شبيهة بها، أو تعادلها سوى الثورة الجزائرية. فإسرائيل تتميز بالنسبة للمجتمع الدولي بأنها لا تقهر، مما جعل هذا الشعار يسيطر على كل المجتمعات العربية ويبرر خنوعهم واستسلامهم. وخروج المقاتلين أبطالاً يتفاخر بهم كل مسلم وكل عربي، أنقذ أهلهم النازحين من الإهانة وأعاد إليهم كرامتهم. وكان لهذا العامل تأثير عميق في نفسية كل جنوبي، أشبه بعلاج نفسي حماهم إلى حد ما من تداعيات

كارثية للصدمة. لأن كل جنوبي رأى نفسه في المقاوم البطل، يتماهى به ويتفاخر بانتسابه إليه أينما وجد في أي بلد عربي.

العامل الثاني، هو دور القائد المتمثل بالسيد حسن نصر الله:

القائد كما نعرف تاريخياً ومن الدراسات النفسية للجماعة، يلعب دوراً كبيراً في نصرة الجماعة أو (على العكس) في انكسارها. فالسيد حسن نصر الله قد أظهر ميزات في شخصيته يطمح كل قائد أن يتماهى بها. فبالإضافة إلى حسن قيادته وذكائه، وبعد نظره وقدرته على الصبر ومعرفته التامة بعدوّه، هنالك أيضاً إيمانه الديني العميق وإنكاره للذات واستعداده للتضحية بأحد أبنائه. يتبين من تسلسل الأحداث أن هذا الإيمان بالعقيدة لا ينفصل عن إيمانه بالقضية التي كرّس نفسه للدفاع عنها. فجمهوره أصبح يحبه حبه لنفسه، وينتظر أقواله انتظار الطفل لأمه، لأنه رأى فيه الأمل وأضحى في نظر البعض محاطاً بهالة قدسية تتخطى الخوف من الموت. وجمهوره على استعداد بجهوزية تامة لكل تضحية، لا يتوانى عن تلبية أوامره إذا ما صدرت منه .

والسؤال، من أين يستمد القائد هذه السلطة؟

يستمدها من الحب - فلا سلطة بالمفهوم Autorit من دون أن يكون الحب مصدرها. والحب يجعل من القائد مثالاً أعلى يقتدي به كل من تماهى بشخصه. فمن هذا المنطلق، فإن الشعب الجنوبي وحتى قسم كبير من الشعب العربي، وجد فيه مثالاً للقائد، مما عزّز نفوس جمهوره ونزع منها ثوب الإهانة والإذلال الذي حصل بعد النزوح القهري. وأضحى عبر خطاباته وتوجهه إلى جمهوره وقدرته على الإقناع والصدقية- ليس فقط قريباً من كل واحد منهم- وإنما المعالج النفسي بامتياز لتبديد عواقب الحرب وتداعياتها. وهذا ما أوقف العجلة التدميرية الذاتية التي أحدثتها هذه الصدمة.

ولكن القائد كسائر البشر ومن نفس الطينة، يتعرض إلى مخاطر لا تقتصر فقط على الاستشهاد أو الأسر، إنما المخاطر الآتية من الذات ومن جمهوره نفسه.

المخاطر الذاتية تكمن في النرجسية: فهو إذا تماهى بجماهيره وأصبحت بمثابة المرآة التي يرى من خلالها نفسه- أي يتكامل وتتكامل به- يتوجه اهتمامه إلى تلميع هذه الصورة، وإضفاء صفة الكمال عليها، مما يجعله بعيداً أو أصمّ تجاه أيّ رأي مغاير، أو رافضاً لأي انتقاد- حتى ولو أتى من أقرب الناس إليه - لأن كل ما يشوّه الصورة النرجسية المتكاملة فهو مرفوض؛ لأنه لا يعود يسمع إلاّ ما يعزز ذاتيته ويغذي نرجسيته - فيصبح مستشاروه أشبه بالكورس الذي يردد أقواله أو يسمعه ما يريد.

المخاطر الآتية من الجمهور: يتحكم بالقائد نوع من التجانس يرفض كل شائب ينغّص عليه الاستمتاع بصورة القائد. فيتوقف ذكاؤه وقدرته على المساهمة والاستنتاج، ويستقيل من كل

مسؤولية ويضعها في موضع القائد، فتغلب عليه العواطف الغريزية التي تدفعه إلى التهور وفقدان القدرة على التحكم بتصرفاته مما يجعله يقوم بتجاوزات تفلت من سيطرة القائد نفسه.

وأخيراً، أختم بالقول: حتى لو إننا لم نصل إلى هذا المستوى من التطور النفسي المدمر، فإني أذكره انطلاقاً من تجارب الماضي، حتى لا يغيب عن ذهننا ونتمكن دائماً من توقي مخاطره، فلا نذهب في بناء الأساطيرفيغيب عنا واقعنا؛ لأن المعركة بين العرب وإسرائيل ليست معركة جيل بل ربما أجيال، وكل بناء سليم يرثه الجيل القادم يساهم في قدرات المستقبل لنصرة الحق على الباطل.

لائحة بالمراجع

عدنان حب الله، الصدمة النفسية، دار الفارابي ٢٠٠٦.

1- Journal of nervosas and mental disease vol. 17809.

2- Shalev A.-Y.: Symposium international: stresse, psychiatrie et guerre,World Psychiatric association, Military section, 1993 p:123-133.

3- Solomon, Z.: journal of orthopsychiatry, vol.64, n¡1, Janvier 1994.

الخطاب الإعلامي للمقاومة اللبنانية
قراءة في خطب قائدها

الباحثة في الصراع العربي الصهيوني
آمال الخزامي (مصر)

مقدمة

إنّ الخطاب الإعلامي للمقاومة الإسلامية أثناء الحرب في صيف العام ٢٠٠٦ يثبت أنه كان خطاباً إعلامياً صادقاً قام على دعامة الموضوعية في التناول، وتميز بقدرة قائد المقاومة على بث الأمل في صدور أبناء الأمة كلها، وبث الرعب في صدور الأعداء. ولذا سنركّز في هذا البحث في قراءة أدبيات الإعلام المقاوم لسيد المقاومة؛ ففي كلمة له للمجاهدين قال: *«وصلتني رسالتكم، وأنتم أصالة تاريخ هذه الأمة، وحضارتها، وقيمها، أنتم خلود الأرز في قممنا، وتواضع سنابل القمح في سهولنا، أنتم الأمل والرهان وستبقون كذلك.... شكراً لكم إذ قبلتموني واحداً منكم، فأنتم القادة والسادة، وأنتم مفخرة الأمة».*

وفي كلمة للعدو والعالم بأسره قال: *«مهما طالت الحرب نحن أهلها ومهما تعاظمت التضحيات فنحن ولدنا من رحمها، لن ننكسر ولن ننهزم».*

وفي خصوصية شديدة قال لبوش وأولمرت: *«ما جمعك ألا بدد وما أيامك إلا عدد، والعاقبة للمتقين».*

وفي ثلاثية هذا الخطاب الإعلامي تميّز بالوضوح والموضوعية، رغم أن المقولات الثلاث كانت لثلاث قوى مختلفة هي المقاومة والعدو والعالم.

المقاومة قراءة في الحدث القريب:

في قراءة لمجريات الأحداث، منذ نكسة ١٩٦٧، نجد أن «إسرائيل»، بعد خسارتها في حرب الاستنزاف (١٩٦٧- ١٩٧١)، أمام مصر، كما أقرّ بذلك الرئيس الإسرائيلي الأسبق، حاييم هيرتزوج، توالت هزائمها في كل الحروب التالية. كما شهدت المقاومة في فلسطين ولبنان، بعد «معركة الكرامة» في ربيع ١٩٦٨، تطوراً طردياً في أدائها ونوعية كوادرها. فامتلكت القدرة على المبادرة الاستراتيجية في إدارة الصراع، فغدا الأمن الإسرائيلي رهينة لدى المقاوم العربي،

وأدرك الكيان الصهيوني مدى ضعف قوة الردع لجيشه «الذي لا يقهر»، وتراجعت قدرات الأنظمة العربية في كبح المقاومة، وإعاقة تطورها[١].

يعدّ نصر حزب الله، في حرب الأيام الثلاث والثلاثين، أبرز وأشد تأثيراً في تلك الحروب، إذ إنه أسقط أسطورة الجيش الذي لا يقهر، والتوظيف الأمريكي له[٢].

قدّم «حزب الله» مثالاً رائداً للأداء السياسي، خلال فترة الحرب، على مستوى الإدارة السياسية للمعركة، أو تهيئة الجبهة الداخلية اللبنانية، أو في مخاطبة العدو، وأيضاً، في مخاطبة العرب والمسلمين، وكسب الحلفاء، وتحييد الخصوم[٣].

في قراءة لخطب سماحة السيد حسن نصر الله، ثمة سمات عامة لكل خطاباته، وتتمثّل في كثافة المضامين، كثافة الرسائل السياسية، التي حملتها، كما تميّزت الخطابات بالأداء السياسي المميز. والملاحظ أن السيد نصر الله لم يترك سؤالاً يدور بخلد أي إنسان عن سياسة الحرب، والمعارك، والرؤى المستقبلية، بلا إجابة.

كما أن هناك سمات خاصة لكل خطاب من خطابات السيد نصر الله على حدة تحمل طبيعة المرحلة، والظروف التي تمر بها المقاومة.

أدبيات الخطاب ومراحل الإعلام

المرحلة الأولى، ركّز فيها السيد نصر الله على العنصر البشري، سواء داخل لبنان، أو الوطن العربي، أو العالم الإسلامي، أو داخل الكيان الصهيوني. المرحلة الثانية ركّز فيها على المعركة نفسها فجاءت مرتبطة بالميدان وأرض المعركة. في المرحلة الثالثة اهتمت خطابات السيد نصر الله بالتحليل السياسي للأحداث، وربطها، ميدانياً، بصدور القرار ١٧٠١ عن مجلس الأمن (٢٠٠٦/٨/١١). جاءت المرحلة الرابعة لخطب السيد نصر الله، فقامت بتحليل المواقف ووضع الاستراتيجية للتعامل مع المعطيات السياسية الجديدة داخلياً وخارجياً.

أولاً، المرحلة الأولى:

أ- العنصر البشري الداخلي:

بتواضع القائد، وعظمته، وعرفانه بما ضحّى به جنوده، يخاطبهم، فيقول «أتوجه بالشكر إليهم، وأقبّل جباههم وأيديهم، ببركة الجباه المرفوعة، وهذه الزنود السمراء ستبقى كل جباهنا مرفوعة»[٤].

أكّد السيد نصر الله أن عملية «الوعد الصادق»، وأسر الجنديين الإسرائيليين كانت بهدف إطلاق سراح المعتقلين والأسرى في سجون الاحتلال. ووصفه بأنه «يوم الوفاء لسمير قنطار، يحيى سكاف، ونسيم نسر». وكل المعتقلين..[٥].

وتتأكد رؤية السيد حسن نصر الله بضرورة الوحدة الداخلية، في دعوة لكل اللبنانيين

للتضامن في مواجهة العدو، مشيراً إلى مسؤولية الحكومة اللبنانية في الحفاظ على البلاد. كما دعا سماحته وسائل الإعلام أن تتصرف بمسؤولية، ولا تشيع الإحباط، والتخويف في النفوس، فالوقت ليس وقت تصفية حسابات داخلية، بل هي معركة وطنية(٦).

يذكّر السيد نصر الله الشعب اللبناني باحتضانه للمقاومة، عام ٢٠٠٠، محققاً أول انتصار عربي تاريخي، في الصراع مع العدو الإسرائيلي.

ولفت سماحته نظر اللبنانيين بأن لبنان كله، وليس حزب الله، أمام خيارين:

إما الخضوع لشروط العدو، وإما الصمود، ويؤكّد عليهم وعده بالنصر، مؤكّداً بذلك على وحدة الصف اللبناني، وتفويت الفرصة على رهان العدو بشق الصف اللبناني.

لم ينس قائد المقاومين، بذكائه المعهود، يشحذ هممهم، بأن كل لبناني، وفلسطيني، وعربي، ومسلم، وحر، وشريف، ومظلوم، يراهن عليهم، وأنهم عند حسن ظن الجميع بهم(٧).

نلاحظ أن السيد نصر الله بدأ بالتعبئة، والتجييش، فهو يخاطب المقاومين أولاً، وشعب الجنوب ثانياً، مما يعزّز الشعور لديهم بثقل المسؤولية الوطنية، والدينية، والتاريخية، التي يتحمّلونها نيابة عن كل العرب والمسلمين. وبتواضع القائد يسمي مقاتليه بالقادة، ويتوجّه السيد نصر الله للشعب اللبناني، ككل، ويذكّره بأن النصر للجميع، وأنه ليس ببعيد عن المسألة، ولكن نترك المحاسبة إلى ما بعد.

إن فلسفة المقاومة عند «حزب الله» تبدأ من القاعدة الشعبية، وتستند إليها، وتنبثق منها القوة العسكرية، في تلاحم تحت ظل قيادة فريدة من نوعها، فتجد الصمود والتضامن، وقوة عسكرية، على رأسها قيادة(٨).

أكّد السيد نصر الله مدى الحرص على الوحدة الوطنية اللبنانية. والالتزام الصريح بأهداف الشعب اللبناني عموماً، والطبقات الفقيرة والكادحة خصوصاً، في إطار الترابط والالتزام لدى القائد وحزبه للمستقبل الواحد لكل اللبنانيين، ولكل العرب، أيضاً، في نضالهم ضد الحركة الصهيونية.

ب- العنصر البشري العربي والإسلامي:

شكر السيد نصر الله الفلسطينيين، والعرب والمسلمين، الذين عبّروا عن فرحتهم وتأييدهم لعملية «الوعد الصادق». رابطاً بينها وبين ما يجري في غزة، ليضع العالم كله أمام مسؤوليته، تجاه معاناة آلاف المعتقلين اللبنانيين، والفلسطينيين. أضاف بأن هذه العملية تشكّل مساندة ودعماً للإخوة في فلسطين، وأكّد على أنها كانت بقرار مأخوذ قبل أحداث غزة، بعد اختطاف المقاومين هناك جندياً إسرائيلياً (٢٠٠٦/٦/٢٥)، حتى لا يكون هناك تداخل بين المحلي والإقليمي. وفي الوقت نفسه، ليس هناك مانع من مسعى مشترك، لبناني - فلسطيني، على ثلاثة جنود أسرى، مقابل الأسرى اللبنانيين، وعشرة آلاف معتقل فلسطيني في السجون الإسرائيلية،

وناشد السيد نصر الله العراق بجمع الصف، والانتباه لما يريده الأمريكان والصهاينة من وقيعة بين طوائف الشعب العراقي عموماً، والشيعة والسنة خصوصاً[٩].

يلاحظ أن السيد نصر الله يناصر حركات التحرّر الوطني العربية، مما يدعم البعد القومي العربي، الذي يكاد يجعل من نصر الله قائداً قومياً، في مرحلة سوداء، عزّ فيها وندر، الفكر القومي، والقيادة العربية.

ج - العنصر البشري الصهيوني:

منذ اللحظة الأولى يتحدّث السيد نصر الله من موقع القوة، ويملي شروطه على العدو، فعندما طلب العدو الإسرائيلي وقف إطلاق النار في موقع الراهب، لسحب قتلاه، وجرحاه، طلب نصر الله وقف إطلاق نار شامل، وأكّد على أن الأسيرين الإسرائيليين في مكان أبعد ما يكون عن يد وذهن العدو.

بذكائه المعهود، وجه السيد نصر الله كلمته لمستوطني الكيان الصهيوني، لافتاً نظرهم إلى غباء حكومتهم، مذكراً إياهم باستطلاعات الرأي، التي أجريت داخل الكيان على ثقتهم في حزب الله، وتصديقهم له، أكثر من حكومتهم.

بتهديد واضح وصريح، يضيف نصر الله « إذا أردتم حرباً مفتوحة، نحن ذاهبون إلى الحرب المفتوحة، ولن ندفع الثمن وحدنا، ولا تدمر بيوتنا، وحدنا، ولن يقتل أطفالنا، وحدنا، هذا الزمن قد انتهى».

ويحمّل سماحته مستوطني إسرائيل مسؤولية ما قامت به حكومتهم، ويبلغهم بأن قواعد اللعبة قد تغيرت، والأيام ستثبت ذلك.

ويختم بالمفاجأة، التي وعد الكل بها، وهي تحطيم البارجة العسكرية الإسرائيلية[١٠].

لعب السيد نصر الله على التناقضات داخل الكيان الصهيوني، فشن حرباً نفسية، أدارها بكفاءة واقتدار، إذ ضغط على أعصاب الصهاينة، حكومة وجيشاً، ومستوطنين، وألقى الرعب في قلوبهم؛ بهدف هز الثقة بين حكومة الكيان ومستوطنيها.

ثانيـاً: المرحلة الثانيــة:

شرح سماحته ما جرى في ميدان المعركة، بالتفصيل، ليضع شعبه في الصورة الحقيقية لما يجري. وأكّد بأن المقاومة تركّز القصف على المواقع العسكرية لقوات الاحتلال، ولم تتعرض لأي مستوطنة في شمال فلسطين المحتلة، في الوقت الذي يستهدف فيه جيش العدو -«العاجز أمام المجاهدين» - البنية التحتية، منذ اليوم الأول للحرب.

أضاف نصر الله بأن «العدو فهم صبر المقاومة بشكل خاطئ، فقتلوا الناس في بيوتهم، فضربنا البارجة البحرية الإسرائيلية. وتمادي الصهاينة جعلنا نقصف حيفا، وتعمدنا تجنب

المصانع الكيماوية».

يعطي السيد نصر الله درساً في أخلاق القائد المحارب النبيل، للعالم كافة. فرغم أنه في مركز قوة، يمتلك من القوة والسلاح ما يردع ويرهب به عدوه، يلتزم بأخلاق المقاتل المسلم النبيل الشهم. وفي الوقت نفسه، يرسل رسالة واضحة وصريحة للكيان الصهيوني، بأنه سيتصدّى لأي عدوان أيضاً، بلا حدود، وبلا خطوط حمراء، ويعدهم بمفاجآت[١١].

نلاحظ هنا لهجة التهديد القوية، والثقة بالنفس، وبالمقاتلين، وبنصر الله، وأيضاً، بالروح المعنوية العالية.

أكّد السيد نصر الله لشعبه أنه يمتلك زمام الأمور في الحرب، وأن أهم نقاط القوة لدى المقاومة تكمن في جهل العدو بقدراتها وإمكاناتها.

ويشير نصر الله إلى أن لجوء العدو للأكاذيب، هو للتورية على أفعاله غير الإنسانية، باستهداف المدنيين في الجنوب، بذريعة وجود قواعد صاروخية، وهذا غير صحيح.

شكر سماحته، أبناء الجنوب، الذين أيّدوه وساندوه، بحب، وشجاعة، عبر وسائل الإعلام، وطمأن أهله بأنّ ما تمّ من تدمير، سيعاد بناؤه بمال طاهر من أصدقاء، بلا شروط سياسية. كما أكّد على عدم وجود جنود إيرانيين، وإلاّ فأين طائرات الاستطلاع الإسرائيلية الموجودة فوق المنطقة الجنوبية[١٢].

أضاف بأن لبنان يخوض معركة الأمة كافة. وعلى الشعوب العربية أن تقف أمام مسؤوليتها، وأمام عجز حكوماتها وقادتها، ولفت نظرها إلى الفرصة التاريخية للتوحيد والانتصار على العدو الصهيوني[١٣].

في هذه المرحلة، نلاحظ أن السيد نصر الله تحدّث عن أدواته، وآلياته، وقدرات المقاومة التسليحية، وقدرتها على الصمود، وضبط النفس، والثقة بالنصر، مما يؤكّد على الإدارة العسكرية الواعية للحرب، والتي تعمل على توازن الرعب. وأكّد، أيضاً، على البعد القومي والعربي، وحرّض الشعوب العربية على حكامها، وحثها على أن تقوم بدورها، وواجبها داخل أقطارها، وذكرها بأن المقاومة تقوم بالحرب نيابة عن تلك الشعوب، ليؤكّد لها أنها لم تتفضل على المقاومة، بل هذا واجب تلك الشعوب نحو أوطانها.

ثالثاً، المرحلة الثالثة:

أطل السيد حسن نصر الله، بعد مرور أسبوعين من المواجهة، ليتحدّث عن الجانب السياسي للحرب، والخلفيات التاريخية، موجّهاً حديثه، إلى شعوب العالم كله، وذلك بعد حديث وزيرة خارجية الولايات المتحدة، كونداليزا رايس، عن «شرق أوسط جديد». وأكّد السيد نصر الله، أن هذا المشروع أعدّ له، منذ سنة على الأقل، وليس إثر أسر المقاومة اللبنانية الجنديين

الإسرائيليين(١٤).

وتأكيداً على كلام السيد نصر الله يذكر الصحافي الأمريكي سايمور هيرش: «أنه من قبل أسر الجنديين بزمن، توجه العديد من المسؤولين الإسرائيليين إلى واشنطن، للحصول على الضوء الأخضر للخطة. ولذا تصرّف الرئيس بوش وإدارته على اعتبار الحرب الصهيونية أداتهم في تنفيذ سياستهم في المنطقة، مؤكّدين على الدور الوظيفي للكيان الصهيوني، في خدمة مصالح الولايات المتحدة»(١٥).

شدّد السيد نصر الله على أن المقاومة في فلسطين ولبنان تقف عقبة أمام مشروع «الشرق الأوسط الجديد» ففي فلسطين كان انتصار حركة المقاومة الإسلامية (حماس) بمثابة ضربة قاصمة للأعداء، فحاولوا الوقيعة بين أطياف الشعب الفلسطيني، وزجه في اقتتال داخلي، وشدّدوا الحصار عليه، فجاءت عملية أسر الجندي الإسرائيلي في غزة، ضربة قاصمة لمخططات العدو الصهيوني(١٦).

في لبنان، كانت الجهود الأمريكية، المباشرة وغير المباشرة، لفضّ الالتفاف الشعبي الداخلي حول المقاومة، والقضاء عليها. وفشلوا، فاتجهوا إلى الجيش اللبناني، وفشلوا. وراهنوا على إدخال حزب الله في الحكومة، ودفعه للتراجع عن المقاومة، فجاءت نتائج الحوار الوطني مخيبة لآمالهم، فاتجهوا إقليمياً، راهنوا على سوريا وإيران، فخيّبت آمالهم، فحاولوا عزل سوريا وإيران وتهديدهما(١٧).

لذا، فالحرب العدوانية الإسرائيلية على لبنان كانت معدة سلفاً، للسيطرة على جنوب الليطاني بالكامل، وضرب المقاومة، ومن حيث لا نعلم أحبطت الخطة الأخطر للحرب على لبنان، شعباً، وحكومة، ومقاومة.

أضاف السيد نصر الله أن أسر الجنديين أذلّ العدو، وعجّل بدخوله الحرب، دون التجهيز لها، فأسقط من يده عنصر المفاجأة، للإجهاز على المقاومة(١٨).

جزم السيد نصر الله بأنه لا يقبل أي شرط مذلّ لوطنه وشعبه ومقاومته، رغم كل التحرّكات الدبلوماسية والسياسية التي تعطي الفرصة للعدو(١٩).

على الصعيد الميداني، أكّد نصر الله وصول القصف حدود حيفا. وإذا تمادى العدو سيدخل إلى ما بعد ما بعد حيفا، وأشار إلى إنجازات المقاومة الكبيرة، والخسائر التي تكبدها العدو، وأشار إلى حرب العصابات التي تنتهجها المقاومة. نقل سماحته بكل صدق ما يدور على أرض المعركة من إنجازات للمقاومة والخسائر التي تكبّدها العدو، ولفت النظر إلى الحرب النفسية التي يشنها العدو وهو يتحدّث عن مئات الشهداء للحزب، وأكّد أن المقاومة تعتز وتفتخر بشهدائها فلا يمكن أن تنكرهم، وكذا الجرحى والأسرى. وناشد كل الشرفاء في العالم ألا

يستمعوا لأكاذيب العدو[٢٠].

أبرز السيد نصر الله قدرة على الإدارة الاستراتيجية للحرب، لحظة بلحظة، فضلاً عن حصافته السياسية، ومتابعته السياسية والتاريخية للأحداث كلها من حوله.

بلغ النقد السياسي الذي وجّه للسياسة الأمريكية، والعدو الإسرائيلي حد التجريح، والتحريض عليها، فقد أدار سماحته الحرب النفسية ضد العدو، باقتدار، ومهارة الحرب القتالية، فألقى الرعب في قلب عدوه، بما حمله خطابه من تهديدات، كما تميّز هذا الخطاب بالمصداقية التي تشاركه فيها خطابات نصر الله كلها، لما احتوته من بيانات وأعداد صحيحة لما خسرته المقاومة، وما خسره العدو.

وجّه السيد نصر الله، في الأسبوع الرابع للحرب، كلمة لشعوب العالم عموماً، وللشعب اللبناني خصوصاً، ركّز فيها على التطورات في الواقع الميداني، وكيف أخذت المقاومة شكلاً مختلفاً عن الأيام الأولى للحرب، والذي يصفه الخبراء العسكريون بأنه أشبه بالمعجزة، كما أن قدرة المقاومة فاجأت العدو مما اضطره للجوء كالعادة إلى الأكاذيب، كحرب نفسية، منها التهديد بضرب العمق اللبناني.

ويردّ سماحته، بتهكّم، أن العمق اللبناني يقصف يومياً، وليس بحاجة إلى قرار جديد، أما ما يتعلق ببيروت العاصمة، فردّ السيد نصر الله برسالة تهديد واضحة، يتميّز بها هذا الخطاب «ويسمع مني (العدو) اليوم كلاماً واضحاً جداً، إذا قصفتم عاصمتنا سنقصف عاصمة كيانكم الغاصب، إذا قصفتم بيروت، فالمقاومة الإسلامية ستقصف مدينة تل أبيب»[٢١].

تميّز هذا الخطاب بلغة التهكّم والاستهزاء بالإنجازات التي زعمت الحكومة الإسرائيلية أنها قد حققتها في المهلة التي منحتها إياها كونداليزا رايس، لمدة أسبوع. فكانت مجزرة قانا، وإنزالان للكوماندوس، استهدف أحدهما مستشفى دار الحكمة، وليس موقعاً عسكرياً.

كما شنّ السيد نصر الله، من جديد الحرب النفسية على العدو، فوصف جنود الكيان الصهيوني بأنهم ضحية لعقدة نفسية موجودة عند رئيس حكومتهم، إيهود أولمرت، الذي ليس لديه أي تجربة، ويريد أن يثبت بأنه قائد كبير، وهو أعجز وأحمق رئيس حكومة تولى المسؤولية في الكيان الصهيوني.

يحمل سماحته الإدارة الأمريكية المسؤولية عما جرى ويجري من قتل وتدمير، إسرائيل ما هي إلا مجرّد أداة لتحقيق ذلك[٢٢].

على الصعيد الداخلي، أكّد السيد نصر الله أنه مهما تكن نتيجة الحرب، فلن يكون لبنان أمريكياً أو إسرائيلياً، أو موقعاً في «الشرق الأوسط الجديد».

وضع نصر الله العالم كله أمام مسؤوليته في المساعدة على إعادة بناء لبنان، ليس كحالة

إنسانية، بل كدولة تم الاعتداء عليها، بقرار أمريكي، وسلاح أمريكي، وطلب سماحته من الحكّام العرب أن يكونوا رجالاً ليوم واحد، برفع صوتهم عند الإدارة الأمريكية، وذكّرهم بأن لا مكان لكراسيهم إذا ما تخلوا عن مسؤولياتهم الأخلاقية(٢٣).

تضمنت كلمة السيد نصر الله لقناة «المنار»، قيماً ومضامين تدل على رقي هذا القائد، وتمسّكه بالأخلاق، والتعاليم الدينية، وأكّدت على أنه السيد والقائد والنبراس لكل مناضل شريف في العالم.

تناولت الكلمة الأوضاع السياسية، والربط بينها وبين الأوضاع الأمنية، والتطورات القتالية في ميدان المعركة.

رغم صعوبة الموقف، وشدة القتال، فإن القائد أكّد على ضرورة الحفاظ على وحدة الصف، والتضامن الوطني، والشعبي، والرسمي مع مؤسسات الدولة، وتقوية موقف الدولة في التفاوض.

كما ترفّع القائد على كل الانتقادات التي وجّهت للحزب والمقاومة، ورفض أن يدخل في أيّ نقاش سياسي، ليفوّت الفرصة على العدو، وعلى من يريد حزب المقاومة.

وتجلّت شخصية الأب والمعلّم، حين طلب سماحته من النازحين، من أهله الصامدين الطيبين، كما وصفهم، أن يراعوا، ويحافظوا على العادات، والتقاليد، والشعارات، للمناطق التي نزحوا إليها، خاصة وأن بعض تلك المناطق قطنها مسيحيون موارنة.

ودعا نصر الله أبناء وطنه في العاصمة بيروت إلى تجنب المظاهرات والاعتصامات، حتى لا تتوفر الفرص التي يمكن أن تؤدي إلى خلل أمني، وتؤدي بالتالي إلى انقسامات في الشارع(٢٤).

أوضح السيد نصر الله أنه لا يعترض على نشر الجيش اللبناني، في المنطقة الحدودية، فهو لا يشك في وطنية رجال الجيش، أبناء وطنه، ولكنه يخاف على جيش لا يمتلك سلاحاً يمكّنه من الدفاع عن الوطن.

دعا سماحته الحكومة اللبنانية للصمود، وعدم الخضوع للضغوط الأمريكية، والتمسك بخطة النقاط السبع، التي أجمع عليها اللبنانيون.

إلى ذلك، أعرب زعيم حزب الله، في رسالة خاصة لعرب حيفا، عن أن الحزن والجرح واحد، وناشدهم مغادرة حيفا، لأن وجودهم يجعل المقاومة تتردد في قصفها. وسرد الوقائع الميدانية، التي تؤكّد قوة المقاومة، في مقابل الوضع المربك للعدو(٢٥).

اتسمت كلمة «المنار» بسمة جديدة، فهي عبارة عن تلغرافات قصيرة، أكّدت على أخلاق القائد، ودهاء السياسي، وعبقرية العسكري الذي يدير الحرب، كما أضاءت معاني كثيرة، مثل الوحدة، والتضامن، والصمود، والتجاوز عن الصغائر.

رابعاً، المرحلة الرابعة:

أكّد السيد نصر الله أن قرار مجلس الأمن ١٧٠١ جاء ثمرة صمود المقاومين الأبطال،

والشعب الشجاع، وصمود القوى السياسية اللبنانية، والدولة اللبنانية.

من موقع قائد مسؤول بيّن سماحته المنهج الذي تتبعه المقاومة في التعامل مع القرار، فأكّد على التزام المقاومة بوقف الأعمال الحربية، حين يعلن الأمين العام للأمم المتحدة، ولبنان وحكومة العدو ذلك. وأن المقاومة ستكون على أتمّ الاستعداد لتسهيل عودة أهلنا النازحين والمهجّرين إلي ديارهم.

وذكّر السيد نصر الله بموافقة المقاومة على انتشار الجيش اللبناني في الجنوب، معزّزاً بقوات «اليونيفيل»، ووعد بالتعاون معه، واحتفظ بحق المقاومة الطبيعي بالدفاع إزاء أي اعتداء من جنود الاحتلال.

علّق سماحته على بعض الجوانب غير العادلة في القرار ١٧٠١، عندما حمّل المسؤولية للمقاومة، بالرغم من أن إسرائيل، هي التي بدأت بالعدوان، وبعدها قصفنا حيفا. كما لا يذكر القرار أي شيء عن المجازر التي اقترفتها إسرائيل ضد الشعب اللبناني في حربها العدوانية الأخيرة.

تحفّظ السيد نصر الله على بنود أخرى لم يذكرها، واعتبرها شأناً لبنانياً داخلياً، تناقش في إطار هيئة الحوار الوطني، وسوف يحسمها. وأكّد سماحته على أهمية التضامن في المرحلة المقبلة، مع الحذر واليقظة[٢٦].

جاء هذا الخطاب حاملاً رسالة التوعية بأهمية الوحدة الوطنية، في هذه المرحلة. كانت لهجة الخطاب شديدة الوعي والمسؤولية الحضارية. ولم يتضمّن الخطاب أي اتهام لأي قوة سياسية لبنانية، بالتحيّز لفكرة نزع سلاح المقاومة.

ربط السيد نصر الله بذكائه المعهود بين نزع سلاح حزب الله وإقامة دولة قوية، قادرة على حماية لبنان، تقوم على استراتيجية عسكرية جديدة.

يعدّ هذا الخطاب درساً في فن المقاومة لكل أنظمة العالم، وشعوبها؛ فالخوف من خيار الحرب أو المقاومة، وتبنّي ما يسمّى «السلام خيارنا الاستراتيجي» لدى الحكّام، ومحاولة بث «ثقافة السلام» لدى الشعوب، إنما هو نزع فعلي لأسلحة النظم، والتي أضحت عاجزة عن الدفاع عن شعوبها، وأوطانها[٢٧].

نوّه سماحته بأن «العودة للسلاح»، لا تعني تبنّي ثقافة الموت والإرهاب، ولكنها تعني تبنّي ثقافة المقاومة الحضارية، التي لن تتحقق إلا بالإنسان الصامد، والقيادة الحضارية، التي لا تجعل من استعدادات القوة العسكرية، واستخداماتها، مغامرات غير محسوبة[٢٨].

في ردّه على الرئيس الأمريكي، جورج دبليو بوش، عندما وصف حزب الله بالإرهابي، أردف نصر الله: «إذا كان «البعض» يقول: إن ثقافة حزب الله هي ثقافة موت وكره وإرهاب، وليس ثقافة سلام،

فإن الموت نوعان دفاع عن أرض وفداء للكرامة والحقوق، ومنع للعدوان، وهو ما يتبنّاه لبنان، بكل فخر وصمود، والنوع الثاني، الذي تتبناه إسرائيل وأمريكا، ألا وهو إرهاب لأصحاب الحقوق»(٢٩).

أعطى نصر الله الدرس الثاني للشعوب وحكّامها، عندما ربط السلام بالمقاومة، حيث قسم السلام إلى نوعين: سلام تتويج لحماية الحق، وفي ظل توازن قوي ورعب متبادل، تتلاحم القيادة والشعب لتحقيقه، وتمسكاً به، وهو ما ضرب به حزب الله المثل، ولم يكن إضافة لخبرة لبنان فحسب، ولكنه درس لكل النظم والشعوب العربية، التي قبلت السلام، ولم تعد له العدة الحضارية اللازمة لحمايته. والنوع الثاني هو سلام الاستسلام والخنوع، ولا يقترن بمقاومة، والتي تسعى أمريكا وإسرائيل لفرضه(٣٠).

يعدّ توقيت هذا الخطاب انعكاساً لعمق الاستجابة للتحديات المحيطة، لحظة وقف إطلاق النار.

في السياق نفسه جاء حديث السيد نصر الله على قناة (New TV)، مؤكّداً على بعض النقاط السياسية، التي يجري التفاوض من أجلها. فأعلن سماحته أن إيطاليا تسعى للقيام بدور في مفاوضات تبادل الأسرى بين الحزب وإسرائيل، عبر رئيس مجلس النواب اللبناني، نبيه بري، مع اهتمام من الأمم المتحدة(٣١).

أضاف، أنه ليس هناك مشكلة مع قوات «اليونيفيل»، طالما لم تتعرّض لنزع سلاح المقاومة(٣٢).

أقرَّ نصر الله بأنه لو علم بأن عملية أسر الجنديين كانت ستقود إلى الدمار الذي لحق بلبنان، لما أمر بها. وأنه لا ينوي الدخول في حرب أخرى مع إسرائيل، ولكن هذا لا يعني الطمأنينة، وأوضح «لو أنّ لدى إسرائيل نية لجولة ثانية، فعليها أن تعزز مواقعها، حالياً، لا أن تسحبها»، فهناك عودة للنازحين، وبدأوا في إعادة إعمار الشمال الإسرائيلي، والذي يتعاطى بهذه الطريقة لا يبدو أنه ذاهب إلى حرب»(٣٣).

أضاف سماحته «طالما هناك احتلال، فنحن لدينا الحق في المقاومة». وأفاد بأنه لن تكون هناك مظاهر مسلّحة لحزب الله، فسياستنا، تجنّب المظاهر المسلحة»(٣٤).

إلى ذلك، أكّد سماحته أن قيادات الحزب بخير «ومن يفكّر في ضرب لبنان اليوم سيحسب مائة حساب للمقاومة التي حاربت أقوى جيش في الشرق الأوسط»(٣٥).

أضاف أن الحصار البحري والجوي وغيره على لبنان، لن ينفع ولن يكون مجدياً، ولن يضعف المقاومة، وأن ما استنفد في الحرب هو جزء بسيط من إمكانات المقاومة(٣٦).

أجرت جريدة «السفير» البيروتية حواراً مع سماحة السيد حسن نصر الله، حمل استفسارات عن الغد، من منظور سيد المقاومة.

أول هذه الاستفسارات، كان عن نصر المقاومة، وهل الداخل اللبناني يعدّه نصراً؟ قال سماحته: إن المشكلة في الوضع اللبناني هو الالتباس: هل نعتبره نصراً أم هزيمة ؟ وما يدعو إلى القلق هو الاختلاف في تقييم نتائج الحرب، الذي ينطلق من خلفيات سياسية، ومذهبية، أو طائفية، وليس لأسباب موضوعية.

أما على الصعيد العربي والإسلامي، فهناك إجماع على انتصار لبنان، وانتصار المقاومة. وأيضاً، إجماع في إسرائيل على فشل إسرائيل في لبنان. ويقول سماحته: أكتفي أن أقول «الانتصار مسّ أسس الكيان والمشروع الإسرائيلي».

يشير السيد نصر الله إلى أن هذا النصر استراتيجي وتاريخي، وسيكون له تداعيات كبيرة، إسرائيلياً، وفلسطينياً، وعربياً، ولا يزال الوقت مبكراً لاستيعاب النتائج الإستراتيجية له. أردف سماحته بأن الحروب العربية الإسرائيلية عزّزت ثقة الجيش الإسرائيلي بنفسه، وثقة مستوطنيه به. في عام ٢٠٠٠ اهتزت الأسطورة، وجاءت هذه الحرب لتسقط أسطورة الجيش الإسرائيلي. وأعتقد ـ والكلام للسيد نصر الله ـ: أن المجتمع الإسرائيلي سيكون أمام تداعيات خطيرة جداً، على المستوى الأمني، والمعنوي، والاقتصادي، والسياسي، وحتى على المستوى الديموغرافي. فاليوم مستقبل أولمرت وبيرتس ورؤساء الأحزاب على المحك، فالفشل الإسرائيلي هو سبب وقف الحرب، وليس الدول.

إلى ذلك، أكّد نصر الله على أن الفلسطينيين يمتلكون فكرة المقاومة، ومشروعها، وإيمانها، وإرادتها، وشدّد سماحته على ضرورة أن يمتلكوا بقية عناصر الحرب.

أشار سماحته إلى أن إسرائيل فقدت الكثير من قواتها، وهيبتها أيضاً، في الحرب الأخيرة مع لبنان، وتحتاج إلى وقت طويل وآلاف الحسابات لتعود إلى شن الحرب مرة أخري، وخصوصاً بعد الوضع اللبناني الجديد، وانتشار الجيش اللبناني وقوات اليونيفيل، وسلاح المقاومة الذي لم يمس.

أكّد السيد نصر الله أيضاً أنه لم يخطئ التقدير في أسر الجنديين، وأن كلامه في (New T.V) تأكيداً لما سبق أن قاله أثناء الحرب. وأضاف «أنا أسهبت في هذه النقطة، والحديث عن أنه لو كنا نعلم أو كنا نحتمل جاء في سياق هذا الحديث، ولكن، للأسف، تم اقتطاع هذا الجزء بخبث، وذلك من أجل تركيب مواقف سياسية، وبناء تحليلات سياسية، على أساسها». وعاد إلى التشديد: «أجزم أننا لم نخطئ في التقدير».

تابع السيد نصر الله الحوار بالمقارنة بين غزة ولبنان، فقال: إن أسر الفلسطينيين لجندي في غزة هو أشدّ إذلالاً للإسرائيليين من أسر جنديين في لبنان، وذلك لقلة الإمكانات الموجودة لدى الفلسطينيين مقابل المقاومة اللبنانية، وأيضاً، ردة فعله في غزة لم تختلف كثيراً عن قبل

الأسر؛ حيث كان عدد الشهداء الفلسطينيين قبل الأسر بشهرين ما بين ٣٠ و٤٠ شهيداً[٣٧].

في الحديث نفسه، شدّد سماحته على احتفاظ المقاومة بسلاحها، وصواريخها، وعلى أن استخدامه ليس إلا في حال حصول عدوان عسكري على لبنان، حيث تقوم المقاومة بالدفاع - كمقاومة شعبية - بجانب الجيش اللبناني.

عن مصير الحزب بعد الحرب، صرّح السيد نصر الله بأن الحزب لا يحتاج إلى تحوّل دراماتيكي، على مستوى التنظيم، حيث يجري كل ثلاث سنوات مراجعة لأجهزته، وإمكاناته، ويجري التعديل المناسب بهيكلته. وأضاف بأنه ليس للشيعة مشروع خاص، عبر «حزب الله»: «نحن نقول: إنه لا بدّ للناس من إمام، بحسب اصطلاح ذلك الزمان الإمام بمعنى النظام يعني الدولة». أضاف سماحته أنه ليس ثمة قرار منفرد في الحزب، ولا قمع، فالشيعة عندما احتضنوا المقاومة كان ذلك بإيمانهم، المقاومة ليست مفروضة قسراً على الشيعة، فليس هناك تجنيد إجباري، واحتضان المقاومة هو شعبي وصادق فهم يتهجّرون، ويستشهد أولادهم، ويقدّمون الغالي والنفيس، ويعبّرون عن آرائهم، عبر وسائل الإعلام المختلفة.

وانتهى سماحته إلى أنه «لا يوجد في العالم حزب بقوة وشعبية حزب الله»[٣٨].

في كلمة مهرجان النصر بدأ سماحته بتحية شعب لبنان العظيم، مضيفاً بأنهم يحتفلون بنصر إلهي، وتاريخي، استراتيجي كبير.

إلى ذلك أكّد السيد نصر الله بأن الحرب كانت حرباً أمريكية، بالقرار، والسلاح، والتخطيط، والذي أوقف الحرب هو عجز الصهاينة، «ولن ندخل في سجال فيما كان هذا نصراً أم هزيمة»، فهذا نصر أكبر مما تستوعبه عقولنا. إن مقاومتكم، وصمودكم، وجّه ضربة قاسية لمشروع الشرق الأوسط الجديد، وفضحت السياسات الأمريكية الخدّاعة، التي تتحدث عن الحقوق والحريات والديمقراطية، مقاومتكم حثّت رجلاً أستطيع أن أقول عنه عربي كبير كبير كبير، كتشافيز، إلى أن يقول في الأمم المتحدة:«المقاومة اللبنانية، اليوم، هي تلهم كل مقاومي العالم، وكل أحرار العالم، وكل أشراف العالم، والرافضين للخضوع والإذلال الأمريكي في العالم».

أضاف السيد نصر الله أن ما يميّز المقاومة في لبنان، وفلسطين، اختيارها كرامة شعبها، وحرياتها، ومقدّساتها، وتقديم قادتها وأبنائهم قرابين لها. «صورة الجيش الذي لا يقهر أنهيناها، مقولة الدولة التي لا تقهر أنهيناها، بجد خلصنا».

طالب سماحته، بالدعم المعنوي والسياسي والمالي والتسليحي، للشعب الفلسطيني الصامد، ويتساءل: إلى متى السكوت؟ وإلى متى نتحمل العار؟ مؤكّداً على أن في فلسطين قادة، وعلماء، وفصائل، وحركات، شباباً، ورجالاً، ونساءً، وأطفالا. قادرين على أن يجددوا المعجزة الإلهية على أرض فلسطين.

كما طالب السيد نصر الله الشعب العراقي بالصبر، والهدوء، والحكمة، والتواصل، وعدم الوقوع في الفتنة، وعدم الرهان على العدو.

وتمنى سماحته على الشعب اللبناني العمل على بناء دولة لبنانية، قادرة، قوية، عادلة. أضاف، قرارنا ومصيرنا ومشيئة ربنا أن نعيش معاً، وسوياً، دولة واحدة، نرفض أن تقسّم أو تجزأ.

أضاف سماحته، بأن الحديث عن نزع سلاح المقاومة، في ظل هذه الدولة، وهذا النظام، يعني إبقاء لبنان مكشوفاً أمام إسرائيل. إن من يفكر في إنهاء المقاومة، من خلال جرّها إلى فتنة مع الجيش اللبناني، هو خاسر، ومن يراهن على إنهاء المقاومة، من خلال حرب جديدة مع إسرائيل، فأحيلهم إلى قول وزيرة خارجية إسرائيل تسيبي، ووزير دفاعها الأسبق «أننا اكتشفنا أن أي جيش في العالم لا يستطيع أن يفكّك تنظيماً، كهذا التنظيم».

يطمئن سماحته الجميع:«حتى لا يقلق أحد، أعيد، لا نريد أن نحتفظ بالسلاح، إلى أبد الآبدين، ولم يستخدم للداخل. هذا سلاح لبناني، سلاح المسلم والمسيحي، السني، والدرزي، والشيعي، لحماية وسيادة واستقلال لبنان ». وهذا تجلٍ جديد على كون «حزب الله» حركة تحرر وطني، ذات مرجعية دينية.

أشار سماحته إلى أن هناك مأزقاً حقيقياً في لبنان، وانقساماً وطنياً حاداً. مؤكداً بأن النزاع سياسي، وليس مذهبياً.

أما عن الأسيرين الإسرائيليين، فلن يطلق سراحهما، «ولو جاء الكون كله إلا بعودة الأسرى الذين نطالب بتحريرهم، وعودتهم».

وعن الأرض المحتلة «مزارع شبعا، وتلال كفر شوبا، ...الخ، قال سماحته: «لن يتخلى أحد عن شبر واحد من أرض لبنان المحتلة».

وعضّ نصر الله على الجرح، مشيراً إلى أن المقاومة صابرة، حتى الآن، على خروقات الصهاينة لوقف الحرب، ولا تريد أن تسجل أي خروق للقرار ١٧٠١ غير المقدّس. وهدّد بأن صبر المقاومة لا يطول، وإذا تخلفت الحكومة والدولة عن مسؤوليتها، فإن الشعب اللبناني سيتحمل المسؤولية، كما تحملها منذ عام ١٩٨٢. وخاطب سماحته الصهاينة: «إذا كان أحد قدّم لكم ضمانات أمنية، فهذه الضمانات لا تعني المقاومة، ولا الشعب اللبناني».

وأوضح لقوات اليونيفيل بأن مهمتهم مساندة الجيش اللبناني، وليست التجسّس على حزب الله، أو نزع سلاح المقاومة.

رفض السيد نصر الله بشدة وغضب ما يقال بأن الحرب إيرانية، من أجل الملف النووي الإيراني، ولتعطيل المحكمة الدولية الخاصة باغتيال رفيق الحريري، معتبراً «هذا كلام عيب»؛ فمع الاعتزاز بالعلاقة والصداقة مع إيران وسوريا، قيادة وشعباً، «نحن سياديون، ونحن

استقلاليون، لا علاقة لهذا الأمر بالحرب».

ودعا سماحته لإيجاد صيغة للحوار في سبيل الخروج من الانقسام السياسي في البلاد، وإقامة دولة لبنانية قومية[٢٩].

وبعـد،

من الميدان أرض المعركة، أجرى سماحة السيد حسن نصر الله تحليلاته السياسية، رابطاً إياها بميدان المعركة، ومارس استراتيجية للتعامل مع المستجدات، الداخلية والخارجية، ومن هنا كانت خطابات نصر الله، خلال أيام القتال وغداتها، نموذجاً للتضفير بين الإدارة السياسية للحرب، وإسنادها بالإعلام. وجاء التفاف الجماهير العربية والإسلامية حول «حزب الله»، الذي حمل الطموحات الوطنية والقومية العربية، بامتياز.

الهوامش:

[1] عوني فرسخ، هل انتصار حزب الله استراتيجي وتاريخي فعلاً ؟ ، موقع مركز الخليج الإلكتروني www.alkhaleej.ae

[2] المصدر نفسه.

[3] د.عبدالإله بلقزيز، قرءاة في استراتيجية خطاب «حزب الله» أثناء الحرب، موقع مركز الخليج الإلكتروني (alkaleeje.ae).

[4] خطاب السيد حسن نصر الله، بتاريخ ١٢ /٢٠٠٦/٧.

[5] المصدر نفسه.

[6] المصدر نفسه.

[7] خطاب السيد حسن نصر الله، بتاريخ ١٤ /٢٠٠٦/٧.

[8] ناديه محمود مصطفى، مقاومة ثلاثية الأبعاد في خطاب نصر الله www.1slam-ongine.net

[9] خطاب السيد حسن نصر الله، بتاريخ ١٢ /٢٠٠٦/٧.

[10] خطاب السيد حسن نصر الله، بتاريخ ١٤ /٢٠٠٦/٧.

[11] خطاب السيد حسن نصر الله، بتاريخ ١٦ /٢٠٠٦/٧.

[12] المصدر نفسه.

[13] المصدر نفسه.

[14] خطاب السيد حسن نصر الله، بتاريخ ٢٠٠٦/٧/٢٦.

[15] فرسخ، مصدر سبق ذكره.

[16] خطاب السيد حسن نصر الله، بتاريخ ٢٠٠٦/٧/٢٦.

[17] المصدر نفسه.

[18] المصدر نفسه.

[19] المصدر نفسه.

[20] المصدر نفسه.

[21] خطاب السيد حسن نصر الله، بتاريخ ٢٠٠٦/٨/٣.

[22] المصدر نفسه.

[23] المصدر نفسه.

[24] كلمة السيد نصر الله لقناة «المنار»، ٩-٨-٢٠٠٦.

[25] المصدر نفسه.

[26] كلمة السيد نصر الله لقناة «المنار»، ٢٠٠٦٨١٢.

[27] خطاب السيد حسن نصر الله، بتاريخ ١٤ /٢٠٠٦/٨.

[28] مصطفى، مصدر سبق ذكره.

[29] خطاب السيد حسن نصر الله، بتاريخ ١٤ /٢٠٠٦/٨.

[30] مصطفى، مصدر سبق ذكره.

[31] لقاء السيد حسن نصر الله، على قناة نيو تي في، (New TV).

[32] المصدر نفسه.

[33] المصدر نفسه.

[34] المصدر نفسه.

[٣٥] المصدر نفسه.

[٣٦] المصدر نفسه.

[٣٧] حوار السيد حسن نصر الله مع السفير (البيروتية)، ٢٠٠٦/٩/٥.

[٣٨] المصدر نفسه.

[٣٩] المصدر نفسه.

انعكاسات حرب تموز ٢٠٠٦ على لبنان وعلى الرأي العام الأميركي ودعم الكونغرس لإسرائيل

د. فرانكلين لامب (الولايات المتحدة الأميركية)

تعريب: رشا طاهر ومنار درويش

تهدف هذه المقالة إلى دراسة نتائج حرب تموز على الرأي العام الأميركي وعلاقات الكونغرس باللوبي الصهيوني، انطلاقاً من فرضية تأثير هذه الحرب على الطرفين.

لقد شهد الكونغرس الأميركي على مدى النصف قرن الماضي سيطرة متزايدة من قبل اللوبي الصهيوني، كما أسفر الأداء العسكري الإسرائيلي المتواضع عن خيبة أمل وحالة من الذعر في الكونغرس الأميركي. وقد دفعت هزيمة إسرائيل الواضحة خلال حرب تموز بأغلبية الكونغرس إلى تكثيف تبجيلها الرسمي للجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (ايباك) على وجه الخصوص واللوبي الإسرائيلي عامةً.

وسيتبع القادة في الكونغرس خطى اللجنة بشكل دقيق في الوقت الذي تقوم فيه هذه الأخيرة، بإعداد طلبات لتخصيص الأموال. وتكمن المهمة الفورية في تعزيز المساعدات لإسرائيل:«من أجل استبدال المعدات العسكرية المستخدمة في محاربة الإرهاب خلال صيف ٢٠٠٦»، وذلك بحسب ما جاء على لسان أحد أعضاء الكونغرس شيلي بيركلي (ديمقراطية عن ولاية نيفادا) في حديث إلى المسؤولين الإسرائيليين خلال زيارتها الأخيرة إلى تل أبيب.

انعكست نتائج حرب تموز على الرأي العام الأميركي بشكل مختلف عن الكونغرس. فالأداء المتواضع لإسرائيل وقصفها العنيف الفعلي لجنوب لبنان وضواحي بيروت الجنوبية، اللذان أعقبا الفشل الكارثي لإدارة بوش في العراق وأفغانستان، أدّيا إلى بروز دعوات متجددة من أجل تسوية النزاع الإسرائيلي الفلسطيني. وفي الواقع، ساهمت حرب تموز في ترسيخ الإدراك لدى شرائح الرأي العام وأقلية في الكونغرس أن إسرائيل لا تستطيع الاستمرار مطولاً، من دون عقاب، في استخدام الترسانة التي يزودها بها الأميركيون في سبيل السيطرة على المنطقة وتعزيز احتلالها الوحشي لفلسطين. وشرح أحد أعضاء الكونغرس جون كونيرز مؤخراً هذا الأمر على التلفزيون الأميركي قائلاً: «لقد وجد الرأي العام الأميركي أن الإمبراطور مجرّد من الملابس». وبدأ المزيد من الأميركيين يدركون أن قضايا العراق، وأفغانستان، ولبنان، وفلسطين مرتبطة بشكل مباشر

بعضها ببعض؛ بحيث ما من سلام في المنطقة ولا مستقبل مع إسرائيل في ظل غياب تسوية عادلة للقضية الفلسطينية. ومن جهة أخرى، يستمر الكونغرس الأميركي المدرك تماماً لهذه التطورات في دعم إسرائيل بشكل كبير وشبه دائم.

السيطرة الإسرائيلية على الكونغرس الأميركي عقب حرب تموز:

الكونغرس كأرض محتلة إسرائيلياً

بحسب ما ورد على لسان المرشح للانتخابات الرئاسية الأميركية بات بوشانان خلال الحملة الرئاسية للعام ٢٠٠٤، «إن الكونغرس، على غرار فلسطين، أرض تحتلها إسرائيل. والأعضاء فيه يؤيدون كل ما تقوم به إسرائيل ضد جيرانها في الشرق الأوسط، والأميركيون يدفعون ثمن ذلك بطرق شتى». فقد تعاظم دور الكونغرس منذ حرب تموز وفشل إسرائيل الذريع في تحقيق مآربها وكذلك أدائها العسكري المتواضع». ما يشير إليه بوشانان هو النفوذ التي تمارسه أكثر من ٦٥ منظمة بشكل منتظم على أعضاء في الكونغرس، من أجل تأمين المنافع لإسرائيل، وغالباً على حساب الناخبين والمجتمعات التي تمثلها هذه الأعضاء.

إن قوة الضغط التي تعرف باللوبي الإسرائيلي والتي يقودها ١٢٥٠٠٠ عضو من لجنة إيباك ، وكذلك التي تتخطى ميزانيتها السنوية الـ٥٥ مليون دولار أميركي، تملي على الكونغرس كيفية التصويت على كل مبادرة تشريعية بحق إسرائيل، من خلال تبرعات للحملات ومحفزات أخرى.

السياسة أم المبادئ؟

إن العديد من أعضاء الكونغرس هم عادةً أشخاص ينتخبون لمواقفهم حول مجموعة محددة من قضايا معظمها محلية. وغالباً ما يفتقرون إلى الخبرة في الديبلوماسية الدولية والسياسة الخارجية عند توليهم مناصبهم أمثال روي بلانت (جمهوري عن ولاية مونتانا)، ولاين إيفانز (ديمقراطي عن ولاية إلينوي)، وفيل (الذي قال «السياسة الخارجية ليست اختصاصي») إنغليش (جمهوري عن ولاية بنسلفانيا) وجيم رامستاد. إن هؤلاء الأعضاء يحبون عملهم، ويدركون أنه أفضل عمل قد يحظون به يوماً، وبشكل رئيس يذعنون للسياسات أكثر من المبادئ. فقد شرح أعضاء الكونغرس المتقاعدون هذه الظاهرة، وكيف أنه ثمة إلزام لتحويل الأنظار عن تأثير الخيانة على سمعة أميركا في العالم وكيف أن الأعضاء الناشطين يعتبرونه ثمناً بخساً يدفعونه مقابل الأمان الذي توفره هذه الوظيفة والمعاش السخي الذي يفوق الـ١٠٠٠٠٠ دولار أميركي في السنة حتّى في حال تولي المنصب لفترة واحدة.

ومن ناحية أخرى، غالباً ما يخشى هؤلاء الأعضاء لدى وصولهم إلى مقر الكونغرس أن تنضب صناديق حملتهم، وأن ينافسهم غرماء مدعومون مالياً على مناصبهم، ما لم ينفذوا طلبات لجنة الشوون العامة الأميركية الإسرائيلية واللوبي الإسرائيلي. ويقول م. ج. روزنبيرغ الذي عمل لحساب هذه اللجنة كمدير العلاقات في الكونغرس على مدى أربعة أعوام في بداية الثمانينات

شارحاً السبب:

«لقد عملت في الكونغرس قرابة العشرين عاماً. فالانتقادات التي توجه إلى لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية، والتحديات في بعض القرارات كفيلة بشكل أساس لتوقع موظفاً في المتاعب. لا أعتقد أن باستطاعتهم هزم عضو في الكونغرس، ليس حتى في نيويورك، ولكن بالنسبة إلى الموظفين، والمراسلين، وأشخاص مثلي يعملون في منظمات يهودية، فسيسعون إلى التسبب بطردهم أو قطع الطرق نهائياً أمام ترقيتهم. فهم يطلقون التهديدات ويؤمنون قطعاً بأنهم أكثر أهمية من أعضاء الكونغرس».

وبتاريخ ٣ كانون الأول ٢٠٠٦، أفصح السيناتور الأميركي السابق جايمس أبو رزق عن بعض آرائه:

«أؤكد لكم من منطلق خبرتي الشخصية أن الدعم الذي تحظى به إسرائيل في الكونغرس على الأقل قائم كلياً على خوف سياسي؛ أي خوف الذين لا يمتثلون لأوامر إسرائيل من الانهزام. وأستطيع أن أؤكد لكم أيضاً أن قلةً في الكونغرس، على الأقل خلال الفترة التي عملت فيها هناك، يستطيعون التأثير على إسرائيل، أو على قوة الضغط التابعة لها. وقد استمعت إلى العديد من الأحاديث في دورات المياه حيث عبر أعضاء في مجلس الشيوخ عن مشاعرهم المريرة حول كيفية قيام اللوبي بإرغامهم على التفكير عكس مبادئهم. وفي أحاديث خاصة، كان يعبّر البعض عن كرههم لإسرائيل ومعارضتهم لخطط اللوبي، ولكن أحداً منهم لم يرغب في المخاطرة بمعاداة إسرائيل من خلال الإفصاح عن مشاعره علناً».

ويكمل أبو رزق حديثه قائلاً: «إن اللوبي واضح تماماً في جهوده لقمع أي عضو في الكونغرس ينشق عن السياسة الداعمة كلياً لإسرائيل، ما قد يؤدي بالتالي إلى وقف المخصصات المالية السنوية. وحتّى الصوت الواحد تتم مهاجمته، كما حصل معي، بحيث إنه إذا تكتم الكونغرس عن المسألة، لن يبقى للصحافة من تقتبس عنه، ما يؤدي بالتالي إلى إسكات الصحافة هي أيضاً. وسرعان ما تتم السيطرة على أي صحفي أو محرر يخرج عن المسار المحدد له من خلال ممارسة ضغوطات اقتصادية منظمة ضد الصحيفة المتلبسة بالخطيئة».

الحكم بواسطة الإيمان لا الوقائع

يمنح بعض الأعضاء ممن هو راغب وممن هو رافض أصواتهم إلى إيباك واللوبي الإسرائيلي؛ لأنهم يؤمنون بأن النبوءة الواردة في التوراة تتحدث بشكل أفضل من الديبلوماسية الخارجية عما سيحصل في الشرق الأوسط. وبالنسبة إلى المسيحيين الإنجيليين المتطرفين، فهم يؤمنون بأن عليهم تسليح إسرائيل كوسيلة من أجل تعجيل يوم القيامة وسفر الرؤية ويوم الميعاد، ما جعلهم يكتسبون لقب «الجهاديين الأصوليين المسيحيين». إن هذه المجموعة التي تتضمن طوم ديلاي (جمهوري عن ولاية تكساس) والجمهوري عن ولاية إنديانا، مارك ساودر الذي قال: «أعرّف عن

نفسي بشكل أساسي بأنني مسيحي إنجيلي»، تظهر من خلال بياناتها العلنية، معبرةً عن رأيها في التسجيلات ومواقع الإنترنت، الذي يرحب بالاحتلال الوحشي والتوتر العام المتنامي نتيجة تسليح الولايات المتحدة لإسرائيل. والحجة التي تتذرع بها هي بكل بساطة أنه لو قدر أن يحصل دمار إقليمي نتيجة صراع آخر في الشرق الأوسط على سبيل المثال، لنقل في لبنان أو إيران، أو حتى تبادل نووي، يمكن عندئذ القول إن الله أراد ذلك من أجل التبشير باقتراب عودة المسيح وقدوم يوم الحساب.

وبشكل يدعو للسخرية، فإن العديد من هؤلاء الأعضاء الذين يتبعون تعليمات إيباك واللوبي الإسرائيلي لا يحبون اليهود أكثر مما يفعل الفلسطينيون، والعرب، والمسلمون، والمسيحيون المتقدمون. فهم واثقون في إيمانهم أنه عند يوم الفصل سيرتد اليهود إلى المسيحية، أو يتم تخليصهم فيذهبون إلى الجنة، أو يحترقون في نار جهنم الأبدية. فهم يتطلعون إلى النتيجة النهائية بقلة تبصر؛ إذ إن العديد من أعضاء الكونغرس المتحالفين مع إيباك يحسبون حساب الأيام القادمة. لذا، فهم يقومون بعملية تبادل يمنحون خلالها أصواتهم في مسائل تتعلق بالشرق الأوسط التي لا تؤثر بشكل كبير على دائرتهم وناخبيهم بحسب رأيهم في مقابل الحصول على دعم اللوبي الإسرائيلي في مبادرات النقل، والتعليم، والعناية الصحية التي تهم البلاد والتي تستقطب المزيد من التبرعات للحملات من قبل لجان العمل السياسية المحلية.

وبحسب أحد الأعضاء العاملين ضمن فريق طوم لانتوس العضو الديمقراطي عن ولاية كاليفورنيا، فإن أعضاءً ينتمون إلى ولايات كنيويورك، ونيوجيرسي، وفلوريدا، وبنسلفانيا، وكاليفورنيا، بحسب دائرتهم، قد يكونون اطلعوا على الحقيقية السياسية التالية وتناقلوها فيما بينهم:

«إن الناخبين اليهود يهتمون كثيراً لأمر إسرائيل. ففي دائرتي، يقوم حوالي ٧٠ منهم بالتصويت. ولا يبدو أن أحداً في دائرتي يبالي بالشرق الأوسط أو بقيام أميركا بمنح إسرائيل قنابل عنقودية، ولا أنا أيضاً. أما قوة الضغط التابعة لحقوق العرب والفلسطينيين والمسلمين وحقوق الإنسان فهي لا تتمتع بنفوذ كبير في دائرتي. وقد انتفعت حملتي الانتخابية من المنتدى الانتخابي الذي أقامه أحد الكيانات الأساسية في الكونغرس وهو المعروف بـ «مهمة الدفاع المتطور» أو برنامج تطوير القيادة السياسية، وأطلعت مكتبنا على بعض الحقائق الانتخابية الثابتة ومن ضمنها:

إن الناخبين اليهود الأميركيين يشكلون ٢٪ فحسب من الناخبين المحتملين. ولكن حوالى الـ٧٠٪ منهم يعمدون إلى التصويت. ووفقاً لمعلومات هاميلتون جوردان التي نقلها إلى رب عمله، الرئيس جيمي كارتر في العام ١٩٧٧، فمن ضمن ١٢٥ عضواً في مجلس المالية الديمقراطي الوطني، ثمة أكثر من ٨٠ يهودياً. وفي العام الذي سبقه، كان أكثر من ٦٠ في المئة من المانحين

الكبار للحزب الديمقراطي من اليهود. وخلال الحملة الرئاسية، بقيت الإحصاءات ذاتها على حالها؛ حيث إن حوالي ٧٠٪ من الأموال التي جمعها نيكسون في العام ١٩٧٢ تبرع بها مساهمون يهود. وكذلك ساهم المانحون اليهود في نحو ٧٥٪ من الأموال التي جمعت في حملة هامفري للعام ١٩٦٨. وتم جمع النسبة نفسها تقريباً في الانتخابات الرئاسية خلال الربع قرن الفائت. وفي العام ٢٠٠٤، صوت ٧٥ في المئة من اليهود الأميركيين لكيري.

ووفقاً لصحيفة واشنطن بوست، فإن المرشحين الرئاسيين الديمقراطيين «يعولون على الداعمين اليهود من أجل تزويدهم بنحو ٧٠ في المئة من الأموال».

وكشفت مجلة «مازر جونز» مؤخراً أن سبعةً من أصل عشرة مساهمين رئيسيين في انتخابات العامين ٢٠٠٠ و٢٠٠٤ كانوا من اليهود، كذلك ١٢ من أصل ٢٠ مساهم رئيسي، و١٢٥ من أصل ٢٥٠. وقد تم تأمين معظم الأموال من قبل إيباك.

وتتضمن هذه المجموعة على سبيل المثال ستيني هوير (ديمقراطي عن ولاية ماري لاند)، وكينيث لوكاس (ديمقراطي عن ولاية كنتاكي)، ودونالد مانزولو (جمهوري عن ولاية الينوي)، وكريستوفر شايز (جمهوري عن ولاية كونيكتيكات) وطوماس راينولدز (جمهوري عن ولاية نيويورك). ومؤخراً في العام ٢٠٠٦، أشار أحد الموظفين العاملين مع هاير إلى أن هذا الأخير «يساند إيباك بشدة بحيث تظنه أحد العاملين لديها».

والعضو الوحيد ذو الإرادة الحديدية في هذه المجموعة هو الجمهورية جاين هارمان (ديمقراطية عن ولاية كاليفورنيا). فهي ولانتوس ملتزمان كلياً نحو إسرائيل. فقد قام هذا الأخير بزيارة إسرائيل ٦٣ مرةً وتم تعيينه من قبل الحكومة هناك من أجل تمثيل الدولة اليهودية في البلاد التي لا علاقات ديبلوماسية معها وحيث يمكن أن يسمح له بذلك.

في الواقع، كلفت إسرائيل كل من هارمان ولانتوس بمهام شاقة بما في ذلك محاولة إطلاق سراح جوناثن بولارد المدان بتهمة التجسس لصالح إسرائيل ونقض دعوى الحكومة الأميركية المقامة ضد الموظفين العاملين في إيباك كيث ويسمان وستيف روزن. وتشير التقارير الصادرة عن الكونغرس أن هارمان قد وعد بحثّ الحكومة الفدرالية على «التساهل مع ويسمان وروزن في مقابل الدعم الإسرائيلي للجنة المخابرات» بحسب صحيفة نيويورك تايمز. ويترقب كل من ويسمان وروزن محاكمتهما بتهمة التجسس ونقل وثائق مسروقة من البنتاغون إلى عملاء الاستخبارات الإسرائيلية.

من جهة أخرى، قام اللوبي الإسرائيلي، الذي يعد أحد العملاء الإسرائيليين الأكثر تفانياً، بتعيينها في لجنة استخبارات مجلس النواب. ويتوقع أن تتولى منصب رئيسة مجلس النواب بعيد الانتخابات التي ستجري في ٧ تشرين الثاني وأن يسيطر الحزب الديمقراطي على الكونغرس. مع ذلك، حصلت بعض الصدامات بين هارمان وبيلوسي حين رفض هذا الأخير بصفته المتحدث

باسم مجلس النواب تعيين هارمان كرئيسة. وهكذا، كانت إيباك مستاءة من القتال الصاخب بين هارمان وبيلوسي؛ لأنها كانت تعول على كليهما.

مضافا إلى ذلك، وقعت هارمان في متاعب مع مكتب التحقيق الفدرالي. فقد نقلت مجلة تايم في عددها الصادر في ٢٠ تشرين الثاني ٢٠٠٦ أن مكتب التحقيق الفدرالي والنواب العامين التابعين لوزارة العدل بصدد التقصي، عما إذا قامت هارمان وإيباك بخرق القانون في مخطط إسرائيلي لإعادة تعيين هارمان بصفتها ديمقراطية رئيسية في لجنة استخبارات مجلس النواب، والذي سيسمح لها بممارسة المزيد من الاستخبارات لصالح إسرائيل.

يود المحققون الفدراليون التأكد من صحة الادعاءات التي تفيد أن عملاء إسرائيل مارسوا ضغوطاً على رئيسة مجلس النواب الديمقراطية نانسي بيلوسي التي هي الأخرى عميلة معادية للعرب تابعة لإيباك (ونقلاً عن بيلوسي قولها في الموقع الإلكتروني التابع لإيباك: فإن العلاقة الخاصة التي تربط الولايات المتحدة وإسرائيل هي وثيقة جداً بسبب ولاء إيباك لتلك الشراكة»). لطالما كانت إسرائيل قادرة على تعيين عملائها في مناصب ذات نفوذ في الكونغرس، غير أن الدعوى المتعلقة بإيباك وروزن وويسمان، قد لقنت الحكومة الفدرالية درساً أكبر مما توقعته. ومن المتوقع أن يتم الاستماع إلى هذه القضية في المحكمة الفدرالية الأميركية في بداية العام٢٠٠٧.

كما يتوقع هؤلاء الأعضاء، بعد أن أعلنوا ولاءهم لإيباك، أن يتلقوا مكاسب وافرة من اللوبي الإسرائيلي. فعلى سبيل المثال، أنفقت مؤسسة التربية الأميركية الإسرائيلية، وهي كيان تابع لإيباك لا يتوخى الربح ومعفىً من الضرائب، بين تموز ٢٠٠٥ وتموز ٢٠٠٦ مبلغاً وقدره ٥٨٣١٣١ دولاراً أميركياً على رحلات السفر. إذ تقوم برعاية ٦٢ رحلة للأعضاء وأقاربهم وموظفيهم إلى إسرائيل. ويمثل هذا العدد ثلث رحلات الكونغرس إلى العالم بأسره. ويدفع اللوبي الإسرائيلي قرابة الـ٨٠٠٠ دولار للشخص الواحد في رحلة لمدة أسبوع. ويعد بعض الموالين الذين يسافرون على متن هذه الرحلات المجانية الأكثر عداءً للعرب والمسلمين في الكونغرس، بمن فيهم العضو الجمهوري تشيلي بيركلي (ديمقراطية عن ولاية نيويورك) التي سافرت في نهاية الأسبوع من ٢٠ إلى ٣٠ آب «للقاء مسؤولين حكوميين خلال الأزمة الإسرائيلية اللبنانية». وقد طمأنت بيركلي الإسرائيليين، بحسب ما ذكرت صحيفة جيروزاليم بوست أن إسرائيل ستحصل على المزيد من القنابل العنقودية الأميركية وسيعوض الكونغرس عليها مبلغ الـ٨ مليارات دولار التي أجبرها الإرهابيون على إنفاقها في لبنان».

من جهة أخرى، قام الديمقراطيان عن ولاية نيويورك، جيري نادلر وأنطوني واينر، اللذان يكنان العداء الواضح للعرب برحلة مّولها مجلس علاقات المجتمع اليهودي (٦٤٨٠ دولاراً أميركياً لكل منهما)، في «مهمة لتقصي الحقائق بخصوص دفاع إسرائيل عن نفسها في وجه حزب الله».

ولكن لم تتضح الحقائق التي توصلوا إليها. وسيقوم كل من وايتر ونادلر بتزويد إسرائيل بالمزيد من الأموال والأسلحة عندما يتعين على الكونغرس اتخاذ الإجراءات بهذا الخصوص، كما سيدعمان أي هجوم أميركي على إيران وسوريا إذا ما سنحت الفرصة.

ويعجل هؤلاء الأعضاء الذين ينتمون إلى مجموعة الموالين لإيباك في اعتماد الاتهام غير المقبول بـ «معاداة السامية» من أجل إسكات فيض الانتقادات ضد سوء استخدام إسرائيل للاسلحة الأميركية، أو أولئك الذين يجرأون على ذكر أنشطة اللوبي الإسرائيلي أو إيباك غير الأخلاقية في الكونغرس، أو في كافة أنحاء أميركا. فقد اتهم كلاهما الرئيس الأسبق كارتر بالمعاداة للسامية بسبب كتابه «فلسطين: السلام لا التمييز»، وذلك على الرغم من أن كارتر كان راعي اتفاق كامب دايفد الذي منح إسرائيل حوالي ٣٠ سنة من السلام مع مصر.

في الواقع، يدين جميع الأميركيين للرئيس السابق جيمي كارتر قيامه بالإفصاح عن حقائق ضرورية طمرت لوقت طويل. فقد خرق كتابه الرائع حاجز الصمت وتخطى المحظور الذي يمنع انتقاد سياسة إسرائيل التمييزية تجاه الفلسطينيين في الولايات المتحدة. إن قبول أعضاء الكونغرس الواضح لسياسات الصهاينة العنيفة تسبب عداءً شاملاً ضدنا، إذ هاجم أصدقاء إسرائيل كارتر، الذي عمل بلا كلل من أجل السلام في الشرق الأوسط، متهمين إياه أيضاً بمعاداة السامية.

في الواقع، من السيئ حمل العداء للسامية، غير أن استغلال هذا المصطلح من أجل كبح الانتقادات الشرعية لنظام آخر يعتمد القمع العنصري، ومن أجل إخفاء بريق رجل ذي مبادئ هو أمر غير مقبول. فلم يعد يعتبر انتقاد سياسات الحكومة الإسرائيلية الذي يستخدم كمادة دسمة في الصحف الإسرائيلية، معادياً للسامية بقدر ما يعتبر انتقاد بوش معادياً للأميركيين.

فكلمة ابرتهايد (التمييز العنصري) ترمز بشكل كامل إلى النظام السابق في جنوب أفريقيا، ولكنها تمثل أيضاً كل نظام حكم قائم على القمع المنهجي والسيطرة من قبل مجموعة عرقية واحدة على أخرى. أما مصطلح كارتر فلا ينطبق سوى على سيطرة إسرائيل على الأراضي الفلسطينية المحتلة حيث أنشات أكثر من ٢٠٠ مستعمرة يهودية فحسب، وشبكة من الطرقات والخدمات الأخرى من أجل دعمهم. وإن هذه المستعمرات مخالفة للقانون الدولي وحقوق المالكين الفلسطينيين. ويعتبر كارتر أن «الجشع تجاه الأرض»، لا العنصرية، يغذي عملية إنشاء المستعمرات الإسرائيلية. فهو محق من ناحية واحدة فقط؛ إذ إن إسرائيل تستولي على أراضي الفلسطينيين ومياههم لصالح اليهود. وقد تم تحويل الموارد، بقوة سلاح الاحتلال، من مجموعة مستضعفة أي المسيحيين والمسلمين الفلسطينيين، إلى مجموعة أخرى أكثر تفضيلاً أي اليهود. تلك هي بكل بساطة العنصرية بحد ذاتها.

علاوةً على ذلك، ثمة أدلة وافرة تثبت أن إسرائيل تعتمد التمييز ضد الفلسطينيين في

الأماكن الأخرى. فـ «العرب الإسرائيليون» الذين يبلغ عددهم حوالي ١,٤ مليون مواطن مسيحي ومسلم فلسطيني يعيشون في إسرائيل، يصوتون خلال الانتخابات. بيد أنهم أقلية تابعة ومهمشة. فكأن نجمة داوود الموجودة على العلم الإسرائيلي تقول للفلسطينيين: «أنتم لا تنتمون إلى هذه الأرض». ويمنح قانون العودة في إسرائيل حقوق المواطنية الفورية إلى اليهود في أي مكان في العالم، في حين أن هذه الحقوق محظرة على ٧٥٠٠٠٠ لاجئ فلسطيني أُجبروا أو هربوا من منازلهم في العام ١٩٤٨، خوفاً على أرواحهم. كما أن قانون إسرائيل الأساسي المتعلق بكرامة الإنسان وحريته قد أقام الدولة على أساس أنها «دولة يهودية ديمقراطية» وذلك على الرغم من أن ٢٤ في المئة من السكان ليسوا يهوداً.

ويتضمن المركز القانوني لحماية حقوق الأقلية العربية في إسرائيل،«عدالة»، ٢٠ قانوناً يمنح علنياً الأفضلية لليهود على غير اليهود. وبحسب ما أشار إليه البروفيسور جورج بشارات في كلية الحقوق في جامعة كاليفورنيا، فإن الحكومة الصهيونية تفضل اليهود على الفلسطينيين عند تخصيص الموارد. فالأطفال الفلسطينيون في إسرائيل يتلقون تعليمهم في مدارس «منفصلة وغير متساوية» لا تحصل سوى على جزء من الأموال التي تمنح إلى المدارس اليهودية، وذلك بحسب منظمة مراقبة حقوق الإنسان. حتى أن العديد من القرى الفلسطينية، وبعضها الذي سبق قيام الدولة الصهيونية، ليس معترفاً بها من قبل الحكومة، ولا تظهر على الخرائط، وبالتالي لا تتلقى مياهاً جارية أو كهرباء ولا يوجد فيها طرقات.

ومنذ العام ١٩٤٨، تم بناء مجمعات سكنية جديدة بأرقام قياسية لليهود، من دون أن يحق للفلسطينيين بأي منها، ما سبب لهم اكتظاظاً سكانياً حاداً. ونادراً ما يتم إدانة التعصب ضد العرب في الخطابات الرسمية الإسرائيلية؛ حيث ينظر إلى الفلسطينيين دوماً «كخطر ديموغرافي». وفي بحث قام به الأكاديمي الإسرائيلي دانيال بارتال في ١٢٤ نصاً معتمدة في منهاج المدارس الإسرائيلية، تبين أن النصوص جميعها تصور العرب على أنهم متخلفون، وعنيفون وغير أخلاقيين. وقد كشف أحد الإحصاءات التي أجريت في العام ٢٠٠٦ أن ثلثي اليهود الإسرائيليين يرفضون العيش مع عربي في المبنى ذاته، وأن نصفهم تقريباً لا يسمحون للفلسطيني بالدخول إلى منزلهم، و٤٠٪ منهم يودون أن تشجع الحكومة المواطنين الفلسطينيين على الهجرة. وفي آذار الماضي، منح الناخبون الإسرائيليون ١١ مقعداً نيابياً لصالح حزب «إسرائيل بيتنا» الذي يؤيد ترسيم الحدود الإسرائيلية، من أجل طرد ٥٠٠٠٠٠ مواطن فلسطيني متواجد في هذه الأراضي حالياً.

يقول «البعض» إن المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل يتمتعون بوضع معيشي أفضل من أولئك الذين يعيشون في البلدان العربية المحيطة. وعلى نحو مثير للسخرية، قام الأفارقة الجنوبيون البيض بادعاءات مشابهة من أجل الدفاع عن نظام الأبارتهايد الخاص بهم، كما هو

واضح في كتب مثل «كانتري أوف ماي سكال» للكاتب أنتجي كروغ. فأصبح الأميركيون مدركين لثمن دعمنا غير المشروط لإسرائيل. نحن بحاجة ماسة إلى الخوض في نقاش صريح من أجل وضع سياسات تشرف قيمنا، وتعزز مصالحنا، وترسي سلاماً عادلاً ودائماً في الشرق الأوسط.

يقال إن الامر يتطلب رئيساً سابقاً محصناً ضد الضغوطات التي تمارس خلال الانتخابات من أجل إرشادهم إلى السياسة الصحيحة.

من الضروري في الوقت الراهن إطالة أمد النقاش. هل تتطابق المثل الصهيونية فعلياً مع الديمقراطية؟ هل يمكن لدولة أقيمت في محيط متعدد الأعراق أن تكون «يهودية» و«ديمقراطية» في آن معاً؟ أليس من المجحف بحق السكان الفلسطينيين الأصليين الإبقاء على سيطرة اليهود في إسرائيل؟ ألا تساهم مساعدتنا غير المشروطة في تمكين إسرائيل من مواصلة انتهاك حقوق الفلسطينيين من دون أي عقاب، وتعزيز العدائية الإقليمية وإقصاء السلام؟ ألم يحن الوقت لتعيش إسرائيل تبعاً لقوانين الديمقراطية والتي تتضمن حقوقاً متساوية بين الجميع؟ إن الرئيس كارتر شجاع وعادل وهو يضمن أن تلقى هذه الوقائع تجاوباً عادلاً كما يراها هو.

ونذكر من المجموعة عضواً آخراً وهو إيليوت أنغل (ديمقراطي عن ولاية نيويورك) الذي اتهم كاتبي مقالة حديثة حول اللوبي الإسرائيلي، جون ميرشايمر وستيف والت، بكونهما معاديين للسامية، ووصف مقالتهما بـ«الترهات القديمة ذاتها المعادية للصهيونية والسامية». يعرف ألن ديرشوفيتز، مستشار بعض أعضاء الكونغرس وكذلك إيباك بكتاباته المؤيدة لإسرائيل. وقد توقف عن استخدام مصطلح «معاداة السامية» عند إطلاقه الاتهامات عكس ما كان يفعل غالباً، وذلك بحسب انتقاداته، لأنه يدرك أن هذا المصطلح أصبح قديماً وفقد بعضاً من قوته. لذا بدأ ديرشوفيتز باللجوء إلى افتراءات كاتهام ميرشايمر ووالت على سبيل المثال بالحصول على الدعم المادي من مجموعات من النازيين الجدد. إن التهمة عبثية ولكن ديرشوفيتز المختل مستعد لمهاجمة من يجرؤ على توجيه انتقادات لإسرائيل عبر الكلام من خلال إطلاق الاتهامات هستيرياً. ومؤخراً، قام ديرشوفيتز بهجوم شخصي وبغيض ضد نعوم شومسكي، ونورمان فينكلشتاين، والرئيس السابق كارتر وغيرهم.

لكل من ديرشوفيتز والحكومة الإسرائيلية تاريخ طويل في محاولة لربط الانتقادات الموجهة إلى إسرائيل بشخص هتلر. ففي العام ١٩٨٢، كتب رئيس الوزراء بيجن إلى الرئيس ريغن بأنه شعر وهو يجتاح لبنان ويقصف بيروت كما لو أنه يهاجم برلين للإطاحة بهتلر (مشبهاً عرفات بهتلر). وقد استخدم شارون التشبيه نفسه مجدداً في العام ١٩٨٩ في واشنطن خلال اجتماع في وزارة الخارجية حيث قال إن «عرفات عدو مثله مثل هيتلر. وخلال البضع سنوات الأخيرة ولا سيما خلال حرب تموز، شددت الحكومة الإسرائيلية على اعتبار حسن نصر الله كهتلر. وحالياً، ينظر اللوبي إلى الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد وكأنه هتلر. وعندما سئل أحد الموظفين

في إيباك عن هذا الامر أفاد أنه تشبيه يسهل على الشعب فهمه من مصطلح «معاداة السامية»، بما أن بعض الناخبين الأميركيين قد يدركون أن ٩٠٪ من الساميين هم في الواقع من العرب».

وتقوم إيباك بإعلام الأعضاء في الكونغرس بضرورة الشرح لناخبيهم بأن الإسرائيليين يشبهون إلى حد كبير الأميركيين. وقال أحد الموظفين في إيباك شارحاً: «أبلغ الإعلام وناخبيك أن الإسرائيليين يشبهوننا». هذا وقال أحد الموظفين الذي يعمل لدى النائب فيرجيل غود (جمهوري عن ولاية فيرجينيا) في ٢٢ كانون الثاني ٢٠٠٦: «يعد رئيسي واحداً من بعض الأعضاء الذين لا يحبون الأجانب وهم يمنحون أصواتهم إلى إيباك لأن الإسرائيليين يشبهوننا أكثر من غيرهم». وقد أخبر غود، الذي ينتقد بعنف العرب والمسلمين ويحمل العداء لهم ناخبيه في رسالة حررها في ٩ كانون الثاني ٢٠٠٦: «أخشى أن يزداد عدد المسلمين في الولايات المتحدة خلال القرن المقبل، إن لم نتبن سياسات صارمة بخصوص الهجرة التي أراها ضرورية من أجل الحفاظ على القيم والمعتقدات المتعارف عليها في الولايات المتحدة الأميركية ولمنع استنفاذ مواردنا». وغالباً ما يدعي غود أن «المسلمين، على غرار السود، يعيشون في رفاهية من دون أن يعملوا». والواقع أن المسلمين في أميركا والعالم بأجمعه هم أقل من يطالب بالرفاهية أو يحصل عليها. فثقفاتهم وتاريخم يشهدان على عملهم بكد من أجل الاهتمام بعائلاتهم.

ومن الأمثلة الأخرى ، نذكر العضو عن ولاية كولورادو «طوم تانكريدو» الذي يعتقد بأنه يتعين على الولايات المتحدة بناء جدار على طول حدودها، وترحيل أعداد ضخمة من العمال المهاجرين، بل وشن حرب أميركية أخرى تقوم هذه المرة على «صدام الحضارات»،بين المسيحيين وغير المسيحيين، المسلمين على وجه الخصوص.

وفي كانون الثاني ٢٠٠٦، أشار تانكريدو في رفضه لالتزام معين في ميامي إلى أنها «تنتمي إلى العالم الثالث». فهو يؤيد إقامة جدار عنصري في إسرائيل الذي يطلق عليه الرئيس السابق كارتر والعديد من المراقبين اسم حاجز «الأمن» الإسرائيلي، حيث يمتد حوالي ٨٨٪ منه داخل الخط الأخضر الذي حدد في العام ١٩٦٧ في عمق الأراضي الفلسطينية. ويقول أحد موظفيه أن تانكريدو كان يتطلع إلى بناء جدار أكثر ارتفاعاً من الجدار الإسرائيلي؛ أي يتجاوز علوه الـ٢٥ قدماً من أجل ضمان عدم تسلل الأجانب إلى الولايات المتحدة. فالأعضاء أمثال تانكريدو تنتابهم الهواجس في مسألة التعددية الثقافية، والإسلام، والمكسيكيين، وغير المسيحيين عموماً، كما لا يحبذون اليهود. ولكن بما أن إسرائيل تعمد إلى قمع العرب وتميل إلى «التشبه بنا»، بحسب ما أورد أمام ناخبيه»، لذا يصوت تانكريدو لصالح إيباك بخصوص تزويد إسرائيل بالسلاح. فضلاً عن ذلك، يؤيد تانكريدو اجتياح العراق وغالباً ما كان يصرح عن دعمه لإيباك في دفعها لتغيير «نظام الحكم» من خلال غزو إيران أو قصفها.

وثمة أعضاء في الكونغرس ممن يتبنون العقيدة الصهيونية. وهؤلاء الأعضاء هم صهاينة

مخلصون وملتزمون بإقامة إسرائيل الكبرى التي تمتد عبر الشرق الأوسط وبناءً على رغبتهم بأن يعيش اليهود في فلسطين. ويرى بعض المراقبين في الكونغرس بمن في ذلك مجلس المصلحة الوطنية أن الصهاينة المسيحيين يتمتعون بنفوذ أكبر من الصهاينة اليهود. فالصهاينة المسيحيون أمثال جون هاغي أمطروا البيت الأبيض بأكثر من ١٠٠٠٠٠ بريد إلكتروني مدافعين بذلك عن الهجوم الشرس الذي شنته إسرائيل في العام ٢٠٠٠ من أجل إعادة اجتياح الضفة الغربية. وقد أجبر بوش شارون على الانسحاب ولكن هذا الأخير تجاهله. وإن إسرائيل تعزو إلى المنظمات المسيحية الأصولية كالتحالف المسيحي مهمة إجبار بوش على التراجع. وقد ورد على لسان جيرشون سولومون في حديث له لصحيفة لوس أنجلوس تايمز في العام ٢٠٠٦: «أنا ممتن لجميع الملائكة المسيحيين الرائعين الذين يودون مساعدتنا». جيرشون هو المتحدث باسم مؤسسة معبد القدس وهي عبارة عن مجموعة تخطط لهدم مسجد قبة الصخرة الذي يعد عتبة المسلمين المقدسة من أجل بناء معبد يهودي تدعي أنه دمر من قبل الرومان في العام ٧٠ بعد الميلاد. وأضاف قائلاً: «يعد المسيحيون اليوم أفضل قوة ضغط تعمل لصالح إسرائيل في الولايات المتحدة. وعندما يشيد المعبد الثاني سيزول الإسلام عن وجه الأرض».

بم يؤمن الصهاينة المسيحيون في الكونغرس أمثال ديلاي وساودر؟

- تفسير حرفي لكتب التوراة.
- الإيمان بأن اليهود هم شعب الله المختار.
- الإيمان بأن المسيحيين لن يدخلوا الجنة إلا عندما يسيطر اليهود على الأرض المقدسة.
- تأكيد أن الله قد أعطى الحق لليهود وعززهم (بالأسلحة الأميركية) من أجل امتلاك أرض الشرق الأوسط؛
- القدس هي عاصمتهم الخاصة.
- إعادة بناء معبد اليهود قبل ظهور المسيح مهما كلف الأمر.
- العرب والمسلمون هم أعداء الله وأعداء شعبه المختار.

سوف يفنى العالم قريباً جداً في المعركة الفاصلة، إلا أن المسيحيين الذين يساندون اليهود سوف يفرون. أما المسيحيون المتشددون الآخرون فهم يعتقدون بأن اليهود سوف يهتدون إلى الدين المسيحي عندما ينفخ في الصور وسوف يكون مصيرهم الجنة إلى جانب يسوع وليس الهلاك في نار جهنم.

ويتأثر عدد كبير من الصهاينة المسيحيين بالمدرب السابق لكرة القدم في جامعة كولورادو والمشارك في تأسيس حركة المحافظين على «وعد السلم» الإنجيلي «بيل ماكارتني»، إذ يدعمون برنامج الطريق للقدس الذي يشجع اليهود على الاهتداء إلى المسيحية. ويفيد ماكارتني من دنفر، كولورادو مؤخراً، «إن هدفنا الوحيد هو استعجال الأيام الاخيرة. وإذا كان إعطاء السلاح

لإسرائيل عاملاً مساعداً، فهذا رائع! فلا يهمني ما إذا كانوا يستطيعون القضاء على العرب باستخدام السلاح النووي. وتقول التوراة إن اليهود سوف يشعرون بالغيرة حين يجدون المؤمنين اليهود والمسيحيين متحدين مع بعضهم البعض- فاليهود يريدون أن يكونوا جزءاً من هذا. مما يدل على أن المسيح سوف يقوم من جديد.... أما اليهود والآخرون الذين لا يؤمنون بالمسيح فسوف يهلكون».

سياسياً، تستجمع الصهيونية المسيحية قوتها في الولايات المتحدة وتعمل على تشكيل التحالفات التي تعطي طابعاً متطرفاً أكثر فأكثر للسياسة الأميركية تجاه الشرق الأوسط. وقد أظهرت الاستفتاءات التي أجراها مؤخراً مجلس المصلحة الوطنية الذي يقع مقره في واشنطن- دي سي، بان ٣١ في المئة من الأميركيين الذين تمّ استفتاؤهم بعشوائية يؤمنون بشدة أو بطريقة ما، بالأفكار الناتجة عن الصهيونية المسيحية.

وتظهر استفتاءات أخرى أجراها مؤخراً تلفزيون سي إن إن ومجلة التايم، آراء مشابهة؛ فعلى سبيل المثال، يعتقد ٥٣ في المئة من الأميركيين بأن الله قد وهب اليهود أرض إسرائيل، ويعتقد ٥٩ في المئة من الجمهور الأميركي بأن النبوءات الموجودة في سفر الرؤيا سوف تتحقق. ويرى «المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل»، وهي جماعة تدعمها إيباك، بأن الأميركيين يعتقدون بشدة بأن الله قد وضع أهدافاً سياسية خارجية. وقد أشار مجلس المصلحة الوطنية إلى أن ما يدعو للسخرية في التحالف القائم بين الصهيونية المسيحية والصهيونية اليهودية هو أن إحدى هذه المعتقدات تشجع على تدمير الأخرى بالكامل... إن المسيحيين المتحدين من أجل إسرائيل هم جماعة وُجدت من أجل إسرائيل لا الإسرائيليين، وإذا أراد أحدهم التعمق ولو قليلاً في المسيحية الصهيونية فسيكتشف كم هي معادية للسامية.

ويتملق اللوبي الصهيوني مع هذه الجماعات البسيطة نوعاً ما، لتشجيع استمرار احتلال فلسطين، ولتجريد السكان المسيحيين والمسلمين الأصليين للأرض المقدسة من إنسانيتهم، وللادعاء بأن اليهود لديهم حقوق سامية، وكذلك فإن الذين يأتون من أوروبا ليس لديهم الحق في المطالبة بفلسطين.

ما زال يطلق على بعض أعضاء الكونغرس لقب «الصهيونيين المتطرفين»؛ إذ إنهم يعملون على إضفاء عامل العنصرية، كما إن هؤلاء الأعضاء كأنتوني وينر، واليوت كوهين، وغاري أكرمان، وجيرولد نادلر، واليوت أنجل، واريك كانتور، وروبرت واكسلر، وجاين هارمن، ونانسي بيلوسي، وطوم لانتوس (كاليفورنيا)، وايلينا روس ليتينان، وغيرهم ينظرون نظرة سلبية جداً إلى العرب والمسلمين، وغالباً ما تنم هذه النظرة عن الكره تجاههم. وقد بدت رئيسة مجلس النواب المعينة مؤخراً، نانسي بيلوسي (ديمقراطية عن ولاية كاليفورنيا)، كأنها محرضة بوضوح من خلال رضوخها لإيباك بمجرد عنصريتها تجاه العرب. وقد صوتت بيلوسي والأعضاء الآنفي

الذكر في ديسمبر٢٠٠٦ لأحد أكثر القوانين الجزائية الجماعية المنحازة والمتطرفة التي سنها الكونغرس الأميركي على الإطلاق. فالقرار ٤٦٨١ يتضمن بنوداً كاملة من العقوبات الاقتصادية والدبلوماسية ضد الفلسطينيين لانتخابهم أكثرية تنتمي إلى حماس في المجلس التشريعي الفلسطيني. وقد وضع الأعضاء الآنفي الذكر القانون بالطريقة التي ترغب بها إيباك والتي تصب في معاقبة الفلسطينيين كافة. وبعد إصدار القانون في ٨ ديسمبر، ٢٠٠٦، كرر أنتوني وينر (ديمقراطي عن ولاية نيويورك) طلبه الذي يقضي بأن تلغي الولايات المتحدة بعثة منظمة التحرير الفلسطينية إلى الأمم المتحدة، ومن ثم انتقد الكتاب الجديد للرئيس الأسبق جيمي كارتر المذكور أنفاً.

في ٢٢ كانون الثاني ٢٠٠٦، اي قبل يوم واحد من إبطال مشروع القانون العنصري هذا، قام جورج بوش بالمصادقة عليه تحت الرقم ٤٦٨١. وهكذا أصبح أكثر القوانين معاداة للمسلمين والعرب وتحول في ما بعد إلى قانون الولايات المتحدة التاريخي الذي سيعزل أميركا عن بقية العالم وعن المبادىء التي قامت عليها. والسؤال المطروح اليوم: من هم الأميركيون الوطنيون الفعليون ومن هم الإرهابيون؟

وغالبا ما يعتبر هؤلاء الأعضاء أن الفلسطينيين والعرب والمسلمين يشكلون خطراً ديموغرافياً بالنسبة لإسرائيل وإلى رخائها؛ إذا ما حصلوا على حق التصويت.

فهؤلاء الأعضاء يصوتون لصالح تقديم ما تطلبه إسرائيل من أسلحة بما فيه المزيد من القنابل العنقودية. وغالباً ما يسعون لزيادة كمية السلاح التي يود البيت الأبيض إرسالها. ويطمح هؤلاء الأعضاء إلى الحصول على أرض لإسرائيل من دون أن يعانوا من مسألة الزيادة الديموغرافية، أي زيادة أعداد أخرى من الفلسطينيين أو غير اليهود في أرض إسرائيل. فهم يبحثون عن أراض أخرى لإسرائيل خالية من السكان العرب المسلمين والمسيحيين من خلال مواصلة ادعائهم العنصري والكاذب الذي كانوا يتداولونه قديماً عن الرأيين المتناقضين حول «أرض بلا شعب». فالأول أسطورة العلاقات العامة التي استخدمت خلال السنوات التي تأسست فيها إسرائيل والتي تحكي عن أن إسرائيل كانت أرضاً بلا شعب إلا أنه في الواقع كان يعيش فيها مئات الآلاف من الفلسطينيين باعتبارها أرض أسلافهم، في حين أن الإسرائيليين الجدد جاؤوا إلى فلسطين من مناطق غالباً ما كانت بعيدة جداً كأوروبا الشرقية والغربية على سبيل المثال.

هؤلاء الأعضاء كانوا يطمحون خلال الفترة التي أدت إلى إقامة دولة إسرائيل في أرض فلسطين إلى شراء كل ممتلكات الفلسطينيين بواسطة الضرائب التي يدفعها الأميركيون من أجل إعطاء الأرض إلى اليهود. ولكن عندما أدركوا أنه من غير الممكن شراء ممتلكات الفلسطينيين فضلوا طردهم من أرضهم التاريخية عبر اللجوء إلى الأسلحة الأميركية إذا تطلب الأمر ذلك. فهم يفضلون فيما بينهم ترحيل الفلسطينيين بأعداد كبيرة؛ ولكن بما أن هذا الحل ما زال غير

مرغوب فيه البتة فهم يعملون مع إيباك والحكومة الإسرائيلية للضغط على الفلسطينيين بأي طريقة كانت لجعلهم يستسلمون ويرحلون.

إيبــاك:

المصدر الرئيسي للتشريعات المعادية للفلسطينيين والعرب والمسلميــن

خلال العقدين الأخيرين، قامت إيباك فعلياً بتنظيم كافة مبادرات الكونغرس المؤيدة لإسرائيل والمعادية للفلسطينيين والعرب والمسلمين، واضعة مسودتها الأولية بعد أن حاولت كسب التأييد من جميع الأعضاء. ومن بين هذه المبادرات نذكر التالي:

- القرار ١١٤٣ الذي رعاه النائب «وينر» عن ولاية نيويورك ويقضي بالتوقف عن مد الفلسطينيين بكافة المساعدات الأميركية.

- القرار ٦٠٤ الذي رعاه «وينر» أيضاً ويهدف إلى عدم إعطاء جوازات السفر لمواطني المملكة العربية السعودية.

- القرار ٥٧٥ الذي رعاه النائب كانتور عن ولاية فيرجينيا ويقضي بعدم تمثيل حماس في الهيئة التشريعية الفلسطينية.

- القرار ٤٣٨ الذي يدعو الأمم المتحدة إلى الكف عن انتقادها الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين.

- القرار ١٤٤ الصادر عن الكونغرس والذي يدين الهجمات التي يقوم بها الفلسطينيون ضد المواطنين الأميركيين، إلا أنه يعتّم على قتل الإسرائيليين للأميركيين بمن فيهم رفاييل كوري، وعلى قتل قوات الدفاع الإسرائيلية للصحفيين الغربيين والمتطوعين الذين يقدمون العون للفلسطينيين.

- القرار ٥٤ الذي رعاه روس لتينان يعتبر نقد الأمم المتحدة لإسرائيل معاداة السامية.

- القرار ٣٩٢ الذي قدمه طوم ديلاي (ولاية تكساس) تحت عنوان التضامن مع إسرائيل من دون أن يشير إلى الاحتلال الوحشي للأرض الفلسطينية والى الأزمة الإنسانية التي تنتج عنه.

- المضايقات المتكررة التي يمارسها طوم لانتوس (كاليفورنيا) على الأمم المتحدة واتهامه منظمة الأونروا بدعمها الإرهاب.

- طلب إليوت أنجل (ولاية نيويورك) من الولايات المتحدة إعادة النظر في علاقاتها مع المملكة العربية السعودية بسبب «الأعمال التي تقوم بها ضد مصالحنا».

- الإدانات الدائمة والمتحيزة التي تعلنها إيلينا روس ليتينان ضد الإرهاب الفلسطيني في الوقت الذي تصفح فيه عن الانتهاكات الإسرائيلية الوحشية لحقوق الإنسان.

- القرار ١٦٧ الذي يدعو الولايات المتحدة إلى الاعتراف بالقدس كعاصمة لإسرائيل وبالتالي الحكم مسبقاً على أنها قضية أساسية لصالح إسرائيل يجب أن يتم التشاور بخصوصها بين

الفلسطينيين والإسرائيليين.

- القرار ٥٦ الذي يدين الشعب الفلسطيني بسبب الانتخابات الرئاسية التي جرت في ٩ كانون الثاني ٢٠٠٥ في الوقت الذي يمتنع فيه عن ذكر الاحتلال الإسرائيلي.

- القرار ٢٠٣٦ الذي رعاه وينر (عن ولاية نيويورك) والذي حاول من خلاله حث الولايات المتحدة على عدم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية.

- القرار ٢٧٣٠ الذي يدعو وكالتي غاليليه ونيجيف إلى تطوير الطاقة الإسرائيلية الأميركية لإعادة توطين ما يزيد عن ستين ألف من أصل ٣٥٠,٠٠٠ مستعمر غير شرعي في الضفة الغربية، الأمر الذي سوف يكلف الولايات المتحدة الملايين لا بل المليارات.

- القرار ١٤٩ الصادر عن الكونغرس والذي يعترف بالذكرى السنوية لتأسيس دولة إسرائيل، إلا أنه ينكر ما نتج عنها من تدمير للمجتمع الفلسطيني.

- القرار ٢٧٩ الذي يدين الجمعية البريطانية للأساتذة الجامعيين لمقاطعتها الجامعات الإسرائيلية التي يقع حرمها في مستوطنات غير شرعية والتي تحجز حرية أساتذتها بمنعهم من التكلم عن الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان.

- القرار ٤٦٨١ الذي صدر عن مجلس النواب في ٢٣ ايار ٢٠٠٦ والذي يجرد الشعب الفلسطيني من كل شيء باستثناء الأوكسيجين الذي يتنفسه. هذا القانون العنصري يحد من المساعدات الإنسانية ويمنع ممارسة الدبلوماسية الفلسطينية الرسمية في الولايات المتحدة، وينتقد الأمم المتحدة لمساندتها الفلسطينيين في حقوقهم الإنسانية، ويحرم الفلسطينيين من إمكانية حصولهم على المساعدة من قبل المؤسسات المالية الدولية.

عندما بدأت إسرائيل بإسقاط كم هائل من القنابل على لبنان في ١٢ تموز ٢٠٠٦، سارع أكثرية أعضاء الكونغرس إلى دعم الأعمال التي تقوم بها إسرائيل. وعلى الفور تم طرح تسعة قرارات في مجلس النواب ومجلس الشيوخ، ثلاثة منها تمت المصادقة عليها. القراران الأولان تمّ تقديمهما في ٨ تموز؛ أي قبل أقل من أسبوع على بدء إسرائيل بقصفها المدنيين في لبنان. وقد قدم النائب جون بونر (الجمهوري عن ولاية أوهايو) بالاشتراك مع شخصين القرار ٩٢١ في مجلس النواب. كما قدم عضو مجلس الشيوخ بيل فريست (الجمهوري عن ولاية تينيسي) القرار رقم ٥٣٤ في مجلس الشيوخ بالاشتراك مع ٦١ آخرين. وقد دعم الاثنان «حق إسرائيل بالدفاع عن نفسها» وأدانا حزب الله وسوريا وإيران وحماس بشدة. لم تنتقد أي من هذه القرارات إسرائيل بالرغم من أن القرار ٥٣٤، المتحيز نوعاً ما، قد حثّ جميع الأطراف على حماية أرواح المدنيين البريئين والبنية التحتية. ويسلم القرار ٩٢١، باتخاذه صورة الصلاح، بالتزام إسرائيل بالسعي إلى تجنب المدنيين كما ويرحب بالجهود الإسرائيلية الاستثنائية التي تقوم بها لتفادي «إصابة المدنيين».

أما القرار الثالث، فقد قُدم وأُقرّ في ٣ آب مبيناً حالة من التكافؤ. وقد قدمه عضو في مجلس الشيوخ كريستوفر دود (ديمقراطي عن ولاية كونيكتيكات) بالاشتراك مع الأعضاء لنكولن شافي (جمهوري عن ولاية رود ايلاند) وراس فتغولد (ديمقراطي عن ولاية ويسكنسن) وديان فينشتاين (ديمقراطي عن ولاية كاليفورنيا) وكارل لفين وديبي ستابنو (ديمقراطي عن ولاية ميسوري) وجون سنونو (جمهوري عن ولاية نيو هامشاير). ويدعو هذا القرار الولايات المتحدة والمجتمع الدولي إلى اتخاذ كافة الإجراءات لوقف القتال، وضمان رجوع الجنديين الإسرائيليين الأسيرين سالمين، واستبدال قوات حزب الله بالجيش اللبناني، وإقامة قوة عسكرية دولية في جنوب لبنان. وفي الوقت الذي يتبع فيه أيضاً تعليمات إيباك للتاكيد على أن إسرائيل تملك الحق بالدفاع عن نفسها، فهو يدعو الولايات المتحدة أيضاً إلى العمل دائماً من أجل السلام في الشرق الأوسط. بالإضافة إلى ذلك فهو ينص على ضرورة أن تكف كل من سوريا وايران عن إمداد حزب الله بالسلاح ودعمه وأن تسعيا إلى استخدام نفوذهما من أجل نزع سلاحه.

ويبعث اللوبي الإسرائيلي التابع للكونغرس بانتظام رسائل إلى الرئيس بوش ليكفل المصالح الإسرائيلية. وقد بعث كل من الممثلين إيلينا روس ليتينان (جمهوري عن ولاية فلوريدا)، وإليوت أنجل (ديمقراطي عن ولاية نيويورك) بالإضافة إلى ١١٣ نائباً آخرا بكتاب إلى جورج بوش يحثونه على فرض أقصى العقوبات ضد سوريا، وهو ما تمت المطالبة به في سنة ٢٠٠٣ بموجب قانون محاسبة سوريا. بالإضافة إلى ذلك، بعث النائبان ألتون غاليغلي (جمهوري عن ولاية كاليفورنيا)، وروبرت واكسلر (ديمقراطي عن ولاية فلوريدا) و٢٠٧ نواب آخرون بكتاب إلى خافيير سولانا، المسؤول عن السياسة الخارجية في الاتحاد الأوروبي، يصنفون فيها حزب الله على أنه منظمة إرهابية. وفي مجلس الشيوخ، أرسل العضوان بيل نيلسون (ديمقراطي عن ولاية فلوريدا) وغوردن سميث (جمهوري عن ولاية أوريغون) بالمشاركة مع ٦٨ عضواً آخرين بكتاب مشابه إلى سولانا.

وفي نيسان ٢٠٠٦ تم الكشف عن إحدى الخطط التي تستخدمها إيباك من قبل أحد الموظفين في مكتب العضو في الكونغرس بيتي ماكولوم (ديمقراطية عن ولاية فينوسوتا). وقد أعلم مدير الموظفين في مكتب ماكولوم من قبل ممثل عن إيباك إنه كان عليها أن تمتثل للأوامر لا أن تدعم الإرهاب، الأمر الذي سيكلفها غالياً. في الواقع، طلبت إيباك منها التصويت لصالح قمع السلطة الفلسطينية من خلال تأييد القرار ٤٦٨١ في أول ذلك الشهر والذي نص على وقف المساعدات للسلطة الفلسطينية بسبب فوز حماس في الانتخابات. وقد يكون أحد أكثر الإجراءات تطرفاً ضد الفلسطينيين والعرب والمسلمين التي اتخذت في مجلس النواب والتي لقيت معارضة البيت الأبيض.

ونظراً لسمعتها النزيهة، ولتناقض آرائها بشكل حاد مع زملائها من ضعاف الشخصية، منعت ماكولوم إيباك من التدخل في شؤون مكتبها إلى حين اعتذرت عن خططها المستأثرة والتي

تحمل نوايا سيئة.

لا شك في أن ناخبيها يشعرون بالفخر حيال استقلاليتها الشجاعة على الرغم من العواقب الوخيمة المحتملة، وهو ما يجب أن يكون عليه جميع الأميركيين. فماكولوم تعتبر عنوان الشجاعة الأميركية. ومن الجهود الأخرى التي سعت إليها إيباك مؤخراً كان في الولايات المتحدة من خلال دفع العضو في الكونغرس كراولي (ديمقراطي عن ولاية نيويورك) إلى تقديم قرار يتهم السلطة الفلسطينية بالتمييز في تعاملها مع المسيحيين ومضايقتهم. وتدعي إيباك على موقعها الإلكتروني بأن مشروع القانون يتطرق إلى «التدمير المنهجي» للمجتمع المسيحي الفلسطيني من قبل السلطة الفلسطينية.

ومن ضمن المشاركين في وضع هذا القرار، نذكر روس-ليتنان، وبيركلي، وبينس، وساودر وتانكريدو. ويطلق مشروع القانون اتهامات شرسة لا أساس لها من الصحة ضد السلطة الفلسطينية تتمثل في تدنيس المواقع المسيحية المقدسة والإخضاع القسري «للشريعة الإسلامية». كما تتهم السلطة بسجن المسيحيين الفلسطينيين عشوائياً، وهو أمر مخالف تماماً للواقع. فقد أعلن نائب مدير المالية في جامعة بيت لحم عن اعتقاده بوجود سياسة إسرائيلية متعمدة للتخلص من الأقلية المسيحية لأن انزعاجها يسبب إحراجاً سياسياً لإسرائيل أكبر مما تسببه معاناة المسلمين.

في العام ٢٠٠٦، شهد المسيحيون الفلسطينيون أسبوع آلام عصيب؛ حيث أفاد أساتذة في جامعة بيت لحم أن العديد من الكليات أحبطت بسبب رفض الحكومة السماح بإقامة رحلات طلابية إلى بحر الجليل والقدس. وفي أنحاء الضفة الغربية، منع المسيحيون من السفر إلى القدس للاحتفال بأحد الشعانين. وعلى نحو مثير للاهتمام، تلقى كراولي رسالة من منظمة السلام الفلسطينية «بيت لحم المفتوحة». وتشير الرسالة إلى أن مسودة قرار كراولي وضعت من دون استشارة المسيحيين القابعين تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي وهي من شأنها تحويل أنظار الكونغرس عن الخطر الحقيقي الذي يهدد مجتمعنا. وجاء في الرسالة أيضاً بين الأعوام ٢٠٠٠ و٢٠٠٤، هاجرت ٢٥٧ عائلة مسيحية (أي ١٠٪ من السكان المسيحيين) من بيت لحم فحسب. وبالفعل، فإن هذه الهجرة الضخمة تهدد وجود المجتمع المسيحي الذي لطالما صان التقاليد المسيحية المقدسة منذ عصر المسيح. وجاءت هذه الهجرة بشكل أساسي نتيجة الخوف الذي فرضته التوغلات العسكرية الإسرائيلية المتكررة، وتفاقمت جراء التدمير الاقتصادي في بيت لحم بسبب الحصار الإسرائيلي المفروض على المدينة.

ولعل الجدار الفاصل الذي أقامته إسرائيل يرمز بشكل كبير للقدر الذي يتشاركه الفلسطينيون المسلمون والمسيحيون. ويتألف جدار بيت لحم الذي يحيط بالمدينة من ألواح من الباطون يبلغ ارتفاعها ٢٥ قدماً وهو مزود بأبراج للقناصين ومواقع للمشاة للتحكم عن بعد. فقد

تم تشييده على أرض يملكها الفلسطينيون ما أدى إلى خسارة معظم الأراضي الزراعية الخصبة والمزدهرة اقتصادياً في بيت لحم، بالإضافة إلى معالمنا التاريخية العظيمة. كما أنه فصل مدينتنا عن القدس، المدينة التي أقمنا معها على مر التاريخ علاقات اجتماعية وتجارية وعلاقات قرابة متكاملة. بالإضافة إلى ذلك، فقد أصاب هذا الجدار، الأبرشية المسيحية الوحيدة، بشظايا، مهدداً بذلك المجتمعين المسيحيين التابعين لكلا المدينتين. حينئذ، دعت لجنة بيت لحم المفتوحة، الكونغرس إلى زيارتها ورؤية ما يجري بأنفسهم. إلا أن إيباك رأت أن زيارة كهذه مستبعدة. وقد كانت ردة فعل السيد عفيف صافية، قائد بعثة منظمة التحرير الفلسطينية إلى واشنطن واضحة؛ إذ عبرت عن آراء العديد من أعضاء الكونغرس كما يلي:

«العالم يعرف من يضطهد مسيحيي الأرض المقدسة. فقد بدأ هذا الاضطهاد بالتطهير العرقي الذي شهده الفلسطينيون من قبل الإسرائيليين في العام ١٩٤٨ في مناطق كحيفا ويافا وليدا والرملة وغرب القدس. العالم يعرف من يبني جدار العار، جدار الفصل الذي شوه جنوب القدس ليقطع الاتصال مع المناطق المجاورة لها وينتهك كنيسة بيت لحم حيث ولد المسيح، ما يؤدي إلى خنق المجتمع وشل الاقتصاد. العالم يعرف من يبني المستوطنات غير الشرعية بسرعة جنونية على الأرض المسلوبة، كمستوطنة جيلو القائمة على أرض مدينة بيت جالا المسيحية المصادرة، ومستوطنة حار حوما القائمة على أرض مدينة بيت ساحور المسيحية المصادرة، وغيره».

إن أعضاء الكونغرس الذين يبررون بانسجام فيما بينهم دعم الكونغرس لإسرائيل ومدها بالسلاح من دون النظر بجدية إلى نتيجة هذا العمل على المصالح الوطنية الأميركية، يتقاسمون ميزتين:

الميزة الأولى: هي أنهم غير مطلعين على مثل هذه المسائل الأساسية ككيفية تجريد الفلسطينيين من أرضهم ومنازلهم وثقافتهم، بل ويجردونهم من هويتهم أيضا. وإنهم لا يعرفون الكثير حول لبنان والعدوان الإسرائيلي ضده.

والميزة الثانية: هي أن هذه المجموعة من أعضاء الكونغرس التي غالبا ما تلبي الأوامر دون تفكير، تبرر دعمها لإسرائيل وتزويدها بالسلاح؛ لأن «إسرائيل هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط»، وهذا ما يعبر عنه باستمرار قائد الأكثرية الديمقراطية الجديدة في مجلس النواب، ستيني هوير (الديمقراطي التابع لولاية ماريلاند)، أمام أكثر من ٢٠ لوبي إسرائيلي يخاطبهم سنوياً. والأمر الذي لن تسمعه البتة من الكونغرس، هو أن إسرائيل ليست أقل ديمقراطية من لبنان وتركيا فحسب، بل إنها أقل ديمقراطية من فلسطين، سيما أن ديمقراطيتها تطبق على اليهود وتغفل الفلسطينيين (الذين يعيش نصفهم بين الأردن والمنطقة المحيطة بالبحر المتوسط)، فلا تُطبّق عليهم القوانين، وتحرمهم من الحرية الدينية ومن أبسط حقوقهم

كتلقي العلم والحصول على المياه وامتلاك منزل. يتلقى اليهود فقط كامل حقوقهم من الديمقراطية الإسرائيلية.

لا يتناغم مفهوم الدولة «الديمقراطية» مع العيش في ظل نظام عسكري قاهر. فالديمقراطية تعني أن يتمتع الجميع بقدر متساو من الحرية والحقوق. إلا أن هذا الأمر مخالف للواقع في إسرائيل بالنسبة إلى العرب، والعمال الأجانب، وغير اليهود. فالخدمات الاجتماعية، وتأمين السكن، والوظائف، وإصلاحات البنية التحتية، والحق في تلقي التعليم كلها موجهة لخدمة المناطق اليهودية كالقدس الغربية، وتل أبيب وذلك على حساب المناطق العربية كالناصرة.

وقال الرئيس السابق جيمي كارتر، خلال مناقشات حول كتابه المذكور آنفاً: «ثمة نظام تمييز عنصري (آبارتايد) في فلسطين حيث يحتل شعبان الأرض ذاتها، ولكن بشكل منفصل عن بعضهما البعض. فالإسرائيليون يسيطرون بشكل كامل ويمارسون العنف، ويحرمون الفلسطينيين من أبسط حقوقهم الإنسانية. ومع هذه السياسة المتبعة يصنف الفلسطينيون دوماً في الدرجة الثانية». وينقل كارتر عن أحد الإسرائيليين البارزين قوله: «أخشى أننا متجهون نحو حكومة شبيهة بتلك القائمة في جنوب إفريقيا، يتواجد فيها مجتمع مزدوج من الحكام اليهود والعرب الخاضعين لهم الذين يتمتعون بحقوق بسيطة».

معظم الأعضاء يفتقر إلى الشروحات المقبولة التي تفسر الابتهال للجرائم الإسرائيلية بسلاح أميركي وتقديمه مصالح إسرائيل على مصالح أميركا. وقد ساهم نجاح عملهم في منع تفحص الكونغرس لتورط أميركا مع إسرائيل واستخدام الأخيرة للأسلحة الأميركية ضد لبنان وفلسطين والشرق الأوسط. إلا أن هذا النقاش تمت الدعوة إليه من قبل كارتر وتشومسكي وميرشايمر ووالت وكثر غيرهم.

أدت الانتخابات العاشرة بعد المئة للكونغرس التي جرت في السابع من تشرين الثاني ٢٠٠٦ إلى تعزيز سيطرة اللوبي الإسرائيلي على الكونغرس بانتخاب ٢٩ عضواً يهودياً في مجلس النواب و١٤ عضواً يهودياً في مجلس الشيوخ، وهي المرة الأولى التي يسجل فيها اليهود هذه النسبة.

نظراً للسيطرة الصهيونية الواسعة على الفرع الأساسي في الحكومة الأميركية التي تم ذكرها آنفاً، ينبغي القول: إن أداء إسرائيل المتواضع خلال حرب تموز إلى برنامج إيباك/إسرائيل للكونغرس:

حتى قبل أن يؤدي أعضاء الكونغرس الجدد اليمين في الرابع من كانون الثاني٢٠٠٧، أبدت إيباك استعدادها لمنحهم دعوات لزيارة إسرائيل بصحبة عائلاتهم وتوجيه خطاهم. أما الأمور التي تتوقع إيباك من جميع أعضاء الكونغرس تنفيذها في الأشهر القادمة لدعم الأجندة الأساسية التالية لإيباك:

- تزويد إسرائيل في بداية العام ٢٠٠٧ بعتاد جديد بديل عن الذي خسرته في حرب تموز.

- الاستعداد لسن قانون جديد لتخصيص الأموال الضرورية التي تقدر بـ٢٠ مليار دولار أميركي، لاستبدال السلاح الجوي الإسرائيلي القديم بآخر حديث ومتطور.

- شحن ٥٠٠ قنبلة أميركية من نوع بانكر باستر بلو ١٠٩ الخارقة للتحصينات التحت أرضية إلى إسرائيل، وكميات إضافية من القنابل الخارقة للتحصينات من نوع جي بي يو ٢٨، و١٠٢ طائرة أف ١٦١ تم طلبها في العام ٢٠٠٤، و٢٠٠٠ قنبلة موجهة باللايزر، وصاروخ، وكميات من صواريخ الجو أرض من طراز آم-٥١ وغيرها من الأسلحة الثقيلة.

- مواجهة سوريا وإيران بشتى الوسائل المتوفرة، بما في ذلك المبادرات التشريعية من أجل احتواء المقاومة اللبنانية وتعطيل تأثيرها الإقليمي بعد انتصارها في حرب تموز.

- تهيئة الرأي العام الأميركي لضوء أخضر ستعطيه إدارة بوش لإسرائيل من أجل استخدام الأسلحة النووية التكتيكية ضد إيران، والترويج لفكرة أن الصواريخ الأميركية آم-٨٢ ذات الرؤوس النووية تخترق أكثر من ٧٠ قدماً من الباطون من دون امتداد إشعاعاته خارج الهدف. ويبدو أن إسرائيل تعد لهجوم نووي. وبحسب ما أعلنته العضو في الكونغرس ستيني هوير (ديمقراطية عن ولاية ماري لاند) في السابع من كانون الثاني ٢٠٠٧، فإن الكونغرس سوف يدعم قيام إسرائيل بهجوم نووي إذا ما فشلت الخيارات الأخرى. وتحث إيباك الكونغرس على التعبير عن دعمه لإسرائيل لكونها راغبة بتقديم خدمة للشعب الأميركي من خلال التخلص من التهديد النووي الإيراني.

- دعم حملة عالمية لضمان تجريد حزب الله من سلاحه، والحصول على ملايين التواقيع التي تطلب من حماس وحزب الله إطلاق سراح الجنود الإسرائيليين الثلاثة المختطفين.

- تطوير حملة إعلامية عامة في جميع الولايات وتمرير الحجة التالية للناخبين في دوائرهم: أصدر مجلس الأمن في الأمم المتحدة قراراً في شهر آب يدعو إلى وقف الأعمال العدائية في لبنان ويعيد التأكيد على قرارات سابقة تقضي بنزع سلاح حزب الله وحله. وإن قرار الأمم المتحدة رقم ١٧٠١ يمكنه فقط تقليص تهديد حزب الله لإسرائيل وتعزيز الاستقرار في لبنان إذا ما تم تطبيق أحكامه بالكامل. ويلعب الكونغرس في الولايات المتحدة دوراً حيوياً في ضمان تطبيق البنود الحساسة في القرار.

- يجدر بالكونغرس حث قوات اليونيفيل على اتخاذ كافة الإجراءات المناسبة بالتعاون مع الجيش اللبناني لمنع سوريا وإيران من إعادة تزويد حزب الله بالسلاح.

- يجدر بالكونغرس الضغط على اليونيفيل لقطع الطريق أمام تهريب الأسلحة على طول الحدود مع سوريا وإبقاء مسألة نزع سلاح حزب الله بقدر المستطاع شأنا عاماً.

- ينبغي على الكونغرس تذكير الشعب بأن إسرائيل تطبق واجباتها وفقاً للقرار١٧٠١، وان القرار ١٥٥٩ الصادر عن مجلس الأمن في أيلول ٢٠٠٤ يقضي بنزع سلاح حزب الله.

- يجب على أعضاء الكونغرس التشديد في الإعلام وفي ولاياتهم على أن القوات الإسرائيلية، قد انسحبت بالكامل من كافة الأراضي التي سيطرت عليها خلال الحرب وأنها رفعت حصارها الجوي والبحري عن لبنان، بعد أن تولت القوات الدولية المسؤولية عن حزب الله.

من شأن هذه الاجراءات تهيئة الرأي العام الأميركي والكونغرس إلى إمكانية شن هجوم جوي من قبل إسرائيل على إيران قبل نهاية العام ٢٠٠٧. ويعمل اللوبي الإسرائيلي الأميركي على منع تسليح تلك القوة اللبنانية من جديد خوفاً من شن أي هجوم بالصواريخ على أراضيها، ما إن تقوم هذه الأخيرة بتوجيه ضربة إلى إيران. وتتوقع مصادر في الكونغرس أن يقوم سلاح الجو الإسرائيلي بالهجوم على إيران وسوريا والمقاومة اللبنانية ما إن تتسلم الأسلحة الموعودة بها.

باختصار، من شأن انتصار المقاومة اللبنانية في العام ٢٠٠٦ التي قادها حزب الله إلى بذل الكونغرس جهوداً أكبر لدعم الأهداف الإسرائيلية على المستويين المادي والسياسي. وفي هذا الإطار، سيتجاهل أعضاء الكونغرس مصالح ناخبيهم ووطنهم المادية على المدى البعيد عند استهدافهم حزب الله، وسوريا وايران.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أن تحليلات الرأي العام الحالية تظهر أن الهوة بين السياسة الأميركية والرأي العام الأميركي ستتسع أكثر فأكثر؛ إذ إن هذا الأخير بصدد تغيير وجهة نظره إزاء الشرق الأوسط، ودعم التفاوض والارتباط الديبلوماسي مع تلك الدول التي يستهدفها اللوبي الإسرائيلي الأميركي حالياً.

هــل خســرت المقــاومــة الحــرب أم ربــحت؟

المفكـر والمنـاضل الفلسطيـني
عزمـي بشــارة

نص محاضرة ألقيت في بيروت نظّمها المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق.

في هذه المحاضرة ألقي الضوء على الزاوية والجهة الأخرى من المتراس، وستكون الإشكالية حول نقاش مصطنع مفاده:

هل خسرت المقاومة الحرب أم ربحت؟

المقاومة لم تخرج للحرب، هذه النقطة تُغيَّب وتُنسَى حتى في حادثة اليوم الأول، التي تُطرح في إسرائيل بشكل مختلف تماماً عمَّا تُصَوَّرُ عربياً. إن حزب الله خرج وقتل ثلاثة جنود على حين غرّة، وفي إسرائيل تُطرح الأمور على أنها المرة الثالثة أو الرابعة لاختطاف الجنود خلال عام، وأنَّ المقاومة أقدمت هذه المرّة على نفس الفعل، وأن الجنود الخمسة قتلوا أثناء عمليّة للمقاومة داخل الحدود اللبنانيّة، عندما صعدت إحدى المدرّعات على لغم شديد الإنفجار.

إنَّ غالبيّة الرأي العام الإسرائيلي في إحصائيّة هذا الأسبوع ترى أن الحرب لم تحقّق أهدافها، وأنه كان بالإمكان تحرير الجنود المخطوفين دون الخروج إلى الحرب.

من الواضح للطرف الإسرائيلي أن هذه العمليّة يمكن تسميتها (بالمناوشة الحدوديّة) أو (حدث حدودي)، ومن ناحيتنا (عمليّة مقاومة) وليست حرباً، وأن الحكومة في جلستها المسائيّة في نفس اليوم بالحرف «قررت اعتبار هذه العمليّة سبباً للحرب». هم سمّوه «الخروج إلى حملة عسكريّة». ولكن الذين أخذوا القرار قرّروا أن يعتبروها سبباً، وكان بالإمكان ألاَّ يعتبروها سبباً للحرب. هذه المقدّمات مفقودة من الخطاب العربي حالياً، إذا كانت المقاومة قد ربحت أو خسرت الحرب؛ كأنّ المقاومة قررت الحرب أو أنها وضعت لها أساس، ويجب الآن أن تُقنِع الآخرين بأنها ربحت. ما جرى هو أقل من بديهي حتى في (البيولوجيا) وليس في (السياسة)،إن الكائنات الحيّة تدافع عن نفسها،وإنَّ ما جرى هو حالة دفاع عن النفس إزاء قرار حكومة للخروج للحرب، وبالتالي فشل المعتدي هو انتصار لمن دافع عن نفسه. بهذا المعنى يفهم الانتصار. ولكن

تصوير الأمور بهذا الشكل أو المناقشة أو بدء أي نقاش بهذا الشكل بهدف ربحت أم خسرت ليس مهماً، وإذا كنت ربحت فقد دفعت ثمناً غالياً لإنتصارك. دعونا نترك هذا الكلام وهذا السجال. حسناً، انتصرت، وها نحن نُخلِي لك الساحة بأنَّك انتصرت، ولكن ثمن هذا الانتصار كبير. انظر ماذا يحدث، إن اعترف لك بالانتصار أو بالهزيمة، هو يقصد أن يقول أنك خرجت لحربٍ ضد إسرائيل، وهذا افتراء، ولا يجوز الدخول في هذا النقاش أصلاً، لأن ما حصل هو عدوان على لبنان، وقد واجهت هذا العدوان مقاومة بطوليّة يجب أن تفرح الأمّة بها؛ هكذا تقاس الأمور. وليس إذا ما قلنا، وأن ندخل في نقاش؛ وأنا أستطيع الآن أن أُتحفكم بالأرقام، لأننا قد حفظناها عن ظهر قلب؛ في تلك الأيام، خسر الاقتصاد الإسرائيلي خسر ثلاثة وعشرين مليار تشيكل بتقديراتهم المتواضعة، فما الفائدة من قول هذا؟! لأنهم سيُقال نحن خسرنا كذا وكذا أثناء الحرب، ما دام يحمّلك المسؤوليّة لن تستفيد، إسرائيل خسرت ٢٣ مليار تشيكل في هذه الحرب، و٧ مليارات منها خسائر مباشرة، واحد ونصف بالمئة من مجمل الدخل القومي، والانخفاض في النمو كان مُتوقّعاً، ١٦٣ إسرائيلي قُتلوا منهم ٢٣ مدني والباقي جنود. بماذا يُفيد هذا الكلام؟

إذ كان المستمع يريد أن يُثبِتَ أنَّكَ وَرَّطت لبنان في الحرب. ما الفائدة أيضاً في إجراء المقارنات التي يجريها الساسة الغربيّون لأوّل مرّة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي في الموازنة بين عدد المدنيين والمقاتلين في الصف الإسرائيلي، وعدد المدنيين في الصف الآخر والمقاتلين؟ غالبيّة القتلى الإسرائيليين الساحقة من الجنود، ويكاد لا يُذكر عدد المقاتلين اللبنانيين أمام عدد المدنيين الذين قتلوا بالطائرات. وأنا أستميحكم عذراً لأقول أنه أيضاً من المقاتلين عدد كبير قتل في القصف وليس في القتال. وفي المواجهة بين المقاومة والإسرائيليين قُتل فقط ٢٠ إلى٣٠ من مقاتلي المقاومة، والباقي كلهم قتلوا بقصف وليس بقتال، وهذا أمر هام جدّاً حول تملّك العرب في القتال. في حين أن إشكنازي يصارع بعد تعيينه لاستعادة مهارة الجندي الإسرائيلي وعدم الاعتماد على التكنولوجيا وسوف آتي على هذه المسألة. لأوّل مرّة، وليس لأن المقاومة خرجت للحرب، بل لأن المعتدي المقاتل الإسرائيلي ليس أمامه إلا المقاومة التي فيها العنصر الإنساني المتفوّق على العنصر المتسلّح الإسرائيلي، من ناحية المهارة والتدريب، ناهيك عن الشجاعة والعزيمة والإصرار، وكل هذه الأمور التي لا يتم التطرّق إليها الآن. وما حدث في الجانب الإسرائيلي، هذه الولولة، حصلت في صفوف الجيش وسجّلتها المقاومة على اتّصالاتها الهاتفيّة مع أهاليهم ومع بيوتهم، وهذا النقص في الإمدادات والمؤن، وهذه الفوضى في نقل الجنود، كل ما يسمّى بلغة العسكريين بالإعدادات أو الإمداد اللوجستي، كل هذه ليست جديدة. أنا متأكد ولا أريد أن أتعبكم بالمعلومات والأرقام، أن الوضع كان أسوأ من الخمسينات والستينات من ناحية اللوجستيّة، ولكن قدرة الإنسان على التحمّل عندهم كانت أعظم ولم يولولوا في بيوتهم في الهواتف الخلوية؛ كان هناك المستوطن الإسرائيلي صاحب

المشروع، هناك انقلب فجأة إلى صاحب المشروع هنا، والمجتمع الاستهلاكي هناك. هذه القضايا مهمّة يجب أن نعود إليها في النقاش. ليس لأنّ المجتمع الإسرائيلي انحلّ أو لم يعد هناك وسائل نقل أو انقطع عنهم الأكل، لا بل إن العنصر الإنساني انهار، المعنويات والقدرة على التحمل انهارت، والإيمان بالقضيّة. أعتقد أنها أحد العناصر الرئيسية في الصراع العربي الإسرائيلي. الآن قلت، هذا نقاش ناتج عن تطوّر حصل لأول مرّة في المجتمعات العربية - برأيي- وهو أن فئات وقوة معيّنة كانت مستعدة أن تجاهر بإخضاع الصراع مع إسرائيل للصراعات الداخليّة وليس العكس، وهذا النقاش هو إفرازات هذه الحالة الجديدة. هنالك قوى عربية مستعدّة أن تجاهر، وكانت تمارس ذلك خفية ربما؛ والآن، نعرف أنها مستعدة أن تجاهر بإخضاع الصراع مع إسرائيل للصراعات العربية؛ هذا موقف وليس بتحليل. لا تستطيع أن تقنع صاحب مثل هذا الموقف، ولو أتيت له بكل أرقام الدنيا، لأنه إذا اعتبر أنّ المقاومة ربحت وهو اعتبر نفسه في الرهان على أنّ المقاومة ستخسر، إذن، هو خسر. مشكلته هو أين موقعه وكيف يُمَوْضِعُ نفسه..

في الجانب الآخر هم منهمكون في عمليّة بناء الأمة، فإنهم لا يُخضعون النتائج لنقاشاتهم الداخليّة إلا القلّة المنحلّة تماماً. وآليات الصراع مع الخصم تتطلّب الاعتراف بالفشل لكي يصلحُوا أنفسهم. هذه هي عمليّة بناء الأمة، معرفة إعطاء الهويّة لقضيّة بناء المشروع الذاتي، وأنه إذا كشفت هذه الحرب عن فشل، يجب الاعتراف به وإصلاحه وليس حبّاً بنا. لذلك لم يعترفوا بأنّ سبب الفشل من زاويتنا يكمن في الفشل الأخلاقي.

وللأسف، حتى القمّة العربية التي عُقِدَتْ، وبين القمّتين حصلت حرب ارتُكِبَتْ فيها جرائم- يجتمع بعضهم مع مجرمي الحرب هؤلاء فلم تتحدّث القمة عن تلك الحرب كما يجب أن تتحدّث عن هذا الجانب، والجريمة التي وقعت لا يوجد لها تأثير ولا أساس لها، لا في قواعد القتال ولا بالتهج المغامر. كيف تمّ وبشكل منهجي القصف العشوائي على مدرسة في أفغانستان وتستطيع أمريكا أن تدّعي أنها من الأخطاء، وأن الفرق بيننا وبين هؤلاء الإرهابيين أنّهم يستهدفون المدنيين في حين في حالتنا يسقط المدنيين خطأً ونحن نستهدف المخرّبين أو الإرهابيين. إسرائيل حتّى لم تحاول أن تدّعي ذلك، كان هنالك اصطلاح إسرائيلي مفهومي من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار أنّ هناك قطاعاً من المجتمع اللبناني يجب أن يدفع الثمن من جنوب لبنان إلى البقاع وبشكل منهجي. ومن ناقش ذلك جاء بالدلائل ودحض. فكيف بالإمكان أن نغرق في نقاش من بدأ ومن لم يبدأ، وقد أعلن الإسرائيليون أن هناك قطاعاً من شعب لبنان يمتد من الجنوب إلى البقاع يجب أن يدفع الثمن، هذا يفهم أن هناك ثمن لدعم المقاومة، والجزء الثاني يفهم ماذا سيكون الثمن لو دعم المقاومة، هذا الأمر أُعلن وبشكل علني. لم تجرِ في إسرائيل الأحاديث حول هذه المواضيع، والديمقراطية الإسرائيلية لا تمسّ، لذلك حتّى من لنفعل لتقرير لجنة فينوغراد بما فيها قادة المقاومة الأعزّاء الذين نجلّهم ونحترمهم، بسبب أن هؤلاء اعترفوا

بالفشل، يجب أن ينظروا جيّداً بماذا تناقش إسرائيل، وعن أي فشل تتحدّث إسرائيل. هي لم تتحدّث عن الفشل الأخلاقي، هذا خارج النقاش. ولو قصفوا كل لبنان، ولو كان هناك إنجاز سياسي فهو مبرّر. لو عادوا بنصر لَمَا حاسبهم أحد، ولما قامت لجنة فينوغراد. هم يكتبون التاريخ، بما في ذلك تاريخنا، هم لم يُناقشوا في نقطة واحدة فقط، إذا كان خطف الجنود هو سبب كافٍ للخروج إلى الحرب. وإنما عن أسباب الفشل في التخطيط للحرب والخروج للحرب، وطبعاً هنالك شخص واحد اعتبر أنّ الخروج للحرب كان قراراً صحيحاً وهو إيهود أولمرت فقط، وقد صرّح بذلك. لأنه لو كان قرار الخروج للحرب خطأً يجب أن يستقيل، لأنه هو صاحب القرار.

بعض المعلومات، باعتبار كل هذه المتغيّرات في إسرائيل في الأداء القتالي بالنسبة للعرب، تشير إلى أنّ ما أحرجهم وجعلهم ينتقلون من مغامرة إلى زيارة، فيها بعض المغامرة هو أمرين، حجم الجريمة الإسرائيلية، وبسالة المقاومة. هذان الأمران معاً حقّقَا هذا التراجع. لكن في إسرائيل عامل واحد فقط وليس حجم الجريمة، هو السبب، وهو بسالة المقاومة.

بدأت الحرب بتأييد ٨٠٪ في كافة إستطلاعات الرأي العام في قرار الخروج للحرب، لا يسار ولا يمين بل ٨٠، طبعاً ليس قبل الخروج إلى الحرب، بل بعد الخروج إلى الحرب، من يتحمّل المسؤوليّة هو من اتّخذ القرار؛ ولكن حالما اتّخذ القرار أيّده ٨٠٪، وكعادة اليسار الصهيوني يحاول توسيع الحروب فدعا لتشمل سوريا، وما حدث في مارون الرأس والتآكل في بنت جبيل أنا أتوقّف عند مكان واحد سقط فيه الدعم للحرب إلى ٥٠٪ دفعة واحدة هو اليوم السادس من آب عندما قُتل ١٢ جندياً صهيونياً في القصف من كفركلا، ومعهم ثلاثة مواطنين. هذا ما أثّر على الرأي العام، واستمرُّوا بالتآكل وأنهوا الحرب في ١٩ آب بأربعين بالمئة دعم وللحكومة ١٧٪.

هل خسارتهم ما زالت مستمرّة؟ لا تعنيني صراحة. وأسخف الاستنتاجات والنقاشات في إسرائيل هو أنّه كان يجب البدء بمعركة بريّة أو أن ينهوا الحرب بمعركة بريّة، وكان بعض الأخوة العرب في إحدى الفضائيات، وهو أمر يثير للدعاية والتسلية كيف ننجرّ وراء نقاشاتهم، أولاً أحد أهم استنتاجات الحرب بالنسبة إلى عربي ديمقراطي مثقف أنه لا شيء إسمه ديمقراطيّة وحريّة رأي في إسرائيل، ولست أنا فقط الدليل على ذلك، لأنهم أجبروني وهددوني.. وإنما ما جرى في الحرب هو أنّه لم يكن هناك أي رأي آخر حرّ إطلاقاً طيلة فترة الحرب، وحتّى بعدها. هناك رأي واحد على الساحة هو أن نقصف أكثر أو نقصف أقل، أو نحوّل هذه المنطقة إلى صندوق رمل أم لا، أو نجعلها خراباً، هذا ليس كلاماً منطقياً ولا يوجد أي أحد يتكلّم بهذه الطريقة، حتّى أميركا لا تتحدّث عن حربها في العراق بهذه الطريقة. ومع ذلك، فكل معلّق إسرائيلي صغير يتحوّل إلى مستشار فنّي عسكري أنه كان يجب أن ندخل القوات البريّة قبل أو بعد، وهذا النقاش يجعل إخواننا في المقاومة يضحكون لأنهم لو أخطأوا ودخلوا قبل، كانت الحرب اتّخذت مساراً أفضل. التعويل على نقاشات في المجتمع الإسرائيلي هو ديمقراطيّة، وغير ديمقراطيّة في زمن الحروب،

باعتقادي هناك خطأ كبير بهذا الشكل. وقد ثبت في الحرب أن ما تؤلّفه وتعرّفه النخبة لديهم من سببٍ كافٍ للحرب، بإمكانه أن يعود بانتصار يؤدي إلى تحويل في نفقات التّجييش أو التحويل العنصري أو التعبئة، ووسائل الإعلام المفترض أنها مكان للكلام عن الديمقراطية، تصبح مكاناً للتعبئة.

الآن، وحول إسقاطات الحرب التي أعتبرها هامّة من منظوري، والآن لا أتحدّث عن إسقاطات عن المجتمع العربي، بل عن الإسرائيليين، عن المجتمع العربي لديّ الكثير لأقوله وكتبته أثناء الحرب وبعدها بالنسبة لنموذج المقاومة التي قدمت في لبنان وما يمكن الاستفادة منه عربياً خاصةً لدى التيارات اليساريّة والقوميّة التي لم تكن جزءاً مباشراً في هذه المرّة، لأسباب عديدة وتاريخيّة، ولكنّها وقفت إلى نفس الجهة من المتراس مع المقاومة ضدّ إسرائيل وضدّ استثمار العدوان الإسرائيلي لحسم صراعات داخليّة.

من زاويتنا، كتبت هذا في كتاب «من يهوديّة الدولة وحتّى شارون» وهذا الكلام الوحيد الذي لم يصدر في لبنان بل صدر في القاهرة، أنّ من وضع الرؤية الأمنيّة السياسيّة هو ليس ضابطاً، ولا عسكرياً، إنه بن غوريون الذي لم يقاتل ولم يكن عسكرياً، ولكنه مؤسسها وفيما عدا رغبته في التفوّق التكنولوجي وكان من الأيام الأولى يسعى أن تكون الولايات المتّحدة مختلفة مع النخبة الصهيونيّة بشأن آوروبا والولايات المتّحدة، أفشلت ولم تعتبر المشروع الصهيوني رهاناً حقيقياً وجدّياً حتى عام ١٩٦٧، لأن القضايا الأكثر تحديداً غير المتعلّقة بالتحالفات والتفوّق العسكري والتكنولوجي والنوعي، والمقاتل وما يتعلّق بعمليّة بناء الأمّة، ودور الجيش الأيديولوجي في عمليّة صهر الشتات وبناء الأمة؛ وأنا باعتقادي أن هذه النظريات أثبتت فعاليّتها فيما يتعلّق بصهر الشتات وما نسمّيه بعمليّة بناء الأمّة والوظيفة الإيديولوجيّة للجيش، لأنه في العقيدة الأمنيّة بشكل عيني جداً أنه في حال نشبت حرب، طبعاً لديه تمييز بين الأمن الجاري اليومي وحراسة الحدود وبين الأمن الجوهري المتعلّق بوجود الدولة، كان يمكن وأستطيع التدليل على هذا بمقالات إن كان هنالك وقت إعتبار حادثة الحدود أمن جارٍ بمعنى أن لديهم خطّة في حالة خطف جنود فماذا أفعل؟، تقطع الحدود خلال ساعة أو ساعتين ويجري القصف. وهذا كان الساعة الحادية عشرة وكان الخطف قد حدث الساعة التاسعة. التحوّل من أمن جارٍ إلى حرب صار قراراً ١١ باقتراح من أولمرت.

في حالة الحرب يقول بن غوريون حرفياً:«نحن دولة صغيرة ولا نستطيع أن نحارب حروباً طويلة، ولا نستطيع أن نسمح أن تدخل جيوش غازية إلى أرضنا ولا لدقائق، لأن اجتياح أرضنا عرض ١٠كلم هذا أمر خطير، ولذلك يجب أن لا يبدأ الاجتياح، ولا نستطيع الخوض في حروب كبيرة». فالعقيدة هي تصدير المعركة إلى أرض العدو إذا بدأ بها العدوّ طوعاً. الخروج إلى هجوم مضاد أو عدم السماح للعدوّ أصلاً البدء فيها، وضربة استباقيّة، المهم تصدير الحرب إلى أرض

الخصم. ولا نستطيع أن نحافظ على الجبهة، والاقتصاد معبّأ لفترات طويلة، الجيش الاحتياطي يستهلك كل القوى العاملة، ولذلك يجب أن تكون الحرب قصيرة وخاطفة. ما حصل في هذه الحرب، وهو نموذج يمكن أن يعمّم عن المقاومة، أنّ الدواء هو اللجوء إلى قوات يونيفيل إسرائيلية بتنفيذ قرار ١٥٥٩ لا يدخل فيه سلاح الجو ولا يخسر معارك من هذا الشكل. أنا باعتقادي هم أمام معضلات، وهذه المعضلة لا حلّ لها. هذا الوضع أقترح على الجميع درسه، ولا يمكن لا الاعتراف به، ولا دراسته، إلاّ إذا تنقّت الناس وطهّرت نفسها من حواجز الطائفيّة، واعتبار هذا كنزاً للأمة وذخراً لها يجب دراسته. الكثير من المثقّفين العرب باتوا يتحدّثون بالعلمانيّة ونسوا أو تناسوا الديمقراطيّة. إن الدنيا تقسم إلى علمانيّة وأصوليّة، فضاعت الديمقراطيّة، وبالتالي عادوا إلى علمانيين في نقاشاتهم، وزعماء العرب كلّهم علمانيون، وأنا أتوقّع ازدهار هذا النقاش هذه السنة، هكذا أرى النوايا وأرى التلميحات في الصحافة وغيرها.

لديّ رأي في هذا، لكن لديّ رأي أيضاً يغني النقاش؛ عندما تريد أن تبني إسرائيل هناك دوافع عند جنودها. أولا، أنا قرأت في كتاب مبكّر لإخواننا في مركز الدراسات الوحدة العربيّة وقراءة بالنتائج الإسرائيليّة أتعبت نفسي وأخرجت سجل ١٦٣ جندياً إسرائيلياً وكل واحد منهم من أين؛ فوجدت منهم ٢ من تل أبيب، تعمّقت أكثر ووجدت من مستوطنة صغيرة مثل عفرة ثلاثة وهي لا تحوي ٥٠٠ مستوطن، إذن في الوحدات القتاليّة الأماميّة هم من المستوطنات الأماميّة بينما أهل تل أبيب الكبار منها (٢). عندما يتحدّثون عن بناء الدوافع وبناء الإنسان وبناء الجندي العبري سمّوها بالثورة العبريّة؛ كلّهم علمانيون هؤلاء من قاتلوا وحملوا السلاح علمانيون وليس على بالهم، وأتصوّر أن الخصم العربي يعلم في ١٩٦٨ أنهم قاتلوا جيّداً وكانت الدوافع غير علمانيّة. إذن، تحتاج إلى مشروعاً يُعطي للناس دوافع، وهذا المشروع لا يسير على الحنين والماضي ونحن كنّا، مشروع عدالة ومساواة وإشتراكيّة، مشروع تؤمن به الناس، وليس بالضرورة أن يكون مشروعاً دينياً أنا رافض للحديث أن المقاومة علمانيّة، فهذا غير صحيح. هذا الأمر نتيجة الأزمة من المشاريع الأخرى. لكن ليس بالضرورة أن تكون المقاومة مختصّة بدين معيّن. وكل ما يقال أن المقاومة ضد إسرائيل هي مسألة أصوليّة، وأن العلمانيّة اليوم تعني أن أكون اليوم مع القوي، مع أميركا وإسرائيل ومع الاستعمار، لا، فهذا غير صحيح! وإسرائيل تفهم هذا الأمر جيّداً، وخاصّةً عندما يتحدّثون عن إعادة بناء الجندي. لذلك أرى أنهم لن يخرجوا الآن لحرب جديدة، وأنا لا أتوقّع لا سمح الله ولا أتنبّأ بل بناءً على تحليل.

قال أخونا الحاج محمد رعد أنهم لم يبقوا من السلاح ما لم يستخدموه سوى السلاح النووي وأنا أثني على هذا الكلام. إذن، لماذا سيخرجون إلى حرب جديدة في لبنان بهذه العدّة، ومن قال إنّ إعادة ترميم الجيش الإسرائيلي تكفي للخروج للحرب، وحتّى لو كانت تكفي للخروج للحرب في عُرف بعض السياسيين المعتوهين، فلقد قلّت هيبة الرّدع الإسرائيليّة بعد تمّوز عمّا

كانت قبل تمّوز، ولمّا أوهنوا وتورّطوا تضرّرت هيبة الردع عندهم. من يدعم الآن حرباً في إسرائيل يريد نتائج مختلفة، وهل بالإمكان ضمان نتائج مختلفة؟ هذا عامل غير مضمون ويمكن أن يوسّع الحلقة إلى القوى التي كانت تدعم المقاومة، والتي بدونها لا تستطيع المقاومة على المدى البعيد أن تعيش وغير ذلك من الأمور؛ هذا غير مضمون وبحدّ ذاته قد يكون عاملاً رادعاً عن الخروج إلا إذا كان هنالك مرّة أخرى قرار أميركي بإنهاء الحسابات من جبهة أخرى، فهذا قد يُعطي الضوء لحرب أخرى. أمّا إسرائيل فتقرّر الآن أن تخرج للحرب على لبنان لضرب المقاومة أو لاستئصالها أو لتحقيق نتائج سياسيّة في داخل لبنان! ومن حقّ البعض أن يتساءل عن توقيت تلك الحرب وعلاقته بما يجري، وأنا لا أريد الدخول في هذا فيكفيني ألم في رأسي. لكن مجرّد التفكير في هذا في إسرائيل،يعني أنّها لا تستطيع أن تتدخّل في السياسة اللبنانيّة، ولا تستطيع أن تقرر الخروج للحرب ضدّ لبنان وحدها، وتضطر أن تأخذ كل العوامل الإقليميّة، حتّى لا يكون لبنان فريسة وحده للحرب فتتورط كل المنطقة؛ يكفي فخراً للمقاومة أن إسرائيل تضطر لهذه الحسابات في هذه الأيام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.